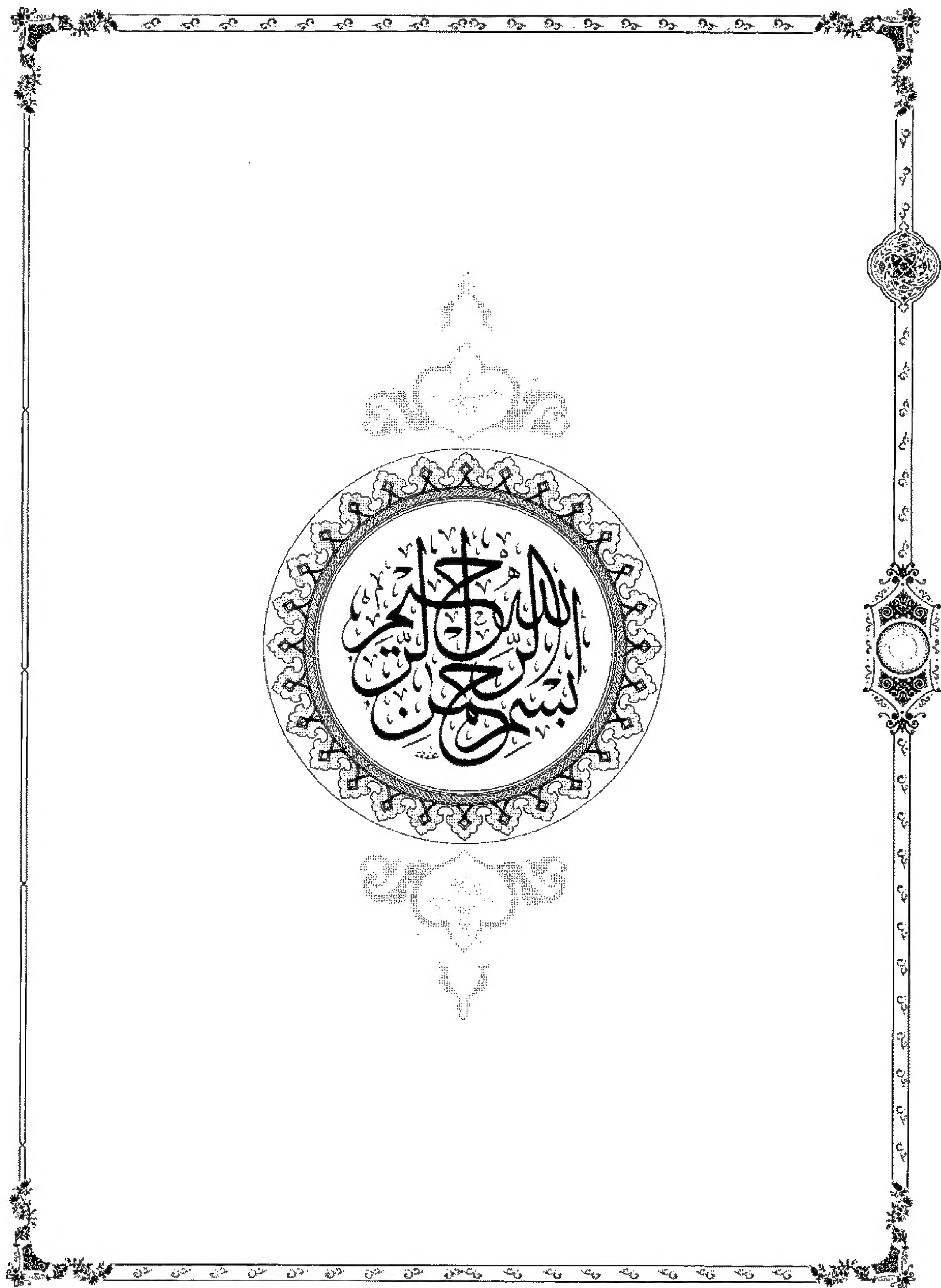
طبعة خاصة

بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي

١١١١ - ٢٠١١م

إحياء علوم الدين


بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف
الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين
زين الدين، أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي
الطوسي الطابراني الشافعي
رضي الله عنه
(٤٥٠ـ٥٠٥هـ) ـ (١٠٥٨ـ١١١١م)

ربع المنجيات / القسم الثاني

كتاب
الفقر والزهد ـ التوحيد والتوكل
المحبة والشوق والأنس والرضا

المجلد الثامن

دار المنهاج

الطَّبعَة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار المنهاج للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - جدة
حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 - فاكس 6320392
ص. ب 22943 - جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ

كتاب
الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب الفقر والزهد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي تسبِّحُ لهُ الرمالُ ، وتسجدُ لهُ الظلالُ ، وتتدكدكُ مِنْ هيبتِهِ الجبالُ ، خلقَ الإنسانَ مِنَ الطينِ اللازبِ والصلصالِ ، وزيَّنَ صورتَهُ بأحسنِ تقويمٍ وأتمِّ اعتدالٍ ، وعصمَ قلبَهُ بنورِ الهدايةِ عنْ وَرَطاتِ الضلالِ ، وأذنَ لهُ في قرعِ بابِ الخدمةِ بالغدوِّ والآصالِ ، ثمَّ كحلَ بصيرةَ المخلصِ في خدمتِهِ بنورِ العبرةِ حتَّىٰ لاحظَ بضيائِهِ حضرةَ الجلالِ ، فلاحَ لهُ مِنَ البهجةِ والبهاءِ والكمالِ ما استقبحَ دونَ مبادي إشراقِهِ كلَّ حسنٍ وجمالٍ ، واستثقلَ كلَّ ما صرفَهُ عنْ مشاهدتِهِ وملازمتِهِ غايةَ الاستثقالِ ، وتمثَّلَ لهُ ظاهرُ الدنيا في صورةِ امرأةٍ جميلةٍ تميسُ وتختالُ ، وانكشفَ لهُ باطنُها عنْ عجوزٍ شوهاءَ عُجنَتْ مِنْ طينةِ الخزيِ وضُربَتْ في قالَبِ النكالِ ، وهيَ متلفعةٌ بجلبابِها لتخفيَ قبائحَ أسرارِها بلطائفِ السحْرِ والاحتيالِ ، وقدْ نصبَتْ حبائلَها في مدارجِ الرجالِ ، فهيَ تقتنصُهُمْ بضروبِ المكرِ والاغتيالِ ، ثمَّ لا تجتزىءُ معَهُمْ بالخُلْفِ في مواعيدِ الوصالِ ، بلْ تقيِّدُهُمْ معَ قطعِ الوصالِ بالسلاسلِ والأغلالِ ، وتبليهِمْ بأنواعِ البلايا والأنكالِ[1] ، فلمَّا انكشفَ للعارفينَ منها

(١) **الأنكال** : جمع نِكْل ، وهو القيد الشديد ، أو جمع نُكلة ، وهي ما نكلت به غيرك كائناً من كان . « إتحاف » (٩/ ٢٦٥) .

قبائحُ الأسرارِ والأفعالِ . . زهدوا فيها زهدَ المبغضِ لها فتركوها وتركوا التفاخرَ والتكاثرَ بالأموالِ ، وأقبلوا بكنْهِ هممِهِمْ علىٰ حضرةِ الجلالِ ، واثقينَ منها بوصالٍ ليسَ دونَهُ انفصالٌ ، ومشاهدةٍ أبديَّةٍ لا يعتريها فناءٌ ولا زوالٌ .

والصلاةُ علىٰ سيدِنا محمدٍ سيِّدِ الأنبياءِ وعلَىٰ آلِهِ خيرِ آلٍ .

أما بعد :

فإنَّ الدنيا عدوَّةٌ للهِ عزَّ وجلَّ ، بغرورِها ضلَّ مَنْ ضلَّ ، وبمكرِها زلَّ مَنْ زلَّ ، فحبُّها رأسُ الخطايا والسيئاتِ ، وبغضُها أمُّ الطاعاتِ وأسُّ القرباتِ ، وقدِ استقصينا ما يتعلَّقُ بوصفِها وذمِّ الحبِّ لها في كتابِ ذمِّ الدنيا مِنْ ربعِ المهلكاتِ ، ونحنُ الآنَ نذكرُ فضْلَ البغضِ لها والزهدِ فيها فإنَّهُ رأسُ المنجياتِ ، فلا مطمعَ في النجاةِ إلا بالانقطاعِ عنِ الدنيا والبعدِ منها ، ولكنْ مقاطعتُها إمَّا أنْ تكونَ بانزوائِها عنِ العبدِ ويُسمَّىٰ ذلكَ فقراً ، وإمَّا بانزواءِ العبدِ عنها ويُسمَّىٰ ذلكَ زهداً ، ولكلٍّ واحدٍ منهُما درجةٌ في نيلِ السعاداتِ ، وحظٌّ في الإعانةِ على الفوزِ والنجاةِ .

ونحنُ الآنَ نذكرُ حقيقةَ الفقرِ والزهدِ ، ودرجاتِهما ، وأقسامَهُما ، وشروطَهُما ، وأحكامَهُما ، ونذكرُ الفقرَ في شطرٍ مِنَ الكتابِ والزهدَ في شطرٍ آخرَ منهُ .



ونبدأُ بذكرِ الفقرِ فنقولُ :

الشَّطْرُ الأَوَّلُ مِنَ الكِتَاب فِي الفَقْر

وفيهِ : بيانُ حقيقةِ الفقرِ ، وبيانُ فضيلةِ الفقرِ مطلقاً ، وبيانُ فضيلةِ خصوصِ الفقراءِ ، وبيانُ فضلِ الفقرِ على الغنىٰ ، وبيانُ أدبِ الفقيرِ في فقرِهِ ، وبيانُ أدبِهِ في قبولِ العطاءِ ، وبيانُ تحريمِ السؤالِ بغيرِ ضرورةٍ ، وبيانُ مقدارِ الغِنَى المحرِّمِ للسؤالِ ، وبيانُ أحوالِ السائلينَ ، واللهُ الموفقُ للصوابِ بلطفِهِ وكرمِهِ .

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه

اعلمْ : أنَّ الفقرَ عبارةٌ عنْ فقدِ ما هوَ محتاجٌ إليهِ ، أمَّا فقْدُ ما لا حاجةَ إليهِ . . فلا يُسمَّىٰ فقراً ، وإنْ كان المحتاجُ إليهِ موجوداً مقدوراً عليهِ . . لمْ يكنِ المحتاجُ فقيراً(١) .

وإذا فهمتَ هـٰذا . . لمْ تشكَّ في أنَّ كلَّ موجودٍ سوى اللهِ تعالىٰ فهوَ فقيرٌ ؛ لأنَّهُ محتاجٌ إلىٰ دوامِ الوجودِ في ثاني الحالِ ، ودوامُ وجودِهِ مستفادٌ مِنْ فضْلِ اللهِ تعالىٰ وجودِهِ ، فإنْ كانَ في الوجودِ موجودٌ ليسَ وجودُهُ مستفاداً

---

(١) فالفقير : هو الفاقد المحتاج ، والفقر : هو الفقد والاحتياج . « إتحاف » (٩/ ٢٦٦) .

لهُ مِنْ غيرِهِ . . فهوَ الغنيُّ المطلقُ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ مثلُ هٰذا الموجودِ إلا واحداً ، فليسَ في الوجودِ إلا غنيٌّ واحدٌ ، وكلُّ مَنْ عداهُ فإنَّهُمْ محتاجونَ إليهِ ليمدَّ وجودَهُمْ بالدوامِ ، وإلىٰ هٰذا الحصرِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ .

هٰذا معنى الفقرِ مطلقاً .

ولكنَّا لسنا نقصدُ بيانَ الفقرِ المطلقِ ، بلِ الفقرِ مِنَ المالِ على الخصوصِ ، وإلا . . ففقرُ العبدِ بالإضافةِ إلىٰ أصنافِ حاجاتِهِ لا ينحصرُ ؛ لأنَّ حاجاتِهِ لا حصرَ لها ، ومِنْ جملةِ حاجاتِهِ ما يُتوصَّلُ إليهِ بالمالِ ، وهوَ الذي نريدُ الآنَ بيانَهُ فقطْ ، فنقولُ :

كلُّ فاقدٍ للمالِ فإنَّا نسمِّيه فقيراً بالإضافةِ إلى المالِ الذي فقدَهُ ، إذا كانَ ذلكَ المفقودُ محتاجاً إليهِ في حقِّهِ ، ثمَّ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ لهُ خمسةُ أحوالٍ عندَ الفقرِ ، ونحنُ نميزُها ونخصِّصُ كلَّ حالٍ باسمٍ ؛ لنتوصَّلَ بالتمييزِ إلىٰ ذكرِ أحكامِها .

الحالة الأولىٰ ـ وهيَ العليا ـ : أنْ يكونَ بحيثُ لوْ أتاهُ المالُ . . لكرِهَهُ وتأذَّىٰ بهِ ، وهربَ مِنْ أخذِهِ ، مبغضاً لهُ ، ومحترزاً مِنْ شرِّهِ وشغلِهِ ، وهوَ **الزهدُ** ، واسمُ صاحبِهِ **الزاهدُ** .

الثانيةُ : أنْ يكونَ بحيثُ لا يرغبُ فيهِ رغبةً يفرحُ بحصولِهِ ، ولا يكرهُهُ كراهةً يتأذَّىٰ بهِ ويزهدُ فيهِ لوْ أتاهُ ، وصاحبُ هٰذهِ الحالةِ يُسمَّىٰ **راضياً** .

الثالثةُ : أنْ يكونَ وجودُ المالِ أحبَّ إليهِ مِنْ عدمِهِ ؛ لرغبةٍ لهُ فيهِ ،

ولكنْ لمْ يبلغْ مِنْ رغبتِهِ أنْ ينهضَ لطلبِهِ ، بلْ إنْ أتاهُ عفواً صفواً . . أخذَهُ وفرحَ بهِ ، وإنِ افتقرَ إلىٰ تعبٍ في طلبِهِ . . لمْ يشتغلْ بهِ ، وصاحبُ هٰذهِ الحالةِ نسمِّيهِ **قانعاً** ؛ إذْ أقنعَ نفسَهُ بالموجودِ حتَّىٰ تركَ الطلبَ معَ ما فيهِ مِنَ الرغبةِ الضعيفةِ .

الرابعةُ : أنْ يكونَ تركُهُ للطلبِ لعجزِهِ ، وإلا . . فهوَ راغبٌ فيهِ رغبةً لوْ وجدَ سبيلاً إلىٰ طلبِهِ ولوْ بالتعبِ . . لطلبَهُ ، أوْ هوَ مشغولٌ بالطلبِ ، وصاحبُ هٰذهِ الحالةِ نسمِّيهِ **الحريصَ** .

الخامسةُ : أنْ يكونَ ما فقدَهُ مِنَ المالِ مضطراً إليهِ ؛ كالجائعِ الفاقدِ للخبزِ ، والعاري الفاقدِ للثوبِ ، ويُسمَّىٰ صاحبُ هٰذهِ الحالةِ **مضطراً** ، كيفَما كانَتْ رغبتُهُ في الطلبِ إمَّا ضعيفةً وإمَّا قويَّةً ، وقلَّما تنفكُّ هٰذهِ الحالةُ عنِ الرغبةِ .

فهٰذهِ خمسةُ أحوالٍ ، أعلاها الزهدُ ، والاضطرارُ إنِ انضمَّ إليهِ الزهدُ وتُصوِّرَ ذلكَ(١) ، فهوَ أقصىٰ درجاتِ الزهدِ كما سيأتي بيانُهُ .

ووراءَ هٰذهِ الأحوالِ الخمسةِ حالةٌ هيَ أعلىٰ مِنَ الزهدِ ، وهيَ أنْ يستويَ عندَهُ وجودُ المالِ وفقدُهُ ، فإنْ وُجِدَ . . لمْ يفرحْ بهِ ولمْ يتأذَّ ، وإنْ فُقِدَ . . فكذلكَ ، بلْ حالُهُ كما كانَ حالُ عائشةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها ؛ إذْ أتاها مئةُ ألفِ درهمٍ مِنَ العطاءِ ، فأخذَتْها وفرقَتْها مِنْ يومِها ، فقالَتْ خادمتُها :

---

(١) بأن يكون كارهاً للمال مع اضطراره . « إتحاف » (٩/ ٢٦٧) .

ما استطعتِ فيما فرّقتِ اليومَ أنْ تشتري لنا بدرهمٍ لحماً نفطرُ عليهِ ؟ فقالَتْ : لوْ ذكرتِني . . لفعلتُ[1] .

فمَنْ هـٰذا حالُهُ ؛ فلوْ كانَتِ الدنيا بحذافيرِها في يدِهِ وخزانتِهِ . . لمْ تضرَّهُ ؛ إذْ هوَ يرى الأموالَ في خزانةِ اللهِ تعالىٰ لا في يدِ نفسِهِ ، فلا يفرِّقُ بينَ أنْ تكونَ في يدِهِ أوْ في يدِ غيرِهِ ، وينبغي أنْ يُسمَّىٰ صاحبُ هـٰذهِ الحالةِ **المستغنيَ** ؛ لأنَّهُ غنيٌّ عنْ فقدِ المالِ ووجودِهِ جميعاً .

وليُفهمْ مِنْ هـٰذا الاسمِ معنىً يفارقُ اسمَ الغنى المطلقِ على اللهِ تعالىٰ ، وعلىٰ مَنْ كثرَ مالُهُ مِنَ العبادِ ، فإنَّ مَنْ كثرَ مالُهُ مِنَ العبادِ وهوَ يفرحُ بهِ . . فهوَ فقيرٌ إلىٰ بقاءِ المالِ في يدِهِ ، وإنَّما هوَ غنيٌّ عنْ دخولِ المالِ في يدِهِ ، لا عَنْ بقائِهِ ، فهوَ إذاً فقيرٌ مِنْ وجهٍ .

وأمَّا هـٰذا الشخصُ . . فهوَ غنيٌّ عنْ دخولِ المالِ في يدِهِ ، وعنْ بقائِهِ في يدِهِ ، وعنْ خروجِهِ مِنْ يدِهِ أيضاً ، فإنَّهُ ليسَ يتأذَّىٰ بهِ ليحتاجَ إلىٰ إخراجِهِ ، وليسَ يفرحُ بهِ ليحتاجَ إلىٰ بقائِهِ ، وليسَ فاقداً لهُ ليحتاجَ إلى الدخولِ في يدِهِ ، فغناهُ إلى العمومِ أميلُ ، فهوَ إلى الغنى الذي هوَ وصفُ اللهِ تعالىٰ أقربُ ، وإنَّما قربُ العبدِ مِنَ اللهِ تعالىٰ بقربِ الصفاتِ ، لا بقربِ المكانِ .

ولكنَّا لا نسمِّي صاحبَ هـٰذهِ الحالةِ غنيّاً ، بلْ مستغنياً ؛ ليبقى الغنيُّ اسماً لِمَنْ لهُ الغنى المطلقُ عنْ كلِّ شيءٍ ، وأمَّا هـٰذا العبدُ فإنِ استغنىٰ عنِ

---

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٠/ ٦٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٤٧) .

المالِ وجوداً وعدماً . . فلمْ يستغنِ عنْ أشياءَ أخرَ سواهُ ، ولمْ يستغنِ عنْ مددِ توفيقِ اللهِ تعالىٰ لهُ ليبقى استغناؤُهُ الذي زيَّنَ اللهُ بهِ قلبَهُ ؛ فإنَّ القلبَ المقيَّدَ بحبِّ المالِ رقيقٌ ، والمستغنيَ عنهُ حرٌّ ، واللهُ تعالىٰ هوَ الذي أعتقَهُ مِنْ هـٰذا الرقِّ ، فهوَ محتاجٌ إلىٰ دوامِ هـٰذا العتقِ ، والقلوبُ متقلِّبةٌ بينَ الرقِّ والحريَّةِ في أوقاتٍ متقاربةٍ ؛ لأنَّها بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ ، فلذلكَ لمْ يكنِ اسمُ الغنىٰ مطلقاً عليهِ معَ هـٰذا الكمالِ إلا مجازاً .

واعلمْ : أنَّ الزهدَ درجةٌ هيَ كمالُ الأبرارِ ، وصاحبُ هـٰذهِ الحالةِ مِنَ المقرَّبينَ ، فلا جرمَ صارَ الزهدُ في حقِّهِ نقصاناً ؛ إذْ حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبينَ ؛ وهـٰذا لأنَّ الكارهَ للدنيا مشغولٌ بالدنيا ، كما أنَّ الراغبَ فيها مشغولٌ بها ، والشغلُ بما سوى اللهِ تعالىٰ حجابٌ عنِ اللهِ تعالىٰ ، إذْ لا بعدَ بينَكَ وبينَ اللهِ حتَّىٰ يكونَ البعدُ حجاباً ؛ فإنَّهُ أقربُ إليكَ مِنْ حبلِ الوريدِ ، وليسَ هوَ في مكانٍ حتَّىٰ تكونَ السماواتُ والأرضُ حجاباً بينَكَ وبينَهُ ، فلا حجابَ بينَكَ وبينَهُ إلا شغلُكَ بغيرِهِ ، وشغلُكَ بنفسِكِ وشهواتِكَ شغلٌ بغيرِهِ ، وأنتَ لا تزالُ مشغولاً بنفسِكَ وبشهواتِ نفسِكَ ، فكذلكَ لا تزالُ محجوباً عنهُ ، فالمشغولُ بحبِّ نفسِهِ مشغولٌ عنِ اللهِ تعالىٰ ، والمشغولُ ببغضِ نفسِهِ أيضاً مشغولٌ عنِ اللهِ تعالىٰ .

بلْ كلُّ ما سوى اللهِ تعالىٰ مثالُهُ مثالُ الرقيبِ الحاضرِ في مجلسٍ جمعَ العاشقَ والمعشوقَ ، فإنِ التفتَ قلبُ العاشقِ إلى الرقيبِ ، وإلىٰ بغضِهِ واستثقالِهِ وكراهةِ حضورِهِ . . فهوَ في حالِ اشتغالِ قلبِهِ ببغضِهِ مصروفٌ عنِ

التلذُّذِ بمشاهدةِ معشوقِهِ ، ولوِ استغرقَهُ العشقُ . . لغفلَ عنْ غيرِ المعشوقِ ولمْ يلتفتْ إليهِ ، فكما أنَّ النظرَ إلىٰ غيرِ المعشوقِ لحبِّهِ عندَ حضورِ المعشوقِ شرْكٌ في العشقِ ونقصٌ فيهِ . . فكذا النظرُ إلىٰ غيرِ المحبوبِ لبغضِهِ شرْكٌ فيهِ ونقصٌ ، ولكنْ أحدُهُما أخفُّ مِنَ الآخرِ ، بلِ الكمالُ في ألا يلتفتَ القلبُ إلىٰ غيرِ المحبوبِ بغضاً وحبّاً ؛ فإنَّهُ كما لا يجتمعُ في القلبِ حبّانِ في حالةٍ واحدةٍ . . فلا يجتمعُ أيضاً بغضٌ وحبٌّ في حالةٍ واحدةٍ .

فالمشغولُ ببغضِ الدنيا غافلٌ عنِ اللهِ كالمشغولِ بحبِّها ، إلا أنَّ المشغولَ بحبِّها غافلٌ وهوَ في غفلتِهِ سالكٌ في طريقِ البعدِ ، والمشغولُ ببغضِها غافلٌ وهوَ في غفلتِهِ سالكٌ في طريقِ القربِ ؛ إذْ يُرجىٰ لهُ أنْ ينتهيَ حالُهُ إلىٰ أنْ تزولَ هـٰذهِ الغفلةُ وتتبدَّلَ بالشهودِ ، فالكمالُ لهُ مرتقَبٌ ؛ لأنَّ بغضَ الدنيا مطيَّةٌ توصلُ إلى اللهِ تعالىٰ .

فالمحبُّ والمبغضُ كرجلينِ في طريقِ الحجِّ ، مشغولينِ بركوبِ الناقةِ وعلفِها وتسييرِها ، ولكنْ أحدُهُما مستدبرٌ للكعبةِ ، والآخرُ مستقبلٌ لها ، فهُما سيّانِ بالإضافةِ إلى الحالِ في أنَّ كلَّ واحدٍ منهُما محجوبٌ عنِ الكعبةِ ومشغولٌ عنها ، ولكنْ حالُ المستقبلِ محمودٌ بالإضافةِ إلى المستدبرِ ؛ إذْ يُرجىٰ لهُ الوصولُ إليها ، وليسَ بمحمودٍ بالإضافةِ إلى المعتكفِ في الكعبةِ والملازمِ لها ، الذي لا يخرجُ منها حتَّىٰ يفتقرَ إلى الاشتغالِ بالدابّةِ في الوصولِ إليها .

فلا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ بغضَ الدنيا مقصودٌ في عينِهِ ، بلِ الدنيا عائقٌ

عنِ اللهِ تعالىٰ ، ولا وصولَ إليهِ إلا بدفعِ العائقِ .

ولذلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمَهُ اللهُ : (مَنْ زهدَ في الدنيا واقتصرَ عليهِ . . فقدِ استعجلَ الراحةَ ، بلْ ينبغي أنْ يشتغلَ بالآخرةِ)[1] ، فبيَّنَ أنَّ سلوكَ طريقِ الآخرةِ وراءَ الزهدِ ، كما أنَّ سلوكَ طريقِ الحجِّ وراءَ دفعِ الغريمِ العائقِ عنِ الحجِّ .

فإذاً ؛ قدْ ظهرَ أنَّ الزهدَ في الدنيا إنْ أُريدَ بهِ عدمُ الرغبةِ في وجودِها وعدمِها . . فهوَ غايةُ الكمالِ ، وإنْ أُريدَ بهِ الرغبةُ في عدمِها . . فهوَ كمالٌ بالإضافةِ إلىٰ درجةِ الراضي والقانعِ والحريصِ ، ونقصانٌ بالإضافةِ إلىٰ درجةِ المستغني ، بلِ الكمالُ في حقِّ المالِ أنْ يستويَ عندَكَ الماءُ والمالُ ، وكثرةُ الماءِ في جوارِكَ لا تؤذيكَ بأنْ تكونَ علىٰ شاطئِ البحرِ ، ولا قلَّتُهُ تؤذيكَ إلا في قدْرِ الضرورةِ ، مع أنَّ المالَ محتاجٌ إليهِ ، كما أنَّ الماءَ محتاجٌ إليهِ ، فلا يكونُ قلبُكَ مشغولاً بالفرارِ عنْ جوارِ الماءِ الكثيرِ ، ولا ببغضِ الماءِ الكثيرِ ، بلْ تقولُ : أشربُ منهُ بقدْرِ الحاجةِ ، وأسقي منهُ عبادَ اللهِ بقدْرِ الحاجةِ ، ولا أبخلُ بهِ علىٰ أحدٍ .

فهكذا ينبغي أنْ يكونَ المالُ ؛ لأنَّ الخبزَ والماءَ واحدٌ في الحاجةِ ، وإنَّما الفرقُ بينَهُما في قلَّةِ أحدِهِما وكثرةِ الآخرِ ، وإذا عرفتَ اللهَ تعالىٰ ، ووثقتَ بتدبيرِهِ الذي دبَّرَ بهِ العالمَ . . علمتَ أنَّ قدْرَ حاجتِكَ مِنَ الخبزِ يأتيكَ

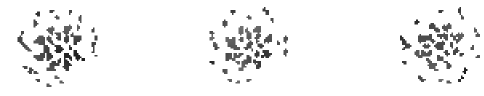
---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٤) بنحوه .

ـ لا محالةَ ـ ما دمتَ حيّاً كما يأتيكَ قدْرُ حاجتِكَ مِنَ الماءِ ، علىٰ ما سيأتي بيانُهُ في كتابِ التوكُّلِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

قالَ أحمدُ بنُ أبي الحَواري : قلتُ لأبي سليمانَ الدارانيِّ : قالَ مالكُ بنُ دينارٍ للمغيرةِ : اذهبْ إلى البيتِ فخذِ الركوةَ التي أهديتَها لي ، فإنَّ العدوَّ يوسوسُ إليَّ أنَّ اللصَّ قدْ أخذَها ، فقالَ أبو سليمانَ : هـٰذا مِنْ ضعفِ قلوبِ الصوفيَّةِ ، هوَ قدْ زهدَ في الدنيا ، ما عليهِ مِنْ أخذِها ؟![1] .

فبيَّنَ أنَّ كراهيةَ كونِ الركوةِ في بيتِهِ التفاتٌ إليها سببُهُ الضعفُ والنقصانُ .



فإنْ قلتَ : فما بالُ الأنبياءِ والأولياءِ هربوا مِنَ المالِ ونفروا منهُ كلَّ النفارِ ؟

فأقولُ : كما هربوا مِنَ الماءِ علىٰ معنىٰ أنَّهُمْ ما شربوا أكثرَ مِنْ حاجتِهِمْ ، فنفروا عمَّا وراءَهُ ، ولمْ يجمعوهُ في القِرَبِ والروايا يديرونَها معَ أنفسِهِمْ ، بلْ تركوهُ في الأنهارِ والآبارِ والبراري للمحتاجينَ إليهِ ، لا أنَّهُمْ كانَتْ قلوبُهُمْ مشغولةً بحبِّهِ أوْ بغضِهِ .

وقدْ حُملَتْ خزائنُ الأرضِ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإلىٰ أبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ، فأخذوها ووضعوها في مواضعِها ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) ، وخبر مالك مفرداً رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٤) ، وليس فيه ذكر للمغيرة ، بل قالها للحارث بن نبهان .

وما هربوا منها ، إذْ كانَ قدِ استوىٰ عندَهُمُ المالُ والماءُ ، والذهبُ والحجرُ .

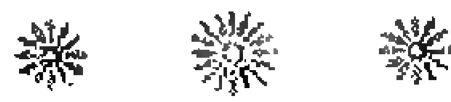
وما نُقِلَ عنهُمْ مِنِ امتناعٍ ؛ فإمَّا أنْ يُنقلَ عمَّنْ خافَ أنْ لوْ أخذَهُ أنْ يخدعَهُ المالُ ويقيدَ قلبَهُ ، فيدعوَهُ إلى الشهواتِ ، وهـٰذا حالُ الضعفاءِ ، فلا جرمَ البغضُ للمالِ والهربُ منهُ في حقِّهِمْ كمالٌ ، وهـٰذا حكمُ جميعِ الخلقِ ؛ لأنَّ كلَّهُمْ ضعفاءُ إلا الأنبياءَ والأولياءَ ، وإمَّا أنْ يُنقلَ عنْ قويٍّ بلغَ الكمالَ ، ولكنْ أظهرَ الفرارَ والنفارَ نزولاً إلىٰ درجةِ الضعفاءِ ؛ ليقتدوا بهِ في التركِ ، إذْ لوِ اقتدَوا بهِ في الأخذِ . . لهلكوا ، كما يفرُّ الرجلُ المعزِّمُ بينَ يدي أولادِهِ مِنَ الحيَّةِ ، لا لضعفِهِ عنْ أخذِها ، ولكنْ لعلمِهِ أنَّهُ لوْ أخذَها . . أخذَها أولادُهُ إذا رأَوها فيهلكونَ ، والسيرُ بسيرِ الضعفاءِ ضرورةُ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ .

فقدْ عرفتَ إذاً أنَّ المراتبَ ستٌّ ، وأنَّ أعلاها رتبةُ المستغني ، ثمَّ الزاهدِ ، ثمَّ الراضي ، ثمَّ القانعِ ، ثمَّ الحريصِ ، وأمَّا المضطرُّ . . فيُتصوَّرُ في حقِّهِ أيضاً الزهدُ والرضا والقناعةُ ، ودرجتُهُ تختلفُ بحسَبِ اختلافِ هـٰذهِ الأحوالِ ، واسمُ الفقيرِ يُطلقُ علىٰ هـٰذهِ الخمسةِ .

أمَّا تسميةُ المستغني فقيراً . . فلا وجهَ لهُ بهـٰذا المعنىٰ ، بلْ إنْ سُمِّيَ فقيراً فبمعنىً آخرَ ، وهوَ معرفتُهُ بكونِهِ محتاجاً إلى اللهِ تعالىٰ في جميعِ أمورِهِ عامَّةً ، وفي بقاءِ استغنائِهِ عنِ المالِ خاصةً ، فيكونُ اسمُ الفقيرِ لهُ كاسمِ

العبدِ لمَنْ عرفَ نفسَهُ بالعبوديَّةِ وأقرَّ بها ، فإنَّهُ أحقُّ باسمِ العبدِ مِنَ الغافلينَ وإنْ كانَ اسمُ العبدِ عامّاً للخلقِ ؛ فكذلكَ اسمُ الفقرِ عامٌّ ، ومَنْ عرفَ نفسَهُ بالفقرِ إلى اللهِ . . فهوَ أحقُّ باسمِ الفقيرِ ، فاسمُ الفقيرِ مشتركٌ بينَ هـٰذينِ المعنيينِ .

وإذا عرفتَ هـٰذا الاشتراكَ . . فهمتَ أنَّ قولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعوذُ بكَ مِنَ الفقرِ »[1] ، وقولَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كفراً »[2] . . لا يناقضُ قولَهُ : « أحيني مسكيناً وأمتْني مسكيناً »[3] ؛ إذْ فقرُ المضطرِّ هوَ الذي استعاذَ منهُ ، والفقرُ الذي هوَ الاعترافُ بالمسكنةِ والذلَّةِ والافتقارِ إلى اللهِ تعالىٰ . . هوَ الذي سألَهُ في دعائِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وعلىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً منْ أهلِ الأرضِ والسماءِ .



(١) روىٰ أبو داوود (١٥٤٤) ، والنسائي (٨/ ٢٦١) ، وابن ماجه (٣٨٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم ؛ إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة . . . » .
(٢) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .
(٣) رواه الترمذي (٢٣٥٢) ، وابن ماجه (٤١٢٦) .

بيان فضيلة الفقر مطلقاً

أمَّا مِنَ الآياتِ . . فيدلُّ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ . . . ﴾ الآيَةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

ساقَ الكلامَ في معرضِ المدحِ ، ثمَّ قدَّمَ وصفَهُمْ بالفقرِ علىٰ وصفِهِمْ بالهجرةِ والإحصارِ ، وفيهِ دلالةٌ ظاهرةٌ علىٰ مدْحِ الفقرِ .

وأمَّا الأخبارُ في مدحِ الفقرِ . . فأكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ ؛ فقدْ قالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأصحابِهِ : « أيُّ الناسِ خيرٌ ؟ » فقالوا : موسرٌ من المالِ يعطي حقَّ اللهِ في نفسِهِ ومالِهِ ، فقالَ : « نعمَ الرجلُ هٰذا وليسَ بهِ » ، قالوا : فمَنْ خيرُ الناسِ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « فقيرٌ يعطي جهدَهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لبلالٍ : « الْقَ الله فقيراً ، ولا تلقَهُ غنيّاً »(٢) .

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢٦٣) ، وقد رواه الطيالسي في « مسنده » (١٨٥٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٤/٢٣٨) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/٢٦٢) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣١٦) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (١/٣٤١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٤٩) ولفظه عندهما : « يا بلال ؛ مت فقيراً ، ولا تمت غنياً » ، قلت : وكيف ذاك ؟ قال : « ما رزقت فلا تخبأ ، وما سئلت فلا تمنع » ، فقلت : يا رسول الله ؛ كيف لي بذاك ؟ فقال : « هو ذاك أو النار » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ الفقيرَ المتعفِّفَ أبا العيالِ »[1] .

وفي الخبرِ المشهورِ : « يدخلُ فقراءُ أمَّتي الجنَّةَ قبلَ أغنيائِها بخمسِ مئةِ عامٍ »[2] .

وفي حديثٍ آخرَ : « بأربعينَ خريفاً »[3] أيْ : أربعينَ سنةً ، فيكونُ المرادُ بهِ تقديرَ تقدُّمِ الفقيرِ الحريصِ على الغنيِّ الحريصِ ، والتقديرُ بخمسِ مئةِ عامٍ تقديرُ تقدُّمِ الفقيرِ الزاهدِ على الغنيِّ الراغبِ ، وما ذكرناهُ مِنِ اختلافِ درجاتِ الفقرِ يعرِّفُكَ بالضرورةِ تفاوتاً بينَ الفقراءِ في درجاتِهِمْ ، وكانَ الفقيرُ الحريصُ علىٰ درجتينِ مِنْ خمسٍ وعشرينَ درجةً مِنَ الفقيرِ الزاهدِ ؛ إذْ هـٰذهِ نسبةُ الأربعينَ إلىٰ خمسِ مئةٍ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ تقديرَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يجري علىٰ لسانِهِ جزافاً وبالاتفاقِ ، بلْ لا يستنطقُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا بحقيقةِ الحقِّ ، فإنَّهُ لا ينطقُ عنِ الهوىٰ ، إنْ هوَ إلا وحيٌ يُوحىٰ ، وهـٰذا كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الرؤيا الصالحةُ جزءٌ مِنْ ستَّةٍ وأربعينَ جزءاً مِنَ النبوَّةِ »[4] ،

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٢١) .
(٢) رواه الترمذي (٢٣٥٣) .
(٣) رواه مسلم (٢٩٧٩) .
(٤) رواه البخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، ومسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

فإنَّهُ تقديرُ تحقيقٍ لا محالةَ ، ولكنْ ليسَ في قوَّةِ غيرِهِ أنْ يعرفَ علَّةَ تلكَ النسبةِ إلا بتخمينٍ ، فأمَّا بالتحقيقِ . . فلا ، إذْ يعلمُ أنَّ النبوَّةَ عبارةٌ عمَّا يختصُّ بهِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ويفارقُ بهِ غيرَهُ ، وهوَ يختصُّ بأنواعٍ مِنَ الخواصِّ :

أحدُها : أنَّهُ يعرفُ حقائقَ الأمورِ المتعلِّقةِ باللهِ وصفاتِهِ وملائكتِهِ والدارِ الآخرةِ لا كما يعلمُهُ غيرُهُ ، بلْ مخالفاً لهُ بكثرةِ المعلوماتِ ، وبزيادةِ اليقينِ والتحقيقِ والكشفِ .

والثاني : أنَّ لهُ في نفسِهِ صفةً بها تتمُّ لهُ الأفعالُ الخارقةُ للعاداتِ ، كما أنَّ لنا صفةً بها تتمُّ الحركاتُ المقرونةُ بإرادتِنا واختيارِنا وهيَ القدرةُ ، وإنْ كانَتِ القدرةُ والمقدورُ جميعاً مِنْ فعلِ اللهِ تعالىٰ .

والثالثُ : أنَّ لهُ صفةً بها يبصرُ الملائكةَ ويشاهدُهُمْ ، كما أنَّ للبصيرِ صفةً بها يفارقُ الأعمىٰ حتَّىٰ يدركَ بها المبصراتِ .

والرابعُ : أنَّ لهُ صفةً بها يدركُ ما سيكونُ في الغيبِ ؛ إمَّا في اليقظةِ ، وإمَّا في المنامِ ، إذْ بها يطالعُ اللوحَ المحفوظَ ، فيرىٰ ما فيهِ مِنَ الغيبِ .

فهٰذهِ كمالاتٌ وصفاتٌ يُعلمُ ثبوتُها للأنبياءِ ، ويُعلمُ انقسامُ كلِّ واحدٍ منها إلىٰ أقسامٍ ، وربَّما يمكنُنا أنْ نقسمَها إلىٰ أربعينَ ، وإلىٰ خمسينَ ، وإلىٰ ستينَ ، ويمكنُنا أيضاً أنْ نتكلَّفَ تقسيمَها إلىٰ ستةٍ وأربعينَ ؛ بحيثُ تقعُ الرؤيا الصحيحةُ جزءاً واحداً مِنْ جملتِها ، ولكنْ تعيينُ طريقٍ واحدٍ مِنْ طرقِ

التقسيماتِ الممكنةِ لا يمكنُ إلا بظنٍّ وتخمينٍ ، فلا ندري تحقيقاً أنَّهُ الذي أرادَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمْ لا ، وإنَّما المعلومُ مجامعُ الصفاتِ التي بها تتمُّ النبوَّةُ وأصلُ انقسامِها ، وذلكَ لا يرشدُنا إلىٰ معرفةِ علَّةِ التقديرِ .

وكذلكَ نعلمُ أنَّ الفقراءَ لهمْ درجاتٌ كما سبقَ ، فأمَّا لِمَ كانَ هـٰذا الفقيرُ الحريصُ مثلاً علىٰ نصفِ سدسِ درجةِ الفقيرِ الزاهدِ[1] ، حتىٰ لمْ يقتضِ لهُ التقدُّمَ بأكثرَ مِنْ أربعينَ سنةً إلى الجنةِ ، واقتضىٰ ذلكَ التقدُّمَ بخمسِ مئةِ عامٍ . . فليسَ في قوَّةِ البشرِ غيرِ الأنبياءِ الوقوفُ علىٰ ذلكَ إلا بنوعٍ مِنَ التخمينِ ، ولا وثوقَ بهِ ، والغرضُ التنبيهُ علىٰ منهاجِ التقديرِ في أمثالِ هـٰذهِ الأمورِ ؛ فإنَّ الضعيفَ الإيمانِ قدْ يظنُّ أنَّ ذلكَ يجري مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ سبيلِ الاتفاقِ ، وحاشا منصبَ النبوَّةِ عنْ ذلكَ .

ولنرجعْ إلىٰ نقلِ الأخبارِ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « خيرُ هـٰذهِ الأمَّةِ فقراؤُها ، وأسرعُها تضجُّعاً في الجنَّةِ ضعفاؤُها »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لي حرفتينِ اثنتينِ ، فمَنْ أحبَّهُما . . فقدْ أحبَّني ، ومَنْ أبغضَهُما . . فقدْ أبغضَني ؛ الفقرُ والجهادُ »[3] .

---

(١) أي : على التقريب .
(٢) كذا في « القوت » (١/٢٦٣) ، ورواه الدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (٢/١٣٨) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٩٢١) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٥٣) ، ورواه ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (١٧/١٤٣) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (٢/١٨٢) .

ورُوِيَ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ نزلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : يا محمدُ ؛ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقرأُ عليكَ السلامَ ويقولُ : أتحبُّ أنْ أجعلَ هـٰذهِ الجبالَ ذهباً وتكونَ معَكَ حيثُما كنتَ ؟ فأطرقَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ساعةً ثمَّ قالَ : « يا جبريلُ ؛ إنَّ الدنيا دارُ مَنْ لا دارَ لهُ ، ومالُ مَنْ لا مالَ لهُ ، ولها يجمعُ مَنْ لا عقلَ لهُ » ، فقالَ لهُ جبريلُ : يا محمدُ ؛ ثبَّتَكَ اللهُ بالقولِ الثابتِ(١) .

ورُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ مرَّ في سياحتِهِ برجلٍ نائمٍ ملتفٍّ في عباءةٍ ، فأيقظَهُ وقالَ : يا نائمُ ؛ قمْ فاذكرِ اللهَ تعالىٰ ، فقالَ : ما تريدُ منِّي ؟ إنِّي قدْ تركتُ الدنيا لأهلِها ، فقالَ لهُ : فنمْ إذاً حبيبي نمْ(٢) .

ومرَّ موسىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برجلٍ نائمٍ على الترابِ وتحتَ رأسِهِ لبنةٌ ، ووجهُهُ ولحيتُهُ في الترابِ ، وهوَ متزرٌ بعباءةٍ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ عبدُكَ هـٰذا في الدنيا ضائعٌ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا موسىٰ ؛ أما علمتَ أنِّي إذا

---

(١) الخبر جامع بين حديثين ؛ **فالأول حديث** : « عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً . . . » الذي رواه الترمذي (٢٣٤٧) عن أبي أمامة رضي الله عنه ، **والثاني** : « الدنيا دار من لا دار له . . . » الذي رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً ، مقتصراً علىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له » ، وزاد ابن أبي الدنيا في روايته له في « ذم الدنيا » (١٨٢) : « ومال من لا مال له » .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٦٤) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٤٠٦) .

نظرتُ إلىٰ عبدي بوجهي كلِّهِ . . زويتُ عنهُ الدنيا كلَّها[1] .

وعنْ أبي رافعٍ أنَّهُ قالَ : وردَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضيفٌ ، فلمْ يجدْ عندَهُ ما يصلحُهُ ، فأرسلَني إلىٰ رجلٍ مِنْ يهودِ خيبرَ ، وقالَ : « قُلْ لهُ : يقولُ لكَ محمدٌ : أسلفْني أوْ بعْني دقيقاً إلىٰ هلالِ رجبٍ » ، قالَ : فأتيتُهُ ، فقالَ : لا واللهِ إلا برهنٍ ، فأخبرتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ ، فقالَ : أما واللهِ إنِّي لأمينٌ في أهلِ السماءِ أمينٌ في أهلِ الأرضِ ، ولوْ باعَني أوْ أسلفَني . . لأدَّيتُ إليهِ ، اذهبْ بدرعي هٰذا إليهِ فارهنْهُ » ، فلمَّا خرجتُ . . نزلَتْ هٰذهِ الآيةُ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . . ﴾ الآيةَ ؛ تعزيةً لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الدنيا[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الفقرُ أزينُ بالمؤمنِ مِنَ العذارِ الحسنِ علىٰ خدِّ الفرسِ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أصبحَ منكمْ آمناً في سربِهِ ، معافىً في

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧٤) ، وهو عند صاحب « القوت » (١/ ٢٦٤) .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٣٨٦٣) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ٣٣١) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١/ ٢٥٢) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٦٨) ، والطبراني في « الكبير » (٧/ ٢٩٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٢٧) .

جسمِهِ ، عندَهُ قوتُ يومِهِ . . فكأنَّما حيزَتْ لهُ الدنيا بحذافيرِها »[1] .

وقالَ كعبُ الأحبارِ : قالَ اللهُ تعالىٰ لموسىٰ عليهِ السلامُ : يا موسىٰ ؛ إذا رأيتَ الفقرَ مقبلاً . . فقلْ : مرحباً بشعارِ الصالحينَ[2] .

وقالَ عطاءٌ الخراسانيُّ : مرَّ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ بساحلٍ ، فإذا هوَ برجلٍ يصطادُ حيتاناً ، فقالَ : باسمِ اللهِ ، وألقىٰ شبكتَهُ ، فلمْ يخرجْ فيها شيءٌ ، ثمَّ مرَّ بآخرَ ، فقالَ : باسمِ الشيطانِ ، وألقىٰ شبكَتَهُ ، فخرجَ فيها مِنَ الحيتانِ ما كانَ يتقاعسُ مِنْ كثرتِها ، فقالَ النبيُّ : يا ربِّ ؛ ما هـٰذا وقدْ علمتُ أنَّ كلَّ ذلكَ بيدِكَ ؟! فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ للملائكةِ : اكشفوا لعبدي عنْ منزلتيهِما ، فلمَّا رأىٰ ما أعدَّ اللهُ تعالىٰ لهـٰذا مِنَ الكرامةِ ولذاكَ مِنَ الهوانِ . . قالَ : رضيتُ يا ربِّ[3] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اطلعتُ في الجنَّةِ ، فرأيتُ أكثرَ أهلِها الفقراءَ ، واطلعتُ في النارِ ، فرأيتُ أكثرَ أهلِها الأغنياءَ والنساءَ »[4] ، وفي لفظٍ آخرَ : « فقلتُ : أينَ الأغنياءُ ؟ فقيلَ : حبسَهُمُ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد بن محصن رضي الله عنه ، وليس عندهما : (بحذافيرها) ، وهي عند أبي نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٤٩) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٥) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٢١) .

(٤) كذا في « القوت » (١/ ٢٤٢) ، ورواه أحمد في « المسند » (٢/ ١٧٣) .

الجدُّ »[١] ، وفي حديثٍ آخرَ : « فرأيتُ أكثرَ أهلِ النارِ النساءَ ، فقلتُ : ما شأنُهُنَّ ؟ فقيلَ : شغلَهُنَّ الأحمرانِ ؛ الذهبُ والزعفرانُ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تحفةُ المؤمنِ في الدنيا الفقرُ »[٣] .

وفي الخبرِ : « آخرُ الأنبياءِ دخولاً الجنَّةَ سليمانُ بنُ داوودَ ؛ لمكانِ ملكِهِ ، وآخرُ أصحابي دخولاً الجنَّةَ عبدُ الرحمٰنِ بنُ عوفٍ ؛ لأجلِ غناهُ »[٤] .

وفي حديثٍ آخرَ : « رأيتُهُ دخلَ الجنَّةَ زحفاً »[٥] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٤٢) ، وعند مسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما مرفوعاً : « قمت علىٰ باب الجنة ، فإذا عامة من دخلها المساكين ، وإذا أصحاب الجدِّ محبوسون . . . » الحديث .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٥٢) ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٥/ ٢٥٩) نحوه ، وفيه : (الحرير) بدل (الزعفران) ، وعند مسلم (٢٧٣٨) مرفوعاً : « إن أقلَّ ساكني الجنة النساء » ، وذكر الزعفران جاء عند أبي نعيم في « معرفة الصحابة » (٦/ ٣٤٠٢) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٤٣) ، قال الحافظ العراقي : (رواه محمد بن خفيف الشيرازي في « شرف الفقراء » ، والديلمي في « مسند الفردوس » [٢٣٩٩] من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به) . « إتحاف » (٩/ ٢٧٦) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٢٠٣) ، وروى الطبراني في « الأوسط » (٤١٢٥) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً : « الأنبياء كلهم يدخلون الجنة قبل داوود وسليمان بألفي عام . . . » الحديث ، وروى البزار في « مسنده » (٧٠٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمٰن بن عوف ، والذي نفس محمد بيده لن يدخلها إلا حبواً » .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٣١١) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٠٦٤) ، ولفظه : « يا بن عوف ؛ إنك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً . . . » .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (بشدةٍ يدخلُ الغنيُّ الجنةَ)[1] .

وفي خبرٍ آخرَ عنْ أهلِ البيتِ رضيَ اللهُ عنهُمْ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . ابتلاهُ ، فإذا أحبَّهُ الحبَّ البالغَ . . اقتناهُ » ، قيلَ : وما اقتناهُ ؟ قالَ : « لمْ يتركْ لهُ أهلاً ولا مالاً »[2] .

وفي الخبرِ : (إذا رأيتَ الفقرَ مقبلاً . . فقلْ : مرحباً بشعارِ الصالحينَ ، وإذا رأيتَ الغنىٰ مقبلاً . . فقلْ : ذنبٌ عُجِّلتْ عقوبتُهُ)[3] .

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ مَنْ أحبَّاؤُكَ مِنْ خلقِكَ حتَّىٰ أحبَّهُمْ لأجلِكَ ؟ فقالَ : كلُّ فقيرٍ فقيرٍ[4] . فيمكنُ أنْ يكونَ الثاني للتأكيدِ ، ويمكنُ أنْ يُرادَ بهِ الشديدُ الضرِّ .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إنِّي لأحبُّ المسكنةَ وأبغضُ النعماءَ)[5] ،

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٦) ، وفيه : (أو قال : بعجب . . .) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٨) ولفظه : (لشدَّة ما يدخل الغني الجنة) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٤٣) ، ورواه ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢٤٩٩) ، والدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (١/ ٤٦) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٩٦٨) كلهم من حديث أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مقتصراً على الشطر الأخير منه .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٤) ، وتقدم قريباً عن كعب الأحبار ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٤٦٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٩٤) ، واللحاق بنحوه عنده .

(٥) قوت القلوب (٢/ ١٩٤) ، وفيه : (الغنىٰ) بدل (النعماء) .

وكان أحبُّ الأسامي إليه صلواتُ اللهِ عليهِ أنْ يُقالَ لهُ : يا مسكينُ[1] .

ولمَّا قالَ ساداتُ العربِ وأغنياؤُها للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : اجعلْ لنا يوماً ولهم يوماً ، يجيئونَ إليكَ ولا نجيءُ ، ونجيءُ إليكَ ولا يجيئونَ ، يعنونَ بذلكَ الفقراءَ ؛ مثلَ بلالٍ ، وسلمانَ ، وصهيبٍ ، وأبي ذرٍّ ، وخبَّابِ بنِ الأرتِّ ، وعمارِ بنِ ياسرٍ ، وأبي هريرةَ ، وأصحابِ الصُّفَّةِ مِنَ الفقراءِ ، فأجابَهُمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ ذلكَ ، وذلكَ لأنَّهُمْ شكَوا إليهِ التأذِّيَ برائحتِهِمْ ، وكانَ لباسُ القومِ الصوفَ في شدَّةِ الحرِّ ، فإذا عرقوا .. فاحَتِ الروائحُ مِنْ ثيابِهِمْ ، فاشتدَّ على الأغنياءِ ذلكَ ، منهُمُ الأقرعُ بنُ حابسٍ التميميُّ ، وعيينةُ بنُ حصنٍ الفزاريُّ ، وعباسُ بنُ مرداسٍ السلميُّ ، وغيرُهُمْ ، فأجابَهُمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ألا يجمعَهُمْ وإيَّاهُمْ في مجلسٍ واحدٍ ، فنزلَ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ يعني الفقراءَ ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يعني الأغنياءَ ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ يعني الأغنياءَ ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ معَ الفقراءِ ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... ﴾ الآيةَ[2] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٤) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٢٧) ، والبزار في « مسنده » (٢١٢٩ ، ٢١٣٠) عن خباب بن الأرت رضي الله عنه بنحوه ، ومؤاذاتهم لهم بريحهم رواه الطبري في « تفسيره » (٩/ ١٥/ ٢٩٠) عن سلمان الفارسي ، قال : جاءت المؤلفة قلوبهم إلىٰ رسول الله =

واستأذنَ ابنُ أمِّ مكتومٍ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعندَهُ رجلٌ مِنْ أشرافِ قريشٍ ، فشَقَّ ذلكَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

فأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ يعني ابنَ أمِّ مكتومٍ ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ يعني هـٰذا الشريفَ(١) .

وعنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يُؤتىٰ بالعبدِ يومَ القيامةِ فيعتذرُ اللهُ تعالىٰ إليهِ كما يعتذرُ الرجلُ إلى الرجلِ في الدنيا ، فيقولُ : وعزَّتي وجلالي ؛ ما زويتُ الدنيا عنكَ لهوانِكَ عليَّ ، ولكنْ لما أعددتُ لكَ مِنَ الكرامةِ والفضيلةِ ، اخرجْ يا عبدي إلىٰ هـٰذهِ الصفوفِ ، فمَنْ أطعمَكَ فيَّ أوْ كساكَ فيَّ يريدُ بذلكَ وجهي . . فخذْ بيدِهِ فهوَ لكَ ، والناسُ يومَئذٍ قدْ

= صلى الله عليه وسلم ؛ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وذووهم ، فقالوا : يا نبي الله ؛ إنك لو جلست في صدر المسجد ونفيت عنا هـٰؤلاء وأرواح جبابهم ـ يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف ، ولم يكن عليهم غيرها ـ جلسنا إليك وحادثناك . . . الخبر .

(١) رواه الترمذي (٣٣٣١) ، وروى الطبري في « تفسيره » (١٥/ ٣٠/ ٦٨) أن الشريف كان العباس رضي الله عنه ، أو عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وقيل غير ذلك ، وفي خطابه سبحانه له صلى الله عليه وسلم لطف ؛ إذ خاطبه بضمير الغائب ، ثم بيَّن أن خطابه إنما هو تذكرة ، وإنما سيق العتاب تعظيماً لأمر الفقراء ، وروى ابن سعد في « طبقاته » (٤/ ١٩٤) أنه صلى الله عليه وسلم بعد هـٰذا العتاب كان يكرم ابن أم مكتوم ، واستخلفه على المدينة مرتين .

ألجمَهُمُ العرقُ ، فيتخلَّلُ الصفوفَ ، وينظرُ مَنْ فعلَ ذلكَ بهِ ، فيأخذُ بيدِهِ ويدخلُهُ الجنَّةَ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أكثروا معرفةَ الفقراءِ ، واتخذوا عندَهُمُ الأياديَ ؛ فإنَّ لهم دولةً » ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ وما دولتُهُمْ ؟ قالَ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ . . قيلَ لهُمُ : انظروا مَنْ أطعمَكُمْ كسرةً وسقاكُمْ شربةً وكساكُمْ ثوباً فخذوا بيدِهِ ، ثمَّ أفيضوا بهِ إلى الجنَّةِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دخلتُ الجنَّةَ ، فسمعتُ حركةً أمامي ، فنظرتُ فإذا بلالٌ ، ونظرتُ في أعلاها فإذا فقراءُ أمَّتي وأولادُهُمْ ، ونظرتُ في أسفلِها فإذا فيها مِنَ الأغنياءِ والنساءِ قليلٌ ، فقلتُ : يا ربِّ ؛ ما شأنُهُمْ ؟ قالَ : أمَّا النساءُ . . فأضرَّ بهنَّ الأحمرانِ الذهبُ والحريرُ ، وأمَّا الأغنياءُ . . فاشتغلوا بطولِ الحسابِ ، وتفقدتُ أصحابي فلمْ أرَ عبدَ الرحمـٰنِ بنَ عوفٍ ، ثمَّ جاءَني بعدَ ذلكَ وهوَ يبكي ، فقلتُ : ما خلَّفَكَ عنِّي ؟ فقالَ :

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ في كتاب « الثواب » من حديث أنس بسند ضعيف ، يقول الله عز وجل يوم القيامة : أدنوا مني أحبائي ، فتقول الملائكة : ومن أحباؤك ؟ فيقول : فقراء المسلمين ، فيدنون منه ، فيقول : أما إني لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم عليَّ ، ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتي اليوم ، فتمنَّوا عليَّ ما شئتم اليوم . . . الحديث ، دون آخر الحديث ، وأما أول الحديث . . فرواه أبو نعيم في « الحلية » ، وسيأتي في الحديث الذي بعده) . « إتحاف » (٩/ ٢٧٨) .

(٢) رواه بنحوه النرسي في « قضاء حوائج الإخوان » (ص٧٧) عن أبي عبد الرحمـٰن السلمي مرسلاً .

أما واللهِ يا رسولَ الله ؛ ما خلصتُ إليكَ حتَّىٰ لقيتُ المشيِّباتِ ، وظننتُ أنِّي لا أراكَ ، فقلتُ : ولِمَ ، قالَ : كنتُ أُحاسبُ بمالي »[١] .

فانظرْ إلىٰ هٰذا وعبدُ الرحمٰنِ صاحبُ السابقةِ العظيمةِ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ مِنَ العشرةِ المخصوصينَ بأنَّهُمْ مِنْ أهلِ الجنَّةِ[٢] ، وهوَ مِنَ الأغنياءِ الذينَ قالَ فيهِمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إلا مَنْ قالَ بالمالِ هٰكذا وهٰكذا »[٣] ، ومعَ هٰذا فقدِ استضرَّ بالغنىٰ إلىٰ هٰذا الحدِّ .

ودخلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ رجلٍ فقيرٍ ولمْ يرَ لهُ شيئاً ، فقالَ : « لوْ قُسِمَ نورُ هٰذا علىٰ أهلِ الأرضِ . . لوسعَهُمْ »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أخبرُكُمْ بملوكِ أهلِ الجنةِ ؟ » قالوا :

---

(١) رواه بنحوه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٥٩) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٣٦) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٤٤٥) ، وخبر بلال رضي الله عنه مفرداً عند البخاري (٣٦٧٩) .

(٢) كما روىٰ ذلك أبو داوود (٤٦٤٨) ، والترمذي (٣٧٤٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨١٠٠) ، وابن ماجه (١٣٤) .

(٣) رواه البخاري (٢٣٨٨) ، ومسلم (٩٤) في (كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة) .

(٤) روى البيهقي في « الشعب » (١٠٠٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إن ملوك أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء . . لم يؤذن لهم ، وإذا طلبوا النساء . . لم ينكحوا ، وإذا قالوا الحديث . . لم ينصت لقولهم ، حاجة أحدهم تتجلجل في صدره ، لو قسم نوره بين أهل الأرض . . لوسعهم » ، وهو قريب من الحديث الآتي .

بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « كلُّ ضعيفٍ مستضعفٍ أغبرَ أشعثَ ذي طمرينِ لا يؤبَهُ لهُ ، لو أقسمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ »[1] .

وقالَ عمرانُ بنُ حصينٍ : كانَتْ لي مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منزلةٌ وجاهٌ ، فقالَ : « يا عمرانُ ؛ إنَّ لكَ عندَنا منزلةً وجاهاً ، فهلْ لكَ في عيادةِ فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟ » فقلتُ : نعمْ ، بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ ، فقامَ وقمتُ معَهُ ، حتَّىٰ وقفَ ببابِ فاطمةَ ، فقرعَ البابَ وقالَ : « السلامُ عليكُمْ ، أأدخلُ ؟ » فقالَتِ : ادخلْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « أنا ومَنْ معي ؟ » قالَتْ : ومَنْ معَكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « عمرانُ » ، فقالَتْ فاطمةُ : والذي بعثَكَ بالحقِّ نبيّاً ؛ ما عليَّ إلا عباءةٌ ، قالَ : « اصنعي بها هٰكذا وهٰكذا » وأشارَ بيدِهِ ، فقالَتْ : هٰذا جسدي قدْ واريتُهُ ، فكيفَ برأسي ؟ فألقىٰ إليها ملاءةً كانَتْ عليهِ خَلَقةً فقالَ : « شدِّي بها علىٰ رأسِكِ » ، ثمَّ أذنَتْ لهُ فدخلَ ، فقالَ : « السلامُ عليكُمْ يا ابنتاهُ ، كيفَ أصبحتِ ؟ » قالَتْ : أصبحتُ ـ واللهِ ـ وجعةً ، وزادَني وجعاً علىٰ ما بي أنِّي لستُ أقدرُ علىٰ طعامٍ آكلُهُ ، فقدْ أضرَّ بي الجوعُ ، فبكىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « لا تجزعي يا ابنتاهُ ، فواللهِ ؛ ما ذقتُ طعاماً منذُ ثلاثٍ وإنِّي لأكرمُ على اللهِ منكِ ، ولوْ

---

(١) رواه البخاري (٤٩١٨) ، ومسلم (٢٨٥٣) وفيهما : « ألا أخبركم بأهل الجنة . . . » ، وعند ابن ماجه (٤١١٥) من حديث معاذ رضي الله عنه : « ألا أخبرك عن ملوك الجنة . . . » ولم يقل فيه : (أشعث أغبر) .

سألتُ ربِّي . . لأطعمَني ، ولكنِّي آثرتُ الآخرةَ على الدنيا » ، ثمَّ ضربَ بيدِهِ علىٰ منكبِها وقالَ لها : « أبشري ، فواللهِ ؛ إنَّكِ لسيدةُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ » ، قالَتْ : فأين آسيةُ امرأةُ فرعونَ ومريمُ بنتُ عمرانَ ؟ قالَ : « آسيةُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، ومريمُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، وخديجةُ سيدةُ نساءِ عالمِها ، وأنتِ سيِّدةُ نساءِ عالمِكِ ، إنَّكنَّ في بيوتٍ مِنْ قصبٍ ، لا أذىٰ فيها ولا صخبَ ولا نصبَ » ، ثمَّ قالَ لها : « اقنعي بابنِ عمِّكِ ، فواللهِ ؛ لقدْ زوجتُكِ سيِّداً في الدنيا سيِّداً في الآخرةِ »(١) .

ورُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا أبغضَ الناسُ فقراءَهُمْ ، وأظهروا عمارةَ الدنيا ، وتكالبوا علىٰ جمعِ الدراهمِ . . رماهُمُ اللهُ بأربعِ خصالٍ : بالقحطِ مِنَ الزمانِ ، والجورِ مِنَ السلطانِ ، والخيانةِ مِنْ ولاةِ الأحكامِ ، والشوكةِ مِنَ الأعداءِ »(٢) .



(١) رواه الآجري في « الشريعة » (١٦٠٧) ، ورواه مختصراً من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أحمد في « المسند » (٥/٢٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/٢٢٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/١٢٦) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣٢٥) ، وفيه : (علماءَهم) بدل (فقراءهم) ، وعليه فقد لا يصلح شاهداً هنا ، وقد سقط هاذا الحديث من جميع النسخ إلا (س) ، واستكمل من نسخة الحافظ الزبيدي (٩/٢٨٠) ، وهو في نسخة الحافظ العراقي كذلك ؛ إذ أثبت تخريجه في « المغني » .

وأمّا الآثارُ :

فقدْ قالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ذو الدرهمينِ أشدُّ حبساً ـ أوْ قالَ : أشدُّ حساباً ـ مِنْ ذي الدرهمِ)[1] .

وأرسلَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ سعيدِ بنِ عامرٍ بألفِ دينارٍ ، فجاءَ كئيباً حزيناً ، فقالَتِ امرأتُهُ : أحدثَ أمرٌ ؟ قالَ : أشدُّ مِنْ ذلكَ ، ثمَّ قالَ : أريني درعَكِ الخَلَقَ ، فشقَّهُ وجعلَهُ صرراً وفرَّقَهُ ، ثمَّ قامَ يصلِّي ويبكي إلى الغداةِ ، ثمَّ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يدخلُ فقراءُ المسلمينَ الجنَّةَ قبلَ الأغنياءِ بخمسِ مئةِ عامٍ ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ مِنَ الأغنياءِ يدخلُ في غمارِهِمْ فيُؤخذُ بيدِهِ فيُستخرجُ »[2] .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (ثلاثةٌ يدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ : رجلٌ يريدُ أنْ يغسلَ ثوبَهُ فلمْ يكنْ لهُ خَلَقٌ يلبسُهُ ، ورجلٌ لمْ يُنصبْ لهُ علىٰ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٦٤) .

(٢) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٤٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١/١٤٥) ، وروى المرفوع وحده بنحوه الطبراني في « الكبير » (٦/٥٨) ، ولفظ المرفوع عندهم : « يجمع الله عز وجل الناس للحساب ، فيجيء فقراء المؤمنين يزفون كما تزف الحمام ، فيقال لهم : قفوا عند الحساب ، فيقولون : ما عندنا حساب ولا آتيتمونا شيئاً ، فيقول ربهم : صدق عبادي ، فيفتح لهم باب الجنة ، فيدخلونها قبل الناس بسبعين عاماً » ، وروى الخمس مئة عام الترمذي (٢٣٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

مستوقدِ قدرانِ ، ورجلٌ دعا بشرابِهِ فلا يُقالُ لهُ : أيَّها تريدُ ؟)[1] .

وقيلَ : جاءَ فقيرٌ إلىٰ مجلسِ الثوريِّ رحمهُ اللهُ ، فقالَ لهُ : تخطَّ ، لوْ كنتَ غنياً . . ما قرَّبتُكَ ، وكانَ الأغنياءُ مِنْ أصحابِهِ يودُّونَ أنَّهُمْ فقراءُ ؛ لكثرةِ تقريبِهِ الفقراءَ وإعراضِهِ عنِ الأغنياءِ[2] .

وقالَ المؤملُ : (ما رأيتُ الغنيَّ أذلَّ منهُ في مجلسِ الثوريِّ ، ولا رأيتُ الفقيرَ أعزَّ منهُ في مجلسِ الثوريِّ رحمهُ اللهُ)[3] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مسكينٌ ابنُ آدمَ ، لوْ خافَ مِنَ النارِ كما يخافُ مِنَ الفقرِ . . لنجا منهُما جميعاً ، ولوْ رغبَ في الجنَّةِ كما يرغبُ في الغنىٰ . . لفازَ بهِما جميعاً ، ولوْ خافَ اللهَ في الباطنِ كما يخافُ خلقَهُ في الظاهرِ . . لسعدَ في الدارينِ جميعاً)[4] .

وقالَ ابنُ عباسٍ : (ملعونٌ مَنْ أكرمَ بالغنىٰ وأهانَ بالفقرِ)[5] .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (لا تحقرنَّ أحداً لخُلْقانِ ثيابِهِ ، فإنَّ ربَّكَ وربَّهُ واحدٌ) .

---

(١) رواه أبو بكر الدينوري في « القناعة » (٤٧)، وكذا أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٤٩٠)، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وعزاه المتقي الهندي في « كنز العمال » (٦٠٧٨) لأبي الشيخ في « الثواب » عن أبي سعيد رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩/ ٢٨٢) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٥٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٦٥) عن قبيصة بن عقبة لا عن المؤمل بن إسماعيل .

(٤) روىٰ بعضَه عن يحيى بن معاذ الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٢١٥) ، وأورده القشيري في « الرسالة » (ص ٢٣٦) .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٠/ ٣٥٦) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (حبُّكَ للفقراءِ مِنْ أخلاقِ المرسلينَ ، وإيثارُكَ مجالستَهُمْ مِنْ علامةِ الصالحينَ ، وفرارُكَ مِنْ صحبتِهِمْ مِنْ علامةِ المنافقينَ) .

وفي الأخبارِ عنِ الكتبِ السالفةِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعضِ أنبيائِهِ : احذرْ أنْ أمقتَكَ فتسقطَ مِنْ عيني ، فأصبَّ عليكَ الدنيا صبّاً[1] .

وكانَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها تفرِّقُ مئةَ ألفِ درهمٍ في يومِها ، يوجهُها إليها معاويةُ وابنُ عامرٍ وغيرُهما ، وإنَّ درعَها لمرقوعٌ ، وتقولُ لها الجاريةُ : لوِ اشتريتِ لكِ بدرهمٍ لحماً تفطرينَ عليهِ وكانَتْ صائمةً ، فقالَتْ : لوْ ذكرتيني . . لفعلتُ[2] .

وكانَ قدْ أوصاها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « إنْ أردتِ اللحوقَ بي . . فعليكِ بعيشِ الفقراءِ ، وإيَّاكِ ومجالسةَ الأغنياءِ ، ولا تنزعي درعَكِ حتَّىٰ ترقِّعيهِ »[3] .

وجاءَ رجلٌ إلىٰ إبراهيمَ بنِ أدهمَ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، فأبىٰ عليهِ ، فطلبَ إليهِ الرجلُ قبولَها ، فقالَ إبراهيمُ : تريدُ أنْ أمحوَ اسمي مِنْ ديوانِ الفقراءِ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ؟! لا أفعلُ ذلكَ أبداً[4] .



---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٤٣) .
(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٠/ ٦٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٤٧) .
(٣) رواه الترمذي (١٧٨٠) .
(٤) أورده صاحب «القوت» (٢/ ١٩٥) والسياق عنده، والقشيري في « رسالته » (ص٤٥٣).

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الرّاضين والقانعين والصّادقين

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ هُدِيَ إلى الإسلامِ وكانَ عيشُهُ كفافاً وقنعَ بهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا معشرَ الفقراءِ ؛ أعطوا اللهَ الرضا مِنْ قلوبِكُمْ . . تظفروا بثوابِ فقرِكُمْ ، وإلا . . فلا »[2] ، فالأوّلُ للقانعِ ، وهـٰذا للراضي ، ويكادُ يشعرُ هـٰذا بمفهومِهِ أنَّ الحريصَ لا ثوابَ لهُ علىٰ فقرِهِ ، ولكنِ العموماتُ الواردةُ في فضْلِ الفقرِ تدلُّ علىٰ أنَّ لهُ ثواباً كما سيأتي تحقيقُهُ ، فلعلَّ المرادَ بعدمِ الرضا هوَ الكراهةُ لفعلِ اللهِ في حبسِ الدنيا عنهُ ، وربَّ راغبٍ في المالِ لا يخطرُ بقلبِهِ إنكارٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ ولا كراهةٌ في فعلِهِ ، فتلكَ الكراهةُ هيَ التي تحبطُ ثوابَ الفقرِ .

ورُوِيَ عنْ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « لكلِّ شيءٍ مفتاحٌ ، ومفتاحُ الجنَّةِ حبُّ المساكينِ ،

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٩) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩٧٩٣) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، وعند مسلم (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه » .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٤) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢١٦) ، وحكىٰ سنده الحافظ ابن حجر في « زهر الفردوس » (٤/ ٢٨١) ، وانظر « الإتحاف » (٩/ ٢٨٣ ، ٦٥٠) .

والفقراءُ الصبُرُ هُمْ جلساءُ اللهِ تعالىٰ يومَ القيامةِ »[١] .

ورُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أحبُّ العبادِ إلى اللهِ الفقيرُ القانعُ برزقِهِ الراضي عنِ اللهِ تعالىٰ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اجعلْ قوتَ آلِ محمدٍ كفافاً »[٣] .

وقالَ : « ما مِنْ أحدٍ غنيٍّ ولا فقيرٍ إلا ودَّ يومَ القيامةِ أنَّهُ كانَ أُوتيَ قوتاً في الدنيا »[٤] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ إسماعيلَ عليهِ السلامُ : اطلبْني عندَ المنكسرةِ قلوبُهُمْ ، قالَ : ومَنْ هُمْ ؟ قالَ : الفقراءُ الصادقونَ[٥] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «لا أحدَ أفضلُ مِنَ الفقيرِ إذا كانَ راضياً»[٦] .

---

(١) رواه الديلمي في « الفردوس » (٤٩٩٣) ، والقشيري في « رسالته » (ص٤٥٣) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٤) حيث قال : (وروىٰ عبد الرحمٰن بن سابط عن علي عليه السلام ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل . . .) وذكره ، وتقدم حديث : « إن الله يحب الفقير المتعفف » وهو ما رواه ابن ماجه (٤١٢١) .

(٣) رواه البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) بلفظ : « اللهم ؛ ارزق آل محمد قوتاً » ، وبلفظ المصنف رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٣٤٣) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٢٨٣) : (وفي بعض النسخ : « رزق » بدل « قوت ») .

(٤) رواه ابن ماجه (٤١٤٠) .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٩٢) .

(٦) كذا في « القوت » (١/ ١٩٢) حيث قال : (وفي الحديث الذي روي عن ابن الأعرابي . . .) وذكره .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ : أينَ صفوتي مِنْ خلقي ؟ فتقولُ الملائكةُ : ومَنْ هُمْ يا ربَّنا ؟ فيقولُ : فقراءُ المسلمينَ القانعونَ بعطائي ، الراضونَ بقدري ، أدخلوهُمُ الجنَّةَ ، فيدخلونَها ، ويأكلونَ ويشربونَ والناسُ في الحسابِ يتردَّدونَ »[1] .

فهٰذا في القانعِ والراضي ، وأمَّا الزاهدُ . . فسنذكرُ فضلَهُ في الشطرِ الثاني مِنَ الكتابِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .



وأمَّا الآثارُ في الرضا والقناعةِ . . فكثيرةٌ ، ولا يخفىٰ أنَّ القناعةَ يضادُّها الطمعُ ، وقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الطمعَ فقرٌ ، واليأسَ غنىً ، وإنَّهُ مَنْ يئسَ عمَّا في أيدي الناسِ وقنعَ . . استغنىٰ عنهُمْ)[2] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما مِنْ يومٍ إلا وملكٌ ينادي مِنْ تحتِ العرشِ : يا بنَ آدمَ ؛ قليلٌ يكفيكَ خيرٌ مِنْ كثيرٍ يطغيكَ)[3] .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (ما مِنْ أحدٍ إلا وفي عقلِهِ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أنس) . « إتحاف » (٩/ ٢٨٣) ، وعند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٠٥٨) من حديثه رضي الله عنه : « يقول الله عز وجل يوم القيامة : أدنوا مني أحبائي . . . » الحديث .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٠) .

(٣) قد روىٰ أحمد في « المسند » (٥/ ١٩٧) عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً : « ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يا أيها الناس ؛ هلموا إلىٰ ربكم ؛ فإن ما قلَّ وكفىٰ خير مما كثر وألهىٰ . . . » الحديث .

نقصٌ ، وذلكَ أنَّهُ إذا أتتهُ الدنيا بالزيادةِ . . ظلَّ فرحاً مسروراً ، والليلُ والنهارُ دائبانِ في هدمِ عمرِهِ ثمَّ لا يحزنُهُ ذلكَ ، ويحَ ابنِ آدمَ ! ما ينفعُ مالٌ يزيدُ وعمرٌ ينقصُ ؟!)[1] .

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : ما الغنىٰ ؟ قالَ : قلَّةُ تمنِّيكَ ، ورضاكَ بما يكفيكَ[2] .

وقيلَ : كانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ مِنْ أهلِ النعمِ بخراسانَ ، فبينَما هوَ يشرفُ مِنْ قصرٍ لهُ ذاتَ يومٍ . . إذْ نظرَ إلىٰ رجلٍ في فناءِ القصرِ وفي يدِهِ رغيفٌ يأكلُهُ ، فلمَّا أكلَ . . نامَ ، فقالَ لبعضِ غلمانِهِ : إذا قامَ . . فجئْني بهِ ، فلمَّا قامَ . . جاءَ بهِ إليهِ ، فقالَ إبراهيمُ : أيُّها الرجلُ ؛ أكلتَ الرغيفَ وأنتَ جائعٌ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : فشبعتَ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : ثمَّ نمتَ طيِّباً ؟ قالَ : نعمْ ، فقالَ إبراهيمُ في نفسِهِ : فما أصنعُ أنا بالدنيا والنفسُ تقنعُ بهٰذا القدْرِ[3] .

ومرَّ رجلٌ بعامرِ بنِ عبدِ قيسٍ وهوَ يأكلُ ملحاً وبقلاً ، فقالَ لهُ : يا عبدَ اللهِ ؛ أرضيتَ مِنَ الدنيا بهٰذا ؟ فقالَ : ألا أدلُّكَ علىٰ مَنْ رضيَ بشرٍّ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤٧٧) .

(٢) أي : عدم تعلق النفس بالآمال ، والرضا بما يسر له في الحال ، وهٰذا أحسن ما عرف به الغنىٰ . « إتحاف » (٩/ ٢٨٤) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٢٨٧) .

مِنْ هـٰذا ؟ قالَ : بلىٰ ، قالَ : مَنْ رضيَ بالدنيا عوضاً عنِ الآخرةِ[1] .

وكانَ محمدُ بنُ واسعٍ رحمةُ اللهِ عليهِ يخرجُ خبزاً يابساً فيبلُّهُ بالماءِ ويأكلُهُ بالملحِ ويقولُ : مَنْ رضيَ مِن الدنيا بهـٰذا . . لمْ يحتجْ إلىٰ أحدٍ[2] .

وقال الحسنُ : لعنَ اللهُ أقواماً أقسمَ اللهُ تعالىٰ لهمْ ثمَّ لمْ يصدِّقوهُ ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ . . . ﴾ الآيةَ[3] .

وكانَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ يوماً جالساً في الناسِ ، فأتتْهُ امرأتُهُ فقالَتْ لهُ : أتجلسُ بينَ هؤلاءِ ؟! واللهِ ؛ ما في البيتِ هِفَّةٌ ولا سُفَّةٌ ، فقالَ : يا هـٰذهِ ؛ إنَّ بينَ أيدينا عقبةً كؤوداً لا ينجو منها إلا كلُّ مخفٍّ ، فرجعَتْ وهيَ راضيةٌ[4] .

وقالَ ذو النونِ رحمهُ اللهُ : (أقربُ الناسِ إلى الكفرِ ذو فاقةٍ لا صبرَ لهُ)[5] .

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : ما مالُكَ ؟ فقالَ : التجمُّلُ في الظاهرِ ، والقصدُ

---

(١) ولفظ « القوت » : (وكان عامر بن عبد قيس إذا عوتب في تقلله من الدنيا . . يقول : بل أنتم ـ والله ـ رضيتم بالقليل ، وكان غيره يقول : إذا قيل له : أزهد الناس ، فقال : أنتم أزهد مني ؛ لأني زهدت في قليل يفنىٰ ، وأنتم زهدتم في كثير يبقىٰ) . « إتحاف » (٩/ ٢٨٤) .

(٢) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٥٣) نحوه .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (١٣/ ٢٦/ ٢٥٣) عن الحسن بلاغاً .

(٤) بنحوه رواه ابن عدي في « الكامل » (٦/ ٢٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٢٥) ، والهفة والسفة بوزن المرة : ما يهف وما يسف ، والهِفَّة : من صغار السمك ، والسُّفَّة : حبة من السويق ، تكني عن العدم .

(٥) وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٥٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « كاد الفقر أن يكون كفراً ، وكاد الحسد أن يغلب القدر » .

في الباطنِ ، واليأسُ ممَّا في أيدي الناسِ .

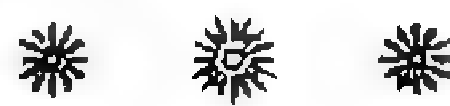
ورُوِيَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ في بعضِ الكتبِ المنزلةِ : يا بنَ آدمَ ؛ لوْ كانَتِ الدنيا كلُّها لكَ . . لمْ يكنْ لكَ منها إلا القوتُ ، فإذا أنا أعطيتُكَ منها القوتَ ، وجعلتُ حسابَها على غيرِكَ . . فأنا محسنٌ إليكَ .

وقدْ قيلَ في القناعةِ(١) : [من البسيط]

اِضْرَعْ إِلَى ٱللهِ لا تَضْرَعْ إِلَى ٱلنَّاسِ ... وَٱقْنَعْ بِيَأْسٍ فَإِنَّ ٱلْعِزَّ فِي ٱلْيَاسِ
وَٱسْتَغْنِ عَنْ كُلِّ ذِي قُرْبَىٰ وَذِي رَحِمٍ ... إِنَّ ٱلْغَنِيَّ مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ عَنِ ٱلنَّاسِ

وقيلَ أيضاً(٢) : [من البسيط]

يا جامِعاً مانِعاً وَٱلدَّهْرُ يَرْمُقُهُ ... مُقَدِّراً أَيَّ بابٍ مِنْهُ يُغْلِقُهُ
مُفَكِّراً كَيْفَ تَأْتِيهِ مَنِيَّتُهُ ... أَغادِياً أَمْ بِها يَسْرِي فَتَطْرُقُهُ
جَمَعْتَ مالاً فَفَكِّرْ هَلْ جَمَعْتَ لَهُ ... يا جامِعَ ٱلْمالِ أَيّاماً تُفَرِّقُهُ
اَلْمالُ عِنْدَكَ مَخْزُونٌ لِوارِثِهِ ... ما ٱلْمالُ مالَكَ إِلاَّ يَوْمَ تُنْفِقُهُ
أَرْفِهْ بِبالِ فَتىً يَغْدُو عَلَىٰ ثِقَةٍ ... إِنَّ ٱلَّذِي قَسَمَ الأَرْزاقَ يَرْزُقُهُ
فَٱلْعِرْضُ مِنْهُ مَصُونٌ ما يُدَنِّسُهُ ... وَٱلْوَجْهُ مِنْهُ جَدِيدٌ لَيْسَ يُخْلِقُهُ
إِنَّ ٱلْقَناعَةَ مَنْ يَحْلُلْ بِساحَتِها ... لَمْ يَلْقَ فِي ظِلِّها هَمّاً يُؤَرِّقُهُ



(١) البيتان لابن أبي حازم في « ديوانه » (ص٦٣) .
(٢) الأبيات للعطوي . انظر « ديوانه » (ص ٨٤ ، ضمن مجلة المورد ، المجلد الأول ١٣٩١ـ ١٩٧١ ـ العددان ١ و٢) ، و« شرح نهج البلاغة » (٢٠/ ٥٥) .

بيان فضل الفقر على الغنى

اعلمْ : أنَّ الناسَ قدِ اختلفوا في هٰذا ، فذهبَ الجنيدُ والخوَّاصُ والأكثرونَ إلىٰ تفضيلِ الفقرِ[1] ، وقالَ ابنُ عطاءٍ : (الغنيُّ الشاكرُ القائمُ بحقِّهِ أفضلُ مِنَ الفقيرِ الصابرِ)[2] ، ويُقالَ : إنَّ الجنيدَ دعا على ابنِ عطاءٍ لمخالفتِهِ إيَّاهُ في هٰذا ، فأصابَتْهُ محنةٌ[3] .

وقدْ ذكرنا ذلكَ في كتابِ الصبرِ ، ووجهَ التفاوتِ بينَ الصبرِ والشكرِ ، ومهدنا سبيلَ طلبِ الفضيلةِ في الأعمالِ والأحوالِ ، وأنَّ ذلك لا يمكنُ إلا بتفصيلٍ .

وأمَّا الفقرُ والغنىٰ إذا أُخذا مطلقاً . . لمْ يستربْ مَنْ قرأَ الأخبارَ والآثارَ في تفضيلِ الفقرِ ، ولا بدَّ فيهِ مِنْ تفصيلٍ ، فنقولُ :

إنَّما يُتصوَّرُ الشكُّ في مقامينِ :

أحدُهُما : فقيرٌ صابرٌ ليسَ بحريصٍ على الطلبِ ، بلْ هوَ قانعٌ أوْ راضٍ بالإضافةِ إلىٰ غنيٍّ منفقٍ مالَهُ في الخيراتِ ، ليسَ حريصاً علىٰ إمساكِ المالِ .

والثاني : فقيرٌ حريصٌ معَ غنيٍّ حريصٍ ؛ إذْ لا يخفىٰ أنَّ الفقيرَ القانعَ

---

(١) والخواص هو إبراهيم بن أحمد ، وضع كتاباً سماه « شرف الفقراء » ، ونقل تفضيله الطوسي في « اللمع » (ص٧٤) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٤) .
(٣) قوت القوب (١/ ٢٠١ ، ٢٦٤) .

أفضلُ مِنَ الغنيِّ الحريصِ الممسكِ ، وأنَّ الغنيَّ المنفقَ مالَهُ في الخيراتِ أفضلُ مِنَ الفقيرِ الحريصِ .

ـ أمَّا **الأوَّلُ** : فربَّما يُظنُّ أنَّ الغنيَّ أفضلُ مِنَ الفقيرِ ؛ لأنَّهُما تساويا في ضعفِ الحرصِ على المالِ ، والغنيُّ متقرِّبٌ بالصدقاتِ والخيراتِ والفقيرُ عاجزٌ عنهُ ، وهـٰذا هوَ الذي ظنَّهُ ابنُ عطاءٍ فيما نحسبُهُ ، فأمَّا الغنيُّ المتمتِّعُ بالمالِ ـ وإنْ كانَ في مباحٍ ـ فلا يُتصوَّرُ أنْ يُفضَّلَ على الفقيرِ القانعِ .

وقدْ يشهدُ لهُ ما رُوِيَ في الخبرِ أنَّ الفقراءَ شكَوا إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سبقَ الأغنياءِ بالخيراتِ والصدقاتِ والحجِّ والجهادِ ، فعلَّمَهُمْ كلماتٍ في التسبيحِ وذكرَ لهُمْ أنَّهُمْ ينالونَ بها فوقَ ما نالَهُ الأغنياءُ ، فتعلَّمَ الأغنياءُ ذلكَ ، فكانوا يقولونَهُ ، فعادَ الفقراءُ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبروه ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ »(١) .

وقدِ استشهدَ ابنُ عطاءٍ أيضاً لمَّا سُئِلَ عنْ ذلكَ فقالَ : (الغنىٰ أفضلُ لأنَّهُ وصْفُ الحقِّ)(٢) .

أمَّا دليلُهُ **الأوَّلُ** . . ففيهِ نظرٌ ؛ لأنَّ الخبرَ قدْ وردَ مفصَّلاً تفصيلاً يدلُّ علىٰ خلافِ ذلكَ ، وهوَ أنَّ ثوابَ الفقيرِ في التسبيحِ يزيدُ علىٰ ثوابِ الغنيِّ ، وأنَّ فوزَهُمْ بذلكَ الثوابِ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ ؛ فقد روىٰ زيدُ بنُ أسلمَ

---

(١) رواه البخاري (٨٤٣) ، ومسلم (٥٩٥) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٤) .

عنْ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : بعثَ الفقراءُ رسولاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : إنِّي رسولُ الفقراءِ إليكَ ، فقالَ : « مرحباً بكَ وبمَنْ جئتَ مِنْ عندِهِمْ ، جئتَ مِنْ عندِ قومٍ أحبُّهُمْ » ، قالَ : قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ الأغنياءَ ذهبوا بالجنَّةِ ؛ يحجُّونَ ولا نقدرُ عليهِ ، ويعتمرونَ ولا نقدرُ عليهِ ، وإذا مرضوا . . بعثوا بفضْلِ أموالِهِمْ ذخيرةً لهُمْ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بلِّغْ عنِّي الفقراءَ أنَّ لمَنْ صبرَ واحتسبَ منكُمْ ثلاثَ خصالٍ ليسَتْ للأغنياءِ ، أمَّا خصلةٌ واحدةٌ : فإنَّ في الجنَّةِ غرفاً ينظرُ إليها أهلُ الجنَّةِ كما ينظرُ أهلُ الأرضِ إلىٰ نجومِ السماءِ ، لا يدخلُها إلا نبيٌّ فقيرٌ أوْ شهيدٌ فقيرٌ أوْ مؤمنٌ فقيرٌ ، والثانيةُ : يدخلُ الفقراءُ الجنَّةَ قبلَ الأغنياءِ بنصفِ يومٍ ، وهوَ خمسُ مئةِ عامٍ ، والثالثةُ : إذا قالَ الغنيُّ : سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلـٰهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ ، وقالَ الفقيرُ مثلَ ذلكَ . . لمْ يلحقِ الغنيُّ بالفقيرِ وإنْ أنفقَ فيها عشرةَ آلافِ درهمٍ ، وكذلكَ أعمالُ البرِّ كلُّها » ، فرجعَ إليهِمْ فأخبرَهُمْ بما قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، فقالوا : رضينا رضينا(١) .

فهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ قولَهُ : « ذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ » أيْ : مزيدُ ثوابِ الفقراءِ علىٰ ذكرِهِمْ .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٦٢) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده هـٰكذا بهـٰذا السياق ، والمعروف في هـٰذا المعنىٰ ما رواه ابن ماجه [٤١٢٤] من حديث ابن عمر : اشتكىٰ فقراء المهاجرين إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل به عليهم أغنياؤهم ، فقال : « يا معشر الفقراء ، ألا أبشركم أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم ؛ خمس مئة عام » ، وإسناده ضعيف) . « إتحاف » (٩/ ٢٨٧) .

وأمَّا قولُهُ : (إنَّ الغنىٰ وصفُ الحقِّ).. فقدْ أجابَهُ بعضُ الشيوخِ فقالَ : أترىٰ أنَّ الحقَّ غنيٌّ بالأسبابِ والأعراضِ ؟! فانقطعَ ولمْ ينطقْ[1] .

وأجابَ آخرونَ فقالوا : إنَّ التكبُّرَ مِنْ صفاتِ الحقِّ ، فينبغي أنْ يكونَ أفضلَ مِنَ التواضعِ ! ثمَّ قالوا : بلْ هٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الفقرَ أفضلُ ؛ لأنَّ صفاتِ العبوديةِ أفضلُ للعبدِ ؛ كالخوفِ والرجاءِ ، وصفاتُ الربوبيَّةِ لا ينبغي أنْ يُنازعَ فيها ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ فيما روىٰ عنهُ نبيُّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الكبرياءُ ردائي والعظمةُ إزاري ، فمَنْ نازعَني فيهما.. قصمتُهُ »[2] .

وقالَ سهلٌ : (حبُّ العزِّ والبقاءِ شركٌ في الربوبيةِ ومنازعةٌ فيها ؛ لأنَّهُما مِنْ صفاتِ الربِّ تعالىٰ)[3] .

فمِنْ هٰذا الجنسِ تكلَّموا في تفضيلِ الغنىٰ والفقرِ ، وحاصلُ ذلكَ : تعلُّقٌ بعموماتٍ تقبلُ التأويلَ ، وبكلماتٍ قاصرةٍ لا تبعدُ مناقضتُها ، إذْ كما يُناقضُ قولُ مَنْ فضَّلَ الغنىٰ بأنَّهُ صفةُ الحقِّ.. بالتكبُّرِ ؛ فكذلكَ يُناقضُ قولُ مَنْ فضَّلَ الفقرَ بأنَّهُ وصفُ العبدِ.. بالعلمِ والمعرفةِ ؛ فإنَّهُ وصفُ الربِّ تعالىٰ ، والجهلُ والغفلةُ وصفُ العبدِ ، وليسَ لأحدٍ أنْ يفضِّلَ الغفلةَ على العلمِ .

فكشفُ الغطاءِ عنْ هٰذا هوَ ما ذكرناهُ في كتابِ الصبرِ ، وهوَ أنَّ ما لا

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٦٤) .
(٢) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٩٠) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٦٤) .

يُرادُ لعينِهِ بلْ يُرادُ لغيرِهِ.. فينبغي أنْ يُضافَ إلىٰ مقصودِهِ ؛ إذْ بهِ يظهرُ فضلُهُ ، والدنيا ليسَتْ محذورةً لعينِها ، ولكنْ لكونِها عائقةً عنِ الوصولِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولا الفقرُ مطلوبٌ لعينِهِ ، لكنْ لأنَّ فيهِ فقدَ العائقِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وعدمَ الشاغلِ عنهُ ، وكمْ مِنْ غنيٍّ لمْ يشغلْهُ الغنىٰ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، مثلَ سليمانَ عليهِ السلامُ ، وعثمانَ ، وعبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، وكمْ مِنْ فقيرٍ شغلَهُ الفقرُ وصرفَهُ عنِ المقصدِ ، **وغايةُ المقصدِ في الدنيا هوَ حبُّ اللهِ تعالىٰ والأنسُ بهِ** ، ولا يكونُ ذلكَ إلا بعدَ معرفتِهِ ، وسلوكُ سبيلِ المعرفةِ معَ الشواغلِ غيرُ ممكنٍ ، والفقرُ قدْ يكونُ مِنَ الشواغلِ ؛ كما أنَّ الغنىٰ قدْ يكونُ مِنَ الشواغلِ ، **وإنَّما الشاغلُ على التحقيقِ حبُّ الدنيا** ؛ إذْ لا يجتمعُ معَهُ حبُّ اللهِ في القلبِ ، والمحبُّ للشيءِ مشغولٌ بهِ سواءٌ كانَ في فراقِهِ أوْ في وصالِهِ ، وربما يكونُ شغلُهُ في الفراقِ أكثرَ ، وربما يكونُ شغلُهُ في الوصالِ أكثرَ ، والدنيا معشوقةُ الغافلينَ ، المحرومُ منها مشغولٌ بطلبِها ، والقادرُ عليها مشغولٌ بحفظِها والتمتعِ بها .

فإذاً ؛ إنْ فرضتَ فارغينِ عنْ حبِّ المالِ ؛ بحيثُ صارَ المالُ في حقِّهما كالماءِ.. استوى الفاقدُ والواجدُ ؛ إذْ كلُّ واحدٍ غيرُ متمتِّعٍ إلا بقدْرِ الحاجةِ ، ووجودُ قدْرِ الحاجةِ أفضلُ مِنْ فقدِهِ ؛ إذِ الجائعُ يسلكُ سبيلَ الموتِ لا سبيلَ المعرفةِ .

وإنْ أخذتَ الأمرَ باعتبارِ الأكثرِ.. فالفقيرُ عنِ الخطرِ أبعدُ ؛ إذْ فتنةُ السرَّاءِ أشدُّ مِنْ فتنةِ الضرَّاءِ ، ومِنَ العصمةِ ألا يقدرَ ، ولذلكَ قالَ الصحابةُ

رضيَ اللهُ عنهُمْ : (بُلينا بفتنةِ الضرَّاءِ فصبرنا ، وبُلينا بفتنةِ السرَّاءِ فلمْ نصبرْ)[1] ، وهـٰذهِ خِلقةُ الآدميينَ كلِّهِمْ إلا الشاذَّ الفذَّ الذي لا يُوجدُ في الأعصارِ الكثيرةِ إلا نادراً .

ولمَّا كانَ خطابُ الشرعِ معَ الكلِّ لا معَ ذلكَ النادرِ ، والضراءُ أصلحُ للكلِّ دونَ ذلكَ النادرِ . . زجرَ الشرعُ عنِ الغنىٰ وذمَّهُ ، وفضَّلَ الفقرَ ومدحَهُ ، حتىٰ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا تنظروا إلىٰ أموالِ أهلِ الدنيا ، فإنَّ بريقَ أموالِهِمْ يذهبُ بنورِ إيمانِكُمْ)[2] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (تقليبُ الأموالِ يمصُّ حلاوةَ الإيمانِ)[3] .

وفي الخبرِ : « لكلِّ أمةٍ عجلٌ ، وعجلُ هـٰذهِ الأمَّةِ الدينارُ والدرهمُ »[4] ، وكانَ أصلُ عجلِ قومِ موسىٰ مِنْ حليةِ الذهبِ والفضةِ أيضاً .

واستواءُ المالِ والماءِ والذهبِ والحجرِ إنَّما يُتصوَّرُ للأنبياءِ والأولياءِ ، ثمَّ يتمُّ لهُمْ ذلكَ بعدَ فضْلِ اللهِ تعالىٰ بطولِ المجاهدةِ ، إذْ كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ

---

(١) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٢١٩) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٢) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٦٢) .
(٤) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » [٥٠١٩] من طريق أبي عبد الرحمـٰن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة) . « إتحاف » (٩/ ٢٨٩) .

عليهِ وسلَّمَ يقولُ للدنيا : « إليكِ عنِّي » إذْ كانَتْ تتمثَّلُ لهُ بزينتِها[1] .

وكانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (يا صفراءُ ؛ غرِّي غيري ، ويا بيضاءُ ؛ غرِّي غيري)[2] وذلكَ لاستشعارِهِ في نفسِهِ ظهورَ مبادي الاغترارِ بها لولا أنْ رأىٰ برهانَ ربِّهِ ، وذلكَ هوَ الغنى المطلقُ ، إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الغنىٰ عنْ كثرةِ العرضِ ، إنَّما الغنىٰ غنى النفسِ »[3] .

وإذا كانَ ذلكَ بعيداً . . فإذاً الأصلحُ لكافَّةِ الخلقِ فقْدُ المالِ وإنْ تصدَّقوا بهِ وصرفوهُ إلى الخيراتِ ؛ لأنَّهُمْ لا ينفكُّونَ في القدرةِ على المالِ عنْ أُنْسٍ بالدنيا ، وتمتعٍ بالقدرةِ عليها ، واستشعارِ راحةٍ في بذلِها ، وكلُّ ذلكَ يورثُ الأُنْسَ بهٰذا العالمِ ، وبقدْرِ ما يأنسُ العبدُ بالدنيا يستوحشُ مِنَ الآخرةِ ، وبقدْرِ ما يأنسُ بصفةٍ مِنْ صفاتِهِ ـ سوىٰ صفةِ المعرفةِ باللهِ ـ يستوحشُ مِنَ اللهِ ومِنْ حبِّهِ ، ومهما انقطعَتْ أسبابُ الأنسِ بالدنيا . . تجافى القلبُ عنِ الدنيا وزهرتِها ، والقلبُ إذا تجافىٰ عمَّا سوى اللهِ تعالىٰ وكانَ مؤمناً باللهِ . . انصرفَ ـ لا محالةَ ـ إلى اللهِ ؛ إذْ لا يُتصوَّرُ قلبٌ فارغٌ .

وليسَ في الوجودِ إلا اللهُ تعالىٰ وغيرُهُ ، فمَنْ أقبلَ علىٰ غيرِهِ . . فقدْ تجافىٰ عنهُ ، ومَنْ أقبلَ عليهِ . . تجافىٰ عنْ غيرِهِ ، ويكونُ إقبالُهُ علىٰ أحدِهِما

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١) ، والبزار في « مسنده » (٤٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٣٩) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٨١) .

(٣) رواه البخاري (٦٤٤٦) ، ومسلم (١٠٥١) .

بقدْرِ تجافيهِ عنِ الآخرِ ، وقربُهُ مِنْ أحدِهِما بقدْرِ بعدِهِ مِنَ الآخرِ ، ومثلُهُما مثلُ المشرقِ والمغربِ ، فإنَّهُما جهتانِ ، فالمتردِّدُ بينَهُما بقدْرِ ما يقربُ مِنْ أحدِهِما يبعدُ مِنَ الآخرِ ، بلْ عينُ القرْبِ مِنْ أحدِهِما هوَ عينُ البعدِ مِنَ الآخرِ ، فعينُ حبِّ الدنيا هوَ عينُ بغضِ اللهِ تعالىٰ ، فينبغي أنْ يكونَ مطمحُ نظرِ العارفِ قلبَهُ في عزوفِهِ عنِ الدنيا وأنسِهِ بها .

فإذاً ؛ فضْلُ الفقيرِ والغنيِّ بحسَبِ تعلُّقِ قلبيهِما بالمالِ فقطْ ، فإنْ تساويا فيهِ . . تساوَتْ درجتُهُما ، إلا أنَّ هٰذا مزلَّةُ قدمٍ وموضعُ غرورٍ ؛ فإنَّ الغنيَّ ربما يظنُّ أنَّهُ منقطعُ القلبِ عنِ المالِ ويكونُ حبُّهُ دفيناً في باطنِهِ وهوَ لا يشعرُ بهِ ، وإنَّما يشعرُ بهِ إذا فقدَهُ ، فليجرِّبْ نفسَهُ بتفريقِهِ أوْ إذا سُرِقَ منهُ ، فإنْ وجدَ لقلبِهِ إليهِ التفاتاً . . فليعلمْ أنَّهُ كانَ مغروراً ، فكَمْ مِنْ رجلٍ باعَ سُرِّيَّةً لهُ لظنِّهِ أنَّهُ منقطعُ القلبِ عنها ، فبعدَ لزومِ البيعِ وتسليمِ الجاريةِ . . اشتعلَتْ مِنْ قلبِهِ النارُ التي كانَتْ مستكنَّةً فيهِ ، فتحقَّقَ بهِ أنَّهُ كانَ مغروراً ، وأنَّ العشقَ كانَ مستكنّاً في الفؤادِ استكنانَ النارِ تحتَ الرمادِ ، وهٰذا حالُ كلِّ الأغنياءِ ، إلا الأنبياءَ والأولياءَ .

وإذا كانَ ذلكَ محالاً أوْ بعيداً . . فلنطلقِ القولَ بأنَّ الفقرَ أصلحُ لكافَّةِ الخلقِ وأفضلُ ؛ لأنَّ علاقةَ الفقيرِ وأنسَهُ بالدنيا أضعفُ ، وبقدْرِ ضعفِ علاقتِهِ يتضاعفُ ثوابُ تسبيحاتِهِ وعباداتِهِ ، فإنَّ حركاتِ اللسانِ ليسَتْ مرادةً لأعيانِها ، بلْ ليتأكَّدَ بها الأنسُ بالمذكورِ ، ولا يكونُ تأثيرُها في إثارةِ الأنسِ في قلبٍ فارغٍ مِنْ غيرِ المذكورِ كتأثيرِها في قلبٍ مشغولٍ .

ولذلكَ قالَ بعضُ السلفِ : (مثلُ مَنْ تعبَّدَ وهوَ في طلبِ الدنيا مثلُ مَنْ يطفيءُ النارَ بالحلفاءِ ، ومثلُ مَنْ يغسلُ يدَهُ مِنَ الغَمَرِ بالسمكِ)[١] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (تنفُّسُ فقيرٍ دونَ شهوةٍ لا يقدرُ عليها أفضلُ مِنْ عبادةِ غنيٍّ ألفَ عامٍ)[٢] .

وعنِ الضحَّاكِ قالَ : (مَنْ دخلَ السوقَ ، فرأىٰ شيئاً يشتهيهِ ، فصبرَ واحتسبَ . . كانَ خيراً لهُ مِنْ ألفِ دينارٍ ينفقُها كلَّها في سبيلِ اللهِ تعالىٰ) .

وقالَ رجلٌ لبشرِ بنِ الحارثِ رحمهُ اللهُ : ادعُ اللهَ لي ، فقدْ أضرَّ بي الفقرُ والعيالُ ، فقالَ : إذا قالَ لكَ عيالُكَ : ليسَ عندَنا دقيقٌ ولا خبزٌ . . فادعُ لي في ذلكَ الوقتِ ؛ فإنَّ دعاءَكَ أفضلُ مِنْ دعائي[٣] .

وكانَ يقولُ : (مثلُ الغنيِّ المتعبِّدِ مثلُ روضةٍ علىٰ مزبلةٍ ، ومثلُ الفقيرِ المتعبِّدِ مثلُ عقدِ الجوهرِ في جيدِ الحسناءِ)[٤] .

وقدْ كانوا يكرهونَ سماعَ علمِ المعرفةِ مِنَ الأغنياءِ[٥] .

وقدْ قالَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الذلَّ عندَ النصَفِ مِنْ نفسي ، والزهدَ فيما جاوزَ الكفافَ)[٦] ، وإذا كانَ مثلُ الصدِّيقِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٦٢) ، والغَمَر : ريح اللحم وزهمه .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٩٢) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٩٢) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٩٢) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ١٩٣) .
(٦) قوت القلوب (١/ ٢٦٢) .

رضيَ اللهُ عنهُ في كمالِ حالِهِ يحذرُ مِنَ الدنيا ووجودِها . . فكيفَ يُشَكُّ في أنَّ فقدَ المالِ أصلحُ مِنْ وجودِهِ ؟! هـٰذا معَ أنَّ أحسنَ أحوالِ الغنيِّ أنْ يأخذَ حلالاً ، وينفقَ طيِّباً ، ومعَ ذلكَ فيطولُ حسابُهُ في عرصاتِ القيامةِ ، ويطولُ انتظارُهُ ، ومَنْ نُوقشَ الحسابَ . . عُذِّبَ ، ولهـٰذا تأخَّرَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ عنِ الجنَّةِ ؛ إذْ كانَ مشغولاً بالحسابِ كما رآهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(١) .

ولهـٰذا قالَ أبو الدرداءِ : ما أحبُّ أنَّ لي حانوتاً علىٰ بابِ المسجدِ ولا تخطئُني فيهِ صلاةٌ وذكرٌ وأربحُ كلَّ يومٍ أربعينَ ديناراً وأتصدَّقُ بها في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، قيلَ : وما تكرهُ ؟ قالَ : سوءَ الحسابِ(٢) .

ولذلكَ قالَ سفيانُ رحمهُ اللهُ : (اختارَ الفقراءُ ثلاثةَ أشياءَ ، واختارَ الأغنياءُ ثلاثةَ أشياءَ ؛ اختارَ الفقراءُ راحةَ النفسِ ، وفراغَ القلبِ ، وخفَّةَ الحسابِ ، واختارَ الأغنياءُ تعبَ النفسِ ، وشغلَ القلبِ ، وشدَّةَ الحسابِ) .

وما ذكرَهُ ابنُ عطاءٍ مِنْ أنَّ الغنىٰ وصفُ الحقِّ ؛ فهوَ بذلكَ أفضلُ . . فهوَ صحيحٌ ، ولكنْ إذا كانَ العبدُ غنيّاً عنْ وجودِ المالِ وعدمِهِ جميعاً ، بأنْ يستويَ عندَهُ كلاهُما ، فأمَّا إذا كانَ غنيّاً بوجودِهِ ومفتقراً إلىٰ بقائِهِ . . فلا يضاهي غناهُ غنى اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ غنيٌّ بذاتِهِ ، لا بما يُتصوَّرُ زوالُهُ ، والمالُ يُتصوَّرُ زوالُهُ بأنْ يُسرقَ .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٣٦) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٠٩) .

وما ذُكِرَ في الردِّ عليهِ مِنْ أنَّ اللهَ ليسَ غنياً بالأعراضِ والأسبابِ.. صحيحٌ في ذمِّ غنيٍّ يريدُ بقاءَ المالِ ، وما ذُكِرَ مِنْ أنَّ صفاتِ الحقِّ لا تليقُ بالعبدِ.. غيرُ صحيحٍ ، بلِ العلمُ مِنْ صفاتِهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ أفضلُ شيءٍ للعبدِ ، بلْ منتهى العبدِ أنْ يتخلَّقَ بأخلاقِ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ سمعتُ بعضَ المشايخِ يقولُ : إنَّ سالكَ الطريقِ إلى اللهِ تعالىٰ قبلَ أنْ يقطعَ الطريقَ تصيرُ الأسماءُ التسعةُ والتسعونَ أوصافاً لهُ ؛ أيْ : يكونُ لهُ مِنْ كلِّ واحدٍ نصيبٌ .

وأمَّا التكبُّرُ.. فلا يليقُ بالعبدِ ، فإنَّ التكبُّرَ علىٰ مَنْ لا يستحقُّ التكبُّرَ عليهِ ليسَ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا التكبُّرُ علىٰ مَنْ يستحقُّهُ ؛ كتكبُّرِ المؤمنِ على الكافرِ ، وتكبُّرِ العالمِ على الجاهلِ ، والمطيعِ على العاصي.. فيليقُ بهِ .

نعمْ ، قدْ يُرادُ بالتكبُّرِ الزهوُ والصلفُ والإيذاءُ ، وليسَ ذلكَ مِنْ وصفِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما وصفُ اللهِ تعالىٰ أنَّهُ أكبرُ مِنْ كلِّ شيءٍ ، وأنَّهُ يعلمُ أنَّهُ كذلكَ ، والعبدُ مأمورٌ بأنْ يطلبَ أعلى المراتبِ إنْ قدرَ عليهِ ، ولكنْ بالاستحقاقِ كما هوَ حقُّهُ ، لا بالباطلِ والتلبيسِ ، فعلى العبدِ أنْ يعلمَ أنَّ المؤمنَ أكبرُ مِنَ الكافرِ ، والمطيعَ أكبرُ مِنَ العاصي ، والعالمَ أكبرُ مِنَ الجاهلِ ، والإنسانَ أكبرُ مِنَ البهيمةِ والجمادِ والنباتِ ، وأقربُ إلى اللهِ تعالىٰ منها ، فلو رأىٰ نفسَهُ بهـٰذهِ الصفةِ رؤيةً محقَّقةً لا شكَّ فيها.. لكانَتْ صفةُ التكبُّرِ حاصلةً لهُ ولائقةً بهِ وفضيلةً في حقِّهِ ، إلا أنَّهُ لا سبيلَ لهُ إلىٰ معرفتِهِ ، فإنَّ ذلكَ موقوفٌ على الخاتمةِ ، وليسَ يدري الخاتمةَ كيفَ تكونُ ، وكيفَ تتفقُ ، فلجهلِهِ بذلكَ وجبَ ألا يعتقدَ لنفسِهِ رتبةً فوقَ رتبةِ الكافرِ ؛ إذْ ربما

يُختمُ للكافرِ بالإيمانِ ويُختمُ لهُ بالكفرِ ، فلمْ يكنْ ذلكَ لائقاً بهِ ؛ لقصورِ علمِهِ عنْ معرفةِ العاقبةِ .

ولمَّا تُصوِّرَ أنْ يعلمَ الشيءَ علىٰ ما هوَ بهِ . . كانَ العلمُ كمالاً في حقِّهِ ؛ لأنَّهُ مِنْ صفاتِ اللهِ ، ولمَّا كانَتْ معرفةُ بعضِ الأشياءِ قدْ تضرُّهُ . . صارَ ذلكَ العلمُ نقصاً في حقِّهِ ؛ إذْ ليسَ مِنْ أوصافِ اللهِ تعالىٰ علمٌ يضرُّهُ ، فمعرفةُ الأمورِ التي لا ضررَ فيها هيَ التي تُتصوَّرُ في العبدِ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، فلا جرمَ هوَ منتهى الفضيلةِ ، وبهِ فضلَ الأنبياءُ والأولياءُ والعلماءُ .

فإذاً ؛ لوِ استوىٰ عندَهُ وجودُ المالِ وعدمُهُ . . فهـٰذا نوعٌ مِنَ الغنىٰ يضاهي بوجهٍ مِنَ الوجوهِ الغنى الذي يُوصفُ بهِ اللهُ سبحانَهُ[1] ، فهوَ فضيلةٌ ، أمَّا الغنىٰ بوجودِ المالِ . . فلا فضيلةَ فيهِ أصلاً .

فهـٰذا بيانُ نسبةِ حالِ الفقيرِ القانعِ إلىٰ حالِ الغنيِّ الشاكرِ .

ـ **المقامُ الثاني** : في نسبةِ حالِ الفقيرِ الحريصِ إلى حالِ الغنيِّ الحريصِ :

ولنفرضْ ذلكَ في شخصٍ واحدٍ هوَ طالبٌ للمالِ وساعٍ فيهِ وفاقدٌ لهُ ثمَّ وجدَهُ ، فلهُ حالةُ الفقدِ وحالةُ الوجودِ ، فأيُّ حالتيهِ أفضلُ ؟

فنقولُ : ننظرُ ؛ فإنْ كانَ مطلوبُهُ ما لا بدَّ منهُ في المعيشةِ ، وكانَ قصدُهُ أنْ يسلكَ سبيلَ الدينِ ، ويستعينَ بهِ عليهِ . . فحالُ الوجودِ أفضلُ ؛ لأنَّ الفقرَ

(١) **يضاهي هنا** : يشاكل ويشابه ، ويقال : فلان يضاهي فلاناً ؛ أي : يتابعه .

يشغلُهُ بالطلبِ ، وطالبُ القوتِ لا يقدرُ على الذكرِ والفكرِ إلا قدرةً مدخولةً بشغلٍ ، والمكفيُّ هوَ القادرُ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اجعلْ قوتَ آلِ محمدٍ كفافاً »[1] .

وقالَ : « كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كفراً »[2] أيِ : الفقرُ معَ الاضطرارِ فيما لا بدَّ منهُ .

وإنْ كانَ المطلوبُ فوقَ الحاجةِ ، أوْ كانَ المطلوبُ قدْرَ الحاجةِ ولكنْ لمْ يكنِ المقصودُ الاستعانةَ بهِ علىٰ سلوكِ سبيلِ الدينِ . . فحالةُ الفقرِ أصلحُ وأفضلُ ؛ لأنَّهُما استويا في الحرصِ وحبِّ المالِ ، واستويا في أنَّ كلَّ واحدٍ منهُما ليسَ يقصدُ بهِ الاستعانةَ علىٰ طريقِ الدينِ ، واستويا في أنَّ كلَّ واحدٍ منهُما ليسَ يتعرَّضُ لمعصيةٍ بسببِ الفقرِ والغنىٰ ، ولكنِ افترقا في أنَّ الواجدَ يأنسُ بما وجدَهُ ، فيتأكَّدُ حبُّهُ في قلبِهِ ، ويطمئنُّ إلى الدنيا ، والفاقدُ المضطرُّ يتجافىٰ قلبُهُ عنِ الدنيا ، وتكونُ الدنيا عندَهُ مثلَ السجنِ الذي يبغي الخلاصَ منهُ .

ومهمَا استوتِ الأمورُ كلُّها ، وخرجَ مِنَ الدنيا رجلانِ ؛ أحدُهُما أشدُّ ركوناً إلى الدنيا . . فحالُهُ أشدُّ لا محالةَ ؛ إذْ يلتفتُ قلبُهُ إلى الدنيا ،

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) بلفظ : « اللهم ؛ ارزق آل محمد قوتاً » ، وبلفظ المصنف رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٣٤٣) .

(٢) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

ويستوحشُ مِنَ الآخرةِ بقدْرِ تأكُّدِ أنسِهِ بالدنيا ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ روحَ القدسِ نفثَ في رُوعي : أحببْ مَنْ أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ »[1] ، وهٰذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ فراقَ المحبوبِ شديدٌ .

فينبغي أنْ تحبَّ مَنْ لا يفارقُكَ ، وهوَ اللهُ تعالىٰ ، ولا تحبَّ ما يفارقُكَ ، وهوَ الدنيا ؛ فإنَّكَ إذا أحببتَ الدنيا . . كرهْتَ لقاءَ اللهِ تعالىٰ ، فيكونُ قدومُكَ بالموتِ علىٰ ما تكرهُهُ ، وفراقُكَ لما تحبُّهُ ، وكلُّ مَنْ فارقَ محبوباً فيكونُ أذاهُ في فراقِهِ بقدْرِ حبِّهِ وقدْرِ أنسِهِ بهِ ، وأنسُ الواجدِ للدنيا بالدنيا أكثرُ مِنْ أنسِ الفاقدِ لها وإنْ كانَ حريصاً عليها .

* * *

فإذاً ؛ قدِ انكشفَ بهٰذا التحقيقِ أنَّ الفقرَ هوَ الأشرفُ والأفضلُ والأصلحُ لكافَّةِ الخلقِ إلا في موضعينِ :

أحدُهُما : غنىً مثلُ غنىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، استوىٰ عندَهُ الوجودُ والعدمُ ، فيكونُ الوجودُ مزيداً لهُ ، إذْ يستفيدُ بهِ أدعيةَ الفقراءِ والمساكينِ وجمعَ هِمَمِهِمْ .

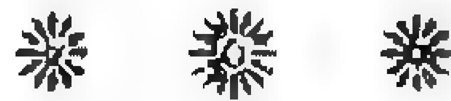
والثاني : الفقرُ عنْ مقدارِ الضرورةِ ، فإنَّ ذلكَ يكادُ أنْ يكونَ كفراً ،

---

(١) الشطر الأول من الحديث رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ١٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٦) ، والثاني رواه أيضاً أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) .

ولا خيرَ فيهِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ ، إلا إذا كانَ وجودُهُ يُبقي حياتَهُ ، ثمَّ يستعينُ بقوتِهِ وحياتِهِ على الكفرِ والمعاصي ، ولوْ ماتَ جوعاً . . لكانَتْ معاصيهِ أقلَّ ، فالأصلحُ لهُ أنْ يموتَ جوعاً ولا يجدَ ما يُضطرُّ إليهِ أيضاً .

فهٰذا تفصيلُ القولِ في الغنىٰ والفقرِ ، ويبقى النظرُ في فقيرٍ حريصٍ متكالبٍ علىٰ طلبِ المالِ ، ليسَ لهُ همٌّ سواهُ ، وفي غنيٍّ دونَهُ في الحرصِ علىٰ حفظِ المالِ ، ولمْ يكنْ تفجُّعُهُ بفقْدِ المالِ لوْ فقدَهُ كتفجُّعِ الفقيرِ بفقدِهِ ، فهٰذا في محلِّ النظرِ ، والأظهرُ : أنَّ بعدَهُما عنِ اللهِ تعالىٰ بقدْرِ قوَّةِ تفجُّعِهِما لفقدِ المالِ ، وقربَهُما بقدْرِ ضعفِ تفجُّعِهِما بفقدِهِ ، والعلمُ عندَ اللهِ تعالىٰ فيهِ .



بيان آداب الفقير في فقره

اعلمْ : أنَّ للفقيرِ آداباً في باطنِهِ وظاهرِهِ ، ومخالطتِهِ وأفعالِهِ ، ينبغي أنْ يراعيَها .

فأمَّا أدبُ باطنِهِ : فألا يكونَ فيهِ كراهةٌ لما ابتلاهُ اللهُ تعالىٰ بهِ مِنَ الفقرِ ؛ أعني أنَّهُ لا يكونُ كارهاً فعلَ اللهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُهُ وإنْ كانَ كارهاً للفقرِ ؛ كالمحجومِ يكونُ كارهاً للحجامةِ لتألُّمِهِ بها ، ولا يكونُ كارهاً فعلَ الحجَّامِ ، ولا كارهاً للحجَّامِ ، بلْ ربما يتقلَّدُ منهُ منَّةً .

فهٰذا أقلُّ درجاتِهِ ، وهوَ واجبٌ ، ونقيضُهُ حرامٌ ومحبطٌ ثوابَ الفقرِ ، وهوَ معنىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يا معشرَ الفقراءِ ؛ أعطوا اللهَ الرضا مِنْ قلوبِكُمْ . . تظفروا بثوابِ فقرِكُمْ ، وإلا . . فلا »[1] .

وأرفعُ مِنْ هٰذا : ألا يكونَ كارهاً للفقرِ ، بلْ يكونُ راضياً بهِ .

وأرفعُ منهُ : أنْ يكونَ طالباً لهُ ، وفرحاً بهِ ؛ لعلمِهِ بغوائلِ الغنىٰ ، ويكونَ متوكلاً في باطنِهِ على اللهِ تعالىٰ ، واثقاً بهِ في قدْرِ ضرورتِهِ أنَّهُ يأتيهِ لا محالةَ ، ويكونَ كارهاً للزيادةِ على الكفافِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/١٩٤) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢١٦) ، وحكىٰ سنده الحافظ ابن حجر في « زهر الفردوس » (٤/٢٨١) ، وانظر « الإتحاف » (٩/٢٨٣ ، ٦٥٠) .

وقدْ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ للهِ تعالىٰ عقوباتٍ بالفقرِ ومثوباتٍ بالفقرِ ، فمِنْ علامةِ الفقرِ إذا كانَ مثوبةً أنْ يحسنَ عليهِ خلقُهُ ، ويطيعَ بهِ ربَّهُ ، ولا يشكوَ حالَهُ ، ويشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ فقرِهِ ، ومِنْ علامتِهِ إذا كانَ عقوبةً أنْ يسوءَ عليهِ خلقُهُ ، ويعصيَ ربَّهُ بتركِ طاعتِهِ ، ويكثرَ الشكايةَ ، ويتسخَّطَ القضاءَ)[1] .

وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ كلَّ فقيرٍ فليسَ بمحمودٍ ، بلِ الذي لا يتسخَّطُ ، أوْ يرضىٰ ، أوْ يفرحُ بالفقرِ ويرضىٰ لعلمِهِ بثمرتِهِ ؛ إذْ قيلَ : (ما أُعطيَ عبدٌ شيئاً مِنَ الدنيا إلا قيلَ لهُ : خذْهُ علىٰ ثلاثةِ أثلاثٍ : شغلٍ وهمٍّ وطولِ حسابٍ)[2] .

وأمّا أدبُ ظاهرِهِ : فأنْ يظهرَ التعفُّفَ والتجمُّلَ ، ولا يظهرَ الشكوىٰ والفقرَ ، بلْ يسترُ فقرَهُ ، ويسترُ أنَّهُ يسترُهُ ؛ ففي الحديثِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ الفقيرَ المتعفِّفَ أبا العيالِ »[3] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ .

وقالَ سفيانُ : (أفضلُ الأعمالِ التجمُّلُ عندَ المحنةِ)[4] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٣) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٩٥) .
(٣) رواه ابن ماجه (٤١٢١) .
(٤) قوت القوت (٢/ ١٩٤) .

وقالَ بعضُهُمْ : (سترُ الفقرِ مِنْ كنوزِ البرِّ) .

وأمَّا في أعمالِهِ : فأدبُهُ : ألا يتواضعَ لغنيٍّ لأجلِ غناهُ ، بلْ يتكبَّرُ عليهِ ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما أحسنَ تواضعَ الغنيِّ للفقيرِ رغبةً في ثوابِ اللهِ تعالىٰ ، وأحسنُ منهُ تيهُ الفقيرِ على الغنيِّ ثقةً باللهِ عزَّ وجلَّ)[(١)] .

فهـٰذهِ رتبةٌ ، وأقلُّ منها : ألا يخالطَ الأغنياءَ ولا يرغبَ في مجالستِهِمْ ؛ لأنَّ ذلكَ مِنْ مبادي الطمعِ ، قالَ الثوريُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إذا خالطَ الفقيرُ الأغنياءَ . . فاعلمْ أنَّهُ مراءٍ ، وإذا خالطَ السلطانَ . . فاعلمْ أنَّهُ لصٌّ)[(٢)] .

وقالَ بعضُ العارفينَ : (إذا مالَ الفقيرُ إلى الأغنياءِ . . انحلَّتْ عروتُهُ ، فإذا طمعَ فيهِمْ . . انقطعَتْ عصمتُهُ ، فإذا سكنَ إليهِمْ . . ضلَّ)[(٣)] .

وينبغي ألا يسكتَ عنْ ذكرِ الحقِّ مداهنةً للأغنياءِ ، وطمعاً في العطاءِ[(٤)] .

---

(١) القول له في حكاية منام رآه الفتح بن شخرف ، رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٢/ ٣٨١) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٨٧) . وفيه : (القارىء) بدل (الفقير) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٩٦) .

(٤) وهـٰذا واجب ، روى البيهقي في « الشعب » (٧٨٨٢) من قول ابن مسعود : (من خضع لغني ، ووضع له نفسه إعظاماً له ، وطمعاً فيما قبله . . ذهب ثلثا مروءته وشطر دينه) . « إتحاف » (٩/ ٢٩٦) .

وأمّا أدبُهُ في أفعالِهِ : فألا يفترَ بسببِ الفقرِ عنْ عبادةٍ ، ولا يمنعَ بذلَ قليلِ ما يفضلُ عنهُ ؛ فإنَّ ذلكَ جهدُ المقلِّ ، وفضلُهُ أكثرُ مِنْ أموالٍ كثيرةٍ تُبذلُ عنْ ظهرِ غنىً .

وروىٰ زيدُ بنُ أسلمَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « درهمٌ مِنَ الصدقةِ أفضلُ عندَ اللهِ تعالىٰ من مئةِ ألفِ درهمٍ » ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أخرجَ رجلٌ مِنْ عرضِ مالِهِ مئةَ ألفِ درهمٍ فتصدَّقَ بها ، وأخرجَ رجلٌ درهماً مِنْ درهمينِ لا يملكُ غيرَهُما طيبةً مِنْ نفسِهِ ، فصارَ صاحبُ الدرهمِ أفضلَ مِنْ صاحبِ المئةِ ألفِ »(١) .

وينبغي ألا يدخرَ مالاً ، بلْ يأخذُ قدْرَ الحاجةِ ويخرجُ الباقيَ ، **وفي الادخارِ ثلاثُ درجاتٍ** :

إحداها : ألا يدخرَ إلا ليومِهِ وليلتِهِ ، وهيَ درجةُ الصديقينَ .

والثانيةُ : أنْ يدخرَ لأربعينَ يوماً ، فإنَّ ما زادَ عليهِ داخلٌ في طولِ الأملِ ، وقدْ فهمَ العلماءُ ذلكَ مِنْ ميعادِ اللهِ تعالىٰ لموسىٰ عليهِ السلامُ ، ففُهِمَ منهُ الرخصةُ في أملِ الحياةِ أربعينَ يوماً ، وهيَ درجةُ المتقينَ .

والثالثةُ : أنْ يدَّخرَ لسنتِهِ ، وهيَ أقصى المراتبِ ، وهيَ رتبةُ الصالحينَ .

---

(١) تقدم بلفظ : « سبق درهم مئة ألف درهم . . . » ، وهو عن زيد بن أسلم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وهو ما رواه النسائي (٥/ ٥٩) .

ومَنْ زادَ في الادخارِ علىٰ هـٰذا . . فهوَ واقعٌ في غمارِ العمومِ ، خارجٌ عنْ حيِّزِ الخصوصِ بالكلِّيَّةِ ، فغنى الصالحِ الضعيفِ في طُمأنينةِ قلبِهِ في قوتِ سنةٍ ، وغنى الخصوصِ في أربعينَ يوماً ، وغنىٰ خصوصِ الخصوصِ في يومٍ وليلةٍ .

وقدْ قسمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لنسائِهِ علىٰ مثلِ هـٰذهِ الأقسامِ ، فبعضُهنَّ كانَ يعطيها قوتَ سنةٍ عندَ حصولِ ما يحصلُ ، وبعضُهنَّ قوتَ أربعينَ يوماً ، وبعضُهنَّ يوماً وليلةً ؛ وهوَ قَسمُ عائشةَ وحفصةَ .



بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغي أنْ يلاحظَ الفقيرُ فيما جاءَهُ ثلاثةَ أمورٍ : نفسُ المالِ ، وغرضُ المعطي ، وغرضُهُ في الأخذِ .

أمَّا نفسُ المالِ : فينبغي أنْ يكونَ حلالاً خالياً عنِ الشبهاتِ كلِّها ، فإنْ كانَ فيهِ شبهةٌ . . فليحترزْ مِنْ أخذِهِ .

وقدْ ذكرنا في كتابِ الحلالِ والحرامِ درجاتِ الشبهةِ ، وما يجبُ اجتنابُهُ وما يُستحبُّ .

وأمَّا غرضُ المعطي : فلا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ غرضُهُ تطييبَ قلبهِ وطلبَ محبَّتِهِ وهوَ الهديةُ ، أوِ الثوابَ وهوَ الصدقةُ والزكاةُ ، أوِ الذكرَ والرياءَ والسمعةَ ؛ إمَّا على التجرُّدِ ، وإمَّا ممزوجاً ببقيةِ الأغراضِ .

ـ **أمَّا الأوَّلُ وهوَ الهديةُ** : فلا بأسَ بقبولِها ، فإنَّ قبولَها سنَّةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، ولكنْ ينبغي ألا يكونَ فيها منَّةٌ ، فإنْ كانَ فيها منَّةٌ . . فالأولىٰ تركُها ، فإنْ علمَ أنَّ بعضَها ممَّا تعظمُ فيهِ المنَّةُ . . فليردَّ البعضَ دونَ البعضِ ، فقدْ أُهديَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سمنٌ وأقطٌ وكبشٌ ، فقبلَ السمنَ والأقطَ وردَّ الكبشَ[2] .

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨٥) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/١٩٩) ، والسياق عنده ، ورواه أحمد في « المسند » =

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقبلُ مِنْ بعضِ الناسِ ويردُّ علىٰ بعضٍ ، وقالَ : « لقدْ هممتُ ألا أتَّهِبَ إلا مِنْ قرشيٍّ أوْ أنصاريٍّ أوْ ثقفيٍّ أوْ دوسيٍّ »[1] ، وفعلَ هٰذا جماعةٌ مِنَ التابعينَ .

وجاءَتْ إلىٰ فتحٍ الموصليِّ صرَّةٌ فيها خمسونَ درهماً ، فقالَ : حدثَنا عطاءٌ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « منْ أتاهُ رزقٌ مِنْ غيرِ مسألةٍ فردَّهُ . . فإنَّما يردُّهُ على اللهِ » ، ثمَّ فتحَ الصرَّةَ ، فأخذَ منها درهماً وردَّ سائرَها[2] .

وكانَ الحسنُ يروي هٰذا الحديثَ أيضاً ، ولكنْ حملَ إليهِ رجلٌ كيساً ورزمةً مِنْ رقيقِ ثيابِ خراسانَ ، فردَّ ذلكَ وقالَ : مَنْ جلسَ مجلسي هٰذا

= (٤/ ١٧٢) عن يعلى بن مرَّة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتته امرأة بابن لها قد أصابه لَمَمٌ ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « اخرج عدوَّ الله ، أنا رسول الله » ، فبرأ ، فأهدت له كبشين وشيئاً من أقط وسمن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا يعلىٰ خذ الأقط والسمن ، وخذ أحد الكبشين وردَّ عليها الآخر » .

(١) رواه أبو داوود (٣٥٣٧) ، والترمذي (٣٩٤٥) ، **وأتهب** : أقبل هبة .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٩) ، قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرسلاً هٰكذا ، وسيأتي بعد هٰذا بحديث ما يصحح معناه) . « إتحاف » (٩/ ٢٩٧) ، ومن ذلك ما رواه البخاري (١٤٧٣) ، ومسلم (١٠٤٥) من حديث عمر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء ، فأقول : أعطه من هو أفقر إليه مني ، فقال : « إذا جاءك من هٰذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل . . فخذه ، وما لا . . فلا تتبعه نفسك » .

وقبلَ مِنَ الناسِ مثلَ هـٰذا . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ وليسَ لهُ خلاقٌ[1] .

وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ أمرَ العالمِ والواعظِ أشدُّ في قبولِ العطاءِ .

وقدْ كانَ الحسنُ يقبلُ مِنْ أصحابِهِ[2] .

وكانَ إبراهيمُ التيميُّ يسألُ أصحابَهُ الدرهمَ والدرهمينِ ونحوَهُ ، ويعرضُ عليهِ غيرُهُمُ المئينَ فلا يأخذُها[3] .

وكانَ بعضُهُمْ إذا أعطاهُ صديقُهُ شيئاً . . يقولُ : اتركْهُ عندَكَ ، وانظرْ إنْ كنتُ بعدَ قبولِهِ في قلبِكَ أفضلَ منِّي قبلَ القبولِ . . فأخبرْني حتَّىٰ آخذَهُ ، وإلا . . فلا .

وأمارةُ هـٰذا أنْ يشقَّ عليهِ الردُّ لوْ ردَّهُ ، ويفرحَ بالقبولِ ويرى المنَّةَ علىٰ نفسِهِ في قبولِ صديقِهِ هديَّتَهُ ، فإنْ علمَ أنَّهُ يمازجُهُ منَّةٌ . . فأخذُهُ مباحٌ ، ولكنَّهُ مكروهٌ عندَ الفقراءِ الصادقينَ .

وقالَ بشرٌ : ما سألتُ أحداً قطُّ شيئاً إلا سرياً السقطيَّ ؛ لأنَّهُ قدْ صحَّ عندي زهدُهُ في الدنيا ، فهوَ يفرحُ بخروجِ الشيءِ مِنْ يدِهِ ، ويتبرَّمُ ببقائِهِ عندَهُ ، فأكونُ عوناً لهُ علىٰ ما يحبُّ[4] .

---

(1) قوت القلوب (٢/ ١٩٩) ، والسياق عنده .
(2) تطيباً لقلوبهم . « إتحاف » (٩/ ٢٩٧) .
(3) قوت القلوب (٢/ ١٩٩) .
(4) قوت القلوب (٢/ ١٩٩) .

وجاءَ خراسانيٌّ إلى الجنيدِ رحمهُ اللهُ بمالٍ ، وسألَهُ أنْ يأكلَهُ ، فقالَ : أفرِّقُهُ على الفقراءِ ، فقالَ : ما أريدُ هٰذا ، فقالَ : ومتىٰ أعيشُ حتَّىٰ آكلَ هٰذا ؟! فقالَ : ما أريدُ أنْ تنفقَهُ في الخلِّ والبقلِ ، بلْ في الحلاوةِ والطيباتِ ، فقبلَ ذلكَ منهُ ، فقالَ الخراسانيُّ : ما أحدٌ ببغدادَ أمنَّ عليَّ منكَ ، فقالَ الجنيدُ : ولا ينبغي أنْ يُقبلَ إلا مِنْ مثلِكَ[1] .

ـ **الثاني : أنْ يكونَ للثوابِ المجرَّدِ وذلكَ صدقةٌ أوْ زكاةٌ** : فعليهِ أنْ ينظرَ في صفاتِ نفسِهِ أنَّهُ هلْ هوَ مستحقٌّ للزكاةِ ، فإنِ اشتبهَ عليهِ . . فهوَ محلُّ شبهةٍ ، وقدْ ذكرنا تفصيلَ ذلكَ في كتابِ أسرارِ الزكاة ، وإنْ كانَتْ صدقةً ، وكانَ يعطيهِ لدينِهِ . . فلينظرْ إلىٰ باطنِهِ ؛ فإنْ كانَ مقارفاً لمعصيةٍ في السرِّ يعلمُ أنَّ المعطيَ لوْ علمَ ذلكَ لنفرَ طبعُهُ ، ولما تقرَّبَ إلى اللهِ بالتصدُّقِ عليهِ . . فهٰذا حرامٌ أخذُهُ ، كما لوْ أعطاهُ لظنِّهِ أنَّهُ عالمٌ أوْ علويٌّ ولمْ يكنْ كذلكَ ، فإنَّ أخذَهُ حرامٌ محضٌ لا شبهةَ فيهِ .

ـ **الثالثُ : أنْ يكونَ غرضُهُ الشهرةَ والرياءَ والسمعةَ** : فينبغي أنْ يردَّ عليهِ قصدَهُ الفاسدَ ولا يقبلَهُ ، إذْ يكونُ معيناً لهُ علىٰ غرضِهِ الفاسدِ .

وكانَ سفيانُ الثوريُّ رحمَهُ اللهُ يردُّ ما يُعطىٰ ويقولُ : لوْ علمتُ أنَّهُمْ لا يذكرونَ ذلكَ افتخاراً بهِ . . لأخذتُ[2] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٠٠) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٠٢) .

وعُوتبَ بعضُهُمْ في ردِّ ما كانَ يأتيهِ مِنْ صلةٍ ، فقالَ : إنَّما أردُّ صلتَهُمْ إشفاقاً عليهِمْ ونصحاً لهُمْ ؛ لأنَّهُمْ يذكرونَ ذلكَ ويحبُّونَ أنْ يُعلمَ بهِ ، فتذهبُ أموالُهُمْ وتحبطُ أجورُهُمْ .

وأمَّا غرضُهُ في الأخذِ : فينبغي أنْ ينظرَ أهوَ محتاجٌ إليهِ فيما لا بدَّ لهُ منهُ أوْ هوَ مستغنٍ عنهُ ، فإنْ كانَ محتاجاً إليهِ وقدْ سلمَ مِنَ الشبهةِ والآفاتِ التي ذكرناها في المعطي . . فالأفضلُ لهُ الأخذُ ، قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما المعطي مِنْ سعةٍ بأعظمَ أجراً مِنَ الآخذِ إذا كانَ محتاجاً »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أتاهُ شيءٌ مِنْ هٰذا المالِ مِنْ غيرِ مسألةٍ ولا استشرافٍ . . فإنَّما هوَ رزقٌ ساقَهُ اللهُ إليهِ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « فلا يردُّهُ »(٢) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (مَنْ أُعطيَ ولمْ يأخذْ . . سألَ ولمْ يُعطَ)(٣) .

وقدْ كانَ سريٌّ السقطيُّ يوصلُ إلىٰ أحمدَ ابنِ حنبلٍ رضيَ اللهُ عنهُما شيئاً ، فردَّهُ مرَّةً ، فقالَ لهُ السريُّ : يا أحمدُ ؛ احذرْ آفةَ الردِّ ، فإنَّها أشدُّ مِنْ آفةِ الأخذِ ، فقالَ لهُ أحمدُ : أعدْ عليَّ ما قلتَ ، فأعادَهُ ، فقالَ أحمدُ :

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٢٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٤٥) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٩٢) ، (٤/ ٢٢٠) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٩٨) .

ما رددتُ عليكَ إلا لأنَّ عندي قوتَ شهرٍ ، فاحبسْهُ لي عندَكَ ، فإذا كانَ بعدَ شهرٍ فأنفذْهُ إليَّ[1] .

وقدْ قالَ بعضُ العلماءِ : يُخافُ في الردِّ معَ الحاجةِ عقوبةٌ مِنِ ابتلاءٍ بطمعٍ ، أوْ دخولٍ في شبهةٍ أوْ غيرِهِ .

فأمَّا إذا كانَ ما أتاهُ زائداً علىٰ حاجتِهِ . . فلا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ حالُهُ الاشتغالَ بنفسِهِ ، أوِ التكفُّلَ بأمورِ الفقراءِ والإنفاقِ عليهِمْ لما في طبعِهِ مِنَ الرفقِ والسخاءِ ، فإنْ كانَ مشغولاً بنفسِهِ . . فلا وجهَ لأخذِهِ وإمساكِهِ إنْ كانَ طالباً طريقَ الآخرةِ ، فإنَّ ذلكَ محضُ اتباعِ الهوىٰ ، وكلُّ عملٍ ليسَ للهِ فهوَ في سبيلِ الشيطانِ أوْ داعٍ إليهِ ، ومَنْ حامَ حولَ الحمىٰ يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ ، **ثمَّ لهُ مقامانِ :**

أحدُهُما : أنْ يأخذَ في العلانيةِ ويردَّ في السرِّ ، أوْ يأخذَ في العلانيةِ ويفرِّقَ في السرِّ ، وهـٰذا مقامُ الصدِّيقينَ ، وهوَ شاقٌّ على النفسِ ، لا يطيقُهُ إلا مَنِ اطمأنَّتْ نفسُهُ بالرياضةِ .

والثاني : أنْ يتركَ ولا يأخذَ ؛ ليصرفَهُ صاحبُهُ إلىٰ مَنْ هوَ أحوجُ منهُ ، أوْ يأخذَ ويوصلَ إلىٰ مَنْ هوَ أحوجُ منهُ ، فيفعلُ كليهِما في السرِّ أوْ كليهِما في العلانيةِ .

وقدْ ذكرنا أنَّ الأفضلَ إظهارُ الأخذِ أوْ إخفاؤُهُ في كتابِ أسرارِ الزكاةِ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٨) .

معَ جملةٍ مِنْ أحكامِ الفقرِ ، فليُطلبْ مِنْ موضعِهِ .

وأمَّا امتناعُ أحمدَ ابنِ حنبلٍ عنْ قبولِ عطاءِ سريٍّ السقطيِّ رحمَهُما اللهُ . . فإنَّما كانَ لاستغنائِهِ عنهُ ؛ إذْ كانَ عندَهُ قوتُ شهرٍ ، ولمْ يرَ لنفسِهِ أنْ يشتغلَ بأخذِهِ وصرفِهِ إلىٰ غيرِهِ ، فإنَّ في ذلكَ آفاتٍ وأخطاراً ، والورعُ يكونُ حذراً مِنْ مظانِّ الآفاتِ ؛ إذْ لمْ يأمنْ مكيدةَ الشيطانِ علىٰ نفسِهِ .

وقالَ بعضُ المجاورينَ بمكةَ : كانَتْ عندي دراهمُ أعددتُها للإنفاقِ في سبيلِ اللهِ ، فسمعتُ فقيراً قدْ فرغَ مِنْ طوافِهِ وهوَ يقولُ بصوتٍ خفيٍّ : أنا جائعٌ كما ترىٰ ، عريانٌ كما ترىٰ ، فما ترىٰ فيما ترىٰ ، يا مَنْ يرىٰ ولا يُرى ؟ فنظرتُ فإذا عليهِ خُلْقانٌ لا تكادُ تواريهِ ، فقلتُ في نفسي : لا أجدُ لدراهمي موضعاً أحسنَ مِنْ هـٰذا ، فحملتُها إليهِ ، فنظرَ إليها ، ثمَّ أخذَ منها خمسةَ دراهمَ فقالَ : أربعةٌ ثمنُ مئزرينِ ، ودرهمٌ أنفقُهُ ثلاثاً ، فلا حاجةَ بي إلى الباقي ، فردَّهُ ، قالَ : فرأيتُهُ الليلةَ الثانيةَ وعليهِ مئزرانِ جديدانِ ، فهجسَ في نفسي منهُ شيءٌ ، فالتفتَ إليَّ ، فأخذَ بيدي ، فأطافَني معَهُ أسبوعاً ، كلَّ شوطٍ منها في جوهرٍ مِنْ معادنِ الأرضِ يتخشخشُ تحتَ أقدامِنا إلى الكعبينِ ، منها ذهبٌ ، وفضةٌ ، وياقوتٌ ، ولؤلؤٌ ، وجوهرٌ ، ولمْ يظهرْ ذلكَ للناسِ ، فقالَ : هـٰذا كلُّهُ قدْ أُعطيناهُ فزهدنا فيهِ ، ونأخذُ مِنْ أيدي الخلقِ ؛ لأنَّ هـٰذهِ أثقالٌ وفتنةٌ ، وذلكَ للعبادِ فيهِ رحمةٌ ونعمةٌ[1] .

---

(١) قوت القلوب (٢/١٩٦) بنحوه ، وفي آخره : (ونأخذ من أيدي الخلق أحب إلينا ؛ لأنه أحبُّ إلى الله وأخف علينا في المطالبة ، وهـٰذه أثقال . . .) .

والمقصودُ منْ هٰذا : أنَّ الزيادةَ علىٰ قدْرِ الحاجةِ إنَّما تأتيكَ ابتلاءً وفتنةً ، لينظرَ اللهُ إليكَ ماذا تعملُ فيهِ ، وقدرُ الحاجةِ يأتيكَ رفقاً بكَ ، فلا تغفُلْ عنِ الفرقِ بينَ الرفقِ والابتلاءِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا حقَّ لابنِ آدمَ إلا في ثلاثٍ : طعامٌ يقيمُ صلبَهُ ، وثوبٌ يواري عورتَهُ ، وبيتٌ يكنُّهُ ، فما زادَ فهوَ حسابٌ »[1] .

فإذاً ؛ أنتَ في أخذِ قدرِ الحاجةِ مِنْ هٰذهِ الثلاثِ مثابٌ ، وفيما زادَ عليهِ إنْ لمْ تعصِ اللهَ متعرِّضٌ للحسابِ ، وإنْ عصيتَ اللهَ . . فأنتَ متعرِّضٌ للعقابِ .

ومِنَ الاختبارِ أيضاً أنْ تعزمَ علىٰ تركِ لذَّةٍ مِنَ اللذَّاتِ تقرُّباً إلى اللهِ تعالىٰ ، وكسراً لصفةِ النفسِ ، فتأتيكَ عفواً صفواً لتمتحنَ بها قوَّةَ عقلِكَ ، فالأولى الامتناعُ عنها ، فإنَّ النفسَ إذا رُخِّصَ لها في نقضِ العزمِ . . ألفَتْ نقضَ العهدِ ، وعادَتْ لعادتِها ، ولا يمكنُ قهرُها ، فردُّ ذلكَ مهمٌّ ، وهوَ الزهدُ .

فإنْ أخذتَهُ وصرفتَهُ إلىٰ محتاجٍ . . فهوَ غايةُ الزهدِ ، ولا يقدرُ عليهِ إلا الصديقونَ .

---

(١) قوت القلوب (٢/١٩٨) ، ورواه الترمذي (٢٣٤١) بنحوه .

فأمَّا إذا كانَتْ حالُكَ السخاءَ والبذلَ ، والتكفُّلَ بحقوقِ الفقراءِ ، وتعهُّدَ جماعةٍ مِنَ الصلحاءِ . . فخذْ ما زادَ علىٰ حاجتِكَ ، فإنَّهُ غيرُ زائدٍ علىٰ حاجةِ الفقراءِ ، وبادرْ بهِ إلى الصرفِ إليهِمْ ، ولا تدَّخرْهُ ، فإنَّ إمساكَهُ ـ ولوْ ليلةً واحدةً ـ فيه فتنةٌ واختبارٌ ، فربما يحلو في قلبِكَ فتمسكُهُ ويكونُ فتنةً عليكَ .

وقدْ تصدَّىٰ لخدمةِ الفقراءِ جماعةٌ اتخذوها وسيلةً إلى التوسُّعِ في المالِ ، والتنعُّمِ في المطعمِ والمشربِ ، وذلكَ هوَ الهلاكُ ، ومَنْ كانَ غرضُهُ الرفقَ وطلبَ الثوابِ بهِ . . فلهُ أنْ يستقرضَ علىٰ حسنِ الظنِّ باللهِ ، لا على اعتمادِ السلاطينِ الظلمةِ ، فإنْ رزقَهُ اللهُ مِنْ حلالٍ . . قضاهُ ، وإنْ ماتَ قبلَ القضاءِ . . قضاهُ اللهُ تعالىٰ عنهُ وأرضىٰ غرماءَهُ ، وذلكَ بشرطِ أنْ يكونَ مكشوفَ الحالِ عندَ مَنْ يقرضُهُ ، فلا يغرُّ المقرضَ ولا يخدعُهُ بالمواعيدِ ، بلْ يكشفُ حالَهُ عندَهُ ؛ ليقدمَ علىٰ إقراضِهِ عنْ بصيرةٍ .

ودينُ مثلِ هٰذا الرجلِ واجبٌ أنْ يُقضىٰ مِنْ مالِ بيتِ المالِ ، ومِنَ الزكواتِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ ، قيلَ : معناهُ : ليبعْ أحدَ ثوبيهِ ، وقيلَ : معناهُ : فليستقرضْ بجاهِهِ ، فذلكَ ممَّا قدْ آتاهُ اللهُ (١) .

وقالَ بعضُهُمْ : (للهِ تعالىٰ عبادٌ ينفقونَ علىٰ قدْرِ بضائِعِهِمْ ، وللهِ عبادٌ

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٩) .

ينفقونَ علىٰ قدْرِ حسنِ الظنِّ باللهِ تعالىٰ)[1] .

وماتَ بعضُهُمْ فأوصىٰ بمالِهِ لثلاثِ طوائفَ : الأقوياءُ ، والأسخياءُ ، والأغنياءُ ، فقيلَ : مَنْ هؤلاءِ ؟ فقالَ : أمَّا الأقوياءُ . . فهمْ أهلُ التوكُّلِ على اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الأسخياءُ . . فهُمْ أهلُ حسنِ الظنِّ باللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الأغنياءُ . . فهُمْ أهلُ الانقطاعِ إلى الله تعالىٰ[2] .

فإذاً ؛ مهما وُجدَتْ هـٰذهِ الشروطُ فيهِ وفي المالِ وفي المعطي . . فليأخذْهُ .

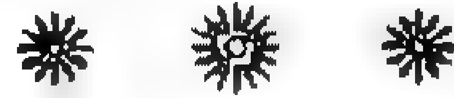
وينبغي أنْ يرىٰ ما يأخذُهُ مِنَ اللهِ لا مِنَ المعطي ، إنَّما المعطي واسطةٌ قدْ سُخِّرَ للعطاءِ ، وهوَ مضطرٌّ إليهِ بما سُلِّطَ عليهِ مِنَ الدواعي والإراداتِ والاعتقاداتِ .

وقدْ حُكِيَ أنَّ بعضَ الناسِ دعا شقيقاً في خمسينَ مِنْ أصحابِهِ ، فوضعَ الرجلُ مائدةً حسنةً ، فلمَّا قعدَ . . قالَ لأصحابِهِ : إنَّ هـٰذا الرجلَ يقولُ : مَنْ لمْ يرني صنعتُ هـٰذا الطعامَ وقدمتُهُ . . فطعامي عليهِ حرامٌ ، فقاموا كلُّهُمْ وخرجوا إلا شاباً منهُمْ كانَ دونَهُمْ في الدرجةِ ، فقالَ صاحبُ المنزلِ لشقيقٍ : ما قصدتَ بهـٰذا ؟ قالَ : أردتُ أنْ أختبرَ توحيدَ أصحابي كلِّهِمْ[3] .

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٩٩) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٠٠) .

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ جعلتَ رزقي هٰكذا علىٰ أيدي بني إسرائيلَ ، يغدِّيني هٰذا يوماً ، ويعشِّيني هٰذا ليلةً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ ، هٰكذا أصنعُ بأوليائي ، أجري أرزاقَهُمْ علىٰ أيدي البطَّالينَ مِنْ عبادي ليؤجروا فيهِمْ[1] .

فلا ينبغي أنْ يرى المعطيَ إلا مِنْ حيثُ إنَّهُ مسخَّرٌ مأجورٌ منَ اللهِ تعالىٰ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ لما يرضاهُ .



(١) قوت القلوب (٢/ ٢٠٠) .

بيان تحريم السؤال من غير ضرورته، وآداب الفقير المضطر فيه

اعلمْ : أنَّهُ قدْ وردَتْ مناهٍ كثيرةٌ في السؤالِ وتشديداتٌ ، وورَدَ فيهِ أيضاً ما يدلُّ على الرخصةِ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للسائلِ حقٌّ وإنْ جاءَ علىٰ فرسٍ »[1] .

وفي الحديثِ : « ردُّوا السائلَ ولوْ بظلفٍ محرَّقٍ »[2] .

ولوْ كانَ السؤالُ حراماً مطلقاً . . لما جازَ إعانةُ المعتدي علىٰ عدوانِهِ ، والإعطاءُ إعانةٌ .

فالكاشفُ للغطاءِ فيهِ أنَّ السؤالَ حرامٌ في الأصلِ ، وإنَّما يُباحُ بضرورةٍ أوْ حاجةٍ مهمَّةٍ قريبةٍ مِنَ الضرورةِ ، فإنْ كانَ عنها بدٌّ . . فهوَ حرامٌ .

وإنَّما قلنا : إنَّ الأصلَ فيهِ التحريمُ ؛ لأنَّهُ لا ينفكُّ عنْ ثلاثةِ أمورٍ محرَّمةٍ :

الأوَّلُ : إظهارُ الشكوىٰ من اللهِ تعالىٰ :

إذِ السؤالُ إظهارٌ للفقرِ ، وذكرٌ لقصورِ نعمةِ اللهِ تعالىٰ عنهُ ، وهوَ عينُ

---

(١) رواه أبو داوود (١٦٦٥) من حديث سيدنا الحسين رضي الله عنه مرفوعاً ، وهو عند مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٩٦) عن زيد بن أسلم مرسلاً : « أعطوا السائل وإن جاء علىٰ فرس » .

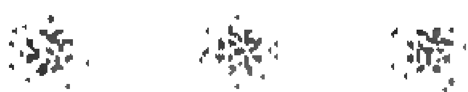
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٤٣٥) بلفظه وتمامه ، وبنحوه هو عند أبي داوود (١٦٦٧) ، والترمذي (٦٦٥) ، والنسائي (٥/ ٨١) .

الشكوىٰ ، وكما أنَّ العبدَ المملوكَ لوْ سألَ لكانَ سؤالُهُ تشنيعاً علىٰ سيِّدِهِ . . فكذلكَ سؤالُ العبادِ تشنيعٌ على اللهِ تعالىٰ ، وهٰذا ينبغي أنْ يحرمَ ولا يحلَّ إلا لضرورةٍ كما تحلُّ الميتةُ .



والثاني : **أنَّ فيهِ إذلالَ السائلِ نفسَهُ لغيرِ اللهِ تعالىٰ** :

وليسَ للمؤمنِ أنْ يذلَّ نفسَهُ لغيرِ اللهِ ، بلْ عليهِ أنْ يذلَّ نفسَهُ لمولاهُ ، فإنَّ فيهِ عزَّهُ ، فأمَّا سائرُ الخلقِ . . فإنَّهُمْ عبادٌ أمثالُهُ ، فلا ينبغي أنْ يذلَّ لهُمْ إلا لضرورةٍ ، وفي السؤالِ ذلٌّ للسائلِ بالإضافةِ إلى المسؤولِ .



والثالثُ : **أنَّهُ لا ينفكُّ عنْ إيذاءِ المسؤولِ غالباً** :

لأنَّهُ ربما لا تسمحُ نفسُهُ بالبذلِ عنْ طيبةِ قلبٍ منهُ ، فإنْ بذلَ حياءً مِنَ السائلِ أوْ رياءً . . فهوَ حرامٌ على الآخذِ ، وإنْ منعَ . . ربما استحيا وتأذَّىٰ في نفسِهِ بالمنعِ ، إذْ يرىٰ نفسَهُ في صورةِ البخلاءِ ، ففي البذلِ نقصانُ مالِهِ ، وفي المنعِ نقصانُ جاهِهِ ، وكلاهما مؤذيانِ ، والسائلُ هوَ السببُ في الإيذاءِ ، والإيذاءُ حرامٌ إلا بضرورةٍ .



ومهما فهمتَ هٰذهِ المحذوراتِ الثلاثَ . . فهمتَ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مسألةُ الناسِ مِنَ الفواحشِ ، ما أُحلَّ مِنَ الفواحشِ

غيرُها »[1] ، فانظرْ كيفَ سمَّاها فاحشةً ، ولا يخفىٰ أنَّ الفاحشةَ إنَّما تُباحُ لضرورةٍ كما يُباحُ شربُ الخمرِ لمَنْ غصَّ بلقمةٍ وهوَ لا يجدُ غيرَهُ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سألَ عنْ غنىً . . فإنَّما يستكثرُ مِنْ جمرِ جهنَّمَ ، ومَنْ سألَ ولهُ ما يغنيهِ . . جاءَ يومَ القيامةِ ووجهُهُ عظمٌ يتقعقعُ ، ليسَ عليهِ لحمٌ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « كانَتْ مسألتُهُ خدوشاً وكدوحاً في وجهِهِ »[2] ، وهٰذهِ الألفاظُ صريحةٌ في التحريمِ والتشديدِ .

وبايعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قوماً على الإسلامِ ، فاشترطَ عليهِمُ السمعَ والطاعةَ ، ثمَّ قالَ لهُمْ كلمةً خفيةً : « ولا تسألوا الناسَ شيئاً »[3] .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأمرُ كثيراً بالتعفُّفِ عنِ السؤالِ ويقولُ : « مَنْ

---

(1) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٣) حيث قال : (وقد روينا في الخبر . . .) وذكره ، قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/ ٣٠٤) .

(2) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٣) ، وقد روىٰ أبو داوود (١٦٢٩) من حديث سهل بن الحنظلية رضي الله عنه مرفوعاً : « من سأل وعنده ما يغنيه . . فإنما يستكثر من النار » ، وعنده أيضاً : « من جمر جهنم » ، وعند البخاري (١٤٧٥) ، ومسلم (١٠٤٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « ما يزال الرجل يسأل الناس حتىٰ يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم » ، وروىٰ أبو داوود (١٦٢٦) ، والترمذي (٦٥٠) ، والنسائي (٥/ ٩٧) ، وابن ماجه (١٨٤٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « من سأل وله ما يغنيه . . جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو خموشاً أو كدوحاً في وجهه » .

(3) رواه مسلم (١٠٤٣) .

سألَنا.. أعطيناهُ ، ومَنِ استغنىٰ.. أغناهُ اللهُ »[1] ، وقالَ : « ومَنْ لمْ يسألْنا.. فهوَ أحبُّ إلينا »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « استغنوا عنِ الناسِ ، وما قلَّ مِنَ السؤالِ فهوَ خيرٌ » ، قالوا : ومنكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ومنِّي »[3] .

وسمعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ سائلاً يسألُ بعدَ المغربِ ، فقالَ لواحدٍ مِنْ قومِهِ : عشِّ الرجلَ ، فعشَّاهُ ، ثمَّ سمعَهُ ثانيةً يسألُ ، فقالَ : ألمْ أقلْ لكَ عشِّ الرجلَ ؟! قالَ : قدْ عشَّيتُهُ ، فنظرَ عمرُ فإذا تحتَ يدهِ مخلاةٌ مملوءةٌ خبزاً ، فقالَ : لستَ سائلاً ، ولكنَّكَ تاجرٌ ، ثمَّ أخذَ المخلاةَ ونثرَهَا بينَ يدي إبلِ الصدقةِ ، وضربَهُ بالدِّرَّةِ ، وقالَ : لا تعدْ[4] . ولولا أنَّ سؤالَهُ كانَ حراماً.. لما ضربَهُ ولا أخذَ مخلاتَهُ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٣) ، ورواه النسائي (٥/ ٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ولفظه : « من استغنىٰ.. أغناه الله ، ومن استعف.. أعفه الله عز وجل ، ومن استكفىٰ.. كفاه الله عز وجل... » الحديث ، ولفظ : « من سألنا.. أعطيناه » عند ابن حبان في « صحيحه » (٣٣٩٨) .

(٢) هـٰذه الرواية رواها ابن أبي الدنيا في « القناعة والتعفف » (٧٦) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٣) ، وهو عند أحمد في « المسند » (٣/ ٤٣٤) من حديث حكيم بن حزام ، ولفظه : « اليد العليا خير من اليد السفلىٰ ، وليبدأ أحدكم بمن يعول ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً ، ومن يستغن.. يغنه الله ، ومن يستعفف.. يعفه الله » ، فقلت : ومنك يا رسول الله ؟ قال : « ومني » ، وعند البزار في « مسنده » (٤٨٢٤) ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٤٤٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « استغنوا عن الناس ولو بشوص سواك » .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٩٣) .

ولعلَّ الفقيهَ الضعيفَ المُنَّةِ الضيِّقَ الحوصلةِ يستبعدُ هٰذا مِنْ فعلِ عمرَ ، ويقولُ : أمَّا ضربُهُ . . فهوَ تأديبٌ ، وقدْ وردَ الشرعُ بالتعزيرِ ، وأمَّا أخذُهُ مالَهُ . . فهوَ مصادرةٌ ، والشرعُ لمْ يردْ بالعقوبةِ بالمالِ ، فكيفَ استجازَهُ ؟

وهوَ استبعادٌ مصدرُهُ القصورُ في الفقهِ ، فأينَ يظهرُ الفقهاءُ كلُّهُمْ في حوصلةِ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ واطلاعِهِ علىٰ أسرارِ دينِ اللهِ ومصالحِ عبادِهِ ؟! أفترىٰ أنَّهُ لمْ يعلمْ أنَّ المصادرةَ بالمالِ غيرُ جائزةٍ ، أوْ علمَ ذلكَ ولكنْ أقدمَ عليهِ غضباً في معصيةِ اللهِ وحاشاهُ ، أوْ أرادَ الزجرَ بالمصلحةِ بغيرِ طريقٍ شرعَها نبيُّ اللهِ ؟! وهيهاتَ ! فإنَّ ذلكَ أيضاً معصيةٌ .

بلِ الفقهُ الذي لاحَ لهُ فيهِ أنَّهُ رآهُ مستغنياً عنِ السؤالِ ، وعلمَ أنَّ مَنْ أعطاهُ شيئاً فإنَّما أعطاهُ على اعتقادِ أنَّهُ محتاجٌ ، وقدْ كانَ كاذباً ، فلمْ يدخلْ في ملكِهِ بأخذِهِ معَ التلبيسِ ، وعسرَ تمييزُ ذلكَ وردُّهُ إلىٰ أصحابِهِ ؛ إذْ لا يُعرفُ أصحابُهُ بأعيانِهِمْ ، فبقيَ مالاً لا مالكَ لهُ ، فوجبَ صرفُهُ إلى المصالحِ ، وإبلُ الصدقةِ وعلفُها مِنَ المصالحِ .

ويتنزَّلُ أخذُ السائلِ معَ إظهارِ الحاجةِ كاذباً كأخذِ العلويِّ بقولِهِ : إنِّي علويٌّ وهوَ كاذبٌ ؛ فإنَّهُ لا يملكُ ما يأخذُهُ ، وكأخذِ الصوفيِّ والصالحِ الذي يُعطىٰ لصلاحِهِ وهوَ في الباطنِ مقارفٌ معصيةً لوْ عرفَها المعطي . . لما أعطاهُ ، وقدْ ذكرنا في مواضعَ أنَّ ما أخذوهُ علىٰ هٰذا الوجهِ لا يملكونَهُ ، وهوَ حرامٌ عليهِمْ ، ويجبُ عليهِمُ الردُّ إلىٰ مالكِهِ ، فاستَدِلَّ بفعلِ عمرَ

رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ صحّةِ هـٰذا المعنى الذي يغفُلُ عنهُ كثيرٌ مِنَ الفقهاءِ ، وقدْ قررناهُ في مواضعَ ، ولا تستدلَّ بغفلتِكَ عنْ هـٰذا الفقهِ علىٰ بطلانِ فعلِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ .

فإذا عرفتَ أنَّ السؤالَ يُباحُ لضرورةٍ . . فاعلمْ أنَّ الشيءَ إمَّا أنْ يكونَ مضطراً إليهِ ، أوْ محتاجاً إليهِ حاجةً مهمَّةً ، أوْ حاجةً خفيفةً ، أوْ مستغنىً عنهُ ، فهـٰذهِ أربعةُ أحوالٍ .

أمَّا المضطرُّ إليهِ : فهوَ سؤالُ الجائعِ عندَ خوفِهِ علىٰ نفسِهِ موتاً أوْ مرضاً ، وسؤالُ العاري وبدنُهُ مكشوفٌ ليسَ معهُ ما يواريهِ ، وهوَ مباحٌ مهما وُجدَتْ بقيَّةُ الشروطِ في المسؤولِ بكونِهِ مباحاً ، والمسؤولِ منهُ بكونِهِ راضياً في الباطنِ ، والسائلِ بكونِهِ عاجزاً عنِ الكسبِ ؛ فإنَّ القادرَ على الكسبِ وهوَ بطَّالٌ ليسَ لهُ السؤالُ إلا إذا استغرقَ طلبُ العلمِ أوقاتَهُ ، وكلُّ مَنْ لهُ خطٌّ فهوَ قادرٌ على الكسبِ بالوراقةِ .

وأمَّا المستغني . . فهوَ الذي يطلبُ شيئاً وعندَهُ مثلُهُ أوْ أمثالُهُ ، فسؤالُهُ حرامٌ قطعاً . وهـٰذانِ طرفانِ واضحانِ .

وأمَّا المحتاجُ حاجةً مهمَّةً : فكالمريضِ الذي يحتاجُ إلىٰ دواءٍ ليسَ يظهرُ خوفُهُ لوْ لمْ يستعملْهُ ولكنَّهُ لا يخلو عنْ خوفٍ ، وكمَنْ لهُ جبَّةٌ ولا قميصَ تحتها في الشتاءِ وهوَ يتأذَّىٰ بالبردِ تأذِّياً لا ينتهي إلىٰ حدِّ الضرورةِ ، وكذلكَ مَنْ يسألُ لأجلِ الكراءِ وهوَ قادرٌ على المشيِ بمشقَّةٍ ، فهـٰذا أيضاً ينبغي أنْ

تسترسلَ عليهِ الإباحةُ ؛ لأنَّها أيضاً حاجةٌ محقَّقةٌ ، ولكنِ الصبرُ عليهِ أولىٰ ، وهو بالسؤالِ تاركٌ للأولىٰ ، ولا يُسمَّىٰ سؤالُهُ مكروهاً مهما صدقَ في السؤالِ وقالَ : (ليسَ تحتَ جبَّتي قميصٌ ، والبردُ يؤذيني أذىً أطيقُهُ ، ولكنْ يشقُّ عليَّ) ، فإذا صدقَ . . فصدقُهُ يكونُ كفَّارةً لسؤالِهِ إنْ شاءَ اللهُ .

وأمَّا الحاجةُ الخفيفةُ : فمثلُ سؤالِهِ قميصاً ليلبسَهُ فوقَ ثيابِهِ عندَ خروجِهِ فيسترَ الخروقَ التي في ثيابِهِ عنْ أعينِ الناسِ ، وكمَنْ يسألُ لأجلِ الأدمِ وهوَ واجدٌ للخبزِ ، وكمَنْ يسألُ لكراءِ الفرسِ في الطريقِ وهوَ واجدٌ كراءَ الحمارِ ، أوْ يسألُ كراءَ المحملِ وهوَ قادرٌ على الراحلةِ ، فهـٰذا ونحوُهُ إنْ كانَ فيهِ تلبيسُ حالٍ بإظهارِ حاجةٍ غيرِ هـٰذهِ . . فهوَ حرامٌ ، وإنْ لمْ يكنْ وكانَ فيهِ شيءٌ مِنَ المحذوراتِ الثلاثةِ ؛ مِنَ الشكوىٰ ، أوِ الذلِّ ، أوْ إيذاءِ المسؤولِ . . فهوَ حرامٌ ؛ لأنَّ مثلَ هـٰذهِ الحاجةِ لا تصلحُ لأنْ تُباحَ بها هـٰذهِ المحذوراتُ ، وإنْ لمْ يكنْ فيها شيءٌ مِنْ ذلكَ . . فهوَ مباحٌ معَ الكراهةِ .



فإنْ قلتَ : فكيفَ يمكنُ إخلاءُ السؤالِ عنْ هـٰذهِ المحذوراتِ ؟

فاعلمْ : أنَّ الشكوىٰ تندفعُ بأنْ يظهرَ الشكرَ للهِ تعالىٰ والاستغناءَ عنِ الخلقِ ، ولا يسألَ سؤالَ محتاجٍ ، ولكنْ يقولُ : (أنا مستغنٍ بما أملكُهُ ، ولكنْ تطالبُني رعونةُ النفسِ بثوبٍ فوقَ ثيابي ، وهوَ فضلةٌ عنِ الحاجةِ وفضولٌ مِنَ النفسِ) ، فيخرجُ بِهِ عنْ حدِّ الشكوىٰ .

وأمَّا الذلُّ . . فأنْ يسألَ أباهُ أوْ قريبَهُ أوْ صديقَهُ الذي يعلمُ أنَّهُ لا ينقصُهُ ذلكَ في عينِهِ ، ولا يزدريهِ بسببِ سؤالِهِ ، أوِ الرجلَ السخيَّ الذي قدْ أعدَّ مالَهُ لمثلِ هـٰذهِ المكارمِ ، فيفرحُ بوجودِ مثلِهِ ، ويتقلَّدُ منهُ منَّةً بقبولِهِ ، فيسقطُ عنهُ الذلُّ بذلكَ ، فإنَّ الذلَّ لازمٌ للمنَّةِ لا محالةَ .

وأمَّا الإيذاءُ . . فسبيلُ الخلاصِ عنهُ ألا يعيِّنَ شخصاً بالسؤالِ بعينِهِ ، بلْ يلقي الكلامَ عرضاً بحيثُ لا يقدمُ على البذلِ إلا متبرِّعٌ بصدقِ الرغبةِ .

وإنْ كانَ في القومِ شخصٌ مرموقٌ لوْ لمْ يبذلْ لكانَ يُلامُ . . فهـٰذا إيذاءٌ ، فإنَّهُ ربما يبذلُ كُرهاً خوفاً مِنَ الملامةِ ، ويكونُ الأحبُّ إليهِ في الباطنِ الخلاصَ لوْ قدرَ عليهِ مِنْ غيرِ ملامةٍ .

وأمَّا إذا كانَ يسألُ شخصاً معيّناً . . فينبغي ألا يصرِّحَ ، بلْ يعرِّضُ تعريضاً يُبقي لهُ سبيلاً إلى التغافلِ إنْ أرادَ ، فإذا لمْ يتغافلْ معَ القدرةِ عليهِ . . فذلكَ لرغبتِهِ ، وأنَّهُ غيرُ متأذٍّ بهِ .

وينبغي أنْ يسألَ مَنْ لا يستحيي منهُ لوْ ردَّهُ أوْ تغافلَ عنهُ ، فإنَّ الحياءَ مِنَ السائلِ يؤذي ؛ كما أنَّ الرياءَ معَ غيرِ السائلِ يؤذي .



فإنْ قلتَ : فإذا أخذَ معَ العلمِ بأنَّ باعثَ المعطي هوَ الحياءُ منهُ أوْ مِنَ الحاضرينَ ، ولولاهُ لما ابتدأهُ بهِ . . فهوَ حلالٌ أوْ شبهةٌ ؟

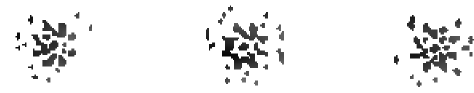
فأقولُ : ذلكَ حرامٌ محضٌ لا خلافَ فيهِ بينَ الأمَّةِ ، وحكمُهُ حكمُ أخذِ

مالِ الغيرِ بالضربِ والمصادرةِ ، إذْ لا فرقَ بينَ أنْ يضربَ ظاهرَ جلدِهِ بسياطِ الخشبِ ، أوْ يضربَ باطنَ قلبِهِ بسوطِ الحياءِ وخوفِ الملامِ ، وضربُ الباطنِ أشدُّ نكايةً في قلوبِ العقلاءِ ، ولا يجوزُ أنْ يُقالَ : هوَ في الظاهرِ قدْ رضيَ بهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نحنُ نحكمُ بالظاهرِ واللهُ يتولَّى السرائرَ »[1] ؛ فإنَّ هـٰذهِ ضرورةُ القضاةِ في فصلِ الخصوماتِ ، إذْ لا يمكنُ ردُّهُمْ إلى البواطنِ وقرائنِ الأحوالِ ، فاضطروا إلى الحكمِ بظاهرِ اللسانِ معَ أنَّهُ ترجمانٌ كثيرُ الكذبِ ، ولكنَّ الضرورةَ دعَتْ إليهِ ، وهـٰذا سؤالٌ عمَّا بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، والحاكمُ فيه أحكمُ الحاكمينَ ، والقلوبُ عندَهُ كالألسنةِ عندَ سائرِ الحكَّامِ ، فلا تنظرْ في مثلِ هـٰذا إلا إلىٰ قلبِكَ وإنْ أفتَوكَ وأفتَوكَ ، فإنَّ المفتيَ معلِمُ القاضيَ والسلطانَ ليحكموا في عالمِ الشهادةِ ، ومفتي القلوبِ هُمْ علماءُ الآخرةِ ، وبفتواهُمُ النجاةُ مِنْ سطوةِ سلطانِ الآخرةِ ، كما أنَّ بفتوى الفقيهِ النجاةَ مِنْ سطوةِ سلطانِ الدنيا .

---

(١) قال الحافظ ابن الملقن في « البدر المنير » (٩/ ٥٩٠) : (هـٰذا الحديث غريب لا أعلم من خرجه من أصحاب الكتب المعتمدة ولا غيرها ، وسئل عنه حافظ زماننا جمال الدين المزي فقال : لا أعرفه) ، وبوَّب الإمام مسلم في « صحيحه » (باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة) وساق (١٧١٣) حديث أم سلمة رضي الله عنها مرفوعاً : « إنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له علىٰ نحو مما أسمع منه . . . » الحديث ، وروىٰ مسلم (١٠٦٤/ ١٤٤) ضمن خبر : « إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم » الحديث ، قال الإمام النووي في « شرحه صحيح مسلم » (٧/ ١٦٣) : (معناه : إني أمرت بالحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (ص٩١) .

فإذاً ؛ ما يأخذُهُ معَ الكراهةِ لا يملكُهُ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، ويجبُ عليهِ ردُّهُ علىٰ صاحبِهِ ، فإنْ كانَ يستحيي مِنْ أنْ يستردَّهُ ولمْ يستردَّهُ . . فعليهِ أنْ يثيبَهُ علىٰ ذلكَ بما يساوي قيمتَهُ في معرضِ الهديَّةِ والمقابلةِ ، ليتفصَّىٰ عنْ عهدتِهِ ، فإنْ لمْ يقبلْ هديَّتَهُ . . فعليهِ أنْ يردَّ ذلكَ إلىٰ ورثتِهِ ، فإنْ تلفَ في يدِهِ . . فهوَ مضمونٌ عليهِ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ عاصٍ بالتصرُّفِ فيهِ ، وبالسؤالِ الذي حصلَ بهِ الأذىٰ .



فإنْ قلتَ : فهـٰذا أمرٌ باطنٌ يعسرُ الاطلاعُ عليهِ ، فكيفَ السبيلُ فيهِ ؟ فربما يظنُّ السائلُ أنَّهُ راضٍ ولا يكونُ هوَ في الباطنِ راضياً .

فأقولُ : لهـٰذا تركَ المتقونَ السؤالَ رأساً ، فما كانوا يأخذونَ مِنْ أحدٍ شيئاً أصلاً ، فكانَ بشرٌ لا يأخذُ مِنْ أحدٍ أصلاً إلا مِنَ السريِّ رحمةُ اللهِ عليهما ، وقالَ : (لأنِّي علمتُ أنَّهُ يفرحُ بخروجِ المالِ مِنْ يدِهِ ، فأنا أعينُهُ علىٰ ما يحبُّهُ)(١) .

وإنَّما عظمَ النكيرُ في السؤالِ وتأكَّدَ الأمرُ بالتعفُّفِ لهـٰذا ؛ لأنَّ هـٰذا الأذىٰ إنَّما يحلُّ بضرورةٍ ، وهوَ أن يكونَ السائلُ مشرفاً على الهلاكِ ، ولمْ يبقَ لهُ سبيلٌ إلى الخلاصِ ، ولمْ يجدْ مَنْ يعطيهِ مِنْ غيرِ كراهةٍ وأذىً ، فيُباحُ لهُ ذلكَ كما يُباحُ لهُ أكلُ لحمِ الخنزيرِ وأكلُ لحمِ الميتةِ ، فكانَ الامتناعُ طريقَ الورعينَ .

ومِنْ أربابِ القلوبِ مَنْ كانَ واثقاً ببصيرتِهِ في الاطلاعِ علىٰ قرائنِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٩) .

الأحوالِ ، فكانوا يأخذونَ مِنْ بعضِ الناسِ دونَ البعضِ ، ومنهُمْ مَنْ كانَ لا يأخذُ إلا مِنْ أصدقائِهِ ، ومنهُمْ مَنْ كانَ يأخذُ ممَّا يعطىٰ بعضاً ويردُّ بعضاً ، كما فعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الكبشِ والسمنِ والأقطِ[1] ، وكانَ هـٰذا فيما يأتيهِمْ مِنْ غيرِ سؤالٍ ؛ فإنَّ ذلكَ لا يكونُ إلا عنْ رغبةٍ ، ولكنْ قدْ تكونُ رغبتُهُ طمعاً في جاهٍ ، أوْ طلباً لرياءٍ وسمعةٍ ، فكانوا يحترزونَ مِنْ ذلكَ .

فأمَّا السؤالُ . . فقدِ امتنعوا عنهُ رأساً إلا في موضعينِ :

أحدُهُما : الضرورةُ : فقدْ سألَ ثلاثةٌ مِنَ الأنبياءِ في موضعِ الضرورةِ ؛ سليمانُ ، وموسىٰ ، والخضرُ عليهِمُ السلامُ ، ولا شكَّ في أنَّهُمْ ما سألوا إلا مَنْ علموا أنَّهُ يرغبُ فيهِمْ .

والثاني : السؤالُ مِنَ الأصدقاءِ والإخوانِ : فقدْ كانوا يأخذونَ مالَهُمْ بغيرِ سؤالٍ واستئذانٍ ؛ لأنَّ أربابَ القلوبِ علموا أنَّ المطلوبَ رضا القلبِ لا نطقُ اللسانِ ، وكانوا قدْ وثقوا بإخوانِهِمْ أنَّهُمْ كانوا يفرحونَ بمباسطتِهِمْ ، فإذاً ؛ كانوا يسألونَ الإخوانَ عندَ شكِّهِمْ في اقتدارِ إخوانِهِمْ علىٰ ما يريدونَهُ ، وإلا . . فكانوا يستغنونَ عنِ السؤالِ .

وحدُّ إباحةِ السؤالِ : أنْ تعلمَ أنَّ المسؤولَ بصفةٍ لوْ علمَ ما بكَ مِنَ الحاجةِ . . لابتدأَكَ دونَ السؤالِ ، فلا يكونُ لسؤالِكَ تأثيرٌ إلا في تعريفِ حاجتِكَ ، فأمَّا في تحريكِهِ بالحياءِ ، وإثارةِ داعيتِهِ بالحيلِ . . فلا .

---

(١) رواه ذلك أحمد في « المسند » (٤/ ١٧٢) .

ويتصدَّىٰ للسائلِ حالةٌ لا يشكُّ فيها في الرضا بالباطنِ ، وحالةٌ لا يشكُّ في الكراهةِ ، ويعلمُ ذلكَ بقرينةِ الأحوالِ ، فالأخذُ في الحالةِ الأولىٰ حلالٌ طلْقٌ ، وفي الثانيةِ حرامٌ سُحْتٌ ، ويتردَّدُ بينَ الحالتينِ أحوالٌ يشكُّ فيها ، فليستفتِ فيها قلبَهُ ، وليتركْ حزَّازَ القلبِ ، فإنَّهُ الإثمُ ، وليدعْ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ ، وإدراكُ ذلكَ بقرائنِ الأحوالِ سهلٌ علىٰ مَنْ قويَتْ فطنتُهُ ، وضعفَ حرصُهُ وشهوتُهُ ، فإنْ قويَ الحرْصُ وضعفَتِ الفطنةُ . . تراءَىٰ لهُ ما يوافقُ غرضَهُ ، فلا يتفطَّنُ للقرائنِ الدالَّةِ على الكراهةِ .

وبهٰذهِ الدقائقِ يُطلعُ علىٰ سرِّ قولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجلُ مِنْ كسبهِ »(١) ، وقدْ أُوتيَ جوامعَ الكلمِ ؛ لأنَّ مَنْ لا كسبَ لهُ ، ولا مالَ ورثَهُ مِنْ كسبِ أبيهِ أوْ أحدِ قرابتِهِ ؛ فيأكلُ مِنْ أيدي الناسِ ، وإنْ أُعطيَ بغيرِ سؤالٍ . . فإنَّما يُعطىٰ بدينِهِ ، ومتىٰ يكونُ باطنُهُ بحيثُ لوِ انكشفَ . . لا يُعطىٰ بدينِهِ ؟! فيكونُ ما يأخذُهُ حراماً ، وإنْ أُعطيَ بسؤالٍ . . فأينَ مَنْ يطيبُ قلبُهُ بالعطاءِ إذا سُئِلَ ؟ وأينَ مَنْ يقتصرُ في السؤالِ علىٰ حدِّ الضرورةِ ؟

فإذا فتَّشتَ أحوالَ مَنْ يأكلُ مِنْ أيدي الناسِ . . علمتَ أنَّ جميعَ ما يأكلُهُ أوْ أكثرَهُ سحتٌ ، وأنَّ الطيِّبَ هوَ الكسبُ الذي اكتسبتَهُ بحلالِكَ أنتَ أوْ مورِّثُكَ .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٤١) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٠) .

فإذاً ؛ بعيدٌ أنْ يجتمعَ الورعُ معَ الأكلِ مِنْ أيدي الناسِ .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يقطعَ طمعَنا عنْ غيرِهِ ، وأنْ يغنيَنا بحلالِهِ عنْ حرامِهِ وبفضلِهِ عمَّنْ سواهُ ، بمنِّهِ وسعةِ جودِهِ ؛ فإنَّهُ علىٰ ما يشاءُ قديرٌ .



بيان مقدار الغنى المحرِّم للسؤال

اعلمْ : أنَّ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سألَ عنْ ظهرِ غنىً . . فإنَّما يسألُ جمراً ، فليستقلَّ منهُ ، أوْ ليستكثرْ »[١] صريحٌ في التحريمِ ، ولكنْ حدُّ الغنىٰ مشكلٌ ، وتقديرُهُ عسيرٌ ، وليسَ إلينا وضعُ المقاديرِ ، بلْ يُستدركُ ذلكَ بالتوقيفِ .

وقدْ وردَ في الحديثِ : « استغنوا بغنى اللهِ تعالىٰ عنْ غيرِهِ » ، قالوا : وما هوَ : قالَ : « غداءُ يومٍ وعشاءُ ليلةٍ »[٢] .

وفي حديثٍ آخرَ : « مَنْ سألَ ولهُ خمسونَ درهماً أوْ عدلُها مِنَ الذهبِ . . فقدْ سألَ إلحافاً »[٣] .

ووردَ في لفظٍ آخرَ : « أربعون درهماً »[٤] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٣١) ، وبنحوه أبو داوود (١٦٢٩) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٣) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٨٠) ، وهو عند أبي داوود (١٦٢٩) ولفظه : « من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النار » ، فقالوا : وما الغنى الذي لا تنبغي معه المسألة ؟ قال : « قدر ما يغديه ويعشيه » ، وعند أحمد في « المسند » (١/ ١٤٧) من حديث علي كرم الله وجهه : قالوا : وما ظهر غنىً ؟ قال : « عشاء ليلة » .

(٣) رواه أبو داوود (١٦٢٦) ، والترمذي (٦٥٠) ، والنسائي (٥/ ٩٧) ، وابن ماجه (١٨٤٠) بنحوه .

(٤) رواه أبو داوود (١٦٢٧ ، ١٦٢٨) ، والنسائي (٥/ ٩٨) .

ومهما اختلفَتِ التقديراتُ وصحَّتِ الأخبارُ . . فينبغي أنْ يُقطعَ بورودِها علىٰ أحوالٍ مختلفةٍ ، فإنَّ الحقَّ في نفسِهِ لا يكونُ إلا واحداً ، والتقديرُ ممتنعٌ ، وغايةُ الممكنِ فيهِ تقريبٌ ، ولا يتمُّ ذلكَ إلا بتقسيمٍ محيطٍ بأحوالِ المحتاجينَ ، فنقولُ :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا حقَّ لابنِ آدمَ إلا في ثلاثٍ : طعامٌ يقيمُ صلبَهُ ، وثوبٌ يواري عورتَهُ ، وبيتٌ يكنُّهُ ، فما زادَ فهوَ حسابٌ »[1] ، فلنجعلْ هـٰذهِ الثلاثَ أصلاً في الحاجاتِ لبيانِ أجناسِها ، والنظرُ في الأجناسِ والمقاديرِ والأوقاتِ .

فأمَّا الأجناسُ : فهيَ هـٰذهِ الثلاثُ ، ويلحقُ بها ما في معناها ، حتَّىٰ يلحقُ بها الكراءُ للمسافرِ إذا كانَ لا يقدرُ على المشيِ ، وكذلكَ ما يجري مَجراهُ مِنَ المهمَّاتِ ، ويلحقُ بنفسِهِ عيالُهُ وولدُهُ ، وكلُّ مَنْ تحتَ كفالتِهِ كالدابةِ أيضاً .

وأمَّا المقاديرُ : فالثوبُ يُراعىٰ فيهِ ما يليقُ بذوي الدينِ ، وهوَ ثوبٌ واحدٌ ، وقميصٌ ، ومنديلٌ ، وسراويلُ ، ومداسٌ ، فأمَّا الثاني مِنْ كلِّ جنسٍ . . فهوَ مستغنىً عنهُ ، وليقسْ علىٰ هـٰذا أثاثَ البيتِ جميعَهُ .

ولا ينبغي أنْ يطلبَ رقةَ الثيابِ ، وكونَ الأواني مِنَ النحاسِ والصفرِ فيما

---

(١) قوت القلوب (٢/١٩٨) ، ورواه الترمذي (٢٣٤١) بنحوه .

يكفي فيهِ الخزفُ ؛ فإنَّ ذلكَ مستغنىً عنهُ ، فيقتصرُ مِنَ العددِ علىٰ واحدٍ ، ومِنَ النوعِ علىٰ أخسِّ أجناسهِ ما لمْ يكنْ في غايةِ البعدِ عنِ العادةِ .

وأمَّا الطعامُ . . فقدْرُهُ في اليومِ مدٌّ ، وهوَ ما قدَّرَهُ الشرعُ ، ونوعُهُ ما يُقتاتُ ولوْ كانَ منَ الشعيرِ ، والأدمُ على الدوامِ فضلةٌ ، وقطعُهُ بالكلِّيَّةِ إضرارٌ ، ففي طلبهِ في بعضِ الأحوالِ رخصةٌ .

وأمَّا المسكنُ . . فأقلُّهُ ما يجزىءُ مِنْ حيثُ المقدارُ ، وذلكَ مِنْ غيرِ زينةٍ ، فأمَّا السؤالُ للزينةِ والتوسُّعِ . . فهوَ سؤالٌ عنْ ظهرِ غنىً .

وأمَّا بالإضافةِ إلى الأوقاتِ : فما يحتاجُ إليهِ في الحالِ مِنَ طعامِ يومٍ وليلةٍ ، وثوبٍ يلبسُهُ ، ومأوىً يكنُّهُ . . فلا شكَّ فيهِ ، فأمَّا سؤالُهُ للمستقبلِ . . فهـٰذا لهُ ثلاثُ درجاتٍ :

إحداها : ما يحتاجُ إليهِ في غدٍ .

والثانيةُ : ما يحتاجُ إليهِ في أربعينَ يوماً أوْ خمسينَ يوماً .

والثالثةُ : ما يحتاجُ إليهِ في السنةِ .

ولنقطعْ بأنَّ مَنْ معَهُ ما يكفيهِ لهُ ولعيالِهِ ـ إنْ كانَ لهُ عيالٌ ـ لسنةٍ . . فسؤالُهُ حرامٌ ؛ فإنَّ ذلكَ غايةُ الغنىٰ ، وعليهِ يُنزَّلُ التقديرُ بخمسينَ درهماً في الحديثِ ، فإنَّ خمسةَ دنانيرَ تكفي المنفردَ في السنةِ إذا اقتصدَ ، أمَّا المعيلُ . . فربما لا يكفيهِ ذلكَ .

وإنْ كانَ يحتاجُ إليهِ قبلَ السنةِ ؛ فإنْ كانَ قادراً على السؤالِ ولا تفوتُهُ

فرصتُهُ . . فلا يحلُّ لهُ السؤالُ ؛ لأنَّهُ مستغنٍ في الحالِ ، وربما لا يعيشُ إلى الغدِ ، فيكونُ قدْ سألَ ما لا يحتاجُ ، فيكفيهِ غداءُ يومٍ وعشاءُ ليلةٍ ، وعليهِ يُنزَّلُ الخبرُ الذي وردَ في التقديرِ بهٰذا القدْرِ .

وإنْ كانَ يفوتُهُ فرصةُ السؤالِ ، ولا يجدُ مَنْ يعطيهِ لوْ أخَّرَ . . فيُباحُ لهُ السؤالُ ؛ لأنَّ أملَ البقاءِ سنةً غيرُ بعيدٍ ، فهوَ بتأخيرِ السؤالِ خائفٌ أنْ يبقىٰ مضطراً عاجزاً عمَّا يعينُهُ .

فإنْ كانَ خوفُ العجزِ عنِ السؤالِ في المستقبلِ ضعيفاً ، وكانَ ما لأجلِهِ السؤالُ خارجاً عنْ محلِّ الضرورةِ . . لمْ يخلُ سؤالُهُ عنْ كراهةٍ ، وتكونُ كراهتُهُ بحسَبِ درجاتِ ضعفِ الاضطرارِ وخوفِ الفوتِ وتراخي المدةِ التي فيها يُحتاجُ إلى السؤالِ .

وكلُّ ذلكَ لا يقبلُ الضبطَ ، وهوَ منوطٌ باجتهادِ العبدِ ونظرِهِ لنفسِهِ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، فيستفتي فيهِ قلبَهُ ، ويعملُ بهِ إنْ كانَ سالكاً طريقَ الآخرةِ ، وكلَّما كانَ يقينُهُ أقوىٰ ، وثقتُهُ بمجيءِ الرزقِ في المستقبلِ أتمَّ ، وقناعتُهُ بقوتِ الوقتِ أظهرَ . . فدرجتُهُ عندَ اللهِ تعالىٰ أعلىٰ[1] ، فلا يكونُ خوفُ الاستقبالِ وقدْ آتاكَ اللهُ قوتَ يومِكَ لكَ ولعيالِكَ إلا مِنْ ضعفِ اليقينِ ،

---

(١) وهو داخل في حد قولهم : الصوفي ابن وقته ؛ أي : يقنع بما تيسر له من كل شيء في وقته ، سواء كان قوتاً ظاهرياً أو معنوياً ، ولا يعلق قلبه بما سيأتي . « إتحاف » (٩/٣١١) .

والإصغاءِ إلىٰ تخويفِ الشيطانِ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ .

والسؤالُ مِنَ الفحشاءِ التي أُبيحَتْ بالضرورةِ ، وحالُ مَنْ يسألُ لحاجةٍ متراخيةٍ عنْ يومِهِ وإنْ كانَ ممَّا يحتاجُ إليهِ في السنةِ . . أشدُّ مِنْ حالِ مَنْ ملكَ مالاً موروثاً وادَّخرَهُ لحاجةٍ وراءَ السنةِ ، وكلاهما مباحانِ في الفتوى الظاهرةِ ، ولكنَّهُما صادرانِ عنْ حبِّ الدنيا وطولِ الأملِ ، وعدمِ الثقةِ بفضْلِ اللهِ ، وهـٰذهِ الخصلةُ مِنْ أمَّهاتِ المهلكاتِ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بمنِّهِ وكرمِهِ .



بيان أحوال السائلين

كانَ بشرٌ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (الفقراءُ ثلاثةٌ : فقيرٌ لا يسألُ ، وإنْ أُعطيَ . . لا يأخذُ ، فهٰذا معَ الروحانيينَ في عليينَ ، وفقيرٌ لا يسألُ ، وإنْ أُعطيَ . . أخذَ ، فهٰذا معَ المقرَّبينَ في جناتِ الفردوسِ ، وفقيرٌ يسألُ عندَ فاقتِهِ ، فهٰذا معَ الصادقينَ مِنْ أصحابِ اليمينِ)[١] .

فإذاً ؛ قدِ اتفقَ كلُّهُمْ علىٰ ذمِّ السؤالِ ، وعلىٰ أنَّهُ معَ الفاقةِ يحطُّ المرتبةَ والدرجةَ .

وقال إبراهيمُ بنُ أدهمَ لشقيقِ بنِ إبراهيمَ حينَ قدمَ عليهِ مِنْ خراسانَ : كيفَ تركتَ الفقراءَ مِنْ أصحابِكَ ؟ قالَ : تركتُهُمْ إنْ أُعطوا . . شكروا ، وإنْ مُنعوا . . صبروا ، وظنَّ أنَّهُ لمَّا وصفَهُمْ بتركِ السؤالِ فقدْ أثنىٰ عليهِمْ غايةَ الثناءِ ، فقالَ إبراهيمُ : هٰكذا تركتُ كلابَ بلخٍ عندَنا ، فقالَ لهُ شقيقٌ : فكيفَ الفقراءُ عندكَ يا أبا إسحاقَ ؟ فقالَ : الفقراءُ عندَنا إنْ مُنعوا . . شكروا ، وإنْ أُعطوا . . آثروا ، فقبَّلَ رأسَهُ وقالَ : صدقتَ يا أستاذُ[٢] .

فإذاً ؛ درجاتُ أربابِ الأحوالِ في الرضا والصبرِ والشكرِ والسؤالِ كثيرةٌ ، فلا بدَّ لسالكِ طريقِ الآخرةِ مِنْ معرفتِها ، ومعرفةِ انقسامِها واختلافِ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٢٥٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٠٤) بنحوه .

(٢) رواه بنحوه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٧) ، وفيهما أنهما اجتمعا في مكة .

درجاتِها ، فإنَّهُ إذا لمْ يعلمْ.. لمْ يقدرْ على الترقِّي مِنْ حضيضِها إلىٰ يفاعِها ، ومِنْ أسفلِ سافلينَ إلىٰ أعلىٰ علِّيينَ ، وقدْ خُلِقَ الإنسانُ في أحسنِ تقويمٍ ، ثمَّ رُدَّ إلىٰ أسفلِ سافلينَ ، ثمَّ أُمِرَ أنْ يترقَّىٰ إلىٰ أعلىٰ علِّيينَ ، ومَنْ لا يميزُ بينَ السفلِ والعلوِ.. لا يقدرُ على الترقِّي قطعاً ، وإنَّما الشكُّ فيمَنْ عرفَ ذلكَ ، فإنَّهُ ربما يقدرُ عليهِ[1] .

وأربابُ الأحوالِ قدْ تغلبُهُمْ حالةٌ تقتضي أنْ يكونَ السؤالُ مزيداً لهُمْ في درجاتِهِمْ ، ولكنْ بالإضافةِ إلىٰ حالِهِمْ ، فإنَّ مثلَ هـٰذهِ الأعمالِ بالنياتِ ؛ وذلكَ كما رُوِيَ أنَّ بعضَهُمْ رأىٰ أبا الحسينِ النوريَّ رحمَهُ اللهُ يمدُّ يدَهُ ويسألُ الناسَ في بعضِ المواطنِ ، قالَ : فاستعظمتُ ذلكَ واستقبحتُهُ لهُ ، فأتيتُ الجنيدَ رحمهُ اللهُ فأخبرتُهُ ، فقالَ : لا يعظمْ هـٰذا عليكَ ؛ فإنَّ النوريَّ لمْ يسألِ الناسَ إلا ليعطيَهُمْ ، وإنَّما سألَهُمْ ليثيبَهُمْ في الآخرةِ ، فيُؤجرونَ مِنْ حيثُ لا يضرُّهُمْ ـ وكأنَّهُ أشارَ بهِ إلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يدُ المعطي هيَ العليا »[2] ، فقالَ بعضُهُمْ : يدُ المعطي هيَ يدُ الآخذِ للمالِ ؛ لأنَّهُ يعطي الثوابَ ، والقدرُ لهُ لا لما يأخذُهُ ـ ثمَّ قالَ الجنيدُ : هاتِ الميزانَ ، فوزنَ مئةَ درهمٍ ، ثمَّ قبضَ قبضةً فألقاها على المئةِ ، ثمَّ قالَ : احملْها إليهِ ، فقلتُ في نفسي : إنَّما يُوزنُ الشيءُ ليُعرفَ مقدارُهُ ، فكيفَ خلطَ بهِ مجهولاً وهوَ رجلٌ حكيمٌ ؟! واستحييتُ أنْ أسألَهُ ، فذهبتُ بالصرَّةِ إلى النوريِّ ، فقالَ : هاتِ

---

(١) فالترقي تابع للمعرفة والتمييز . « إتحاف » (٩/ ٣١٢) .

(٢) رواه النسائي (٥/ ٦١) عن طارق المحاربي رضي الله عنه مرفوعاً .

الميزانَ ، فوزن مئةً وقالَ : ردَّها عليهِ ، وقلْ لهُ : أنا لا أقبلُ منكَ شيئاً ، وأخذَ ما زادَ على المئةِ ، قالَ : فزادَ تعجُّبي ، فسألتُهُ ، فقالَ : الجنيدُ رجلٌ حكيمٌ ، يريدُ أنْ يأخذَ الحبلَ بطرفيهِ ، وزنَ المئةَ لنفسهِ طلباً لثوابِ الآخرةِ ، وطرحَ عليها قبضةً بلا وزنٍ للهِ عزَّ وجلَّ ، فأخذتُ ما كانَ للهِ تباركَ وتعالىٰ ، ورددتُ ما جعلَهُ لنفسِهِ ، قالَ : فرددتُها إلى الجنيدِ ، فبكىٰ وقالَ : أخذَ مالَهُ وردَّ مالَنا ، واللهُ المستعانُ[1] .

فانظرِ الآنَ كيفَ صفَتْ قلوبُهُمْ وأحوالُهُمْ ، وكيفَ خلصَتْ للهِ أعمالُهُمْ ، حتَّىٰ كانَ يشاهدُ كلُّ واحدٍ قلبَ صاحبِهِ مِنْ غيرِ مناطقةٍ باللسانِ ، ولكنْ بتشاهدِ القلوبِ وتناجي الأسرارِ ، وذلكَ نتيجةُ أكلِ الحلالِ ، وخلوِّ القلبِ عنْ حبِّ الدنيا ، والإقبالِ على اللهِ تعالىٰ بكنهِ الهمَّةِ .

فمَنْ أنكرَ ذلكَ قبلَ تجربةِ طريقِهِ . . فهوَ جاهلٌ ؛ كمَنْ ينكرُ مثلاً كونَ الدواءِ مسهلاً قبلَ شربِهِ ، ومَنْ أنكرَهُ بعدَ أنْ طالَ اجتهادُهُ حتَّىٰ بذلَ كنهَ مجهودِهِ ولمْ يصلْ ، فأنكرَ ذلكَ لغيرِهِ . . كانَ كمَنْ شربَ المسهلَ فلمْ يؤثِّرْ في حقِّهِ خاصَّةً لعلَّةٍ في باطنِهِ ، فأخذَ ينكرُ كونَ الدواءِ مسهلاً ، وهنذا وإنْ كانَ في الجهلِ دونَ الأوَّلِ ولكنَّهُ ليسَ خالياً عنْ حظٍّ وافٍ مِنَ الجهلِ .

---

(١) رواه أبو طالب المكي في « القوت » (٢/ ٢٠١) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٣١٣) : (فمن كان بهذه المثابة من المعرفة والاستشراف على الخواطر كيف لا يكون السؤال مزيداً في درجاته ؟!) .

بلِ البصيرُ أحدُ رجلينِ :

إمَّا رجلٌ سلكَ الطريقَ فظهرَ لهُ مثلَ ما ظهرَ لهُمْ ، فهوَ صاحبُ الذوقِ والمعرفةِ ، وقدْ وصلَ إلىٰ عينِ اليقينِ .

وإمَّا رجلٌ لمْ يسلكِ الطريقَ ، أوْ سلكَ ولمْ يصلْ ، ولكنَّهُ آمنَ بذلكَ وصدَّقَ بهِ ، فهوَ صاحبُ علم اليقينِ ، وإنْ لمْ يكنْ واصلاً إلىٰ عينِ اليقينِ ، ولعلمِ اليقينِ أيضاً رتبةٌ وإنْ كانَ دونَ عينِ اليقينِ .

ومَنْ خلا عنْ علمِ اليقينِ وعينِ اليقينِ . . فهوَ خارجٌ عنْ زمرةِ المؤمنينَ ، ويُحشرُ يومَ القيامةِ في زمرةِ الجاحدينَ المستكبرينَ ، الذينَ همْ قتلى العقولِ الضعيفةِ وأتباعُ الشياطينِ .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يجعلَنا مِنَ الراسخينَ في العلمِ ، القائلينَ : ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

الشَّطْرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب
فِي الزّهد

وفيهِ بيانُ حقيقةِ الزهدِ ، وبيانُ فضيلةِ الزهدِ ، وبيانُ درجاتِ الزهدِ وأقسامِهِ ، وبيانُ تفصيلِ الزهدِ في المطعمِ والملبسِ والمسكنِ والأثاثِ وضروراتِ المعيشةِ ، وبيانُ علامةِ الزهدِ .

بيان حقيقة الزّهد

اعلمْ : أنَّ الزهدَ في الدنيا مقامٌ شريفٌ مِنْ مقاماتِ السالكينَ ، وينتظمُ هـٰذا المقامُ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ كسائرِ المقاماتِ ؛ لأنَّ أبوابَ الإيمانِ كلَّها كمَا قالَ السلفُ ترجعُ إلىٰ عقدٍ وقولٍ وعملٍ[1] .

وكأنَّ القولَ لظهورِهِ أُقيمَ مقامَ الحالِ ؛ إذْ بهِ يظهرُ الحالُ الباطنُ ، وإلا . . فليسَ القولُ مراداً لعينِهِ ، وإنْ لمْ يكنْ صادراً عنْ حالٍ . . سُمِّيَ إسلاماً ولمْ يُسمَّ إيماناً[2] ، والعلمُ هوَ السببُ في الحالِ ، يجري مَجرى

---

(١) فالعقد يرجع إلى القلب ، والقول يرجع إلى اللسان ، والعمل يرجع إلى الجوارح . « إتحاف » (٩/ ٣١٧) .

(٢) فالعلم هو الأصل الذي هو عقد من عقود الإيمان بالله أو لله ، والحال ما ينشأ عنه من المواجيد ، والعمل هو ما تنشئه المواجيد على القلوب والجوارح من الأعمال . « إتحاف » (٩/ ٣١٧) .

المثمرِ ، والعملُ يجري مِنَ الحالِ مَجرى الثمرةِ ، فلنذكرِ الحالَ معَ كلا طرفيهِ مِنَ العلمِ والعملِ .

أمَّا الحالُ :

فنعني بها ما يُسمَّىٰ زهداً ، وهوَ عبارةٌ عنِ انصرافِ الرغبةِ عنِ الشيءِ إلىٰ ما هو خيرٌ منهُ ، فكلُّ مَنْ عدلَ عنْ شيءٍ إلىٰ غيرِهِ بمعاوضةٍ وبيعٍ وغيرِهِ فإنَّما عدلَ عنهُ لرغبتِهِ عنهُ ، وإنَّما عدلَ إلىٰ غيرِهِ لرغبتِهِ في غيرِهِ ، فحالُهُ بالإضافةِ إلى المعدولِ عنهُ يُسمَّىٰ زُهداً ، وبالإضافةِ إلى المعدولِ إليهِ يُسمَّىٰ رغبةً وحبّاً .

فإذاً ؛ يستدعي حالُ الزهدِ : مرغوباً عنهُ ، ومرغوباً فيهِ هوَ خيرٌ مِنَ المرغوبِ عنهُ .

وشرطُ المرغوبِ عنهُ : أنْ يكونَ أيضاً هو مرغوباً فيهِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ ، فمَنْ رغبَ عمَّا ليسَ مطلوباً في نفسِهِ لا يُسمَّىٰ زاهداً ، إذْ تاركُ الترابِ والحجرِ وما أشبهَهُ لا يُسمَّىٰ زاهداً ، وإنَّما يُسمَّىٰ زاهداً مَنْ تركَ الدراهمَ والدنانيرَ ؛ لأنَّ الترابَ والحجرَ ليسا في مَظِنَّةِ الرغبةِ .

وشرطُ المرغوبِ فيهِ : أنْ يكونَ عندَهُ خيراً مِنَ المرغوبِ عنهُ ، حتَّىٰ تغلبَ هـٰذهِ الرغبةُ ، فالبائعُ لا يقدمُ على البيعِ إلا والمُشترَىٰ عندَهُ خيرٌ مِنَ المبيعِ ، فيكونُ حالُهُ بالإضافةِ إلى المبيعِ زهداً فيهِ ، وبالإضافةِ إلى العوضِ عنهُ رغبةً فيهِ وحبّاً ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ ؛ معناهُ : باعوهُ ، فقدْ يُطلقُ الشراءُ بمعنى

البيعِ ، ووصفَ إخوةَ يوسفَ بالزهدِ فيهِ إذْ طمعوا أنْ يخلوَ لهُمْ وجهُ أبيهِمْ ، وكانَ ذلكَ عندَهُمْ أحبَّ إليهِمْ مِنْ يوسفَ ، فباعوهُ طمعاً في العوضِ .

فإذاً ؛ كلُّ مَنْ باعَ الدنيا بالآخرةِ . . فهوَ زاهدٌ في الدنيا ، وكلُّ مَنْ باعَ الآخرةَ بالدنيا . . فهوَ أيضاً زاهدٌ ولكنْ في الآخرةِ ، ولكنَّ العادةَ جاريةٌ بتخصيصِ اسمِ الزهدِ بمَنْ يزهدُ في الدنيا ، كما خُصِّصَ اسمُ الإلحادِ بمَنْ يميلُ إلى الباطلِ خاصَّةً وإنْ كانَ هوَ للميلِ في وضعِ اللسانِ .

ولمَّا كانَ الزهدُ رغبةً عنْ محبوبٍ بالجملةِ . . لمْ يُتصوَّرْ إلا بالعدولِ إلىٰ شيءٍ هوَ أحبُّ منهُ ، وإلا . . فتركُ المحبوبِ بغيرِ الأحبِّ محالٌ(١) .

والذي يرغبُ عنْ كلِّ ما سوى اللهِ حتَّى الفراديسِ ، ولا يحبُّ إلا اللهَ تعالىٰ . . فهوَ الزاهدُ المطلقُ .

والذي يرغبُ عنْ كلِّ حظٍّ يُنالُ في الدنيا ، ولمْ يزهدْ في مثلِ تلكَ الحظوظِ في الآخرةِ ، بلْ طمعَ في الحورِ والقصورِ ، والأنهارِ والفواكهِ . . فهوَ أيضاً زاهدٌ ، ولكنَّهُ دونَ الأوَّلِ .

والذي يتركُ مِنْ حظوظِ الدنيا البعضَ دونَ البعضِ ؛ كالذي يتركُ المالَ دونَ الجاهِ ، أوْ يتركُ التوسُّعَ في الأكلِ ولا يتركُ التجمُّلَ في الزينةِ . . فلا يستحقُّ اسمَ الزاهدِ مطلقاً ، ودرجتُهُ في الزهَّادِ درجةُ مَنْ يتوبُ عنْ بعضِ المعاصي في التائبينَ ، وهوَ زهدٌ صحيحٌ ؛ كما أنَّ التوبةَ عنْ بعضِ المعاصي

---

(١) وبهـٰذا يفارق الفقر ؛ فإن حقيقة الفقر الفقد والاحتياج . « إتحاف » (٩/ ٣١٨) .

صحيحةٌ ؛ فإنَّ التوبةَ عبارةٌ عنْ تركِ المحظوراتِ ، والزهدُ عبارةٌ عنْ تركِ المباحاتِ التي هيَ حظُّ النفسِ ، ولا يبعدُ أنْ يقدرَ علىٰ تركِ بعضِ المباحاتِ دونَ بعضٍ ، كما لا يبعدُ ذلكَ في المحظوراتِ ، والمقتصرُ علىٰ تركِ المحظوراتِ لا يُسمَّىٰ زاهداً وإنْ كانَ قدْ زهدَ في المحظورِ وانصرفَ عنهُ ، ولكنَّ العادةَ تخصِّصُ هـٰذا الاسمَ بتركِ المباحاتِ .

فإذاً ؛ الزهدُ عبارةٌ عنْ رغبتِهِ عنِ الدنيا عدولاً إلى الآخرةِ ، أوْ عنْ غيرِ اللهِ تعالىٰ عدولاً إلى اللهِ تعالىٰ ، وهيَ الدرجةُ العليا .

وكما يُشترطُ في المرغوبِ فيهِ أنْ يكونَ خيراً عندَهُ . . فيُشترطُ في المرغوبِ عنهُ أنْ يكونَ مقدوراً عليهِ ، فإنَّ تركَ ما لا يُقدرُ عليهِ محالٌ ، وبالتركِ يتبيَّنُ زوالُ الرغبةِ ، ولذلكَ قيلَ لابنِ المباركِ : يا زاهدُ ، فقالَ : الزاهدُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ ؛ إذْ جاءَتْهُ الدنيا راغمةً فتركَها ، وأمَّا أنا . . ففيماذا زهدتُ ؟[1] .

وأمَّا العلمُ الذي هو مثمرٌ لهـٰذهِ الحالِ :

فهوَ العلمُ بكونِ المتروكِ حقيراً بالإضافةِ إلى المأخوذِ ؛ كعلمِ التاجرِ بأنَّ العوضَ خيرٌ مِنَ المبيعِ ، فيرغبُ فيهِ ، وما لمْ يتحقَّقْ هـٰذا العلمُ . .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/٢٤٩) ، وهو عند صاحب « القوت » (١/٢٤٩) . وقد روي في هـٰذا الباب عن الشريف محسن بن علوي السقاف (ت ١٢٩١هـ) لما سمع أحدهم ـ ممن لا يملك من الدنيا شيئاً ـ يقول للدنيا : (طلقتك ثلاثاً !!) . . فقال له : (إنك لم تطلق الدنيا ، بل الدنيا طلقتك) .

لا يُتصوَّرُ أنْ تزولَ الرغبةُ عنِ المبيعِ ؛ فكذلكَ مَنْ عرفَ أنَّ ما عندَ اللهِ باقٍ وأنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقىٰ ؛ أيْ : لذَّاتُها خيرٌ في نفسِها وأبقىٰ ، كما يكونُ الجوهرُ خيراً مِنَ الثلجِ مثلاً ، وهيَ أبقىٰ كما يكونُ الجوهرُ أبقىٰ مِنَ الثلجِ ، ولا يعسرُ علىٰ مالكِ الثلجِ بيعُهُ بالجواهرِ واللآلىءِ ، فهكذا مثالُ الدنيا والآخرةِ ، فالدنيا كالثلجِ الموضوعِ في الشمسِ لا يزالُ في الذوبانِ إلى الانقراضِ ، والآخرةُ كالجوهرِ الذي لا فناءَ لهُ .

فبقدْرِ قوَّةِ اليقينِ والمعرفةِ بالتفاوتِ بينَ الدنيا والآخرةِ تقوى الرغبةُ في البيعِ والمعاملةِ ، حتَّىٰ إنَّ مَنْ قويَ يقينُهُ يبيعُ نفسَهُ ومالَهُ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ صفقتَهُمْ رابحةٌ فقالَ : ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ .

فليسَ يحتاجُ مِنَ العلمِ في الزهدِ إلا إلىٰ هـٰذا القدْرِ ، وهوَ أنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقىٰ ، وقدْ يعلمُ ذلكَ مَنْ لا يقدرُ علىٰ تركِ الدنيا ؛ إمَّا لضعفِ علمِهِ ويقينِهِ ، وإمَّا لاستيلاءِ الشهوةِ في الحالِ عليهِ ، وكونِهِ مقهوراً في يدِ الشيطانِ ، وإمَّا لاغترارِهِ بمواعيدِ الشيطانِ في التسويفِ يوماً بعد يومٍ إلىٰ أنْ يختطفَهُ الموتُ ، ولا يبقىٰ معَهُ إلا الحسرةُ بعدَ الفوتِ .

وإلىٰ تعريفِ خساسةِ الدنيا الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ ، وإلىٰ تعريفِ نفاسةِ الآخرةِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ ، فنبّهَ علىٰ أنَّ العلمَ بنفاسةِ الجوهرِ هوَ المرغِّبُ عنْ عوضِهِ .

ولمَّا لمْ يُتصوَّرِ الزهدُ إلا بمعاوضةٍ ورغبةٍ عنْ محبوبٍ في أحبَّ منهُ . . قالَ رجلٌ في دعائِهِ : اللهمَّ أرني الدنيا كما تراها ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تقلْ هٰكذا ، ولكنْ قلْ : أرني الدنيا كما أريتَها الصالحينَ منْ عبادِكَ »(١) ، وهٰذا لأنَّ اللهَ تعالىٰ يراها حقيرةً كما هيَ ، وكلُّ مخلوقٍ فهوَ بالإضافةِ إلىٰ جلالِهِ حقيرٌ ، والعبدُ يراها حقيرةً في حقِّ نفسِهِ بالإضافةِ إلىٰ ما هوَ خيرٌ لهُ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يرىٰ بائعُ الفرسِ وإنْ رغبَ عنْ فرسِهِ كما يرىٰ حشراتِ الأرضِ مثلاً(٢) ؛ لأنَّهُ مستغنٍ عنِ الحشراتِ أصلاً ، وليسَ مستغنياً عنِ الفرسِ ، واللهُ تعالىٰ غنيٌّ بذاتِهِ عنْ كلِّ ما سواهُ ، فيرى الكلَّ في درجةٍ واحدةٍ بالإضافةِ إلىٰ جلالِهِ ، ويراها متفاوتةً بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِ ، والزاهدُ هوَ الذي يرىٰ تفاوتَهُ بالإضافةِ إلىٰ نفسِهِ لا إلىٰ غيرِهِ .

وأمَّا العملُ الصادرُ عنْ حالِ الزهدِ :

فهوَ تركٌ وأخذٌ ؛ لأنَّهُ بيعٌ ، ومعاملةٌ ، واستبدالُ الذي هوَ خيرٌ بالذي هوَ أدنىٰ ، فكما أنَّ العملَ الصادرَ عنْ عقدِ البيعِ هوَ تركُ المبيعِ وإخراجُهُ مِنَ اليدِ

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢٥٣) ، والخبر رواه ابن فضيل في « الدعاء » (٢) عن أبي الغصين الطائي ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (١٩١٠) عن أبي العصير الكناني .

(٢) كذا في (ب) ، وفي باقي النسخ : (أن يرىٰ بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه . . .) .

وأخذُ العوضِ. . فكذلكَ الزهدُ يوجبُ تركَ المزهودِ فيهِ بالكلِّيَّةِ ؛ وهيَ الدنيا بأسرِها ، معَ أسبابِها ومقدماتِها وعلائقِها ، فيخرجُ مِنَ القلبِ حبَّها ، ويدخلُ حبَّ الطاعاتِ ، ويخرجُ من اليدِ والعينِ ما أخرجَهُ مِنَ القلبِ ، ويوظِّفُ على اليدِ والعينِ وسائرِ الجوارحِ وظائفَ الطاعاتِ ، وإلا. . كانَ كمَنْ سلَّمَ المبيعَ ولمْ يأخذِ الثمنَ .

فإذا وفَّىٰ بشرطِ الجانبينِ في الأخذِ والتركِ. . فليستبشرْ ببيعِهِ الذي بايعَ بهِ ، فإنَّ الذي بايعَهُ بهٰذا البيعِ وفَّىٰ بالعهدِ ، فمَنْ أسلمَ حاضراً في غائبٍ ، وسلَّمَ الحاضرَ وأخذَ يسعىٰ في طلبِ الغائبِ. . سُلِّمَ إليهِ الغائبُ حينَ فراغِهِ مِنْ سعيهِ إنْ كانَ العاقدُ ممَّنْ يُوثَقُ بصدقِهِ وقدرتِهِ ووفائِهِ بالعهدِ .

وما دامَ ممسكاً للدنيا. . لا يصحُّ زهدُهُ أصلاً ، ولذلكَ لمْ يصفِ اللهُ تعالىٰ إخوةَ يوسفَ بالزهدِ في بنيامينَ ، وإنْ كانوا قدْ قالوا : ليوسفُ وأخوهُ أحبُّ إلىٰ أبينا منَّا ، وعزموا علىٰ إبعادِهِ كما عزموا علىٰ يوسفَ حتَّىٰ تشفَّعَ فيهِ أحدُهُمْ فتُرِكَ[1] ، ولا وصفَهُمْ أيضاً بالزهدِ في يوسفَ عندَ العزمِ علىٰ إخراجِهِ ، بلْ عندَ التسليمِ والبيعِ .

فعلامةُ الرغبةِ الإمساكُ ، وعلامةُ الزهدِ الإخراجُ ، فإنْ أخرجتَ عنِ اليدِ بعضَ الدنيا دونَ البعضِ. . فأنتَ زاهدٌ فيما أخرجتَ فقطْ ، ولستَ زاهداً

---

(١) وهو يهوذا ، فشفع فيه ورحمه ومنعه ، وكان شديداً بينهم منيعاً مهيباً فيهم ، وقد قيل في السير : (إن أخاهم الأكبر روبيل هو استوهبه منهم) . « إتحاف » (٩/ ٣٢١) نقلاً عن « القوت » (١/ ٢٤٨) .

مطلقاً ، وإنْ لمْ يكنْ لكَ مالٌ ولمْ تساعدْكَ الدنيا . . لمْ يُتصوَّرْ منكَ الزهدُ ؛ لأنَّ ما لا يُقدرُ عليهِ لا يُقدرُ علىٰ تركِهِ ، وربما يستهويكَ الشيطانُ بغرورِهِ ، ويخيِّلُ إليكَ أنَّ الدنيا وإنْ لمْ تأتِكَ فأنتَ زاهدٌ فيها ، فلا ينبغي أنْ تتدلَّىٰ بحبلِ غرورِهِ دونَ أنْ تستوثقَ وتستظهرَ بموثقٍ غليظٍ مِنَ اللهِ ؛ فإنَّكَ إذا لمْ تجرِّبْ حالَ القدرةِ . . فلا تثقْ بالقدرةِ على التركِ عندَها ، فكمْ مِنْ ظانٍّ بنفسِهِ كراهةَ المعاصي عندَ تعذُّرِها ، فلمَّا تيسَّرَتْ لهُ أسبابُها مِنْ غيرِ مكدِّرٍ ولا خوفٍ مِنَ الخلقِ . . وقعَ فيها ، وإذا كانَ هٰذا غرورَ النفسِ في المحظوراتِ . . فإيَّاكَ أنْ تثقَ بوعدِها في المباحاتِ .

والموثقُ الغليظُ الذي تأخذُهُ عليها : أنْ تجرِّبَها مرَّةً بعدَ مرَّةٍ في حالِ القدرةِ ، فإذا وفَّتْ بما وعدَتْ على الدوامِ معَ انتفاءِ الصوارفِ والأعذارِ ظاهراً وباطناً . . فلا بأسَ أنْ تثقَ بها وثوقاً ما ، ولكنْ تكونُ مِنْ تغيُّرِها أيضاً علىٰ حذرٍ ؛ فإنَّها سريعةُ النقضِ للعهدِ ، قريبةُ الرجوعِ إلىٰ مقتضى الطبعِ .

وبالجملةِ : فلا أمانَ منها إلا عندَ التركِ بالإضافةِ إلىٰ ما تُرِكَ فقطْ ، وذلكَ عندَ القدرةِ ، قالَ ابنُ أبي ليلىٰ لابنِ شبرمةَ : ألا ترىٰ إلىٰ هٰذا ابنِ الحائكِ ، لا نفتي في مسألةٍ إلا ردَّ علينا ! يعني أبا حنيفةَ ، فقالَ ابنُ شبرمةَ : لا أدري أهوَ ابنُ الحائكِ أمْ ما هوَ ، لكنْ أعلمُ أنَّ الدنيا غدَتْ إليهِ فهربَ منها ، وهربَتْ منَّا فطلبناها(١) .

(١) أورده الأصفهاني في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٣٣٥) ، قال الحافظ الزبيدي في =

ولذلكَ قالَ جميعُ المسلمينَ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّا نحبُّ ربَّنا ، ولوْ علمنا في أيِّ شيءٍ محبَّتُهُ .. لفعلناهُ ، حتَّىٰ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ ، قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنتَ منهُمْ » أي : مِنَ القليلِ ، قالَ : (وما عرفتُ أنَّ فينا مَنْ يحبُّ الدنيا حتَّىٰ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾)(١) .

واعلمْ : أنَّهُ ليسَ مِنَ الزهدِ تركُ المالِ وبذلُهُ علىٰ سبيلِ السخاءِ والفتوَّةِ ، وعلىٰ سبيلِ استمالةِ القلوبِ ، ولا علىٰ سبيلِ الطمعِ ، فذلكَ كلُّهُ مِنْ محاسنِ العاداتِ ، ولكنْ لا مدخلَ لشيءٍ منهُ في العباداتِ ، وإنَّما الزهدُ أنْ تتركَ الدنيا لعلمِكَ بحقارتِها بالإضافةِ إلىٰ نفاسةِ الآخرةِ ، فأمَّا كلُّ نوعٍ مِنَ

= « إتحافه » (٩/ ٣٢٢) : (فإن كلاً منهما تولىٰ قضاء الكوفة ، وأباها الإمام وضرب وامتحن لذلك ، ولقد أنصف ابن شبرمة في جوابه ، وأما ابن أبي ليلىٰ .. فكان يحسد الإمام دائماً ويعاديه لما يرىٰ له من القدر والمنزلة عند الخاص والعام ، سامح الله عن الجميع وجعلهم إخواناً علىٰ سرر متقابلين) .

(١) روى الترمذي (٣٣٠٩) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : قعدنا نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا ، فقلنا : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله .. لعملناه ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، وقول ابن مسعود رضي الله عنه : (وما عرفت أن فينا من يحب ...) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٤٦٣) ، والطبري في « تفسيره » (٣/ ٤/ ١٦٤) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٣٣٠) .

التركِ . . فإنَّهُ يُتصوَّرُ ممَّنْ لا يؤمنُ بالآخرةِ ، فذلكَ قدْ يكونُ مروءةً وفتوَّةً وسخاءً وحسنَ خلقٍ ، ولكنْ لا يكونُ زهداً ؛ إذْ حسنُ الذكرِ وميلُ القلوبِ مِنْ حظوظِ العاجلةِ ، وهيَ ألذُّ وأهنأُ مِنَ المالِ ، وكما أنَّ تركَ المالِ علىٰ سبيلِ السلمِ طمعاً في العوضِ ليسَ مِنَ الزهدِ . . فكذلكَ تركُهُ طمعاً في الذكرِ والثناءِ والاشتهارِ بالفتوةِ والسخاءِ ، أوِ استثقالاً لهُ لما في حفظِ المالِ مِنَ المشقَّةِ والعناءِ ، والحاجةِ إلى التذلُّلِ للسلاطينِ والأغنياءِ . . ليسَ مِنَ الزهدِ أصلاً ، بلْ هوَ استعجالُ حظٍّ آخرَ للنفسِ .

بلِ الزاهدُ مَنْ أتتْهُ الدنيا راغمةً عفواً صفواً وهوَ قادرٌ على التنعُّمِ بها مِنْ غيرِ نقصانِ جاهٍ وقبحِ اسمٍ ولا فواتِ حظٍّ للنفسِ ، فتركَها خوفاً مِنْ أنْ يأنسَ بها ، فيكونَ آنساً بغيرِ اللهِ ، ومحبّاً لما سوى اللهِ ، ويكونَ مشركاً في حبِّ اللهِ تعالىٰ غيرَهُ ، أوْ تركَها طمعاً في ثوابِ اللهِ في الآخرةِ ، فتركَ التمتُّعَ بأشربةِ الدنيا طمعاً في أشربةِ الجنَّةِ ، وتركَ التمتُّعَ بالسراري والنسوانِ طمعاً في الحورِ العينِ ، وتركَ التفرُّجَ في البساتينِ طمعاً في بساتينِ الجنةِ وأشجارِها ، وتركَ التزيُّنَ والتجمُّلَ بزينةِ الدنيا طمعاً في زينةِ الجنَّةِ ، وتركَ المطاعمَ اللذيذةَ طمعاً في فواكهِ الجنَّةِ ، وخوفاً مِنْ أنْ يُقالَ لهُ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ ، فآثرَ في جميعِ ذلكَ ما وُعِدَ بهِ في الجنَّةِ علىٰ ما تيسَّرَ لهُ في الدنيا عفواً صفواً ؛ لعلمِهِ بأنَّ ما في الآخرةِ خيرٌ وأبقىٰ ، وأنَّ ما سوىٰ هـٰذا فمعاملاتٌ دنيويَّةٌ لا جدوىٰ لها في الآخرةِ أصلاً .



بيان فضيلة الزهد

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ ﴾[1] ، فنسبَ الزهدَ إلى العلماءِ ، ووصفَ أهلَهُ بالعلمِ ، وهوَ غايةُ الثناءِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ ، وجاءَ في التفسيرِ : على الزهدِ في الدنيا[2] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، قيلَ : معناهُ : أيُّهُمْ أزهدُ فيها[3] ، فوصفَ الزهدَ بأنَّهُ مِنْ أحسنِ الأعمالِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ .

---

(١) والآية بتمامها : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾ .

(٢) قوت القلوب (١/٢٤٢) .

(٣) قوت القلوب (١/٢٤٢) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ ، فوصفَ الكفارَ بذلكَ ، فمفهومُهُ أنَّ المؤمنَ هوَ الذي يتصفُ بنقيضِهِ ، وهوَ أنْ يستحبَّ الآخرةَ على الحياةِ الدنيا .

* * *

وأمَّا الأخبارُ :

فما وردَ منها في ذمِّ الدنيا كثيرٌ ، وقدْ أوردنا بعضَها في كتابِ ذمِّ الدنيا مِنْ ربعِ المهلكاتِ ، إذْ حبُّ الدنيا مِنَ المهلكاتِ ، ونحنُ الآنَ نقتصرُ على فضيلةِ بغضِ الدنيا ؛ فإنَّهُ مِنَ المنجياتِ ، وهوَ المعنيُّ بالزهدِ .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أصبحَ وهمُّهُ الدنيا . . شتَّتَ اللهُ عليهِ أمرَهُ ، وفرَّقَ عليهِ ضيعتَهُ ، وجعلَ فقرَهُ بينَ عينيهِ ، ولمْ يأتِهِ مِنَ الدنيا إلا ما كُتِبَ لهُ ، ومَنْ أصبحَ وهمُّهُ الآخرةُ . . جمعَ اللهُ لهُ همَّهُ ، وحفظَ عليهِ ضيعتَهُ ، وجعلَ غناهُ في قلبِهِ ، وأتتْهُ الدنيا وهيَ راغمةٌ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا رأيتُمُ العبدَ قدْ أُعطيَ صمتاً وزهداً في الدنيا . . فاقتربوا منهُ ؛ فإنَّهُ يُلَقَّى الحكمةَ »(٢) .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ ، ولذلك

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥) من حديث أنس رضي الله عنه ، وابن ماجه (٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه .
(٢) رواه ابن ماجه (٤١٠١) .

قيلَ : (مَنْ زهدَ في الدنيا أربعينَ يوماً . . أجرى اللهُ تعالىٰ ينابيعَ الحكمةِ في قلبِهِ ، وأنطقَ بها لسانَهُ)[1] .

وعنْ بعضِ الصحابةِ أنَّهُ قالَ : قلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الناسِ خيرٌ ؟ قالَ : « كلُّ مؤمنٍ مخمومِ القلبِ صدوقِ اللسانِ » ، قلنا : يا رسولَ اللهِ ، وما مخمومُ القلبِ ؟ قالَ : « التقيُّ النقيُّ الذي لا غلَّ فيهِ ولا غشَّ ولا بغيَ ولا حسدَ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ فمَنْ علىٰ أثرِهِ ؟ قالَ : « الذي يشنأُ الدنيا ويحبُّ الآخرةَ »[2] ، ومفهومُ هٰذا : أنَّ شرَّ الناسِ الذي يحبُّ الدنيا .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنْ أردتَ أنْ يحبَّكَ اللهُ . . فازهدْ في الدنيا » ، فجعلَ الزهدَ سبباً للمحبةِ ، فمَنْ أحبَّهُ اللهُ تعالىٰ . . فهوَ في أعلى الدرجاتِ ، فينبغي أنْ يكونَ الزهدُ في الدنيا مِنْ أفضلِ المقاماتِ ، ومفهومُهُ أيضاً : أنَّ محبَّ الدنيا متعرِّضٌ لبغضِ اللهِ تعالىٰ .

وفي خبرٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ : (الزهدُ والورعُ يجولانِ في القلوبِ كلَّ ليلةٍ ، فإنْ صادفا قلباً فيهِ الإيمانُ والحياءُ . . أقاما فيهِ ، وإلا . . ارتحلا)[3] .

---

(١) تقدم بلفظ : « من أكل الحلال أربعين يوماً . . . » ، وهو ما أورده صاحب « القوت » (٢/ ٢٨٧) ، وبلفظه هنا عند ابن عدي في « الكامل » (٥/ ٣٠٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٥) بتمامه ، وصدره عند ابن ماجه (٤٢١٦) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٠) حيث قال : (وروينا في ذلك حديثاً من طريق أهل =

ولمَّا قالَ حارثةُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنا مؤمنٌ حقّاً .. قالَ : « وما حقيقةُ إيمانِكَ ؟ » قالَ : عزفَتْ نفسي عن الدنيا ، فاستوىٰ عندي حجرُها وذهبُها ، وكأنِّي بالجنَّةِ والنارِ ، وكأنِّي بعرشِ ربِّي بارزاً ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عرفتَ فالزمْ ، عبدٌ نوَّرَ اللهُ قلبَهُ بالإيمانِ »[(١)] ، فانظرْ كيفَ بدأَ في إظهارِ حقيقةِ الإيمانِ بعزوفِ النفسِ عنِ الدنيا ، وقرنَهُ باليقينِ ، وكيفَ زكَّاهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « عبدٌ نوَّرَ اللهُ قلبَهُ بالإيمانِ » .

ولمَّا سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ معنى الشرحِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ ، وقيلَ لهُ : ما هٰذا الشرحُ ؟ قالَ : « إنَّ النورَ إذا دخلَ القلبَ .. انشرحَ لهُ الصدرُ وانفسحَ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وهلْ لذلكَ مِنْ علامةٍ ؟ قالَ : « نعمِ ، التجافي عنْ دارِ الغرورِ ، والإنابةُ إلىٰ دارِ الخلودِ ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزولِهِ »[(٢)] ، فانظرْ كيفَ جعلَ الزهدَ شرطاً للإسلامِ ، وهوَ التجافي عنْ دارِ الغرورِ .

= البيت) وذكره ، وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٨١) عن محمد بن علي بن الحسين بن علي يقول : (الغنىٰ والعز يجولان في قلب المؤمن ، فإذا وصلا إلىٰ مكان فيه التوكل .. أوطناه) .

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣١٤) ، والبزار في « مسنده » (٦٩٤٨) ، والطبراني في « الكبير » (٣/ ٢٦٦) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢/ ٧٧٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٠٧ ، ١٠١٠٨) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٦٨) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « استحيوا مِنَ اللهِ حقَّ الحياءِ » ، قالوا : إنَّا لنستحيي منهُ تعالىٰ ، فقالَ : « ليسَ كذلكَ ، تبنونَ ما لا تسكنونَ ، وتجمعونَ ما لا تأكلونَ ! »[١] ، فبيَّنَ أنَّ ذلكَ يناقضُ الحياءَ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

ولمَّا قدمَ عليهِ بعضُ الوفودِ . . قالوا : إنَّا مؤمنونَ ، قالَ : « وما علامةُ إيمانِكُمْ ؟ » فذكروا الصبرَ عندَ البلاءِ ، والشكرَ عندَ الرخاءِ ، والرضا بمواقعِ القضاءِ ، وتركَ الشماتةِ بالمصيبةِ إذا نزلَتْ بالأعداءِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنْ كنتُمْ كذلكَ . . فلا تجمعوا ما لا تأكلونَ ، ولا تبنوا ما لا تسكنونَ ، ولا تنافسوا فيما عنهُ ترحلونَ »[٢] ، فجعلَ الزهدَ تكملةً لإيمانِهِمْ .

وقالَ جابرٌ رضيَ اللهُ عنهُ : خطبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « مَنْ جاءَ بلا إلهَ إلا اللهُ لا يخلطُ معَها غيرَها . . وجبَتْ لهُ الجنَّةُ » ، فقامَ إليهِ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ، ما لا يُخلطُ بها غيرُها صفْهُ لنا ، فسِّرْهُ لنا ، فقالَ : « حبُّ الدنيا طلباً لها واتباعاً لها ، وقومٌ يقولونَ قولَ الأنبياءِ ويعملونَ أعمالَ الجبابرةِ ، فمَنْ جاءَ بلا إلهَ إلا اللهُ ليسَ فيها شيءٌ مِنْ هـٰذا . . وجبَتْ لهُ الجنَّةُ »[٣] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٥/ ١٧٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٧/ ٩٧) عن أم الوليد بنت عمر .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١/ ١٩٧) من حديث سويد بن الحارث .

(٣) رواه ابن عدي في « الكامل » (٦/ ٢٩٠) من حديث جابر رضي الله عنه ، ورواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠١٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وفي الخبرِ : « السخاءُ مِنَ اليقينِ ، ولا يدخلُ النارَ موقنٌ ، والبخلُ مِنَ الشكِّ ، ولا يدخلُ الجنَّةَ مَنْ شكَّ »[1] .

وقالَ أيضاً : « السخيُّ قريبٌ مِنَ اللهِ ، قريبٌ مِنَ الناسِ ، قريبٌ مِنَ الجنَّةِ ، والبخيلُ بعيدٌ مِنَ اللهِ ، بعيدٌ مِنَ الناسِ ، قريبٌ مِنَ النارِ »[2] ، والبخلُ ثمرةُ الرغبةِ في الدنيا ، والسخاءُ ثمرةُ الزهدِ ، والثناءُ على الثمرةِ ثناءٌ على المثمرِ لا محالةَ .

وروى ابنُ المسيَّبِ عنْ أبي ذرٍّ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ زهدَ في الدنيا . . أدخلَ اللهُ الحكمةَ قلبَهُ ، فأنطقَ بها لسانَهُ ، وعرَّفَهُ داءَ الدنيا ودواءَها ، وأخرجَهُ منها سالماً إلىٰ دارِ السلامِ »[3] .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّ في أصحابِهِ بعشارٍ مِنَ النوقِ حُفَّلٍ ؛ وهيَ الحواملُ ، وكانَتْ مِنْ أحبِّ أموالِهِمْ إليهِمْ وأنفسِها عندَهُمْ ؛ لأنَّها تجمعُ الظهرَ واللحمَ واللبنَ والوبرَ ، ولعظمِها في قلوبِهِمْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ ، قالَ : فأعرضَ عنها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وغضَّ بصرَهُ ، فقيلَ لهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هذهِ أنفسُ أموالِنا ، لِمَ لا تنظرُ

---

(١) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص١٥١) ، وقد قال صاحب « القوت » (١/ ٢٥١) : (وروينا في خبر مقطوع) وذكره .

(٢) رواه الترمذي (١٩٦١) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٩) عن صفوان بن سليم مرسلاً .

إليها ؟ فقالَ : قدْ نهاني اللهُ تعالىٰ عنْ ذلكَ ، ثمَّ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ . . . ﴾ الآيةَ(١) .

وروىٰ مسروقٌ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ألا تستطعمُ اللهَ فيطعمَكَ ؟ قالَتْ : وبكيتُ لما رأيتُ بهِ مِنَ الجوعِ ، فقالَ : « يا عائشةُ ؛ والذي نفسي بيدِهِ ؛ لوْ سألتُ ربِّي أنْ يجريَ معيَ جبالَ الدنيا ذهباً . . لأجراها حيثُ شئتُ مِنَ الأرضِ ، ولكنِ اخترتُ جوعَ الدنيا علىٰ شبعِها ، وفقرَ الدنيا علىٰ غناها ، وحزنَ الدنيا علىٰ فرحِها ، يا عائشةُ ؛ إنَّ الدنيا لا تنبغي لمحمدٍ ولا لآلِ محمدٍ ، يا عائشةُ ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يرضَ لأولي العزمِ مِنَ الرسلِ إلا الصبرَ علىٰ مكروهِ الدنيا والصبرَ عنْ محبوبِها ، ثمَّ لمْ يرضَ لي إلا أنْ يكلِّفَني ما كلَّفَهُمْ فقالَ : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ، واللهِ ؛ ما لي بدٌّ مِنْ طاعتِهِ ، وإنِّي ـ واللهِ ـ لأصبرنَّ كما صبروا بجهدي ولا قوَّةَ إلا باللهِ »(٢) .

ورُوِيَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ حينَ فُتِحَ عليهِ الفتوحاتُ قالَتْ لهُ ابنتُهُ حفصةُ رضيَ اللهُ عنها : البسْ ليِّنَ الثيابِ إذا قدمَتْ عليكَ الوفودُ مِنَ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٥) ، وقال السيوطي في « الدر المنثور » (٥/ ٦١٣) : (وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عروة : أنه كان إذا دخل علىٰ أهل الدنيا فرأىٰ من دنياهم طرفاً ، فإذا رجع إلىٰ أهله فدخل الدار . . قرأ ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ ، ثم يقول : الصلاة الصلاة رحمكم الله) .

(٢) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٥٨٣) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٨٠٦) بنحوه ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٦٢٨) مختصراً .

الآفاقِ ، ومُرْ بصنعةِ طعامٍ تطعمُهُ وتطعمُ مَنْ حضرَ .

فقالَ عمرُ : يا حفصةُ ؛ ألستِ تعلمينَ أنَّ أعلمَ الناسِ بحالِ الرجلِ أهلُ بيتِهِ ؟ فقالَتْ : بلىٰ .

قالَ : ناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لبثَ في النبوَّةِ كذا وكذا سنةً لمْ يشبعْ هوَ ولا أهلُ بيتِهِ غدوةً إلا جاعوا عشيَّةً ، ولا شبعوا عشيَّةً إلا جاعوا غدوةً ؟[1] .

وناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لبثَ في النبوَّةِ كذا وكذا سنةً لمْ يشبعْ مِنَ التمرِ هوَ وأهلُهُ حتَّىٰ فتحَ اللهُ عليهِ خيبرَ ؟[2] .

وناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قرَّبتُمْ إليهِ يوماً طعاماً علىٰ مائدةٍ فيها ارتفاعٌ فشَقَّ ذلكَ عليهِ حتَّىٰ تغيَّرَ لونُهُ ، ثمَّ أمرَ بالمائدةِ فرُفعَتْ ووُضعَ الطعامُ علىٰ دونِ ذلكَ أوْ وُضعَ على الأرضِ ؟[3] .

وناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ ينامُ علىٰ عباءةٍ مثنيَّةٍ ، فثُنيَتْ لهُ ليلةً أربعَ طاقاتٍ ، فنامَ عليها ، فلمَّا استيقظَ . .

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٣٦٠٦) عن عمران بن حصين رضي الله عنه ، وروى الترمذي (٢٣٥٦) عن عائشة رضي الله عنها نحوه .

(٢) وقد روى ابن سعد في « طبقاته » (١/٣٤٩) عن عمر رضي الله عنه : (لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتوي يومه من الجوع ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه) ، وعنده عن النعمان بن بشير : (ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يشبع من الدقل ، وما ترضون دون ألوان التمر والزبد) .

(٣) حديث عدم أكله علىٰ خوان رواه البخاري (٦٤٥٠) .

قالَ : « منعتُموني قيامَ الليلةِ بهذهِ العباءةِ ، ائتوها باثنتينِ كما كنتُمْ تثنونَها » ؟[1] .

وناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يضعُ ثيابَهُ لتُغسلَ ، فيأتيهِ بلالٌ فيؤذنُهُ بالصلاةِ ، فما يجد ثوباً يخرجُ بهِ إلى الصلاةِ حتَّىٰ تجفَّ ثيابُهُ ، فيخرجُ فيها إلى الصلاةِ ؟[2] .

وناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ امرأةً مِنْ بني ظفرٍ صنعَتْ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كساءَينِ إزاراً ورداءً ، وبعثَتْ إليهِ بأحدِهما قبلَ أنْ يبلغَ الآخرُ ، فخرجَ إلى الصلاةِ وهوَ مشتملٌ بهِ ليسَ عليهِ غيرُهُ ، قدْ عقدَ طرفيهِ إلىٰ عنقِهِ ، فصلَّىٰ كذلكَ ؟[3] .

فما زالَ حتَّىٰ أبكاها ، وبكىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ وانتحبَ حتَّىٰ ظننَّا أنَّ نفسَهُ ستخرجُ[4] .

وفي بعضِ الرواياتِ زيادةٌ مِنْ قولِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، وهوَ أنَّهُ قالَ : كانَ لي صاحبانِ سلكا طريقاً ، فإنْ سلكتُ غيرَ طريقِهما . . سُلِكَ بي طريقٌ

---

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٤٠٠) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي وآدابه » (٤٦٣) .

(٢) رواه أبو بكر الدينوري في « القناعة » (٤٦) بلفظ المصنف هنا ، وروايته هـٰذه تشعر بأن للحديث أصلاً بهـٰذا السياق .

(٣) روى ابن ماجه (١٠٣٢) عن ثابت بن الصامت رضي الله عنه نحوه مرفوعاً ، والبزار في « مسنده » (٤١٠٥) عن أبي الدرداء رضي الله عنه نحوه مرفوعاً .

(٤) روي هـٰذا الخبر مختصراً كما سيأتي بيانه في الحديث الآتي .

غيرُ طريقِهما ، وإنِّي ـ واللهِ ـ سأصبرُ علىٰ عيشِهما الشديدِ لعلِّي أدركُ معَهُما عيشَهُما الرغيدَ[1] .

وعنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « لقدْ كانَ الأنبياءُ قبلي يُبتلىٰ أحدُهُمْ بالفقرِ ، فلا يجدُ إلا العباءةَ ، وإنْ كانَ أحدُهُمْ ليُبتلىٰ بالقملِ حتَّىٰ يقتلَهُ القملُ ، وكانَ ذلكَ أحبَّ إليهِمْ مِنَ العطاءِ إليكُمْ »[2] .

وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ : (لمَّا وردَ موسىٰ عليهِ السلامُ ماءَ مدينَ . . كانَتْ خضرةُ البقلِ تُرىٰ في بطنِهِ مِنَ الهزالِ)[3] .

فهذا ما كانَ قدِ اختارَهُ أنبياءُ اللهِ ورسلُهُ ، وهمْ أعرفُ خلقِ اللهِ باللهِ وبطريقِ الفوزِ في الآخرةِ .

وفي حديثِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قال : لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ﴾ . . قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تبّاً للدنيا ، تبّاً

---

(١) روى ابن المبارك في « الزهد » (٥٧٤) ، والحاكم في « المستدرك » (١/١٢٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٤٨) عن مصعب بن سعد : أن حفصة قالت لعمر : ألا تلبس ثوباً ألين من ثوبك ، وتأكل طعاماً أطيب من طعامك هٰذا ؟ فقد فتح الله عليك الأرض وأوسع عليك الرزق ، قال : سأخصمك إلىٰ نفسك ، فذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان يلقىٰ من شدة العيش ، ولم يزل يذكر حتىٰ بكت ، ثم قال عمر : لأشركنهما في مثل عيشهما الشديد ؛ لعلي أدرك معهما مثل عيشهما الرخي .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠٢٤) .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (١١/٢٠/٧٥) .

للدينارِ والدرهمِ » ، فقلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ نهانا اللهُ عنْ كنزِ الذهبِ والفضةِ ، فأيَّ شيءٍ ندخرُ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليتخذْ أحدُكُمْ لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً ، وزوجةً صالحةً تعينُهُ علىٰ أمرِ آخرتِهِ »[(١)] .

وفي حديثِ حذيفةَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ آثرَ الدنيا على الآخرةِ . . ابتلاهُ اللهُ بثلاثٍ : همٌّ لا يفارقُ قلبَهُ أبداً ، وفقرٌ لا يستغني أبداً ، وحرصٌ لا يشبعُ أبداً »[(٢)] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يستكملُ العبدُ الإيمانَ حتَّىٰ يكونَ ألا يعرفَ أحبَّ إليهِ مِنْ أنْ يعرفَ ، وحتَّىٰ يكونَ قلَّةُ الشيءِ أحبَّ إليهِ مِنْ كثرتِهِ »[(٣)] .

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٤) ، وابن ماجه (١٨٥٦) عن ثوبان رضي الله عنه قال : لما نزل في الفضة والذهب ما نزل . . قالوا : فأي المال نتخذ ؟ قال عمر : فأنا أعلم لكم ذلك ، فأوضع علىٰ بعيره فأدرك النبي صلى الله عليه وسلم وأنا علىٰ أثره ، فقال : يا رسول الله ؛ أي المال نتخذ ؟ فقال : « ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم علىٰ أمر الآخرة » .

(٢) كذا في « القوت » (١/٢٥٦) ، وقد روى الطبراني في « الكبير » (١٠/١٦٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٥٤١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « من أشرب حب الدنيا . . التاط منها بثلاث : شقاء لا ينفد عناه ، وحرص لا يبلغ غناه ، وأمل لا يبلغ منتهاه » .

(٣) كذا في « القوت » (١/٢٥٦) حيث قال : (وروينا حديثاً مرسلاً عن علي بن معبد ، عن علي بن أبي طلحة) يرسله ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له إسناداً ، وذكره صاحب « الفردوس » من رواية علي بن أبي طلحة مرسلاً : « لا يستكمل عبد الإيمان حتىٰ يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته ، وحتىٰ يكون أن يعرف في ذات الله أحب إليه=

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (الدنيا قنطرةٌ ، فاعبروها ولا تعمروها)[1] .

وقيلَ لهُ : يا نبيَّ اللهِ ؛ لوْ أمرتَنا أنْ نبنيَ بيتاً نعبدُ اللهَ فيهِ ، فقالَ : اذهبوا فابنوا بيتاً على الماءِ ، فقالوا : كيفَ يستقيمُ بنيانٌ على الماءِ ؟! قالَ : وكيفَ تستقيمُ عبادةٌ علىٰ حبِّ الدنيا ؟![2] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ ربِّي عزَّ وجلَّ عرضَ عليَّ أنْ يجعلَ لي بطحاءَ مكةَ ذهباً ، فقلتُ : لا يا ربِّ ، ولكنْ أجوعُ يوماً وأشبعُ يوماً ، فأمَّا اليومُ الذي أجوعُ فيهِ . . فأتضرَّعُ إليكَ وأدعوكَ ، وأمَّا اليومُ الذي أشبعُ فيهِ . . فأحمدُكَ وأثني عليكَ »[3] .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ يومٍ يمشي وجبريلُ معَهُ ، فصعدَ على الصفا ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « والذي بعثَكَ بالحقِّ ؛ ما أمسىٰ لآلِ محمدٍ كفُّ سويقٍ ولا سفَّةُ دقيقٍ » ، فلمْ يكنْ كلامُهُ بأسرعَ مِنْ أنْ سمعَ هدَّةً مِنَ السماءِ أفظعَتْهُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أمرَ اللهُ القيامةَ أنْ تقومَ ؟ » قالَ : لا ، ولكنْ هٰذا إسرافيلُ عليهِ السلامُ قدْ نزلَ إليكَ حينَ سمعَ

= من أن يعرف في غير ذات الله » ، ولم يخرجه ولده في « مسنده » ، وعلي بن أبي طلحة أخرج له مسلم ، وروىٰ عن ابن عباس ، لكن روايته عنه مرسلة ، والحديث إذاً معضل) . « إتحاف » (٩/ ٣٣٢) .

(١) قوت القلوب (١/ ٢٥٦) ، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٢) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٥٦) .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٧) .

كلامَكَ ، فأتاهُ إسرافيلُ فقالَ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سمعَ ما ذكرتَ ، فبعثَني بمفاتيحِ الأرضِ وأمرَني أنْ أعرضَ عليكَ ؛ إنْ أحببتَ أنْ أسيِّرَ معكَ جبالَ تهامةَ زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضةً . . فعلتُ ، وإنْ شئتَ نبيّاً ملكاً ، وإنْ شئتَ نبياً عبداً ، فأومأَ إليهِ جبريلُ أنْ تواضعْ للهِ ، فقالَ : « نبيّاً عبداً » ثلاثاً[(١)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . زهَّدَهُ في الدنيا ، ورغَّبَهُ في الآخرةِ ، وبصَّرَهُ بعيوبِ نفسِهِ »[(٢)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ : « ازهدْ في الدنيا . . يحبَّكَ اللهُ ، وازهدْ فيما في أيدي الناسِ . . يحبَّكَ الناسُ »[(٣)] .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أرادَ أنْ يؤتيَهُ اللهُ علماً بغيرِ تعلُّمٍ ، وهدىً بغيرِ هدايةٍ . . فليزهدْ في الدنيا »[(٤)] .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٩٣٣) ، والبيهقي في « الزهد » (٤٤٧) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٣) عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٩٣٥) من حديث أنس رضي الله عنه ، وليس عندهما (ورغبه في الآخرة) ، بل (فقهه في الدين) .

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٠٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٣١٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٨) من حديث الحسن مرسلاً ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ أصحابه ذات يوم فقال : « هل منكم من يريد أن يؤتيه الله عز وجل علماً بغير تعلم وهدىً بغير هداية ؟ هل منكم من يريد أن يذهب الله عز وجل عنه العمىٰ ويجعله بصيراً ؟ ألا إنه من رغب في الدنيا وأطال أمله فيها . . أعمى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد في الدنيا وقصر أمله فيها . . أعطاه الله علماً بغير تعلم وهدىً بغير هداية . . . » الحديث .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ اشتاقَ إلى الجنَّةِ . . سارعَ إلى الخيراتِ ، ومَنْ خافَ مِنَ النارِ . . لها عنِ الشهواتِ ، ومَنْ ترقَّبَ الموتَ . . تركَ اللذَّاتِ ، ومَنْ زهدَ في الدنيا . . هانَتْ عليهِ المصيباتُ »[١] .

ويروىٰ عنْ نبيِّنا وعنْ عيسىٰ صلواتُ اللهِ عليهما وسلامُهُ : « أربعٌ لا يُدركنَ إلا بعجبٍ : الصمتُ وهوَ أوَّلُ العبادةِ ، والتواضعُ ، وكثرةُ الذكرِ ، وقلَّةُ الشيءِ »[٢] .

وجميعُ الأخبارِ الواردةِ في مدحِ بغضِ الدنيا وذمِّ حبِّها لا يمكنُ حصرُها ، فإنَّ الأنبياءَ ما بُعثوا إلا لصرفِ الناسِ عنِ الدنيا إلى الآخرةِ ، فإليهِ يرجعُ أكثرُ كلامِهِمْ معَ الخلقِ ، وفيما أوردناهُ كفايةٌ ، واللهُ المستعانُ .

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ جاءَ في الأثرِ : (لا تزالُ لا إلهَ إلا اللهُ تدفعُ عنِ العبادِ سخطَ اللهِ عزَّ وجلَّ ما لم يبالوا ما نقصَ مِنْ دنياهُمْ) ، وفي لفظٍ آخرَ : (ما لمْ يؤثروا صفقةَ دنياهُمْ علىٰ دينِهِمْ ، فإذا فعلوا ذلكَ وقالوا : لا إلهَ إلا اللهُ . .

---

(١) رواه ابن حبان في « المجروحين » (٢/ ٣٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٣٤) من حديث علي كرم الله وجهه مرفوعاً .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٦٦) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١١) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ٢٥٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٦٢٨) .

قالَ اللهُ تعالىٰ : كذبتُمْ ، لستُمْ بها صادقينَ)[1] .

وعنْ بعضِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ قالَ : (تابعنا الأعمالَ كلَّها ، فلمْ نرَ في أمرِ الآخرةِ أبلغَ مِنْ زهدٍ في الدنيا)[2] .

وقالَ بعضُ الصحابةِ لصدرٍ منَ التابعينَ : أنتُمْ أكثرُ أعمالاً واجتهاداً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهُمْ كانوا خيراً منكُمْ ، قيلَ : ولِمَ ذلكَ ؟ قالَ : كانوا أزهدَ في الدنيا منكُمْ[3] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (الزهادةُ في الدنيا راحةُ القلبِ والجسدِ)[4] .

وقالَ بلالُ بنُ سعدٍ : (كفىٰ بهِ ذنباً أنَّ اللهَ تعالىٰ يزهِّدُنا في الدنيا ونحنُ نرغبُ فيها)[5] .

وقالَ رجلٌ لسفيانَ : أشتهي أنْ أرىٰ عالماً زاهداً ، فقالَ : ويحَكَ ! تلكَ ضالَّةٌ لا تُوجدُ[6] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٤٣) ، وقد رواه مرفوعاً من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ابنُ عدي في « الكامل » (٢/ ٢١٤) .

(٢) والقول لأبي واقد الليثي رضي الله عنه ، رواه له أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٥٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٠٠) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٤٣) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٠١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يخاطب صدر التابعين الأول .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٩٣) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٨٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٢٤) .

(٦) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص٧٥) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥٢) .

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : إنَّ للجنَّةِ ثمانيةَ أبوابٍ ، فإذا صارَ أهلُ الجنَّةِ إليها . . جعلَ البوَّابونَ يقولونَ : وعزَّةِ ربِّنا ؛ لا يدخلُها أحدٌ قبلَ الزاهدينَ في الدنيا والعاشقينَ للجنَّةِ .

وقالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ رحمهُ اللهُ : إنِّي لأشتهي مِنَ اللهِ ثلاثَ خصالٍ : أنْ أموتَ حينَ أموتُ وليسَ في ملكي درهمٌ ، ولا يكونُ عليَّ دينٌ ، ولا علىٰ عظمي لحمٌ ، فأُعطيَ ذلكَ كلَّه .

ورُوِيَ أنَّ بعضَ الخلفاءِ أرسلَ إلى الفقهاءِ بجوائزَ فقبلوها ، وأرسلَ إلى الفضيلِ بعشرةِ آلافٍ فلمْ يقبلْها ، فقالَ لهُ بنوهُ : قدْ قبلَ الفقهاءُ وأنتَ تردُّ علىٰ حالتِكَ هذهِ ! فبكى الفضيلُ وقالَ : أتدرونَ ؟ ما مثلي ومثلُكُمْ إلا كمثلِ قومٍ كانَتْ لهُمْ بقرةٌ يحرثونَ عليها ، فلما هرمَتْ . . قالوا : اذبحوها وانتفعوا بجلدِها ، وكذلكَ أنتُمْ أردتُمْ ذبحي علىٰ كبرِ سنِّي ، موتوا يا أهلي جوعاً خيرٌ لكمْ مِنْ أنْ تذبحوا فضيلاً[1] .

وقالَ عبيدُ بنُ عميرٍ : (كانَ عيسىٰ ابنُ مريمَ عليهِ السلامُ يلبسُ الشعرَ ، ويأكلُ الشجرَ ، وليسَ لهُ ولدٌ يموتُ ، ولا بيتٌ يخربُ ، ولا يدخرُ لغدٍ ، أينَما أدركَهُ المساءُ . . نامَ)[2] .

---

(١) رواه ضمن خبر طويل فيه قصة زيارة هارون الرشيد له أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٠٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٠٢٨) بنحوه .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٦٧) .

وقالَتِ امرأةُ أبي حازمٍ لأبي حازمٍ : هـٰذا الشتاءُ قدْ هجمَ علينا ، ولا بدَّ لنا مِنَ الطعامِ والثيابِ والحطبِ ، فقالَ لها أبو حازمٍ : مِنْ هـٰذا كلِّهِ بدٌّ ، ولكنْ لا بدَّ لنا مِنَ الموتِ ، ثمَّ البعثِ ، ثمَّ الوقوفِ بينَ يديِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ثمَّ الجنَّةِ أوِ النارِ(١) .

وقيلَ للحسنِ : لِمَ لا تغسلُ قميصَكَ ؟ قالَ : الأمرُ أعجلُ مِنْ ذلكَ(٢) .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : (قدْ حُجبَتْ قلوبُنا بثلاثةِ أغطيةٍ ، فلنْ يُكشفَ للعبدِ اليقينُ حتَّىٰ تُرفعَ هـٰذهِ الحُجُبُ : الفرحُ بالموجودِ ، والحزنُ على المفقودِ ، والسرورُ بالمدحِ ، فإذا فرحتَ بالموجودِ . . فأنتَ حريصٌ ، وإذا حزنتَ على المفقودِ . . فأنتَ ساخطٌ والساخطُ معذَّبٌ ، وإذا سُررتَ بالمدحِ . . فأنتَ معجبٌ والعجْبُ يحبطُ العملَ)(٣) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ركعتانِ مِنْ زاهدٍ قلبُهُ خيرٌ لهُ وأحبُّ إلى اللهِ مِنْ عبادةِ المتعبدينَ المجتهدينَ إلىٰ آخرِ الدهرِ أبداً سرمداً)(٤) .

---

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٧/ ٥١٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٠) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٧٠) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٠) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٤) بنحوه .

(٤) قوت القلوب (١/ ٢٦٥) حيث قال : (وروىٰ مسروق عن ابن مسعود) وذكره .

وقالَ بعضُ السلفِ : (نعمةُ اللهِ علينا فيما صرفَ عنَّا أكثرُ مِنْ نعمتِهِ فيما صرفَ إلينا)[١] ، وكأنَّهُ التفتَ إلىٰ معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يحمي عبدَهُ المؤمنَ الدنيا وهوَ يحبُّهُ كما تحمونَ مريضَكُمُ الطعامَ والشرابَ تخافونَ عليهِ »[٢] ، فإذا فُهِمَ هـٰذا . . عُلِمَ أنَّ النعمةَ في المنعِ المؤدِّي إلى الصحةِ أكبرُ منها في الإعطاءِ المؤدِّي إلى السقمِ .

وكانَ الثوريُّ يقولُ : (الدنيا دارُ التواءٍ لا دارُ استواءٍ ، ودارُ ترحٍ لا دارُ فرحٍ ، مَنْ عرفَها . . لمْ يفرحْ برخاءٍ ، ولمْ يحزنْ علىٰ شقاءٍ)[٣] .

وقالَ سهلٌ : (لا يخلصُ العملُ لمتعبدٍ حتَّىٰ لا يفزعَ مِنْ أربعةِ أشياءَ : الجوعُ ، والعريُ ، والفقرُ ، والذلُّ)[٤] .

وقالَ الحسنُ البصريُّ : (أدركتُ أقواماً وصحبتُ طوائفَ ما كانوا يفرحونَ بشيءٍ مِنَ الدنيا أقبلَ ، ولا يأسفونَ علىٰ شيءٍ منها أدبرَ ، ولهيَ كانَتْ في أعينِهِمْ أهونَ مِنَ الترابِ ، كانَ أحدُهُمْ يعيشُ خمسينَ سنةً وستينَ سنةً لمْ يُطوَ لهُ ثوبٌ ، ولمْ يُنصبْ له قِدْرٌ ، ولمْ يجعلْ بينَهُ وبينَ الأرضِ شيئاً ، ولا أمرَ مَنْ في بيتِهِ بصنعةِ طعامٍ قطُّ ، فإذا كانَ الليلُ . . فقيامٌ علىٰ

---

(١) قوت القلوب (١/٢٦٦) .
(٢) رواه الترمذي (٢٠٣٦) .
(٣) قوت القلوب (١/٢٦٦) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٨١٨٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .
(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص٣٤٥) .

أطرافِهِمْ ، يفترشونَ وجوهَهُمْ ، تجري دموعُهُمْ علىٰ خدودِهِمْ ، يناجونَ ربَّهُمْ في فكاكِ رقابِهِمْ ، كانوا إذا عملوا الحسنةَ . . دأبوا في شكرِها ، وسألوا اللهَ أنْ يتقبَّلَها ، وإذا عملوا السيئةَ . . أحزنَتْهُمْ ، وسألوا اللهَ أنْ يغفرَها لهُمْ ، فلم يزالوا علىٰ ذلكَ ، وواللهِ ما سلموا مِنَ الذنوبِ ولا نجوا إلا بالمغفرةِ)[1] .



---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٦٤٣) .

بيان درجات الزّهد وأقسامه
بالإضافة إلى نفسه، وإلى المرغوب عنه، وإلى المرغوب فيه

اعلمْ : أنَّ الزهدَ في نفسِهِ يتفاوتُ بحسبِ تفاوتِ قوَّتِهِ علىٰ درجاتٍ ثلاثٍ :

الدرجةُ الأولىٰ ـ وهيَ السفلىٰ منها ـ :

أنْ يزهدَ في الدنيا وهوَ لها مشتهٍ ، وقلبُهُ إليها مائلٌ ، ونفسُهُ إليها ملتفتةٌ ، ولكنَّهُ يجاهدُها ويكفُّها ، وهاذا يُسمَّى المتزهِّدَ ، وهوَ مبدأُ الزهدِ في حقِّ مَنْ يصلُ إلىٰ درجةِ الزهدِ بالكسبِ والاجتهادِ .

والمتزهِّدُ يذيبُ أوَّلاً نفسَهُ ثمَّ كيسَهُ[1] ، والزاهدُ أوَّلاً يذيبُ كيسَهُ ثمَّ يذيبُ نفسَهُ في الطاعةِ ، لا في الصبرِ علىٰ ما فارقَهُ ، والمتزهِّدُ علىٰ خطرٍ ؛ فإنَّهُ ربما تغلبُهُ نفسُهُ ، وتجذبُهُ شهوتُهُ ، فيعودُ إلى الدنيا وإلى الاستراحةِ بها في قليلٍ أوْ كثيرٍ .

***

الدرجةُ الثانيةُ :

الذي يتركُ الدنيا طوعاً لاستحقارِهِ إيّاها بالإضافةِ إلىٰ ما طمعَ فيهِ ؛ كالذي يتركُ درهماً لأجلِ درهمينِ ، فإنَّهُ لا يشقُّ عليهِ ذلكَ وإنْ كانَ يحتاجُ

---

(١) بإخراج المرغوب منه . « إتحاف » (٩/ ٣٣٧) .

إلى انتظارٍ قليلٍ ، ولكنْ هـٰذا الزاهدُ يرىٰ ـ لا محالةَ ـ زهدَهُ ويلتفتُ إليهِ ؛ كما يرى البائعُ المبيعَ ويلتفتُ إليهِ ، فيكادُ يكونُ معجباً بنفسِهِ وبزهدِهِ ، ويظنُّ بنفسِهِ أنَّهُ تركَ شيئاً لهُ قدرٌ لما هوَ أعظمُ قدراً منهُ ، وهـٰذا أيضاً نقصانٌ .

الدرجةُ الثالثةُ ـ وهيَ العليا ـ :

أنْ يزهدَ طوعاً ، ويزهدَ في زهدِهِ ، فلا يرىٰ زهدَهُ ؛ إذْ لا يرىٰ أنَّهُ تركَ شيئاً ، إذْ عرفَ أنَّ الدنيا لا شيءَ ، فيكونُ كمَنْ تركَ خزفةً وأخذَ جوهرةً ، فلا يرىٰ ذلكَ معاوضةً ، ولا يرىٰ نفسَهُ تاركاً شيئاً ، والدنيا بالإضافةِ إلى اللهِ تعالىٰ ونعيمِ الآخرةِ أخسُّ مِنْ خزفةٍ بالإضافةِ إلىٰ جوهرةٍ .

فهـٰذا هوَ الكمالُ في الزهدِ ، وسببُهُ كمالُ المعرفةِ ، ومثلُ هـٰذا الزاهدِ آمنٌ مِنْ خطرِ الالتفاتِ إلى الدنيا ، كما أنَّ تاركَ الخزفةِ بالجوهرةِ آمنٌ مِنْ طلبِ الإقالةِ في البيعِ .

قالَ أبو يزيدَ لأبي موسىٰ : عبدُ الرحيمِ في أيِّ شيءٍ يتكلَّمُ ؟ قالَ : في الزهدِ ، قالَ : في أيِّ شيءٍ ؟ قالَ : في الدنيا ، فنفضَ يدَهُ وقالَ : ظننتُ أنَّهُ يتكلَّمُ في شيءٍ ، الدنيا لا شيءَ ، أيشٍ يزهدُ فيها ؟![1] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٦٩) ، وأبو موسىٰ هو هارون بن سليمان الكوفي ، وعبد الرحيم هو ابن يحيى الأسود الأرموي الدمشقي . انظر « الإتحاف » (٩/ ٣٣٨) .

ومثلُ مَنْ تركَ الدنيا للآخرةِ عندَ أهلِ المعرفةِ وأربابِ القلوبِ المعمورةِ بالمشاهداتِ والمكاشفاتِ مثلُ مَنْ منعَهُ عنْ بابِ الملكِ كلبٌ علىٰ بابِهِ ، فألقىٰ إليهِ لقمةً مِنْ خبزٍ ، فشغلَهُ بنفسِهِ ، ودخلَ البابَ ونالَ القربَ عندَ الملكِ ، حتَّىٰ نفذَ أمرُهُ في جميعِ مملكتِهِ ، أفترىٰ أنَّهُ يرىٰ لنفسِهِ يداً عندَ الملكِ بلقمةِ خبزٍ ألقاها إلىٰ كلبِهِ في مقابلةِ ما قدْ نالَهُ ؟

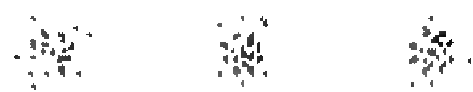
فالشيطانُ كلبٌ علىٰ بابِ اللهِ تعالىٰ يمنعُ الناسَ مِنَ الدخولِ ، معَ أنَّ البابَ مفتوحٌ والحجابَ مرفوعٌ ، والدنيا كلقمةِ خبزٍ ، إنْ أُكلَتْ. . فلذَّتُها في حالِ المضغِ ، وتنقضي على القربِ بالابتلاعِ ، ثمَّ يبقىٰ ثقلُها في المعدةِ ، ثمَّ تنتهي إلى النتنِ والقذرِ ، ثمَّ يحتاجُ بعدَ ذلكَ إلىٰ إخراجِ ذلكَ الثقلِ ، فمَنْ تركَها لينالَ عزَّ الملكِ كيفَ يلتفتُ إليها ؟!

ونسبةُ الدنيا كلِّها ـ أعني ما يسلمُ لكلِّ شخصٍ منها وإنْ عُمِّرَ مئةَ سنةٍ ـ بالإضافةِ إلىٰ نعيمِ الآخرةِ أقلُّ مِنْ لقمةٍ بالإضافةِ إلىٰ ملكِ الدنيا ؛ إذْ لا نسبةَ للمتناهي إلىٰ ما لا نهايةَ لهُ ، والدنيا متناهيةٌ على القربِ ولوْ كانَتْ تتمادىٰ ألفَ ألفِ سنةٍ صافيةً عنْ كلِّ كدرٍ . . لكانَ لا نسبةَ لها إلىٰ نعيمِ الأبدِ ، فكيفَ ومدَّةُ العمرِ قصيرةٌ ولذَّاتُ الدنيا مكدرةٌ غيرُ صافيةٍ ؟! فأيُّ نسبةٍ لها إلىٰ نعيمِ الأبدِ ؟!

فإذاً ؛ لا يلتفتُ الزاهدُ إلىٰ زهدِهِ إلا إذا التفتَ إلىٰ ما زهدَ فيهِ ، ولا يلتفتُ إلىٰ ما زهدَ فيهِ إلا لأنَّهُ يراهُ شيئاً معتدّاً بهِ ، ولا يراهُ شيئاً معتداً بهِ

إلا لقصورِ معرفتِهِ ، فسببُ نقصانِ الزهدِ نقصانُ المعرفةِ .

فهٰذا تفاوتُ درجاتِ الزهدِ ، وكلُّ درجةٍ مِنْ هٰذهِ أيضاً لها درجاتٌ ، إذْ تصبُّرُ المتزهِّدِ يختلفُ ويتفاوتُ أيضاً باختلافِ قدْرِ المشقَّةِ في الصبرِ ، وكذلكَ درجةُ المعجبِ بزهدِهِ في قدْرِ التفاتِهِ إلىٰ زهدِهِ .



وأمَّا انقسامُ الزهدِ بالإضافةِ إلى المرغوبِ فيهِ . . فهوَ أيضاً علىٰ ثلاثِ درجاتٍ :

الدرجةُ السفلىٰ :

أنْ يكونَ المرغوبُ فيهِ النجاةَ مِنَ النارِ ومِنْ سائرِ الآلامِ ؛ كعذابِ القبرِ ، ومناقشةِ الحسابِ ، وخطرِ الصراطِ ، وسائرِ ما بينَ يدي العبدِ مِنَ الأهوالِ كما وردَتْ بِهِ الأخبارُ ؛ ففي الخبرِ : « إنَّ الرجلَ ليُوقفُ في الحسابِ حتىٰ لوْ وردَتْ مئةُ بعيرٍ عطاشاً علىٰ عرقِهِ . . لصدرَتْ رِواءً »[1] ، فهٰذا هوَ زهدُ

(١) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٣٠٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « التقىٰ مؤمنان علىٰ باب الجنة ؛ مؤمن غني ومؤمن فقير كانا في الدنيا ، فأدخل الفقير الجنة وحبس الغني ما شاء الله أن يحبس ثم أدخل الجنة ، فلقيه الفقير ، فيقول : أي أخي ؛ ماذا حبسك ؟ والله لقد احتبست حتىٰ خفت عليك ، فيقول : أي أخي ؛ حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً ، وما وصلت إليك حتىٰ سال مني من العرق ما لو ورده ألف بعير كلها آكلة حمض . . لصدرت عنه رواء » ، والحمض : نبت فيه ملوحة يحمل علىٰ كثرة الشرب .

الخائفينَ ، وكأنَّهُمْ رضوا بالعدمِ لوْ أعدموا ، فإنَّ الخلاصَ مِنَ الألمِ يحصلُ بمجرَّدِ العدمِ[1] .

* * *

الدرجةُ الثانيةُ :

أنْ يزهدَ رغبةً في ثوابِ اللهِ ونعيمِهِ ، واللذَّاتِ الموعودةِ في جنَّتِهِ مِنَ الحورِ والقصورِ وغيرِها ، وهاذا **زهدُ الراجينَ** ، فإنَّ هؤلاءِ ما تركوا الدنيا قناعةً بالعدمِ والخلاصِ مِنَ الألمِ ، بلْ طمعوا في وجودٍ دائمٍ ونعيمٍ سرمدٍ لا آخرَ لهُ .

* * *

الدرجةُ الثالثةُ ـ وهيَ العليا ـ :

ألا يكونَ لهُ رغبةٌ إلا في اللهِ وفي لقائِهِ ، فلا يلتفتُ قلبُهُ إلى الآلامِ ليقصدَ الخلاصَ منها ، ولا إلى اللذاتِ ليقصدَ نيلَها والظفرَ بها ، بلْ هوَ مستغرقُ الهمِّ باللهِ تعالىٰ ، وهوَ الذي أصبحَ وهمومُهُ همٌّ واحدٌ ، وهوَ الموحِّدُ الحقيقيُّ الذي لا يطلبُ غيرَ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ مَنْ طلبَ غيرَ اللهِ . . فقدْ عبدَهُ ، وكلُّ مطلوبٍ معبودٌ ، وكلُّ طالبٍ عبدٌ بالإضافةِ إلىٰ مطلبِهِ ، وطلبُ غيرِ اللهِ

---

(1) أشار الحافظ الزبيدي إلىٰ أن العدم هنا بمعنى الفقر إذ قال في « إتحافه » (٩/ ٣٣٩) : (لأن احتباس الغني إنما كان لسبب غناه) ، وما يفيده لحاق المصنف الآتي أن العدم هنا علىٰ إطلاقه .

مِنَ الشركِ الخفيِّ ، وهـٰذا زهدُ المحبِّينَ[1] ، وهمُ العارفونَ ؛ لأنَّهُ لا يحبُّ اللهَ تعالىٰ خاصَّةً إلا مَنْ عرفَهُ ، وكما أنَّ مَنْ عرفَ الدينارَ وعرفَ الدرهمَ وعلمَ أنَّهُ لا يقدرُ على الجمعِ بينَهُما . . لمْ يحبَّ إلا الدينارَ ؛ فكذلكَ مَنْ عرفَ اللهَ ، وعرفَ لذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ ، وعرفَ أنَّ الجمعَ بينَ تلكَ اللذةِ وبينَ لذَّةِ التنعُّمِ بالحورِ العينِ والنظرِ إلىٰ نقشِ القصورِ وخضرةِ الأشجارِ غيرُ ممكنٍ . . فلا يحبُّ إلا لذَّةَ النظرِ ولا يؤثرُ غيرَهُ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ أهلَ الجنَّةِ عندَ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ يبقىٰ للذَّةِ الحورِ والقصورِ متسعٌ في قلوبِهِمْ ، بلْ تلكَ اللذَّةُ بالإضافةِ إلىٰ لذَّةِ نعيمِ الجنَّةِ كلذَّةِ ملْكِ الدنيا والاستيلاءِ علىٰ أطرافِ الأرضِ ورقابِ الخلقِ بالإضافةِ إلىٰ لذَّةِ الاستيلاءِ علىٰ عصفورٍ واللعبِ بهِ ، والطالبونَ لنعيمِ الجنَّةِ عندَ أهلِ المعرفةِ وأربابِ القلوبِ كالصبيِّ الطالبِ للعبِ بالعصفورِ التاركِ للذَّةِ الملْكِ ، وذلكَ لقصورِهِ عنْ إدراكِ لذَّةِ الملكِ ، لا لأنَّ اللعبَ بالعصفورِ في نفسِهِ أعلىٰ وألذُّ مِنَ الاستيلاءِ بطريقِ الملكِ علىٰ كافَّةِ الخلقِ .



وأمَّا انقسامُهُ بالإضافةِ إلى المرغوبِ عنهُ : فقدْ كثرَتْ فيهِ الأقاويلُ ، ولعلَّ المذكورَ فيهِ يزيدُ علىٰ مئةِ قولٍ ، فلا نشتغلُ بنقلِ الأقاويلِ ، ولكنْ

---

(١) وصاحب هـٰذا المقام قد سباه الحب وشغفه الشوق ، فهو داخل في الخلق منفصل منهم ، غير مضيع لما ألزمه الله من حقوقهم ، فأنَّىٰ لإبليس أن يطمع في هـٰذا ومعه من الله عصمة وتأييد ، فلولا القدر . . لرفعه إليه من حبه له . « إتحاف » (٩/ ٣٤٠) .

نشيرُ إلىٰ كلامٍ محيطٍ بالتفاصيلِ ، حتَّىٰ يتضحَ أنَّ أكثرَ ما ذُكِرَ فيهِ قاصرٌ عنِ الإحاطةِ بالكلِّ ، فنقولُ :

المرغوبُ عنهُ بالزهدِ لهُ إجمالٌ وتفصيلٌ ، ولتفصيلِهِ مراتبُ ، بعضُها أشرحُ لآحادِ الأقسامِ ، وبعضُها أجمعُ للجملِ .

أمَّا الإجمالُ في **الدرجةِ الأولىٰ** : فهوَ كلُّ ما سوى اللهِ ، فينبغي أنْ يزهدَ فيهِ ، حتَّىٰ يزهدَ في نفسِهِ أيضاً .

والإجمالُ في **الدرجةِ الثانيةِ** : أنْ يزهدَ في كلِّ صفةٍ للنفسِ فيها متعةٌ ، وهـٰذا يتناولُ جميعَ مقتضياتِ الطبعِ ؛ مِنَ الشهوةِ ، والغضبِ ، والكبرِ ، والرئاسةِ ، والمالِ ، والجاهِ ، وغيرِها .

وفي **الدرجةِ الثالثةِ** : أنْ يزهدَ في المالِ والجاهِ وأسبابِهِما ، إذْ إليهِما ترجعُ جميعُ حظوظِ النفسِ .

وفي **الدرجةِ الرابعةِ** : أنْ يزهدَ في العلمِ والقدرةِ ، والدينارِ والدرهمِ والجاهِ ، إذِ الأموالُ وإنْ كثرَتْ أصنافُها فيجمعُها الدينارُ والدرهمُ ، والجاهُ وإنْ كثرَتْ أسبابُهُ فيرجعُ إلى العلمِ والقدرةِ ، وأعني بهِ كلَّ علمٍ وقدرةٍ مقصودُها ملْكُ القلوبِ ، إذْ معنى الجاهِ هوَ ملكُ القلوبِ والقدرةُ عليها ، كما أنَّ معنى المالِ ملكُ الأعيانِ والقدرةُ عليها .

فإنْ جاوزتَ هـٰذا التفصيلَ إلىٰ شرحٍ وتفصيلٍ أبلغَ مِنْ هـٰذا .. فيكادُ يخرجُ ما فيهِ الزهدُ عنِ الحصرِ ، وقدْ ذكرَ اللهُ تعالىٰ في آيةٍ واحدةٍ سبعةً منها

فقالَ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

ثمَّ ردَّهُ في آيةٍ أخرىٰ إلىٰ خمسةٍ فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ .

ثمَّ ردَّهُ تعالىٰ في موضعٍ آخرَ إلى اثنينِ فقالَ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ .

ثمَّ ردَّ الكلَّ إلىٰ واحدٍ في موضعٍ آخرَ فقالَ : ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ ، فالهوىٰ لفظٌ يجمعُ جميعَ حظوظِ النفسِ في الدنيا ، فينبغي أنْ يكونَ الزهدُ فيهِ .

وإذا فهمتَ طريقَ الإجمالِ والتفصيلِ . . عرفتَ أنَّ البعضَ مِنْ هـٰذهِ لا يخالفُ البعضَ ، وإنَّما يفارقُهُ في الشرحِ مرَّةً والإجمالِ أخرىٰ .

والحاصلُ : أنَّ الزهدَ عبارةٌ عنِ الرغبةِ عنْ حظوظِ النفسِ كلِّها ، ومهما رغبَ عنْ حظوظِ النفسِ . . رغبَ عنِ البقاءِ في الدنيا ، فقصرَ أملَهُ لا محالةَ ؛ لأنَّهُ إنَّما يريدُ البقاءَ ليتمتَّعَ ، ويريدُ التمتُّعَ الدائمَ بإرادةِ البقاءِ ، فإنَّ مَنْ أرادَ شيئاً . . أرادَ دوامَهُ ، ولا معنىٰ لحبِّ الحياةِ إلا حبُّ دوامِ ما هوَ موجودٌ أوْ ممكنٌ في هـٰذهِ الحياةِ ، فإذا رغبَ عنها . . لمْ يردْها .

ولذلكَ لمَّا كُتِبَ عليهِمُ القتالُ قالوا : ﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ أيْ : لستُمْ تريدونَ

البقاءَ إلا لمتاعِ الدنيا، فظهرَ عندَ ذلكَ الزاهدونَ ، وانكشفَ حالُ المنافقينَ .

أمَّا الزاهدونَ المحبُّونَ للهِ تعالىٰ . . فقاتلوا في سبيلِ اللهِ كأنَّهُمْ بنيانٌ مرصوصٌ ، وانتظروا إحدى الحسنيينِ ، وكانوا إذا دُعوا إلى القتالِ . . يستنشقونَ رائحةَ الجنَّةِ ، ويبادرونَ إليهِ مبادرةَ الظمآنِ إلى الماءِ الباردِ ؛ حرصاً علىٰ نصرةِ دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ أوْ نيلِ رتبةِ الشهادةِ ، وكانَ مَنْ ماتَ منهُمْ علىٰ فراشِهِ يتحسَّرُ علىٰ فوتِ الشهادةِ ، حتَّىٰ إنَّ خالدَ بنَ الوليدِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ لما احتضرَ للموتِ علىٰ فراشِهِ كانَ يقولُ : (كمْ غررتُ بروحي وهجمتُ على الصفوفِ طمعاً في الشهادةِ ، وأنا الآنَ أموتُ موتَ العجائزِ) ، فلمَّا ماتَ عُدَّ علىٰ جسدِهِ ثمانُ مئةِ ثقبٍ مِنْ آثارِ الجراحاتِ[1] ، هٰكذا كانَ حالُ الصادقينَ في الإيمانِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ أجمعينَ .

وأمَّا المنافقونَ . . ففرُّوا مِنَ الزحفِ خوفاً مِنَ الموتِ ، فقيلَ لهُمْ : ﴿ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ ، فإيثارُهُمُ البقاءَ على الشهادةِ استبدالُ الذي هوَ أدنىٰ بالذي هوَ خيرٌ ، فأولئكَ الذينَ اشترَوُا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ، فما ربحَتْ تجارتُهُمْ وما كانوا مهتدينَ .

وأمَّا المخلصونَ . . فإنَّ اللهَ تعالىٰ اشترىٰ منهُمْ أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ بأنَّ لهُمُ

---

(١) روى الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٤٢) عن أبي الزناد : أن خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة . . بكىٰ وقال : لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة سيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح ، فهأنا أموت علىٰ فراشي حتف أنفي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء .

الجنَّةَ ، فلما رأَوا أنَّهُمْ تركوا تمتُّعَ عشرينَ سنةً مثلاً أوْ ثلاثينَ سنةً بتمتُّعِ الأبدِ . . استبشروا ببيعِهِمُ الذي بايعوا بهِ .

فهٰذا بيانُ المزهودِ فيهِ .

وإذا فهمتَ هٰذا . . علمتَ أن ما ذكرَهُ المتكلِّمونَ في حدِّ الزهدِ لمْ يشيروا بهِ إلا إلىٰ بعضِ أقسامِهِ ، فذكرَ كلٌّ واحدٍ منهُمْ ما رآهُ غالباً علىٰ نفسِهِ أوْ علىٰ مَنْ كانَ يخاطبُهُ .

فقالَ بشرٌ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (الزهدُ في الدنيا هوَ الزهدُ في الناسِ)(١) ، وهٰذا إشارةٌ إلى الزهدِ في الجاهِ خاصَّةً .

وقالَ قاسمٌ الجوعيُّ : (الزهدُ في الدنيا هوَ الزهدُ في الجوفِ ، فبقدْرِ ما تملكُ مِنْ بطنِكَ كذلكَ تملكُ مِنَ الزهدِ)(٢) ، وهٰذا إشارةٌ إلى الزهدِ في شهوةٍ واحدةٍ ، ولعمري هيَ أغلبُ الشهواتِ على الأكثرِ ، وهيَ المهيِّجةُ لأكثرِ الشهواتِ .

وقالَ الفضيلُ : (الزهدُ في الدنيا هوَ القناعةُ)(٣) ، وهٰذا إشارةٌ إلى المالِ خاصَّةً .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٢) ، ونحوه أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص٢٤٦) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٥٢) .
(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٢) ، ورواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٦٤٧) .

وقالَ الثوريُّ : (الزهدُ هوَ قصرُ الأملِ)[1] ، وهٰذا جامعٌ لجميعِ الشهواتِ ، فإنَّ مَنْ يميلُ إلى الشهواتِ يحدِّثُ نفسَهُ بالبقاءِ ، فيطولُ أملُهُ ، ومَنْ قصرَ أملُهُ . . فكأنَّهُ رغبَ عنِ الشهواتِ كلِّها .

وقالَ أويسٌ : (إذا خرجَ الزاهدُ يطلبُ . . ذهبَ الزهدُ عنهُ)[2] ، وما قصدَ بهٰذا حدَّ الزهدِ ، ولكنْ جعلَ التوكُّلَ شرطاً في الزهدِ .

وقالَ أويسٌ أيضاً : (الزهدُ هوَ تركُ الطلبِ للمضمونِ)[3] ، وهوَ إشارةٌ إلى الرزقِ .

وقالَ أهلُ الحديثِ : (الدنيا هوَ العملُ بالرأيِ والمعقولِ ، والزهدُ إنَّما هوَ اتباعُ العلمِ ولزومُ السنةِ)[4] ، وهٰذا إنْ أُريدَ بهِ الرأيُ الفاسدُ والمعقولُ الذي يُطلبُ بهِ الجاهُ في الدنيا . . فهوَ صحيحٌ ، ولكنَّهُ إشارةٌ إلىٰ بعضِ أسبابِ الجاهِ خاصَّةً ، أوْ إلىٰ بعضِ ما هوَ منْ فضولِ الشهواتِ ، فإنَّ مِنَ العلومِ ما لا فائدةَ فيهِ في الآخرةِ ، وقدْ طوَّلوها حتَّىٰ ينقضي عمرُ الإنسانِ في الاشتغالِ بواحدٍ منها ، فشرطُ الزاهدِ أنْ يكونَ الفضولُ أوَّلَ مرغوبٍ عنهُ عندَهُ .

وقالَ الحسنُ : (الزاهدُ الذي إذا رأىٰ أحداً . . قالَ : هٰذا أفضلُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٥٢) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٥٢) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .

منِّي)[١] ، فذهبَ إلىٰ أنَّ الزهدَ هوَ التواضعُ ، وهٰذا إشارةٌ إلىٰ نفيِ الجاهِ والعجبِ ، وهوَ بعضُ أقسامِ الزهدِ .

وقالَ بعضُهُمْ : (الزهدُ هوَ طلبُ الحلالِ)[٢] ، وأينَ هٰذا ممَّنْ يقولُ : (الزهدُ هوَ تركُ الطلبِ) كما قالَ أويسٌ ، ولا شكَّ في أنَّهُ أرادَ بهِ تركَ طلبِ الحلالِ ؟!

وقدْ كانَ يوسفُ بنُ أسباطٍ يقولُ : (مَنْ صبرَ على الأذىٰ ، وتركَ الشهواتِ ، وأكلَ الخبزَ مِنْ حلالٍ . . فقدْ أخذَ بأصلِ الزهدِ)[٣] .

وفي الزهدِ أقاويلُ وراءَ ما نقلناهُ ، فلمْ نرَ في نقلِها فائدةً ، فإنَّ مَنْ طلبَ كشفَ حقائقِ الأمورِ مِنْ أقاويلِ الناسِ . . رآها مختلفةً ، فلا يستفيدُ إلا الحيرةَ ، وأمَّا مَنِ انكشفَ لهُ الحقُّ في نفسِهِ ، وأدركَهُ بمشاهدةٍ مِنْ قلبِهِ ، لا بتلقُّفٍ مِنْ سمعِهِ . . فقدْ وثقَ بالحقِّ ، واطلعَ علىٰ قصورِ مَنْ قصَّرَ لقصورِ بصيرتِهِ ، وعلى اقتصارِ مَنِ اقتصرَ معَ كمالِ المعرفةِ لاقتصارِ حاجتِهِ .

وهؤلاءِ كلُّهُمُ اقتصروا لا لقصورٍ في البصيرةِ ، ولكنَّهُمْ ذكروا ما ذكروهُ عندَ الحاجةِ ، فلا جرمَ ذكروهُ بقدْرِ الحاجةِ ، والحاجاتُ تختلفُ ، فلا جرمَ الكلماتُ تختلفُ .

وقدْ يكونُ سببُ الاقتصارِ الإخبارَ عنِ الحالةِ الراهنةِ التي هيَ مقامُ العبدِ

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٧٤) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٨) .
(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٠٤) .

في نفسِهِ ، والأحوالُ تختلفُ ، فلا جرمَ الأقوالُ المخبرةُ عنها تختلفُ .

وأمَّا الحقُّ في نفسِهِ . . فلا يكونُ إلا واحداً ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يختلفَ ، وإنَّما الجامعُ مِنْ هٰذهِ الأقاويلِ ، الكاملُ في نفسِهِ وإنْ لمْ يكنْ فيهِ تفصيلٌ . . ما قالَهُ أبو سليمانَ الدارانيُّ ؛ إذْ قالَ : (سمعنا في الزهدِ كلاماً كثيراً ، والزهدُ عندَنا تركُ كلِّ شيءٍ يشغلُكَ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ)[1] ، وقدْ فصَّلَ مرَّةً وقالَ : (مَنْ تزوَّجَ ، أوْ سافرَ في طلبِ المعيشةِ ، أوْ كتبَ الحديثَ . . فقدْ ركنَ إلى الدنيا)[2] ، فجعلَ جميعَ ذلكَ ضدّاً للزهدِ ، وقدْ قرأَ أبو سليمانَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ فقالَ : (هوَ القلبُ الذي ليسَ فيهِ غيرُ اللهِ تعالىٰ)[3] .

وقالَ : (إنَّما زهدوا في الدنيا لتفرغَ قلوبُهُمْ مِنْ همومِها للآخرةِ)[4] .

فهٰذا بيانُ انقسامِ الزهدِ بالإضافةِ إلىٰ أصنافِ المزهودِ فيهِ .

فأمَّا بالإضافةِ إلىٰ أحكامِهِ : فينقسمُ إلىٰ فرضٍ ، ونفلٍ ، وسلامةٍ ؛ كما قالَهُ إبراهيمُ بنُ أدهمَ ، فالفرضُ هوَ الزهدُ في الحرامِ ، والنفلُ هوَ الزهدُ في الحلالِ ، والسلامةُ هوَ الزهدُ في الشبهاتِ[5] .

وقدْ ذكرنا تفاصيلَ درجاتِ الورعِ في كتابِ الحلالِ والحرامِ ، وذلكَ مِنَ

---

(١) بنحوه عند صاحب « القوت » (١/ ٢٥٢) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٥٢) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٥٢) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٢٥٢) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٦) .

الزهدِ ، إذْ قيلَ لمالكِ بنِ أنسٍ : ما الزهدُ ؟ قالَ : التقوىٰ .

وأمّا بالإضافةِ إلىٰ خفايا ما يُتركُ : فلا نهايةَ للزهدِ فيهِ ، إذْ لا نهايةَ لما تتمتَّعُ بهِ النفسُ في الخطراتِ واللحظاتِ وسائرِ الحالاتِ ، لا سيما خفايا الرياءِ ، فإنَّ ذلكَ لا يطلعُ عليهِ إلا سماسرةُ العلماءِ ، بلِ الأمورُ الظاهرةُ أيضاً درجاتُ الزهدِ فيها لا تتناهىٰ .

فمِنْ أقصىٰ درجاتِها زهدُ عيسىٰ عليهِ السلامُ ، إذْ توسَّدَ حجراً في نومِهِ ، فقالَ لهُ الشيطانُ : أما كنتَ تركتَ الدنيا ، فما الذي بدا لكَ ؟ قالَ : وما الذي تجدَّدَ ؟ قالَ : توسدتَ الحجرَ ـ أي : تنعمتَ برفعِ رأسِكَ عنِ الأرضِ في النومِ ـ فرمى الحجرَ وقالَ : خذهُ معَ ما تركتُهُ لكَ[1] .

ورُوِيَ عنْ يحيىٰ بنِ زكريا عليهِما السلامُ أنَّهُ لبسَ المسوحَ حتَّىٰ نَقِبَ جلدُهُ ؛ تركاً للتنعُّمِ بلينِ اللباسِ ، واستراحةِ حسِّ اللمسِ ، فسألَتْهُ أمُّهُ أنْ يلبسَ مكانَها جبَّةً مِنْ صوفٍ ، ففعلَ ، فأوحى الله تعالىٰ إليهِ : يا يحيىٰ ؛ آثرتَ عليَّ الدنيا ! فبكىٰ ونزعَ الصوفَ ، وعادَ إلىٰ ما كانَ عليهِ[2] .

وقالَ أحمدُ رحمهُ اللهُ : (الزهدُ زهدُ أويسٍ ، بلغَ مِنَ العريِ إلىٰ أنْ جلسَ في قَوْصرَّةٍ)[3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٥٥٧) عن إسماعيل بن أبي خالد .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٥) .

(٣) نحوه عند أحمد في « الورع » (٢٤٢) ، وهو في « القوت » (١/ ٢٦٧) ، والقوصرَّة ـ وتخفف ـ : وعاء للتمر من قصب .

وجلسَ عيسىٰ عليهِ السلامُ في ظلِّ حائطِ إنسانٍ ، فأقامَهُ صاحبُ الحائطِ ، فقالَ : ما أقمتَني أنتَ ، إنَّما أقامَني الذي لمْ يرضَ لي أنْ أتنعَّمَ بظلِّ الحائطِ(١) .

فإذاً ؛ درجاتُ الزهدِ ظاهراً وباطناً لا حصرَ لها ، وأقلُّ درجاتِهِ الزهدُ في كلِّ شبهةٍ ومحظورٍ .

وقالَ قومٌ : الزهدُ هوَ الزهدُ في الحلالِ ، لا في الشبهةِ والمحظورِ ، فليسَ ذلكَ مِنْ درجاتِهِ في شيءٍ ، ثمَّ رأَوا أنَّهُ لمْ يبقَ حلالٌ في أموالِ الدنيا ، فلا يُتصوَّرُ الزهدُ الآنَ .

* * *

فإنْ قلتَ : مهما كانَ الصحيحُ هوَ أنَّ الزهدَ تركُ ما سوى اللهِ . . فكيفَ يُتصوَّرُ ذلكَ معَ الأكلِ والشربِ واللبسِ ، ومخالطةِ الناسِ ومكالمتِهِمْ وكلُّ ذلكَ اشتغالٌ بما سوى اللهِ تعالىٰ ؟

فاعلمْ : أنَّ معنى الانصرافِ عنِ الدنيا إلى اللهِ تعالىٰ هوَ الإقبالُ بكلِّ القلبِ عليهِ ذكراً وفكراً ، ولا يُتصوَّرُ ذلكَ إلا معَ البقاءِ ، ولا بقاءَ إلا بضرورياتِ النفسِ ، فمهما اقتصرتَ منَ الدنيا علىٰ دفعِ المهلكاتِ عنِ البدنِ وكانَ غرضُكَ الاستعانةَ بالبدنِ على العبادةِ . . لمْ تكنْ مشتغلاً بغيرِ اللهِ ؛ فإنَّ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١١٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٩/٤٧) بنحوه .

ما لا يُتوصَّلُ إلى الشيءِ إلا بهِ فهوَ منهُ ، فالمشتغلُ بعلفِ الناقةِ وبسقيها في طريقِ الحجِّ ليسَ معرضاً عنِ الحجِّ ، ولكنْ ينبغي أنْ يكونَ بدنُكَ في طريقِ اللهِ مثلَ ناقتِكَ في طريقِ الحجِّ ، ولا غرضَ لكَ في تنعمِ ناقتِكَ باللذاتِ ، بلْ غرضُكَ مقصورٌ علىٰ دفعِ المهلكاتِ عنها ، حتَّىٰ تسيرَ بكَ إلىٰ مقصدِكَ ؛ فكذلكَ ينبغي أنْ تكونَ في صيانةِ بدنِكَ عنِ الجوعِ والعطشِ المهلكِ بالأكلِ والشربِ ، وعنِ الحرِّ والبردِ المهلكِ باللباسِ والمسكنِ ، فتقتصرُ علىٰ قدْرِ الضرورةِ ، ولا تقصدُ التلذُّذَ ، بلِ التقوِّيَ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فذلكَ لا يناقضُ الزهدَ ، بلْ هوَ شرطُ الزهدِ .

* * *

فإنْ قلتَ : لا بدَّ وأنْ أتلذَّذَ بالأكلِ عندَ الجوعِ .

فاعلمْ : أنَّ ذلكَ لا يضرُّكَ إذا لمْ يكنْ قصدُكَ التلذُّذَ ؛ فإنَّ شاربَ الماءِ الباردِ قدْ يستلذُّ الشربَ ويرجعُ حاصلُهُ إلىٰ زوالِ ألمِ العطشِ ، ومَنْ يقضي حاجتَهُ . . فقدْ يستريحُ بذلكَ ، ولكنْ لا يكونُ ذلكَ مقصوداً عندَهُ ومطلوباً بالقصدِ ، فلا يكونُ القلبُ منصرفاً إليهِ ، فالإنسانُ قدْ يستريحُ في قيامِ الليلِ بتنسُّمِ الأسحارِ وصوتِ الأطيارِ ، ولكنْ إذا لمْ يقصدْ طلبَ موضعٍ لهـٰذهِ الاستراحةِ . . فما يصيبُهُ مِنْ ذلكَ بغيرِ قصدِهِ لا يضرُّهُ .

ولقدْ كانَ في الخائفينَ مَنْ طلبَ موضعاً لا يصيبُهُ فيهِ نسيمُ الأسحارِ خيفةً مِنَ الاستراحةِ بهِ وأنسِ القلبِ معَهُ ، فيكونُ فيهِ أنسٌ بالدنيا ، ونقصانٌ في

الأنسِ باللهِ بقدْرِ وقوعِ الأنسِ بغيرِ اللهِ ، ولذلكَ كانَ داوودُ الطائيُّ لهُ حُبٌّ مكشوفٌ فيهِ ماؤُهُ[1] ، فكانَ لا يرفعُهُ مِنَ الشمسِ ويشربُ الماءَ الحارَّ ويقولُ : مَنْ وجدَ لذَّةَ الماءِ الباردِ . . شقَّ عليهِ مفارقةُ الدنيا[2] .

فهـٰذهِ مخاوفُ المحتاطينَ ، والحزمُ في جميعِ ذلكَ الاحتياطُ ، فإنَّهُ وإنْ كانَ شاقّاً . . فمدتُهُ قريبةٌ ، والاحتماءُ مدَّةً يسيرةً للتنعُّمِ على التأبيدِ لا يثقلُ علىٰ أهلِ المعرفةِ القاهرينَ أنفسَهُمْ بسياسةِ الشرعِ ، المعتصمينَ بعروةِ اليقينِ في معرفةِ المضادَّةِ التي بينَ الدنيا والدينِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ أجمعينَ .



(١) الحُبُّ : الخابية للماء ، جمعه : حِباب وحِبَبة .
(٢) معناه عند أبي نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٤٩ ، ٣٥١) .

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلمْ : أنَّ ما الناسُ منهمكونَ فيهِ ينقسمُ إلىٰ فضولٍ وإلىٰ مهمٍّ .

فالفضولُ : كالخيلِ المسوَّمةِ مثلاً ؛ إذْ غالبُ الناسِ إنَّما يقتنيها للترفُّهِ بركوبِها ، وهوَ قادرٌ على المشيِ .

والمهمُّ : كالأكلِ والشربِ .

ولسنا نقدرُ علىٰ تفصيلِ أصنافِ الفضولِ ، فإنَّ ذلكَ لا ينحصرُ ، وإنَّما ينحصرُ المهمُّ الضروريُّ ، والمهمُّ أيضاً يتطرَّقُ إليهِ فضولٌ في مقدارِهِ وجنسِهِ وأوقاتِهِ ، فلا بدَّ مِنْ بيانِ وجهِ الزهدِ فيهِ .

والمهماتُ ستةُ أمورٍ : المطعمُ ، والملبسُ ، والمسكنُ ، وأثاثُهُ ، والمنكحُ ، والمالُ ، والجاهُ يُطلبُ لأغراضٍ ، وهـٰذهِ الستةُ مِنْ جملتِها[1] ، وقدْ ذكرنا معنى الجاهِ ، وسببَ حبِّ الخلقِ لهُ ، وكيفيةَ الاحترازِ منهُ في كتابِ الرياءِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ ، ونحنُ الآنَ نقتصرُ علىٰ بيانِ هـٰذهِ المهمَّاتِ الستةِ .

---

(١) أي : الستة من جملة الأغراض التي يطلب الجاه لأجلها ، فليس الجاه معدوداً في المهمات ، وسيجعل المصنف رحمه الله تعالى المال والجاه في مهم واحد ، وهو المهم السادس .

الأوَّلُ : المطعمُ :

ولا بدَّ للإنسانِ مِنْ قوتٍ حلالٍ يقيمُ صلبَهُ ، ولكنْ لهُ طولٌ وعرضٌ ، فلا بدَّ مِنْ قبضِ طولِهِ وعرضِهِ حتَّىٰ يتمَّ بهِ الزهدُ .

فأمَّا طولُهُ . . فبالإضافةِ إلىٰ جملةِ العمرِ ؛ فإنَّ مَنْ يملكُ طعامَ يومِهِ فلا يقنعُ بهِ ، وأما عرضُهُ . . ففي مقدارِ الطعامِ وجنسِهِ ووقتِ تناولِهِ .

أمَّا طولُهُ : فلا يقصرُ إلا بقصرِ الأملِ ، وأقلُّ درجاتِ الزهدِ فيهِ الاقتصارُ علىٰ قدْرِ دفعِ الجوعِ عندَ شدَّةِ الجوعِ وخوفِ المرضِ ، ومَنْ هـٰذا حالُهُ فإذا استقلَّ بما تناولَهُ . . لمْ يدَّخرْ مِنْ غدائِهِ لعشائِهِ ، وهـٰذهِ هيَ **الدرجةُ العليا** .

الدرجةُ الثانيةُ : أنْ يدخرَ لشهرٍ أوْ لأربعينَ يوماً .

الدرجةُ الثالثةُ : أنْ يدخرَ لسنةٍ فقطْ ، وهـٰذهِ رتبةُ ضعفاءِ الزهَّادِ .

ومَنِ ادخرَ لأكثرَ مِنْ ذلكَ . . فتسميتُهُ زاهداً محالٌ ؛ لأنَّ مَنْ أملَ بقاءَ أكثرَ مِنْ سنةٍ . . فهوَ طويلُ الأملِ جداً ، فلا يتمُّ منهُ الزهدُ إلا إذا لمْ يكنْ لهُ كسبٌ ، ولمْ يرضَ لنفسِهِ الأخذَ مِنْ أيدي الناسِ ؛ كداوودَ الطائيِّ ، فإنَّهُ ورثَ عشرينَ ديناراً ، فأمسكَها وأنفقَها في عشرينَ سنةً(١) ، فهـٰذا لا يضادُّ أصلَ الزهدِ إلا عندَ مَنْ جعلَ التوكُّلَ شرطَ الزهدِ .

وأمَّا عرضُهُ . . فبالإضافةِ إلى المقدارِ : وأقلُّ درجاتِهِ في اليومِ والليلةِ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٧/٧) .

نصفُ رطلٍ ، وأوسطُهُ رطلٌ ، وأعلاهُ مدٌّ واحدٌ ، وهوَ ما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ في إطعامِ المسكينِ في الكفَّارةِ ، وما وراءَ ذلكَ . . فهوَ مِنِ اتساعِ البطنِ والاشتغالِ بهِ ، ومَنْ لمْ يقدرْ على الاقتصارِ علىٰ مدٍّ . . لمْ يكنْ لهُ مِنَ الزهدِ في البطنِ نصيبٌ .

وأمَّا بالإضافةِ إلى الجنسِ : فأقلُّهُ كلُّ ما يقوتُ ولوِ الخبزَ مِنَ النخالةِ ، وأوسطُهُ خبزُ الشعيرِ والذرةِ ، وأعلاهُ خبزُ البرِّ غيرَ منخولٍ ، فإذا ميزَ مِنَ النخالةِ وصارَ حُوَّارَىٰ . . فقدْ دخلَ في التنعُّمِ ، وخرجَ عنْ آخرِ أبوابِ الزهدِ فضلاً عنْ أوائلِهِ .

وأمَّا الأدمُ . . فأقلُّهُ الملحُ أوِ البقلُ أوِ الخلُّ ، وأوسطُهُ الزيتُ أوْ يسيرٌ مِنَ الأدهانِ أيَّ دهنٍ كانَ ، وأعلاهُ اللحمُ أيَّ لحمٍ كانَ ، وذلكَ في الأسبوعِ مرَّةً أوْ مرَّتينِ ، فإنْ صارَ دائماً ، أوْ أكثرَ مِنْ مرَّتينِ في الأسبوعِ . . خرجَ مِنْ آخرِ أبوابِ الزهدِ ، فلمْ يكنْ صاحبُهُ زاهداً في البطنِ أصلاً .

وأمَّا بالإضافةِ إلى الوقتِ : فأقلُّهُ في اليومِ والليلةِ مرَّةٌ ، وهوَ أنْ يكونَ صائماً ، وأوسطُهُ أنْ يصومَ ويشربَ ليلةً ولا يأكلَ ، ويأكلَ ليلةً ولا يشربَ ، وأعلاهُ ينتهي إلىٰ أنْ يطويَ ثلاثةَ أيامٍ أوْ أسبوعاً وما زادَ عليهِ ، وقدْ ذكرنا طريقَ تقليلِ الطعامِ وكسرِ شرهِهِ في ربعِ المهلكاتِ .

ولينظرْ إلىٰ أحوالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والصحابةِ رضوانُ اللهِ عليهِمْ في كيفيَّةِ زهدِهِمْ في المطاعمِ وتركِهِمُ الأدمَ ، قالَتْ

عائشةُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها : كانَتْ تأتي علينا أربعونَ ليلةً وما يُوقدُ في بيتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مصباحٌ ولا نارٌ ، قيلَ لها : فبمَ كنتُمْ تعيشونَ ؟ قالَتْ : بالأسودينِ ؛ التمرِ والماءِ[1] . وهٰذا تركُ اللحمِ والمرقةِ والأدمِ .

وقالَ الحسنُ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يركبُ الحمارَ ، ويلبسُ الصوفَ ، وينتعلُ المخصوفَ ، ويلعقُ أصابعَهُ ، ويأكلُ على الأرضِ ، ويقولُ : « إنَّما أنا عبدٌ ، آكلُ كما يأكلُ العبدُ ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ »[2] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (بحقٍّ أقولُ لكُمْ : إنَّهُ مَنْ طلبَ الفردوسَ فخبزُ الشعيرِ لهُ والنومُ على المزابلِ معَ الكلابِ كثيرٌ)[3] .

---

(١) روى ابن ماجه (٤١٤٥) من حديثها رضي الله عنها : لقد كان يأتي على آل محمد صلى الله عليه وسلم الشهر ما يرىٰ في بيت من بيوته الدخان ، قال أبو سلمة : قلت : فما كان طعامهم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء . . . الحديث .
وعند أحمد في « المسند » (٦/ ٨٦) : كان يمر برسول الله صلى الله عليه وسلم هلال وهلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار .

(٢) روىٰ قول الحسن إلىٰ قوله : (ويأكل على الأرض) ابنُ سعد في « طبقاته » (١/ ٣٢٠) ، والشطر الثاني منه رواه أيضاً ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٣٢٨) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٩٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤/ ٧٤) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٢٢) .

وقالَ الفضيلُ : (ما شبعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منذُ قدمَ المدينةَ ثلاثةَ أيامٍ مِنْ خبزِ البرِّ)[1] .

وكانَ عيسىٰ عليهِ السلامُ يقولُ : (يا بني إسرائيلَ ؛ عليكمْ بالماءِ القراحِ ، والبقلِ البرِّيِّ وخبزِ الشعيرِ ، وإيَّاكُمْ وخبزَ البرِّ ؛ فإنَّكُمْ لنْ تقوموا بشكرِهِ)[2] .

وقدْ ذكرنا سيرةَ الأنبياءِ والسلفِ في المطعمِ والمشربِ في ربعِ المهلكاتِ ، فلا نعيدُهُ .

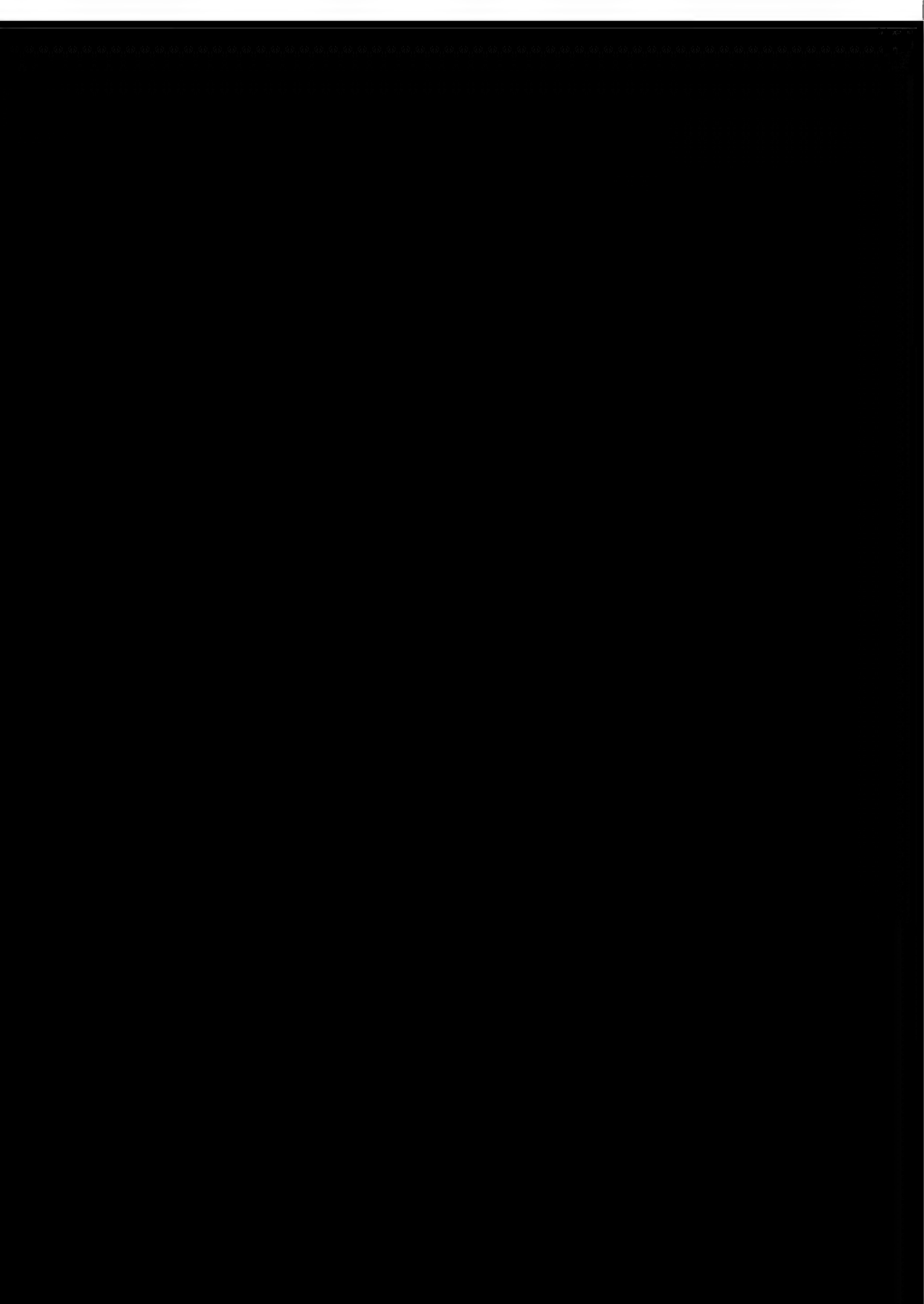
ولمَّا أتىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أهلَ قُباءٍ . . أتوهُ بشربةٍ مِنْ لبنٍ مشوبةٍ بعسلٍ ، فوضعَ القدحَ مِنْ يدِهِ وقالَ : « أما إنِّي لستُ أحرِّمُهُ ، ولكنِّي أتركُهُ تواضعاً للهِ تعالىٰ »[3] .

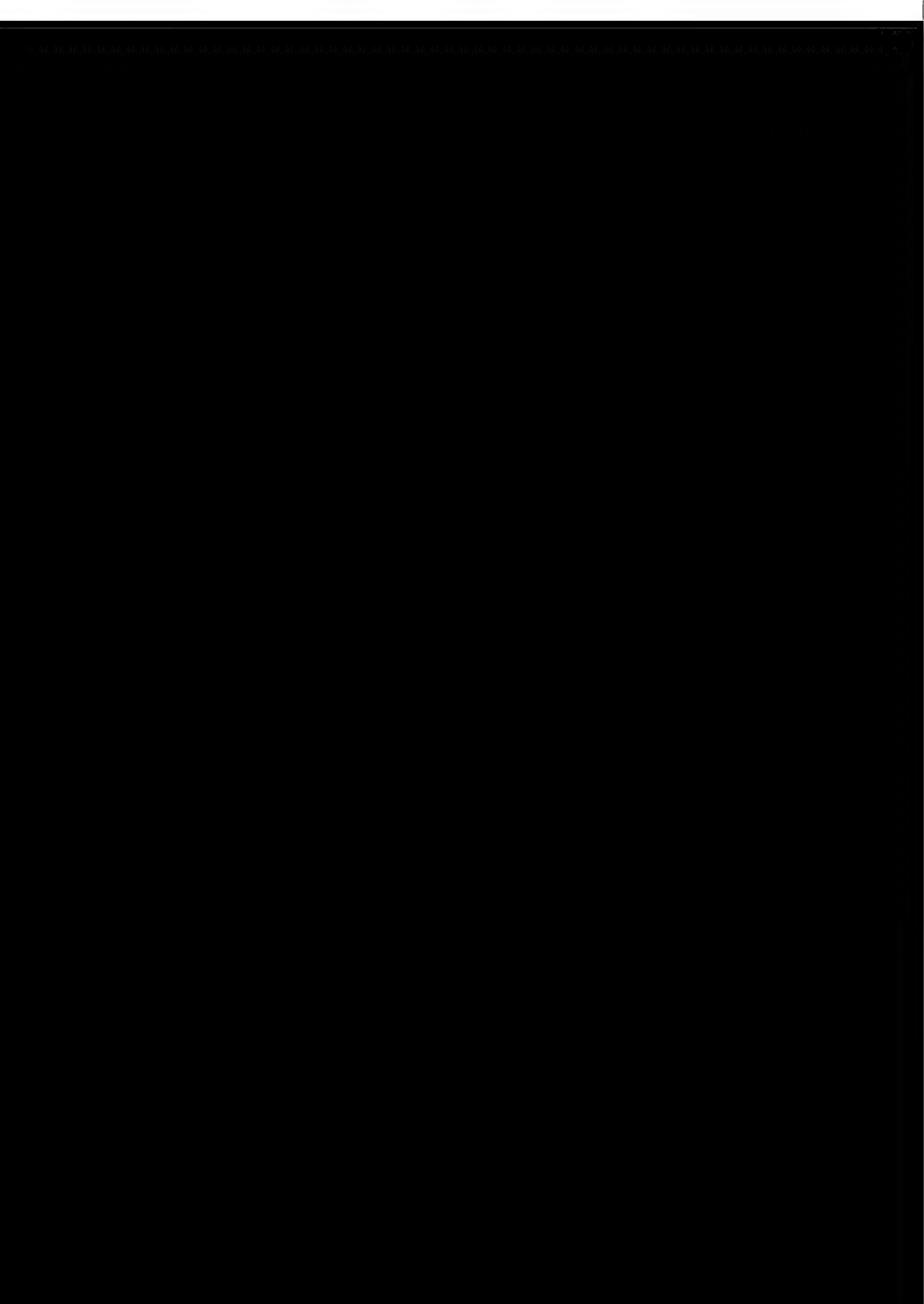
وأُتِيَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بشربةٍ مِنْ ماءٍ باردٍ وعسلٍ في يومٍ صائفٍ ، فقالَ : (اعزلوا عنِّي حسابَها)[4] .

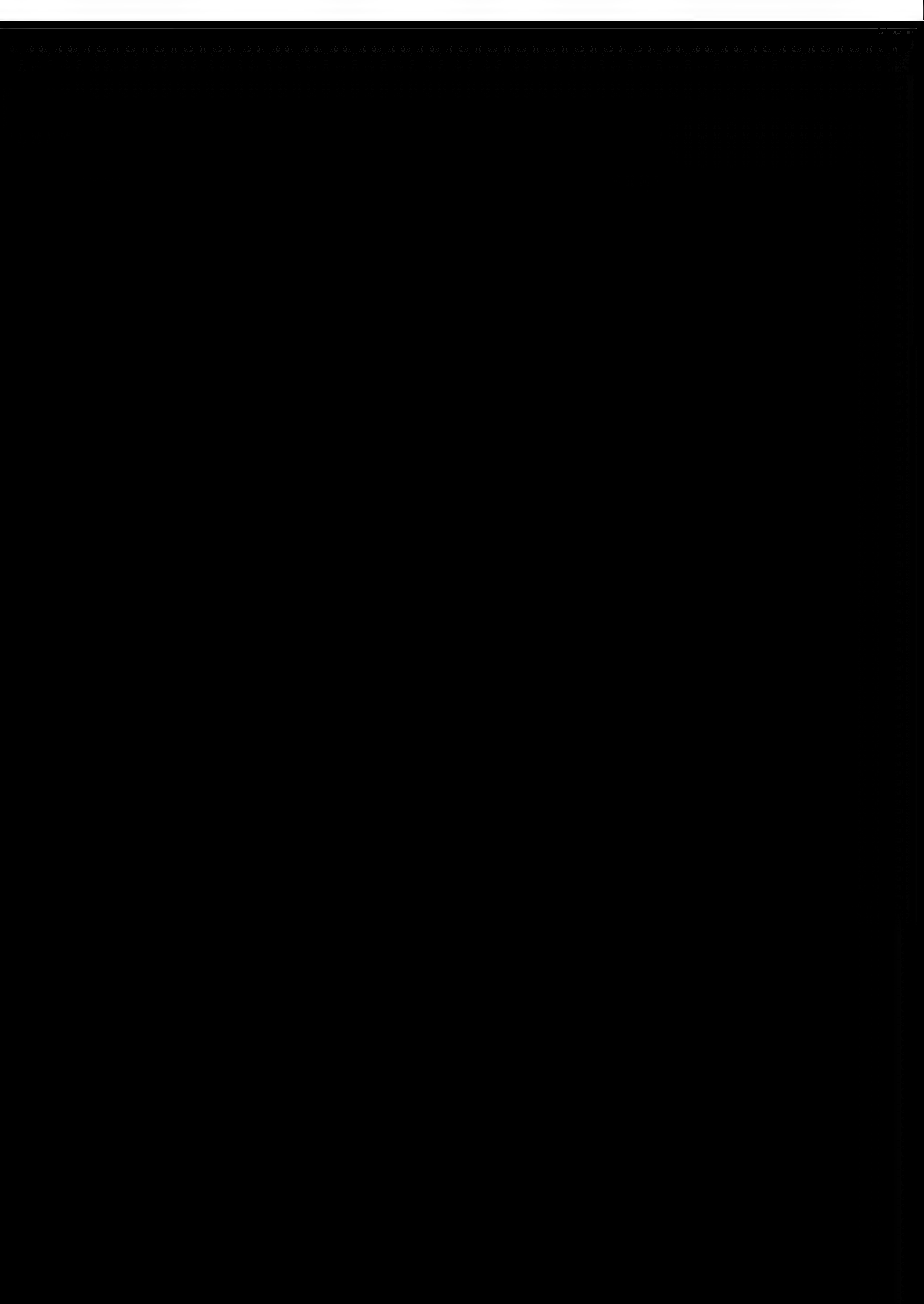
وقدْ قالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ الرازيُّ : (الزاهدُ الصادقُ قوتُهُ ما وجدَ ، ولباسُهُ ما سترَ ، ومسكنُهُ حيثُ أدركَ ، الدنيا سجنُهُ ، والقبرُ مضجعُهُ ، والخلوةُ مجلسُهُ ، والاعتبارُ فكرتُهُ ، والقرآنُ حديثُهُ ، والربُّ أنيسُهُ ،

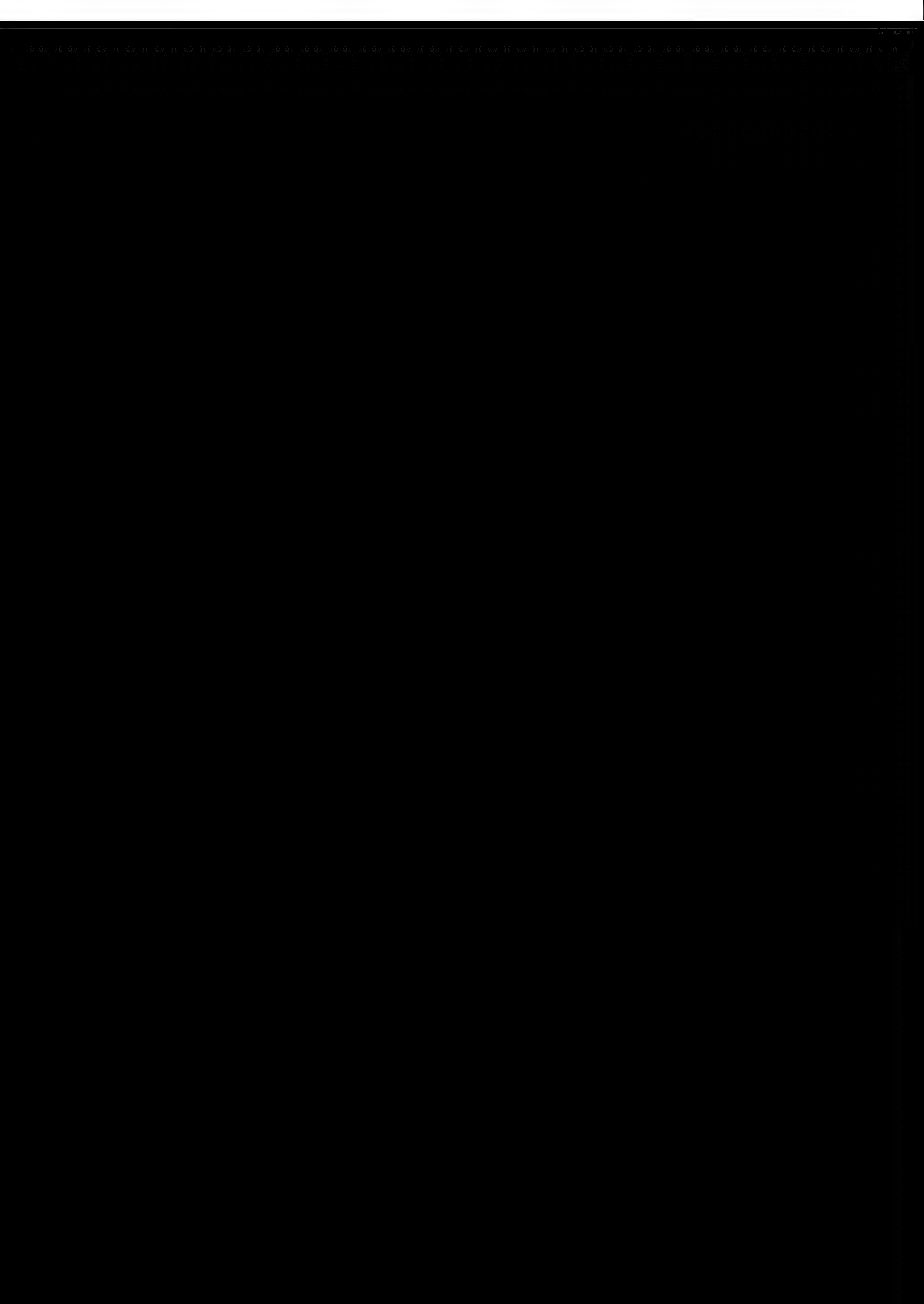
---

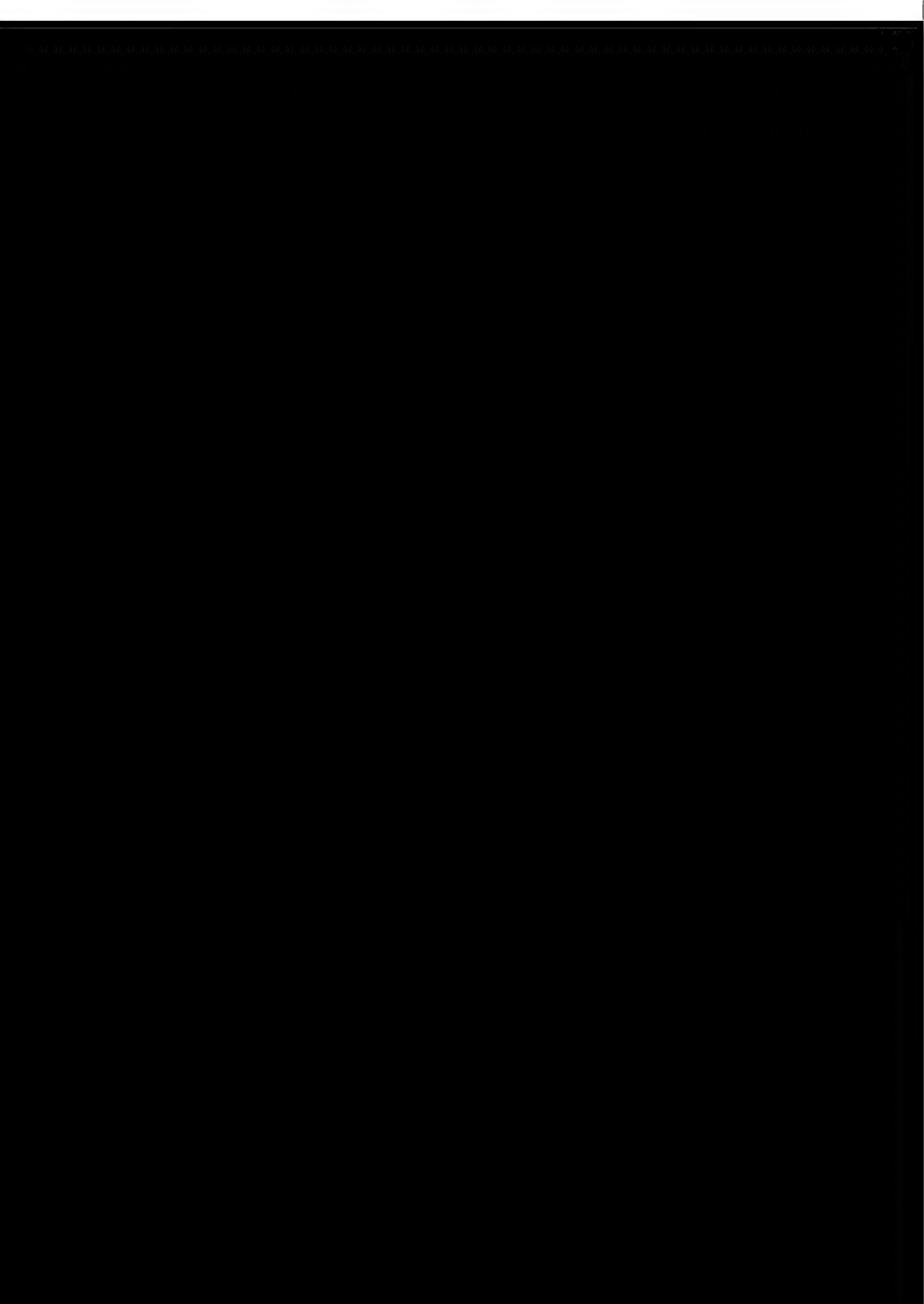
(١) رواه البخاري (٥٤١٦) ، ومسلم (٢٩٧٠) .
(٢) هو عند مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٣٢) بلاغاً عنه عليه السلام .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٥٦) ، وروى الحكيم الترمذي في « نوادره » (٢/ ٤٢٦) نحوه .
(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٦٢٨) .

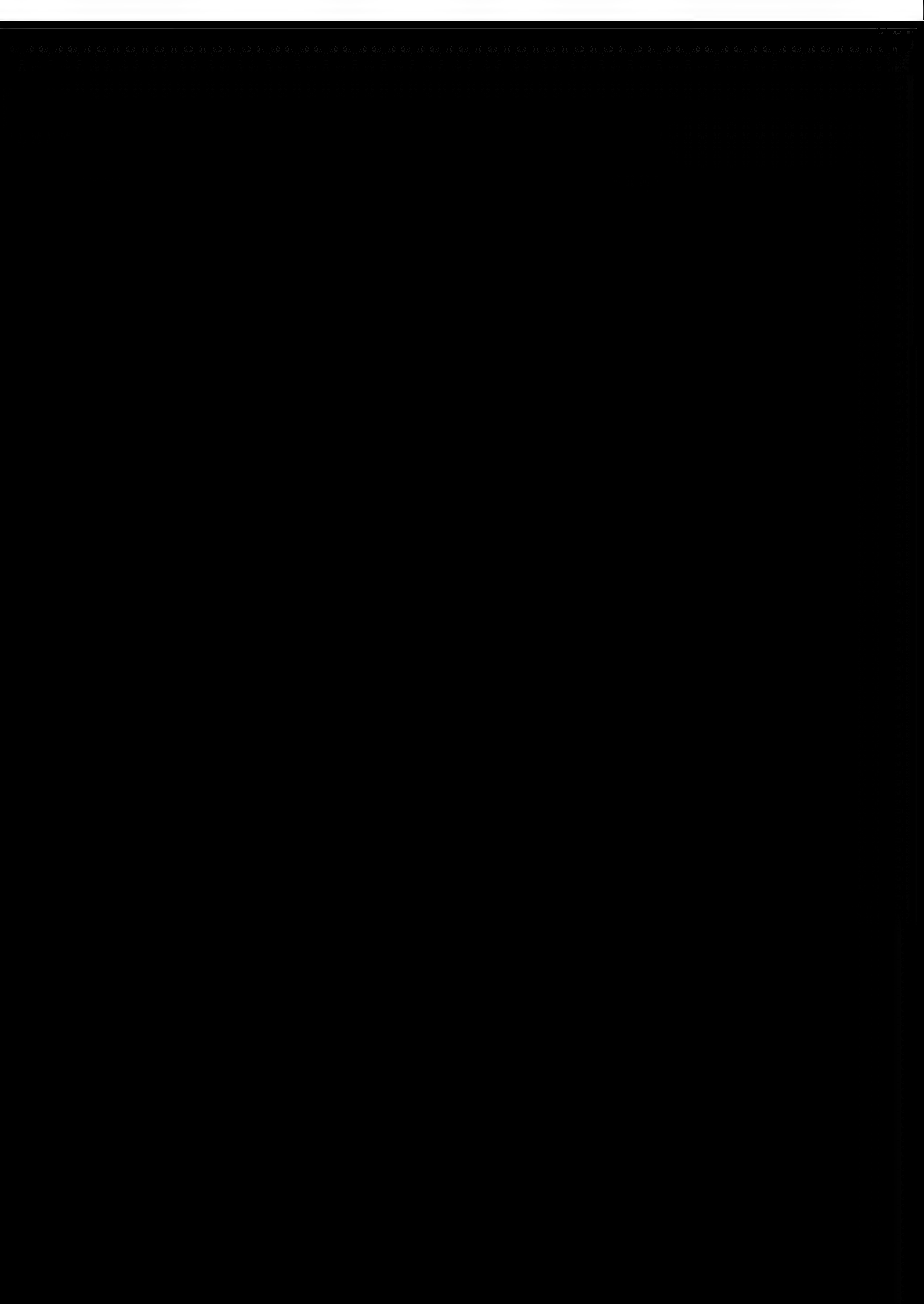


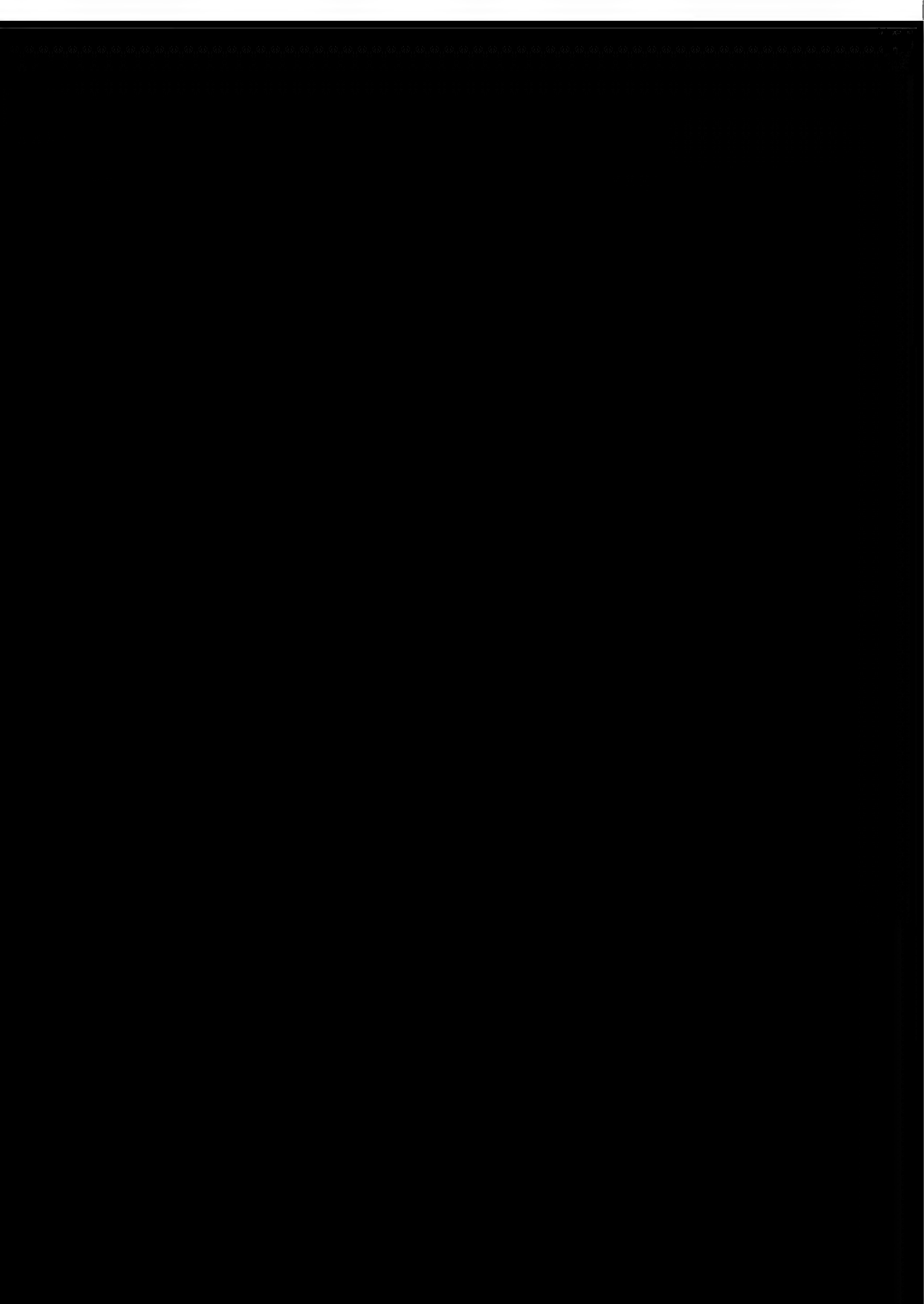


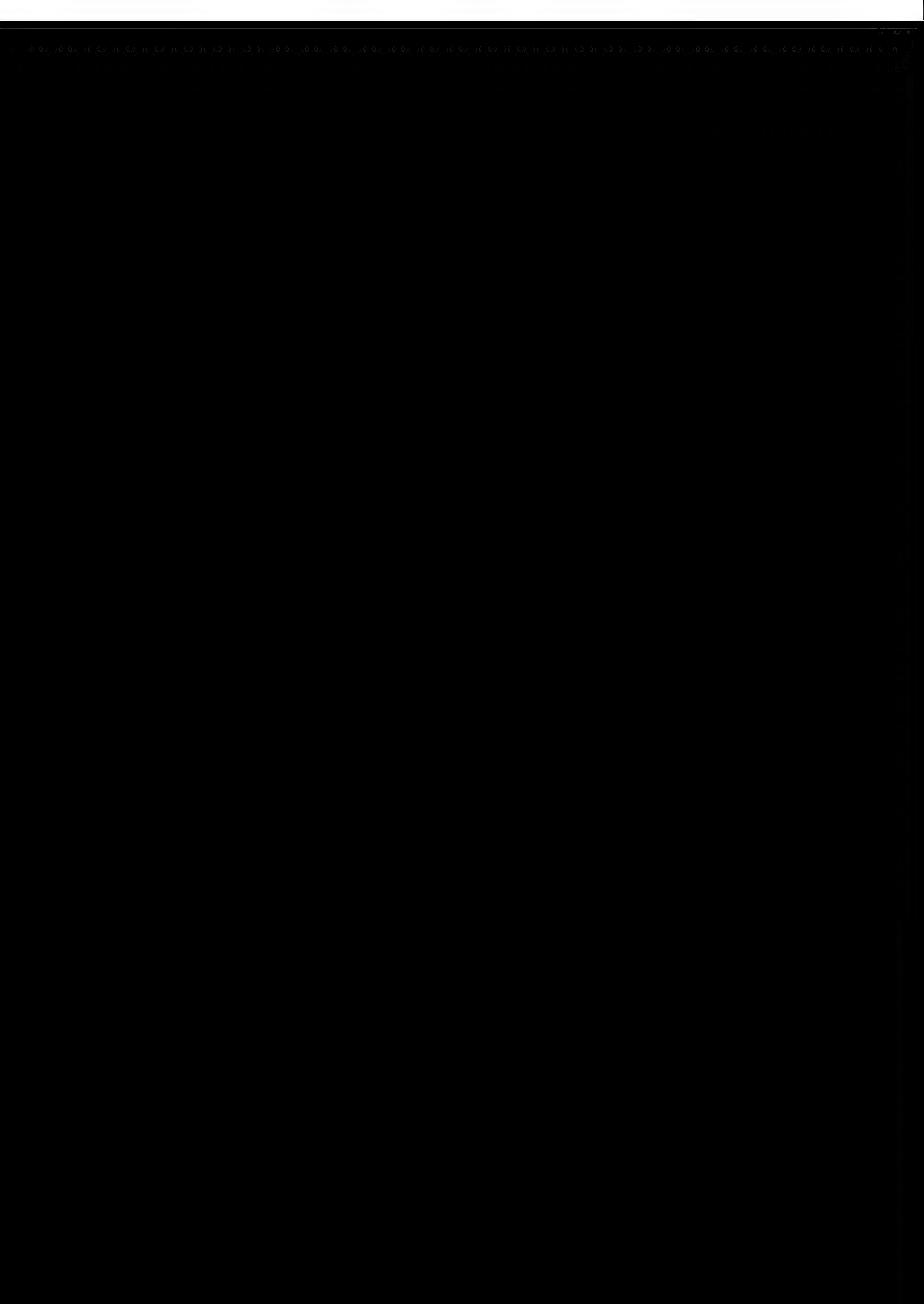












المهمُّ الثالثُ : المسكنُ :

وللزهدِ أيضاً فيهِ ثلاثُ درجاتٍ :

أعلاها : ألا يطلبَ موضعاً خاصّاً لنفسِهِ ، فيقنعَ بزوايا المساجدِ كأصحابِ الصفَّةِ .

وأوسطُها : أنْ يطلبَ موضعاً خاصّاً لنفسِهِ ؛ مثلَ كوخٍ مبنيٍّ مِنْ سعفٍ أوْ خصٍّ أوْ ما يشبهُهُ(١) .

وأدناها : أنْ يطلبَ حجرةً مبنيةً ؛ إمَّا بشراءٍ أوْ إجارةٍ ، فإنْ كانَ قدْرُ سعةِ المسكنِ علىٰ قدْرِ حاجتِهِ مِنْ غيرِ زيادةٍ ، ولمْ يكنْ فيهِ زينةٌ . . لمْ يخرجْهُ هـٰذا القدْرُ عن آخرِ درجاتِ الزهدِ ، فإنْ طلبَ التشييدَ والتجصيصَ والسعةَ وارتفاعَ السقفِ أكثرَ مِنْ ستةِ أذرعٍ . . فقدْ جاوزَ بالكليَّةِ حدَّ الزهدِ في المسكنِ .

فاختلافُ جنسِ البناءِ بأنْ يكونَ بالجصِّ أوِ القصبِ أوْ بالطينِ أوْ بالآجرِّ ،

---

(١) **الخُصّ** : البيت من قصب ، وفي (أ) : (الخوص) وهو ورق النخل ، وهـٰذا الوسط كان وصف مسكن الأسوة الحسنة صلى الله عليه وسلم ، إذ لم تكن بيوت أزواجه عليه الصلاة والسلام من حجر أو لَبِن ، بل كانت من سعف وطين ، روى ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٤٣٠) عن عمران بن أبي أنس قال : (أدركت حُجَر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من جريد النخل علىٰ أبوابها المسوح من شعر أسود ، فحضرتُ كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ ، يأمر بإدخال حُجَر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم) .

واختلافُ قدرِهِ بالسعةِ والضيقِ ، واختلافُ طولِهِ بالإضافةِ إلى الأوقاتِ بأنْ يكونَ مملوكاً أوْ مستأجراً أوْ مستعاراً ، وللزهدِ مدخلٌ في جميعِ ذلكَ .

وبالجملةِ : كلُّ ما يُرادُ للضرورةِ فلا ينبغي أنْ يجاوزَ حدَّ الضرورةِ ، وقدْرُ الضرورةِ مِنَ الدنيا آلةُ الدينِ ووسيلتُهُ ، وما جاوزَ ذلكَ فهوَ مضادٌّ للدينِ ، والغرضُ مِنَ المسكنِ دفعُ المطرِ والبردِ ، ودفعُ الأعينِ والأيدي ، وأقلُّ الدرجاتِ فيه معلومٌ ، وما زادَ عليهِ فهوَ منَ الفضولِ ، والفضولُ كلُّهُ مِنَ الدنيا ، وطالبُ الفضولِ والساعي لهُ بعيدٌ مِنَ الزهدِ جداً .

وقدْ قيلَ : أوَّلُ شيءٍ ظهرَ مِنْ طولِ الأملِ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ التدريزُ والتشييدُ ، يعني بالتدريزِ : كفَّ دروزِ الثيابِ ؛ فإنَّها كانَتْ تُشلُّ شلاًّ[1] ، والتشييدُ هوَ البنيانُ بالجصِّ والآجرِّ ، وإنَّما كانوا يبنونَ بالسعفِ والجريدِ[2] ، وقدْ جاءَ في الأثرِ : (يأتي على الناسِ زمانٌ

---

(١) أي : تخاط خياطة خفيفة ، بخلاف الدرز الذي هو التدقيق فيها . روى الحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٩٥) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : لبس عمر قميصاً جديداً ثم قال : مدَّ كميَّ يا بني وألزق يدك بأطراف أصابعي واقطع ما فضل عنهما ، قال : فقطعت من الكمين ، فصار فم الكمين بعضه فوق بعض ، فقلت : لو سويته بالمقص ، قال : دعه يا بني ، هٰكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ، قال ابن عمر : فما زال القميص علىٰ أبي حتىٰ تقطَّع ، وما كنا نصلي حتىٰ رأيت بعض الخيوط تساقط علىٰ قدميه .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٦٠) والسياق عنده ، وعند البخاري (٤٤٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان علىٰ عهده مبنياً باللبن ، وسقفه الجريد ، وعمده خشب النخل .

يوشُّونَ بنيانَهُمْ كما تُوشَّى البرودُ اليمانيةُ)[١] .

وأمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ العباسَ أنْ يهدمَ عِلِّيَّةً كانَ قدْ علا بها[٢] ، ومرَّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بجُنْبُذةٍ معلاَّةٍ فقالَ : « لمَنْ هـٰذهِ » ؟ فقالوا : لفلانٍ ، فلمَّا جاءَهُ الرجلُ . . أعرضَ عنهُ ، فلمْ يكنْ يقبلُ عليهِ كما كانَ ، فسألَ الرجلُ أصحابَهُ عنْ تغيُّرِ وجهِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأُخبرَ ، فذهبَ فهدمَها ، فمرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالموضعِ فلمْ يرَها ، فأُخبرَ بأنَّهُ هدمَها ، فدعا لهُ بخيرٍ[٣] .

وقالَ الحسنُ : (ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولمْ يضعْ لبنةً علىٰ لبنةٍ ، ولا قصبةً علىٰ قصبةٍ)[٤] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ شرّاً . . أهلكَ مالَهُ في الماءِ والطينِ »[٥] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٦٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٨١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٤٢) .

(٣) رواه أبو داوود (٥٢٣٧) وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فرأىٰ قبة مشرفة . . . الحديث ، **والجنبذة** : لفظة فارسية معربة ، أصلها : گنبد ، وهي القبة .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٥٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٤٠) .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ١٨٥) من حديث جابر رضي الله عنه ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٣٥) من حديث محمد بن بشير الأنصاري .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : مرَّ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ونحنُ نعالجُ خُصّاً ، فقالَ : « ما هـٰذا ؟ » قلنا : خُصٌّ لنا قدْ وَهىٰ ، فقالَ : « أرى الأمرَ أعجلَ مِنْ ذلكَ »[1] .

واتخذَ نوحٌ عليهِ السلامُ بيتاً مِنْ قصبٍ ، فقيلَ لهُ : لوْ بنيتَ ، فقالَ : هـٰذا كثيرٌ لمَنْ يموتُ[2] .

وقالَ الحسنُ : دخلنا علىٰ صفوانَ بنِ مُحْرِزٍ وهوَ في بيتٍ مِنْ قصبٍ قدْ مالَ عليهِ ، فقيلَ لهُ : لوْ أصلحتَهُ ، فقالَ : كم مِنْ رجلٍ قدْ ماتَ وهـٰذا قائمٌ علىٰ حالِهِ[3] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ بنىٰ فوقَ ما يكفيهِ . كُلِّفَ أنْ يحملَهُ يومَ القيامةِ »[4] .

وفي الخبرِ : « كلُّ نفقةٍ يُؤجرُ عليها العبدُ إلا ما أنفقَهُ في الماءِ والطينِ »[5] .

---

(١) رواه أبو داوود (٥٢٣٥) ، والترمذي (٢٣٣٥) ، وابن ماجه (٤١٦٠) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٦٦) .
(٣) بنحوه عند ابن سعد في « طبقاته » (٩/١٤٨) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٤٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٢٧) .
(٥) رواه بنحوه ابن ماجه (٤١٦٣) ففيه : « إن العبد ليؤجر في نفقته كلها إلا في التراب » أو قال : « في البناء » .

وفي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أنَّهُ الرئاسةُ والتطاولُ في البنيانِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ بناءٍ وبالٌ علىٰ صاحبِهِ يومَ القيامةِ إلا ما أكنَّ مِنْ حرٍّ وبردٍ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للرجلِ الذي شكا إليهِ ضيقَ منزلِهِ : « اتسعْ في السماءِ » أيْ : في الجنَّةِ[2] .

ونظرَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ في طريقِ الشامِ إلىٰ صرحٍ قدْ بُنِيَ بجصٍّ وآجرٍّ ، فكبَّرَ وقالَ : (ما كنتُ أظنُّ أنْ يكونَ في هٰذهِ الأمَّةِ مَنْ يبني بنيانَ هامانَ لفرعونَ)[3] ؛ يعني قولَ فرعونَ : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ ؛ يعني بهِ الآجرَّ .

ويُقالُ : إنَّ فرعونَ هوَ أوَّلُ مَنْ بُنِيَ لهُ بالجصِّ والآجرِّ ، وأوَّلُ مَنْ عملَهُ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٦١) ، وهو عند أبي داوود (٥٢٣٧) في الحديث الذي فيه ذكر القبة المتقدم قريباً ، ولفظه : « أما إن كل بناء وبال علىٰ صاحبه إلا ما لا ، إلا ما لا » ؛ يعني : ما لا بد منه .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٦١) ، ورواه ابن شبة في « تاريخ المدينة » (١/ ٢٤٤) عن المغيرة بن عبد الرحمٰن ، وأبو داوود في « المراسيل » (٤٨٩) عن اليسع بن المغيرة ، كلاهما مرسلاً ، ووصله الطبراني في « الكبير » (٤/ ١١٧) من حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وهو الرجل الذي شكا ضيق مسكنه .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٦٠) .

هامانُ ، ثمَّ تبعَهُما الجبابرةُ ، وهـٰذا هوَ الزخرفُ(١) .

وذكرَ بعضُ السلفِ جامعاً في بعضِ الأمصارِ فقالَ : أدركتُ هـٰذا المسجدَ مبنياً مِنَ الجريدِ والسعفِ ، ثمَّ رأيتُهُ مبنياً مِنْ رهوصٍ ، ثمَّ رأيتُهُ الآنَ مبنياً باللَّبِنِ ، فكانَ أصحابُ السعفِ خيراً مِنْ أصحابِ الرهوصِ ، وكانَ أصحابُ الرهوصِ خيراً مِنْ أصحابِ اللَّبِنِ(٢) .

وكانَ في السلفِ مَنْ يبني دارَهُ مراراً في مدَّةِ عمرِهِ لضعفِ بنائِهِ ، وقصرِ أملِهِ ، وزهدِهِ في إحكامِ البنيانِ ، وكانَ منهُمْ مَنْ إذا حجَّ أوْ غزا . . نزعَ بيتَهُ أوْ وهبَهُ لجيرانِهِ ، فإذا رجعَ . . أعادَهُ ، وكانَتْ بيوتُهُمْ مِنَ الحشيشِ والجلودِ ، وهيَ عادةُ العربِ الآنَ ببلادِ اليمنِ(٣) .

وكانَ ارتفاعُ بناءِ السلفِ قامةً وبسطةً ، قالَ الحسنُ : (كنتُ إذا دخلتُ بيوتَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضربتُ بيدي إلى السقفِ)(٤) .

---

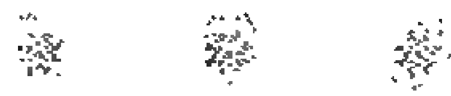
(١) قوت القلوب (١/ ٢٦٠) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٠) ، والرهوص : جمع رهْص ، وهو الطين الذي يبنىٰ به ، يجعل بعضه علىٰ بعض .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٦٠) .
(٤) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٤٣١) ، وفيه : (كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سُقُفَها بيدي) ، وقد روىٰ (١/ ٤٣٠) أيضاً في وصف بيوت النبي صلى الله عليه وسلم أنها من جريد قد طرَّت بالطين ، عليها مسوح شعر ، وقول أبي أمامة بن سهل يوم أدخِلت في مسجده صلى الله عليه وسلم زمن الوليد : (ليتها تركت فلم تهدم ؛ حتىٰ يقصر الناس عن البناء ، ويروا ما رضي الله لنبيِّه صلى الله عليه وسلم ومفاتيح خزائن الدنيا بيده) ، وقول سعيد بن =

وقالَ عمرو بنُ دينارٍ : (إذا عَلَّى العبدُ البناءَ فوقَ ستةِ أذرعٍ . . ناداهُ ملكٌ : إلىٰ أينَ يا أفسقَ الفاسقينَ ؟!)[1] .

وقدْ نهىٰ سفيانُ عنِ النظرِ إلىٰ بناءٍ مشيدٍ وقالَ : لولا نظرُ الناسِ . . لما شيدوهُ ، فالناظرُ إليهِ معينٌ عليهِ[2] .

وقالَ الفضيلُ : (إنِّي لا أعجبُ ممَّنْ بنىٰ وتركَ ، ولكنِّي أعجبُ ممَّنْ نظرَ إليهِ ولمْ يعتبرْ !)[3] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (يأتي قومٌ يرفعونَ الطينَ ، ويضعونَ الدينَ ، ويستعملونَ البراذينَ ، يصلُّون إلىٰ قبلتِكُمْ ، ويموتونَ علىٰ غيرِ دينِكُمْ) .



= المسيب : (والله ؛ لوددت أنهم تركوها علىٰ حالها ينشأ ناشىء من أهل المدينة ويقدم القادم من الأفق فيرىٰ ما اكتفىٰ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر) .

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٦٠) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا بنى الرجل المسلم سبعة أو تسعة أذرع . . ناداه مناد من السماء : أين تذهب يا أفسق الفاسقين ؟! » .

(٢) قال نحوه ليحيى بن يمان كما في « القوت » (١/ ٢٦٠) حين نظر إلىٰ باب مشيد ، فقال له سفيان : لا تنظر إليه ؛ إذا نظرت إليه . . كنت عوناً علىٰ بنائه ؛ لأنه إنما بناه لينظر إليه ، ولو كان كل من مر به لم ينظر إليه . . ما عمله .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩/ ٣٦٣) .

المهمُّ الرابعُ : أثاثُ البيتِ :

وللزهدِ فيهِ أيضاً درجاتٌ :

أعلاها : حالُ عيسىٰ عليهِ السلامُ ؛ إذْ كانَ لا يصحبُهُ إلا مشطٌ وكوزٌ ، فرأىٰ إنساناً يمشُطُ لحيتَهُ بأصابعِهِ ، فرمى المُشْطَ ، ورأىٰ آخرَ يشربُ مِنَ النهرِ بكفيهِ ، فرمى الكوزَ .

وهـٰذا حكمُ كلِّ أثاثٍ ، فإنَّهُ إنَّما يُرادُ لمقصودٍ ، فإذا استغنىٰ عنهُ . . فهوَ وبالٌ في الدنيا والآخرةِ ، وما لا يُستغنىٰ عنهُ فيقتصرُ فيهِ علىٰ أقلِّ الدرجاتِ ، وهوَ الخزفُ في كلِّ ما يكفي فيهِ الخزفُ ، ولا يبالي بأنْ يكونَ مكسورَ الطرفِ إذا كانَ المقصودُ يحصلُ بهِ .

وأوسطُها : أنْ يكونَ لهُ أثاثٌ بقدْرِ الحاجةِ صحيحٌ في نفسِهِ ، لكنْ يستعملُ الآلةَ الواحدةَ في مقاصدَ ؛ كالذي معَهُ قصعةٌ يشربُ فيها ، ويأكلُ الثريدَ فيها ، ويحفظُ المتاعَ فيها ، وكانَ السلفُ يستحبُّونَ استعمالَ آلةٍ واحدةٍ في أشياءَ للتخفيفِ .

وأدناها : أنْ يكونَ لهُ بعددِ كلِّ حاجةٍ آلةٌ مِنَ الجنسِ النازلِ الخسيسِ ، فإنْ زادَ في العددِ أو في نفاسةِ الجنسِ . . خرجَ عنْ جميعِ أبوابِ الزهدِ ، وركنَ إلىٰ طلبِ الفضولِ .

ولينظرْ إلىٰ سيرةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وسيرةِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، فقدْ قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ ضِجاعُ رسولِ اللهِ

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الذي ينامُ عليهِ وسادةً مِنْ أدمٍ حشوُها ليفٌ)[١] .

وقالَ الفضيلُ : (ما كانَ فراشُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا عباءةً مثنيَّةً ، ووسادةً مِنْ أدمٍ حشوُها ليفٌ)[٢] .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ دخلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ نائمٌ علىٰ سريرٍ مرمولٍ بشريطٍ ، فجلسَ ، فرأىٰ أثرَ الشريطِ في جنبِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فدمعَتْ عينا عمرَ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما الذي أبكاكَ يا بنَ الخطابِ ؟ » قالَ : ذكرتُ كسرىٰ وقيصرَ وما هما فيهِ مِنَ الملكِ ، وذكرتُكَ وأنتَ رسولُ اللهِ وحبيبُهُ وصفيُّهُ نائمٌ علىٰ سريرٍ مرمولٍ بالشريطِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما ترضىٰ يا عمرُ أنْ تكونَ لهُما الدنيا ولنا الآخرةُ ؟ » قالَ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فذلكَ كذلكَ »[٣] .

ودخلَ رجلٌ علىٰ أبي ذرٍّ ، فجعلَ يقلِّبُ بصرَهُ في بيتِهِ ، فقالَ : يا أبا ذرٍّ ؛ ما أرىٰ في بيتِكَ متاعاً ولا غيرَ ذلكَ مِنَ الأثاثِ ! فقالَ : إنَّ لنا بيتاً نوجِّهُ إليهِ صالحَ متاعِنا ، فقالَ : إنَّهُ لا بدَّ لكَ مِنْ متاعٍ ما دمتَ هٰهنا ،

---

(١) رواه البخاري (٦٤٥٦) ، وأبو داوود (٤١٤٧) ، والترمذي (١٧٦١) ، وابن ماجه (٤١٥١) ، **والضجاع** : كالفراش لفظاً ومعنىً .

(٢) رواه الترمذي في « الشمائل » (٣٢٩) بنحوه عن عائشة وحفصة رضي الله عنهما .

(٣) رواه بنحوه البخاري (٤٩١٣) ، ومسلم (١٤٧٩/ ٣١) ، وبلفظه هنا رواه البخاري في « الأدب المفرد » (١١٦٣) ، **والمرمول** : المنسوج ، يقال : أرملته ؛ إذا نسجته بشريطٍ من خوص أو ليف .

فقالَ : إنَّ صاحبَ المنزلِ لا يدعُنا فيهِ[1] .

ولمَّا قدمَ عميرُ بنُ سعدٍ أميرُ حمصَ علىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما . . قالَ لهُ : ما معَكَ مِنَ الدنيا ؟ فقالَ : معي عصايَ أتوكَّأُ عليها ، وأقتلُ بها حيَّةً إنْ لقيتُها ، ومعي جرابي أحملُ فيهِ طعامي ، ومعي قصعتي آكلُ فيها ، وأغسلُ فيها رأسي وثوبي ، ومعي مطهرتي أحملُ فيها شرابي ووضوئي للصلاةِ ، فما كانَ بعدَ هٰذا مِنَ الدنيا فهو تبعٌ لما معي ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : صدقتَ رحمَكَ اللهُ[2] .

وقدمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ سفرٍ ، فدخلَ علىٰ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها ، فرأىٰ علىٰ بابِ منزلِها ستراً ، وفي يدِها قُلْبينِ مِنْ فضةٍ ، فرجعَ ، فدخلَ عليها أبو رافعٍ وهيَ تبكي ، فأخبرَتْهُ برجوعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسألَهُ أبو رافعٍ ، فقالَ : « مِنْ أجلِ السترِ والسوارينِ » ، فأرسلَتْ بهِما بلالاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَتْ : قدْ تصدقتُ بهِما ، فضعْهُما حيثُ ترىٰ ، فقالَ : « اذهبْ فبعْهُ وادفعْهُ إلىٰ أهلِ الصفَّةِ » ، فباعَ القُلْبينِ بدرهمينِ ونصفٍ ، وتصدَّقَ بهِما عليهِمْ ، فدخلَ عليها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « بأبي أنتِ ، قدْ أحسنتِ »[3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٢٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٦٨) .
(٢) كذا في « القوت » (١/٢٥٧) ، وقد رواه ضمن خبر طويل الطبراني في « الكبير » (١٧/٥١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٤٨) .
(٣) كذا في « القوت » (١/٢٥٨) ، وروىٰ أبو داوود (٤٢١٣) عن ثوبان رضي الله عنه =

ورأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ بابِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ستراً ، فهتكَهُ وقالَ : « كلَّما رأيتُهُ .. ذكرتُ الدنيا ، أرسلي بهِ إلىٰ آلِ فلانٍ »[١] .

وفرشَتْ لهُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها ذاتَ ليلةٍ فراشاً جديداً ، وقدْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ينامُ علىٰ عباءةٍ مثنيَّةٍ ، فما زالَ يتقلَّبُ ليلتَهُ ، فلما أصبحَ .. قالَ لها : « أعيدي العباءةَ الخلقةَ ونحِّي هـٰذا الفراشَ عني ، قدْ أسهرَني الليلةَ »[٢] .

وكذلكَ أتتْهُ دنانيرُ خمسةٌ أوْ ستةٌ عشاءً فبيَّتَها ، فسهرَ ليلتَهُ حتَّىٰ أخرجَها مِنْ آخرِ الليلِ ، قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها ، فنامَ حينئذٍ حتَّىٰ سمعتُ

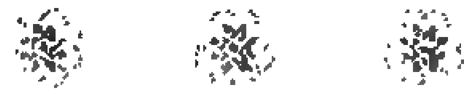
= قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر .. كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة ، وأول من يدخل عليها إذا قدم فاطمة ، فقدم من غزاة وقد علقت مسحاً أو ستراً علىٰ بابها ، وحلَّت الحسن والحسين قُلْبين من فضة ، فقدم ، فلم يدخل ، فظنت أن ما منعه أن يدخل ما رأىٰ ، فهتكت الستر ، وفككت القلبين عن الصبيين وقطعته بينهما ، فانطلقا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يبكيان ، فأخذه منهما وقال : « يا ثوبان ؛ اذهب بهـٰذا إلىٰ آل فلان ـ أهل بيت بالمدينة ـ إن هـٰؤلاء أهل بيتي أكره أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا ، يا ثوبان ؛ اشتر لفاطمة قلادة عصب وسوارين من عاج » ، والقُلْب : السوار .

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٩) ، ورواه مسلم (٢١٠٧/ ٨٨) من حديثها رضي الله عنها وفيه : « حوِّلي هـٰذا ، فإني كلما دخلت فرأيته .. ذكرت الدنيا » ، وعنده (٢١٠٧/ ٩١) : (ثم تناول الستر فهتكه) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٩) ، وهو بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها عند أبي الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٤٦٣) .

غطيطَهُ ، ثمَّ قالَ : « ما ظنُّ محمدٍ بربِّهِ لوْ لقيَ اللهَ وهـٰذهِ عندَهُ ؟ »[1] .

وقالَ الحسنُ : (أدركتُ سبعينَ مِنَ الأخيارِ ما لأحدِهِمْ إلا ثوبُهُ ، وما وضعَ أحدُهُمْ بينَهُ وبينَ الأرضِ ثوباً قطُّ ، كانَ إذا أرادَ النومَ . . باشرَ الأرضَ بجسمِهِ ، وجعلَ ثوبَهُ فوقَهُ)[2] .



المهمُّ الخامسُ : المنكحُ :

وقدْ قالَ قائلونَ : لا معنىٰ للزهدِ في أصلِ النكاحِ ولا في كثرتِهِ ، وإليهِ ذهبَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ ، وقالَ : (قدْ حُبِّبَ إلىٰ سيِّدِ الزاهدينَ النساءُ ، فكيفَ نزهدُ فيهِنَّ)[3] .

ووافقَهُ علىٰ هـٰذا القولِ ابنُ عيينةَ ، وقالَ : (كانَ أزهدَ الصحابةِ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، وكانَ لهُ أربعُ نسوةٍ وبضعَ عشرةَ سُرِّيَّةً)[4] .

والصحيحُ : ما قالَهُ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ ، إذْ قالَ : (كلُّ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٩) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٤٩) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه : « يا عائشة ؛ ما فعلتِ الذهب ؟ » فجاءت ما بين الخمسة إلى السبعة أو الثمانية أو التسعة ، فجعل يقلِّبها بيده ويقول : « ما ظن محمد بالله عز وجل لو لقيه وهـٰذه عنده ؟ أنفقيها » .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .

ما شغلَكَ عنِ اللهِ مِنْ أهلٍ ومالٍ وولدٍ . . فهوَ عليكَ مشؤومٌ)[١] ، والمرأةُ قدْ تكونُ شاغلاً عنِ اللهِ .

وكشْفُ الحقِّ فيهِ : أنَّهُ قدْ تكونُ العزوبةُ أفضلَ في بعضِ الأحوالِ كما سبقَ في كتابِ النكاحِ ، فيكونُ تركُ النكاحِ مِنَ الزهدِ .

وحيثُ يكونُ النكاحُ أفضلَ لدفعِ الشهوةِ الغالبةِ . . فهوَ واجبٌ ، فكيفَ يكونُ مِنَ الزهدِ تركُهُ ؟!

وإنْ لمْ يكنْ عليهِ آفةٌ في تركِهِ ولا في فعلِهِ ، ولكنْ تركَ النكاحَ احترازاً مِنْ ميلِ القلبِ إليهِنَّ والأنسِ بهِنَّ ؛ بحيثُ يشتغلُ عنْ ذكرِ اللهِ . . فترْكُ ذلكَ مِنَ الزهدِ .

وإنْ علمَ أنَّ المرأةَ لا تشغلُهُ عنْ ذكرِ اللهِ ، ولكنْ تركَ ذلكَ احترازاً مِنْ لذَّةِ النظرِ والمضاجعةِ والمواقعةِ . . فليسَ هـٰذا مِنَ الزهدِ أصلاً ، فإنَّ الولدَ مقصودٌ لبقاءِ نسلِهِ ، وتكثيرُ أمَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ القرباتِ ، واللذةُ التي تلحقُ الإنسانَ فيما هوَ مِنْ ضرورةِ الوجودِ لا تضرُّهُ إذا لمْ تكنْ هيَ المطلبَ والمقصدَ ، وهـٰذا كمَنْ تركَ أكلَ الخبزِ وشربَ الماءِ احترازاً مِنْ لذَّةِ الأكلِ والشربِ ، وليسَ ذلكَ مِنَ الزهدِ في شيءٍ ؛ لأنَّ في تركِ ذلكَ فواتَ بدنِهِ ، فكذلكَ في تركِ النكاحِ انقطاعُ نسلِهِ .

فلا يجوزُ أنْ يتركَ النكاحَ زهداً في لذَّتِهِ مِنْ غيرِ خوفِ آفةٍ أخرىٰ ، وهـٰذا

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣/ ٣٦٢) .

ما عناهُ سهلٌ لا محالةَ ، ولأجلِهِ نكحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وإذا ثبتَ هٰذا . . فمَنْ حالُهُ حالُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أنَّهُ لا يشغلُهُ كثرةُ النسوةِ ولا اشتغالُ القلبِ بإصلاحِهِنَّ والإنفاقِ عليهِنَّ . . فلا معنىٰ لزهدِهِ فيهِنَّ حذراً مِنْ مجرَّدِ لذَّةِ الوقاعِ والنظرِ ، ولكنْ أنَّىٰ يُتصوَّرُ ذلكَ لغيرِ الأنبياءِ والأولياءِ ؟! فأكثرُ الناسِ يشغلُهُمْ كثرةُ النسوانِ ، فينبغي أنْ يتركَ الأصلَ إنْ كانَ يشغلُهُ ، وإنْ لمْ يشغلْهُ وكانَ يخافُ مِنْ أنْ تشغلَهُ الكثرةُ منهُنَّ أوْ جمالُ المرأةِ . . فلينكحْ واحدةً غيرَ جميلةٍ ، وليراعِ قلبَهُ في ذلكَ .

قالَ أبو سليمانَ : (الزهدُ في النساءِ أنْ يختارَ المرأةَ الدونَ أوِ اليتيمةَ على المرأةِ الجميلةِ والشريفةِ)[1] .

وقالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ : (أحبُّ للمريدِ المبتدىءِ ألا يشغلَ قلبَهُ بثلاثٍ ، وإلا . . تغيَّرَ حالُهُ : التكسُّبُ ، وطلبُ الحديثِ ، والتزويجُ)[2] .

وقالَ : (أحبُّ للصوفيِّ ألا يقرأَ ولا يكتبَ ؛ لأنَّهُ أجمعُ لهمِّهِ)[3] .

فإذا ظهرَ أنَّ لذَّةَ النكاحِ كلذَّةِ الأكلِ . . فما يشغلُ عنِ اللهِ فهوَ محذورٌ فيهِما جميعاً .



---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) ، وقال : (وذهب إلىٰ هٰذا مالك بن دينار) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .

المهمُّ السادسُ : ما يكونُ وسيلةً إلىٰ هـٰذهِ الخمسةِ ، وهوَ المالُ والجاهُ :

أمَّا الجاهُ : فمعناهُ ملكُ القلوبِ بطلبِ محلٍّ فيها ؛ ليتوصَّلَ بهِ إلى الاستعانةِ في الأغراضِ والأعمالِ ، وكلُّ مَنْ لا يقدرُ على القيامِ بنفسهِ في جميعِ حاجاتِهِ ، وافتقرَ إلىٰ مَنْ يخدمُهُ . . افتقرَ إلىٰ جاهٍ ـ لا محالةَ ـ في قلبِ خادمِهِ ؛ لأنَّهُ إنْ لمْ يكنْ لهُ عندَهُ محلٌّ وقدْرٌ . . لمْ يقمْ بخدمتِهِ ، وقيامُ القدرِ والمحلِّ في القلوبِ هوَ الجاهُ .

وهـٰذا لهُ أوَّلُ قريبٌ ، ولكنْ يتمادىٰ بهِ إلىٰ هاويةٍ لا عمقَ لها ، ومَنْ حامَ حولَ الحمىٰ . . يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ ، وإنَّما يحتاجُ إلى المحلِّ في القلوبِ إمَّا لجلبِ نفعٍ ، أوْ لدفعِ ضرٍّ ، أوْ لخلاصٍ مِنْ ظلمٍ .

فأمَّا النفعُ . . فيغني عنهُ المالُ ، فإنَّ مَنْ يخدمُ بأجرةٍ يخدمُ وإنْ لمْ يكنْ للمستأجرِ عندَهُ قدْرٌ ، وإنَّما يُحتاجُ إلى الجاهِ في قلبِ مَنْ يخدمُ بغيرِ أجرةٍ .

وأمَّا دفعُ الضرِّ . . فيحتاجُ لأجلِهِ إلى الجاهِ في بلدةٍ لا يكملُ العدلُ فيها ، أوْ أنْ يكونَ بينَ جيرانٍ يظلمونَهُ ولا يقدرُ علىٰ دفعِ شرِّهِمْ إلا بمحلٍّ لهُ في القلوبِ ، أوْ محلٍّ لهُ عندَ السلطانِ ، وقدْرُ الحاجةِ فيهِ لا ينضبطُ ، لا سيما إذا انضمَّ إليهِ الخوفُ وسوءُ الظنِّ بالعواقبِ .

والخائضُ في طلبِ الجاهِ سالكٌ طريقَ الهلاكِ ، بلْ حقُّ الزاهدِ ألا يسعىٰ لطلبِ المحلِّ في القلوبِ أصلاً ، فإنَّ اشتغالَهُ بالدينِ والعبادةِ يمهدُ لهُ مِنَ المحلِّ في القلوبِ ما يدفعُ بهِ عنهُ الأذىٰ ولوْ كانَ بينَ الكفَّارِ ، فكيفَ بينَ

المسلمينَ ؟! فأمَّا التوهُّماتُ والتقديراتُ التي تحوجُ إلىٰ زيادةٍ في الجاهِ على الحاصلِ بغيرِ كسبٍ . . فهيَ أوهامٌ كاذبةٌ ؛ إذْ مَنْ طلبَ الجاهَ أيضاً لمْ يخلُ عنْ أذىً في بعضِ الأحوالِ ، فعلاجُ ذلكَ بالاحتمالِ والصبرِ أولىٰ مِنْ علاجِهِ بطلبِ الجاهِ .

فإذاً ؛ طلبُ المحلِّ في القلوبِ لا رخصةَ فيهِ أصلاً ، واليسيرُ منهُ داعٍ إلى الكثيرِ ، وضراوتُهُ أشدُّ مِنْ ضراوةِ الخمرِ ، فليحترزْ مِنْ قليلِهِ وكثيرِهِ .

وأمَّا المالُ : فهوَ ضروريٌّ في المعيشةِ ؛ أعني القليلَ منهُ ، فإنْ كانَ كسوباً ؛ فإذا اكتسبَ حاجةَ يومِهِ . . فينبغي أنْ يتركَ الكسبَ ، كانَ بعضُهُمْ إذا اكتسبَ حبَّتينِ . . رفعَ سفطَهُ وقامَ . هٰذا شرطُ الزهدِ .

فإنْ جاوزَ ذلكَ إلىٰ ما يكفيهِ أكثرَ مِنْ سنةٍ . . فقدْ خرجَ عنْ حدِّ ضعفاءِ الزهَّادِ وأقويائِهِمْ جميعاً ، وإنْ كانَتْ لهُ ضيعةٌ ولمْ يكنْ لهُ قوَّةُ يقينٍ في التوكُّلِ ، فأمسكَ منها مقدارَ ما يكفي ريعَهُ لسنةٍ واحدةٍ . . فلا يخرجُ بهٰذا القدْرِ عنِ الزهدِ ، بشرطِ أنْ يتصدَّقَ بكلِّ ما يفضلُ عنْ كفايةِ سنتِهِ ، ولكنْ يكونُ مِنْ ضعفاءِ الزهَّادِ ؛ فإنْ شُرِطَ التوكُّلُ في الزهدِ كما شرطَهُ أويسٌ القرنيُّ رحمهُ اللهُ . . فلا يكونُ هٰذا مِنَ الزهَّادِ ، وقولُنا : (إنَّهُ خرجَ مِنْ حدِّ الزهَّادِ) نعني بهِ : أنَّ ما وُعدَ للزاهدينَ في الدارِ الآخرةِ مِنَ المقاماتِ المحمودةِ لا ينالُهُ ، وإلا . . فاسمُ الزهدِ قدْ لا يفارقُهُ بالإضافةِ إلىٰ ما زُهِدَ فيهِ مِنَ الفضولِ والكثرةِ .

وأمرُ المنفردِ في جميعِ ذلكَ أخفُّ مِنْ أمرِ المعيلِ ، وقدْ قالَ أبو سليمانَ : (لا ينبغي أنْ يرهقَ الرجلُ أهلَهُ إلى الزهدِ ، بلْ يدعوهُمْ إليهِ ، فإنْ أجابوا ، وإلا . . تركَهُمْ وفعلَ بنفسِهِ ما شاءَ) ؛ معناهُ : أنَّ التضييقَ المشروطَ على الزاهدِ يخصُّهُ ولا يلزمُهُ كلُّ ذلكَ في عيالِهِ ، نعمْ ، لا ينبغي أنْ يجيبَهُمْ أيضاً فيما يخرجُ عنْ حدِّ الاعتدالِ ، وليتعلَّمْ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذِ انصرفَ مِنْ بيتِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها بسببِ سترٍ وقُلْبينِ ؛ لأنَّ ذلكَ مِنَ الزينةِ لا مِنَ الحاجةِ .

فإذاً ؛ ما يُضطرُّ الإنسانُ إليهِ مِنْ جاهٍ ومالٍ ليسَ بمحذورٍ ، بلِ الزائدُ على الحاجةِ سمٌّ قاتلٌ ، والاقتصارُ على قدْرِ الضرورةِ دواءٌ نافعٌ ، وما بينَهُما درجاتٌ متشابهةٌ ، فما يقربُ مِنَ الزيادةِ وإنْ لمْ يكنْ سمّاً قاتلاً . . فهوَ مضرٌّ ، وما يقربُ مِنَ الضرورةِ . . فهوَ وإنْ لمْ يكنْ دواءً نافعاً ولكنَّهُ قليلُ الضررِ ، والسمُّ محظورٌ شربُهُ ، والدواءُ فرضٌ تناولُهُ ، وما بينَهُما مشتبهٌ أمرُهُ ، فمَنِ احتاطَ . . فإنَّما يحتاطُ لنفسِهِ ، ومَنْ تساهلَ . . فإنَّما يتساهلُ على نفسِهِ ، ومَنِ استبرأَ لدينِهِ ، وتركَ ما يريبُهُ إلى ما لا يريبُهُ ، وردَّ نفسَهُ إلى مضيقِ الضرورةِ . . فهوَ الآخذُ بالحزمِ ، وهوَ مِنَ الفرقةِ الناجيةِ لا محالةَ .

والمقتصرُ على قدْرِ الضرورةِ والمهمِّ لا يجوزُ أنْ يُنسبَ إلى الدنيا ، بلْ ذلكَ القدْرُ مِنَ الدنيا هوَ عينُ الدينِ ؛ لأنَّهُ شرطُ الدينِ ، والشرطُ مِنْ جملةِ المشروطِ ، ويدلُّ عليهِ ما رُوِيَ أنَّ إبراهيمَ الخليلَ عليهِ السلامُ أصابَتْهُ

حاجةٌ ، فذهبَ إلىٰ صديقٍ لهُ يستقرضُهُ شيئاً ، فلمْ يقرضْهُ ، فرجعَ مهموماً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : لوْ سألتَ خليلَكَ . . لأعطاكَ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ عرفتُ مقتَكَ للدنيا ، فخفتُ أنْ أسألَكَ منها شيئاً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : ليسَ الحاجةُ مِنَ الدنيا[1] .

فإذاً ؛ قدْرُ الحاجةِ مِنَ الدينِ ، وما وراءَ ذلكَ وبالٌ في الآخرةِ ، وهوَ في الدنيا أيضاً كذلكَ ، يعرفُهُ مَنْ يخبُرُ أحوالَ الأغنياءِ ، وما عليهِمْ مِنَ المحنةِ في كسبِ المالِ وجمعِهِ وحفظِهِ واحتمالِ الذلِّ فيهِ ، وغايةُ سعادتِهِ بهِ أنْ يُسلَّمَ لورثتِهِ فيأكلونَهُ وربَّما يكونونَ أعداءً لهُ ، وقدْ يستعينونَ بهِ على المعصيةِ ، فيكونُ هوَ معيناً لهُمْ عليها .

ولذلكَ شُبِّهَ جامعُ الدنيا ومتبعُ الشهواتِ بدودِ القزِّ ، لا يزالُ ينسجُ علىٰ نفسِهِ حتَّىٰ يقتلَها ، ثمَّ يرومُ الخروجَ فلا يجدُ مخلصاً ، فيموتُ ويهلكُ بسببِ عملِهِ الذي عملَهُ بنفسِهِ ، فكذلكَ كلُّ مَنِ اتبعَ شهواتِ الدنيا فإنَّما يحكمُ علىٰ قلبِهِ بسلاسلَ تقيِّدُهُ بما يشتهيهِ ، حتَّىٰ تتظاهرَ عليهِ السلاسلُ ، فيقيدَهُ المالُ ، والجاهُ ، والأهلُ ، والولدُ ، وشماتةُ الأعداءِ ، ومراءاةُ الأصدقاءِ ، وسائرُ حظوظِ الدنيا ، فلوْ خطرَ لهُ أنَّهُ قدْ أخطأَ فيهِ ، فقصدَ الخروجَ مِنَ الدنيا . . لمْ يقدرْ عليهِ ، ورأىٰ قلبَهُ مقيَّداً بسلاسلَ وأغلالٍ لا يقدرُ علىٰ قطعِها ، ولوْ تركَ محبوباً مِنْ محابِّهِ باختيارِهِ . . كادَ أنْ يكونَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٤٥) .

قاتلاً لنفسِهِ ، وساعياً في هلاكِهِ ، إلىٰ أنْ يفرِّقَ ملكُ الموتِ بينَهُ وبينَ جميعِها دفعةً واحدةً ، فتبقى السلاسلُ مِنْ قلبِهِ معلَّقةً بالدنيا التي فاتَتْهُ وخلَّفَها ، فهيَ تجاذبُهُ إلى الدنيا ، ومخالبُ ملكِ الموتِ قدْ علقَتْ بعروقِ قلبِهِ تجذبُهُ إلى الآخرةِ ، فيكونُ أهونُ أحوالِهِ عندَ الموتِ أنْ يكونَ كشخصٍ يُنشرُ بالمنشارِ ، ويُفصلُ أحدُ جانبيهِ عنِ الآخرِ بالمجاذبةِ مِنَ الجانبينِ ، والذي يُنشرُ بالمنشارِ إنَّما ينزلُ الألمُ ببدنِهِ ، ويألمُ قلبُهُ بذلكَ بطريقِ السرايةِ مِنْ حيثُ أثرُهُ ، فما ظنُّكَ بألمٍ يتمكَّنُ أوَّلاً مِنْ صميمِ القلبِ ، مخصوصاً بهِ لا بطريقِ السرايةِ إليهِ مِنْ غيرِهِ ؟!

فهٰذا أوَّلُ عذابٍ يلقاهُ قبلَ ما يراهُ مِنْ حسرةِ فوتِ النزولِ في أعلىٰ علِّيِّينَ ، وجوارِ ربِّ العالمينَ ، فبالنزوعِ إلى الدنيا يُحجبُ عنْ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، وعندَ الحجابِ تتسلَّطُ عليهِ نارُ جهنَّمَ ؛ إذِ النارُ غيرُ مسلَّطةٍ إلا علىٰ محجوبٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ، فرتَّبَ العذابَ بالنارِ علىٰ ألمِ الحجابِ ، وألمُ الحجابِ كافٍ مِنْ غيرِ علاوةِ النارِ ، فكيفَ إذا أُضيفَتِ العلاوةُ إليهِ ؟! فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يقرِّرَ في أسماعِنا ما نُفِثَ في رُوعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قيلَ لهُ : « أحببْ ما أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ »[1] .

---

(١) كذا في النسخ : « أحبب ما » ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) بلفظ : « أحبب من » .

وفي معنىٰ ما ذكرناهُ مِنَ المثالِ قولُ الشاعرِ[1] :　　[من الطويل]

كَـدُودٌ كَـدُودِ ٱلْقَـزِّ يَنْسُـجُ دائِمـاً　　وَيَهْلَكُ غَمّاً وَسْطَ ما هُوَ ناسِجُهْ

ولمَّا انكشفَ لأولياءِ اللهِ تعالىٰ أنَّ العبدَ مهلكٌ نفسَهُ بأعمالِهِ واتباعِهِ هوىٰ نفسِهِ إهلاكَ دودِ القزِّ نفسَهُ.. رفضوا الدنيا بالكلِّيَّةِ ، حتَّىٰ قالَ الحسنُ : (رأيتُ سبعينَ بدريّاً كانوا فيما أحلَّ اللهُ لهُمْ أزهدَ منكُمْ فيما حرَّمَ اللهُ عليكُمْ) ، وفي لفظٍ آخرَ : (كانوا بالبلاءِ أشدَّ فرحاً منكُمْ بالخصبِ والرخاءِ ، لوْ رأيتُموهُمْ.. قلتُمْ : مجانينَ ، ولوْ رأَوا خيارَكُمْ.. قالوا : ما لهؤلاءِ مِنْ خلاقٍ ، ولوْ رأَوا شرارَكُمْ.. قالوا : ما يؤمنُ هؤلاءِ بيومِ الحسابِ ، وكانَ أحدُهُمْ يعرضُ لهُ المالُ الحلالُ فلا يأخذُهُ ، ويقولُ : أخافُ أنْ يفسدَ عليَّ قلبي)[2] .

فمَنْ كانَ لهُ قلبٌ فهوَ ـ لا محالةَ ـ يخافُ مِنْ فسادِهِ ، والذينَ أماتَ حبُّ الدنيا قلوبَهُمْ فقدْ أخبرَ اللهُ عنهُمْ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ ، فأحالَ ذلكَ كلَّهُ على الغفلةِ وعدمِ العلمِ .

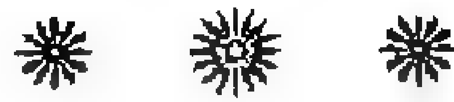
---

(١) البيت لأبي الفتح البستي في « ديوانه » (ص٤١٧) ، وكدود : فعول من الكدّ ، وهو التعب .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٥) ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٣٤) .

ولذلكَ قالَ رجلٌ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : احملْني معَكَ في سياحتِكَ ، فقالَ : أخرجْ مالَكَ والحقْني ، فقالَ : لا أستطيعُ ، فقالَ عليهِ السلامُ : بعجبٍ يدخلُ الغنيُّ الجنَّةَ ، أوْ قالَ : بشدةٍ[١] .

وقالَ بعضُهُمْ : ما مِنْ يومٍ ذرَّ شارقُهُ إلا وأربعةُ أملاكٍ ينادونَ في الآفاقِ بأربعةِ أصواتٍ ؛ ملكانِ بالمشرقِ ، وملكانِ بالمغربِ ، يقولُ أحدُهُمْ بالمشرقِ : يا باغيَ الخيرِ هلمَّ ، ويا باغيَ الشرِّ أقصرْ ، ويقولُ الآخرُ : اللهمَّ ؛ أعطِ منفقاً خلفاً ، وأعطِ ممسكاً تلفاً ، ويقولُ أحدُ اللذينِ في المغربِ : لدوا للموتِ وابنوا للخرابِ ، ويقولُ الآخرُ : كلوا وتمتَّعوا لطولِ الحسابِ[٢] .



(١) قوت القلوب (١/٢٥٦) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٨) بنحوه .

(٢) كذا في « القوت » (١/٢٦٢) ، وعند البخاري (١٤٤٢) ، ومسلم (١٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم ؛ أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم ؛ أعط ممسكاً تلفاً » ، وروىٰ أبو الشيخ في « العظمة » (٥١٧) نحو هـٰذا وزاد : « وملك بباب آخر ينادي : يا أيها الناس ؛ هلموا إلىٰ ربكم ، ما قلَّ وكفىٰ خير مما كثر وألهىٰ ، وملك بباب آخر ينادي : يا بني آدم ؛ لدوا للموت وابنوا للخراب » .

بيان علامات الزهد

اعلمْ : أنَّهُ قدْ يُظنُّ أنَّ تاركَ المالِ زاهدٌ ، وليسَ كذلكَ ، فإنَّ تركَ المالِ وإظهارَ الخشونةِ سهلٌ علىٰ مَنْ أحبَّ المدحَ بالزهدِ ، فكمْ مِنَ الرهابينِ(١) مَنْ ردُّوا أنفسَهُمْ كلَّ يومٍ إلىٰ قدْرٍ يسيرٍ مِنَ الطعامِ ، ولازموا ديراً لا بابَ لهُ ، وإنَّما مسرَّةُ أحدِهِمْ معرفةُ الناسِ حالَهُ ونظرُهُمْ إليهِ ومدحُهُمْ لهُ ، فذلكَ لا يدلُّ على الزهدِ دلالةً قاطعةً ، بلْ لا بدَّ مِنَ الزهدِ في المالِ والجاهِ جميعاً ؛ حتَّىٰ يكملَ الزهدُ في جميعِ حظوظِ النفسِ مِنَ الدنيا .

بل قدْ يدَّعي جماعةٌ الزهدَ معَ لبسِ الأصوافِ الفاخرةِ والثيابِ الرفيعةِ ، كما قالَ الخوَّاصُ في وصفِ المدَّعينَ إذْ قالَ : (وقومٌ ادعَوُا الزهدَ ، ولبسوا الفاخرَ مِنَ اللباسِ ، يموِّهونَ بذلكَ على الناسِ ليُهدىٰ إليهِمْ مثلُ لباسِهِمْ ، لئلا يُنظرَ إليهِمْ بالعينِ التي يُنظرُ بها إلى الفقراءِ فيُحتقروا ، فيُعطَوا كما تُعطى المساكينُ ، ويحتجُّون لنفوسِهِمْ باتباعِ العلمِ(٢) ، وأنَّهُمْ على السنَّةِ ، وأنَّ الأشياءَ داخلةٌ عليهِمْ وهمْ خارجونَ منها ، وإنَّما يأخذونَ بعلَّةِ غيرِهِمْ ، هـٰذا إذا طُولبوا بالحقائقِ وأُلجئوا إلى المضايقِ ، وكلُّ هؤلاءِ أكلةُ الدنيا بالدينِ ، لمْ يُعنَوا بتصفيةِ أسرارِهِمْ ، ولا بتهذيبِ أخلاقِ نفوسِهِمْ ،

---

(١) رهابين : جمع رهبان ، ورهبان لفظ يطلق على الواحد والجمع .

(٢) في « القوت » (١/ ٢٦٠) : (باتساع العلم) .

فظهرَتْ عليهِمْ صفاتُهُمْ ، فغلبَتْهُمْ ، فادعَوها حالاً لهُمْ ، منهُمْ مائلونَ إلى الدنيا ، متبعونَ للهوىٰ) ، فهـٰذا كلُّهُ كلامُ الخوَّاصِ رحمهُ الله(١) .

فإذاً ؛ معرفةُ الزهدِ أمرٌ مشكلٌ ، بلْ حالُ الزاهدِ على الزاهدِ مشكلٌ(٢) ، وينبغي أنْ يعوِّلَ في باطنِهِ علىٰ ثلاثِ علاماتٍ :

العلامةُ الأولىٰ : ألا يفرحَ بموجودٍ ، ولا يحزنَ علىٰ مفقودٍ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ بالضدِّ مِنْ ذلكَ ، وهوَ أنْ يحزنَ بوجودِ المالِ ، ويفرحَ بفقدِهِ .

* * *

والعلامةُ الثانيةُ : أنْ يستويَ عندَهُ ذامُّهُ ومادحُهُ ، فالأوَّلُ علامةُ الزهدِ في المالِ ، والثاني علامةُ الزهدِ في الجاهِ(٣) .

* * *

(١) حكاه في كتابه « شرف الفقراء » الذي سبقت الإشارة إليه ، ونقله عنه صاحب « القوت » (١/ ٢٦٠) ، وقال : (وكان الخواص رحمه الله تعالىٰ لا يلبس أكثر من قطعتين ؛ إزارين ، وقميص ومئزر تحته ، يعطف ذيل قميصه علىٰ رأسه ، ويغطي به رأسه ، وكذلك استحب للفقير هـٰذا اللباس) .

(٢) في (ق) : (وحال الزهد على الزاهد مشكل) .

(٣) وقد روى البيهقي في « الشعب » (١٠٢٨٩) عن يونس بن ميسرة الجبلاني : (ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله عز وجل أوثق منك بما في يدك ، وأن يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء ، وأن يكون مادحك وذامُّك في الحق سواء) .

والعلامةُ الثالثةُ : أنْ يكونَ أنسُهُ باللهِ تعالىٰ ، والغالبُ علىٰ قلبِهِ حلاوةَ الطاعةِ ، إذْ لا يخلو القلبُ عنْ حلاوةِ المحبَّةِ ؛ إمَّا محبةُ الدنيا ، وإمَّا محبةُ اللهِ ، وهما في القلبِ كالماءِ والهواءِ في القدحِ ، فالماءُ إذا دخلَ . . خرجَ الهواءُ ، ولا يجتمعانِ ، وكلُّ مَنْ أنسَ باللهِ . . اشتغلَ بهِ ولمْ يشتغلْ بغيرِهِ .

ولذلكَ قيلَ لبعضِهِمْ : إلىٰ ماذا أفضىٰ بهِمُ الزهدُ ؟ فقالَ : إلى الأنسِ باللهِ[1] .

فأمَّا الأنسُ بالدنيا وباللهِ . . فلا يجتمعانِ ، وقدْ قالَ أهلُ المعرفةِ : إذا تعلَّقَ الإيمانُ بظاهرِ القلبِ . . أحبَّ الدنيا والآخرةَ جميعاً وعملَ لهُما ، وإذا بطنَ الإيمانُ في سويداءِ القلبِ وباشرَهُ . . أبغضَ الدنيا ، فلمْ ينظرْ إليها ، ولمْ يعملْ لها[2] .

ولهـٰذا وردَ في دعاءِ آدمَ عليهِ السلامُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ إيماناً يباشرُ قلبي)[3] .

وقالَ أبو سليمانَ : (مَنْ شُغِلَ بنفسِهِ . . شُغلَ عنِ الناسِ ، وهـٰذا مقامُ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٩٢) ، والسائل هو مضاء بن عيسىٰ ، والمجيب هو سباع الموصلي .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٧٠) .
(٣) قاله عليه السلام لما أهبط إلى الأرض ؛ كما روىٰ ذلك الطبراني في « الأوسط » (٥٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها .

العاملينَ ، ومَنْ شُغِلَ بربِّهِ . . شُغلَ عنْ نفسِهِ ، وهـٰذا مقامُ العارفينَ)[1] ، والزاهدُ لا بدَّ وأنْ يكونَ في أحدِ هـٰذينِ المقامينِ ، ومقامُهُ الأوَّلُ : أنْ يشغلَ نفسَهُ بنفسِهِ ، وعندَ ذلكَ يستوي عندَهُ الذمُّ والمدحُ والوجودُ والعدمُ .

ولا يُستدلُّ بإمساكِهِ قليلاً مِنَ المالِ علىٰ فقْدِ زهدِهِ أصلاً .

قالَ ابنُ أبي الحواري : قلتُ لأبي سليمانَ : أكانَ داوودُ الطائيُّ زاهداً ؟ قالَ : نعمْ ، قلتُ : قدْ بلغَني أنَّهُ ورثَ عنْ أبيهِ عشرينَ ديناراً ، فأنفقَها في عشرينَ سنةً ، فكيفَ كانَ زاهداً وهوَ يمسكُ الدنانيرَ ؟ فقالَ : أردتَ منهُ أنْ يبلغَ حقيقةَ الزهدِ ؟![2]

وأرادَ بالحقيقةِ الغايةَ ؛ فإنَّ الزهدَ ليسَ لهُ غايةٌ ؛ لكثرةِ صفاتِ النفسِ ، ولا يتمُّ الزهدُ إلا بالزهدِ في جميعِها ، فكلُّ مَنْ تركَ مِنَ الدنيا شيئاً معَ القدرةِ عليهِ خوفاً علىٰ قلبِهِ وعلىٰ دينِهِ . . فلهُ مدخلٌ في الزهدِ بقدْرِ ما تركَهُ ، وآخرُهُ أنْ يتركَ كلَّ ما سوى اللهِ ، حتَّىٰ لا يتوسَّدَ حجراً ؛ كما فعلَهُ عيسىٰ عليهِ السلامُ[3] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٧٠) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٧٠) ، وهـٰذا أيضاً يقال فيه : هو علىٰ مذهب من يشرط التوكل في الزهد ، ورواية أنه ورث عن أبيه . . . رواها القشيري في « رسالته » (ص٥٩) ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٤٧) : (ورث عن أبيه دنانير ، فكان ينفق فيها حتىٰ كفِّن بآخرها) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٥٥٧) .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يرزقَنا مِنْ مباديهِ نصيباً وإنْ قلَّ ، فإنَّ أمثالَنا لا يستجرىءُ على الطمعِ في غاياتِهِ ، وإنْ كانَ قطعُ الرجاءِ عنْ فضْلِ اللهِ غيرَ مأذونٍ فيهِ ، وإذا لاحظنا عجائبَ نعمِ اللهِ تعالىٰ علينا . . علمنا أنَّ اللهَ تعالىٰ لا يتعاظمُهُ شيءٌ ، فلا بُعْدَ في أنْ نعظِّمَ السؤالَ اعتماداً على الجودِ المجاوزِ لكلِّ كمالٍ(١) .



فإذاً ؛ علامةُ الزهدِ : استواءُ الغنىٰ والفقرِ ، والعزِّ والذلِّ ، والمدحِ والذمِّ ، وذلكَ لغلبةِ الأنسِ باللهِ ، ويتفرَّعُ عنْ هـٰذهِ العلاماتِ علاماتٌ أخرُ لا محالةَ ، مثلُ أنْ يتركَ الدنيا ولا يباليَ مَنْ أخذَها(٢) .

وقيلَ : (علامتُهُ : أنْ يتركَ الدنيا كما هيَ ، ولا يقولَ : أبني رباطاً ، أوْ أعمرُ مسجداً)(٣) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (علامةُ الزهدِ : السخاءُ بالموجودِ)(٤) .

وقالَ ابنُ خفيفٍ : (علامتُهُ : وجودُ الراحةِ في الخروجِ مِنَ الملكِ)(٥) .

---

(١) فما لا يدرك كله لا يترك كله ، ومن فاته من الكمال وبله لا يفوته طله . « إتحاف » (٩/ ٣٧٤) .

(٢) قاله أبو عثمان المغربي كما هو عند القشيري في « رسالته » (ص٢١٩) .

(٣) وهو قول الأستاذ أبي علي الدقاق كما هو عند القشيري في « رسالته » (ص٢١٩) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص٢١٩) ، وفيها : (الزهد يورث السخاء بالملك ، والحب يورث السخاء بالروح) .

(٥) الرسالة القشيرية (ص٢٢٠) .

وقالَ أيضاً : (الزهدُ هوَ عزوفُ النفسِ عنِ الدنيا بلا تكلُّفٍ)[1] .

وقالَ أبو سليمانَ : (الصوفُ عَلَمٌ مِنْ أعلامِ الزهدِ ، فلا ينبغي أنْ يلبسَ صوفاً بثلاثةِ دراهمَ وفي قلبِهِ رغبةُ خمسةِ دراهمَ)[2] .

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ وسفيانُ : (علامةُ الزهدِ : قصرُ الأملِ)[3] .

وقالَ سريٌّ : (لا يطيبُ عيشُ الزاهدِ إذا اشتغلَ عنْ نفسِهِ ، ولا يطيبُ عيشُ العارفِ إذا اشتغلَ بنفسِهِ)[4] .

وقالَ النصراباذيُّ : (الزاهدُ غريبٌ في الدنيا ، والعارفُ غريبٌ في الآخرةِ)[5] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (علامةُ الزهدِ ثلاثٌ : عملٌ بلا علاقةٍ ، وقولٌ بلا طمعٍ ، وعزٌّ بلا رئاسةٍ)[6] .

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٢٢٠) دون نسبة .
(٢) الرسالة القشيرية (ص٢٢٠) .
(٣) الرسالة القشيرية (ص٢٢٠) ، والقول لهما ولعيسى بن يونس وغيرهم .
(٤) الرسالة القشيرية (ص٢٢١) ، وفي هـٰذا المعنىٰ روى البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٢٩) أنه قيل للجنيد : ما تقول في رجل ما بقي عليه من الدنيا غير مصِّ النوىٰ ، هل بقي عليه من الدنيا شيء ؟ قال : نعم ، هـٰكذا علمنا نبينا صلى الله عليه وسلم : « إن المكاتب عبد ما بقي عليه درهم » . وهـٰذا بخلاف العارف الذي لا شغل له عن الله تعالىٰ ، فإذا اشتغل بنفسه . . لم تطب نفسه .
(٥) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٢٠) .
(٦) الرسالة القشيرية (ص٢٢١) .

وقالَ أيضاً : (الزاهدُ يسعطُكَ الخلَّ والخردلَ ، والعارفُ يشِمُّكَ المسكَ والعنبرَ)[1] .

وقالَ لهُ رجلٌ : متىٰ أدخلُ حانوتَ التوكُّلِ ، وألبسُ رداءَ الزهدِ ، وأقعدُ معَ الزاهدينَ ؟ فقالَ : إذا صرتَ مِنْ رياضتِكَ لنفسِكَ في السرِّ إلىٰ حدٍّ لوْ قطعَ اللهُ عنكَ الرزقَ ثلاثةَ أيامٍ . . لمْ تضعفْ في نفسِكَ ، فأمَّا ما لمْ تبلغْ هـٰذهِ الدرجةَ . . فجلوسُكُ علىٰ بساطِ الزاهدينَ جهلٌ ، ثمَّ لا آمنُ عليكَ أنْ تفتضحَ[2] .

وقالَ أيضاً : (الدنيا كالعروسِ ، ومَنْ يطلبُها ماشطتُها ، والزاهدُ فيها يسخِّمُ وجهَها ، وينتفُ شعرَها ، ويخرقُ ثوبَها ، والعارفُ يشتغلُ باللهِ تعالىٰ ولا يلتفتُ إليها)[3] .

وقالَ السريُّ : (مارستُ كلَّ شيءٍ مِنْ أمرِ الزهدِ ، فنلتُ منهُ ما أريدُ ، إلا الزهدَ في الناسِ ، فإنِّي لمْ أبلغْهُ ولمْ أطقْهُ)[4] .

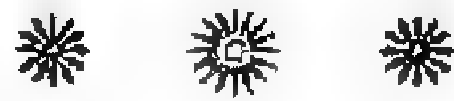
وقالَ الفضيلُ رحمهُ اللهُ : (جعلَ اللهُ الشرَّ كلَّهُ في بيتٍ ، وجعلَ مفتاحَهُ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٢٢١) .
(٢) الرسالة القشيرية (ص٢٢٢) .
(٣) الرسالة القشيرية (ص٢٢٢) ، وبعضه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٥٣) بزيادة أخرىٰ .
(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٢٣) .

حبَّ الدنيا ، وجعلَ الخيرَ كلَّهُ في بيتٍ ، وجعلَ مفتاحَهُ الزهدَ في الدنيا)[1] .

فهٰذا ما أردنا أنْ نذكرَهُ مِنْ حقيقةِ الزهدِ وأحكامِهِ ، وإذا كانَ الزهدُ لا يتمُّ إلا بالتوكُّلِ . . فلنشرعْ في بيانِهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .



تمّ كتاب الفقر والزّهد

وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله ومنّه ، وحسن توفيقه ، وجميل صنعه ، ولطيف كفايته

وصلاته على سيّد المرسلين محمّدٍ وآله الطّيّبين الطّاهرين

يتلوه كتاب التّوحيد والتّوكّل

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٢٣) ، وبه ختم باب الزهد ، وعقد الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٣٧٦) فصولاً فيها تفصيل لما أجمله المصنف رحمه الله تعالىٰ .

كتاب
التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب التّوحيد والتّوكّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ المدبّرِ للملكِ والملكوتِ ، المنفردِ بالعزَّةِ والجبروتِ ، الرافعِ للسماءِ بغيرِ عمادٍ ، المقدّرِ فيها أرزاقَ العبادِ ، الذي صرفَ أعينَ ذوي القلوبِ والألبابِ عنْ ملاحظةِ الوسائطِ والأسبابِ إلىٰ مسبّبِ الأسبابِ ، ورفعَ هممَهُمْ عنِ الالتفاتِ إلىٰ ما عداهُ ، والاعتمادِ علىٰ مدبّرٍ سواهُ ، فلمْ يعبدوا إلا إيّاهُ ، علماً بأنَّهُ الواحدُ الفردُ الصمدُ الإلـٰهُ ، وتحققاً بأنَّ جميعَ أصنافِ الخلقِ عبادٌ أمثالُهُمْ لا يُبتغىٰ عندَهُمُ الرزقُ ، وأنَّهُ ما مِنْ ذرَّةٍ إلا إلى اللهِ خلقُها ، وما مِنْ دابّةٍ إلىٰ على اللهِ رزقُها ، فلمَّا تحقَّقوا أنَّهُ لرزقِ عبادِهِ ضامنٌ وبهِ كفيلٌ . توكَّلوا عليهِ وقالوا : حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ .

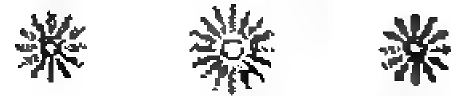
والصلاةُ علىٰ محمدٍ قامعِ الأباطيلِ ، الهادي إلىٰ سواءِ السبيلِ ، وعلىٰ آلهِ وأصحابِهِ وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ التوكُّلَ منزلٌ مِنْ منازلِ الدينِ ، ومقامٌ مِنْ مقاماتِ الموقنينَ ، بلْ هوَ مِنْ معالي درجاتِ المقرَّبينَ ، وهوَ في نفسِهِ غامضٌ مِنْ حيثُ العلمُ ، ثمَّ هوَ شاقٌّ مِنْ حيثُ العملُ .

ووجهُ غموضِهِ مِنْ حيثُ الفهمُ : أنَّ ملاحظةَ الأسبابِ والاعتمادَ عليها شركٌ في التوحيدِ ، والتثاقلَ عنها بالكليَّةِ طعنٌ في السنةِ وقدحٌ في الشرعِ ، والاعتمادَ على الأسبابِ مِنْ غيرِ أنْ ترىٰ أسباباً تغييرٌ في وجهِ العقلِ ، وانغماسٌ في غمرةِ الجهلِ ، وتحقيقُ معنى التوكُّلِ علىٰ وجهٍ يتوافقُ فيهِ مقتضى التوحيدِ والعقلِ والشرعِ في غايةِ الغموضِ والعسرِ ، ولا يقوىٰ علىٰ كشفِ هـٰذا الغطاءِ معَ شدةِ الخفاءِ إلا سماسرةُ العلماءِ ، الذينَ اكتحلوا مِنْ فضْلِ اللهِ تعالىٰ بأنوارِ الحقائقِ ، فأبصروا وتحقَّقوا ، ثمَّ نطقوا بالإعرابِ عمَّا شاهدوهُ مِنْ حيثُ استنطقوا .

ونحنُ الآنَ نبتدئُ بذكرِ فضيلةِ التوكُّلِ علىٰ سبيلِ التقدمةِ ، ثمَّ نردفُهُ بالتوحيدِ في الشطرِ الأوَّلِ مِنَ الكتابِ ، ونذكرُ حالَ التوكُّلِ وعملَهُ في الشطرِ الثاني .



بيان فضيلة التوكّل

أمّا مِنَ الآياتِ :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ .

وقالَ سبحانَهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وأعظمْ بمقامٍ موسومٍ بمحبَّةِ اللهِ سبحانَهُ صاحبُهُ ، ومضمونٍ بكفايةِ اللهِ تعالىٰ ملابسُهُ ، فمَنِ اللهُ تعالىٰ حسبُهُ وكافيهِ ، ومحبُّهُ ومراعيهِ.. فقدَ فازَ الفوزَ العظيمَ ؛ فإنَّ المحبوبَ لا يُعذَّبُ ، ولا يُبعَدُ ولا يُحجَبُ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾ ، فطالبُ الكفايةِ مِنْ غيرِهِ هوَ التاركُ للتوكُّلِ ، وهوَ المكذِّبُ بهٰذهِ الآيةِ ؛ فإنَّهُ سؤالٌ في معرضِ استنطاقٍ بالحقِّ ، كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ أيْ : عزيزٌ لا يذلُّ مَنِ استجارَ بهِ ، ولا يضيعُ مَنْ لاذَ بجنابِهِ والتجأَ إلىٰ ذمارِهِ وحماهُ ، وحكيمٌ لا يقصرُ عنْ تدبيرِ مَنْ توكَّلَ علىٰ تدبيرِهِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾ ، بيَّنَ

أنَّ كلَّ ما سوى اللهِ تعالىٰ عبدٌ مسخَّرٌ ، حاجتُهُ مثلُ حاجتِكُمْ ، فكيفَ يتكلُ عليهِ ؟!

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ .

وكلُّ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ التوحيدِ فهوَ تنبيهٌ علىٰ قطعِ الملاحظةِ عنِ الأغيارِ ، والتوكُّلِ على الواحدِ القهَّارِ .



وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ ابنُ مسعودٍ : « أُريتُ الأممَ بالموسمِ ، فرأيتُ أمَّتي قدْ ملؤوا السهلَ والجبلَ ، فأعجبَني كثرتُهُمْ وهيئتُهُمْ ، فقيلَ لي : أرضيتَ ؟ قلتُ : نعمْ ، قيلَ : ومعَ هؤلاءِ سبعونَ ألفاً يدخلونَ الجنةَ بغيرِ حسابٍ ، قيلَ : منْ همْ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : الذينَ لا يكتوونَ ، ولا يتطيَّرونَ ، ولا يسترقونَ ، وعلىٰ ربِّهِمْ يتوكَّلونَ » ، فقامَ عكاشةُ وقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ أنْ يجعلَني منهُمْ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اجعلْهُ منهُمْ » ، فقامَ آخرُ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ

أنْ يجعلَني منهُمْ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبقَكَ بها عكاشةُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ أنَّكُمْ تتوكَّلونَ على اللهِ حقَّ توكُّلِهِ . . لرزقَكُمْ كما يرزقُ الطيرَ ، تغدو خِماصاً وتروحُ بطاناً »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ انقطعَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ . . كفاهُ اللهُ كلَّ مؤنةٍ ، ورزقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسِبُ ، ومَنِ انقطعَ إلى الدنيا . . وكلَهُ اللهُ إليها »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سرَّهُ أنْ يكونَ أغنى الناسِ . . فليكنْ بما عندَ اللهِ تعالىٰ أوثقَ منهُ بما في يديهِ »[4] .

ويُروىٰ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ كانَ إذا أصابَ أهلَهُ خصاصةٌ . . قالَ : « قوموا إلى الصلاةِ » ، ويقولُ : « بهٰذا أمرَني ربِّي عزَّ وجلَّ ، قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا . . . ﴾ » الآيةَ[5] .

---

(1) رواه الطيالسي في « مسنده » (٣٥٢) ، والقشيري في « رسالته » (ص٢٩٤) ، وهو عند البخاري (٥٧٠٥) ، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(2) رواه الترمذي (٢٣٤٤) ، وابن ماجه (٤١٦٤) .

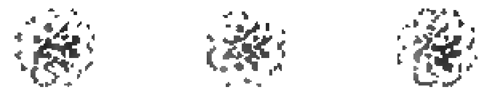
(3) رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٣٨٣) ، و« الصغير » (١/ ١١٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٤٤) .

(4) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٧١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢١٨) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٣٦٧) .

(5) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٧٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩١١) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : (كان النبي إذا نزل بأهله الضيق . . أمرهم بالصلاة ثم قرأ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لمْ يتوكَّلْ مَنِ استرقىٰ واكتوىٰ »[1] ورُوِيَ أنَّهُ لمَّا قالَ جبريلُ لإبراهيمَ عليهِما السلامُ وقدْ رُميَ بهِ إلى النارِ بالمنجنيقِ : ألكَ حاجةٌ ؟ قالَ : أمَّا إليكَ . . فلا . وفاءً بقولِهِ : حسبيَ اللهُ ونعمَ الوكيلُ ؛ إذْ قالَ ذلكَ حينَ أُخذَ ليُرمىٰ بهِ ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾[2] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ ما مِنْ عبدٍ يعتصمُ بي دونَ خلقي فتكيدُهُ السماواتُ والأرضُ . . إلا جعلتُ لهُ مخرجاً)[3] .



وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ : (لدغَتْني عقربٌ ، فأقسمَتْ عليَّ أمِّي لتسترقيَنْ ، فناولتُ الراقيَ يديَ التي لمْ تُلدغْ)[4] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٢٥١) واللفظ له ، والترمذي (٢٠٥٥) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧٥٦١) ، وابن ماجه (٣٤٨٩) .

(٢) كذا في القوت » (١/ ٢٢٩) ، وأما قوله عليه السلام حين ألقي في النار : (حسبي الله ونعم الوكيل) . . فقد رواه البخاري (٤٥٦٤) ، وخبره مع جبريل عليه السلام رواه بنحوه الطبري في « تفسيره » (١٠/ ١٧/ ٦٠) .

(٣) رواه تمام في « فوائده » (١٧٠٠) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٧٥) ، وزاد : (وكرهت أن أحنثها) .

وقرأَ الخوَّاصُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ إلىٰ آخرِها ، فقالَ : (ما ينبغي للعبدِ بعدَ هٰذهِ الآيةِ أنْ يلجأَ إلىٰ أحدٍ غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ)[1] .

وقيلَ لبعضِ العلماءِ في منامِهِ : (مَنْ وثقَ باللهِ تعالىٰ . . فقدْ أحرزَ قوتَهُ)[2] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (لا يشغلَنَّكَ المضمونُ لكَ مِنَ الرزقِ عنِ المفروضِ عليكَ مِنَ العملِ فتضيعَ أمرَ آخرتِكَ ، ولا تنالَ مِنَ الدنيا إلا ما قدْ كتبَ اللهُ لكَ)[3] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (في وجودِ العبدِ الرزقَ مِنْ غيرِ طلبٍ دلالةٌ علىٰ أنَّ الرزقَ مأمورٌ بطلبِ العبدِ)[4] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : سألتُ بعضَ الرهبانِ : مِنْ أينَ تأكلُ ؟ فقال لي : ليسَ هٰذا العلمُ عندي ، ولكنْ سلْ ربِّي مِنْ أينَ يطعمُني[5] .

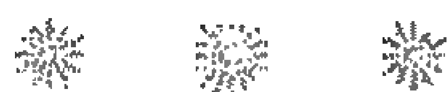
وقالَ هَرِمُ بنُ حيَّانَ لأويسٍ القرنيِّ : أينَ تأمرُني أنْ أكونَ ؟ فأومأَ إلى

---

(١) الخواص هو سليمان أبو أيوب ، انظر خبره هٰذا في « مختصر تاريخ دمشق » (١٠/١٩٦) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٣١٠) .
(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/٣٨٩) .
(٤) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/٣٨٩) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩/٣٨٩) .

الشامِ ، فقالَ هرمٌ : كيفَ المعيشةُ بها ؟ قالَ أويسٌ : أفٍّ لهـٰذهِ القلوبِ ! قدْ خالطَها الشكُّ فما تنفعُها الموعظةُ[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (متىٰ رضيتَ باللهِ وكيلاً . . وجدتَ إلىٰ كلِّ خيرٍ سبيلاً) ، نسألُ اللهَ تعالىٰ حسنَ الأدبِ .



(١) رواه الخلال في « الحث على التجارة والصناعة والعمل » (١٢٨) ولم يذكر فيه هرماً ، ولقاء هرم بأويس رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٠٦) .

الشَّطْرُ الأوَّلُ
بيان حقيقة التّوحيد الّذي هو أصل التّوكّل

اعلمْ : أنَّ التوكُّلَ مِنْ أبوابِ الإيمانِ ، وجميعُ أبوابِ الإيمانِ لا تنتظمُ إلا بعلمٍ وحالٍ وعملٍ ، والتوكلُ كذلكَ ينتظمُ مِنْ علمٍ هوَ الأصلُ ، وعملٍ هوَ الثمرةُ ، وحالٍ هوَ المرادُ باسمِ التوكلِ .

فلنبدأْ ببيانِ العلمِ الذي هوَ الأصلُ ، وهوَ المسمَّىٰ إيماناً في أصلِ اللسانِ ؛ إذِ الإيمانُ هوَ التصديقُ ، وكلُّ تصديقٍ بالقلبِ فهوَ علمٌ ، وإذا قويَ . . سُمِّيَ يقيناً ، ولكنْ أبوابُ اليقينِ كثيرةٌ ، ونحنُ إنَّما نحتاجُ منها إلىٰ ما يُبنىٰ عليهِ التوكلُ ؛ وهوَ التوحيدُ الذي يترجمُهُ قولُكَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ) ، والإيمانُ بالقدرةِ التي يترجمُها قولُكَ : (لهُ الملكُ) ، والإيمانُ بالجودِ والحكمةِ الذي يدلُّ عليهِ قولُكَ : (ولهُ الحمدُ) .

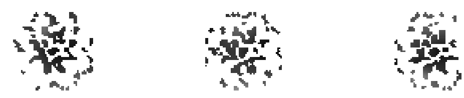
فمَنْ قالَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ، ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ) . . تمَّ لهُ الإيمانُ الذي هوَ أصلُ التوكلِ ؛ أعني : أنْ يصيرَ معنىٰ هـٰذا القولِ وصفاً لازماً لقلبِهِ غالباً عليهِ .



فأمَّا التوحيدُ . . فهوَ الأصلُ ، والقولُ فيهِ طويلٌ ، وهوَ مِنْ علمِ المكاشفةِ ، ولكنْ بعضُ علومِ المكاشفاتِ تتعلَّقُ بالأعمالِ بواسطةِ

الأحوالِ[1] ، ولا يتمُّ علمُ المعاملةِ إلا بها ، فإذاً ؛ لا نتعرَّضُ إلا للقدْرِ الذي يتعلَّقُ بالمعاملةِ ، وإلا . . فالتوحيدُ هوَ البحرُ الخِضَمُّ الذي لا ساحلَ لهُ ، فنقولُ :

للتوحيدِ أربعُ مراتبَ ، وهوَ ينقسمُ إلىٰ لبٍّ ، ولبِّ اللبِّ ، وإلىٰ قشرٍ ، وقشرِ القشرِ ، ولنمثِّلْ ذلكَ تقريباً إلى الأفهامِ الضعيفةِ بالجوزِ في قشرتِهِ العليا ، فإنَّ لهُ قشرتينِ ، ولهُ لبٌّ ، وللبِّ دهنٌ هوَ لبُّ اللبِّ .



فالمرتبةُ الأولىٰ مِنَ التوحيدِ : أنْ يقولَ الإنسانُ بلسانِهِ : (لا إلـهَ إلا اللهُ) وقلبُهُ غافلٌ عنهُ ، أوْ منكرٌ لهُ ؛ كتوحيدِ المنافقينَ .

والثانيةُ : أنْ يصدِّقَ بمعنى اللفظِ قلبُهُ ، كما صدَّقَ بهِ عمومُ المسلمينَ ، وهوَ اعتقادٌ[2] .

والثالثةُ : أن يشاهدَ ذلكَ بطريقِ الكشفِ بواسطةِ نورِ الحقِّ ، وهوَ مقامُ المقرَّبينَ ، وذلكَ بأنْ يرىٰ أشياءَ كثيرةً ، ولكنْ يراها علىٰ كثرتِها صادرةً عنِ الواحدِ القهَّارِ .

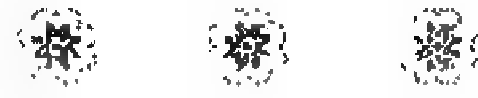
والرابعةُ : ألا يرىٰ في الوجودِ إلا واحداً ، وهوَ مشاهدةُ الصديقينَ ،

---

(١) فإن الأحوال هي التي تثمر الأعمال ، وهي مواجيد القلوب . « إتحاف » (٩/ ٣٩٠) .

(٢) كذا في جميع النسخ : (وهو اعتقادٌ) ، وهو الصحيح ، وسيأتي قريباً قوله : (وأما الثاني وهو الاعتقاد . . فهو موجود في عموم المسلمين) .

وتسمِّيهِ الصوفيّةُ الفناءَ في التوحيدِ ؛ لأنَّهُ مِنْ حيثُ لا يرىٰ إلا واحداً فلا يرىٰ نفسَهُ أيضاً ، وإذا لمْ يرَ نفسَهُ لكونِهِ مستغرقاً بالواحدِ . . كانَ فانياً عن نفسِهِ في توحيدِهِ ، بمعنىٰ أنَّهُ فنيَ عنْ رؤيةِ نفسِهِ والخلقِ[١] .



فالأوّلُ : موحدٌ بمجرَّدِ اللسانِ ، ويعصمُ ذلكَ صاحبَهُ في الدنيا عنِ السيفِ والسنانِ .

والثاني : موحدٌ بمعنىٰ أنَّهُ معتقدٌ بقلبِهِ مفهومَ لفظِهِ ، وقلبُهُ خالٍ عنِ التكذيبِ بما انعقدَ عليهِ قلبُهُ ، وهوَ عقدةٌ على القلبِ ليسَ فيهِ انشراحٌ وانفتاحٌ ، ولكنَّهُ يحفظُ صاحبَهُ عنِ العذابِ في الآخرةِ إنْ تُوفِّيَ عليها ولمْ تضعفْ بالمعاصي عقدتُهُ ، ولهٰذا العقدِ حيلٌ يُقصدُ بها تضعيفُهُ وتحليلُهُ تُسمَّىٰ **بدعة** ، ولهُ حيلٌ يُقصدُ بها دفعُ حيلةِ التحليلِ والتضعيفِ ، ويُقصدُ بها أيضاً إحكامُ هٰذهِ العقدةِ وشدُّها على القلبِ وتُسمَّىٰ **كلاماً** ، والعارفُ بهِ يُسمَّىٰ مُتكلِّماً ، وهوَ في مقابلةِ المبتدعِ[٢] ، ومقصدُهُ دفعُ المبتدعِ عنْ تحليلِ هٰذهِ العقدةِ عنْ قلوبِ العوامِّ ، وقدْ يُخصُّ المتكلِّمُ باسمِ الموحِّدِ مِنْ حيثُ إنَّهُ يحمي بكلامِهِ مفهومَ لفظِ التوحيدِ علىٰ قلوبِ العوامِّ حتَّىٰ لا تنحلَّ عقدتُهُ .

والثالثُ : موحدٌ بمعنىٰ أنَّهُ لمْ يشاهدْ إلا فاعلاً واحداً ؛ إذْ قدِ انكشفَ لهُ

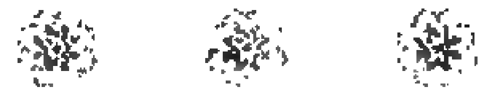
---

(١) وعن الخلق من باب أولىٰ .

(٢) وعليه : فاصطلاح (المتكلم) عند المصنف مقتصر علىٰ أهل الحق ، ولا مشاحَّة في الاصطلاح .

الحقُّ كما هوَ عليهِ[1] ، ولا فاعلَ بالحقيقةِ إلا واحدٌ ، وقدِ انكشفَتْ لهُ الحقيقةُ كما هيَ عليهِ ، لا أنَّهُ كلَّفَ قلبَهُ أنْ يعقدَ علىٰ مفهومِ لفظِ الحقيقةِ[2] ؛ فإنَّ ذلكَ رتبةُ العوامِّ والمتكلمينَ ؛ إذْ لمْ يفارقِ المتكلِّمُ العاميَّ في الاعتقادِ ، بلْ في صنعةِ تلفيقِ الكلامِ الذي بهِ يدفعُ حيلَ المبتدعِ في تحليلِ هـٰذهِ العقدةِ .

والرابعُ : موحدٌ بمعنىٰ أنَّهُ لمْ يحضُرْ في شهودِهِ غيرُ الواحدِ ، فلا يرى الكلَّ مِنْ حيثُ إنَّهُ كثيرٌ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ واحدٌ ، وهـٰذهِ هيَ الغايةُ القصوىٰ في التوحيدِ .



فالأوَّلُ كالقشرةِ العليا مِنَ الجوزِ ، والثاني كالقشرةِ السفلىٰ ، والثالثُ كاللبِّ ، والرابعُ كالدهنِ المستخرجِ مِنَ اللبِّ .

وكما أنَّ القشرةَ العليا منَ الجوزِ لا خيرَ فيها ، بلْ إنْ أُكلَ . . فهوَ مرُّ المذاقِ ، وإنْ نُظرَ إلىٰ باطنِهِ . . فهوَ كريهُ المنظرِ ، وإنِ اتُّخذَ حطباً . . أطفأَ النارَ وأكثرَ الدخانَ ، وإنْ تُركَ في البيتِ . . ضيَّقَ المكانَ ، فلا يصلحُ إلا أنْ يُتركَ مدَّةً على الجوزِ للصوانِ ثمَّ يُرمىٰ بهِ ؛ فكذلكَ التوحيدُ بمجرَّدِ اللسانِ دونَ التصديقِ بالقلبِ عديمُ الجدوىٰ كثيرُ الضررِ ، مذمومُ الظاهرِ والباطنِ ،

---

(١) في غير (أ) : (إذا انكشف) بدل (إذ قد انكشف) .
(٢) في (أ ، ف) : (إلا أنه) بدل (لا أنه) .

لكنَّهُ ينفعُ مدَّةً في حفظِ القشرةِ السفلىٰ إلىٰ وقتِ الموتِ ، والقشرةُ السفلىٰ هيَ القلبُ والبدنُ ، وتوحيدُ المنافقِ يصونُ بدنَهُ عنْ سيفِ الغزاةِ ؛ فإنَّهُمْ لمْ يُؤمروا بشقِّ القلوبِ ، والسيفُ إنَّما يصيبُ جسمَ البدنِ وهوَ القشرُ ، وإنَّما يتجرَّدُ عنهُ بالموتِ ، فلا يبقىٰ لتوحيدِهِ فائدةٌ بعدَهُ .

وكما أنَّ القشرةَ السفلىٰ ظاهرةُ النفعِ بالإضافةِ إلى القشرةِ العليا ؛ فإنَّها تصونُ اللبَّ وتحرسُهُ عنِ الفسادِ عندَ الادخارِ ، وإذا فُصلَتْ . . أمكنَ أنْ ينتفعَ بها حطباً ، لكنَّها نازلةُ القدْرِ بالإضافةِ إلى اللبِّ ؛ فكذلكَ مجرَّدُ الاعتقادِ مِنْ غيرِ كشفٍ كثيرُ النفعِ بالإضافةِ إلىٰ مجرَّدِ نطقِ اللسانِ ، ناقصُ القدْرِ بالإضافةِ إلى الكشفِ والمشاهدةِ التي تحصلُ بانشراحِ الصدرِ وانفساحِهِ وإشراقِ نورِ الحقِّ فيهِ ؛ إذْ ذلكَ الشرحُ هوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ .

وكما أنَّ اللبَّ نفيسٌ في نفسِهِ بالإضافةِ إلى القشرِ وكأنَّهُ المقصودُ ، ولكنَّهُ لا يخلو عنْ شوبِ عصارةٍ بالإضافةِ إلى الدهنِ المستخرجِ منهُ ؛ فكذلكَ توحيدُ الفعلِ مقصدٌ عالٍ للسالكينَ ، ولكنَّهُ لا يخلو عنْ شوبِ ملاحظةِ الغيرِ والالتفاتِ إلى الكثرةِ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ لا يشاهدُ سوى الواحدِ الحقِّ .

* * *

فإنْ قلتَ : كيفَ يُتصوَّرُ ألا يشاهدَ إلا واحداً وهوَ يشاهدُ السماءَ والأرضَ

وسائرَ الأجسامِ المحسوسةِ وهيَ كثيرةٌ ؟ فكيفَ يكونُ الكثيرُ واحداً ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا غايةُ علومِ المكاشفاتِ ، وأسرارُها لا يجوزُ أنْ تُسطرَ في كتابٍ[١] ، فقدْ قالَ العارفونَ : (إفشاءُ سرِّ الربوبيَّةِ كفرٌ)[٢] .

ثمَّ هوَ غيرُ متعلِّقٍ بعلمِ المعاملةِ ، نعمْ ، ذكرُ ما يكسرُ سورةَ استبعادِكَ ممكنٌ ، وهوَ أنَّ الشيءَ قدْ يكونُ كثيراً بنوعِ مشاهدةٍ واعتبارٍ ويكونُ واحداً بنوعٍ آخرَ مِنَ المشاهدةِ والاعتبارِ ، وهـٰذا كما أنَّ الإنسانَ كثيرٌ إنِ التفتَ إلىٰ روحِهِ وجسدِهِ وأطرافِهِ وعروقِهِ وعظامِهِ وأحشائِهِ ، وهوَ باعتبارٍ آخرَ ومشاهدةٍ أخرىٰ واحدٌ ؛ إذْ نقولُ : إنَّهُ إنسانٌ واحدٌ ، فهوَ بالإضافةِ إلى الإنسانيةِ واحدٌ ، وكمْ مِنْ شخصٍ يشاهدُ إنساناً ولا يخطرُ ببالِهِ كثرةُ أمعائِهِ وعروقِهِ وأطرافِهِ ، وتفصيلُ روحِهِ وجسدِهِ وأعضائِهِ ، والفرقُ بينَهُمَا ، فهوَ في حالةِ الاستغراقِ والاستهتارِ بهِ مستغرقٌ بواحدٍ ليسَ فيهِ تفرقٌ[٣] ، وكأنَّهُ في عينِ الجمعِ ، والملتفتُ إلى الكثرةِ في تفرقةٍ .

فكذلكَ كلُّ ما في الوجودِ مِنَ الخالقِ والمخلوقِ لهُ اعتباراتٌ ومشاهداتٌ كثيرةٌ مختلفةٌ ، وهو باعتبارٍ واحدٍ مِنَ الاعتباراتِ واحدٌ ، وباعتباراتٍ أخرَ

---

(١) فيطلع عليه من ليس بأهل لمزاولتها ، فيقع في وحلة لا يكاد يتخلص منها . « إتحاف » (٩/٣٩٢) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٩٠) ، وقد بيَّن الإمام الغزالي معناه في « الإملاء » .

(٣) كذا في جميع النسخ ، وعند الحافظ في « إتحافه » (٩/ ٣٩٣) : (والفرقُ بينهما أنه في حالة الاستغراق) ، علماً أنه لم يتقدم ذكر للتفريع صريح .

سواها كثيرٌ ، بعضُها أشدُّ كثرةً مِنْ بعضٍ ، ومثالُ الإنسانِ وإنْ كانَ مثالاً لا يطابقُ الغرضَ ولكنَّهُ ينبِّهُ في الجملةِ علىٰ كيفيَّةِ مصيرِ الكثرةِ في حكمِ المشاهدةِ واحداً .

وتستفيدُ بهـٰذا الكلامِ تركَ الإنكارِ والجحودِ لمقامٍ لمْ تبلغْهُ وتؤمنُ بهِ إيمانَ تصديقٍ ، فيكونُ لكَ مِنْ حيثُ إنَّكَ مؤمنٌ بهـٰذا التوحيدِ نصيبٌ وإنْ لمْ يكنْ ما آمنتَ بهِ صفتَكَ ؛ كما أنَّكَ إذا آمنتَ بالنبوَّةِ وإنْ لمْ تكنْ نبيّاً . . كانَ لكَ نصيبٌ منهُ بقدْرِ قوَّةِ إيمانِكَ .

وهـٰذهِ المشاهدةُ التي لا يظهرُ فيها إلا الواحدُ الحقُّ تارةً تدومُ ، وتارةً تطرأُ كالبرقِ الخاطفِ وهوَ الأكثرُ ، والدوامُ نادرٌ عزيزٌ(١) ، وإلىٰ هـٰذا أشارَ الحسينُ بنُ منصورٍ الحلاَّجُ حيثُ رأى الخوَّاصَ يدورُ في الأسفارِ فقالَ : فيماذا أنتَ ؟ فقالَ : أدورُ في الأسفارِ لأصحِّحَ حالي في التوكُّلِ ـ وقدْ كانَ مِنَ المتوكِّلينَ ـ فقالَ الحسينُ : قدْ أفنيتَ عمرَكَ في عمرانِ باطنِكَ ، فأينَ الفناءُ في التوحيدِ(٢) ؟ فكأنَّ الخوَّاصَ كانَ في تصحيحِ المقامِ الثالثِ في التوحيدِ ، فطالبَهُ بالمقامِ الرابعِ .

---

(١) لكنها إذا غابت . . بقيت آثارها ، فصاحبها بعد سكون غليانه يعيش في بركات ضيائها إلىٰ أن تلوح ثانية يزجي وقته على انتظار عودها ، ويعيش بما وجد في حين كونه . « إتحاف » (٩/ ٣٩٤) .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٩٧) .

فهٰذهِ مقاماتُ الموحِّدينَ في التوحيدِ علىٰ سبيلِ الإجمالِ(١) .

* * *

فإنْ قلتَ : فلا بدَّ لهٰذا مِنْ شرحٍ بمقدارٍ ما يُفهمُ كيفيةُ ابتناءِ التوكُّلِ عليهِ .

فأقولُ : أمَّا الرابعُ . . فلا يجوزُ الخوضُ في بيانِهِ ، وليسَ التوكُّلُ أيضاً مبنيّاً عليهِ ، بلْ يحصلُ حالُ التوكُّلِ بالتوحيدِ الثالثِ .

وأمَّا الأوَّلُ وهوَ النفاقُ . . فهوَ واضحٌ .

وأمَّا الثاني وهوَ الاعتقادُ . . فهوَ موجودٌ في عمومِ المسلمينَ ، وطريقُ تأكيدِهِ بالكلامِ ، ودفعُ حيلِ المبتدعةِ فيهِ مذكورٌ في علمِ الكلامِ ، وقدْ ذكرنا في كتابِ « الاقتصادُ في الاعتقادِ » القدْرَ المهمَّ منه .

وأمَّا الثالثُ . . فهوَ الذي يبتنى التوكلُ عليهِ ؛ إذْ مجرَّدُ التوحيدِ بالاعتقادِ لا يورثُ حالَ التوكلِ ، فلنذكرْ منهُ القدْرَ الذي يرتبطُ التوكلُ بهِ دونَ تفصيلِهِ الذي لا يحتملُهُ أمثالُ هٰذا الكتابِ .

وحاصلُهُ : أنْ ينكشفَ لكَ أنْ لا فاعلَ إلا اللهُ تعالىٰ ، وأنَّ كلَّ موجودٍ مِنْ خلقٍ ورزقٍ ، وعطاءٍ ومنعٍ ، وحياةٍ وموتٍ ، وغنىً وفقرٍ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا ينطلقُ عليهِ اسمٌ(٢) . . فالمنفردُ بإبداعِهِ واختراعِهِ هوَ اللهُ تعالىٰ ،

---

(١) وقد اعترض على المصنف هٰذا التقسيم ، حتىٰ إنه عقد له جواباً في « إملائه » .

(٢) في (ب) : (اسم الحادث) .

لا شريكَ لهُ فيهِ ، وإذا انكشفَ لكَ هٰذا . . لمْ تنظرْ إلىٰ غيرِهِ ، بلْ كانَ منهُ خوفُكَ ، وإليهِ رجاؤُكَ ، وبهِ ثقتُكَ ، وعليهِ اتكالُكَ ؛ فإنَّهُ الفاعلُ على الانفرادِ دونَ غيرِهِ ، وما سواهُ مسخرونَ لا استقلالَ لهم بتحريكِ ذرَّةٍ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، وإذا انفتحَتْ لكَ أبوابُ المكاشفةِ . . اتضحَ لكَ هٰذا اتضاحاً أتمَّ مِنَ المشاهدةِ بالبصرِ .

وإنَّما يصدُّكَ الشيطانُ عنْ هٰذا التوحيدِ في مقامينِ يبتغي بهما أنْ يطرقَ إلىٰ قلبِكَ شائبةَ الشركِ :

أحدُهُما : الالتفاتُ إلى اختيارِ الحيواناتِ .

والثاني : الالتفاتُ إلى الجماداتِ .

أمَّا الالتفاتُ إلى الجمادات . . فكاعتمادِكَ على المطرِ في خروجِ الزرعِ ونباتِهِ ونمائِهِ ، وعلى الغيمِ في نزولِ المطرِ ، وعلى البردِ في اجتماعِ الغيمِ ، وعلى الريحِ في استواءِ السفينةِ وسيرِها ، وهٰذا كلُّهُ شركٌ في التوحيدِ ، وجهلٌ بحقائقِ الأمورِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ، قيلَ : معناهُ : أنَّهُم يقولونَ : لولا استواءُ الريحِ . . لما نجونا .

ومَنِ انكشفَ لهُ أمرُ العالمِ كما هوَ عليهِ . . علمَ أنَّ الريحَ هوَ الهواءُ ، والهواءُ لا يتحرَّكُ بنفسِهِ ما لمْ يُحرَّكْ وكذلكَ محرِّكُهُ ، وهٰكذا إلىٰ أنْ ينتهيَ إلى المحرِّكِ الأوَّلِ الذي لا محرِّكَ لهُ ، ولا هوَ متحرِّكٌ في نفسِهِ عزَّ وجلَّ ،

فالتفاتُ العبدِ في النجاةِ إلى الريحِ يضاهي التفاتَ مَنْ أُخذَ لتُحزَّ رقبتُهُ فكتبَ الملكُ توقيعاً بالعفوِ عنهُ وتخليتِهِ ، فأخذَ يشتغلُ بشكرِ الحبرِ والكاغدِ والقلمِ الذي بهِ كُتبَ التوقيعُ ، ويقولُ : (لولا القلمُ.. لما تخلَّصتُ) ، فيرىٰ نجاتَهُ مِنَ القلمِ لا مِنْ محرِّكِ القلمِ ، وهوَ غايةُ الجهلِ ، ومَنْ علمَ أنَّ القلمَ لا حكمَ لهُ في نفسِهِ ، وإنَّما هوَ مسخَّرٌ في يدِ الكاتبِ.. لمْ يلتفتْ إليهِ ، ولمْ يشكرْ إلا الكاتبَ ، بلْ ربَّما يدهشُهُ فرحُ النجاةِ وشكرُ الملكِ والكاتبِ عنْ أنْ يخطرَ ببالِهِ القلمُ والحبرُ والدواةُ .

فالشمسُ والقمرُ والنجومُ والمطرُ والغيمُ والأرضُ وكلُّ حيوانٍ وجمادٍ مسخراتٌ في قبضةِ القدرةِ كتسخيرِ القلمِ في يدِ الكاتبِ ، بلْ هٰذا تمثيلٌ في حقِّكَ لاعتقادِكَ أنَّ الملكَ الموقِّعَ هوَ كاتبُ التوقيعِ ، والحقُّ أنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ هوَ الكاتبُ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ .

فإذا انكشفَ لكَ أنَّ جميعَ ما في السماواتِ والأرضِ مسخراتٌ علىٰ هٰذا الوجهِ.. انصرفَ عنكَ الشيطانُ خائباً ، وأيسَ مِنْ مزجِ توحيدِكَ بهٰذا الشركِ ، فيأتيكَ في المهلكةِ الثانيةِ ، **وهيَ الالتفاتُ إلى اختيارِ الحيواناتِ في الأفعالِ الاختياريةِ** ، ويقولُ : كيفَ ترى الكلَّ مِنَ اللهِ وهٰذا الإنسانُ يعطيكَ رزقَكَ باختيارِهِ ؛ فإنْ شاءَ.. أعطاكَ ، وإنْ شاءَ.. قطعَ عنكَ ؟ وهٰذا الشخصُ هوَ الذي يحزُّ رقبتَكَ بسيفِهِ وهوَ قادرٌ عليكَ ؛ إنْ شاءَ.. حزَّ رقبتَكَ ، وإنْ شاءَ.. عفا عنكَ ، فكيفَ لا تخافُهُ وكيفَ لا ترجوهُ وأمرُكَ بيدِهِ ، وأنتَ تشاهدُ ذلكَ ولا تشكُّ فيهِ ؟ ويقولُ لهُ أيضاً : نعمْ ، إنْ كنتَ

لا ترى القلمَ لأنَّهُ مسخَّرٌ . فكيفَ لا ترى الكاتبَ بالقلمِ وهوَ المسخِّرُ لهُ ؟

وعندَ هٰذا زلَّ أقدامُ الأكثرينَ ، إلا عبادَ اللهِ المخلصينَ ، الذينَ لا سلطانَ عليهِمْ للشيطانِ اللعينِ ، فشاهدوا بنورِ البصائرِ كونَ الكاتبِ مسخَّراً مضطرّاً كما شاهدَ جميعُ الضعفاءِ كونَ القلمِ مسخَّراً ، وعرفوا أنَّ غلطَ الضعفاءِ في ذلكَ كغلطِ النملةِ مثلاً لوْ كانَتْ تدبُّ على الكاغدِ فترىٰ رأسَ القلمِ يسوِّدُ الكاغدَ ، ولمْ يمتدَّ بصرُها إلى اليدِ والأصابعِ فضلاً عنْ صاحبِ اليدِ ، فغلطَتْ وظنَّتْ أنَّ القلمَ هوَ المسوِّدُ للبياضِ ، وذلكَ لقصورِ بصرِها عنْ مجاوزةِ رأسِ القلمِ لضيقِ حدقتِها .

فكذلكَ مَنْ لمْ ينشرحْ بنورِ اللهِ صدرُهُ للإسلامِ . قصرَتْ بصيرتُهُ عنْ ملاحظةِ جبَّارِ السماواتِ والأرضِ ، ومشاهدةِ كونِهِ قاهراً وراءَ الكلِّ ، فوقفَ في الطريقِ على الكاتبِ ، وهوَ جهلٌ محضٌ .

بلْ أربابُ القلوبِ والمشاهداتِ قدْ أنطقَ اللهُ تعالىٰ في حقِّهِمْ كلَّ ذرَّةٍ في الأرضِ والسماواتِ بقدرتِهِ التي بها أنطقَ كلَّ شيءٍ ، حتَّىٰ سمعوا تقديسَها وتسبيحَها للهِ تعالىٰ ، وشهادتَها علىٰ نفسِها بالعجزِ بلسانٍ ذلقٍ ، تتكلَّمُ بلا حرفٍ ولا صوتٍ ، ولا يسمعُهُ الذينَ هُمْ عنِ السمعِ معزولونَ ، ولستُ أعني بهِ السمعَ الظاهرَ الذي لا يجاوزُ الأصواتَ ، فإنَّ الحمارَ شريكٌ فيهِ ، ولا قدْرَ لما يُشاركُ فيهِ البهائمُ ، وإنَّما أريدُ بهِ سمعاً يُدركُ بهِ كلامٌ ليسَ بحرفٍ ولا صوتٍ ، ولا هوَ عربيٌّ ولا عجميٌّ .

فإنْ قلتَ : فهٰذهِ أعجوبةٌ لا يقبلُها العقلُ ، فصفْ لي كيفيَّةَ نطقِها ، وأنَّها كيفَ نطقَتْ ، وبماذا نطقَتْ ، وكيفَ سبَّحَتْ وقدَّسَتْ ، وكيفَ شهدَتْ علىٰ نفسِها بالعجزِ .

فاعلمْ : أنَّ لكلِّ ذرَّةٍ في السماواتِ والأرضِ معَ أربابِ القلوبِ مناجاةً في السرِّ ، وذلكَ ممَّا لا ينحصرُ ولا يتناهىٰ ، فإنَّها كلماتٌ تَستمدُّ مِنْ بحرِ كلامِ اللهِ تعالىٰ الذي لا نهايةَ لهُ ، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ .

ثمَّ إنَّها تتناجىٰ بأسرارِ الملكِ والملكوتِ ، وإفشاءُ السرِّ لؤمٌ ، بلْ صدورُ الأحرارِ قبورُ الأسرارِ ، وهلْ رأيتَ قطُّ أميناً علىٰ أسرارِ الملكِ قدْ نُوجيَ بخفاياهُ ، فنادىٰ بسرِّهِ علىٰ ملأٍ مِنَ الخلقِ ؟ ولوْ جازَ إفشاءُ كلِّ سرٍّ . . لما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ولبكيتُمْ كثيراً »[١] ، بلْ كانَ يذكرُ ذلكَ لهُمْ حتَّىٰ يبكونَ ولا يضحكونَ ، ولما نهىٰ عنْ إفشاءِ سرِّ القدرِ[٢] ، ولما قالَ : « إذا ذُكرَ النجومُ . . فأمسكوا ، وإذا ذُكرَ القدرُ . . فأمسكوا ، وإذا ذُكرَ أصحابي . . فأمسكوا »[٣] ، ولما خصَّ حذيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ ببعضِ الأسرارِ[٤] .

---

(١) رواه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٤٢٦) .
(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٧/ ١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٨٢) .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٠٨) .
(٤) روىٰ ذلك البخاري (٣٧٤٣) .

فإذاً ؛ عنْ حكاياتِ مناجاةِ ذرَّاتِ الملكِ والملكوتِ لقلوبِ أربابِ المشاهداتِ مانعانِ :

أحدُهُما : استحالةُ إفشاءِ السرِّ .

والثاني : خروجُ كلماتِها عنِ الحصرِ والنهايةِ .

ولكنَّا في المثالِ الذي كنَّا فيهِ وهيَ حركةُ القلمِ نحكي مِنْ مناجاتِها قدراً يسيراً يُفهمُ بهِ على الإجمالِ كيفيةُ ابتناءِ التوكلِ عليهِ ، ونردُّ كلماتِها إلى الحروفِ والأصواتِ وإنْ لمْ تكنْ هيَ حروفاً وأصواتاً ، ولكنْ هـٰذهِ ضرورةُ التفهيمِ ، فنقولُ : قالَ بعضُ الناظرينَ عنْ مشكاةِ نورِ اللهِ[1] تعالىٰ للكاغدِ وقدْ رآهُ اسودَّ وجهُهُ بالحبرِ : ما بالُ وجهِكَ كانَ أبيضَ مشرقاً والآنَ قدْ ظهرَ عليهِ السوادُ ، فلِمَ سوَّدتَ وجهَكَ ؟ وما السببُ فيهِ ؟

فقالَ الكاغَدُ : ما أنصفتَني في هـٰذهِ المطالبةِ ؛ فإنِّي ما سوَّدتُ وجهي بنفسي ، ولكنْ سلِ الحبرَ ، فإنَّهُ كانَ مجموعاً في المحبرةِ التي هيَ مستقرُّهُ ووطنُهُ ، فسافرَ عنِ الوطنِ ، ونزلَ بساحةِ وجهي ظلماً وعدواناً . فقالَ : صدقتَ .

فسألَ الحبرَ عنْ ذلكَ فقالَ : ما أنصفتَني ، فإنِّي كنتُ في المحبرةِ وادعاً ساكناً ، عازماً علىٰ ألا أبرحَ منها ، فاعتدىٰ عليَّ القلمُ بطبعِهِ الفاسدِ[2]

---

(١) أي : بعين البصيرة . « إتحاف » (٩/٤٠٢) .

(٢) في غير (أ ، ب) : (بطمعه) بدل (بطبعه) .

واختطفَني مِنْ وطني ، وأجلاني عنْ بلادي ، وفرَّقَ جمعي ، وبددَني كما ترىٰ علىٰ ساحةٍ بيضاءَ ، فالسؤالُ عليهِ لا عليَّ . فقالَ : صدقتَ .

ثمَّ سألَ القلمَ عنِ السببِ في ظلمِهِ وعدوانِهِ ، وإخراجِ الحبرِ مِنْ أوطانِهِ ، فقالَ : سلِ اليدَ والأصابعَ ؛ فإنِّي كنتُ قصباً نابتاً علىٰ شطِّ الأنهارِ ، متنزهاً بينَ خضرةِ الأشجارِ ، فجاءَتْني اليدُ بسكينٍ ، فنحَتْ عنِّي قشري ، ومزَّقَتْ عني ثيابي ، واقتلعَتْني مِنْ أصلي ، وفصلَتْ بينَ أنابيبي ، ثمَّ برتْني وشقَّتْ رأسي ، ثمَّ غمسَتْني في سوادِ الحبرِ ومرارتِهِ ، وهيَ تستخدمُني وتمشيني علىٰ قمَّةِ رأسي ، فلقدْ نثرتَ الملحَ علىٰ جرحي بسؤالِكَ وعتابِكَ ، فتنحَّ عنِّي وسلْ مَنْ قهرَني . فقالَ : صدقتَ .

ثمَّ سألَ اليدَ عنْ ظلمِها للقلمِ وتعديها عليهِ واستخدامِها لهُ ، فقالَتِ اليدُ : ما أنا إلا لحمٌ وعظمٌ ودمٌ ، وهلْ رأيتَ لحماً يظلمُ أوْ جسماً يتحرَّكُ بنفسِهِ ؟ وإنَّما أنا مركَبٌ مسخَّرٌ ، ركبَني فارسٌ يُقالُ لهُ : القدرةُ والقوَّةُ ، فهيَ التي تردِدُني وتجولُ بي في نواحي الأرضِ ، أما ترى المدرَ والحجرَ والشجرَ لا يتعدَّىٰ شيءٌ منها مكانَهُ ولا يتحرَّكُ بنفسِهِ إذْ لمْ يركبْها مثلُ هـٰذا الفارسِ القويِّ القاهرِ ؟ أما ترىٰ أيديَ الموتىٰ تساويني في صورةِ اللحمِ والعظمِ والدمِ ثمَّ لا معاملةَ بينَها وبينَ القلمِ ؟ فأنا أيضاً مِنْ حيثُ أنا لا معاملةَ بيني وبينَ القلمِ ، فسلِ القدرةَ عنْ شأني ، فإنِّي مركَبٌ أزعجَني مَنْ ركبَني . فقالَ : صدقتِ .

ثمَّ سألَ القدرةَ عنْ شأنِها في استعمالِها اليدَ واستخدامِها وكثرةِ ترديدِها ،

فقالَتْ : دعْ عنكَ لومي ومعاتبتي ، فكمْ مِنْ لائمٍ ملومٌ ، وكمْ مِنْ ملومٍ لا ذنبَ لهُ ، وكيفَ خفيَ عليكَ أمري ؟ وكيفَ ظننتَ أنِّي ظلمتُ اليدَ لما ركبتُها ولقدْ كنتُ لها راكبةً قبلَ التحريكِ وما كنتُ أحرِّكُها ولا أستسخرُها ؟! بلْ كنتُ نائمةً ساكنةً نوماً ظنَّ الظانُّونَ بي أنِّي ميتةٌ أوْ معدومةٌ ؛ لأنِّي ما كنتُ أتحرَّكُ ولا أحرِّكُ ، حتَّىٰ جاءَني موكَّلٌ أزعجَني وأرهقَني إلىٰ ما تراهُ منِّي ، فكانَتْ لي قوَّةٌ علىٰ مساعدتِهِ ، ولمْ تكنْ لي قوَّةٌ علىٰ مخالفتِهِ ، وهـٰذا الموكَّلُ يُسمَّى الإرادةَ ، ولا أعرفُهُ إلا باسمِهِ وهجومِهِ وصيالِهِ ، إذْ أزعجَني مِنْ غمرةِ النومِ وأرهقَني إلىٰ ما كانَ لي مندوحةٌ عنهُ لوْ خلاَّني ورأيي .
فقالَ : صدقتِ .

ثمَّ سألَ الإرادةَ : ما الذي جرَّأَكِ علىٰ هـٰذهِ القدرةِ الساكنةِ المطمئنةِ حتَّىٰ صرفتِها إلى التحريكِ ، وأرهقتِها إليه إرهاقاً لمْ تجدْ عنهُ مخلصاً ولا مناصاً ، فقالَتِ الإرادةُ : لا تعجلْ عليَّ ، فلعلَّ لنا عذراً وأنتَ تلومُ ؛ فإنِّي ما انتهضتُ بنفسي ولكنِّي أُنهضتُ ، وما انبعثتُ ولكنِّي بُعثتُ بحكمٍ قاهرٍ وأمرٍ جازمٍ ، وقدْ كنتُ ساكنةً قبلَ مجيئِهِ ، ولكنْ وردَ عليَّ مِنْ حضرةِ القلبِ رسولُ العلمِ علىٰ لسانِ العقلِ بالإشخاصِ للقدرةِ ، فأشخصتُها باضطرارٍ ، فإنِّي مسكينةٌ مسخرةٌ تحتَ قهرِ العلمِ والعقلِ ، ولا أدري بأيِّ جرمٍ وُقفتُ عليهِ وسُخِّرتُ لهُ وأُلزمتُ طاعتَهُ ، لكنِّي أدري أنِّي في دعةٍ وسكونٍ ما لمْ يردْ عليَّ هـٰذا الواردُ القاهرُ ، وهـٰذا الحاكمُ العادلُ أوِ الظالمُ ، وقدْ وُقفتُ عليهِ وقفاً ، وأُلزمتُ طاعتَهُ إلزاماً ، بلْ لا يبقىٰ لي معَهُ مهما جزمَ حكمَهُ طاقةٌ على

المخالفةِ ، لعمري ما دامَ هوَ في التردُّدِ علىٰ نفسِهِ والتحيُّرِ في حكمِهِ فأنا ساكنةٌ ، لكنْ معَ استشعارٍ وانتظارٍ لحكمِهِ ، فإذا انجزمَ حكمُهُ . . أُزعجتُ بطبعٍ وقهرٍ تحتَ طاعتِهِ ، وأشخصتِ القدرةُ لتقومَ بموجَبِ حكمِهِ ، فسلِ العلمَ عنْ شأني ، ودعْ عنِّي عتابَكَ ؛ فإنِّي كما قالَ الشاعرُ[1] : [من البسيط]

إذا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا ... أَلَّا تفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

فقالَ : صدقتِ .

وأقبلَ على العقلِ والعلمِ والقلبِ مطالباً لهُم ومعاتباً إيَّاهُمْ على استنهاضِ الإرادةِ وترشيحِها لإشخاصِ القدرةِ ، فقالَ العقلُ : أمَّا أنا . . فسراجٌ ما اشتعلتُ بنفسي ، ولكنِّي أُشعلتُ ، وقالَ القلبُ : أمَّا أنا . . فلوحٌ ما انبسطتُ بنفسي ، ولكنِّي بُسطتُ ، وقالَ العلمُ : إنَّما أنا نقشٌ نُقشتُ في بياضِ لوحِ القلبِ لمَّا أشرقَ سراجُ العقلِ ، وما انخططتُ بنفسي ، فكمْ كانَ هٰذا اللوحُ قبلي خالياً عنِّي ، فسلِ القلمَ عنِّي ؛ لأنَّ الخطَّ لا يكونُ إلا بالقلمِ .

فعندَ هٰذا تتعتعَ السائلُ ولمْ يقنعْهُ جوابُهُ وقالَ : قدْ طالَ تعبي في هٰذا الطريقِ وكثرَتْ منازلي ، ولا يزالُ يحيلُني مَنْ طمعتُ في معرفةِ هٰذا الأمرِ منهُ علىٰ غيرِهِ ، ولكنِّي كنتُ أطيبَ نفساً بكثرةِ الترداد لما كنتُ أسمعُ كلاماً

---

(1) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٣٧٢) ، والمراد منه : تعليق الأمر بالغير ورفع الملام ، فكأنه قال : إذا رحلت عن قوم قدروا علىٰ ألا ترحل بإكرامك ونزع علة سفرك . . فكأنهم هم الذين رحلوا عنك لاختيارهم رحلتك .

مقبولاً في الفؤادِ وعذراً ظاهراً في دفعِ السؤالِ ، فأمَّا قولُكَ : إنِّي خطٌّ ونقشٌ ، وإنَّما خطَّني قلمٌ . . فلستُ أفهمُهُ ، فإنِّي لا أعلمُ قلماً إلا مِنَ القصبِ ، ولا لوحاً إلا مِنَ الحديدِ أوِ الخشبِ ، ولا خطّاً إلا بالحبرِ ، ولا سراجاً إلا مِنَ النارِ ، وإنِّي لأسمعُ في هـٰذا المنزلِ حديثَ اللوحِ والسراجِ والخطِّ والقلمِ ولا أشاهدُ منهُ شيئاً ! أسمعُ جعجعةً ولا أرىٰ طِحْناً !

فقالَ لهُ العلمُ : إنْ صدقتَ فيما قلتَ . . فبضاعتُكَ مزجاةٌ ، وزادُكَ قليلٌ ، ومركبُكَ ضعيفٌ .

واعلمْ : أنَّ المهالكَ في الطريقِ الذي توجهتَ إليهِ كثيرةٌ ، فالصوابُ لكَ أنْ تنصرفَ وتدعَ ما أنتَ فيهِ ، فما هـٰذا بعشِّكَ فادرجْ عنهُ ، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلقَ لهُ .

وإنْ كنتَ راغباً في استتمامِ الطريقِ إلى المقصدِ . . فألقِ سمعَكَ وأنتَ شهيدٌ ، واعلمْ أنَّ العوالمَ في طريقِكَ هـٰذا ثلاثةٌ :

عالمُ الملكِ : والشهادةُ أوَّلُهُ ، ولقدْ كانَ الكاغدُ والحبرُ والقلمُ واليدُ مِنْ هـٰذا العالمِ ، وقدْ جاوزتَ تلكَ المنازلَ علىٰ سهولةٍ .

والثاني : **عالمُ الملكوتِ** : وهوَ ورائي ، فإذا جاوزتَني . . انتهيتَ إلىٰ منازلِهِ ، وفيها المهامهُ الفيحُ ، والجبالُ الشاهقةُ ، والبحارُ المغرقةُ ، ولا أدري كيفَ تسلمُ فيها .

والثالثُ : **عالمُ الجبروتِ** : وهوَ بينَ عالمِ الملكِ وعالمِ الملكوتِ ،

ولقدْ قطعتَ منهُ ثلاثَ منازلَ ؛ إذْ في أوَّلِهِ منزلُ القدرةِ والإرادةِ والعلمِ ، وهوَ واسطةٌ بينَ عالمِ الملكِ والملكوتِ ؛ لأنَّ عالمَ الملكِ أسهلُ منهُ طريقاً ، وعالمُ الملكوتِ أوعرُ منهُ منهجاً ، وإنَّما عالمُ الجبروتِ بينَ عالمِ الملكِ وعالمِ الملكوتِ يشبهُ السفينةَ التي هيَ في الحركةِ بينَ الأرضِ والماءِ ، فلا هيَ في حدِّ اضطرابِ الماءِ ، ولا هيَ في حدِّ سكونِ الأرضِ وثباتِها ، وكلُّ مَنْ يمشي على الأرضِ يمشي في عالمِ الملكِ والشهادةِ ، فإنْ جاوزَتْ قوتُهُ إلىٰ أنْ يقوىٰ علىٰ ركوبِ السفينةِ . . كانَ كمَنْ يمشي في عالمِ الجبروتِ ، فإنِ انتهىٰ إلىٰ أنْ يمشيَ على الماءِ مِنْ غيرِ سفينةٍ . . مشىٰ في عالمِ الملكوتِ مِنْ غيرِ تتعتعٍ .

فإنْ كنتَ لا تقدرُ على المشيِ على الماءِ . . فانصرفْ ، فقدْ جاوزتَ الأرضَ وخلفتَ السفينةَ ، ولمْ يبقَ بينَ يديكَ إلا الماءُ الصافي ، وأوَّلُ عالمِ الملكوتِ مشاهدةُ القلمِ الذي يُكتبُ بهِ العلمُ في لوحِ القلبِ ، وحصولُ اليقينِ الذي يُمْشَىٰ بهِ على الماءِ ، أما سمعتَ قولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في عيسىٰ عليهِ السلامُ : « لوِ ازدادَ يقيناً . . لمشىٰ على الهواءِ » لما قيلَ لهُ : إنَّهُ كانَ يمشي على الماءِ ؟[1] .

فقالَ السالكُ السائلُ : قدْ تحيَّرتُ في أمري ، واستشعرَ قلبي خوفاً ممَّا

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نوادره » (ص ٣٠٣) ، والبيهقي في « الزهد » (٩٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٥٦) .

وصفتهُ مِنْ خطرِ الطريقِ ، ولستُ أدري أطيقُ قطعَ هـٰذهِ المهامهِ التي وصفتَها أمْ لا ، فهلْ لذلكَ مِنْ علامةٍ ؟

فقالَ : نعمِ ، افتحْ بصرَكَ ، واجمعْ ضوءَ عينيكَ وحدِّقْهُ نحوي ، فإنْ ظهرَ لكَ القلمُ الذي بهِ اكتُتِبَ في لوحِ القلبِ . . فيشبهُ أنْ تكونَ أهلاً لهـٰذا الطريقِ ، فإنَّ كلَّ مَنْ جاوزَ عالمَ الجبروتِ وقرعَ أوَّلَ بابٍ مِنْ أبوابِ الملكوتِ . . كُوشفَ بالقلمِ ، أما ترىٰ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أوَّلِ أمرِهِ كُوشفَ بالقلمِ ؛ إذْ نزلَ عليهِ : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

فقالَ السالكُ : لقدْ فتحتُ بصري وحدَّقتُهُ ، فواللهِ ؛ ما أرىٰ قصباً ولا خشباً ، ولا أعلمُ قلماً إلا كذلكَ .

فقالَ العلمُ : لقدْ أبعدتَ النُّجعةَ ، أما سمعتَ أنَّ متاعَ البيتِ يشبهُ ربَّ البيتِ ؟ أما علمتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ لا تشبهُ ذاتُهُ سائرَ الذواتِ ؟ فكذلكَ لا تشبهُ يدُهُ الأيديَ ولا قلمُهُ الأقلامَ ، ولا كلامُهُ سائرَ الكلامِ ، ولا خطُّهُ سائرَ الخطوطِ ، وهـٰذهِ أمورٌ إلـٰهيَّةٌ مِنْ عالمِ الملكوتِ ، فليسَ اللهُ تعالىٰ في ذاتِهِ بجسمٍ ، ولا هوَ في مكانٍ بخلافِ غيرِهِ ، ولا يدُهُ لحمٌ وعظمٌ ودمٌ بخلافِ الأيدي ، ولا قلمُهُ مِنْ قصبٍ ، ولا لوحُهُ مِنْ خشبٍ ، ولا كلامُهُ صوتٌ وحرفٌ ، ولا خطُّهُ رقمٌ ورسمٌ ، ولا حبرُهُ زاجٌ وعفصٌ ، فإنْ كنتَ لا تشاهدُ هـٰذا هـٰكذا . . فما أراكَ إلا مخنثاً بينَ فحولةِ التنزيهِ وأنوثةِ التشبيهِ ، مذبذباً

بينَ هٰذا وذاكَ ، لا إلىٰ هؤلاءِ ولا إلىٰ هؤلاءِ ، فكيفَ نزَّهتَ ذاتَهُ تعالىٰ وصفاتِهِ عنِ الأجسامِ وصفاتِها ونزهتَ كلامَهُ عنْ معاني الحروفِ والأصواتِ وأخذتَ تتوقَّفُ في يدِهِ وقلمِهِ ولوحِهِ وخطِّهِ ؟!

فإنْ كنتَ قدْ فهمتَ مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ »(١) الصورةَ الظاهرةَ المدركةَ بالبصرِ . . فكنْ مشبِّهاً مطلقاً ؛ كما يُقالُ : كُنْ يهودياً صِرْفاً وإلا . . فلا تلعبْ بالتوراةِ .

وإنْ فهمتَ منهُ الصورةَ الباطنةَ التي تُدركُ بالبصائرِ لا بالأبصارِ . . فكنْ منزِّهاً صرفاً ومقدِّساً فحلاً ، واطوِ الطريقَ ، فإنَّكَ بالوادِ المقدَّسِ طوىً ، واستمعْ بسرِّ قلبِكَ لما يُوحىٰ ، فلعلَّكَ تجدُ على النارِ هدىً ، ولعلَّكَ مِنْ سرادقاتِ العزِّ تُنادىٰ بما نُودي بهِ موسىٰ : إنِّي أنا ربُّكَ الأعلىٰ .

فلمَّا سمعَ السالكُ مِنَ العلمِ ذلكَ . . استشعرَ قصورَ نفسِهِ ، وأنَّهُ مخنَّثٌ بينَ التشبيهِ والتنزيهِ ، فاشتعلَ قلبُهُ ناراً مِنْ حدَّةِ غضبِهِ علىٰ نفسِهِ لمَّا رآها بعينِ النقصِ ، ولقدْ كانَ زيتُهُ الذي في مشكاةِ قلبِهِ يكادُ يضيءُ ولوْ لمْ تمسسْهُ نارٌ ، فلما نفخَ فيهِ العلمُ بحدَّتِهِ . . اشتعلَ زيتُهُ ، فأصبحَ نوراً علىٰ نورٍ ، فقالَ لهُ العلمُ : اغتنمِ الآنَ هٰذهِ الفرصةَ وافتحْ بصرَكَ ، فلعلَّكَ تجدُ على النارِ هدىً ، ففتحَ بصرَهُ ، فانكشفَ لهُ القلمُ الإلٰهيُّ ، فإذا هوَ كما وصفَهُ العلمُ في التنزيهِ ، ما هوَ مِنْ خشبٍ ولا قصبٍ ، ولا لهُ رأسٌ ولا ذنبٌ ،

(١) رواه مسلم (٢٦١٢/١١٥) .

وهوَ يكتبُ على الدوامِ في قلوبِ البشرِ كلِّهِمْ أصنافَ العلومِ ، وكأنَّ لهُ في كلِّ قلبٍ رأساً ولا رأسَ لهُ ، فقضىٰ منهُ العجبَ وقالَ : نعمَ الرفيقُ العلمُ ، جزاهُ اللهُ عنِّي خيراً إذِ الآنَ ظهرَ لي صدقُ أنبائِهِ عنْ أوصافِ القلمِ ، فإنِّي أراهُ قلماً لا كالأقلامِ .

فعندَ هـٰذا ودَّعَ العلمَ وشكرَهُ ، وقالَ : قدْ طالَ مقامي عندَكَ ، ومرادَّتي لكَ ، وأنا عازمٌ علىٰ أنْ أسافرَ إلىٰ حضرةِ القلمِ فأسألَهُ عنْ شأنِهِ .

فسافرَ إليهِ ، وقالَ : ما بالُكَ أيُّها القلمُ تخطُّ على الدوامِ في القلوبِ مِنَ العلومِ ما تبعثُ بهِ الإراداتِ إلىٰ إشخاصِ القدرةِ وصرفِها إلى المقدوراتِ ؟

فقالَ : لقدْ نسيتَ ما رأيتَ في عالمِ الملكِ والشهادةِ وسمعتَهُ مِنْ جوابِ القلمِ إذْ سألتَهُ فأحالَكَ على اليدِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فجوابي مثلُ جوابِهِ .

قالَ : وكيفَ وأنتَ لا تشبهُهُ ؟

قالَ القلمُ : أما سمعتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : فسلْ عنْ شأني الملقبَ بيمينِ الملكِ ؛ فإنِّي في قبضتِهِ ، هوَ الذي يردِّدُني ، وأنا مقهورٌ مسخَّرٌ ، فلا فرقَ بينَ القلمِ الإلـٰهيِّ وقلمِ الآدميِّ في معنى التسخيرِ ، وإنَّما الفرقُ في ظاهرِ الصورةِ .

فقالَ : ومَنْ يمينُ الملكِ ؟ فقالَ القلمُ : أما سمعتَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ قالَ : نعمْ ، قالَ : فالأقلامُ أيضاً في قبضةِ يمينِهِ ، هوَ الذي يردِّدُها .

فسافرَ السالكُ مِنْ حضرةِ القلمِ إلىٰ حضرةِ اليمينِ حتَّىٰ شاهدَهُ ، ورأىٰ مِنْ عجائبِهِ ما يزيدُ علىٰ عجائبِ القلمِ ، ولا يجوزُ وصفُ شيءٍ مِنْ ذلكَ ولا شرحُهُ ، بلْ لا تحوي مجلداتٌ كثيرةٌ عشرَ عَشيرِ وصفِهِ ، والجملةُ فيهِ : أنَّهُ يمينٌ لا كالأيمانِ ، ويدٌ لا كالأيدي ، وإصبعٌ لا كالأصابعِ ، فرأى القلمَ محرَّكاً في قبضتِهِ ، فظهرَ لهُ عذرُ القلمِ ، فسألَ اليمينَ عنْ شأنِهِ وتحريكِهِ للقلمِ ، فقالَ : جوابي ما سمعتَهُ مِنَ اليمينِ التي رأيتَها في عالمِ الشهادةِ ، وهوَ الحوالةُ على القدرةِ ؛ إذِ اليدُ لا حكمَ لها في نفسِها ، وإنَّما محرِّكُها القدرةُ لا محالةَ .

فسافرَ السالكُ إلىٰ عالمِ القدرةِ ، ورأىٰ فيهِ مِنَ العجائبِ ما استحقرَ عندَها ما قبلَهُ ، وسألَها عنْ تحريكِ اليمينِ ، فقالَتْ : إنَّما أنا صفةٌ ، فاسألِ القادرَ ؛ إذِ العهدةُ على الموصوفاتِ لا على الصفاتِ .

وعندَ هـٰذا كادَ أنْ يزيغَ ويطلقَ بالجرأةِ لسانَ السؤالِ ، فثُبِّتَ بالقولِ الثابتِ ونُوديَ مِنْ وراءِ حجابِ سرادقاتِ الحضرةِ : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ ، فغشيَتْهُ هيبةُ الحضرةِ ، فخرَّ صعقاً يضطربُ في غشيتِهِ مدةً ، فلمَّا أفاقَ . . قالَ : سبحانَكَ ! ما أعظمَ شانَكَ ! تبتُ إليكَ[1] ، وتوكلتُ عليكَ[2] ، وآمنتُ بأنَّكَ الملكُ الجبَّارُ ، الواحدُ القهَّارُ ، فلا أخافُ غيرَكَ ،

---

(١) أي : رجعت عما كنت عازماً عليه في السؤال عن مثل هـٰذه الحقائق . «إتحاف» (٩/ ٤٠٩) .

(٢) فلا يتم مقام التوكل إلا بعد ملاحظة عظمة شأنه وألوهيته ، والانصراف إليه بكليته . «إتحاف» (٩/ ٤٠٩) .

ولا أرجو سواكَ ، ولا أعوذُ إلا بعفوكَ مِنْ عقابِكَ ، وبرضاكَ مِنْ سخطِكَ ، وما لي إلا أنْ أسألَكَ وأتضرعَ إليكَ وأبتهلَ بينَ يديكَ ، فأقولُ : اشرحْ لي صدري لأعرفَكَ ، واحللْ عقدةً مِنْ لساني لأثنيَ عليكَ .

فنُودِيَ مِنْ وراءِ الحجابِ : إيَّاكَ أنْ تطمعَ في الثناءِ ، وتزيدَ علىٰ سيِّدِ الأنبياءِ ، بلِ ارجعْ إليهِ ، فما آتاكَ فخذْهُ ، وما نهاكَ عنهُ فانتهِ عنهُ ، وما قالَهُ فقلْهُ ، فإنَّهُ ما زادَ في هـٰذهِ الحضرةِ علىٰ أنْ قالَ : « سبحانَكَ ! لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ »[1] .

فقالَ : إلـٰهي ؛ إنْ لمْ يكنْ للسانِ جرأةٌ على الثناءِ عليكَ . . فهلْ للقلبِ مطمعٌ في معرفتِكَ ؟

فنُودِيَ : إيَّاكَ وأنْ تتخطىٰ رقابَ الصدِّيقينَ ، فارجعْ إلى الصدِّيقِ الأكبرِ واقتدِ بهِ ، فإنَّ أصحابَ سيِّدِ الأنبياءِ كالنجومِ ، بأيِّهمُ اقتديتُمْ . . اهتديتُمْ[2] ، أما سمعتَهُ يقولُ : (العجزُ عنْ دركِ الإدراكِ إدراكٌ) ؟ فيكفيكَ

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦) .

(٢) وقد ورد هـٰذا مرفوعاً ، ومن المرفوع ما رواه مسلم (٢٥٣١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً : « النجوم أمنة للسماء ، فإذا ذهبت النجوم . . أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي ، فإذا ذهبت . . أتىٰ أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمنة لأمتي ، فإذا ذهب أصحابي . . أتىٰ أمتي ما يوعدون » ، وهـٰذا الحديث ـ كما قال البيهقي في « الاعتقاد » (ص٤٣٩) ـ يؤدي بعض معنى الأثر المشهور : « أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم . . اهتديتم » .

نصيباً مِنْ حضرتِنا أنْ تعرفَ أنَّكَ محرومٌ عنْ حضرتِنا ، عاجزٌ عنْ ملاحظةِ جمالِنا وجلالِنا .

فعندَ هٰذا رجعَ السالكُ واعتذرَ عنْ أسولتِهِ ومعاتباتِهِ[1] ، وقالَ لليمينِ والقلمِ والعلمِ والإرادةِ والقدرةِ وما بعدَها : اقبلوا عذري ؛ فإنِّي كنتُ غريباً حديثَ العهدِ بالدخولِ في هٰذهِ البلادِ ، ولكلِّ داخلٍ دهشةٌ ، فما كانَ إنكاري عليكُمْ إلا عنْ قصورٍ وجهلٍ ، والآنَ قدْ صحَّ عندي عذرُكُمْ ، وانكشفَ لي أنَّ المنفردَ بالملكِ والملكوتِ والعزةِ والجبروتِ . . هوَ الواحدُ القهَّارُ ، فما أنتُمْ إلا مسخَّرونَ تحتَ قهرِهِ وقدرتِهِ ، مردَّدونَ في قبضتِهِ ، وهوَ الأوَّلُ والآخرُ ، والظاهرُ والباطنُ .

فلمَّا ذكرَ ذلكَ في عالمِ الشهادةِ . . استُبعدَ منهُ ذلكَ ، وقيلَ لهُ : كيفَ يكونُ هوَ الأوَّلَ والآخرَ وهما وصفانِ متناقضانِ ؟ وكيفَ يكونُ هوَ الظاهرَ والباطنَ والأوَّلُ ليسَ بآخرٍ والظاهرُ ليسَ بباطنٍ ؟

فقالَ : هوَ الأوَّلُ بالإضافةِ إلى الموجوداتِ ؛ إذْ صدرَ منهُ الكلُّ علىٰ ترتيبِهِ واحداً بعدَ واحدٍ ، وهوَ الآخرُ بالإضافةِ إلىٰ سيرِ المسافرينَ إليهِ ؛ فإنَّهُمْ لا يزالونَ مترقِّينَ مِنْ منزلٍ إلىٰ منزلٍ إلىٰ أنْ يقعَ الانتهاءُ إلىٰ تلكَ الحضرةِ ، فيكونَ ذلكَ آخرَ السفرِ ، فهوَ آخرٌ في المشاهدةِ ، أوَّلٌ في الوجودِ .

---

(١) كذا في جميع النسخ : (أسولته) ، **وأسولة** : جمع سُوَال بتسهيل الهمزة ، وهو جمع صحيح ، حكاه ابن جني .

وهوَ باطنٌ بالإضافةِ إلى العاكفينَ في عالمِ الشهادةِ ، الطالبينَ لإدراكِهِ بالحواسِّ الخمسِ ، ظاهرٌ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ يطلبُهُ في السراجِ الذي اشتعلَ في قلبِهِ بالبصيرةِ الباطنةِ النافذةِ في عالمِ الملكوتِ(١) .

فهـٰذا كانَ توحيدَ السالكينَ لطريقِ التوحيدِ في الفعلِ ؛ أعني : مَنِ انكشفَ لهُ أنَّ الفاعلَ واحدٌ .

فإنْ قلتَ : فقدِ انتهىٰ هـٰذا التوحيدُ إلىٰ أنْ يُبتنىٰ على الإيمانِ بعالمِ الملكوتِ ، فمَنْ لا يفهمُ ذلكَ أوْ يجحدُهُ . . فما طريقُهُ ؟

فأقولُ : أمَّا الجاحدُ . . فلا علاجَ لهُ إلا أنْ يُقالَ لهُ : إنكارُكَ لعالمِ الملكوتِ كإنكارِ السُّمَنيَّةِ لعالمِ الجبروتِ(٢) ، وهُمُ الذينَ حصروا العلومَ في الحواسِّ الخمسِ ، فأنكروا القدرةَ والإرادةَ والعلمَ ؛ لأنَّها لا تُدركُ بالحواسِّ الخمسِ ، ولازموا حضيضَ عالمِ الشهادةِ .

فإنْ قالَ : وأنا منهُمْ ؛ فإنِّي لا أهتدي إلا إلىٰ عالمِ الشهادةِ بالحواسِّ الخمسِ ، ولا أعلمُ شيئاً سواهُ . . فيُقالُ : إنكارُكَ لما شاهدناهُ ممَّا وراءَ

(١) وقد اعتُرِض على المصنف بسياقه لهـٰذه الحكاية بجملة من الأسئلة والإشكالات ، أجاب عنها في « إملائه » بما لا غنىٰ لمن قصُرَ فهمه للعبائر هنا عنه .

(٢) السمنية : بضم السين وفتح الميم المخففة ، نسبة إلىٰ صنم عند الهنود يقال له : سومنات ، وقد اندثر ، وهم قوم من عبدة الأوثان قائلون بالتناسخ ، وبأنه لا طريق للعلم سوى الحس فقط . انظر « كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم » (١/ ٩٧٦) .

الحواسِّ الخمسِ كإنكارِ السوفسطائيةِ للحواسِّ الخمسِ[١] ؛ فإنَّهُمْ قالوا : ما نراهُ لا نثقُ بهِ ، فلعلَّنا نراهُ في المنامِ !

فإنْ قالَ : وأنا مِنْ جملتِهِمْ ؛ فإنِّي شاكٌّ أيضاً في المحسوساتِ . . فيُقالُ : هٰذا شخصٌ فسدَ مزاجُهُ ، وامتنعَ علاجُهُ ، فيُترَكُ أياماً قلائلَ ، فلا كلُّ مريضٍ يقوىٰ علىٰ علاجِهِ الأطباءُ .

هٰذا حكمُ الجاحدِ .

وأمَّا الذي لا يجحدُ ، ولكنْ لا يفهمُ . . فطريقُ السالكينَ معَهُ أنْ ينظروا إلىٰ عينِهِ التي بها يشاهدُ عالمَ الملكوتِ ، فإنْ وجدوها صحيحةً في الأصلِ ، وقدْ نزلَ فيها ماءٌ أسودُ يقبلُ الإزالةَ والتنقيةَ . . اشتغلوا بتنقيتِهِ اشتغالَ الكحَّالِ بالأبصارِ الظاهرةِ ، فإذا استوىٰ بصرُهُ . . أُرشدَ إلى الطريقِ ليسلكَهُ ، كما فعلَ ذلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بخواصِّ أصحابِهِ[٢] .

وإنْ كانَ غيرَ قابلٍ للعلاجِ ، فلمْ يمكنْهُ أنْ يسلكَ الطريقَ الذي ذكرناهُ في التوحيدِ ، ولمْ يمكنْهُ أنْ يسمعَ كلامَ ذرَّاتِ الملكِ والملكوتِ بشهادةِ التوحيدِ . . كلَّموهُ بحرفٍ وصوتٍ ، وردُّوا ذروةَ التوحيدِ إلىٰ حضيضِ

---

(١) **السوفسطائية** : فرقة ينكرون الحسيات والبديهيات والضروريات ، فلم يكتفوا بما أنكره السمنية ، بل زادوا عليها إنكار مدرك الحس ، وهم علىٰ طوائف . انظر « كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم » (١/ ٩٥٧) .

(٢) أزال بنظره إليهم العلل الباطنة ، فأشرقت الأنوار في صدورهم وأعينهم ، ثم أرشدهم . « إتحاف » (٩/ ٤١٨) .

فهمِهِ ، فإنَّ في عالمِ الشهادةِ أيضاً توحيداً ؛ إذْ يعلمُ كلُّ أحدٍ أنَّ المنزلَ يفسدُ بصاحبينِ ، والبلدَ يفسدُ بأميرينِ ، فيُقالُ لهُ علىٰ حدِّ عقلِهِ : إلـٰهُ العالمِ واحدٌ ، والمدبِّرُ واحدٌ ؛ إذْ لوْ كانَ فيهِما آلهةٌ إلا اللهُ . . لفسدتا ، فيكونُ ذلكَ علىٰ ذوقِ ما رآهُ في عالمِ الشهادةِ ، فينغرسُ اعتقادُ التوحيدِ في قلبِهِ بهـٰذا الطريقِ اللائقِ بقدْرِ عقلِهِ ، وقدْ كُلِّفَ الأنبياءُ أنْ يكلِّموا الناسَ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ ، ولذلكَ نزلَ القرآنُ بلسانِ العربِ وعلىٰ حدِّ عادتِهِمْ في المحاورةِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فمثلُ هـٰذا التوحيدِ الاعتقاديِّ هلْ يصلحُ أنْ يكونَ عماداً للتوكُّلِ وأصلاً فيهِ ؟

فأقولُ : نعمْ ، فإنَّ الاعتقادَ إذا قويَ . . عمِلَ عمَلَ الكشفِ في إثارةِ الأحوالِ ، إلا أنَّهُ في الغالبِ يضعفُ ويتسارعُ إليهِ الاضطرابُ والتزلزلُ غالباً ، ولذلكَ يحتاجُ صاحبُهُ إلىٰ متكلِّمٍ يحرسُهُ بكلامِهِ ، أوْ إلىٰ أنْ يتعلَّمَ هوَ الكلامَ ليحرسَ بهِ العقيدةَ التي تلقَّفَها مِنْ أستاذِهِ أوْ مِنْ أبويهِ أوْ مِنْ أهلِ بلدِهِ .

وأمَّا الذي شاهدَ الطريقَ وسلكَهُ بنفسِهِ . . فلا يُخافُ عليهِ شيءٌ مِنْ ذلكَ ، بلْ لوْ كُشِفَ الغطاءُ . . لما ازدادَ يقيناً وإنْ كانَ يزدادُ وضوحاً ، كما أنَّ الذي يرىٰ إنساناً في وقتِ الإسفارِ لا يزدادُ يقيناً عندَ طلوعِ الشمسِ بأنَّهُ

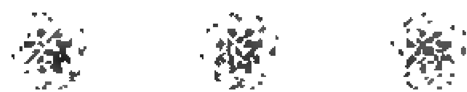
إنسانٌ ، ولكنْ يزدادُ وضوحاً في تفصيلِ خلقتِهِ .

وما مثالُ المكاشفينَ والمعتقدينَ إلا كسحرةِ فرعونَ معَ أصحابِ السامريِّ ، فإنَّ سحرةَ فرعونَ لمَّا كانوا مطلعينَ علىٰ منتهىٰ تأثيرِ السحرِ لطولِ مشاهدتِهِمْ وتجربتِهِمْ ، فرأَوا مِنْ موسىٰ عليهِ السلامُ ما جاوزَ حدودَ السحرِ . . انكشفَ لهُمْ حقيقةُ الأمرِ ، فلمْ يكترثوا بقولِ فرعونَ : (لأقطعَنَّ أيديَكُمْ وأرجلَكُمْ منْ خلافٍ) ، بلْ قالوا : (لنْ نؤثرَكَ علىٰ ما جاءَنا منَ البيِّناتِ والذي فطرَنا فاقضِ ما أنتَ قاضٍ إنَّما تقضي هـٰذهِ الحياةَ الدنيا) ؛ فإنَّ البيانَ والكشفَ يمنعُ التغييرَ .

وأمَّا أصحابُ السامريِّ لمَّا كانَ إيمانُهُمْ عنِ النظرِ إلىٰ ظاهرِ الثعبانِ ، فلمَّا نظروا إلىٰ عجلِ السامريِّ وسمعوا خوارَهُ . . تغيَّروا وسمعوا قولَهُ : (هـٰذا إلـٰهُكُمْ وإلـٰهُ موسىٰ) ، ونسوا أنَّهُ لا يرجعُ إليهِم قولاً ، ولا يملكُ لهُمْ ضرّاً ولا نفعاً .

فكلُّ مَنْ آمنَ بالنظرِ إلىٰ ثعبانٍ يكفرُ ـ لا محالةَ ـ إذا نظرَ إلىٰ عجلٍ ؛ لأنَّ كليهِما مِنْ عالمِ الشهادةِ ، والاختلافُ والتضادُّ في عالمِ الشهادةِ كثيرٌ .

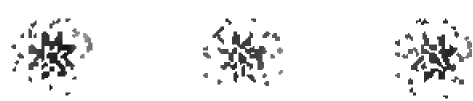
وأمَّا عالمُ الملكوتِ . . فهوَ مِنْ عندِ اللهِ تعالىٰ ، فلذلكَ لا تجدُ فيهِ اختلافاً وتناقضاً أصلاً .



فإنْ قلتَ : ما ذكرتَهُ مِنَ التوحيدِ ظاهرٌ مهما ثبتَ أنَّ الوسائطَ والأسبابَ

مسخراتٌ ، وكلُّ ذلكَ ظاهرٌ إلا في حركاتِ الإنسانِ ، فإنَّهُ يتحرَّكُ إنْ شاءَ ، ويسكنُ إنْ شاءَ ، فكيفَ يكونُ مسخَّراً ؟[1].

فاعلمْ : أنَّهُ لوْ كانَ معَ هـٰذا يشاءُ إنْ أرادَ أنْ يشاءَ ، ولا يشاءُ إنْ لمْ يردْ أنْ يشاءَ . . لكانَ هـٰذا مزلَّةَ القدمِ وموقعَ الغلطِ ، ولكنِ اعلمْ أنَّهُ يفعلُ ما يشاءُ إذا شاءَ ، ويشاءُ شاءَ أمْ لمْ يشأْ ، فليسَتِ المشيئةُ إليهِ ؛ إذْ لوْ كانَتْ إليهِ . . لافتقرَتْ إلىٰ مشيئةٍ أخرىٰ ، وتسلسلَ إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، وإذا لمْ تكنِ المشيئةُ إليهِ ؛ فمهما وُجدَتِ المشيئةُ التي تصرفُ القدرةَ إلىٰ مقدورِها . . انصرفَتِ القدرةُ لا محالةَ ، ولمْ يكنْ لها سبيلٌ إلى المخالفةِ ، فالحركةُ لازمةٌ ضرورةً بالقدرةِ ، والقدرةُ محركةٌ ضرورةً عندَ انجزامِ المشيئةِ ، والمشيئةُ تحدثُ ضرورةً في القلبِ ، فهـٰذهِ ضروراتٌ ترتبَ بعضُها علىٰ بعضٍ ، وليسَ للعبدِ أنْ يدفعَ وجودَ المشيئةِ ولا انصرافَ القدرةِ إلى المقدورِ بعدَها ، ولا وجودَ الحركةِ بعدَ بعثِ المشيئةِ للقدرةِ ، فهوَ مضطرٌّ في الجميعِ .



فإنْ قلتَ : فهـٰذا جبرٌ محضٌ ، والجبرُ يناقضُ الاختيارَ ، وأنتَ لا تنكرُ الاختيارَ ، فكيفَ يكونُ مجبوراً مختاراً ؟

فأقولُ : لوِ انكشفَ الغطاءُ . . لعرفتَ أنَّهُ في عينِ الاختيارِ مجبورٌ ، فهوَ إذاً مجبورٌ على الاختيارِ ، فكيفَ يفهمُ هـٰذا مَنْ لا يفهمُ الاختيارَ ؟

---

(١) والتسخير يناقض الاختيار .

فلنشرحِ الاختيارَ بلسانِ المتكلِّمينَ شرحاً وجيزاً يليقُ بما ذُكِرَ متطفلاً وتابعاً ، فإنَّ هـٰذا الكتابَ لمْ نقصدْ بهِ إلا علمَ المعاملةِ ، ولكنِّي أقولُ : لفظُ الفعلِ في الإنسانِ يُطلقُ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ ؛ إذْ يُقالُ : الإنسانُ يكتبُ بالأصابعِ ، ويتنفَّسُ بالرئةِ والحَنْجَرةِ ، ويخرقُ الماءَ إذا وقفَ عليهِ بجسمِهِ ، فيُنسبُ إليهِ الخرقُ في الماءِ ، والتنفسُ ، والكتابةُ ، وهـٰذهِ الثلاثةُ في حقيقةِ الاضطرارِ والجبرِ واحدٌ ، ولكنَّها تختلفُ وراءَ ذلكَ في أمورٍ ، فأُعرِبَ لذلكَ عنها بثلاثِ عباراتٍ ، فسُمِّيَ خرقُهُ للماءِ عندَ وقوعِهِ علىٰ وجهِهِ فعلاً طبيعياً ، ويُسمَّىٰ تنفسُهُ فعلاً إرادياً ، وسُمِّيَتْ كتابتُهُ فعلاً اختيارياً .

والجبرُ ظاهرٌ في الفعلِ الطبيعيِّ ؛ لأنَّهُ مهما وقفَ علىٰ وجهِ الماءِ أوْ تخطَّىٰ مِنَ السطحِ الهواءَ . . انخرقَ لا محالةَ ، فيكونُ الخرقُ بعدَ التخطِّي ضرورياً .

والتنفُّسُ في معناهُ ، فإنَّ نسبةَ حركةِ الحَنْجَرةِ إلىٰ إرادةِ التنفُّسِ كنسبةِ انخراقِ الماءِ إلىٰ ثقلِ البدنِ ، فمهما كانَ الثقلُ موجوداً . . وُجِدَ الانخراقُ بعدَهُ ، وليسَ الثقلُ إليهِ ، فكذلكَ الإرادةُ ليسَتْ إليهِ ، ولذلكَ لوْ قصدَ عينَ الإنسانِ بإبرةٍ . . طبقَ الأجفانَ اضطراراً ، ولوْ أرادَ أنْ يتركَها مفتوحةً . . لمْ يقدرْ معَ أنَّ تغميضَ الأجفانِ فعلٌ إراديٌّ ، ولكنَّهُ إذا تمثَّلَ صورةَ الإبرةِ في مشاهدتِهِ بالإدراكِ . . حدثَتِ الإرادةُ للتغميضِ ضرورةً ، وحدثَتِ الحركةُ بها ، ولوْ أرادَ أنْ يتركَ التغميضَ . . لمْ يقدرْ عليهِ ، معَ أنَّهُ فعلٌ بالقدرةِ والإرادةِ ؛ فقدِ التحقَ هـٰذا بالفعلِ الطبيعيِّ في كونِهِ ضرورياً .

وأمَّا الثالثُ وهوَ الاختياريُّ . . فهوَ مظنَّةُ الالتباسِ ، كالكتابةِ والنطقِ ، وهوَ الذي يُقالُ فيهِ : إنْ شاءَ . . فعلَ ، وإنْ شاءَ . . لمْ يفعلْ ، وتارةً يشاءُ وتارةً لا يشاءُ ، فيُظنُّ مِنْ هـٰذا أنَّ الأمرَ إليهِ ، وهوَ للجهلِ بمعنى الاختيارِ ، فلنكشفْ عنهُ .

وبيانُهُ : أنَّ الإرادةَ تبعٌ للعلمِ الذي يحكمُ بأنَّ الشيءَ موافقٌ لكَ ، والأشياءُ تنقسمُ إلىٰ ما تحكمُ مشاهدتُكَ الظاهرةُ أوِ الباطنةُ بأنَّهُ يوافقُكَ مِنْ غيرِ تحيُّرٍ وتردُّدٍ ، وإلىٰ ما قدْ يتردَّدُ العقلُ فيهِ .

فالذي تقطعُ بهِ مِنْ غيرِ تردُّدٍ أنْ تُقصَدَ عينُكَ مثلاً بإبرةٍ أوْ بدنُكَ بسيفٍ ، فلا يكونُ في علمِكَ تردُّدٌ في أنَّ دفعَ ذلكَ خيرٌ لكَ وموافقٌ ، فلا جرمَ تنبعثُ الإرادةُ بالعلمِ ، والقدرةُ بالإرادةِ ، وتحصلُ حركةُ الأجفانِ بالدفعِ ، وحركةُ اليدِ بدفعِ السيفِ ، وذلكَ مِنْ غيرِ رويَّةٍ وفكرةٍ ، ويكونُ ذلكَ بالإرادةِ .

ومِنَ الأشياءِ ما يتوقَّفُ التمييزُ والعقلُ فيهِ ، فلا يُدرىٰ أنَّهُ موافقٌ أمْ لا ، فيحتاجُ إلىٰ رويَّةٍ وفكرٍ حتَّىٰ يتبيَّنَ أنَّ الخيرَ في الفعلِ أوِ التركِ ، فإذا حصلَ بالفكرِ والرويَّةِ العلمُ بأنَّ أحدَهُما خيرٌ . . التحقَ ذلكَ بالذي يُقطعُ بهِ مِنْ غيرِ رويَّةٍ وفكرٍ ، وانبعثَتِ الإرادةُ هـٰهنا كما تنبعثُ لدفعِ السيفِ والسنانِ ، فإذا انبعثَتْ لفعلِ ما ظهرَ للعقلِ أنَّهُ خيرٌ . . سُمِّيَتْ هـٰذهِ الإرادةُ اختياراً ؛ مشتقاً مِنَ الخيرِ ؛ أيْ : هوَ انبعاثٌ إلىٰ ما ظهرَ للعقلِ أنَّهُ خيرٌ ، وهوَ عينُ تلكَ الإرادةِ ، ولمْ ينتظرْ في انبعاثِها إلا ما انتظرَتْ تلكَ الإرادةُ ، وهوَ ظهورُ

خيريَّةِ الفعلِ في حقِّهِ ، إلا أنَّ الخيريَّةَ في دفعِ السيفِ ظهرَتْ مِنْ غيرِ رويَّةٍ ، بلْ على البديهةِ ، وهـٰذا افتقرَ إلى الرويَّةِ .

فالاختيارُ عبارةٌ عنْ إرادةٍ خاصَّةٍ ، وهيَ التي انبعثَتْ بإشارةِ العقلِ فيما لهُ في إدراكِهِ توقُّفٌ ، وعنْ هـٰذا قيلَ : إنَّ العقلَ يُحتاجُ إليهِ للتمييزِ بينَ خيرِ الخيرينِ وشرِّ الشرينِ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ تنبعثَ الإرادةُ إلا بحكمِ الحسِّ والتخييلِ ، أوْ بحكمٍ جزمٍ مِنَ العقلِ ، ولذلكَ لوْ أرادَ الإنسانُ أنْ يحزَّ رقبةَ نفسِهِ مثلاً . . لمْ يمكنْهُ ، لا لعدمِ القدرةِ في اليدِ ، ولا لعدمِ السكينِ ، ولكنْ لفقدِ الإرادةِ الداعيةِ المشخصةِ للقدرةِ ، وإنَّما فُقدَتِ الإرادةُ لأنَّها تنبعثُ بحكمِ العقلِ أوِ الحسِّ بكونِ الفعلِ موافقاً ، وقتلُهُ نفسَهُ ليسَ موافقاً لهُ ، فلا يمكنُهُ معَ قوَّةِ الأعضاءِ أنْ يقتلَ نفسَهُ إلا إذا كانَ في عقوبةٍ مؤلمةٍ لا تُطاقُ ، فإنَّ العقلَ هـٰهنا يتوقَّفُ في الحكمِ ويتردَّدُ ؛ لأنَّهُ تردُّدٌ بينَ شرِّ الشرَّينِ ، فإنْ ترجَّحَ لهُ بعدَ الرويَّةِ أنَّ تركَ القتلِ أقلُّ شرّاً . . لمْ يمكنْهُ قتلُ نفسِهِ ، وإنْ حكمَ بأنَّ القتلَ أقلُّ شرّاً ، وكانَ حكمُهُ جزماً لا ميلَ فيهِ ولا صارفَ عنهُ . . انبعثَتِ الإرادةُ والقدرةُ وأهلكَ نفسَهُ ؛ كالذي يُتبعُ بالسيفِ للقتلِ ، فإنَّهُ يرمي بنفسِهِ مِنَ السطحِ مثلاً وإنْ كانَ مهلكاً ولا يبالي ، ولا يمكنُهُ ألا يرميَ نفسَهُ ، وإنْ كانَ يُتبعُ بضربٍ خفيفٍ ؛ فإنِ انتهىٰ إلىٰ طرفِ السطحِ . . حكمَ العقلُ بأنَّ الضربَ أهونُ مِنَ الرمي ، فوقفَتْ أعضاؤُهُ ، فلا يمكنُهُ أنْ يرميَ نفسَهُ ، ولا تنبعثُ لهُ داعيةٌ ألبتةَ ؛ لأنَّ داعيةَ الإرادةِ مسخَّرةٌ لحكمِ العقلِ والحسِّ ، والقدرةُ مسخَّرةٌ للداعيةِ ، والحركةُ مسخَّرةٌ للقدرةِ ، والكلُّ يصدرُ بالضرورةِ

فيهِ مِنْ حيثُ لا يدري ، فإنَّما هوَ محلٌّ ومجرىً لهـٰذهِ الأمورِ ، فأمَّا أنْ يكونَ منهُ . . فكلا ولا .

فإذاً ؛ معنىٰ كونِهِ مجبوراً : أنَّ جميعَ ذلكَ حاصلٌ فيهِ مِنْ غيرِهِ لا منهُ ، ومعنىٰ كونِهِ مختاراً : أنَّهُ محلٌّ لإرادةٍ حدثَتْ فيهِ جبراً بعدَ حكمِ العقلِ بكونِ الفعلِ خيراً محضاً موافقاً ، وحدثَ الحكمُ أيضاً جبراً ، فإذاً هوَ مجبورٌ على الاختيارِ ، ففعلُ النارِ في الإحراقِ مثلاً جبرٌ محضٌ ، وفعلُ اللهِ تعالى اختيارٌ محضٌ ، وفعلُ الإنسانِ علىٰ منزلةٍ بينَ المنزلتينِ ، فإنَّهُ جبرٌ على الاختيارِ ، فطلبَ أهلُ الحقِّ لهـٰذا عبارةً ثالثةً لما كانَ فنّاً ثالثاً ، وتيمَّنوا فيهِ بكتابِ اللهِ تعالىٰ[1] ، فسمَّوهُ : كسباً ، وليسَ مناقضاً للجبرِ ولا للاختيارِ ، بلْ هوَ جامعٌ بينَهُما عندَ مَنْ فهمَهُ .

وفعلُ اللهِ تعالىٰ يُسمَّى اختياراً بشرطِ ألا يُفهمَ مِنَ الاختيارِ إرادةٌ بعدَ تحيُّرٍ وتردُّدٍ ، فإنَّ ذلكَ في حقِّه محالٌ ، وجميعُ الألفاظِ المذكورةِ في اللغاتِ لا يمكنُ أنْ تُستعملَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ إلا علىٰ نوعٍ مِنَ الاستعارةِ والتجوُّزِ ، وذكرُ ذلكَ لا يليقُ بهـٰذا العلمِ ، ويطولُ القولُ فيهِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فهلْ تقولُ إنَّ العلمَ ولَّدَ الإرادةَ ، والإرادةَ ولَّدَتِ القدرةَ ،

---

(١) في قوله عز شأنه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ ، ومن تمسك بلفظ الاختيار . . لم يعب عليه .

والقدرةَ ولَّدَتِ الحركةَ ، وإنَّ كلَّ متأخِّرٍ حدثَ مِنَ المتقدِّمِ ؟ فإنْ قلتَ ذلكَ . . فقدْ حكمتَ بحدوثِ شيءٍ لا مِنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ ، وإنْ أبيتَ ذلكَ . . فما معنىٰ ترتُّبِ البعضِ مِنْ هٰذا على البعضِ ؟

فاعلم : أنَّ القولَ بأنَّ بعضَ ذلكَ حدثَ عنْ بعضٍ جهلٌ محضٌ ، سواءٌ عُبِّرَ عنهُ بالتولُّدِ أوْ بغيرِهِ[1] ، بلْ حوالةُ جميعِ ذلكَ على المعنى الذي يُعبَّرُ عنهُ بالقدرةِ الأزليَّةِ ، وهوَ الأصلُ الذي لمْ يقفْ كافَّةُ الخلقِ عليهِ إلا الراسخونَ في العلمِ فإنَّهُمْ وقفُوا علىٰ كنهِ معناهُ ، والكافةُ وقفُوا علىٰ مجرَّدِ لفظِهِ معَ نوعِ تشبيهٍ بقدرتِنا ، وهوَ بعيدٌ عنِ الحقِّ ، وبيانُ ذلكَ يطولُ ، ولكنْ بعضُ المقدوراتِ مترتِّبةٌ على البعضِ في الحدوثِ ترتُّبَ المشروطِ على الشرطِ ، فلا تصدرُ مِنَ القدرةِ الأزليَّةِ إرادةٌ إلا بعدَ علمٍ ، ولا علمٌ إلا بعدَ حياةٍ ، ولا حياةٌ إلا بعدَ محلٍّ للحياةِ .

وكما لا يجوزُ أنْ يُقالَ : الحياةُ حصلَتْ مِنَ الجسمِ الذي هوَ شرطُ الحياةِ . . فكذلكَ في سائرِ درجاتِ الترتيبِ ، ولكنْ بعضُ الشروطِ مما ظهرَ للعامَّةِ ، وبعضُها لمْ يظهرْ إلا للخواصِّ المكاشفينَ بنورِ الحقِّ ، وإلا . . فلا يتقدَّمُ متقدِّمٌ ولا يتأخَّرُ متأخِّرٌ إلا بالحقِّ واللزومِ ، وكذلكَ جميعُ أفعالِ اللهِ

---

(١) والذين عبَّروا عنه بالتولُّد وهم زعماء القائلين به في الفرق الإسلامية هم المعتزلة ، وهٰذه التحريجة وجوابها تمهيد للحديث عن العبارة المشهورة التي فاه بها المصنف : (ليس في الإمكان أبدع مما كان) .

تعالىٰ ، ولولا ذلكَ . . لكانَ التقديمُ والتأخيرُ عبثاً يضاهي فعلَ المجانينِ ، تعالى اللهُ عنْ قولِ الجاهلينَ علوّاً كبيراً .

وإلىٰ هـٰذا أشارَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ .

فكلُّ ما بينَ السماءِ والأرضِ حادثٌ علىٰ ترتيبٍ واجبٍ وحقٍّ لازمٍ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ إلا كما حدثَ ، وعلى الترتيب الذي وُجدَ ، فما تأخَّرَ متأخِّرٌ إلا لانتظارِ شرطِهِ ، والمشروطُ قبلَ الشرطِ محالٌ ، والمحالُ لا يُوصفُ بكونِهِ مقدوراً[1] ، فلا يتأخَّرُ العلمُ عنِ النطفةِ إلا لفقدِ شرطِ الحياةِ ، ولا تتأخَّرُ عنها الإرادةُ بعدَ العلمِ إلا لفقدِ شرطِ العلمِ ، وكلُّ ذلكَ علىٰ منهاجِ الواجبِ وترتيبِ الحقِّ ، ليسَ في شيءٍ مِنْ ذلكَ لعبٌ واتفاقٌ ، بلْ كلُّ ذلكَ بحكمةٍ وتدبيرٍ .

وتفهيمُ ذلكَ عسيرٌ ، ولكنَّا نضربُ لتوقُّفِ المقدورِ معَ وجودِ القدرةِ علىٰ وجودِ الشرطِ مثالاً يقرِّبُ مبادىءَ الحقِّ مِنَ الأفهامِ الضعيفةِ ، وذلكَ بأنْ تقدِّرَ إنساناً مُحْدِثاً قدِ انغمسَ في الماءِ إلىٰ رقبتِهِ ، فالحدثُ لا يرتفعُ عنْ أعضائِهِ وإنْ كانَ الماءُ هوَ الرافعَ وهوَ ملاقٍ لهُ ، فقدْرُ القدرةِ الأزليَّةِ حاضرةٌ ملاقيةٌ للمقدوراتِ متعلِّقةٌ بها ملاقاةَ الماءِ للأعضاءِ ، ولكنْ لا يحصلُ بها المقدورُ

---

(١) فلا يقال : إنه داخل في الإمكان ، ولو شاء الله . . لأوجده وأبدعه ؛ إذ القدرة لا تعلّق لها بالمستحيل ، والمشروط يستحيل تصور وقوعه قبل شرطه ، ولا يجب بعد شرطه ، فهو ممكن في ذاته ، وكلام المصنف هنا هينمة لما سيأتي تفصيله .

كما لا يحصلُ رفعُ الحدثِ بالماءِ انتظاراً للشرطِ ، وهوَ غسلُ الوجهِ ، فإذا وضعَ الواقفُ في الماءِ وجهَهُ على الماءِ .. عملَ الماءُ في سائرِ الأعضاءِ وارتفعَ الحدثُ ، فربَّما يظنُّ الجاهلُ أنَّ الحدثَ ارتفعَ عنِ اليدِ برفعِهِ عنِ الوجهِ ؛ لأنَّهُ حدثَ عَقيبَهُ ، إذْ يقولُ : كانَ الماءُ ملاقياً ولمْ يكنْ رافعاً ، والماءُ لمْ يتغيَّرْ عمَّا كانَ ، فكيفَ حصلَ منهُ ما لمْ يحصلْ مِنْ قبلُ ؟! بلْ حصلَ ارتفاعُ الحدثِ عنِ اليدِ عندَ غسلِ الوجهِ[1] ، فإذاً غسلُ الوجهِ هوَ الرافعُ للحدثِ عنِ اليدِ !

وهوَ جهلٌ يضاهي ظنَّ مَنْ يظنُّ أنَّ الحركةَ تحصلُ بالقدرةِ ، والقدرةَ بالإرادةِ ، والإرادةَ بالعلمِ ، وكلُّ ذلكَ خطأٌ ، بلْ عندَ ارتفاعِ الحدثِ عنِ الوجهِ ارتفعَ الحدثُ عنِ اليدِ بالماءِ الملاقي لها ، لا بغسلِ الوجهِ ، والماءُ لمْ يتغيَّرْ ، واليدُ لمْ تتغيَّرْ ، ولمْ يحدثْ فيهِما شيءٌ ، ولكنْ حدثَ وجودُ الشرطِ ، فظهرَ أثرُ العلَّةِ[2] .

---

(١) أي ـ والكلام على لسان المعترض ـ : (بل حصل ارتفاع الحدث عن اليد بغسل الوجه) ، إذ حصوله عنده لا به هو ما سيقرره المصنف ، **فالمراد بالعندية هنا عند المعترض : العلّية .**

(٢) وقد تبيَّن بهـٰذا المثال بأن السابق ليس مؤثراً في اللاحق ، فتأخُّر اللاحق عنه لا يدل قطعاً على تولُّده من السابق ، بل هي قضية شرط ومشروط ، يقول المصنف في « الاقتصاد » (ص٢٨٠) : (ومعلوم أنه يلزم من عدم الشرط عدمُ المشروط ، فإذا رأينا علْمَ الشخص مع حياته ، وإرادته مع علمه .. فيلزم ـ لا محالة ـ من تقدير انتفاءِ الحياة انتفاءُ العلم ، ومن تقدير انتفاء العلم انتفاءُ الإرادة ، ويعبَّر عن هـٰذا بالشرط ، **وهو الذي لا بد منه لوجود الشيء ، ولكن ليس وجود الشيء به ، بل عنده ومعه)** .

فهكذا ينبغي أنْ تفهمَ صدورَ المقدوراتِ مِنَ القدرةِ الأزليّةِ معَ أنَّ القدرةَ قديمةٌ والمقدوراتِ حادثةٌ ، وهٰذا قرعُ بابٍ آخرَ لعالمٍ آخرَ مِنْ عوالمِ المكاشفاتِ .

فلنتركْ جميعَ ذلكَ ؛ فإنَّ مقصودَنا التنبيهُ علىٰ طريقِ التوحيدِ في الفعلِ ، فإنَّ الفاعلَ بالحقيقةِ واحدٌ ، فهوَ المخُوفُ والمرجوُّ ، وعليهِ التوكُّلُ والاعتمادُ ، ولمْ نقدرْ علىٰ أنْ نذكرَ مِنْ بحارِ التوحيدِ إلا قطرةً مِنْ بحرِ المقامِ الثالثِ مِنْ مقاماتِ التوحيدِ ، واستيفاءُ ذلكَ في عمرِ نوحٍ محالٌ ؛ كاستيفاءِ ماءِ البحرِ بأخذِ القطراتِ منهُ ، وكلُّ ذلكَ ينطوي تحتَ قولِكَ : (لا إلٰهَ إلا اللهُ) ، وما أخفَّ مؤنتَهُ على اللسانِ ! وما أسهلَ اعتقادَ مفهومِ لفظِهِ على القلبِ ! وما أعزَّ حقيقتَهُ ولبَّهُ عندَ العلماءِ الراسخينَ في العلمِ ! فكيفَ عندَ غيرِهِمْ ؟!

* * *

فإنْ قلتَ : فكيفَ الجمعُ بينَ التوحيدِ والشرعِ ومعنى التوحيدِ أنْ لا فاعلَ إلا اللهُ تعالىٰ ومعنى الشرعِ إثباتُ الأفعالِ للعبادِ ؟ فإنْ كانَ العبدُ فاعلاً . . فكيفَ يكونُ اللهُ تعالىٰ فاعلاً ؟ وإنْ كانَ اللهُ تعالىٰ فاعلاً . . فكيفَ يكونُ العبدُ فاعلاً ؟ ومفعولٌ بينَ فاعلينِ غيرُ مفهومٍ ؟

فأقولُ : نعمْ ، ذلكَ غيرُ مفهومٍ إذا كانَ للفاعلِ معنىً واحدٌ ، وإنْ كانَ لهُ معنيانِ ويكونُ الاسمُ مجملاً مردَّداً بينَهُما . . لمْ يتناقضْ ، كما يُقالُ : قتلَ الأميرُ فلاناً ، ويُقالُ قتلَهُ الجلادُ ، ولكنِ الأميرُ قاتلٌ بمعنىً ، والجلادُ قاتلٌ

بمعنىً آخرَ ؛ فكذلكَ العبدُ فاعلٌ بمعنىً ، واللهُ عزَّ وجلَّ فاعلٌ بمعنىً آخرَ ، فمعنىٰ كونِ اللهِ تعالىٰ فاعلاً : أنَّهُ المخترِعُ الموجدُ ، ومعنىٰ كونِ العبدِ فاعلاً : أنَّهُ المحلُّ الذي خلقَ فيهِ القدرةَ بعدَ أنْ خلقَ فيهِ الإرادةَ بعدَ أنْ خلقَ فيهِ العلمَ ، فارتبطَتِ القدرةُ بالإرادةِ والحركةُ بالقدرةِ ارتباطَ الشرطِ بالمشروطِ ، وارتبطَ بقدرةِ اللهِ ارتباطَ المعلولِ بالعلَّةِ وارتباطَ المخترَعِ بالمخترِعِ ، وكلُّ ما لهُ ارتباطٌ بقدرةٍ فإنَّ محلَّ القدرةِ يُسمَّىٰ فاعلاً لهُ كيفَما كانَ الارتباطُ ؛ كما يُسمَّى الجلادُ قاتلاً والأميرُ قاتلاً ؛ لأنَّ القتلَ ارتبطَ بقدرتِهما ، ولكنْ علىٰ وجهينِ مختلفينِ ، فلذلكَ سُمِّيَ فعلاً لهُما ؛ فكذلكَ ارتباطُ المقدورِ بالقدرتينِ .

ولأجلِ توافقِ ذلكَ وتطابقِهِ نسبَ اللهُ تعالى الأفعالَ في القرآنِ مرَّةً إلى الملائكةِ ، ومرَّةً إلى العبادِ ، ونسبَها بعينِها مرَّةً أخرىٰ إلىٰ نفسِهِ ، فقالَ تعالىٰ في الموتِ : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ ، ثمَّ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ ، أضافَ الحرثَ إلينا ، ثمَّ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ ، ثمَّ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ ، وكانَ النافخُ جبريلَ عليهِ السلامُ .

وكما قالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ ، قيلَ في التفسيرِ : معناهُ : إذا قرأَهُ عليكَ جبريلُ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ ، فأضافَ القتلَ إليهِمْ والتعذيبَ إلىٰ نفسِهِ ، والتعذيبُ هوَ عينُ القتلِ ، بلْ صرَّحَ وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ وهوَ جمعٌ بينَ النفيِ والإثباتِ ظاهراً ، ولكنْ معناهُ : (وما رميتَ) بالمعنى الذي يكونُ الربُّ بهِ رامياً (إذْ رميتَ) بالمعنى الذي يكونُ العبدُ بهِ رامياً ؛ إذْ هما معنيانِ مختلفانِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، ثمَّ قالَ : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ، وقالَ : ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ ، وقالَ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ ، ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في وصفِ ملكِ الأرحامِ : « إنَّهُ يدخلُ الرحمَ ، فيأخذُ النطفةَ في يدِهِ ثمَّ يُصوِّرُها جسداً فيقولُ : يا ربِّ ؛ أذكرٌ أمْ أنثى ؟ أسويٌّ أمْ معوجٌّ ؟ فيقولُ اللهُ ما شاءَ ويخلقُ الملَكُ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « ويُصوِّرُ الملَكُ ، ثمَّ ينفخُ فيها الروحَ بالسعادةِ أوْ بالشقاوةِ »[1] .

وقدْ قالَ بعضُ السلفِ : إنَّ الملكَ الذي يُقالُ لهُ : الروحُ هوَ الذي يولجُ الأرواحَ في الأجسامِ ، وأنَّهُ يتنفَّسُ بوصفِهِ ، فيكونُ كلُّ نفسٍ مِنْ أنفاسِهِ

(١) كذا في « القوت » (٢/١٣) ، وقد رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٣٨٧٤) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/٢٢٧) ، والآجري في « الشريعة » (٣٦٥) ، وأصله في « الصحيحين » .

روحاً يلجُ في جسمٍ ، ولذلكَ سُمِّيَ روحاً[(١)] .

وما ذكرَهُ مِنْ مثلِ هـٰذا الملكِ وصفتِهِ فهوَ حقٌّ ، شاهدَهُ أربابُ القلوبِ ببصائرِهِمْ ، فأمَّا كونُ الروحِ عبارةً عنهُ . . فلا يمكنُ أنْ يُعلمَ إلا بالنقلِ ، والحكمُ بهِ دونَ النقلِ تخمينٌ مجرَّدٌ .

وكذلكَ ذكرَ اللهُ تعالىٰ في القرآنِ منَ الأدلَّةِ والآياتِ في الأرضِ والسماواتِ ثمَّ قالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، وقالَ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، فبيَّنَ أنَّهُ الدليلُ علىٰ نفسِهِ ، وذلكَ ليسَ بمتناقضٍ ، بلْ طرقُ الاستدلالِ مختلفةٌ ، فكمْ مِنْ طالبٍ عرفَ اللهَ تعالىٰ بالنظرِ إلى الموجوداتِ ، وكمْ مِنْ طالبٍ عرفَ كلَّ الموجوداتِ باللهِ تعالىٰ ؛ كما قالَ بعضُهُمْ : (عرفتُ ربِّي بربِّي ، ولولا ربِّي لما عرفتُ ربِّي)[(٢)] ، وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالىٰ نفسَهُ بأنَّهُ المحيي والمميتُ ، ثمَّ فوَّضَ الموتَ والحياةَ إلىٰ ملكينِ ، ففي الخبرِ : أنَّ ملكَ الموتِ وملكَ الحياةِ تناظرا ، فقالَ ملكُ الموتِ : أنا أميتُ الأحياءَ ، وقالَ ملكُ الحياةِ : أنا أحيي الموتىٰ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِما : كونا علىٰ عملِكُما وما سُخِّرتُما لهُ مِنَ الصنعِ ، وأنا المميتُ والمحيي ، لا مميتَ ولا محييَ سوايَ[(٣)] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٣) .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص٥١٤) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٣) .

فإذاً ؛ الفعلُ يُستعملُ علىٰ وجوهٍ مختلفةٍ ، فلا تتناقضُ هـٰذهِ المعاني إذا فهمَتْ ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للذي ناولَهُ التمرةَ : « خذْها ، لوْ لمْ تأتِها . . لأتتْكَ »[١] ، أضافَ الإتيانَ إليهِ وإلى التمرةِ ، ومعلومٌ أنَّ التمرةَ لا تأتي على الوجهِ الذي يأتي الإنسانُ إليها .

ولذلكَ لمَّا قالَ ذلكَ التائبُ : أتوبُ إلى اللهِ ولا أتوبُ إلىٰ محمدٍ . . فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « عرفَ الحقَّ لأهلِهِ »[٢] .

فكلُّ مَنْ أضافَ الكلَّ إلى اللهِ تعالىٰ . . فهوَ المحقِّقُ الذي عرفَ الحقَّ والحقيقةَ لأهلِها ، ومَنْ أضافَهُ إلىٰ غيرِهِ . . فهوَ المتجوِّزُ المستعيرُ في كلامِهِ ، وللتجوُّزِ وجهٌ كما أنَّ للحقيقةِ وجهاً ، واسمُ الفاعلِ وضعَهُ واضعُ اللغةِ للمخترِعِ ، ولكنْ ظنَّ أنَّ الإنسانَ مخترعٌ بقدرتِهِ ، فسمَّاهُ فاعلاً بحركتِهِ ، وظنَّ أنَّهُ تحقيقٌ ، وتوهَّمَ أنَّ نسبتَهُ إلى اللهِ تعالىٰ علىٰ سبيلِ المجازِ ، مثلَ نسبةِ القتلِ إلى الأميرِ ؛ فإنَّهُ مجازٌ بالإضافةِ إلىٰ نسبتِهِ إلى الجلادِ ، فلمَّا انكشفَ الحقُّ لأهلِهِ . . عرفوا أنَّ الأمرَ بالعكسِ ، وقالوا : إنْ كانَ الفاعلُ قدْ وضعتَهُ أيُّها اللغويُّ للمخترِعِ . . فلا فاعلَ إلا اللهُ ، فالاسمُ لهُ

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٢٧٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٤٦) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٣٥) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ٢٨٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٤١١١) عن الأسود بن سريع رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم أتي بأسير ، فقاله .

بالحقيقةِ ولغيرِه بالمجازِ ؛ أيْ : تُجُوِّزَ بِهِ عمَّا وضعَهُ اللغويُّ لهُ .

ولما جرىٰ حقيقةُ المعنىٰ علىٰ لسانِ بعضِ الأعرابِ قصداً أوِ اتفاقاً . . صدَّقَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أصدقُ بيتٍ قالَهُ شاعرٌ قولُ لبيدٍ : أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا ٱللهَ باطِلٌ »[1] .

أيْ : كلُّ ما لا قوامَ لهُ بنفسِهِ ، وإنَّما قوامُهُ بغيرِهِ . . فهوَ باعتبارِ نفسِهِ باطلٌ ، وإنَّما حقيَّتُهُ وحقيقتُهُ بغيرِهِ لا بنفسِهِ .

فإذاً ؛ لا حقَّ بالحقيقةِ إلا الحيُّ القيُّومُ الذي ليسَ كمثلِهِ شيءٌ ؛ فإنَّهُ قائمٌ بذاتِهِ ، وكلُّ ما سواهُ قائمٌ بقدرتِهِ ، فهوَ الحقُّ ، وما سواهُ باطلٌ .

ولذلكَ قالَ سهلٌ : (يا مسكينُ ؛ كانَ ولمْ تكنْ ، ويكونُ ولا تكونُ ، فلمَّا كنتَ اليومَ . . صرتَ تقولُ : أنا وأنا ؟! كنِ الآنَ كما لمْ تكنْ ؛ فإنَّهُ اليومَ كما كانَ)[2] .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ ظهرَ الآنَ أنَّ الكلَّ جبرٌ ، فما معنى الثوابِ والعقابِ ، والغضبِ والرضا ؟ وكيفَ غضبُهُ علىٰ فعلِ نفسِهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ معنىٰ ذلكَ قدْ أشرنا إليهِ في كتابِ الشكرِ ، فلا نطوِّلُ بإعادتِهِ .

---

(١) رواه البخاري (٣٨٤١) ، ومسلم (٢٢٥٦) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٦) .

فهٰذا هوَ القدْرُ الذي رأينا الرمزَ إليهِ مِنَ التوحيدِ الذي يورثُ حالَ التوكُّلِ ، ولا يتمُّ هٰذا إلا بالإيمانِ بالرحمةِ والحكمةِ ، فإنَّ التوحيدَ يورثُ النظرَ إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ ، والإيمانُ بالرحمةِ وسعتِها هوَ الذي يورثُ الثقةَ بمسبِّبِ الأسبابِ ، ولا يتمُّ حالُ التوكُّلِ كما سيأتي إلا بالثقةِ بالوكيلِ ، وطمأنينةِ القلبِ إلىٰ حسنِ نظرِ الكفيلِ .

وهٰذا الإيمانُ أيضاً بابٌ عظيمٌ مِنْ أبوابِ الإيمانِ ، وحكايةُ طريقِ المكاشفينَ فيهِ تطولُ ، فلنذكرْ حاصلَهُ ليعتقدَهُ الطالبُ لمقامِ التوكلِ اعتقاداً قاطعاً لا يستريبُ فيهِ :

وهوَ أنْ يصدِّقَ تصديقاً يقينياً لا ضعفَ فيهِ ولا ريبَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لوْ خلقَ الخلقَ كلَّهُمْ علىٰ عقلِ أعقلِهِمْ وعلمِ أعلمِهِمْ ، وخلقَ لهُمْ مِنَ العلمِ ما تحتملُهُ نفوسُهُمْ ، وأفاضَ عليهِمْ مِنَ الحكمةِ ما لا منتهىٰ لوصفِها ، ثمَّ زادَ مثلَ عددِ جميعِهِمْ علماً وحكمةً وعقلاً ، ثمَّ كشفَ لهُمْ عواقبَ الأمورِ ، وأطلعَهُمْ علىٰ أسرارِ الملكوتِ ، وعرَّفَهُمْ دقائقَ اللطفِ وخفايا العقوباتِ ، حتَّى اطلعوا بهِ على الخيرِ والشرِّ ، والنفعِ والضرِّ ، ثمَّ أمرَهُمْ أنْ يدبِّروا الملكَ والملكوتَ بما أُعطوا مِنَ العلومِ والحكمِ . . لما اقتضىٰ تدبيرُ جميعِهِمْ معَ التعاونِ والتظاهرِ عليهِ أنْ يُزادَ فيما دبَّرَ اللهُ سبحانَهُ الخلقَ بهِ في الدنيا والآخرةِ جناحُ بعوضةٍ ، ولا أنْ يُنقصَ منها جناحُ بعوضةٍ ، ولا أنْ يُرفعَ منها ذرَّةٌ ، ولا أنْ يُخفضَ منها ذرَّةٌ ، ولا أنْ يُدفعَ مرضٌ أوْ عيبٌ أوْ نقصٌ أوْ فقرٌ

أوْ ضرٌّ عمَّنْ بُليَ بهِ ، ولا أنْ تُزالَ صحةٌ أوْ كمالٌ أوْ غنىً أوْ نفعٌ عمَّنْ أنعمَ اللهُ بهِ عليهِ ، بلْ كلُّ ما خلقَهُ اللهُ تعالىٰ مِنَ السماواتِ والأرضِ إنْ رجعوا فيها البصرَ ، وطوَّلوا فيها النظرَ . . ما رأَوا فيها مِنْ تفاوتٍ ولا فطورٍ .

وكلُّ ما قسمَ اللهُ تعالىٰ بينَ عبادِهِ مِنْ رزقٍ وأجلٍ ، وسرورٍ وفرحٍ ، وعجزٍ وقدرةٍ ، وإيمانٍ وكفرٍ ، وطاعةٍ ومعصيةٍ . . فكلُّهُ عدْلٌ محضٌ لا جورَ فيهِ ، وحقٌّ صِرْفٌ لا ظلمَ فيهِ ، بلْ هوَ على الترتيبِ الواجبِ الحقِّ علىٰ ما ينبغي ، وكما ينبغي ، وبالقدرِ الذي ينبغي ، **وليسَ في الإمكانِ أصلاً أحسنُ منهُ ولا أتمُّ ولا أكملُ**(١) ، ولوْ كانَ وادَّخرَهُ معَ القدرةِ ولمْ يفعلْهُ . . لكانَ بخلاً يناقضُ الجودَ ، وظلماً يناقضُ العدْلَ ، ولوْ لمْ يكنْ قادراً . . لكانَ عجزاً يناقضُ الإلـٰهيةَ ، بلْ كلُّ فقرٍ وضرٍّ في الدنيا فهوَ نقصانٌ مِنَ الدنيا وزيادةٌ في الآخرةِ ، وكلُّ نقصٍ في الآخرةِ بالإضافةِ إلىٰ شخصٍ فهوَ نعيمٌ بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِ ، إذْ لولا الليلُ . . لما عُرِفَ قدْرُ النهارِ ، ولولا المرضُ . . لما تنعَّمَ الأصحاءُ بالصحةِ ، ولولا النارُ . .

---

(١) هـٰذه هي العبارة المجلجلة التي تلاك وتقال : (**ليس في الإمكان أبدع مما كان**) ، والتي تحزَّب العلماء لأجلها في حق المصنف رحمه الله أحزاباً ، والمراد هنا : إسقاط قول من قال بدسِّ هـٰذه العبارة على المصنف ، وهو قول غريب ! إذ العبارة ليست غريبة عن سياقها ، بل سبقها ولحقها مثيل لها ؛ بنحو لفظها أو بمعناها ، ثم هي ثابتة في جميع النسخ ، بل وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٤٣٠) عن نسخه التي اعتمدها : (هكذا نص هـٰذه العبارة في سائر نسخ الكتاب ، ولا سيما وفي أواخر بعضها أنها نقلت من نسخة موثوق بها معتمداً علىٰ صحتها) .

لما عرفَ أهلُ الجنَّةِ قدْرَ النعمةِ .

وكما أنَّ فداءَ أرواحِ الإنسِ بأرواحِ البهائمِ وتسليطَهُمْ علىٰ ذبحِها ليسَ بظلمٍ ، بلْ تقديمُ الكاملِ على الناقصِ عينُ العدْلِ . . فكذلكَ تفخيمُ النعمِ علىٰ سكَّانِ الجنانِ بتعظيمِ العقوبةِ علىٰ أهلِ النيرانِ فداءٌ لأهلِ الإيمانِ بأهلِ الكفرانِ عينُ العدْلِ ، وما لمْ يُخلقِ الناقصُ . . لا يُعرفِ الكاملُ ، ولولا خلقُ البهائمِ . . لما ظهرَ شرفُ الإنسِ ، فإنَّ الكمالَ والنقصَ يظهرُ بالإضافةِ ، فمقتضى الجودِ والحكمةِ خلقُ الكاملِ والناقصِ جميعاً .

وكما أنَّ قطعَ اليدِ إذا تآكلَتْ إبقاءً على الروحِ عدْلٌ ؛ لأنَّهُ فداءُ كاملٍ بناقصٍ . . فكذلكَ الأمرُ في التفاوتِ الذي بينَ الخلقِ في القسمةِ في الدنيا والآخرةِ ، فكلُّ ذلكَ عدْلٌ لا جورَ فيهِ ، وحقٌّ لا لعبَ فيهِ .

وهٰذا الآنَ بحرٌ آخرُ عظيمُ العمقِ واسعُ الأطرافِ مضطربُ الأمواجِ ، قريبٌ في السعةِ مِنْ بحرِ التوحيدِ ، فيهِ غرقَ طوائفُ مِنَ القاصرينَ ، ولمْ يعلموا أنَّ ذلكَ غامضٌ لا يعقلُهُ إلا العالمونَ ، ووراءَ هٰذا البحرِ سرُّ القدرِ الذي تحيَّرَ فيهِ الأكثرونَ ، ومُنِعَ مِنْ إفشاءِ سرِّهِ المكاشفونَ .

والحاصلُ : أنَّ الخيرَ والشرَّ مقضيٌّ بهِ ، وقدْ صارَ ما قُضِيَ بهِ واجبَ الحصولِ بعدَ سبقِ المشيئةِ ، فلا رادَّ لحكْمِهِ ، ولا معقِّبَ لقضائِهِ ، بلْ كلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مستَطَرٌ ، وحصولُهُ بقدرٍ معلومٍ منتظَرٌ ، وما أصابَكَ لمْ يكنْ

ليخطئَكَ ، وما أخطأَكَ لمْ يكنْ ليصيبَكَ ، ولنقتصرْ علىٰ هـٰذهِ المرامزِ مِنْ علومِ المكاشفةِ التي هيَ أصولُ مقامِ التوكُّلِ ، ولنرجعْ إلىٰ علمِ المعاملةِ[1] .



(١) وقد أجاب المصنف رحمه الله تعالىٰ في « إملائه » عن سياقه هنا عما اعترضه المعترضون بأحسن جواب ، وقد عقد الحافظ الزبيدي فصلاً طويلاً في « إتحافه » (٩/ ٤٣٤) ساق فيه أقوال المعترضين والمنتصرين .

الشَّطرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب
في أحوال التّوكّل وأعماله

وفيهِ بيانُ حالِ التوكُّلِ وبيانُ ما قالَهُ الشيوخُ في حدِّ التوكلِ ، وبيانُ التوكلِ في الكسبِ للمنفردِ والمعيلِ ، وبيانُ التوكلِ بتركِ الادخارِ ، وبيانُ التوكلِ في دفعِ المضارِّ ، وبيانُ التوكلِ في إزالةِ الضررِ بالتداوي وغيرِهِ ، واللهُ الموفقُ برحمتِهِ .

بيان حال التّوكّل

قدْ ذكرنا أنَّ مقامَ التوكلِ ينتظمُ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ ، وذكرنا العلمَ .

فأمَّا الحالُ . . فالتوكلُ بالتحقيقِ عبارةٌ عنهُ ، وإنَّما العلمُ أصلُهُ ، والعملُ ثمرتُهُ ، وقدْ أكثرَ الخائضونَ في بيانِ حدِّ التوكلِ واختلفَتْ عباراتُهُمْ ، وتكلَّمَ كلُّ واحدٍ عنْ مقامِ نفسِهِ ، وأخبرَ عنْ حدِّهِ ، كما جرتْ عادةُ أهلِ التصوُّفِ بهِ ، ولا فائدةَ في النقلِ والإكثارِ .

فلنكشفِ الغطاءَ عنهُ فنقولُ :

التوكلُ مشتقٌّ مِنَ الوكالةِ ، يُقالَ : وَكَلَ أمرَهُ إلىٰ فلانٍ ؛ أي : فوَّضَهُ إليهِ واعتمدَ عليهِ فيهِ ، ويُسمَّى الموكولُ إليهِ وكيلاً ، ويُسمَّى المفوِّضُ إليهِ متكلاً عليهِ ، ومتوكلاً عليهِ ، مهما اطمأنَّتْ إليهِ نفسُهُ ووثقَ بهِ ، ولمْ يتهمْهُ فيهِ بتقصيرٍ ، ولمْ يعتقدْ فيهِ عجزاً وقصوراً .

فالتوكلُ عبارةٌ عنِ اعتمادِ القلبِ على الوكيلِ وحدَهُ ، ولنضربِ الوكيلَ في الخصومةِ مثلاً ؛ فنقولُ : منِ ادُّعِيَ عليهِ دعوىٰ باطلةً بتلبيسٍ فوكلَ للخصومةِ مَنْ يكشفُ ذلكَ التلبيسَ . . لمْ يكنْ متوكلاً عليهِ ولا واثقَ القلبِ مطمئنَّ النفسِ بوكيلِهِ إلا إذا اعتقدَ فيهِ أربعةَ أمورٍ : منتهى الهدايةِ ، ومنتهى القوَّةِ ، ومنتهى الفصاحةِ ، ومنتهى الشفقةِ .

أمَّا الهدايةُ . . فليعرفَ بها مواقعَ التلبيسِ حتَّىٰ لا يخفىٰ عليهِ مِنْ غوامضِ الحيلِ شيءٌ أصلاً .

وأمَّا القدرةُ والقوَّةُ . . فليستجرئَ على التصريحِ بالحقِّ ؛ فلا يداهنَ ولا يخافَ ، ولا يستحييَ ولا يجبنَ ، فإنَّهُ ربَّما يطلعُ علىٰ وجهِ تلبيسِ خصمِهِ فيمنعُهُ الخوفُ أوِ الجبنُ أوِ الحياءُ أوْ صارفٌ آخرُ مِنَ الصوارفِ المضعفةِ للقلبِ . . عنِ التصريحِ بهِ .

وأمَّا الفصاحةُ . . فهيَ أيضاً مِنَ القدرةِ ، إلا أنَّها قدرةٌ في اللسانِ على الإفصاحِ عنْ كلِّ ما استجرأَ القلبُ عليهِ وأشارَ إليهِ ، فلا كلُّ عالمٍ بمواقعِ التلبيسِ قادرٌ بذلاقةِ لسانِهِ علىٰ حلِّ عقدتِهِ .

وأمَّا منتهى الشفقةِ . . فيكونُ باعثاً لهُ علىٰ بذلِ كلِّ ما يقدرُ عليهِ في حقِّهِ مِنَ المجهودِ ، فإنَّ قدرتَهُ لا تغني دونَ العنايةِ بهِ إذا كانَ لا يهمُّهُ أمرُهُ ، ولا يبالي بهِ ظفرَ بهِ خصمُهُ أوْ لمْ يظفرْ ، هلكَ بهِ حقُّهُ أوْ لمْ يهلكْ .

فإنْ كانَ شاكّاً في هـٰذهِ الأربعةِ ، أوْ في واحدةٍ منها ، أوْ جوَّزَ أنْ يكونَ

خصمُهُ أكملَ في هـٰذهِ الأربعةِ منهُ . . لمْ تطمئنَّ نفسُهُ إلىٰ وكيلِهِ ، بلْ يبقىٰ منزعجَ القلبِ ، مستغرقَ الهمِّ بالحيلةِ والتدبيرِ ليدفعَ ما يحذرُهُ مِنْ قصورِ وكيلِهِ وسطوةِ خصمِهِ ، ويكونُ تفاوتُ أحوالِهِ في شدَّةِ الثقةِ والطُّمأنينةِ بحسبِ تفاوتِ قوَّةِ اعتقادِهِ لهـٰذهِ الخصالِ فيهِ .

والاعتقاداتُ والظنونُ في القوَّةِ والضعفِ تتفاوتُ تفاوتاً لا ينحصرُ ، فلا جرمَ تتفاوتُ أحوالُ المتوكِّلِ في قوَّةِ الطُّمأنينةِ والثقةِ تفاوتاً لا ينحصرُ ، إلىٰ أنْ ينتهيَ إلى اليقينِ الذي لا ضعفَ فيهِ ، كما لوْ كانَ الوكيلُ والدَ الموكِّلِ ، وهوَ الذي يسعىٰ لجمعِ الحلالِ والحرامِ لأجلِهِ ، فإنَّهُ يحصلُ لهُ يقينٌ بمنتهى الشفقةِ والعنايةِ ، فتصيرُ خصلةٌ واحدةٌ مِنَ الخصالِ الأربعةِ قطعيةً ، وكذلكَ سائرُ الخصالِ يُتصوَّرُ أنْ يحصلَ القطعُ بهِ ، وذلكَ بطولِ الممارسةِ والتجربةِ ، وتواترِ الأخبارِ بأنَّهُ أفصحُ الناسِ لساناً ، وأقواهم بياناً ، وأقدرُهُمْ علىٰ نصرةِ الحقِّ ، بلْ علىٰ تصويرِ الحقِّ بالباطلِ والباطلِ بالحقِّ .

فإذا عرفتَ التوكلَ في هـٰذا المثالِ . . فقسِ التوكلَ على اللهِ تعالىٰ عليهِ ، فإنْ ثبتَ في نفسِكَ بكشفٍ أوْ باعتقادٍ جازمٍ أنَّهُ لا فاعلَ إلا اللهُ كما سبقَ ، واعتقدتَ معَ ذلكَ تمامَ العلمِ والقدرةِ علىٰ كفايةِ العبادِ ، ثمَّ تمامَ العطفِ والعنايةِ والرحمةِ بجملةِ العبادِ وبالآحادِ ، وأنَّهُ ليسَ وراءَ منتهىٰ قدرتِهِ قدرةٌ ، ولا وراءَ منتهىٰ علمِهِ علمٌ ، ولا وراءَ منتهىٰ عنايتِهِ بكَ ورحمتِهِ لكَ عنايةٌ ورحمةٌ . . اتكلَ ـ لا محالةَ ـ قلبُكَ عليهِ وحدَهُ ، ولمْ يلتفتْ إلىٰ غيرِهِ بوجهٍ ، ولا إلىٰ نفسِهِ وحولِهِ وقوَّتِهِ ، فإنَّهُ لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ، كما

سبقَ في التوحيدِ عندَ ذكرِ الحركةِ والقدرةِ ، فإنَّ الحولَ عبارةٌ عنِ الحركةِ ، والقوَّةَ عبارةٌ عنِ القدرةِ .

فإنْ كنتَ لا تجدُ هٰذهِ الحالةَ مِنْ نفسِكَ . . فسببُهُ أحدُ أمرينِ : إمَّا ضعفُ اليقينِ بإحدىٰ هٰذهِ الخصالِ الأربعةِ ، وإمَّا ضعفُ القلبِ ومرضُهُ باستيلاءِ الجبنِ عليهِ ، وانزعاجُهُ بسببِ الأوهامِ الغالبةِ عليهِ ، فإنَّ القلبَ قدْ ينزعجُ تبعاً للوهمِ وطاعةً لهُ مِنْ غيرِ نقصانٍ في اليقينِ ؛ فإنَّ مَنْ يتناولُ عسلاً فشُبِّهَ بينَ يديهِ بالعذرةِ . . ربَّما نفرَ طبعُهُ عنهُ وتعذَّرَ عليهِ تناولُهُ ، ولوْ كُلِّفَ العاقلُ أنْ يبيتَ معَ الميتِ في قبرٍ أوْ فراشٍ أوْ بيتٍ . . نفرَ طبعُهُ وإنْ كانَ متيقناً بكونِهِ ميتاً ، وأنَّهُ جمادٌ في الحالِ ، وأنَّ سنةَ اللهِ تعالىٰ مطردةٌ بأنَّهُ لا يحشرُهُ الآنَ ولا يحييهِ وإنْ كانَ قادراً عليهِ ؛ كما أنَّها مطردةٌ بألا يقلبَ القلمَ الذي في يدِهِ حيَّةً ، ولا يقلبَ السنورَ أسداً وإنْ كانَ قادراً عليهِ ، ومعَ أنَّهُ لا يشكُّ في هٰذا اليقينِ ينفرُ طبعُهُ عنْ مضاجعةِ الميتِ في فراشٍ لهُ أوِ المبيتِ معَهُ في بيتٍ ولا ينفرُ عنْ سائرِ الجماداتِ ، وذلكَ جبنٌ في القلبِ ، وهوَ نوعُ ضعفٍ قلَّما يخلو الإنسانُ عنْ شيءٍ منهُ وإنْ قلَّ ، وقدْ يقوىٰ فيصيرُ مرضاً ، حتَّىٰ يخافَ أنْ يبيتَ في البيتِ وحدَهُ معَ إغلاقِ البابِ وإحكامِهِ !

فإذاً ؛ لا يتمُّ التوكلُ إلا بقوَّةِ القلبِ وقوَّةِ اليقينِ جميعاً ؛ إذْ بهما يحصلُ سكونُ القلبِ وطمأنينتُهُ ، فالسكونُ في القلبِ شيءٌ ، واليقينُ شيءٌ آخرُ ، **فكمْ مِنْ يقينٍ لا طمأنينةَ معَهُ** ؛ كما قالَ تعالىٰ لإبراهيمَ عليهِ السلامُ : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ، فالتمسَ أنْ يكونَ مشاهداً إحياءَ الميتِ

بعينِهِ ليثبتَ في خيالِهِ ، فإنَّ النفسَ تتبعُ الخيالَ وتطمئنُّ بهِ ولا تطمئنُّ باليقينِ في ابتداءِ أمرِهِ إلىٰ أنْ تبلغَ بالآخرةِ إلىٰ درجةِ النفسِ المطمئنَّةِ ، وذلكَ لا يكونُ في البدايةِ أصلاً ، **وكمْ مِنْ مطمئنٍّ لا يقينَ لهُ** ، كسائرِ أربابِ المللِ والمذاهبِ ؛ فإنَّ اليهوديَّ مطمئنُّ القلبِ إلىٰ تهوُّدِهِ ، وكذا النصرانيُّ ، ولا يقينَ لهُمْ أصلاً ، وإنَّما يتَّبعونَ الظنَّ وما تهوى الأنفسُ ، ولقدْ جاءَهُمْ مِنْ ربِّهِمُ الهدىٰ وهوَ سببُ اليقينِ ، إلا أنَّهُمْ معرضونَ عنهُ .

فإذاً ؛ الجبنُ والجراءَةُ غرائزُ ، ولا ينفعُ اليقينُ معَها ، فهيَ أحدُ الأسبابِ التي تضادُّ حالَ التوكُّلِ ؛ كما أنَّ ضعفَ اليقينِ بالخصالِ الأربعةِ أحدُ الأسبابِ ، وإذا اجتمعَتْ هٰذهِ الأسبابُ . . حصلَتِ الثقةُ باللهِ تعالىٰ .

وقدْ قيلَ : (مكتوبٌ في التوراةِ : ملعونٌ مَنْ ثقتُهُ إنسانٌ مثلُهُ)[1] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ اعتزَّ بالعبيدِ . . أذلَّهُ اللهُ »[2] .



وإذا انكشفَ لكَ معنى التوكلِ وعُلمَتِ الحالةُ التي سُمِّيَتْ توكلاً . . فاعلمْ أنَّ تلكَ الحالةَ لها في القوَّةِ والضعفِ ثلاثُ درجاتٍ :

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٤) عن يحيى بن أبي كثير ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٦٣) عن ذي النون المصري .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٤) ، ورواه العقيلي في « الضعفاء » (٢/ ٦٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٧٤) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٣٥٠) .

الدرجةُ الأولىٰ : ما ذكرناهُ ، وهوَ أنْ يكونَ حالُهُ في حقِّ اللهِ تعالىٰ والثقةِ بكفالتِهِ وعنايتِهِ كحالِهِ في الثقةِ بالوكيلِ .

الثانيةُ ـ وهيَ أقوىٰ ـ : أنْ يكونَ حالُهُ معَ اللهِ تعالىٰ كحالِ الطفلِ مع أمِّهِ ، فإنَّهُ لا يعرفُ غيرَها ، ولا يفزعُ إلىٰ أحدٍ سواها ، ولا يعتمدُ إلا إيَّاها ، فإنْ رآها . . تعلَّقَ في كلِّ حالٍ بذيلِها ولمْ يخلِّها ، وإنْ نابَهُ أمرٌ في غيبتِها . . كانَ أوَّلُ سابقٍ إلىٰ لسانِهِ : (يا أمَّاهُ) ، وأوَّلُ خاطرٍ يخطرُ علىٰ قلبِهِ أمُّهُ ؛ فإنَّها مفزعُهُ ، فإنَّهُ قدْ وثقَ بكفالتِها وكفايتِها وشفقتِها ؛ ثقةً بها ليسَتْ خاليةً عنْ نوعِ إدراكٍ بالتمييزِ الذي لهُ ، ويُظَنُّ أنَّهُ طبعٌ مِنْ حيثُ إنَّ الصبيَّ لوْ طُولبَ بتفصيلِ هـٰذهِ الخصالِ . . لمْ يقدرْ علىٰ تلفيقِ لفظِهِ ، ولا علىٰ إحضارِهِ مفصَّلاً في ذهنِهِ ، ولكنْ كلُّ ذلكَ وراءَ الإدراكِ .

فمَنْ كانَ تألُّهُهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ونظرُهُ إليهِ واعتمادُهُ عليهِ . . كَلِفَ بهِ كما يكلَفُ الصبيُّ بأمِّهِ ، فيكونُ متوكلاً حقّاً ، فإنَّ الطفلَ متوكِّلٌ علىٰ أمِّهِ .

والفرقُ بينَ هـٰذا وبينَ الأوَّلِ : أنَّ هـٰذا متوكِّلٌ وقدْ فنِيَ في توكُّلِهِ عنْ توكُّلِهِ ؛ إذْ ليسَ يلتفتُ قلبُهُ إلى التوكلِ وحقيقتِهِ ، بلْ إلى المتوكَّلِ عليهِ فقطْ ، فلا مجالَ في قلبِهِ لغيرِ المتوكَّلِ عليهِ ، وأمَّا الأوَّلُ . . فمتوكلٌ بالتكلُّفِ والكسبِ ، وليس فانياً عنْ توكُّلِهِ ؛ لأنَّ لهُ التفاتاً[1] إلىٰ توكلِهِ وشعوراً بهِ ، وذلكَ شغلٌ صارفٌ عنْ ملاحظةِ المتوكَّلِ عليهِ وحدَهُ .

---

(١) في غير (ج) : (أي : له التفات) بدل (لأن له التفاتاً) .

وإلىٰ هـٰذهِ الدرجةِ أشارَ سهلٌ حيثُ سُئِلَ عنِ التوكلِ ما أدناهُ ؟ قالَ : تركُ الأمانيِّ ، قيلَ : وأوسطُهُ ؟ قالَ : تركُ الاختيارِ ـ وهوَ إشارةٌ إلى الدرجةِ الثانيةِ ـ وسُئِلَ عنْ أعلاهُ ؟ فلمْ يذكرْهُ ، وقالَ : لا يعرفُهُ إلا مَنْ بلغَ أوسطَهُ(١) .

الثالثةُ ـ وهيَ أعلاها ـ : أنْ يكونَ بينَ يديِ اللهِ تعالىٰ في حركاتِهِ وسكناتِهِ مثلَ الميتِ بينَ يديِ الغاسلِ ، لا يفارقُهُ إلا في أنَّهُ يرىٰ نفسَهُ ميتاً تحرِّكُهُ القدرةُ الأزليَّةُ كما تحرِّكُ يدُ الغاسلِ الميتَ ، وهوَ الذي قَوِيَ يقينُهُ(٢) بأنَّهُ مجرى الحركةِ والقدرةِ والإرادةِ والعلمِ وسائرِ الصفاتِ ، وأنَّ كلَّهُ يحدثُ جبراً ، فيكونُ عينَ الانتظارِ لما يجري عليهِ(٣) ، ويفارقُ الصبيَّ ؛ فإنَّ الصبيَّ يفزعُ إلىٰ أمِّهِ ويصيحُ ، ويتعلَّقُ بذيلِها ويعدو خلفَها ، بلْ مثالُ هـٰذا مثالُ صبيٍّ علمَ أنَّهُ وإنْ لمْ يزعقْ بأمِّهِ . . فالأمُّ تطلبُهُ ، وأنَّهُ وإنْ لمْ يتعلَّقْ بذيلِ أمِّهِ . . فالأمُّ تحملُهُ ، وإنْ لمْ يسألْها اللبنَ . . فالأمُّ تفاتحُهُ وتسقيهِ(٤) .

وهـٰذا المقامُ في التوكُّلِ يثمرُ تركَ الدعاءِ والسؤالِ منهُ ؛ ثقةً بكرمِهِ وعنايتِهِ ، وأنَّهُ يُعطي ابتداءً أفضلَ ممَّا يُسألُ ، فكمْ مِنْ نعمةٍ ابتدأَها قبلَ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤) .
(٢) في (أ) : (وهو الذي يرىٰ نفسه) .
(٣) والعبارة في « الإتحاف » (٩/ ٤٦٤) : (وأن كلاً يحدث جبراً ، فيكون بائناً عن الانتظار لما يجري عليهِ) .
(٤) في (أ ، ع) : (تعالجه) بدل (تفاتحه) ، وفي (ج ، ن) : (فالأم تبتدئ وترضعه) بدل (فالأم تفاتحه وتسقيه) .

السؤالِ والدعاءِ وبغيرِ الاستحقاقِ . والمقامُ الثاني لا يقتضي تركَ الدعاءِ والسؤالِ منهُ ، وإنَّما يقتضي تركَ السؤالِ مِنْ غيرِهِ فقطْ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فهـٰذهِ الأحوالُ هلْ يُتصوَّرُ وجودُها ؟

فاعلمْ : أنَّ ذلكَ ليسَ بمحالٍ ، ولكنَّهُ عزيزٌ نادرٌ ، والمقامُ الثاني والثالثُ أعزُّها ، والأوَّلُ أقربُ إلى الإمكانِ .

ثمَّ إذا وُجدَ الثاني والثالثُ . . فدوامُهُ أبعدُ منهُ ، بلْ يكادُ لا يكونُ المقامُ الثالثُ في دوامِهِ إلا كصفرةِ الوجلِ ؛ فإنَّ انبساطَ القلبِ إلىٰ ملاحظةِ الحولِ والقوَّةِ والأسبابِ طبْعٌ ، وانقباضُهُ عارضٌ ، كما أنَّ انبساطَ الدمِ إلىٰ جميعِ الأطرافِ طبعٌ وانقباضُهُ عارضٌ ، والوجلُ عبارةٌ عنِ انقباضِ الدمِ عنْ ظاهرِ البشرةِ إلى الباطنِ ، حتَّىٰ تنمحيَ عنْ ظاهرِ البشرةِ الحمرةُ التي كانَتْ تتراءىٰ مِنْ وراءِ الرقيقِ مِنْ سترِ البشرةِ ، فإنَّ البشرةَ سترٌ رقيقٌ تتراءىٰ مِنْ ورائِهِ حمرةُ الدمِ ، وانقباضُهُ يُوجبُ الصفرةَ ، وذلكَ لا يدومُ ، وكذلكَ انقباضُ القلبِ بالكليَّةِ عنْ ملاحظةِ الحولِ والقوَّةِ وسائرِ الأسبابِ الظاهرةِ لا يدومُ .

وأمَّا المقامُ الثاني . . فيشبهُ صفرةَ المحمومِ ، فإنَّهُ قدْ يدومُ يوماً ويومينِ ، والأوَّلُ يشبهُ صفرةَ مريضٍ استحكمَ مرضُهُ ، فلا يبعدُ أنْ يدومَ ، ولا يبعدُ أنْ يزولَ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فهلْ يبقىٰ معَ العبدِ تدبيرٌ وتعلُّقٌ بالأسبابِ في هٰذهِ الأحوالِ؟

فاعلمْ : أنَّ المقامَ الثالثَ ينفي التدبيرَ رأساً ما دامَتِ الحالةُ باقيةً ، بلْ يكونُ صاحبُها كالمبهوتِ .

والمقامُ الثاني ينفي كلَّ تدبيرٍ إلا مِنْ حيثُ الفزعُ إلى اللهِ تعالىٰ بالدعاءِ والابتهالِ ؛ كتدبيرِ الطفلِ في التعلُّقِ بأمِّهِ فقطْ .

والمقامُ الأوَّلُ لا ينفي أصلَ التدبيرِ والاختيارِ ، ولكنْ ينفي بعضَ التدبيراتِ ؛ كالمتوكلِ علىٰ وكيلِهِ في الخصومةِ ؛ فإنَّهُ يتركُ تدبيرَهُ مِنْ جهةِ غيرِ الوكيلِ ، ولكنْ لا يتركُ التدبيرَ الذي أشارَ إليهِ وكيلُهُ بهِ ، أوِ التدبيرَ الذي عرفَهُ مِنْ عادتِهِ وسنَّتِهِ دونَ صريحِ إشارتِهِ .

فأمَّا الذي يعرفُهُ بإشارتِهِ فأنْ يقولَ لهُ : لستُ أتكلَّمُ إلا في حضورِكَ ، فيشتغلُ ـ لا محالةَ ـ بالتدبيرِ للحضورِ ، ولا يكونُ هٰذا مناقضاً توكُّلَهُ عليهِ ؛ إذْ هوَ ليسَ فزعاً منهُ إلىٰ حولِ نفسِهِ وقوَّتِهِ في إظهارِ الحجَّةِ ، ولا إلىٰ حولِ غيرِهِ ، بلْ مِنْ تمامِ توكُّلِهِ عليهِ أنْ يفعلَ ما رسمَهُ لهُ ؛ إذْ لوْ لمْ يكنْ متوكلاً عليهِ ولا معتمداً لهُ في قولِهِ . . لما حضرَ بقولِهِ .

وأمَّا المعلومُ مِنْ عادتِهِ واطرادِ سنَّتِهِ . . فهوَ أنْ يعلمَ مِنْ عادتِهِ أنَّهُ لا يحاجُّ الخصمَ إلا مِنَ السجلِّ ، فتمامُ توكُّلِهِ إنْ كانَ متوكلاً عليهِ أنْ يكونَ معوِّلاً علىٰ سنتِهِ وعادتِهِ ووافياً بمقتضاها ، وهوَ أنْ يحملَ السجلَّ معَ نفسِهِ إليهِ عندَ مخاصمتِهِ .

فإذاً ؛ لا يستغني عنِ التدبيرِ في الحضورِ وعنِ التدبيرِ في إحضارِ السجلِّ ، ولوْ تركَ شيئاً مِنْ ذلكَ . . كانَ نقصاً في توكُّلِهِ ، فكيفَ يكونُ فعلُهُ نقصاً فيهِ ؟!

نعمْ ، بعدَ أنْ حضرَ وفاءً بإشارتِهِ وأحضرَ السجلَّ وفاءً بسنَّتِهِ وعادتِهِ ، وقعدَ ناظراً إلىٰ محاجَّتِهِ . . فقدْ ينتهي إلى المقامِ الثاني والثالثِ في حضورِهِ ، حتَّىٰ يبقىٰ كالمبهوتِ المنتظرِ لا يفزعُ إلىٰ حولِهِ وقوَّتِهِ ، إذْ لمْ يبقَ لهُ حولٌ ولا قوَّةٌ ، وقدْ كانَ فزعُهُ إلىٰ حولِهِ وقوَّتِهِ في الحضورِ وإحضارِ السجلِّ بإشارةِ الوكيلِ وسنَّتِهِ ، وقدِ انتهىٰ نهايتَهُ ، فلمْ يبقَ إلا طُمأنينةُ النفسِ والثقةُ بالوكيلِ والانتظارُ لما يجري .

وإذا تأمَّلْتَ هـٰذا . . اندفعَ عنكَ كلُّ إشكالٍ في التوكلِ ، وفهمتَ أنَّهُ ليسَ مِنْ شرطِ التوكُّلِ تركُ كلِّ تدبيرٍ وعملٍ ، وأنَّ كلَّ تدبيرٍ وعملٍ لا يجوزُ أيضاً معَ التوكلِ ، بلْ هوَ على الانقسامِ ، وسيأتي تفصيلُهُ في الأعمالِ .

فإذاً ؛ فزعُ الموكِّلِ إلىٰ حولِهِ وقوَّتِهِ في الحضورِ والإحضارِ لا يناقضُ التوكُّلَ ؛ لأنَّهُ يعلمُ أنَّهُ لولا الوكيلُ . . لكانَ حضورُهُ وإحضارُهُ باطلاً وتعباً محضاً بلا جدوىٰ .

فإذاً ؛ لمْ يصرْ مفيداً مِنْ حيثُ إنَّهُ حولُهُ وقوَّتُهُ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّ الوكيلَ جعلَهُ مفيداً لمحاجَّتِهِ ، وعرَّفَهُ ذلكَ بإشارتِهِ وسنَّتِهِ .

فإذاً ؛ لا حولَ ولا قوَّةَ لهُ إلا بالوكيلِ ، إلا أنَّ هـٰذهِ الكلمةَ لا يكملُ

معناها في حقِّ الوكيلِ ؛ لأنَّهُ ليسَ خالقَ حولِهِ وقوَّتِهِ ، بلْ هوَ جاعلٌ لهُما مفيدينِ في أنفسِهِما ، ولمْ يكونا مفيدينِ لولا فعلُهُ ، وإنَّما يصدقُ ذلكَ في حقِّ الوكيلِ الحقِّ ، وهوَ اللهُ تعالىٰ ؛ إذْ هوَ خالقُ الحولِ والقوَّةِ كما سبقَ في التوحيدِ ، وهوَ الذي جعلَهُما مفيدينِ ؛ إذْ جعلَهُما شرطاً لما سيخلقُهُ مِنْ بعدِهِما مِنَ الفوائدِ والمقاصدِ .

فإذاً ؛ لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ حقّاً وصدقاً ، فمَنْ شاهدَ هٰذا كذلكَ . . كانَ لهُ الثوابُ العظيمُ الذي وردَتْ بِهِ الأخبارُ فيمَنْ يقولُ : لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ[1] ، وذلكَ قدْ يُستبعدُ فيُقالُ : كيفَ يُعطىٰ هٰذا الثوابَ كلَّهُ بهٰذهِ الكلمةِ معَ سهولتِها على اللسانِ وسهولةِ اعتقادِ القلبِ بمفهومِ لفظِها ؟!

وهيهاتَ ! فإنَّما ذلكَ جزاءٌ علىٰ هٰذهِ المشاهدةِ التي ذكرناها في التوحيدِ ، ونسبةُ هٰذهِ الكلمةِ وثوابِها إلىٰ كلمةِ لا إلٰهَ إلا اللهُ وثوابِها . . كنسبةِ معنىٰ إحداهما إلى الأخرىٰ ؛ إذْ في هٰذهِ الكلمةِ إضافةُ شيئينِ إلى اللهِ تعالىٰ فقطْ ، وهما الحولُ والقوَّةُ ، وأمَّا كلمةُ لا إلٰهَ إلا اللهُ . . فهوَ نسبةُ الكلِّ إليهِ ، فانظرْ إلى التفاوتِ بينَ الكلِّ وبينَ شيئينِ لتعرفَ بهِ ثوابَ لا إلٰهَ إلا اللهُ بالإضافةِ إلىٰ هٰذا .

---

(١) فمنها : ما رواه البخاري (٦٣٨٤) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه مرفوعاً : « . . . فقال : يا عبد الله بن قيس ؛ قل : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ فإنها كنز من كنوز الجنة » ، ومنها : ما رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « من قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . . كان دواء من تسعة وتسعين داء ، أيسرها الهمّ » ، وانظر « الإتحاف » (٩/ ٤٦٦) .

وكما ذكرنا مِنْ قبلُ أنَّ للتوحيدِ قشرينِ ولبَّينِ . . فكذلكَ لهـٰذهِ الكلمةِ ولسائرِ الكلماتِ ، وأكثرُ الخلقِ قُيِّدوا بالقشرينِ وما طرقوا إلى اللبَّينِ ، وإلى اللبَّينِ الإشارةُ بقولهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ صادقاً مِنْ قلبهِ مخلصاً . . وجبَتْ لهُ الجنَّةُ »(١) ، وحيثُ أطلقَ مِنْ غيرِ ذكرِ الصدقِ والإخلاصِ . . أرادَ بالمطلقِ هـٰذا المقيَّدَ ، كما أضافَ المغفرةَ إلى الإيمانِ والعملِ الصالحِ في بعضِ المواضعِ ، وأضافَها إلىٰ مجرَّدِ الإيمانِ في بعضِ المواضعِ ، والمرادُ بهِ المقيَّدُ بالعملِ الصالحِ ، فالملكُ لا يُنالُ بالحديثِ ، وحركةُ اللسانِ حديثٌ ، وعقدُ القلبِ أيضاً حديثٌ ، ولكنَّهُ حديثُ نفسٍ ، وإنَّما الصدقُ والإخلاصُ وراءَهما ، ولا يُنصبُ سريرُ الملكِ إلا للمقرَّبينَ ، وهُمُ المخلصونَ .

نعمْ ، لمَنْ يقربُ منهُمْ في الرتبةِ مِنْ أصحابِ اليمينِ أيضاً درجاتٌ عندَ اللهِ تعالىٰ وإنْ كانتْ لا تنتهي إلى الملكِ ، أما ترىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا ذكرَ في سورةِ الواقعةِ المقرَّبينَ السابقينَ . . تعرَّضَ لسريرِ الملكِ فقالَ : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾ ، ولما انتهىٰ إلىٰ أصحابِ اليمينِ . . ما زادَ علىٰ ذكرِ الماءِ والظلِّ والفواكهِ والأشجارِ والحورِ العينِ ، وكلُّ ذلكَ مِنْ لذَّاتِ المنظورِ والمشروبِ والمأكولِ والمنكوحِ ، ويُتصوَّرُ ذلكَ للبهائمِ

---

(١) رواه ابن خزيمة في « التوحيد » (٥٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٢٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، والطبراني في « الأوسط » (١٢٥٧) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه كلاهما مرفوعاً بنحوه .

على الدوامِ ، وأينَ لذَّاتُ البهائمِ مِنْ لذةِ الملكِ والنزولِ في أعلىٰ عليينَ في جوارِ ربِّ العالمينَ ؟!

ولوْ كانَ لهـٰذهِ اللذَّاتِ قدْرٌ . . لما وُسِّعَتْ على البهائمِ ، ولما رُفِعَ عنها درجةُ الملائكةِ .

أفترىٰ أنَّ أحوالَ البهائمِ وهيَ مسيَّبةٌ في الرياضِ ، متنعمةٌ بالمياهِ والأشجارِ وأصنافِ المأكولاتِ ، متمتعةٌ بالنزوانِ والسفادِ . . أعلىٰ وألذُّ وأشرفُ وأجدرُ بأنْ تكونَ عندَ ذوي الكمالِ مغبوطةً مِنْ أحوالِ الملائكةِ في سرورِهِمْ بالقربِ مِنْ جوارِ ربِّ العالمينَ في أعلىٰ عليينَ ؟!

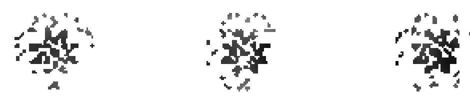
هيهاتَ هيهاتَ ! ما أبعدَ عنِ التحصيلِ مَنْ إذا خُيِّرَ بينَ أنْ يكونَ حماراً أوْ يكونَ في درجةِ جبريلَ عليهِ السلامُ فيختارُ درجةَ الحمارِ علىٰ درجةِ جبريلَ !

وليسَ يخفىٰ أنَّ شبهَ كلِّ شيءٍ منجذبٌ إليهِ ، وأنَّ النفسَ التي نزوعُها إلىٰ صنعةِ الأساكِفَةِ أكثرُ مِنْ نزوعِها إلىٰ صنعةِ الكتابةِ . . فهوَ بالأساكفةِ أشبهُ في جوهرِهِ منهُ بالكُتَّابِ[1] ، فكذلكَ مَنْ نزوعُ نفسِهِ إلىٰ نيلِ لذَّاتِ البهائمِ أكثرُ مِنْ نزوعِها إلىٰ نيلِ لذَّاتِ الملائكةِ . . فهوَ بالبهائمِ أشبهُ منهُ بالملائكةِ لا محالةَ ، وهؤلاءِ هُمُ الذينَ يُقالُ فيهِمْ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ ، وإنَّما كانوا أضلَّ لأنَّ الأنعامَ ليسَ في قوَّتِها طلبُ درجةِ الملائكةِ ، فتركُها

(١) تقدم الحديث عن القول بالمشابهة ، **والأساكفة** : جمع إسكاف ، ويطلق علىٰ كل صانع ، وهو هنا الخراز الذي يعمل في الأحذية .

الطلبَ للعجزِ ، وأمَّا الإنسانُ . . ففي قوَّتِهِ ذلكَ ، والقادرُ علىٰ نيلِ الكمالِ أحرىٰ بالذمِّ وأجدرُ بالنسبةِ إلى الضلالِ مهما تقاعدَ عنْ طلبِ الكمالِ .

وإذا كانَ هٰذا كلاماً معترضاً . . فلنرجعْ إلى المقصودِ ، فقدْ بيَّنا معنىٰ قولِ : لا إلٰهَ إلا اللهُ ، ومعنىٰ قولِ : لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ، ومَنْ ليسَ قائلاً بهِما عنْ مشاهدةٍ . . فلا يُتصوَّرُ منهُ حالُ التوكلِ .



فإنْ قلتَ : ليسَ في قولِكَ : لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ إلا نسبةُ شيئينِ إلى اللهِ ، فلو قالَ قائلٌ : السماءُ والأرضُ خلقُ اللهِ . . فهلْ يكونُ ثوابُهُ مثلَ ثوابِهِ ؟

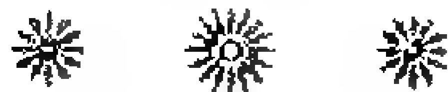
فأقولُ : لا ، لأنَّ الثوابَ علىٰ قدْرِ درجةِ المثابِ عليهِ ، ولا مساواةَ بينَ الدرجتينِ ، ولا يُنظرُ إلىٰ عظمِ السماءِ والأرضِ وصغرِ الحولِ والقوَّةِ إنْ جازَ وصفُهُما بالصغرِ تجوُّزاً ، فليسَتِ الأمورُ بعظمِ الأشخاصِ ، بلْ كلُّ عاميٍّ يفهمُ أنَّ الأرضَ والسماءَ ليسَتا مِنْ جهةِ الآدميينَ ، بلْ هما مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ، فأمَّا الحولُ والقوَّةُ . . فقدْ أشكلَ أمرُهُما على المعتزلةِ والفلاسفةِ وطوائفَ كثيرةٍ ممَّنْ يدَّعي أنَّهُ يدقِّقُ النظرَ في الرأيِ والمعقولِ حتَّىٰ يشقَّ الشعْرَ بحدَّةِ نظرِهِ ، فهيَ مهلكةٌ مخطرةٌ ، ومزلَّةٌ عظيمةٌ ، هلكَ فيها الغافلونَ ؛ إذْ أثبتوا لأنفسِهِمْ أمراً ، وهوَ شركٌ في التوحيدِ وإثباتُ خالقٍ سوى اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ جاوزَ هٰذهِ العقبةَ بتوفيقِ اللهِ إيَّاهُ . . فقدْ علتْ رتبتُهُ ، وعظُمَتْ درجتُهُ ، فهوَ الذي يصدقُ قولُهُ : لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ .

وقدْ ذكرنا أنَّهُ ليسَ في التوحيدِ إلا عقبتانِ :

إحداهما : النظرُ إلى السماءِ والأرضِ والشمسِ والقمرِ والنجومِ والغيمِ والمطرِ وسائرِ الجماداتِ .

والثانيةُ : النظرُ إلى اختيارِ الحيواناتِ ، وهيَ أعظمُ العقبتينِ وأخطرُهُما ، وبقطعِهِما[1] كمالُ سرِّ التوحيدِ ، فلذلكَ عظُمَ ثوابُ هٰذهِ الكلمةِ ؛ أعني : ثوابَ المشاهدةِ التي هٰذهِ الكلمةُ ترجمتُها .

فإذاً ؛ رجعَ حالُ التوكلِ إلى التبرِّي مِنَ الحولِ والقوَّةِ ، والتوكلِ على الواحدِ الحقِّ ، وسيتضحُ ذلكَ عندَ ذكرِنا تفصيلَ أعمالِ التوكُّلِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .



(١) في النسخ (وكأنَّه) بدل (وبقطعهما) ، والمثبت من (ق) .

بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل

اعلمْ : أنَّ شيئاً منها لا يخرجُ عمَّا ذكرناهُ ، ولكنْ كلُّ واحدٍ يشيرُ إلىٰ بعضِ الأحوالِ .

فقدْ قالَ أبو موسى الدَّيْبُليُّ : قلتُ لأبي يزيدَ : ما التوكلُ ؟ فقالَ : ما تقولُ أنتَ ؟ قلتُ : إنَّ أصحابَنا يقولونَ : لوْ أنَّ السباعَ والأفاعيَ عنْ يمينِكَ ويسارِكَ . . ما تحرَّكَ لذلكَ سرُّكَ ، فقالَ أبو يزيدَ : نعمْ ، هـٰذا قريبٌ ، لكنْ لوْ أنَّ أهلَ الجنَّةِ في الجنَّةِ يتنعَّمونَ ، وأهلَ النارِ في النارِ يُعذَّبونَ ، ثمَّ وقعَ بكَ تمييزٌ بينَهُما . . خرجتَ مِنْ جملةِ التوكلِ(١) .

فما ذكرَهُ أبو موسىٰ فهوَ خبرٌ عنْ أعلىٰ أحوالِ التوكُّلِ ، وهوَ المقامُ الثالثُ ، وما ذكرهُ أبو يزيدَ عبارةٌ عنْ أعزِّ أنواعِ العلمِ الذي هوَ مِنْ أصولِ التوكُّلِ ، وهوَ العلمُ بالحكمةِ ، وأنَّ ما فعلَهُ اللهُ تعالىٰ فعلَهُ بالواجبِ(٢) ، فلا تمييزَ بينَ أهلِ النارِ وأهلِ الجنَّةِ بالإضافةِ إلىٰ أصلِ العدْلِ والحكمةِ ، وهـٰذا أغمضُ أنواعِ العلمِ ، ووراءَهُ سرُّ القدرِ ، وأبو يزيدَ قلَّما يتكلَّمُ إلا عنْ أعلى المقاماتِ وأقصى الدرجاتِ .

وليسَ تركُ الاحترازِ عنِ الحيَّاتِ شرطاً في المقامِ الأوَّلِ مِنَ التوكلِ ، فقدِ

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٩٥) ، ومعنىٰ (**وقع بك تمييز بينهما**) : بأن ميَّزت أحدهما عن الآخر ؛ يعني : اخترت لنفسك شيئاً . « إتحاف » (٩/ ٤٦٩) .

(٢) وهـٰذه العبارة أيضاً دائرة في فلك عبارته : (ليس بالإمكان أبدع . . .) .

احترزَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ في الغارِ ؛ إذْ سدَّ منافذَ الحيَّاتِ[1] ، إلا أنْ يُقالَ : فعلَ ذلكَ بيدِهِ ولمْ يتغيَّرْ بسببِهِ سرُّهُ ، أوْ يُقالَ : إنَّما فعلَ ذلكَ شفقةً علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا في حقِّ نفسِهِ ، وإنَّما يزولُ التوكلُ بحركةِ سرِّهِ وتغيُّرِهِ لأمرٍ يرجعُ إلىٰ نفسِهِ ، وللنظرِ في هـٰذا مجالٌ ، ولكنْ سيأتي أنَّ أمثالَ ذلكَ وأكثرَ منهُ لا يناقضُ التوكلَ ؛ فإنَّ حركةَ السرِّ مِنَ الحيَّاتِ هوَ الخوفُ ، وحقُّ المتوكلِ أنْ يخافَ مسلِّطَ الحيَّاتِ ؛ إذْ لا حولَ للحيَّاتِ ولا قوَّةَ لها إلا باللهِ ، وإنِ احترزَ . . لمْ يكنِ اتكالُهُ علىٰ تدبيرِهِ وحولِهِ وقوَّتِهِ في الاحترازِ ، بلْ علىٰ خالقِ الحولِ والقوَّةِ والتدبيرِ .

وسُئِلَ ذو النونِ المصريُّ عنِ التوكلِ فقالَ : (خلعُ الأربابِ ، وقطعُ الأسبابِ) ، فخلعُ الأربابِ إشارةٌ إلىٰ علومِ التوحيدِ ، وقطعُ الأسبابِ إشارةٌ إلى الأعمالِ ، وليسَ فيهِ تعرُّضٌ صريحٌ للحالِ وإنْ كانَ اللفظُ يتضمَّنُهُ ، فقيلَ لهُ : زدْنا ، فقالَ : (إلقاءُ النفسِ في العبوديةِ ، وإخراجُها مِنَ الربوبيَّةِ)[2] ، وهـٰذا إشارةٌ إلى التبرِّي مِنَ الحولِ والقوَّةِ فقطْ .

وسُئِلَ حمدونٌ القصارُ عنِ التوكلِ فقالَ : (إنْ كانَ لكَ عشرةُ آلافِ درهمٍ وعليكَ دانقٌ دينٌ . . لمْ تأمنْ أنْ تموتَ ويبقىٰ ذلكَ في عنقِكَ ، ولوْ كانَ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٨٣) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢/ ٤٧٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٨٠) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٨٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٩٧) .

عليكَ عشرةُ آلافِ درهمٍ دينٌ مِنْ غيرِ أنْ تتركَ لها وفاءً. . لا تيئسْ مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ يقضيَها عنكَ) ، وهـٰذا إشارةٌ إلىٰ مجرَّدِ الإيمانِ بسعةِ القدرةِ ، وأنَّ في المقدوراتِ أسباباً خفيَّةً سوىٰ هـٰذهِ الأسبابِ الظاهرةِ .

وسُئِلَ أبو عبدِ اللهِ القرشيُّ عنِ التوكلِ فقالَ : (التعلُّقُ باللهِ تعالىٰ في كلِّ حالٍ) ، فقالَ السائلُ : زدْني ، فقالَ : (تركُ كلِّ سببٍ يوصلُ إلىٰ سببٍ حتَّىٰ يكونَ الحقُّ هوَ المتولِّيَ لذلكَ)[1] ، فالأوَّلُ عامٌّ للمقاماتِ الثلاثِ ، والثاني إشارةٌ إلى المقامِ الثالثِ خاصةً ، وهوَ مثلُ توكلِ إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ قالَ لهُ جبريلُ عليهِ السلامُ : ألكَ حاجةٌ ؟ فقالَ : أمَّا إليكَ . . فلا[2] ؛ إذْ كانَ سؤالُهُ سبباً يفضي إلىٰ سببٍ ، وهوَ حفظُ جبريلَ لهُ ، فتركَهُ ثقةً بأنَّ اللهَ تعالىٰ إنْ أرادَ . . سخَّرَ جبريلَ لذلكَ ، فيكونُ هوَ المتولِّيَ لذلكَ ، وهـٰذا حالُ مبهوتٍ غائبٍ عنْ نفسِهِ باللهِ تعالىٰ ، فلمْ يرَ معَهُ غيرَهُ ، وهوَ حالٌ عزيزٌ في نفسِهِ ، ودوامُهُ إنْ وُجِدَ أبعدُ منهُ وأعزُّ .

وقالَ أبو سعيدٍ الخرَّازُ : (التوكلُ اضطرابٌ بلا سكونٍ ، وسكونٌ بلا اضطرابٍ)[3] ، ولعلَّهُ يشيرُ إلى المقامِ الثاني ، فسكونُهُ بلا اضطرابٍ إشارةٌ إلىٰ سكونِ القلبِ إلى الوكيلِ وثقتِهِ بهِ ، واضطرابُهُ بلا سكونٍ إشارةٌ إلىٰ فزعِهِ

---

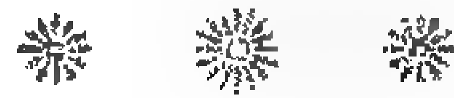
(١) الرسالة القشيرية (ص٢٩٨) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ١٨٤) .
(٣) الرسالة القشيرية (ص٢٩٨) .

إليهِ وابتهالِهِ وتضرُّعِهِ بينَ يديهِ ؛ كاضطرابِ الطفلِ ببدنِهِ إلىٰ أمِّهِ ، وسكونِ قلبِهِ إلىٰ تمامِ شفقتِها[1] .

وقالَ أبو عليٍّ الدقاقُ : (التوكلُ ثلاثُ درجاتٍ : التوكلُ ، ثمَّ التسليمُ ، ثمَّ التفويضُ ، فالمتوكلُ يسكنُ إلىٰ وعدِهِ ، والمسلِّمُ يكتفي بعلمِهِ ، وصاحبُ التفويضِ يرضىٰ بحكمِهِ)[2] ، وهـٰذا إشارةٌ إلىٰ تفاوتِ درجاتِ نظرِهِ بالإضافةِ إلى المنظورِ إليهِ ، فإنَّ العلمَ هوَ الأصلُ ، والوعدُ يتبعُهُ ، والحكمُ يتبعُ الوعدَ ، ولا يبعدُ أنْ يكونَ الغالبُ علىٰ قلبِ المتوكلِ ملاحظةَ شيءٍ مِنْ ذلكَ .

وللشيوخِ في التوكلِ أقاويلُ سوىٰ ما ذكرناهُ ، فلا نطوِّلُ بها ، فإنَّ الكشفَ أنفعُ مِنَ الروايةِ والنقلِ .

فهـٰذا ما يتعلَّقُ بحالِ التوكلِ ، واللهُ الموفقُ برحمتِهِ ولطفِهِ .



---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٥١) بنحوه .
(٢) رواه القشيري عنه في « رسالته » (ص٢٩٨) .

بيان أعمال المتوكّلين

اعلمْ : أنَّ العلمَ يورثُ الحالَ ، والحالَ يثمرُ الأعمالَ ، وقدْ يُظنُّ أنَّ معنى التوكلِ تركُ الكسبِ بالبدنِ ، وتركُ التدبيرِ بالقلبِ ، والسقوطُ على الأرضِ كالخرقةِ الملقاةِ ، وكاللحمِ على الوضمِ ، وهـٰذا ظنُّ الجهَّالِ ، فإنَّ ذلكَ حرامٌ في الشرعِ ، والشرعُ قدْ أثنىٰ على المتوكلينَ ، فكيفَ يُنالُ مقامٌ مِنْ مقاماتِ الدينِ بمحظوراتِ الدينِ ؟!

بلْ نكشفُ الغطاءَ عنهُ ونقولُ :

إنَّما يظهرُ تأثيرُ التوكلِ في حركةِ العبدِ وسعيِهِ بعملِهِ إلىٰ مقاصدِهِ[1] ، وسعيُ العبدِ باختيارِهِ إمَّا أنْ يكونَ لأجلِ جلبِ نافعٍ هوَ مفقودٌ عندَهُ كالكسبِ ، أوْ لحفظِ نافعٍ هوَ موجودٌ عندَهُ كالادخارِ ، أوْ لدفعِ ضارٍّ لمْ ينزلْ بهِ كدفعِ الصائلِ والسارقِ والسباعِ ، أوْ لإزالةِ ضارٍّ قدْ نزلَ بهِ كالتداوي مِنَ المرضِ ، فمقصودُ حركاتِ العبدِ لا تعدو هـٰذهِ الفنونَ الأربعةَ ، وهوَ جلبُ النافعِ ، أوْ حفظُهُ ، أوْ دفعُ الضارِّ ، أوْ قطعُهُ ، فلنذكرْ شرطَ التوكلِ ودرجاتِهِ في كلٍّ واحدٍ منها مقروناً بشواهدِ الشرعِ .



(١) في (ج ، د ، ع ، ف) : (بعلمه) بدل (بعمله) .

الفنّ الأول : في جلب النافع

فنقولُ فيهِ: الأسبابُ التي بها يُجلَبُ النافعُ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ : مقطوعٌ بهِ، ومظنونٌ ظنّاً يُوثقُ بهِ ، وموهومٌ وهماً لا تثقُ النفسُ بهِ ثقةً تامَّةً ولا تطمئنُّ إليهِ .

* * *

الدرجةُ الأولىٰ : المقطوعُ بهِ :

وذلكَ مثلُ الأسبابِ التي ارتبطَتِ المسبباتُ بها بتقديرِ اللهِ تعالىٰ ومشيئتِهِ ارتباطاً مطرداً لا يختلفُ ؛ كما إذا كانَ الطعامُ موضوعاً بينَ يديكَ وأنتَ جائعٌ محتاجٌ ، ولكنَّكَ لستَ تمدُّ اليدَ إليهِ ، وتقولُ : أنا متوكِّلٌ ، وشرطُ التوكلِ تركُ السعيِ ، ومدُّ اليدِ إليهِ سعيٌ وحركةٌ ، وكذلكَ مضغُهُ بالأسنانِ وابتلاعُهُ بإطباقِ أعالي الحنكِ علىٰ أسافلِهِ !

فهٰذا جنونٌ محضٌ ، وليسَ مِنَ التوكلِ في شيءٍ ، فإنَّكَ إنِ انتظرتَ أنْ يخلقَ اللهُ فيكَ شبعاً دونَ الخبزِ ، أوْ يخلقَ في الخبزِ حركةً إليكَ ، أوْ يسخِّرَ ملكاً ليمضغَهُ ويوصلَهُ إلىٰ معدتِكَ . . فقدْ جهلتَ سنَّةَ اللهِ تعالىٰ .

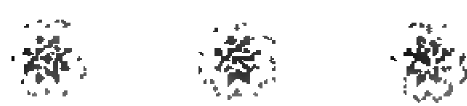
وكذلكَ لوْ لمْ تزرعِ الأرضَ وطمعتَ في أنْ يخلقَ اللهُ تعالىٰ نباتاً مِنْ غيرِ بذرٍ ، أوْ تلدَ زوجتُكَ مِنْ غيرِ وقاعٍ كما ولدَتْ مريمُ عليها السلامُ ، فكلُّ ذلكَ جنونٌ ، وأمثالُ هٰذا ممَّا يكثرُ ولا يمكنُ إحصاؤُهُ ، فليسَ التوكلُ في هٰذا المقامِ بالعملِ ، بلْ بالحالِ والعلمِ .

أمَّا العلمُ . . فهوَ أنْ تعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ الطعامَ واليدَ والأسنانَ وقوَّةَ الحركةِ ، وأنَّهُ هوَ الذي يطعمُكَ ويسقيكَ .

وأمَّا الحالُ . . فهوَ أنْ يكونَ سكونُ قلبِكَ واعتمادُكَ علىٰ فعلِ اللهِ تعالىٰ ، لا على اليدِ والطعامِ ، وكيفَ تعتمدُ علىٰ صحةِ يدِكَ وربَّما تجفُّ في الحالِ وتفلجُ ؟! وكيفَ تعوِّلُ علىٰ قدرتِكَ وربَّما يطرأُ عليكَ في الحالِ ما يزيلُ عقلَكَ ويبطلُ قوَّةَ حركتِكَ ؟! وكيفَ تعوِّلُ علىٰ حضورِ الطعامِ وربَّما يسلِّطُ اللهُ تعالىٰ عليكَ مَنْ يغلبُكَ عليهِ ، أوْ يبعثُ حيَّةً تزعجُكَ عنْ مكانِكَ ، وتفرِّقُ بينَكَ وبينَ طعامِكَ ؟!

وإذا احتُمِلَ أمثالُ ذلكَ ولمْ يكنْ لها علاجٌ إلا بفضْلِ اللهِ تعالىٰ . . فبذلكَ فلتفرحْ ، وعليهِ فلتعوِّلْ .

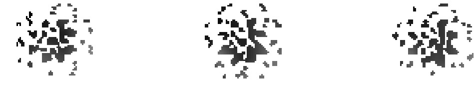
فإذا كانَ هـٰذا حالَهُ وعلمَهُ . . فليمدَّ اليدَ ، فإنَّهُ متوكلٌ .



الدرجةُ الثانيةُ : الأسبابُ التي ليسَتْ متيقنةً :

ولكنِ الغالبُ أنَّ المسبباتِ لا تحصلُ دونَها ، وكانَ احتمالُ حصولِها دونَها بعيداً ؛ كالذي يفارقُ الأمصارَ والقوافلَ ويسافرُ في البوادي التي لا يطرقُها الناسُ إلا نادراً ، ويكونُ سفرُهُ مِنْ غيرِ استصحابِ زادٍ ، فهـٰذا ليسَ شرطاً في التوكلِ ، بلِ استصحابُ الزادِ في البوادي سنَّةُ الأوَّلينَ ، ولا يزولُ التوكلُ بهِ بعدَ أنْ يكونَ الاعتمادُ علىٰ فضْلِ اللهِ تعالىٰ لا على الزادِ

كما سبقَ ، ولكنْ فعلُ ذلكَ جائزٌ ، وهوَ مِنْ أعلىٰ مقاماتِ التوكلِ ، ولذلكَ كانَ يفعلُهُ الخوَّاصُ[1] .



فإنْ قلتَ : فهـٰذا سعيٌ في الهلاكِ وإلقاءِ النفسِ في التهلكةِ .

فاعلمْ : أنَّ ذلكَ يخرجُ عنْ كونِهِ حراماً بشرطينِ :

أحدُهُما : أنْ يكونَ الرجلُ قدْ راضَ نفسَهُ وجاهدَها ، وسوَّاها على الصبرِ عنِ الطعامِ أسبوعاً أوْ ما يقاربُهُ ، بحيثُ يصبرُ عنهُ مِنْ غيرِ ضيقِ قلبٍ وتشوُّشِ خاطرٍ وتعذُّرٍ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ .

والثاني : أنْ يكونَ بحيثُ يقوىٰ على التقوُّتِ بالحشيشِ وما يتفقُ مِنَ الأشياءِ الخسيسةِ .

فبعدَ هـٰذينِ الشرطينِ لا يخلو في غالبِ الأمرِ في البوادي في كلِّ أسبوعٍ عنْ أنْ يلقاهُ آدميٌّ ، أوْ ينتهي إلىٰ حِلَّةٍ أوْ قريةٍ[2] ، أو إلىٰ حشيشٍ يزجِّي بهِ وقتَهُ فيحيا بهِ مجاهداً نفسَهُ ، والمجاهدةُ عمادُ التوكلِ ، وعلىٰ هـٰذا كانَ يعوِّلُ الخوَّاصُ ونظراؤُهُ مِنَ المتوكلينَ .

والدليلُ عليهِ : أنَّ الخوَّاصَ كانَ لا تفارقُهُ الإبرةُ والمقراضُ والحبلُ

(١) أي : إبراهيم الخواص رحمه الله تعالىٰ .

(٢) **الحِلَّة** : المحلة ، وهي منزل القوم .

والركوةُ ويقولُ : (هٰذا لا يقدحُ في التوكلِ)[1] ، وسببُهُ : أنَّهُ علمَ أنَّ البواديَ لا يكونُ الماءُ فيها علىٰ وجهِ الأرضِ ، وما جرتْ سنَّةُ اللهِ تعالىٰ بصعودِ الماءِ مِنَ البئرِ بغيرِ دلوٍ ولا حبلٍ ، ولا يغلبُ وجودُ الحبلِ والدلوِ في البوادي كما يغلبُ وجودُ الحشيشِ ، والماءُ يحتاجُ إليهِ لوضوئِهِ كلَّ يومٍ مراتٍ ، ولعطشِهِ في كلِ يومٍ أوْ يومينِ مرَّةً ، فإنَّ المسافرَ معَ حرارةِ الحركةِ لا يصبرُ عنِ الماءِ وإنْ صبرَ عنِ الطعامِ ، وكذلكَ يكونُ لهُ ثوبٌ واحدٌ ، وربَّما يتخرَّقُ فتنكشفُ عورتُهُ ، ولا يوجدُ المقراضُ والإبرةُ في البوادي غالباً عندَ كلِّ صلاةٍ ، ولا يقومُ مقامَهُما في الخياطةِ والقطعِ شيءٌ ممَّا يُوجدُ في البوادي .

فكلُّ ما في معنىٰ هٰذهِ الأربعةِ أيضاً يلتحقُ بالدرجةِ الأولىٰ ؛ إلا أنَّهُ مظنونٌ ظنّاً ليسَ مقطوعاً بهِ ؛ لأنَّهُ يحتملُ ألا يتخرَّقَ الثوبُ ، أوْ يعطيَهُ إنسانٌ ثوباً ، أوْ يجدَ علىٰ رأسِ البئرِ مَنْ يسقيهِ ، ولا يحتملُ أنْ يتحرَّكَ الطعامُ ممضوغاً إلىٰ فيهِ ، فبينَ الدرجتينِ فرقٌ ، ولكنِ الثاني في معنى الأوَّلِ .

ولهٰذا نقولُ : لوِ انحازَ إلىٰ شعبٍ مِنْ شعابِ الجبالِ حيثُ لا ماءَ ولا حشيشَ ، ولا يطرقُهُ طارقٌ فيهِ ، وجلسَ متوكلاً . . فهوَ آثمٌ بهِ ، ساعٍ في إهلاكِ نفسِهِ ؛ كما رُوِيَ أنَّ زاهداً مِنَ الزهَّادِ فارقَ الأمصارَ وأقامَ في سفحِ جبلٍ سبعاً وقالَ : لا أسألُ أحداً شيئاً حتَّىٰ يأتيَني ربِّي برزقي ، فقعدَ سبعاً ،

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٩٩) .

فكادَ يموتُ ولمْ يأتِهِ رِزقٌ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ إنْ أحييتَني . . فأْتني برزقي الذي قسمتَ لي ، وإلا . . فاقبِضْني إليكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : وعزَّتي ؛ لا رزقتُكَ حتَّىٰ تدخلَ الأمصارَ وتقعدَ بينَ الناسِ ، فدخلَ المصرَ وأقامَ ، فجاءَهُ هـٰذا بطعامٍ ، وهـٰذا بشرابٍ ، فأكلَ وشربَ ، وأوجسَ في نفسِهِ مِنْ ذلكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : أردتَ أنْ تُذهبَ حكمتي بزهدِكَ في الدنيا ؟! أما علمتَ أنِّي أنْ أرزقَ عبدي بأيدي عبادي أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أرزقَهُ بيدِ قدرتي ؟!(١) .

فإذاً ؛ التباعدُ عنِ الأسبابِ كلِّها مراغمةٌ للحكمة ، وجهلٌ بسنَّةِ اللهِ تعالىٰ ، والعملُ بموجَبِ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ معَ الاتكالِ على اللهِ عزَّ وجلَّ دونَ الأسبابِ لا يناقضُ التوكلَ كما ضربناهُ مثلاً في الوكيلِ بالخصومةِ مِنْ قبلُ ، ولكنَّ الأسبابَ تنقسمُ إلىٰ ظاهرةٍ وإلىٰ خفيةٍ ، فمعنى التوكلِ : الاكتفاءُ بالأسبابِ الخفيَّةِ عنِ الأسبابِ الظاهرةِ معَ سكونِ النفسِ إلىٰ مسبِّبِ السببِ الخفيِّ لا إلى السببِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فما قولُكَ في القاعدِ في البلدِ بغيرِ كسبٍ أهوَ حرامٌ أوْ مباحٌ أوْ مندوبٌ إليهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ ذلكَ ليسَ بحرامٍ ؛ لأنَّ صاحبَ السياحةِ في البوادي إذا لمْ

---

(١) قوت القلوب (٢/١٩٦) .

يكنْ مهلكاً نفسَهُ . . فكيفَ يكونُ هـٰذا مهلكاً نفسَهُ حتَّىٰ يكونَ فعلُهُ حراماً ؟ بلْ لا يبعدُ أنْ يأتيَهُ الرزقُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ ، ولكنْ قدْ يتأخَّرُ عنهُ ، والصبرُ ممكنٌ إلىٰ أنْ يتفقَ ، ولكنْ لوْ أغلقَ بابَ البيتِ علىٰ نفسِهِ بحيثُ لا طريقَ لأحدٍ إليهِ . . ففعلُهُ ذلكَ حرامٌ .

وإنْ فتحَ بابَ البيتِ وهوَ بطَّالٌ غيرُ مشغولٍ بعبادةٍ . . فالكسبُ والخروجُ لهُ أولىٰ ، ولكنْ ليسَ فعلُهُ حراماً إلىٰ أنْ يشرفَ على الموتِ ، فعندَ ذلكَ يلزمُهُ الخروجُ والسؤالُ والكسبُ ، وإنْ كانَ مشغولَ القلبِ باللهِ تعالىٰ ، غيرَ مستشرفٍ إلى الناسِ ، ولا متطلِّعٍ إلىٰ مَنْ يدخلُ مِنَ البابِ فيأتيهِ برزقِهِ ، بلْ تطلُّعُهُ إلىٰ فضْلِ اللهِ تعالىٰ واشتغالُهُ باللهِ . . فهوَ أفضلُ ، وهوَ مِنْ مقاماتِ التوكلِ ، وهوَ أنْ يشتغلَ باللهِ تعالىٰ ولا يهتمَّ برزقِهِ ، فإنَّ الرزقَ يأتيهِ لا محالةَ ، وعندَ هـٰذا يصحُّ ما قالَهُ بعضُ العلماءِ ؛ وهوَ أنَّ العبدَ لوْ هربَ مِنْ رزقِهِ . . لطلبَهُ ؛ كما لوْ هربَ مِنَ الموتِ . . لأدركَهُ[1] ، وأنَّهُ لوْ سألَ اللهَ تعالىٰ ألا يرزقَهُ . . لما استجابَ لهُ وكانَ عاصياً ، ولقالَ لهُ : يا جاهلُ ؛ كيفَ أخلقُكَ ولا أرزقُكَ ؟!

ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (اختلفَ الناسُ في كلِّ شيءٍ إلا في الرزقِ والأجلِ ، وأجمعوا علىٰ أنْ لا رازقَ ولا مميتَ إلا اللهُ تعالىٰ)[2] .

---

(١) كما روىٰ هـٰذا مرفوعاً الطبراني في « الأوسط » (٤٤٤١) ، وابن عدي في « الكامل » (١٩/٦) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٩٧) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ توكَّلتُمْ على اللهِ حقَّ توكُّلِهِ . . لرزقَكُمْ كما يرزقُ الطيرَ ، تغدوا خِماصاً وتروحُ بِطاناً ، ولزالَتْ بدعائِكُمُ الجبالُ »[١] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (انظروا إلى الطيرِ ، لا تزرعُ ولا تحصدُ ولاتدَّخرُ ، واللهُ تعالىٰ يرزقُها يوماً بيومٍ ، فإنْ قلتُمْ : نحنُ أكبرُ بطوناً . . فانظروا إلى الأنعامِ كيفَ قيَّضَ اللهُ تعالىٰ لها هٰذا الخلقَ للرزقِ)[٢] .

وقالَ أبو يعقوبَ السوسيُّ : (المتوكلونَ تجري أرزاقُهُمْ علىٰ أيدي العبادِ بلا تعبٍ منهُمْ ، وغيرُهُمْ مشغولونَ مكدودونَ)[٣] . وقالَ بعضُهُمْ : (العبيدُ كلُّهُمْ في رزقِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ بعضُهُمْ يأكلُ بذلٍّ كالسؤَّالِ ، وبعضُهُمْ بتعبٍ وانتظارٍ كالتجَّارِ ، وبعضُهُمْ بامتهانٍ كالصنَّاعِ ، وبعضُهُمْ بعزٍّ كالصوفيَّةِ ، يشهدونَ العزيزَ ، فيأخذونَ رزقَهُمْ مِنْ يدهِ ولا يرونَ الواسطةَ)[٤] .

* * *

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٤) ، ورواه الترمذي (٢٣٤٤) ، وابن ماجه (٤١٦٤) إلىٰ قوله : (وتروح بطاناً) ، وأما زيادة : (ولزالت بدعائكم الجبال) . . فقد رواها المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٨٠٢) من حديث معاذ رضي الله عنه مرفوعاً : « إنكم لو عرفتم الله حق المعرفة . . لمشيتم على البحور ، ولزال بدعائكم الجبال . . . » .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٤) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٤) بنحوه .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٤) بزيادة تفصيل .

الدرجةُ الثالثةُ : ملابسةُ الأسبابِ التي يُتوهَّمُ إفضاؤُها إلى المسبباتِ مِنْ غيرِ ثقةٍ ظاهرةٍ :

كالذي يستقصي في التدبيراتِ الدقيقةِ في تفصيلِ الاكتسابِ ووجوهِهِ ، وذلكَ يخرجُ بالكليَّةِ عنْ درجاتِ التوكُّلِ كلِّها ، وهوَ الذي فيهِ الناسُ كلُّهُمْ ؛ أعني : مَنْ يكتسبُ بالحيلِ الدقيقةِ اكتساباً مباحاً لمالٍ مباحٍ ، فأمَّا أخذُ الشبهةِ أوِ الاكتسابُ بطريقٍ فيهِ شبهةٌ . . فذلكَ غايةُ الحرصِ على الدنيا والاتكالِ على الأسبابِ ، فلا يخفىٰ أنَّ ذلكَ يبطلُ التوكلَ ، وهوَ مثلُ الأسبابِ التي نسبتُها إلىٰ جلبِ النافعِ مثلُ نسبةِ الرقيةِ والطيرةِ والكيِّ بالإضافةِ إلىٰ إزالةِ الضارِّ ؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وصفَ المتوكِّلينَ بذلكَ ، ولمْ يصفْهُمْ بأنَّهُمْ لا يكتسبونَ ، ولا يجلسونَ في الأمصارِ ، ولا يأخذونَ مِنْ أحدٍ شيئاً ، بلْ وصفَهُمْ بأنَّهُمْ يتعاطونَ هٰذهِ الأسبابَ ، وأمثالُ هٰذهِ الأسبابِ التي لا يُوثقُ بها في المسبَّباتِ ممَّا يكثرُ فلا يمكنُ إحصاؤُها .

وقالَ سهلٌ في التوكُّلِ : (إنَّهُ تركُ التدبيرِ)[١] ، وقالَ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ الخلقَ ولمْ يحجبْهُمْ عنْ نفسِهِ ، وإنَّما حجابُهُمْ تدبيرُهُمْ)[١] ، ولعلَّهُ أرادَ بهِ استنباطَ الأسبابِ البعيدةِ بالفكرِ ، فهيَ التي تحتاجُ إلى التدبيرِ دونَ الأسبابِ الجليَّةِ .

فإذاً ؛ قدْ ظهرَ أنَّ الأسبابَ منقسمةٌ : إلىٰ ما يخرجُ التعلُّقُ بها عنِ

(١) قوت القلوب (٢/ ٦) .

التوكُّلِ ، وإلىٰ ما لا يخرجُ ، وأنَّ الذي لا يخرجُ ينقسمُ : إلىٰ مقطوعٍ بهِ ، وإلىٰ مظنونٍ ، وأنَّ المقطوعَ بهِ لا يخرجُ عنِ التوكلِ عندَ وجودِ حالِ التوكلِ وعلمِهِ ، وهوَ الاتكالُ علىٰ مسبِّبِ الأسبابِ ، فالتوكلُ فيها بالحالِ والعلمِ ، لا بالعملِ ، وأمَّا المظنوناتُ . . فالتوكلُ فيها بالحالِ والعلمِ والعملِ جميعاً .

* * *

والمتوكلونَ في ملابسةِ هـٰذهِ الأسبابِ علىٰ ثلاثةِ مقاماتٍ :

الأوَّلُ : مقامُ الخوَّاصِ ونظرائِهِ : وهوَ الذي يدورُ في البوادي بغيرِ زادٍ ثقةً بفضْلِ اللهِ تعالىٰ عليهِ في تقويتِهِ على الصبرِ أسبوعاً فما فوقَهُ ، أوْ بتيسيرِ حشيشٍ لهُ أوْ قوتٍ ، أو تثبيتِهِ على الرضا بالموتِ إنْ لمْ يتيسَّرْ شيءٌ مِنْ ذلكَ ، فإنَّ الذي يحملُ الزادَ قدْ يُؤخذُ زادُهُ أوْ يضلُّ بعيرُهُ ويموتُ جوعاً ، فذلكَ ممكنٌ معَ الزادِ كما أنَّهُ ممكنٌ معَ فقدِهِ .

المقامُ الثاني : أنْ يقعدَ في بيتِهِ أوْ في مسجدِهِ ولكنَّهُ في القرىٰ والأمصارِ : وهـٰذا أضعفُ مِنَ الأوَّلِ ، ولكنَّهُ أيضاً متوكِّلٌ ؛ لأنَّهُ تاركٌ للكسبِ والأسبابِ الظاهرةِ ، معوِّلٌ علىٰ فضْلِ اللهِ تعالىٰ في تدبيرِ أمرِهِ مِنْ جهةِ الأسبابِ الخفيَّةِ ، ولكنَّهُ بالقعودِ في الأمصارِ متعرِّضٌ لأسبابِ الرزقِ ، فإنَّ ذلكَ مِنَ الأسبابِ الجالبةِ ، إلا أنَّ ذلكَ لا يبطِلُ توكلَهُ إذا كانَ نظرُهُ إلى الذي سخَّرَ لهُ سكانَ البلدِ لإيصالِ رزقِهِ إليهِ ، لا إلىٰ سكانِ البلدِ ؛ إذْ يُتصوَّرُ

أنْ يغفُلَ جميعُهُمْ عنهُ ويضيِّعوهُ لولا فضْلُ اللهِ تعالىٰ بتعريفِهِمْ وتحريكِ دواعيهِم .

المقامُ الثالثُ : أنْ يخرجَ ويكتسبَ اكتساباً على الوجهِ الذي ذكرناهُ في البابِ الثالثِ والرابعِ مِنْ كتابِ آدابِ الكسبِ : وهـٰذا السعيُ أيضاً لا يخرجُهُ عنْ مقاماتِ التوكلِ إذا لمْ تكنْ طُمأنينةُ نفسِهِ إلىٰ كفايتِهِ وقوتِهِ وجاهِهِ وبضاعتِهِ ، فإنَّ ذلكَ ربَّما يهلكُهُ اللهُ تعالىٰ جميعَهُ في لحظةٍ ، بلْ يكونُ نظرُهُ إلى الكفيلِ الحقِّ بحفظِ جميعِ ذلكَ وتيسيرِ أسبابِهِ لهُ ، بلْ يرىٰ كسبَهُ وبضاعتَهُ وكفايتَهُ بالإضافةِ إلىٰ قدرةِ اللهِ تعالىٰ كما يرى القلمَ في يدِ الملكِ الموقِّعِ ، فلا يكونُ نظرُهُ إلى القلمِ ، بلْ إلىٰ قلبِ الملكِ أنَّهُ بماذا يتحرَّكُ ، وإلىٰ ماذا يميلُ ، وبمَ يحكمُ ؟

ثمَّ إنْ كانَ هـٰذا المكتسبُ مكتسباً لعيالِهِ ، أوْ ليفرِّقَ على المساكينِ . . فهوَ ببدنِهِ مكتسبٌ وبقلبِهِ عنهُ منقطعٌ ، فحالُ هـٰذا أشرفُ مِنْ حالِ القاعدِ في بيتِهِ .

والدليلُ علىٰ أنَّ الكسبَ لا ينافي حالَ التوكلِ إذا رُوعيَتْ فيهِ الشروطُ وانضافَ إليهِ الحالُ والمعرفةُ كما سبقَ ذكرُهُ . . أنَّ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا بُويعَ بالخلافةِ . . أخذَ الأثوابَ تحتَ حضنِهِ والذراعُ بيدِهِ ودخلَ السوقَ ينادي ، حتَّىٰ كرهَهُ المسلمونَ وقالوا : كيفَ تفعلُ ذلكَ وقدْ أُقمتَ لخلافةِ النبوَّةِ ؟ فقالَ : لا تشغلوني عنْ عيالي ؛ فإنِّي إنْ أضعتُهُمْ . كنتُ لما سواهُمْ أضيعَ ،

حتَّىٰ فرضوا لهُ قوتَ أهلِ بيتٍ مِنَ المسلمينَ ، فلمَّا رضوا بذلكَ . . رأىٰ مساعدتَهُمْ وتطييبَ قلوبِهِمْ واستغراقَ الوقتِ بمصالحِ المسلمينَ أولىٰ[1] .

ويستحيلُ أنْ يُقالَ : لمْ يكنِ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ في مقامِ التوكلِ ، فمَنْ أولىٰ بهٰذا المقامِ منهُ ؟! فدلَّ علىٰ أنَّهُ كانَ متوكلاً لا باعتبارِ تركِ الكسبِ والسعيِ ، بلْ باعتبارِ قطعِ الالتفاتِ إلىٰ قوتِهِ وكفايتِهِ ، والعلمِ بأنَّ اللهَ تعالىٰ هوَ ميسِّرُ الاكتسابِ ومدبِّرُ الأسبابِ ، وبشروطٍ كانَ يراعيها في طريقِ الكسبِ مِنَ الاكتفاءِ بقدْرِ الحاجةِ مِنْ غيرِ استكثارٍ وتفاخرٍ وادخارٍ ، ومِنْ غيرِ أنْ يكونَ درهمُهُ أحبَّ إليهِ مِنْ درهمِ غيرِهِ ، فمَنْ دخلَ السوقَ ودرهمُهُ أحبُّ إليهِ مِنْ درهمِ غيرِهِ . . فهوَ حريصٌ على الدنيا ، ومحبٌّ لها ، ولا يصحُّ التوكلُ إلا معَ الزهدِ في الدنيا ، نعمْ ، يصحُّ الزهدُ دونَ التوكلِ ؛ فإنَّ التوكلَ مقامٌ وراءَ الزهدِ .

وقالَ أبو جعفرٍ الحدادُ وهوَ شيخُ الجنيدِ رحمةُ اللهِ عليهما ، وكانَ مِنَ المتوكلينَ : (أخفيتُ التوكلَ عشرينَ سنةً وما فارقتُ السوقَ ، كنتُ أكتسبُ في كلِّ يومٍ ديناراً ، ولا أبيتُ منهُ دانقاً ، ولا أستريحُ منهُ إلىٰ قيراطٍ أدخلُ بهِ الحمامَ ، بلْ أخرجُهُ كلَّهُ قبلَ الليلِ)[2] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/١٧) ، وقد روىٰ نحو هٰذا ابن سعد في « طبقاته » (٣/١٦٨) ، غير أن الصديق رضي الله عنه أوصىٰ برد ما أخذه من بيت المال بعد موته كما سبق بيانه .

(٢) قوت القلوب (٢/١٧) .

وكانَ الجنيدُ لا يتكلَّمُ في التوكلِ بحضرتِهِ ، وكانَ يقولُ : (أستحي أنْ أتكلمَ في مقامِهِ وهوَ حاضرٌ عندي)[1] .

واعلمْ : أنَّ الجلوسَ في رباطاتِ الصوفيَّةِ معَ المعلومِ بعيدٌ مِنَ التوكلِ ؛ فإنْ لمْ يكنْ معلومٌ ووقفٌ ، وأمروا الخادمَ بالخروجِ للطلبِ . . لمْ يصحَّ معَهُ التوكلُ إلا علىٰ ضعفٍ ، ولكنْ يقوىٰ بالحالِ والعلمِ ؛ كتوكلِ المكتسبِ ، وإنْ لمْ يسألوا ، بلْ قنعوا بما يُحملُ إليهِمْ . . فهـٰذا أقوىٰ في توكلِهِمْ ، ولكنَّهُ بعدَ اشتهارِ القومِ بذلكَ صارَ سوقاً ، فهوَ كدخولِ السوقِ ، ولا يكونُ داخلُ السوقِ متوكلاً إلا بشروطٍ كثيرةٍ كما سبقَ .

***

فإنْ قلتَ : فما الأفضلُ : أنْ يقعدَ في بيتِهِ ، أوْ يخرجَ ويكتسبَ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ إنْ كانَ يتفرَّغُ بتركِ الكسبِ لفكرٍ وذكرٍ وإخلاصٍ واستغراقِ وقتٍ بالعبادةِ ، وكانَ الكسبُ يشوِّشُ عليهِ ذلكَ ، وهوَ معَ هـٰذا لا تستشرفُ نفسُهُ إلى الناسِ في انتظارِ مَنْ يدخلُ عليهِ فيحملُ إليهِ شيئاً ، بلْ يكونُ قويَّ القلبِ في الصبرِ والاتكالِ على اللهِ تعالىٰ . . فالقعودُ لهُ أولىٰ ، وإنْ كانَ يضطربُ قلبُهُ في البيتِ ، ويستشرفُ إلى الناسِ . . فالكسبُ أولىٰ ؛ لأنَّ استشرافَ القلبِ إلى الناسِ سؤالٌ بالقلبِ ، وتركُهُ أهمُّ مِنْ تركِ الكسبِ ، وما كانَ المتوكلونَ يأخذونَ ما تستشرفُ إليهِ نفوسُهُمْ .

---

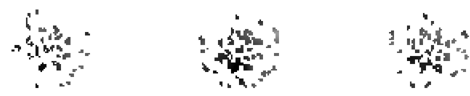
(١) قوت القلوب (٢/ ١٧) .

كانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ قدْ أمرَ أبا بكرٍ المروزيَّ أنْ يُعطيَ بعضَ الفقراءِ شيئاً فضلاً عمَّا كانَ استأجرَهُ عليهِ ، فردَّهُ ، فلمَّا ولَّىٰ . . قالَ لهُ أحمدُ : الحقْهُ وأعطِهِ ، فإنَّهُ يقبلُ ، فلحقَهُ وأعطاهُ فأخذَهُ ، فسألَ أحمدَ عنْ ذلكَ ، فقالَ : كانَ قدِ استشرفَتْ نفسُهُ فردَّ ، فلمَّا خرجَ . . انقطعَ طمعُهُ وأيسَ فأخذَ[1] .

وكانَ الخوَّاصُ رحمهُ اللهُ إذا نظرَ إلىٰ عبدٍ في العطاءِ ، أوْ خافَ اعتيادَ النفسِ لذلكَ . . لمْ يقبلْ منهُ شيئاً[2] .

وقالَ الخوَّاصُ بعدَ أنْ سُئِلَ عنْ أعجبِ ما رآهُ في أسفارِهِ : رأيتُ الخضرَ ورضيَ بصحبتي ، ولكنِّي فارقتُهُ خيفةَ أنْ تسكنَ نفسي إليهِ فيكونَ نقصاً في توكُّلي[3] .

فإذاً ؛ المكتسبُ إذا راعىٰ آدابَ الكسبِ وشروطَ نيَّتِهِ كما سبقَ في كتابِ الكسبِ ، ولمْ يقصدِ الاستكثارَ ، ولمْ يكنِ اعتمادُهُ علىٰ بضاعتِهِ وكفايتِهِ . . كانَ متوكلاً .



فإنْ قلتَ : فما علامةُ عدمِ اتكالِهِ على البضاعةِ والكفايةِ ؟

فأقولُ : علامتُهُ : أنَّهُ إنْ سُرِقَتْ بضاعتُهُ ، أوْ خسرَتْ تجارتُهُ ، أوْ تعوَّقَ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٧) .
(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٩٨) .

أمرٌ مِنْ أمورِهِ . . كانَ راضياً بهِ ، ولمْ تبطلْ طُمأنينتُهُ ، ولمْ يضطربْ قلبُهُ ، بلْ كانَ حالُ قلبِهِ في السكونِ قبلَهُ وبعدَهُ واحداً ، فإنَّ مَنْ لمْ يسكنْ إلىٰ شيءٍ . . لمْ يضطربْ لفقدِهِ ، ومَنِ اضطربَ لفقدِ شيءٍ . . فقدْ سكنَ إليهِ .

وكانَ بشرٌ يعملُ المغازلَ ، فتركَها ، وذلكَ لأنَّ البعاديَّ كاتبَهُ[١] : بلغَني أنَّكَ استعنتَ علىٰ رزقِكَ بالمغازلِ ، أرأيتَ إنْ أخذَ اللهُ سمعَكَ وبصرَكَ الرزقُ علىٰ مَنْ ؟ فوقعَ ذلكَ في قلبِهِ ، فأخرجَ آلةَ المغازلِ عنْ يدِهِ ، وقيلَ : تركَها لما نوَّهَتْ باسمِهِ وقُصدَ لأجلِها[٢] ، وقيلَ : فعلَ ذلكَ لمَّا ماتَ عيالُهُ ، كما كانَ لسفيانَ خمسونَ ديناراً يتجرُ فيها ، فلمَّا ماتَ عيالُهُ . . فرَّقَها[٣] .

* * *

فإنْ قلتَ : فكيفَ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ لهُ بضاعةٌ ولا يسكنُ إليها وهوَ يعلمُ أنَّ الكسبَ بغيرِ بضاعةٍ لا يمكنُ ؟

فأقولُ : بأنْ يعلمَ أنَّ الذينَ يرزقُهُمُ اللهُ تعالىٰ بغيرِ بضاعةٍ فيهِمْ كثرةٌ ، وأنَّ الذينَ كثرَتْ بضاعتُهُمْ فسُرقَتْ وهلكَتْ فيهِمْ كثرةٌ ، وأنْ يوطِّنَ نفسَهُ

---

(١) في (أ) : (وذلك أن فلاناً كتب إليه) ، وفي (ب ، ن ، ف) : (البعلوي) بدل (البعادي) ، وفي (ج) : (التعلوي) ، وفي (د) : (العبدي) .

(٢) فقيل : المغازل البشريَّة ، وطلبت لأجله ، وقد أشار الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٤٨٥) إلىٰ نسبة الخبر لصاحب « القوت » .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٨) .

علىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ لا يفعلُ بهِ إلا ما فيهِ صلاحُهُ ، فإنْ أهلكَ بضاعتَهُ . . فهوَ خيرٌ لهُ ، فلعلَّهُ لوْ تركَها . . كانَ سبباً لفسادِ دينِهِ ؟ وقدْ لطفَ اللهُ تعالىٰ بهِ ، وغايتُهُ أنْ يموتَ جوعاً ، فينبغي أنْ يعتقدَ أنَّ الموتَ جوعاً خيرٌ لهُ في الآخرةِ مهما قضى اللهُ عليهِ بذلكَ ، مِنْ غيرِ تقصيرٍ مِنْ جهتِهِ ، فإذا اعتقدَ جميعَ ذلكَ . . استوىٰ عندَهُ وجودُ البضاعةِ وعدمُها ؛ ففي الخبرِ : « إنَّ العبدَ ليهمُّ مِنَ الليلِ بأمرٍ مِنْ أمورِ التجارةِ ممَّا لوْ فعلَهُ . . لكانَ فيهِ هلاكُهُ ، فينظرُ اللهُ تعالىٰ إليهِ مِنْ فوقِ عرشِهِ ، فيصرفُهُ عنهُ ، فيصبحُ كئيباً حزيناً يتطيَّرُ بجارِهِ وابنِ عمِّهِ ، مَنْ سبقَني ؟ مَنْ دهاني ؟ وما هو إلا رحمةٌ رحمَهُ اللهُ بها »[1] .

ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا أبالي أصبحتُ غنيّاً أوْ فقيراً ؛ فإنِّي لا أدري أيُّهما خيرٌ لي)[2] .

ومَنْ لمْ يتكاملْ يقينُهُ بهٰذهِ الأمورِ . . لمْ يُتصوَّرْ منهُ التوكلُ ، ولذلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ لأحمدَ بنِ أبي الحواري : (لي مِنْ كلِّ مقامٍ نصيبٌ إلا مِنْ هٰذا التوكلِ المباركِ ؛ فإنِّي ما شممتُ منهُ رائحةً)[3] ، هٰذا كلامُهُ معَ علوِّ قدرِهِ ، ولمْ ينكرْ كونَهُ مِنَ المقاماتِ الممكنةِ ، ولكنَّهُ قالَ : ما أدركتُهُ ، ولعلَّهُ أرادَ إدراكَ أقصاهُ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٢) ، وقد رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٠٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) روىٰ هٰذا ابن المبارك في « الزهد » (٥٦٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) الرسالة القشيرية (ص٣٠٢) .

وما لمْ يكملِ الإيمانُ بأنْ لا فاعلَ إلا اللهُ ، ولا رازقَ سواهُ ، وبأنَّ كلَّ ما يقدِّرُهُ على العبدِ مِنْ فقرٍ وغنىً ، وموتٍ وحياةٍ فهوَ خيرٌ لهُ ممَّا يتمنَّاهُ العبدُ . . لمْ يكملْ حالُ التوكلِ ، فبناءُ التوكلِ علىٰ قوَّةِ الإيمانِ بهٰذهِ الأمورِ كما سبقَ ، وكذا سائرُ مقاماتِ الدينِ مِنَ الأحوالِ والأعمالِ تنبني علىٰ أصولِها مِنَ الإيمانِ .

وبالجملةِ : التوكلُ مقامٌ مفهومٌ ، ولكنْ يستدعي قوَّةَ القلبِ وقوَّةَ اليقينِ ، ولذلكَ قالَ سهلٌ : (مَنْ طعنَ على التكسُّبِ . . فقدْ طعنَ على السنَّةِ ، ومَنْ طعنَ علىٰ تركِ التكسبِ . . فقدْ طعنَ على التوحيدِ)(١) .

* * *

فإنْ قلتَ : فهلْ مِنْ دواءٍ يُنتفعُ بهِ في صرفِ القلبِ عنِ الركونِ إلى الأسبابِ الظاهرةِ ، وحسنِ الظنِّ باللهِ تعالىٰ في تيسيرِ الأسبابِ الخفيَّةِ ؟

فأقولُ : نعمْ ، هوَ أنْ تعرفَ أنَّ سوءَ الظنِّ تلقينُ الشيطانِ ، وحسنَ الظنِّ تلقينُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ ، فالإنسانُ بطبعِهِ مشغوفٌ بسماعِ تخويفِ الشيطانِ ، ولذلكَ قيلَ : (الشفيقُ بسوءِ الظنِّ مولعٌ)(٢) .

---

(١) كذا في « القوت » (٦/٢) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٩٥) ، والقشيري في « رسالته » (ص٢٩٩) .

(٢) يراد منه أن ذا الشفقة يضع سوء الظن في غير موضعه .

وإذا انضمَّ إلىٰ سوءِ الظنِّ الجبنُ ، وضعفُ القلبِ ، ومشاهدةُ المتكلينَ على الأسبابِ الظاهرةِ والباعثينَ عليها . . غلبَ سوءُ الظنِّ وبطلَ التوكلُ بالكليَّةِ .

بلْ رؤيةُ الرزقِ مِنَ الأسبابِ الخفيَّةِ أيضاً تبطلُ التوكلَ ، فقدْ حُكِيَ عنْ عابدٍ أنَّهُ عكفَ في مسجدٍ ولمْ يكنْ لهُ معلومٌ ، فقالَ لهُ الإمامُ : لوِ اكتسبتَ . . لكانَ أفضلَ لكَ ، فلمْ يجبْهُ حتَّىٰ أعادَ القولَ ثلاثاً ، فقالَ في الرابعةِ : يهوديٌّ في جوارِ المسجدِ قدْ ضمنَ لي كلَّ يومٍ رغيفينِ ، فقالَ : إنْ كانَ صادقاً في ضمانِهِ . . فعكوفُكَ في المسجدِ خيرٌ لكَ ، فقالَ : يا هٰذا ؛ لوْ لمْ تكنْ إماماً تقفُ بينَ يدي اللهِ وبينَ العبادِ معَ هٰذا النقصِ في التوحيدِ . . كانَ خيراً لكَ[1] ؛ أيْ : فضلتَ وعدَ يهوديٍّ علىٰ ضمانِ اللهِ تعالىٰ بالرزقِ .

وقالَ إمامُ مسجدٍ لبعضِ المصلِّينَ : مِنْ أينَ تأكلُ ؟ فقالَ : يا شيخُ ؛ اصبرْ حتَّىٰ أعيدَ الصلاةَ التي صلَّيتُها خلفَكَ ثمَّ أجيبُكَ[1] .

وينفعُ في حسنِ الظنِّ بمجيءِ الرزقِ مِنْ فضْلِ اللهِ تعالىٰ بواسطةِ الأسبابِ الخفيَّةِ أنْ تسمعَ الحكاياتِ التي فيها عجائبُ صنعِ اللهِ تعالىٰ في وصولِ الرزقِ إلىٰ صاحبِهِ ، وفيها عجائبُ قهرِ اللهِ تعالىٰ في إهلاكِ أموالِ التجارِ والأغنياءِ وقتلِهِمْ جوعاً ، كما رُوِيَ عنْ حذيفةَ المرعشيِّ وكانَ قدْ خدمَ إبراهيمَ بنَ أدهمَ ، فقيلَ لهُ : ما أعجبُ ما رأيتَ منهُ ؟ فقالَ : بقينا في طريقِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٥) .

مكَّةَ أياماً لمْ نجدْ طعاماً ، ثمَّ دخلنا الكوفةَ ، فأوينا إلىٰ مسجدٍ خرابٍ ، فنظرَ إليَّ إبراهيمُ وقالَ : يا حذيفةُ ؛ أرىٰ بكَ أثرَ الجوعِ ، فقلتُ : هوَ ما رأى الشيخُ ، فقالَ : عليَّ بدواةٍ وقرطاسٍ ، فجئتُ بهِ ، فكتبَ : بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ ، أنتَ المقصودُ إليهِ بكلِّ حالٍ ، والمشارُ إليهِ بكلِّ معنىً ، وكتبَ شعراً[1] : [من الكامل]

أَنـا حـامِـدٌ أَنـا شـاكِـرٌ أَنـا ذاكِـرٌ ... أَنَا جائِعٌ أَنَا نائِعٌ[2] أَنَا عارِي

هِيَ سِتَّةٌ وَأَنا ٱلضَّمِينُ لِنِصْفِها ... فَكُنِ ٱلضَّمِينَ لِنِصْفِها يا بَارِي

مَدْحِي لِغَيْرِكَ لَهْبُ نارٍ خُضْتُها ... فَأَجِرْ عُبَيْدَكَ مِنْ دُخُولِ ٱلنَّارِ

ثمَّ دفعَ إليَّ الرقعةَ وقالَ : اخرجْ ولا تعلِّقْ قلبَكَ بغيرِ اللهِ تعالىٰ ، وادفعِ الرقعةَ إلىٰ أوَّلِ مَنْ يلقاكَ ، فخرجتُ ، فأوَّلُ مَنْ لقيَني كانَ رجلاً علىٰ بغلةٍ ، فناولتُهُ الرقعةَ ، فأخذَها ، فلمَّا وقفَ عليها .. بكىٰ وقالَ : ما فعلَ صاحبُ هـٰذهِ الرقعةِ ؟ فقلتُ : هوَ في المسجدِ الفلانيِّ ، فدفعَ إليَّ صرَّةً فيها ستُّ مئةِ دينارٍ ، ثمَّ لقيتُ رجلاً آخرَ ، فسألتُهُ عنْ راكبِ البغلةِ ، فقالَ : هـٰذا نصرانيٌّ ، فجئتُ إلىٰ إبراهيمَ وأخبرتُهُ بالقصَّةِ ، فقالَ : لا تمسَّها ؛ فإنَّهُ يجيءُ الساعةَ ، فلمَّا كانَ بعدَ ساعةٍ .. دخلَ

---

(١) البيتان الأول والثاني في « معجم الشعراء » (ص ٤٧٥) للخليع الأصفر الرقي ، والثلاثة في « المستطرف » (١/ ٤٥٦) لإبراهيم بن الأدهم .

(٢) النائع : العطشان ، وقيل : إتباع للجائع .

النصرانيُّ وأكبَّ علىٰ رأسِ إبراهيمَ يقبِّلُهُ ، وأسلمَ[1] .

وقالَ أبو يعقوبَ الأقطعُ البصريُّ : جعتُ مرَّةً بالحرمِ عشرةَ أيامٍ ، فوجدتُ ضعفاً ، فحدثتْني نفسي بالخروجِ ، فخرجتُ إلى الوادي لعلِّي أجدُ شيئاً يسكنُ ضعفي ، فرأيتُ سَلْجَمَةً مطروحةً[2] ، فأخذتُها ، فوجدتُ في قلبي منها وحشةً ، وكأنَّ قائلاً يقولُ لي : جعتَ عشرةَ أيامٍ وآخرُهُ يكونُ حظُّكَ سلجمةً متغيِّرةً ؟ فرميتُ بها ودخلتُ المسجدَ ، فقعدتُ ، فإذا أنا برجلٍ أعجميٍّ قدْ أقبلَ ، حتَّىٰ جلسَ بينَ يديَّ ووضعَ قمطرةً ، وقالَ : هـٰذهِ لكَ ، فقلتُ : كيفَ خصصتَني بها ؟ فقالَ : اعلمْ أنَّا كنَّا في البحرِ منذُ عشرةِ أيامٍ ، وأشرفَتِ السفينةُ على الغرقِ ، فنذرتُ إنْ خلَّصَني اللهُ تعالىٰ أنْ أتصدَّقَ بهـٰذهِ علىٰ أوَّلِ مَنْ يقعُ عليهِ بصري مِنَ المجاورينَ ، وأنتَ أوَّلُ مَنْ لقيتُهُ ، فقلتُ : افتحْها ، ففتحَها ، فإذا فيها سميدٌ مصريٌّ ، ولوزٌ مقشَّرٌ وسكرٌ كعابٌ ، فقبضتُ قبضةً مِنْ ذا وقبضةً مِنْ ذا ، وقلتُ : ردَّ الباقي إلىٰ صبيانِكَ هديةً منِّي إليكُمْ ، وقدْ قبلتُها ، ثمَّ قلتُ في نفسي : رزقُكَ يسيرُ إليكَ مِنْ عشرةِ أيامٍ وأنتَ تطلبُهُ مِنَ الوادي ؟![3] .

وقالَ مِمشاذُ الدينوريُّ : كانَ عليَّ دينٌ ، فاشتغلَ قلبي بسببِهِ ، فرأيتُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٨) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٠٦) واللفظ له .

(٢) **السلجمة** : واحدة السلجم بوزان جعفر ، وهو النبت المسمَّىٰ باللفت ، شبه الفجل .

(٣) الرسالة القشيرية (ص٣٠٢) .

في النومِ كأنَّ قائلاً يقولُ : يا بخيلُ ؛ أخذتَ علينا هـٰذا المقدارَ مِنَ الدينِ ؟! خُذْ ، عليكَ الأخذُ وعلينا العطاءُ[١] ، فما حاسبتُ بعدَ ذلكَ بقَّالاً ولا قصَّاباً ولا غيرَهما[٢] .

وحُكِيَ عنْ بنانٍ الحمَّالِ قالَ : كنتُ في طريقِ مكَّةَ أجيءُ مِنْ مصرَ ومعي زادٌ ، فجاءَتْني امرأةٌ وقالَتْ لي : يا بنانُ ؛ أنتَ حمَّالٌ تحملُ علىٰ ظهرِكَ الزادَ وتتوهَّمُ أنَّهُ لا يرزقُكَ ؟ قالَ : فرميتُ بزادي ، ثمَّ أتىٰ عليَّ ثلاثٌ لمْ آكلْ ، فوجدتُ خلخالاً في الطريقِ ، فقلتُ في نفسي : أحملُهُ حتَّىٰ يجيءَ صاحبُهُ ، فربَّما يعطيني شيئاً فأردُّهُ عليهِ ، فإذا أنا بتلكَ المرأةِ ، فقالَتْ لي : أنتَ تاجرٌ ؟ تقولُ : عسىٰ يجيءُ صاحبُهُ فآخذُ منهُ شيئاً ؟! ثمَّ رمَتْ إليَّ شيئاً مِنَ الدراهمِ وقالَتْ : أنفقْها ، فاكتفيتُ بها إلىٰ قريبٍ مِنْ مكةَ[٣] .

ويُحكىٰ أنَّ بناناً احتاجَ إلىٰ جاريةٍ تخدمُهُ ، فانبسطَ إلىٰ إخوانِهِ ، فجمعوا لهُ ثمنَها ، وقالوا : هوَ ذا يجيءُ النفرُ فنشتري ما يوافقُ ، فلمَّا وردَ النفرُ . . اجتمعَ رأيُهُمْ علىٰ واحدةٍ ، وقالوا : إنَّها تصلحُ لهُ ، فقالوا لصاحبِها : بكمْ هـٰذهِ ؟ فقالَ : إنَّها ليسَتْ للبيعِ ، فألحُّوا عليهِ ، فقالَ : إنَّها لبنانٍ الحمالِ ، أهدتْها إليهِ امرأةٌ مِنْ سمرقندَ ، فحُملَتْ إلىٰ بنانٍ وذُكِرَتْ لهُ القصَّةُ[٤] .

---

(١) في (ب) : (القضاء) بدل (العطاء) .
(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص٣٠٣) .
(٣) الرسالة القشيرية (ص٣٠٣) ، ووقع في النسخ : (قريب من مصر) ، والمثبت من (ق) و« الرسالة القشيرية » .
(٤) الرسالة القشيرية (ص٣٠٤) .

وقيلَ : كانَ في الزمنِ الأوَّلِ رجلٌ في سفرٍ ومعَهُ قرصٌ ، فقالَ : إنْ أكلتُهُ . . متُّ ، فوكلَ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ ملكاً وقالَ : إنْ أكلَهُ فارزقْهُ ، وإنْ لمْ يأكلْهُ . . فلا تعطِهِ غيرَهُ ، فلمْ يزلِ القرصُ معَهُ إلىٰ أنْ ماتَ ولمْ يأكلْهُ ، وبقيَ القرصُ بعدَهُ(١) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخرَّازُ : دخلتُ الباديةَ بغيرِ زادٍ ، فأصابَتْني فاقةٌ ، فرأيتُ المرحلةَ مِنْ بعيدٍ(٢) ، فسُررتُ بأنْ وصلتُ ، ثمَّ فكرتُ في نفسي أني سكنتُ واتكلتُ علىٰ غيرِهِ ، فآليتُ ألا أدخلَ المرحلةَ إلا أنْ أُحملَ إليها ، فحفرتُ لنفسي في الرملِ حفيرةً ، وواريتُ جسدي فيها إلىٰ صدري ، فسمعوا صوتاً في نصفِ الليلِ عالياً : يا أهلَ المرحلةِ ؛ إنَّ للهِ تعالىٰ وليّاً حبسَ نفسَهُ في هٰذا الرملِ فالحقوهُ ، فجاءَ جماعةٌ فأخرجوني وحملوني إلى القريةِ(٣) .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً لازمَ بابَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ عمرُ : يا هٰذا ؛ هاجرتَ إلىٰ عمرَ أوْ إلى اللهِ تعالى ؟ اذهبْ فتعلَّمِ القرآنَ ، فإنَّهُ سيغنيكَ عنْ بابِ عمرَ ، فذهبَ الرجلُ وغابَ حتَّى افتقدَهُ عمرُ ، فإذا هوَ قدِ اعتزلَ واشتغلَ بالعبادةِ ، فجاءَهُ عمرُ فقالَ لهُ : إنِّي قدْ اشتقتُ إليكَ ، فما الذي شغلَكَ عنَّا ؟ فقالَ : إنِّي قرأتُ القرآنَ ، فأغناني عنْ عمرَ وآلِ عمرَ ، فقالَ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣٠٤) .

(٢) المرحلة : القرية .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص٣٠٥) .

عمرُ : رحمكَ اللهُ ، فما وجدتَ فيهِ ؟ فقالَ : وجدتُ فيهِ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، فقلتُ : رزقي في السماءِ وأنا أطلبُهُ في الأرضِ ؟! فبكىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ وقالَ : صدقتَ ، فكانَ عمرُ بعدَ ذلكَ يأتيه ويجلسُ إليهِ[1] .

وقالَ أبو حمزةَ الخراسانيُّ : حججتُ سنةً مِنَ السنينِ ، فبينا أنا أمشي في الطريقِ . . إذْ وقعتُ في بئرٍ ، فنازعَتْني نفسي أنْ أستغيثَ ، فقلتُ : لا واللهِ لا أستغيثُ ، فما استتممتُ هٰذا الخاطرَ حتَّىٰ مرَّ برأسِ البئرِ رجلانِ ، فقالَ أحدُهُما للآخرِ : تعالَ حتَّىٰ نسدَّ رأسَ هٰذا البئرِ لئلا يقعَ فيهِ أحدٌ ، فأتَوا بقصبٍ وباريةٍ[2] ، وطمُّوا رأسَ البئرِ ، فهممتُ أنْ أصيحَ ، فقلتُ في نفسي : إلىٰ مَنْ أصيحُ ؟ هوَ أقربُ منهُما ، وسكنتُ ، فبينا أنا بعدَ ساعةٍ إذْ أنا بشيءٍ جاءَ وكشفَ عنْ رأسِ البئرِ وأدلىٰ رجلَهُ ، وكأنَّهُ يقولُ : تعلَّقْ بي في همهمةٍ لهُ كنتُ أعرفُ ذلكَ ، فتعلَّقتُ بهِ فأخرجَني ، فإذا هوَ سبعٌ ، فمرَّ وهتفَ بي هاتفٌ : يا أبا حمزةَ ؛ أليس هٰذا أحسنَ ؟ نجَّيناكَ مِنَ التلفِ بالتلفِ ، فمشيتُ وأنا أقولُ[3] : [من الطويل]

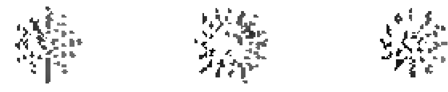
نَهانِي حَيائِي مِنْكَ أَنْ أَكْتُمَ ٱلْهَوَى ... وَأَغْنَيْتَنِي بِٱلْفَهْمِ مِنْكَ عَنِ ٱلْكَشْفِ
تَلَطَّفْتَ فِي أَمْرِي فَأَبْدَيْتَ شاهِدِي ... إِلَىٰ غَائِبِي وَٱللُّطْفُ يُدْرَكُ بِٱللُّطْفِ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/٨) ، ورواه بنحوه ابن المبارك في « الزهد » (١٣١) من زيادات نعيم بن حماد ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٦٧٨٩) مختصراً .
(٢) البارية : الحصير .
(٣) الأبيات لمحمد بن إبراهيم الصوفي . انظر « المحمدون من الشعراء » (ص ١٢٣) .

تَراءَيْتَ لِي بِٱلْغَيْبِ حَتَّىٰ كَأَنَّما ... تُبَشِّرُنِي بِٱلْغَيْبِ أَنَّكَ فِي ٱلْكَفِّ
أَرَاكَ وَبِي مِنْ هَيْبَتِي لَكَ وَحْشَةٌ ... فَتُؤْنِسُنِي بِٱللُّطْفِ مِنْكَ وَبِٱلْعَطْفِ
وَتُحْيِي مُحِبّاً أَنْتَ فِي ٱلْحُبِّ حَتْفُهُ ... وَذا عَجَبٌ كَوْنُ ٱلْحَياةِ مَعَ ٱلْحَتْفِ

وأمثالُ هٰذهِ الوقائعِ ممَّا يكثرُ[1] ، وإذا قويَ الإيمانُ بهِ ، وانضمَّ إليهِ القدرةُ على الجوعِ قدْرَ أسبوعٍ مِنْ غيرِ ضيقِ صدرٍ ، وقويَ الإيمانُ بأنَّهُ إنْ لمْ يُسقْ إليهِ رزقُهُ في أسبوعٍ فالموتُ خيرٌ لهُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولذلكَ حبسَهُ عنهُ . . تمَّ التوكُّلُ بهٰذهِ الأحوالِ والمشاهداتِ ، وإلا . . فلا يتمُّ أصلاً .



(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص٣٠٥) ، وقد اعترض على المصنف في إيراده لهٰذه القصة ، وقد أجاب عن الاعتراض رحمه الله في « إملائه » ، وكذا التمس لهٰذا عذراً القاضي ابن العربي المالكي في « أحكام القرآن » (٣/٨٣) ، والحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/٤٩١) .

بيان توكّل المعيل

اعلمْ : أنَّ مَنْ لهُ عيالٌ فحكمُهُ يفارقُ حكمَ المنفردِ ؛ لأنَّ المنفردَ لا يصحُّ توكلُهُ إلا بأمرينِ :

أحدُهُما : قدرتُهُ على الجوعِ أسبوعاً مِنْ غيرِ استشرافٍ وضيقِ نفسٍ .

والآخرُ : أبوابٌ مِنَ الإيمانِ ذكرناها ؛ مِنْ جملتِها أنْ يطيبَ نفساً بالموتِ إنْ لمْ يأتِهِ رزقُهُ ؛ علماً بأنَّ رزقَهُ الموتُ والجوعُ ، وهوَ وإنْ كانَ نقصاناً في الدنيا . . فهوَ زيادةٌ في الآخرةِ ، فيرىٰ أنَّهُ سيقَ إليهِ خيرُ الرزقينِ لهُ ، وهوَ رزقُ الآخرةِ ، وأنَّ هـٰذا هوَ المرضُ الذي به يموتُ ، ويكونُ راضياً بذلكَ ، وأنَّهُ كذا قُضيَ وقُدِّرَ لهُ ، فبهـٰذا يتمُّ للمنفردِ التوكلُ .

ولا يجوزُ تكليفُ العيالِ الصبرَ على الجوعِ ، ولا يمكنُ أنْ يقرِّرَ عندَهُمُ الإيمانَ بالتوحيدِ وأنَّ الموتَ على الجوعِ رزقٌ مغبوطٌ عليهِ في نفسِهِ إنِ اتفقَ ذلكَ نادراً ، وكذا سائرُ أبوابِ الإيمانِ ، فإذاً ؛ لا يمكنُهُ في حقِّهِمْ إلا توكلُ المكتسِبِ ، وهوَ المقامُ الثالثُ ؛ كتوكلِ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ إذْ خرجَ للكسبِ(١) .

فأمَّا دخولُ البوادي وتركُ العيالِ توكلاً في حقِّهِمْ ، أوِ القعودُ عنِ

---

(١) رویٰ ذلك ابن سعد في « الطبقات » (٣/١٦٨) ، والمحب الطبري في « الرياض النضرة » (١/٢٠٢) .

الاهتمامِ بأمرِهِمْ توكلاً في حقِّهِمْ . . فهـٰذا حرامٌ ، وقدْ يفضي إلىٰ هلاكِهِمْ ، ويكونُ هوَ مؤاخذاً بِهِمْ .

بلِ التحقيقُ : أنَّهُ لا فرقَ بينَهُ وبينَ عيالِهِ ؛ فإنَّهُ إنْ ساعدَهُ العيالُ على الصبرِ على الجوعِ مدَّةً وعلى الاعتدادِ بالموتِ على الجوعِ رزقاً وغنيمةً في الآخرةِ . . فلهُ أنْ يتوكَّلَ في حقِّهِمْ ، ونفسُهُ أيضاً عيالٌ عندَهُ ، لا يجوزُ لهُ أنْ يضيعَها إلا بأنْ تساعدَهُ على الصبرِ على الجوعِ مدَّةً ، فإنْ كانَ لا يطيقُهُ ، ويضطربُ عليهِ قلبُهُ ، وتتشوَّشُ عبادتُهُ . . لمْ يجزْ لهُ التوكلُ .

ولذلكَ رُوِيَ أنَّ أبا ترابٍ النخشبيَّ نظرَ إلىٰ صوفيٍّ مدَّ يدَهُ إلىٰ قشرِ بطيخٍ ليأكلَهُ بعدَ ثلاثةِ أيامٍ ، فقالَ لهُ : (لا يصلحُ لكَ التصوُّفُ ، الزمِ السوقَ)[1] أيْ : لا تصوُّفَ إلا معَ التوكلِ ، ولا يصحُّ التوكلُ إلا لِمَنْ يصبرُ عنِ الطعامِ أكثرَ مِنْ ثلاثةِ أيامٍ .

وقالَ أبو عليٍّ الروذباريُّ : (إذا قالَ الفقيرُ بعدَ خمسةِ أيامٍ : أنا جائعٌ . . فألزموهُ السوقَ ، ومُروهُ بالعملِ والكسبِ)[2] .

فإذاً ؛ بدنُهُ عيالُهُ ، وتوكلُهُ فيما يضرُّ ببدنِهِ كتوكلِهِ في عيالِهِ ، وإنَّما يفارقُهُمْ في شيءٍ واحدٍ ، وهوَ أنَّ لهُ تكليفَ نفسِهِ الصبرَ على الجوعِ ، وليسَ لهُ ذلكَ في عيالِهِ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٤٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص٧٤ ، ٣٠٢) .

(٢) رواه القشيري (ص٢٦١ ، ٣٠٢) .

وقدِ انكشفَ لكَ مِنْ هٰذا أنَّ التوكلَ ليسَ انقطاعاً عنِ الأسبابِ ، بلِ الاعتمادُ على الصبرِ على الجوعِ مدَّةً ، والرضا بالموتِ إنْ تأخَّرَ الرزقُ نادراً ، وملازمةُ البلادِ والأمصارِ ، أوْ ملازمةُ البوادي التي لا تخلو عنْ حشيشٍ وما يجري مجراهُ ، فهٰذهِ كلُّها أسبابُ البقاءِ ، ولكنْ معَ نوعٍ مِنَ الأذىٰ لا يمكنُ الاستمرارُ عليهِ إلا بالصبرِ ، والتوكلُ في الأمصارِ أقربُ إلى الأسبابِ مِنَ التوكلِ في البوادي ، وكلُّ ذلكَ مِنَ الأسبابِ ، إلا أنَّ الناسَ عدلوا إلىٰ أسبابٍ أظهرَ منها ، فلمْ يعدُّوا تلكَ أسباباً ، وذلكَ لضعفِ إيمانِهِمْ ، وشدَّةِ حرصِهِمْ ، وقلَّةِ صبرِهِمْ على الأذىٰ في الدنيا لأجلِ الآخرةِ ، واستيلاءِ الجبنِ علىٰ قلوبِهِمْ بإساءةِ الظنِّ وطولِ الأملِ .

ومَنْ نظرَ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ . . انكشفَ لهُ تحقيقاً أنَّ اللهَ تعالىٰ دبَّرَ الملكَ والملكوتَ تدبيراً لا يجاوزُ العبدَ رزقُهُ وإنْ تركَ الاضطرابَ ، فإنَّ العاجزَ عنِ الاضطرابِ لمْ يجاوزْهُ رزقُهُ ، أما ترى الجنينَ في بطنِ أمِّهِ لمَّا أنْ كانَ عاجزاً عنِ الاضطرابِ كيفَ وصلَ سرَّتَهُ بالأمِّ حتَّىٰ تنتهيَ إليهِ فضلاتُ غذاءِ الأمِّ بواسطةِ السرَّةِ ؟ ولمْ يكنْ ذلكَ بحيلةِ الجنينِ ، ثمَّ لما انفصلَ . . سلَّطَ الحبَّ والشفقةَ على الأمِّ لتكفَّلَ بهِ شاءَتْ أمْ أبتْ ، اضطراراً مِنَ اللهِ تعالىٰ إليهِ بما أشعلَ في قلبِها مِنْ نارِ الحبِّ ، ثمَّ لمَّا لمْ يكنْ لهُ سِنٌّ يمضغُ بهِ الطعامَ . . جعلَ رزقَهُ مِنَ اللبنِ الذي لا يحتاجُ إلى المضغِ ، ولأنَّهُ لرخاوةِ مزاجِهِ كانَ لا يحتملُ الغذاءَ الكثيفَ ، فأدرَّ لهُ اللبنَ اللطيفَ في ثدي الأمِّ عندَ انفصالِهِ علىٰ حسبِ حاجتِهِ ، أفكانَ هٰذا بحيلةِ الطفلِ أوْ بحيلةِ

الأمِّ ؟! فإذا صارَ بحيثُ يوافقُهُ الغذاءُ الكثيفُ . . أنبتَ لهُ أسناناً قواطعَ وطواحنَ لأجلِ المضغِ ، فإذا كبرَ واستقلَّ . . يسَّرَ لهُ أسبابَ التعلُّمِ وسلوكِ سبيلِ الآخرةِ ، فجبنُهُ بعدَ البلوغِ جهلٌ محضٌ ؛ لأنَّهُ ما نقصَتْ أسبابُ معيشتِهِ ببلوغِهِ بلْ زادَتْ ؛ فإنَّهُ لمْ يكنْ قادراً على الاكتسابِ ، والآنَ قدْ قدرَ ، فزادَتْ قدرتُهُ .

نعمْ ، كانَ المشفقُ عليهِ شخصاً واحداً وهوَ الأمُّ أوِ الأبُ ، وكانَتْ شفقتُهُ مفرطةً جداً ، فكانَ يسقيهِ ويطعمُهُ في اليومِ مرَّةً أوْ مرَّتينِ ، وكانَ إطعامُهُ بتسليطِ اللهِ تعالى الشفقةَ والحبَّ علىٰ قلبِهِ ، فكذلكَ قدْ سلَّطَ اللهُ تعالى الشفقةَ والمودةَ والرقَّةَ والرحمةَ علىٰ قلوبِ المسلمينَ وأهلِ البلدِ كافَّةً ، حتىٰ إنَّ كلَّ واحدٍ منهُمْ إذا أحسَّ بمحتاجٍ . . تألَّمَ قلبُهُ ورقَّ عليهِ ، وانبعثَتْ لهُ داعيةٌ إلىٰ إزالةِ حاجتِهِ ، فقدْ كانَ المشفقُ عليهِ واحداً ، والآنَ المشفقُ عليهِ ألفٌ وزيادةٌ ، ولقدْ كانوا لا يشفقونَ عليهِ لأنَّهُمْ رأَوهُ في كفالةِ الأمِّ والأبِ ، وهيَ مشفقٌ خاصٌّ ، فما رأَوهُ محتاجاً ، ولوْ رأَوهُ يتيماً . . لسلَّطَ اللهُ داعيةَ الرحمةِ علىٰ واحدٍ مِنَ المسلمينَ أوْ علىٰ جماعةٍ حتَّىٰ يأخذوهُ ويكفلوهُ ، فما رُئِيَ إلى الآنَ في سنيِّ الخصبِ يتيمٌ قدْ ماتَ جوعاً ، معَ أنَّهُ عاجزٌ عنِ الاضطرابِ ، وليسَ لهُ كافلٌ خاصٌّ ، واللهُ تعالىٰ كافلُهُ بواسطةِ الشفقةِ التي خلقَها في قلوبِ عبادِهِ .

فلماذا ينبغي أنْ يشغلَ قلبَهُ برزقِهِ بعدَ البلوغِ ولمْ يشتغلْ في الصبا ؟ وقدْ كانَ المشفقُ واحداً والمشفقُ الآنَ آلافٌ ؟!

نعمْ ، كانَتْ شفقةُ الأمِّ أقوىٰ وأخصَّ ، ولكنَّها واحدةٌ ، وشفقةُ آحادِ الناسِ وإنْ ضعفَتْ فيخرجُ مِنْ مجموعِها ما يفيدُ الغرضَ ، فكمْ مِنْ يتيمٍ قدْ يسَّرَ اللهُ تعالىٰ لهُ حالاً هوَ أحسنُ مِنْ حالِ مَنْ لهُ أبٌ وأمٌّ ، فينجبرُ ضعفُ شفقةِ الآحادِ بكثرةِ المشفقينَ ، وبتركِ التنعُّمِ ، والاقتصارِ علىٰ قدْرِ الضرورةِ ، ولقدْ أحسنَ الشاعرُ حيثُ يقولُ[1] : [من الوافر]

جَرَىٰ قَلَمُ ٱلْقَضَاءِ بِمَا يَكُونُ ... فَسِيَّانِ ٱلتَّحَرُّكُ وَٱلسُّكُونُ
جُنُونٌ مِنْكَ أَنْ تَسْعَىٰ لِرِزْقٍ ... وَيُرْزَقُ فِي غِشَاوَتِهِ ٱلْجَنِينُ

* * *

فإنْ قلتَ : الناسُ يكفلونَ اليتيمَ لأنَّهُمْ يرونَهُ عاجزاً لصباهُ ، وأمَّا هـٰذا . . فبالغٌ قادرٌ على الكسب ، فلا يلتفتونَ إليهِ ، ويقولونَ : هوَ مثلُنا ، فليجتهدْ لنفسِهِ .

فأقولُ : إنْ كانَ هـٰذا القادرُ بطَّالاً . . فقدْ صدقوا ، فعليهِ الكسبُ ، ولا معنىٰ للتوكلِ في حقِّهِ ، فإنَّ التوكلَ مقامٌ مِنْ مقاماتِ الدينِ يُستعانُ بهِ على التفرُّغِ للهِ تعالىٰ ، فما للبطَّالِ والتوكلِ ؟!

وإنْ كانَ مشتغلاً باللهِ ، ملازماً لمسجدٍ أوْ بيتٍ ، وهوَ مواظبٌ على العلمِ والعبادةِ . . فالناسُ لا يلومونَهُ في تركِ الكسبِ ، ولا يكلِّفونَهُ ذلكَ ، بلِ

---

(1) البيتان في « تتمة يتيمة الدهر » (٥/ ١٦٣) لأبي الفرج بن هندو ، و« مرآة الجنان » (٣/ ٣٨١) لأبي الخير الواسطي .

اشتغالُهُ باللهِ تعالىٰ يقرِّرُ حبَّهُ في قلوبِ الناسِ ، حتَّىٰ يحملونَ إليهِ فوقَ كفايتِهِ ، وإنَّما عليهِ ألا يغلقَ البابَ ، ولا يهربَ إلىٰ جبلٍ مِنْ بينِ الناسِ ، وما رُئِيَ إلى الآنَ عالمٌ أوْ عابدٌ استغرقَ الأوقاتَ باللهِ تعالىٰ وهوَ في الأمصارِ فماتَ جوعاً ، ولا يُرىٰ قطُّ ، بلْ لوْ أرادَ أنْ يطعمَ جماعةً مِنَ الناسِ بقولِهِ . . لقدرَ عليهِ ، فإنَّ مَنْ كانَ للهِ تعالىٰ . . كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ ، ومَنِ اشتغلَ باللهِ عزَّ وجلَّ . . ألقى اللهُ حبَّهُ في قلوبِ الناسِ ، وسخَّرَ لهُ القلوبَ كما سخَّرَ قلبَ الأمِّ لولدِها .

فقدْ دبَّرَ اللهُ تعالىٰ الملْكَ والملكوتَ تدبيراً كافياً لأهلِ الملكِ والملكوتِ ، فمَنْ شاهدَ هٰذا التدبيرَ . . وثقَ بالمدبِّرِ ، واشتغلَ بهِ ، وآمنَ ونظرَ إلىٰ مدبِّرِ الأسبابِ لا إلى الأسبابِ .

نعمْ ، ما دبَّرَهُ تدبيراً يصلُ إلى المشتغلِ بهِ الحلواءُ والطيورُ السمانُ والثيابُ الرفيعةُ والخيولُ النفيسةُ على الدوامِ لا محالةَ ، وقدْ يقعُ ذلكَ أيضاً في بعضِ الأحوالِ ، لكنْ دبَّرَهُ تدبيراً يصلُ إلىٰ كلِّ مشتغلٍ بعبادةِ اللهِ تعالىٰ في كلِّ أسبوعٍ قرصُ شعيرٍ أوْ حشيشٌ يتناولُهُ لا محالةَ ، والغالبُ أنَّهُ يصلُ أكثرُ منهُ ، بلْ يصلُ ما يزيدُ علىٰ قدرِ الحاجةِ والكفايةِ .

فلا سببَ لتركِ التوكلِ إلا رغبةُ النفسِ في التنعُّمِ على الدوامِ ، ولبسِ الثيابِ الناعمةِ ، وتناولِ الأغذيةِ اللطيفةِ ، وليسَ ذلكَ مِنْ طريقِ الآخرةِ ، وذلكَ قدْ لا يحصلُ مِنْ غيرِ اضطرابٍ ، وهوَ في الغالبِ أيضاً ليسَ يحصلُ معَ الاضطرابِ ، وإنَّما يحصلُ نادراً ، وفي النادرِ أيضاً قدْ يحصلُ بغيرِ اضطرابٍ ، فأثرُ الاضطرابِ ضعيفٌ عندَ مَنِ انفتحَتْ بصيرتُهُ ، فلذلكَ

لا يطمئنُّ إلى اضطرابِهِ ، بلْ إلىٰ مدبِّرِ الملكِ والملكوتِ تدبيراً لا يجاوزُ عبداً مِنْ عبادِهِ رزقُهُ وإنْ سكنَ إلا نادراً ندوراً عظيماً يُتصوَّرُ مثلُهُ في حقِّ المضطربِ .

فإذا انكشفَتْ هـٰذهِ الأمورُ ، وكانَ معَهُ قوَّةٌ في القلبِ وشجاعةٌ في النفسِ . . أثمرَ ما قالَهُ الحسنُ البصريُّ رحمَهُ اللهُ إذْ قالَ : (وددتُ أنَّ أهلَ البصرةِ في عيالي وأنَّ حبةً بدينارٍ)[1] .

وقالَ وهيبُ بنُ الوردِ : (لوْ كانَتِ السماءُ نحاساً ، والأرضُ رصاصاً ، واهتممتُ برزقي . . لظننتُ أنِّي مشركٌ)[1] .

فإذا فهمتَ هـٰذهِ الأمورَ . . فهمتَ أنَّ التوكلَ مقامٌ مفهومٌ في نفسِهِ ، ويمكنُ الوصولُ إليهِ لمَنْ قهرَ نفسَهُ ، وعلمتَ أنَّ مَنْ أنكرَ أصلَ التوكلِ وإمكانَهُ . . أنكرَهُ عنْ جهلٍ ، فإيَّاكَ أنْ تجمعَ بينَ إفلاسينِ ؛ إفلاسٍ عنْ وجودِ المقامِ ذوقاً ، وإفلاسٍ عنِ الإيمانِ بهِ علماً .

فإذاً ؛ عليكَ بالقناعةِ بالنزرِ القليلِ ، والرضا بالقوتِ ؛ فإنَّهُ يأتيكَ ـ لا محالةَ ـ وإنْ فررتَ منهُ ، وعندَ ذلكَ على اللهِ أنْ يبعثَ إليكَ رزقَكَ علىٰ يدي مَنْ لا تحتسبُ ، فإنِ اشتغلتَ بالتقوىٰ والتوكُّلِ . . شاهدتَ بالتجربةِ مصداقَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ، إلا أنَّهُ لمْ يتكفلْ لهُ أنْ يرزقَهُ لحمَ الطيرِ ولذائذَ الأطعمةِ ، فما

(١) قوت القلوب (٢/ ٩) .

ضمنَ إلا الرزقَ الذي تدومُ بهِ حياتُهُ ، وهـٰذا المضمونُ مبذولٌ لكلِّ مَنِ اشتغلَ بالضامنِ واطمأنَّ إلىٰ ضمانِهِ ، فإنَّ الذي أحاطَ بهِ تدبيرُ اللهِ تعالىٰ مِنَ الأسبابِ الخفيَّةِ للرزقِ أعظمُ ممَّا ظهرَ للخلقِ ، بلْ مداخلُ الرزقِ لا تُحصىٰ ، ومجاريهِ لا يُهتدىٰ إليها ، وذلكَ لأنَّ ظهورَهُ على الأرضِ وسببُهُ في السماءِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، وأسرارُ السماءِ لا يُطلعُ عليها ، ولهـٰذا دخلَ جماعةٌ على الجنيدِ فقالوا : نطلبُ الرزقَ ، فقالَ : إنْ علمتُمْ أيُّ موضعٍ هوَ . . فاطلبوهُ ، قالوا : فنسألُ اللهَ ، قالَ : إنْ علمتُمْ أنَّهُ ينساكُمْ . . فذكِّروهُ ، فقالوا : ندخلُ البيتَ ونتوكَّلُ وننظرُ ما يكونُ ، فقالَ : التوكلُ على التجربةِ شكٌّ ، قالوا : فما الحيلةُ ؟ قالَ : تركُ الحيلةِ(١) .

وقالَ أحمدُ بنُ عيسى الخرَّازُ : كنتُ في الباديةِ ، فنالَني جوعٌ شديدٌ ، فغلبَتْني نفسي أنْ أسألَ اللهَ تعالىٰ طعاماً ، فقلتُ : ليسَ هـٰذا مِنْ فعالِ المتوكلينَ ، فطالبَتْني أنْ أسألَ اللهَ عزَّ وجلَّ صبراً ، فلمَّا هممتُ بذلكَ . . سمعتُ هاتفاً يهتفُ بي ويقولُ : [من الوافر]

وَيَـزْعُـمُ أَنَّـهُ مِنَّـا قَـرِيـبٌ ... وأَنَّـا لا نُضَيِّـعُ مَـنْ أَتـانـا
وَيَسْـأَلُنـا ٱلْقِرَىٰ جُهْـداً وَصَبْـراً ... كَـأَنَّـا لا نَـراهُ ولاَ يَـرانـا(٢)

(١) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص٣٠٢) ، وقد رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٧/ ٢٣٥) عن جعفر الخلدي وكان بحضرة الجنيد .

(٢) كذا الخبر عند الكلاباذي في « التعرف » (ص١٥٠) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥/ ١٤٠) .

فقدْ فهمتَ أنَّ مَنِ انكسرَتْ نفسُهُ ، وقويَ قلبُهُ ، ولمْ يضعفْ بالجبنِ باطنُهُ ، وقويَ إيمانُهُ بتدبيرِ اللهِ تعالىٰ . . كانَ مطمئنَّ النفسِ أبداً ، واثقاً باللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنَّ أسوأَ حالِهِ أنْ يموتَ ولا بدَّ أنْ يأتيَهُ الموتُ كما يأتي مَنْ ليسَ مطمئناً .

فإذاً ؛ تمامُ التوكلِ بقناعةٍ مِنْ جانبٍ ، ووفاءٍ بالمضمونِ مِنْ جانبٍ ، والذي ضمنَ رزقَ القانعينَ بهـٰذهِ الأسبابِ التي دبَّرَها صادقٌ ، فاقنعْ وجرِّبْ . . تشاهدْ صدقَ الوعدِ تحقيقاً بما يردُ عليكَ مِنَ الأرزاقِ العجيبةِ التي لمْ تكنْ في ظنِّكَ وحسابِكَ ، ولا تكنْ في توكُّلِكَ منتظراً للأسبابِ ، بلْ لمسبِّبِ الأسبابِ ، كما لا تكونُ منتظراً لقلمِ الكاتبِ ، بلْ لقلبِ الكاتبِ ، فإنَّهُ أصلُ حركةِ القلمِ ، **والمحرِّكُ الأوَّلُ واحدٌ** ، فلا ينبغي أنْ يكونَ النظرُ إلا إليهِ ، وهـٰذا شرطُ توكلِ مَنْ يخوضُ البواديَ بلا زادٍ ، أوْ يقعدُ في الأمصارِ وهوَ خاملٌ .

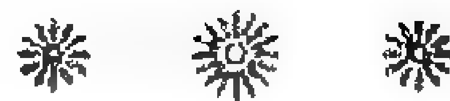
وأمَّا الذي لهُ ذكرٌ بالعبادةِ والعلمِ ؛ فإذا قنعَ في اليومِ والليلةِ بالطعامِ مرَّةً واحدةً كيفَ كانَ وإنْ لمْ يكنْ مِنَ اللذائذِ ، وبثوبٍ خشنٍ يليقُ بأهلِ الدينِ . . فهـٰذا يأتيهِ مِنْ حيثُ يحتسبُ ومِنْ حيثُ لا يحتسبُ على الدوامِ ، بلْ يأتيهِ أضعافُهُ ، فتركُهُ التوكلَ واهتمامُهُ بالرزقِ غايةُ الضعفِ والقصورِ ، فإنَّ اشتهارَهُ بسببٍ ظاهرٍ يجلبُ الرزقَ إليهِ أقوىٰ مِنْ دخولِ الأمصارِ في حقِّ الخاملِ معَ الاكتسابِ .

فالاهتمامُ بالرزقِ قبيحٌ بذوي الدينِ ، وهوَ بالعلماءِ أقبحُ ؛ لأنَّ شرطَهُمُ القناعةُ ، والعالمُ القانعُ يأتيهِ رزقُهُ ورزقُ جماعةٍ كثيرةٍ إنْ كانوا معَهُ ، إلا إذا أرادَ ألا يأخذَ مِنْ أيدي الناسِ ويأكلَ مِنْ كسبِهِ ، فذلكَ لهُ وجهٌ لائقٌ بالعالمِ العاملِ الذي سلوكُهُ بظاهرِ العلمِ والعملِ ، ولمْ يكنْ لهُ سيرٌ بالباطنِ ، فإنَّ الكسبَ يمنعُ مِنَ السيرِ بالفكرِ الباطنِ ، فاشتغالُهُ بالسلوكِ معَ الأخذِ مِنْ يدِ مَنْ يتقرَّبُ إلى اللهِ تعالىٰ بما يعطيهِ أولىٰ ؛ لأنَّهُ تفرُّغٌ للهِ عزَّ وجلَّ ، وإعانةٌ للمعطي علىٰ نيلِ الثوابِ .

ومَنْ نظرَ إلىٰ مجاري سنَّةِ اللهِ تعالىٰ . . علمَ أنَّ الرزقَ ليسَ علىٰ قدْرِ الأسبابِ ، ولذلكَ سألَ بعضُ الأكاسرةِ حكيماً عنِ الأحمقِ المرزوقِ والعاقلِ المحرومِ ، فقالَ : أرادَ الصانعُ أنْ يدلَّ علىٰ نفسِهِ ؛ إذْ لوْ رزقَ كلَّ عاقلٍ وحرمَ كلَّ أحمقَ . . لظُنَّ أنَّ العقلَ رزقَ صاحبَهُ ، فلمَّا رأَوا خلافَهُ . . علموا أنَّ الرازقَ غيرُهُمْ ، ولا ثقةَ بالأسبابِ الظاهرةِ لهُمْ .

قالَ الشاعرُ(١) : [من الطويل]

وَلَوْ كانَتِ ٱلأَرْزاقُ تَجْرِي عَلَى ٱلْحِجا ... هَلَكْنَ إذاً مِنْ جَهْلِهِنَّ ٱلْبَهائِمُ



(١) البيت لأبي تمام في « ديوانه » (٣/ ١٧٨) .

بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال

اعلمْ : أنَّ مثالَ الخلقِ معَ اللهِ تعالىٰ مثالُ طائفةٍ مِنَ السؤَّالِ وقفوا في ميدانٍ علىٰ بابِ قصرِ الملكِ وهمْ محتاجونَ إلى الطعامِ ، فأخرجَ إليهِم غلماناً كثيرةً ومعَهُمْ أرغفةٌ مِنَ الخبزِ ، وأمرَهُمْ أنْ يعطوا بعضَهُمْ رغيفينِ رغيفينِ ، وبعضَهُمْ رغيفاً رغيفاً ، ويجتهدوا في ألا يغفُلوا عنْ واحدٍ منهُمْ ، وأمرَ منادياً حتَّىٰ نادىٰ فيهِمْ : أنِ اسكنوا ولا تتعلَّقوا بغلماني إذا خرجوا إليكُمْ ، بلْ ينبغي أنْ يطمئنَّ كلُّ واحدٍ منكُمْ في موضعِهِ ، فإنَّ الغلمانَ مسخَّرونَ وهُمْ مأمورونَ بأنْ يوصلوا إليكُمْ طعامَكُمْ ، فمَنْ تعلَّقَ بالغلمانِ وآذاهُمْ وأخذَ رغيفينِ ؛ فإذا فُتحَ بابُ الميدانِ وخرجَ . أتبعتُهُ بغلامٍ يكونُ موكلاً بهِ إلىٰ أنْ أتقدمَ لعقوبتِهِ في ميعادٍ معلومٍ عندي ولكنِّي أخفيهِ ، ومَنْ لمْ يؤذِ الغلمانَ وقنعَ برغيفٍ واحدٍ أتاهُ مِنْ يدِ الغلامِ وهوَ ساكنٌ . . فإنِّي أخصُّهُ بخلعةٍ سنيَّةٍ في الميعادِ المذكورِ لعقوبةِ الآخرِ ، ومَنْ ثبتَ في مكانِهِ ولكنَّهُ أخذَ رغيفينِ . . فلا عقوبةَ عليهِ ولا خلعةَ لهُ ، ومَنْ أخطأهُ غلماني فما أوصلوا إليهِ شيئاً ، فباتَ الليلةَ جائعاً غيرَ متسخِّطٍ على الغلمانِ ولا قائلٍ : ليتَهُ أوصلَ إليَّ رغيفاً . . فإنِّي غداً أستوزرُهُ وأفوِّضُ ملكي إليهِ .

فانقسمَ السؤَّالُ إلىٰ أربعةِ أقسامٍ :

قسمٌ غلبَتْ عليهِمْ بطونُهُمْ فلمْ يلتفتوا إلى العقوبةِ الموعودةِ ، وقالوا :

مِنَ اليومِ إلىٰ غدٍ فرجٌ ، ونحنُ الآنَ جائعونَ ، فبادروا إلى الغلمانِ فآذوهُمْ وأخذوا الرغيفينِ ، فسبقَتِ العقوبةُ إليهِمْ في الميعادِ المذكورِ ، فندموا ولمْ ينفعْهُمُ الندمُ .

وقسمٌ تركوا التعلُّقَ بالغلمانِ خوفَ العقوبةِ ، ولكنْ أخذوا رغيفينِ لغلبةِ الجوعِ ، فسلموا مِنَ العقوبةِ ، وما فازوا بالخلعةِ .

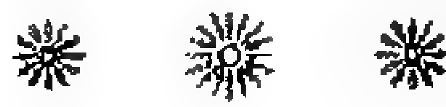
وقسمٌ قالوا : إنَّا نجلسُ بمرأىً مِنَ الغلمانِ حتَّىٰ لا يخطئونا ، ولكنَّا لا نأخذُ إذا أعطونا إلا رغيفاً واحداً ، ونقنعُ بهِ ، فلعلَّنا نفوزُ بالخلعةِ ، ففازوا بها .

وقسمٌ رابعٌ اختفَوا في زوايا الميدانِ ، وانحرفوا عنْ مرأىٰ أعينِ الغلمانِ ، وقالوا : إنِ اتبعونا وأعطَونا.. قنعنا برغيفٍ واحدٍ ، وإنْ أخطؤونا.. قاسينا شدَّةَ الجوعِ الليلةَ ، فلعلَّنا نقوىٰ علىٰ تركِ التسخُّطِ ، فننالَ رتبةَ الوزارةِ ودرجةَ القربِ عندَ الملكِ ، فما نفعَهُمْ ذلكَ ؛ إذْ تبعَهُمُ الغلمانُ في كلِّ زاويةٍ وأعطَوا كلَّ واحدٍ رغيفاً واحداً ، وجرىٰ مثلُ ذلكَ أياماً ، حتَّى اتفقَ على الندورِ أنِ اختفىٰ ثلاثةٌ في زاويةٍ ولمْ تقعْ عليهِمْ أبصارُ الغلمانِ ، وشغلَهُمْ شغلٌ صارفٌ عنْ طولِ التفتيشِ ، فباتوا في جوعٍ شديدٍ ، فقالَ اثنانِ منهُمْ : ليتَنا تعرَّضنا للغلمانِ وأخذنا طعامَنا ، فلسنا نطيقُ الصبرَ ، وسكتَ الثالثُ إلى الصباحِ ، فنالَ درجةَ القربِ والوزارةِ .

فهـٰذا مثالُ الخلقِ ، فالميدانُ هوَ الحياةُ الدنيا ، وبابُ الميدانِ الموتُ ،

والميعادُ المجهولُ يومُ القيامةِ ، والوعدُ بالوزارةِ هوَ الوعدُ بالشهادةِ للمتوكلِ إذا ماتَ جائعاً راضياً مِنْ غيرِ تأخيرِ ذلكَ إلىٰ ميعادِ القيامةِ ؛ لأنَّ الشهداءَ أحياءٌ عندَ ربِّهِمْ يُرزقونَ ، والمتعلِّقُ بالغلمانِ هوَ المتعدِّي في الأسبابِ ، والغلمانُ المسخَّرونَ هُمُ الأسبابُ ، والجالسُ في ظاهرِ الميدانِ بمرأى الغلمانِ هُمُ المقيمونَ في الأمصارِ في الرباطاتِ والمساجدِ علىٰ هيئةِ السكونِ ، والمختفونَ في الزوايا هُمُ السائحونَ في البوادي علىٰ هيئةِ التوكلِ ، والأسبابُ تتبعُهُمْ ، والرزقُ يأتيهِمْ إلا علىٰ سبيلِ الندورِ ، فإنْ ماتَ واحدٌ منهُمْ جائعاً راضياً . . فلهُ الشهادةُ والقربُ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

وقدِ انقسمَ الخلقُ إلىٰ هـٰذهِ الأقسامِ الأربعةِ ، فلعلَّ مِنْ كلِّ مئةٍ تعلَّقَ بالأسبابِ تسعونَ ، وأقامَ سبعةٌ مِنَ العشرةِ الباقيةِ في الأمصارِ متعرِّضينَ للسببِ بمجرَّدِ حضورِهِمْ واشتهارِهِمْ ، وساحَ في البوادي ثلاثةٌ ، وتسخَّطَ منهُمُ اثنانِ ، وفازَ بالقربِ واحدٌ ، ولعلَّهُ كذلكَ كانَ في الأعصارِ السالفةِ ، وأمَّا الآنَ . . فالتاركُ للأسبابِ لا ينتهي إلىٰ واحدٍ مِنْ عشرةِ آلافٍ .



الفنّ الثاني : في التعرّض لأسباب الادخار

فمَنْ حصلَ لهُ مالٌ بإرثٍ أوْ كسبٍ أوْ سؤالٍ أوْ سببٍ مِنَ الأسبابِ . . فلهُ في ادخارِهِ ثلاثةُ أحوالٍ :

الحالةُ الأولىٰ : أنْ يأخذَ قدْرَ حاجتِهِ في الوقتِ ، فيأكلَ إنْ كانَ جائعاً ، ويلبسَ إنْ كانَ عارياً ، ويشتريَ مسكناً مختصراً إنْ كانَ محتاجاً ، ويفرِّقَ الباقيَ في الحالِ ، ولا يأخذُ ولا يدَّخرُ إلا القدرَ الذي يدركُ بهِ مَنْ يستحقُّهُ ويحتاجُ إليهِ ، فيدخرُهُ علىٰ هـٰذهِ النيّةِ ، فهـٰذا هوَ الوفاءُ بموجَبِ التوكلِ تحقيقاً ، وهيَ الدرجةُ العليا .

الحالةُ الثانيةُ المقابلةُ لهـٰذهِ ، المخرجةُ لهُ عنْ حدودِ التوكلِ : أنْ يدخرَ لسنةٍ فما فوقَها ، فهـٰذا ليسَ مِنَ المتوكلينَ أصلاً ، وقدْ قيلَ : (لا يدخرُ مِنَ الحيواناتِ إلا ثلاثةٌ : الفأرةُ ، والنملةُ ، وابنُ آدمَ)[1] .

الحالةُ الثالثةُ : أنْ يدخرَ لأربعينَ يوماً فما دونَها ، فهـٰذا هلْ يوجبُ حرمانَهُ عنِ المقامِ المحمودِ الموعودِ في الآخرةِ للمتوكلينَ ؟ اختلفوا فيهِ : فذهبَ سهلٌ إلىٰ أنَّهُ يخرجُ عنْ حدِّ التوكلِ ، وذهبَ الخوّاصُ إلىٰ أنَّهُ لا يخرجُ بأربعينَ يوماً ، ويخرجُ بما يزيدُ على الأربعينِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤) .

وقالَ أبو طالبِ المكيُّ : لا يخرجُ عنْ حدِّ التوكلِ بالزيادةِ على الأربعينَ أيضاً(١) .

وهـٰذا اختلافٌ لا معنىٰ لهُ بعدَ تجويزِ أصلِ الادخارِ ، نعمْ ، يجوزُ أنْ يظنَّ ظانٌّ أنَّ أصلَ الادخارِ يناقضُ التوكلَ ، فأمَّا التقديرُ بعدَ ذلكَ . . فلا مدركَ لهُ ، وكلُّ ثوابٍ موعودٍ علىٰ رتبةٍ فإنَّهُ يتوزعُ علىٰ تلكَ الرتبةِ وتلكَ الرتبةُ لها بدايةٌ ونهايةٌ ، ويُسمَّىٰ أصحابُ النهاياتِ السابقينَ ، وأصحابُ البداياتِ أصحابَ اليمينِ ، ثمَّ أصحابُ اليمينِ أيضاً علىٰ درجاتٍ ، وكذلكَ السابقونَ ، وأعالي درجاتِ أصحابِ اليمينِ تلاصقُ أسافلَ درجاتِ السابقينَ ، فلا معنىٰ للتقديرِ في مثلِ هـٰذا .

بلِ **التحقيقُ** : أنَّ التوكلَ بتركِ الادخارِ لا يتمُّ إلا بقصرِ الأملِ ، وأمَّا عدمُ أملِ البقاءِ . . فيبعدُ اشتراطُهُ ولوْ في نَفَسٍ ؛ فإنَّ ذلك كالممتنعِ وجودُهُ ، وأمَّا الناسُ . . فمتفاوتونَ في طولِ الأملِ وقصرِهِ ، وأقلُّ درجاتِ الأملِ يومٌ وليلةٌ فما دونَهُ مِنَ الساعاتِ ، وأقصاهُ ما يُتصوَّرُ أنْ يكونَ عمرَ الإنسانِ ، وبينَهُما درجاتٌ لا حصرَ لها ، فمَنْ لمْ يؤمِّلْ أكثرَ مِنْ شهرٍ أقربُ إلى المقصودِ ممَّنْ يؤمِّلُ سنةً ، وتقييدُهُ بأربعينَ لأجلِ ميعادِ موسىٰ عليهِ السلامُ بعيدٌ ؛ فإنَّ تلكَ الواقعةَ ما قُصِدَ بها بيانُ مقدارِ ما يُرخَّصُ الأملُ فيهِ ، ولكنِ استحقاقُ موسىٰ لنيلِ الموعودِ كانَ لا يتمُّ إلا بعدَ أربعينَ يوماً لسرٍّ جرتْ بهِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٠) ، وقد نقل كلام سهل والخواص .

وبأمثالِهِ سنَّةُ اللهِ تعالىٰ في تدريجِ الأمورِ ، كما قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : (إنَّ اللهَ خمَّرَ طينةَ آدمَ بيدِهِ أربعينَ صباحاً)(١) لأنَّ استحقاقَ تلكَ الطينةِ للتخميرِ كانَ موقوفاً علىٰ مدَّةٍ مبلغُها ما ذُكِرَ .

فإذاً ؛ ما وراءَ السنةِ لا يُدَّخرُ لهُ إلا بحكمِ ضعفِ القلبِ ، والركونِ إلىٰ ظاهرِ الأسبابِ ، فهوَ خارجٌ عن مقامِ التوكلِ ، غيرُ واثقٍ بإحاطةِ التدبيرِ مِنَ الوكيلِ الحقِّ بخفايا الأسبابِ ، فإنَّ أسبابَ الدخلِ في الارتفاعاتِ والزكواتِ تتكرَّرُ بتكرُّرِ السنينَ غالباً ، ومَنِ ادَّخرَ لأقلَّ مِنْ سنةٍ . . فلهُ درجةٌ بحسبِ قصرِ أملِهِ ، ومَنْ كانَ أملُهُ شهرينِ . . لمْ تكنْ درجتُهُ كدرجةِ مَنْ أمَّلَ شهراً ، ولا درجةِ مَنْ أمَّلَ ثلاثةَ أشهرٍ ، بلْ هوَ بينَهُما في الرتبةِ .

ولا يمنعُ مِنَ الادخارِ إلا قصرُ الأملِ ، فالأفضلُ ألا يدَّخرَ أصلاً ، فإنْ ضعُفَ قلبُهُ ؛ فكلَّما قلَّ ادخارُهُ . . كانَ فضلُهُ أكثرَ ، وقدْ رُوِيَ في الفقيرِ الذي أمرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علياً كرَّمَ اللهُ وجهَهُ وأسامةَ أنْ يغسلاهُ فغسَّلاهُ وكفَّناهُ ببردتِهِ ، فلمَّا دفنَهُ . . قالَ لأصحابِهِ : « إنَّهُ يُبعثُ يومَ القيامةِ ووجهُهُ كالقمرِ ليلةَ البدرِ ، ولولا خصلةٌ كانَتْ فيهِ . . لبُعثَ ووجهُهُ كالشمسِ الضاحيةِ » ، قلنا : وما هيَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « كانَ صوَّاماً قوَّاماً كثيرَ

---

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/ ١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٦٣) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص٣٠٩) موقوفاً علىٰ سلمان أو ابن مسعود رضي الله عنهما ، ووقع في بعض النسخ عدم رفع الحديث ، قال البيهقي عقب روايته : (وروي ذلك من وجه آخر ضعيف عن التيمي مرفوعاً ، وليس بشيء) .

الذكرِ للهِ تعالىٰ ، غيرَ أنَّهُ كانَ إذا جاءَهُ الشتاءُ . . ادَّخرَ حُلَّةَ الصيفِ لصيفِهِ ، وإذا جاءَ الصيفُ . . ادَّخرَ حلَّةَ الشتاءِ لشتائِهِ » ، ثُمَّ قالَ : « مِنْ أقلِّ ما أُوتيتُمُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ . . . » الحديثَ[1] .

وليسَ الكوزُ والشفرةُ وما يُحتاجُ إليهِ على الدوامِ في معنىٰ ذلكَ ، فادخارُهُ لا ينقصُ الدرجةَ ، وأمّا ثوبُ الشتاءِ . . فلا يُحتاجُ إليهِ في الصيفِ ، وهٰذا في حقِّ مَنْ لا ينزعجُ قلبُهُ بتركِ الادخارِ ، ولا تستشرفُ نفسُهُ إلىٰ أيدي الخلقِ ، بلْ لا يلتفتُ قلبُهُ إلا إلى الوكيلِ الحقِّ .

فإنْ كانَ يستشعرُ في نفسِهِ اضطراباً يشغلُ قلبَهُ عنِ العبادةِ والذكرِ والفكرِ . . فالادخارُ لهُ أولىٰ ، بلْ لوْ أمسكَ ضيعةً يكونُ دخلُها وافياً بقدْرِ كفايتِهِ ، وكانَ لا يتفرَّغُ قلبُهُ إلا بهِ . . فذلكَ لهُ أولىٰ ؛ لأنَّ المقصودَ إصلاحُ القلوبِ لتتجرَّدَ لذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وربَّ شخصٍ يشغلُهُ وجودُ المالِ وربَّ شخصٍ يشغلُهُ عدمُهُ ، والمحذورُ ما يشغلُ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وإلا . . فالدنيا في عينِها غيرُ محذورةٍ ، لا وجودُها ولا عدمُها .

ولذلكَ بُعثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ أصنافِ الخلقِ ، وفيهِمُ التجارُ والمحترفونَ وأهلُ الحرفِ والصناعاتِ ، فلمْ يأمرِ التاجرَ بتركِ تجارتِهِ ، ولا المحترفَ بتركِ حرفتِهِ ، ولا أمرَ التاركَ لهُما بالاشتغالِ بهِما ،

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/٥٠٣) : (رواه صاحب « القوت » بسنده إلىٰ شهر بن حوشب عن أبي أمامة رضي الله عنه) .

بلْ دعا الكلَّ إلى اللهِ تعالىٰ ، وأرشدَهُمْ إلىٰ أنَّ فوزَهُمْ ونجاتَهُمْ في انصرافِ قلوبِهِمْ عنِ الدنيا إلى اللهِ تعالىٰ ، وعمدةُ الاشتغالِ باللهِ عزَّ وجلَّ القلبُ ، فصوابُ الضعيفِ ادخارُ قدْرِ حاجتِهِ ، كما أنَّ صوابَ القويِّ تركُ الادخارِ ، وهـٰذا كلُّهُ حكمُ المنفردِ .

فأمَّا المعيلُ . . فلا يخرجُ عنْ حدِّ التوكلِ بادخارِ قوتِ سنةٍ لعيالِهِ ؛ جبراً لضعفِهِمْ ، وتسكيناً لقلوبِهِمْ ، وادخارُ أكثرَ مِنْ ذلكَ مبطلٌ للتوكلِ ؛ لأنَّ الأسبابَ تتكرَّرُ عندَ تكرُّرِ السنينَ ، فادخارُ ما يزيدُ عليهِ مصدرُهُ ضعفُ قلبِهِ ، وذلكَ يناقضُ قوَّةَ التوكلِ ، فالمتوكلُ عبارةٌ عنْ موحدٍ قويِّ القلبِ ، مطمئنِّ النفسِ إلىٰ فضْلِ اللهِ تعالىٰ ، واثقٍ بتدبيرِهِ دونَ وجودِ الأسبابِ الظاهرةِ .

وقدِ ادخرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعيالِهِ قوتَ سنةٍ[١] ، ونهىٰ أمَّ أيمنَ وغيرَها أنْ تدَّخرَ لهُ شيئاً لغدٍ[٢] ، ونهىٰ بلالاً عنِ الادخارِ في كسرةِ خبزٍ ادخرَها ليفطرَ عليها، فقالَ : «أنفقْ بلالاً، ولا تخشَ مِنْ ذي العرشِ إقلالاً»[٣]،

---

(١) كما في « البخاري » (٢٩٠٤) ، و« مسلم » (١٧٥٧) بلفظ : (كانت أموال بني النضير مما أفاء الله علىٰ رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، فكان ينفق علىٰ أهله نفقة سنة ، وما بقي يجعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله) ، ولفظ الترمذي (١٧١٩) : (كان يعزل نفقة أهله سنة) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٠) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١/ ٣٤١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٨٠) =

وقالَ لهُ : « إذا سُئلتَ .. فلا تمنعْ ، وإذا أُعطيتَ .. فلا تخبِّءْ »[1] ، فالاقتداءُ بسيِّدِ المتوكلينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وقدْ كانَ قصُرَ أملُهُ بحيثُ كانَ إذا بالَ .. تيمَّمَ معَ قربِ الماءِ ، ويقولُ : « ما يدريني ، لعلِّي لا أبلغُهُ »[2] .

وقدْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لوِ ادَّخرَ .. لمْ ينقصْ ذلكَ مِنْ توكلِهِ ؛ إذْ كانَ لايثقُ بما ادخرَهُ ، ولكنَّهُ تركَهُ تعليماً للأقوياءِ مِنْ أمتِهِ ، فإنَّ أقوياءَ أمَّتِهِ ضعفاءُ بالإضافةِ إلىٰ قوَّتِهِ وادَّخرَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لعيالِهِ سنةً لا لضعفِ قلبٍ فيهِ وفي عيالِهِ ، ولكنْ ليسُنَّ ذلكَ للضعفاءِ مِنْ أمَّتِهِ ، ثمَّ أخبرَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ أنْ تؤتىٰ رخصُهُ كما يُحبُّ أنْ تؤتىٰ عزائمُهُ[3] ؛ تطييباً لقلوبِ الضعفاءِ ، حتىٰ لا ينتهيَ بهِمُ الضعفُ إلى اليأسِ والقنوطِ ، فيتركونَ الميسورَ مِنَ الخيرِ عليهِمْ ؛ لعجزِهِمْ عنْ منتهى الدرجاتِ ، فما أُرسلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا رحمةً للعالمينَ كلِّهِمْ ، على اختلافِ أصنافِهِمْ ودرجاتِهِمْ .

وإذا فهمتَ هٰذا .. علمتَ أنَّ الادِّخارَ قدْ يضرُّ بعضَ الناسِ وقدْ

= (٦/ ٣٧٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٢٨٣) ، وكان المدَّخر صُبرة من تمر ، لا كسرة خبز ، وروايته بالبناء على الضم في (بلال) ، ومن نوَّنه ونصبه فلمناسبة (إقلالاً) له ، وللمزاوجة في الكلام .

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٦) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٢) ، وأحمد في « المسند » (١/ ٢٨٨) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ١٠٨) .

لا يضرُّ ، ويدلُّ عليهِ ما روىٰ أبو أمامةَ الباهليُّ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ بعضَ أصحابِ الصفَّةِ تُوفِّيَ ، فما وُجدَ لهُ كفنٌ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فتِّشوا ثوبَهُ » ، فوجدوا فيهِ دينارينِ في داخلِ إزارِهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كيَّتانِ »[1] ، وقدْ كانَ غيرُهُ مِنَ المسلمينَ يموتُ ويخلِّفُ أموالاً ولا يقولُ ذلكَ في حقِّهِ ، وهٰذا يحتملُ وجهينِ ؛ لأنَّ حالَهُ يحتملُ حالينِ :

أحدهُما : أنَّهُ أرادَ (كيّتانِ) مِنَ النارِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ ، وذلك إذا كانَ حالُهُ إظهارَ الزهدِ والفقرِ والتوكلِ معَ الإفلاسِ عنهُ ، فهوَ نوعُ تلبيسٍ .

والثاني : ألا يكونَ ذلكَ عنْ تلبيسٍ ، فيكونَ المعنيُّ بهِ النقصانَ عنْ درجةِ كمالِهِ ؛ كما ينقصُ مِنْ جمالِ الوجهِ أثرُ كيتينِ في الوجهِ ، وذلكَ لا يكونُ عنْ تلبيسٍ ، فإنَّ كلَّ ما يخلِّفُهُ الرجلُ فهوَ نقصانٌ عنْ درجتِهِ في الآخرةِ ؛ إذْ لا يُؤتىٰ أحدٌ مِنَ الدنيا شيئاً إلا نقصَ بقدرِهِ مِنَ الآخرةِ .

وأمَّا بيانُ أنَّ الادخارَ معَ فراغِ القلبِ عنِ المدخرِ ليسَ مِنْ ضرورتِهِ بطلانُ التوكلِ . . فيشهدُ لهُ ما رُوِيَ عنْ بشرٍ ؛ قالَ الحسينُ المغازليُّ مِنْ أصحابِهِ : كنتُ عندَهُ ضحوةً مِنَ النهارِ ، فدخلَ رجلٌ كهلٌ أسمرُ خفيفُ العارضينِ ، فقامَ إليهِ بشرٌ ، قالَ : وما رأيتُهُ قامَ لأحدٍ غيرِهِ ، قالَ : ودفعَ إليَّ كفّاً مِنْ دراهمَ وقالَ : اشترِ لنا مِنْ أجودِ ما تقدرُ عليهِ مِنَ الطعامِ الطيِّبِ ، وما قالَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٥٣) .

لي قطُّ مثلَ ذلكَ . قالَ : فجئتُ بالطعامِ ، فوضعتُهُ ، فأكلَ معَهُ وما رأيتُهُ أكلَ معَ غيرِهِ ، قالَ : فأكلنا حاجتَنا ، وبقيَ مِنَ الطعامِ شيءٌ كثيرٌ ، فأخذَهُ الرجلُ وجمعَهُ في ثوبِهِ وحملَهُ معهُ وانصرفَ ، فعجبتُ مِنْ ذلكَ وكرهتُهُ لهُ ، فقالَ لي بشرٌ : لعلَّكَ أنكرتَ فعلَهُ ؟ قلتُ : نعمْ ، أخذَ بقيَّةَ الطعامِ مِنْ غيرِ إذنٍ ، فقالَ : ذاكَ أخونا فتحٌ الموصليُّ ، زارَنا اليومَ مِنَ الموصلِ ، وإنَّما أرادَ أنْ يعلِّمنا أنَّ التوكلَ إذا صحَّ . . لمْ يضرَّ معَهُ الادخارُ[1] .



(١) قوت القلوب (٢/ ١٩) .

الفن الثالث: في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف(١)

اعلمْ : أنَّ الضررَ قدْ يعرضُ للخوفِ في نفسٍ أوْ مالٍ ، وليسَ من شرطِ التوكلِ تركُ الأسبابِ الدافعةِ رأساً ، أمَّا في النفسِ . . فكالنومِ في الأرضِ المَسْبَعَةِ(٢) ، أوْ في مجرى السيلِ مِنَ الوادي ، أوْ تحتَ الجدارِ المائلِ والسقفِ المنكسرِ ، فكلُّ ذلكَ منهيٌّ عنهُ ، وصاحبُهُ قدْ عرَّضَ نفسَهُ للهلاكِ بغيرِ فائدةٍ .

نعمْ ، تنقسمُ هـٰذهِ الأسبابُ إلىٰ مقطوعٍ بها ، وإلىٰ مظنونةٍ ، وإلىٰ موهومةٍ ، فتركُ الموهومِ منها مِنْ شرطِ التوكلِ ، وهيَ التي نسبتُها إلىٰ دفعِ الضررِ نسبةُ الكيِّ والرقيةِ ؛ فإنَّ الكيَّ والرقيةَ قدْ تقدَّمُ على المحذورِ دفعاً لما يُتوقَّعُ ، وقد يُستعملُ بعدَ نزولِ المحذورِ للإزالةِ ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يصفِ المتوكلينَ إلا بتركِ الكيِّ والرقيةِ والطيرةِ ، ولمْ يصفْهُمْ بأنَّهُمْ إذا خرجوا إلىٰ موضعٍ باردٍ لمْ يلبسوا جبةً ، والجبةُ تُلبسُ دفعاً للبردِ المتوقَّعِ ، وكذلكَ كلُّ ما في معناها مِنَ الأسبابِ .

نعمِ ، الاستظهارُ بأكلِ الثومِ مثلاً عندَ الخروجِ إلىٰ سفرٍ في الشتاءِ تهييجاً لقوَّةِ الحرارةِ مِنَ الباطنِ . . ربَّما يكونُ مِنْ قبيلِ التعمُّقِ في الأسبابِ والتعويلِ

---

(١) في النسخ : (المتعرض) بدل (المعرض) ، والمثبت من (ق) .
(٢) أي : ذات سباع .

عليها ، فيكادُ يقربُ مِنَ الكيِّ ، بخلافِ الجبّةِ .

ولتركِ الأسبابِ الدافعةِ وإنْ كانَتْ مقطوعةً وجهٌ إذا نالَ الضررُ مِنْ إنسانٍ ، فإنَّهُ إذا أمكنَهُ الصبرُ وأمكنَهُ الدفعُ والتشفِّي . . فشرطُ التوكلِ الاحتمالُ والصبرُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ . وقالَ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وهٰذا في أذى الناسِ .

وأمَّا الصبرُ علىٰ أذى الحيَّاتِ والسباعِ والعقاربِ . . فتركُ دفعِها ليسَ مِنَ التوكلِ في شيءٍ ؛ إذْ لا فائدةَ فيهِ ، ولا يرادُ السعيُ ولا تركُ السعيِ لعينِهِ ، بلْ لإعانتِهِ على الدينِ ، وترتُّبُ الأسبابِ هٰهنا كترتُّبِها في الكسبِ وجلبِ النافعِ ، فلا نطوِّلُ بالإعادةِ .

وكذلكَ في الأسبابِ الدافعةِ عنِ المالِ ، فلا ينقصُ التوكلُ بإغلاقِ بابِ البيتِ عندَ الخروجِ ، ولا بأنْ يعقلَ البعيرَ ؛ لأنَّ هٰذهِ أسبابٌ عُرِفَتْ بسنَّةِ اللهِ تعالىٰ ؛ إمَّا قطعاً ، وإمَّا ظنّاً ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للأعرابيِّ لمَّا أنْ أهملَ البعيرَ وقالَ : توكلتُ على اللهِ : « اعقلْها وتوكلْ »(١) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٧) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ .

وقالَ في كيفيَّةِ صلاةِ الخوفِ : ﴿ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ .

وقالَ سبحانَهُ : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ لموسىٰ عليهِ السلامُ : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ ، والتحصُّنُ بالليلِ اختفاءً عنْ أعينِ العدوِّ نوعُ تسبُّبٍ .

واختفىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الغارِ عنْ أعينِ الأعداءِ دفعاً للضررِ[1] .

وأخذُ السلاحِ في الصلاةِ ليسَ دافعاً قطعاً كقتلِ الحيَّةِ والعقربِ ؛ فإنَّهُ دافعٌ قطعاً ، ولكنْ أخذُ السلاحِ سببٌ مظنونٌ ، وقدْ بيَّنا أنَّ المظنونَ كالمقطوعِ ، وإنَّما الموهومُ هوَ الذي يقتضي التوكلُ تركَهُ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ حُكِيَ عنْ جماعةٍ أنَّ منهُمْ مَنْ وضعَ الأسدُ يدَهُ علىٰ كتفِهِ ولمْ يتحرَّكْ .

فأقولُ : وقدْ حُكِيَ عنْ جماعةٍ أنَّهُمْ ركبوا الأسدَ وسخَّروهُ ، فلا ينبغي أنْ يغرَّكَ ذلكَ المقامُ ، فإنَّهُ وإنْ كانَ صحيحاً في نفسِهِ فلا يصلحُ للاقتداءِ بطريقِ التعلُّمِ مِنَ الغيرِ ، بلْ ذلكَ مقامٌ رفيعٌ في الكراماتِ ، وليسَ ذلكَ

(١) رواه البخاري (٣٦٥٣) ، ومسلم (٢٣٨١) .

شرطاً في التوكلِ ، وفيهِ أسرارٌ لا تقفُ عليها ما لَمْ تنتهِ إليها .

فإنْ قلتَ : وهلْ مِنْ علامةٍ أعلمُ بها أنِّي قدْ وصلتُ إليهِ ؟

فأقولُ : الواصلُ لا يحتاجُ إلىٰ طلبِ العلاماتِ ، ولكنْ مِنَ العلاماتِ السابقةِ عليهِ أنْ يُسخَّرَ لكَ كلبٌ هوَ معكَ في إهابِكَ يُسمَّى الغضبَ ، فلا يزالُ يعضُّكَ ويعضُّ غيرَكَ ، فإنْ سُخِّرَ لكَ هـٰذا الكلبُ بحيثُ إذا هُيِّجَ وأُشْلِيَ . . لَمْ يستشلِ إلا بإشارتِكَ ، وكانَ مسخَّراً لكَ ، فربَّما ترتفعُ درجتُكَ إلىٰ أنْ يسخِّرَ لكَ الأسدَ الذي هوَ ملكُ السباعِ ، وكلبُ دارِكَ أولىٰ بأنْ يكونَ مسخَّراً لكَ مِنْ كلبِ البوادي ، وكلبُ إهابِكَ أولىٰ بأنْ يُسخَّرَ مِنْ كلبِ دارِكَ ، فإذا لَمْ يُسخَّرْ لكَ الكلبُ الباطنُ . . فلا تطمعْ في استسخارِ الكلبِ الظاهرِ .

فإنْ قلتَ : فإذا أخذَ المتوكلُ سلاحَهُ حذراً مِنَ العدوِّ ، وأغلقَ بابَهُ حذراً مِنَ اللصِّ ، وعقلَ بعيرَهُ حذراً مِنْ أنْ ينطلقَ . . فبأيِّ اعتبارٍ يكونُ متوكلاً ؟

فأقولُ : يكونُ متوكلاً بالعلمِ والحالِ .

فأمَّا العلمُ . . فهوَ أنْ يعلمَ أنَّ اللصَّ إنِ اندفعَ . . لمْ يندفعْ بكفايتِهِ في إغلاقِ البابِ ، بلْ بدفعِ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ ، فكمْ مِنْ بابٍ يُغلقُ ولا ينفعُ ، وكمْ مِنْ بعيرٍ يُعقلُ ويموتُ أوْ يفلتُ ، وكمْ مِنْ آخذٍ سلاحَهُ يُقتلُ أوْ يُغلبُ ! فلا تتكلْ علىٰ هـٰذهِ الأسبابِ أصلاً ، بلْ علىٰ مسبِّبِ الأسبابِ كما ضربنا المثلَ

في الوكيلِ بالخصومةِ ؛ فإنَّهُ وإنْ حضرَ وأحضرَ السجلَّ . . فلا يتكلُ علىٰ نفسِهِ وعلىٰ سجلِّهِ ، بل علىٰ كفايةِ الوكيلِ وقوَّتِهِ .

وأمَّا الحالُ . . فهوَ أنْ يكونَ راضياً بما يقضي اللهُ تعالىٰ بهِ في بيتِهِ ونفسِهِ ، ويقولَ : اللهمَّ ؛ إنْ سلَّطتَ علىٰ ما في البيتِ مَنْ يأخذُهُ . . فهوَ في سبيلِكَ ، وأنا راضٍ بحكمِكَ ؛ فإنِّي لا أدري أنَّ ما أعطيتَني هبةٌ فلا تسترجعُها ، أوْ عاريةٌ أوْ وديعةٌ فتستردُّها ؟ ولا أدري أنَّها رزقي ، أوْ سبقَتْ مشيئتُكَ في الأزلِ بأنَّهُ رزقُ غيري ؟ وكيفما قضيتَ . . فأنا راضٍ بهِ ، وما أغلقتُ البابَ تحصُّناً مِنْ قضائِكَ وتسخُّطاً لهُ ، بلْ جرياً علىٰ مقتضىٰ سنَّتِكَ في ترتيبِ الأسبابِ ، فلا ثقةَ إلا بكَ يا مسبِّبَ الأسبابِ .

فإذا كانَ هٰذا حالَهُ ، وذلكَ الذي ذكرناهُ علمُهُ . . لمْ يخرجْ عنْ حدودِ التوكلِ بعقلِ البعيرِ وأخذِ السلاحِ وإغلاقِ البابِ .

ثمَّ إذا عادَ فوجدَ متاعَهُ في البيتِ . . فينبغي أنْ يكونَ ذلكَ عندَهُ نعمةً جديدةً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وإنْ لمْ يجدْهُ ، بلْ وجدَهُ مسروقاً ؛ نظرَ إلىٰ قلبِهِ ، فإنْ وجدَهُ راضياً أوْ فرحاً بذلكَ عالماً أنَّهُ ما أخذَ اللهُ ذلكَ منهُ إلا ليزيدَ رزقَهُ في الآخرةِ . . فقدْ صحَّ مقامُهُ في التوكلِ ، وظهرَ لهُ صدقُهُ ، وإنْ تألَّمَ قلبُهُ بهِ ، ووجدَ قوَّةَ الصبرِ . . فقدْ بانَ لهُ أنَّهُ ما كانَ صادقاً في دعوى التوكلِ ؛ لأنَّ التوكلَ مقامٌ بعدَ الزهدِ ، ولا يصحُّ الزهدُ إلا ممَّنْ لا يأسفُ علىٰ ما فاتَ مِنَ الدنيا ولا يفرحُ بما يأتي ، بلْ قدْ يكونُ على العكسِ منهُ ، فكيفَ يصحُّ لهُ التوكلُ ؟!

نعمْ ، قدْ صحَّ لهُ مقامُ الصبرِ إنْ أخفاهُ ولمْ يظهرْ شكواهُ ، ولمْ يكثرْ سعيَهُ في الطلبِ والتجسسِ ، وإنْ لمْ يقدرْ علىٰ ذلكَ حتَّىٰ تأذَّىٰ بقلبِهِ ، وأظهرَ الشكوىٰ بلسانِهِ ، واستقصى الطلبَ ببدنِهِ . . فقدْ كانَتِ السرقةُ مزيداً لهُ في ذنبِهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ ظهرَ لهُ قصورُهُ عن جميعِ المقاماتِ ، وكذبُهُ في جميعِ الدعاوىٰ ، فبعدَ هٰذا ينبغي أنْ يجتهدَ حتَّىٰ لا يصدِّقَ نفسَهُ في دعاويها ، ولا يتدلَّىٰ بحبلِ غرورِها ، فإنَّها خدَّاعةٌ أمَّارةٌ بالسوءِ مدعيةٌ للخيرِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فكيفَ يكونُ للمتوكلِ مالٌ حتَّىٰ يُؤخذَ ؟

فأقولُ : المتوكلُ لا يخلو بيتُهُ مِنْ متاعٍ ؛ كقصعةٍ يأكلُ فيها ، وكوزٍ يشربُ منهُ ، وإناءٍ يتوضَّأُ منهُ ، وجرابٍ يحفظُ بهِ زادَهُ ، وعصاً يدفعُ بها عدوَّهُ ، وغيرِ ذلكَ مِنْ ضروراتِ المعيشةِ مِنْ أثاثِ البيتِ ، وقدْ يدخلُ في يدِهِ مالٌ وهوَ يمسكُهُ ليجدَ محتاجاً فيصرفَهُ إليهِ ، فلا يكونُ ادخارُهُ علىٰ هٰذهِ النيَّةِ مبطلاً لتوكلِهِ ، وليسَ مِنْ شرطِ التوكلِ إخراجُ الكوزِ الذي يشربُ منهُ ، والجرابِ الذي فيهِ زادُهُ ، وإنَّما ذلكَ في المأكولِ ، وفي كلِّ مالٍ زائدٍ علىٰ قدْرِ الضرورةِ ؛ لأنَّ سنَّةَ اللهِ تعالىٰ جاريةٌ بوصولِ الخيرِ إلى الفقراءِ المتوكلينَ في زوايا المساجدِ ، وما جرتِ السنَّةُ بتفرقةِ الكيزانِ والأمتعةِ في كلِّ يومٍ ولا في كلِّ أسبوعٍ ، والخروجُ عنْ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ ليسَ شرطاً في التوكلِ .

ولذلكَ كانَ الخوَّاصُ يأخذُ في السفرِ الحبلَ والركوةَ والمقراضَ والإبرةَ دونَ الزادِ[1] ؛ لأنَّ سنَّةَ اللهِ تعالىٰ جاريةٌ بالفرقِ بينَ الأمرينِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فكيفَ يُتصوَّرُ ألا يحزنَ إذا أُخذَ متاعُهُ الذي هوَ محتاجٌ إليهِ ولا يأسفَ عليهِ ؟ فإنْ كانَ لا يشتهيهِ . . فلمَ أمسكَهُ وأغلقَ البابَ عليهِ ؟

وإن كانَ أمسكَهُ لأنَّهُ يشتهيهِ لحاجتِهِ إليهِ . . فكيفَ لا يتأذَّىٰ قلبُهُ ولا يحزنُ وقدْ حيلَ بينَهُ وبينَ ما يشتهيهِ ؟

فأقولُ : إنَّما كانَ يحفظُهُ ليستعينَ بهِ علىٰ دينِهِ ؛ إذْ كانَ يظنُّ أنَّ الخيرةَ لهُ في أنْ يكونَ لهُ ذلكَ المتاعُ . ولولا أنَّ الخيرةَ لهُ فيهِ . . لما رزقَهُ اللهُ تعالىٰ ولما أعطاهُ إيَّاهُ ، فاستدلَّ علىٰ ذلكَ بتيسيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ وحسنِ الظنِ باللهِ تعالىٰ معَ ظنِّهِ أنَّ ذلكَ معينٌ لهُ علىٰ أسبابِ دينِهِ ، ولمْ يكنْ ذلكَ عندَهُ مقطوعاً بهِ ؛ إذْ يحتملُ أنْ تكونَ خيرتُهُ في أنْ يُبتلىٰ بفقدِ ذلكَ حتَّىٰ ينصبَ في تحصيلِ غرضِهِ ، ويكونَ ثوابُهُ في التعبِ والنصبِ أكثرَ ، فلمَّا أخذَهُ اللهُ تعالىٰ منهُ بتسليطِ اللصِّ . . تغيَّرَ ظنُّهُ ؛ لأنَّهُ في جميعِ الأحوالِ واثقٌ باللهِ حسنُ الظنِّ بهِ ، فيقولُ : لولا أنَّ اللهَ تعالىٰ علمَ أنَّ الخيرةَ لي كانَتْ في وجودِها إلى الآنَ والخيرةُ الآنَ لي في عدمِها . . لما أخذَها منِّي .

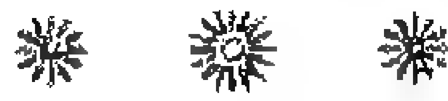
فبمثلِ هـٰذا الظنِّ يُتصوَّرُ أنْ يندفعَ عنهُ الحزنُ ؛ إذْ بهِ يخرجُ عنْ أنْ يكونَ

---

(١) روىٰ ذلك عنه القشيري في « الرسالة » (ص ٢٩٩) .

فرحُهُ بالأسبابِ مِنْ حيثُ إنَّها أسبابٌ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ يسَّرَها مسبِّبُ الأسبابِ عنايةً بهِ وتلطُّفاً ، وهوَ كالمريضِ بينَ يدي الطبيبِ الشفيقِ يرضىٰ بما يفعلُهُ ، فإنْ قدَّمَ إليهِ الغذاءَ . . فرحَ وقالَ : لولا أنَّهُ عرفَ أنَّ الغذاءَ ينفعُني وقدْ قويتُ على احتمالِهِ . . لما قرَّبَهُ إليَّ ، وإنْ أخَّرَ عنهُ الغذاءَ بعدَ ذلكَ أيضاً . . فرحَ وقالَ : لولا أنَّ الغذاءَ يضرُّني ويسوقُني إلى الموتِ . . لما حالَ بيني وبينَهُ .

وكلُّ مَنْ لا يعتقدُ في لطفِ اللهِ تعالىٰ ما يعتقدُهُ المريضُ في الوالدِ المشفقِ الحاذقِ بعلمِ الطبِّ . . فلا يصحُّ منهُ التوكلُ أصلاً ، ومَنْ عرفَ اللهَ تعالىٰ ، وعرفَ أفعالَهُ ، وعرفَ سنَّتَهُ في إصلاحِ عبادِهِ . . لمْ يكنْ فرحُهُ بالأسبابِ ، فإنَّهُ لا يدري أيُّ الأسبابِ خيرٌ لهُ ؛ كما قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا أبالي أصبحتُ غنيّاً أوْ فقيراً ؛ فإنِّي لا أدري أيُّهما خيرٌ لي)[1] ، فكذلكَ ينبغي ألا يباليَ المتوكلُ يُسرقُ متاعُهُ أوْ لا يُسرقُ ؛ فإنَّهُ لا يدري أيُّهُما خيرٌ لهُ في الدنيا وفي الآخرةِ ، فكمْ مِنْ متاعٍ في الدنيا يكونُ سببَ هلاكِ الإنسانِ ، وكمْ مِنْ غنيٍّ يُبتلىٰ بواقعةٍ لأجلِ غناهُ يقولُ : يا ليتَني كنتُ فقيراً .



---

(١) أورده الحارث المحاسبي في « الرعاية » (ص ٢٦١) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٣٠٤) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .

بيان آداب المتوكّلين إذا سُرِق متاعهم

للمتوكلِ آدابٌ في متاعِ بيتِهِ إذا خرجَ عنهُ :

الأوَّلُ : أنْ يغلقَ البابَ ، ولا يستقصيَ في أسبابِ الحفظِ ، كالتماسِهِ مِنَ الجيرانِ الحفظَ معَ الغلقِ ، وكجمعِهِ أغلاقاً كثيرةً ، فقدْ كانَ مالكُ بنُ دينارٍ لا يغلقُ بابَهُ ، ولكنْ يشدُّهُ بشريطٍ ويقولُ : (لولا الكلابُ .. ما شددتُهُ أيضاً)[1] .

* * *

الثاني : ألا يتركَ في البيتِ متاعاً يحرِصُ عليهِ السرَّاقُ ، فيكونَ هوَ سببَ معصيتِهِمْ ؛ إذْ إمساكُهُ يكونُ سببَ هيجانِ رغبتِهِمْ ، ولذلكَ لمَّا أهدى المغيرةُ إلىٰ مالكِ بنِ دينارٍ ركوةً .. قالَ لهُ : خذْها ، فلا حاجةَ لي إليها ، قالَ : لِمَ ؟ قالَ : يوسوسُ إليَّ العدوُّ أنَّ اللصَّ قدْ أخذَها[2] .

فكأنَّهُ احترزَ مِنْ أنْ يعصيَ السارقُ ، ومِنْ شغلِ قلبِهِ بوسواسِ الشيطانِ بسرقَتِها ، ولذلكَ قالَ أبو سليمانَ : (هـٰذا مِنْ ضعفِ قلوبِ الصوفيَّةِ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٣٣) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٧) أنه كان يقول : (من دخل بيتي فأخذ شيئاً .. فهو له حلال ، أما أنا .. فلا أحتاج إلىٰ قفل ولا إلىٰ مفتاح) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) ، وخبر مالك مفرداً رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٤) ، وليس فيه ذكر للمغيرة ، بل قالها للحارث بن نبهان .

هـٰذا قدْ زهدَ في الدنيا ، فما عليهِ مِنْ أخذِها ؟!)[1] .

* * *

الثالثُ : أنَّ ما يُضطرُّ إلىٰ تركِهِ في البيتِ ينبغي أنْ ينويَ عندَ خروجِهِ الرضا بما يقضي اللهُ تعالىٰ فيهِ مِنْ تسليطِ سارقٍ عليهِ ، ويقولَ : ما يأخذُهُ السارقُ . . فهوَ منهُ في حلٍّ ، أوْ هوَ في سبيلِ اللهِ ، وإنْ كانَ فقيراً . . فهوَ عليهِ صدقةٌ ، وإنْ لمْ يشترطِ الفقرَ . . فهوَ أولىٰ ، ويكونَ لهُ نيَّتانِ : لوْ أخذَهُ غنيٌّ أوْ فقيرٌ :

إحداهُما : أنْ يكونَ مالُهُ مانعاً لهُ مِنَ المعصيةِ ، فإنَّهُ ربَّما يستغني بهِ فيتوانىٰ عنِ السرقةِ بعدَهُ ، وقدْ زالَ عصيانُهُ بأكلِ الحرامِ لمَّا أنْ جعلَهُ في حلٍّ .

والثانيةُ : ألا يظلمَ مسلماً آخرَ ، فيكونَ مالُهُ فداءً لمالِ مسلمٍ آخرَ ، ومهما نوىٰ حراسةَ مالِ غيرِهِ بمالِ نفسِهِ ، أوْ نوىٰ دفعَ المعصيةِ عنِ السارقِ ، أوْ تخفيفَها عليهِ . . فقدْ نصحَ للمسلمينَ ، وامتثلَ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « انصرْ أخاكَ ظالماً أوْ مظلوماً »[2] ، ونصرةُ الظالمِ بمنعِهِ مِنَ الظلمِ ، وعفوهُ عنهُ إعدامٌ للظلمِ ومنعٌ لهُ .

وليتحققْ أنَّ هـٰذهِ النيةَ لا تضرُّهُ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ ؛ إذْ ليسَ فيها ما يسلِّطُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٣) .

السارقَ ويغيِّرُ القضاءَ الأزليَّ ، ولكنَّهُ تتحقَّقُ بالزهدِ نيَّتُهُ ، فإنْ أُخِذَ مالُهُ . . كانَ لهُ بكلِّ درهمٍ سبعُ مئةِ درهمٍ ؛ لأنَّهُ نواهُ وقصدَهُ ، وإنْ لمْ يُؤخذْ . . حصلَ لهُ الأجرُ أيضاً ؛ كما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيمَنْ تركَ العزلَ وأقرَّ النطفةَ قرارَها أنَّ لهُ أجرَ غلامٍ وُلِدَ لهُ مِنْ ذلكَ الجماعِ وعاشَ فقُتلَ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ وإنْ كانَ لمْ يُولدْ لهُ(١) ؛ لأنَّهُ ليسَ إليهِ مِنْ أمرِ الولدِ إلا الوقاعُ ، فأمَّا الخلقُ والحياةُ والرزقُ والبقاءُ . . فليسَ إليهِ ، فلوْ خُلِقَ . . لكانَ ثوابُهُ علىٰ فعلِهِ ، وفعلُهُ لمْ ينعدمْ ؛ فكذلكَ أمرُ السرقةِ .

* * *

الرابعُ : أنَّهُ إذا وجدَ المالَ مسروقاً . . فينبغي ألا يحزنَ ، بلْ يفرحُ إنْ أمكنَهُ ويقولُ : لولا أنَّ الخيرةَ كانَتْ فيهِ . . لما سلبَهُ اللهُ تعالىٰ ، ثمَّ إنْ لمْ يكنْ قدْ جعلَهُ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . فلا يبالغْ في طلبِهِ وإساءةِ الظنِّ بالمسلمينَ ، وإنْ كانَ قدْ جعلَهُ في سبيلِ اللهِ . . فيتركُ طلبَهُ ، فإنَّهُ قدْ قدَّمَهُ ذخيرةً لنفسِهِ إلى الآخرةِ ، فإنْ أُعيدَ إليهِ . . فالأولىٰ ألا يقبلَهُ بعدَ أنْ كانَ قدْ جعلَهُ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وإنْ قبلَهُ . . فهوَ في ملكِهِ في ظاهرِ العلمِ ؛ لأنَّ الملكَ لا يزولُ بمجرَّدِ تلكَ النيَّةِ ، ولكنَّهُ غيرُ محبوبٍ عندَ المتوكلينَ .

وقدْ رُوِيَ أنَّ ابنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما سُرقَتْ ناقتُهُ ، فطلبَها حتَّىٰ أعيا ،

---

(١) كذا الخبر في « القوت » (٢/ ٣٣) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/ ٥١٢) .

ثمَّ قالَ : في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، فدخلَ المسجدَ ، فصلَّىٰ ركعتينِ ، فجاءَهُ رجلٌ فقالَ : يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؛ إنَّ ناقتَكَ في مكانِ كذا ، فلبسَ نعلَهُ وقامَ ، ثمَّ قالَ : أستغفرُ اللهَ ، وجلسَ ، فقيلَ لهُ : ألا تذهبُ فتأخذَها ؟ فقالَ : إنِّي كنتُ قلتُ : في سبيلِ اللهِ[1] .

وقالَ بعضُ الشيوخِ : رأيتُ بعضَ إخواني في النومِ بعدَ موتِهِ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي وأدخلَني الجنَّةَ ، وعرضَ عليَّ منازلي فيها فرأيتُها ، قالَ : وهو معَ ذلكَ كئيبٌ حزينٌ ، فقلتُ : قدْ دخلتَ الجنَّةَ وغُفِرَ لكَ وأنتَ حزينٌ ؟! فتنفَّسَ الصعداءَ ثمَّ قالَ : نعمْ ، إنِّي لا أزالُ حزيناً إلىٰ يومِ القيامةِ ، قلتُ : ولِمَ ذلكَ ؟ قالَ : إنِّي لمَّا رأيتُ منازلي مِنَ الجنَّةِ . . رُفعَتْ لي مقاماتٌ في علِّيينَ ما رأيتُ مثلَها فيما رأيتُ ، ففرحتُ بها ، فلمَّا هممتُ بدخولِها . . نادىٰ منادٍ مِنْ فوقِها : اصرفوهُ عنها ، فليسَتْ هـٰذهِ لهُ ، إنَّما هـٰذهِ لمَنْ أمضى السبيلَ ، فقلتُ : وما أمضى السبيلَ ؟ فقيلَ لي : كنتَ تقولُ للشيءِ إنَّهُ في سبيلِ اللهِ ، ثمَّ ترجعُ فيهِ ، فلوْ كنتَ أمضيتَ السبيلَ . . لأمضينا لكَ[2] .

وحُكيَ عنْ بعضِ العبَّادِ بمكَّةَ أنَّهُ كانَ نائماً بجنبِ رجلٍ معَهُ هميانٌ ، فانتبهَ الرجلُ ففقدَ هميانَهُ ، فاتهمَهُ بهِ ، فقالَ لهُ : كمْ كانَ في هميانِكَ ؟ فذكرَهُ ، فحملَهُ إلى البيتِ ووزنَهُ مِنْ عندِهِ ، ثمَّ بعدَ ذلكَ أعلمَهُ أصحابُهُ أنَّهُمْ

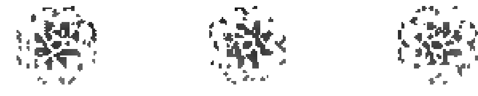
---

(١) قوت القلوب (٢/ ٣٣) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٣٤) .

كانوا أخذوا الهميانَ مزحاً معَهُ ، فجاءَ هوَ وأصحابُهُ وردُّوا الذهبَ ، فأبىٰ وقالَ : خذْهُ حلالاً طيِّباً ، فما كنتُ لأعودَ في مالٍ أخرجتُهُ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلمْ يقبلْ ، فألحُّوا عليهِ ، فدعا ابناً لهُ وجعلَ يصرُّهُ صُرراً ويبعثُ بها إلى الفقراءِ حتَّىٰ لمْ يبقَ منهُ شيءٌ[1] .

فهكذا كانَتْ أخلاقُ السلفِ ، وكذلكَ مَنْ أخذَ رغيفاً ليعطيَهُ فقيراً ، فغابَ عنهُ . . كانَ يكرهُ ردَّهُ إلى البيتِ بعدَ إخراجِهِ ، فيعطيهِ فقيراً آخرَ ، وكذلكَ يفعلُ في الدراهمِ والدنانيرِ وسائرِ الصدقاتِ[2] .



الخامسُ ـ وهوَ أقلُّ الدرجاتِ ـ : ألا يدعوَ على السارقِ الذي ظلمَهُ بالأخذِ ، فإنْ فعلَ . . بطلَ توكلُهُ ، ودلَّ ذلكَ علىٰ كراهتِهِ وتأسُّفِهِ علىٰ ما فاتَ ، وبطلَ زهدُهُ ، وإنْ بالغَ فيهِ . . بطلَ أيضاً أجرُهُ فيما أُصيبَ بهِ ، ففي الخبرِ : « مَنْ دعا علىٰ مَنْ ظلمَهُ . . فقدِ انتصرَ »[3] .

وحُكيَ أنَّ الربيعَ بنَ خُثيمٍ سُرِقَ فرسُهُ ، وكانَ ثمنُهُ عشرينَ ألفاً ، وكانَ قائماً يصلِّي فلمْ يقطعْ صلاتَهُ ، ولمْ ينزعجْ لطلبِهِ ، فجاءَهُ قومٌ يعزُّونَهُ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٣٤) يرويه عن بعض الأشياخ عن شيخ كان بمكة من العبَّاد .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٣٤) ، وقال بعده : (وهٰذا طريق قد عفا أثره ، ودرس خبره ، فمن عمل به . . فقد أحياه وأظهره ، وقد كان قديماً طريقاً إلى الله تعالىٰ عليه السابلة من الأولياء) .

(٣) رواه الترمذي (٣٥٥٢) .

فقالَ : أما إنِّي قدْ كنتُ رأيتُهُ وهوَ يحلُّهُ ، قيلَ : وما منعَكَ أنْ تزجرَهُ ؟ قالَ : كنتُ فيما هوَ أحبُّ إليَّ مِنْ ذلكَ ـ يعني : الصلاةَ ـ قالَ : فجعلوا يدعونَ عليهِ ، فقالَ : لا تفعلوا وقولوا خيراً ؛ فإنِّي قدْ جعلتُها صدقةً عليهِ[1] .

وقيلَ لبعضِهِمْ في شيءٍ قدْ كانَ سُرِقَ لهُ : ألا تدعو علىٰ ظالِمِكَ ؟ قالَ : ما أحبُّ أنْ أكونَ عوناً للشيطانِ عليهِ ، قيلَ : أفرأيتَ لوْ رُدَّ عليكَ ؟ قالَ : لا آخذُهُ ولا أنظرُ إليهِ ؛ لأنِّي كنتُ قدْ أحللتُهُ لهُ[2] .

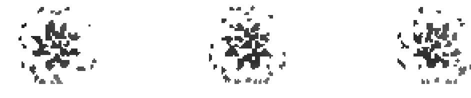
وقيلَ لآخرَ : ادعُ اللهَ علىٰ مَنْ ظلمَكَ ، فقالَ : ما ظلمَني أحدٌ ، ثمَّ قالَ : إنَّما ظلمَ نفسَهُ ، ألا يكفيهِ المسكينَ ظلمُهُ لنفسِهِ حتَّىٰ أزيدَهُ شرّاً ؟![3] .

وأكثرَ بعضُهُمْ شتمَ الحجَّاجِ عندَ بعضِ السلفِ في ظلمِهِ ، فقالَ : لا تغرقْ في شتمِهِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ ينتصفُ للحجَّاجِ ممَّنَ انتهكَ عرضَهُ كما ينتصفُ منهُ لمَنْ أخذَ مالَهُ ودمَهُ[4] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٣٤) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٣٤) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٣٤) .
(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٢٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٧٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٢٨٤) بنحوه ، ولفظه هنا في « القوت » (٢/ ٣٤) .

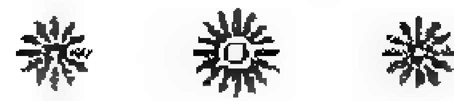
وفي الخبرِ : « إنَّ العبدَ ليُظلَمُ المظلمةَ ، فلا يزالُ يشتمُ ظالمَهُ ويسبُّهُ حتَّىٰ يكونَ بمقدارِ ما ظلمَهُ ، ثمَّ يبقىٰ للظالمِ عليهِ مطالبةٌ بما زادَ عليهِ يُقتصُّ لهُ مِنَ المظلومِ »[١] .



السادسُ : أنْ يغتمَّ لأجلِ السارقِ وعصيانِهِ وتعرُّضِهِ لعذابِ اللهِ ، ويشكرَ اللهَ تعالىٰ إذْ جعلَهُ مظلوماً ولمْ يجعلْهُ ظالماً ، وجعلَ ذلكَ نقصاناً في دنياهُ لا نقصاناً في دينِهِ ، فقدْ شكا بعضُ الناسِ إلىٰ عالمٍ أنَّهُ قُطِعَ عليهِ الطريقُ وأُخِذَ مالُهُ ، فقالَ : إنْ لمْ يكنْ غمُّكَ أنَّهُ قدْ صارَ في المسلمينَ مَنْ يستحلُّ هـٰذا أكثرَ مِنْ غمِّكَ بمالِكَ . . فما نصحتَ للمسلمينَ[٢] .

وسُرِقَ مِنْ عليِّ بنِ الفضيلِ دنانيرُ وهوَ يطوفُ بالبيتِ ، فرآهُ أبوهُ وهوَ يبكي ويحزنُ ، فقالَ : أعلى الدنانيرِ تبكي ؟! فقالَ : لا واللهِ ، ولكنْ على المسكينِ أنَّهُ يُسألُ يومَ القيامةِ ولا تكونُ لهُ حجَّةٌ[٢] .

وقيلَ لبعضِهِمْ : ادعُ علىٰ مَنْ ظلمَكَ ، فقالَ : إنِّي مشغولٌ بالحزنِ عليهِ عنِ الدعاءِ عليهِ[٢] ، فهـٰذهِ أخلاقُ السلفِ رضيَ اللهُ عنهُمْ أجمعينَ .



---

(١) أورده ابن بطال في « شرحه لصحيح البخاري » (١٠/ ١٨٦) عن عمر بن عبد العزيز بلاغاً ، ومعناه مروي عند الترمذي (٣٥٥٢) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « من دعا علىٰ من ظلمه فقد انتصر » ، ولفظه هنا في « القوت » (٢/ ٣٤) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٣٤) .

الفنّ الرّابع : السّعي في إزالة الضّرر كمداواة المرض وأمثاله

اعلمْ : أنَّ الأسبابَ المزيلةَ للضررِ أيضاً تنقسمُ إلىٰ مقطوعٍ بهِ ؛ كالماءِ المزيلِ لضررِ العطشِ ، والخبزِ المزيلِ لضررِ الجوعِ ، وإلىٰ مظنونٍ ؛ كالفصدِ ، والحجامةِ ، وشربِ الدواءِ المسهلِ ، وسائرِ أبوابِ الطبِّ ؛ أعني : معالجةَ البرودةِ بالحرارةِ ، والحرارةِ بالبرودةِ ، وهيَ الأسبابُ الظاهرةُ في الطبِّ ، وإلىٰ موهومٍ ؛ كالكيِّ والرقيةِ .

أمَّا المقطوعُ بهِ . . فليسَ مِنَ التوكلِ تركُهُ ، بلْ تركُهُ حرامٌ عندَ خوفِ الموتِ .

وأمَّا الموهومُ . . فشرطُ التوكلِ تركُهُ ؛ إذْ بهِ وصفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المتوكلينَ ، وأقواها الكيُّ ، ويليهِ الرقيةُ ، والطيرةُ آخرُ درجاتِها ، والاعتمادُ عليها والاتكالُ إليها غايةُ التعمُّقِ في ملاحظةِ الأسبابِ .

وأمَّا الدرجةُ المتوسطةُ وهيَ المظنونةُ ؛ كالمداواةِ بالأسبابِ الظاهرةِ عندَ الأطباءِ . . ففعلُهُ ليسَ مناقضاً للتوكلِ ؛ بخلافِ الموهومِ ، وتركُهُ ليسَ محظوراً ؛ بخلافِ المقطوعِ بهِ ، بلْ قدْ يكونُ أفضلَ مِنْ فعلِهِ في بعضِ الأحوالِ ، وفي حقِّ بعضِ الأشخاصِ ، فهي علىٰ درجةٍ بينَ الدرجتينِ .

ويدلُّ علىٰ أنَّ التداويَ غيرُ مناقضٍ للتوكلِ فعلُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقولُهُ ، وأمرُهُ بهِ .

أمَّا قولُهُ . . فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ داءٍ إلا ولهُ دواءٌ ، عرفَهُ مَنْ عرفَهُ ، وجهلَهُ مَنْ جهلَهُ ، إلا السامَ »(١) يعني : الموتَ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تداوَوا عبادَ اللهِ ؛ فإنَّ اللهَ خلقَ الداءَ والدواءَ »(٢) .

وسُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الدواءِ والرُّقىٰ : هلْ تردُّ مِنْ قدرِ اللهِ شيئاً ؟ فقالَ : « هيَ مِنْ قدرِ اللهِ »(٣) .

وفي الخبرِ المشهورِ : « ما مررتُ بملأٍ مِنَ الملائكةِ إلا قالوا : مُرْ أمَّتَكَ بالحجامةِ »(٤) .

وفي الحديثِ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أمرَ بها وقالَ : « احتجموا لسبعَ عشرةَ ، وتسعَ عشرةَ ، وإحدىٰ وعشرينَ ، لا يتبيَّغْ بكُمُ الدمُ فيقتلَكُمْ »(٥) ، فذكرَ أنَّ تبيُّغَ الدمِ سببُ الموتِ ، وأنَّهُ قاتلٌ بإذنِ اللهِ تعالىٰ ، وبيَّنَ أنَّ إخراجَ الدمِ خلاصٌ منهُ ؛ إذْ لا فرقَ بينَ إخراجِ الدمِ المهلكِ مِنَ الإهابِ وبينَ إخراجِ العقربِ مِنْ تحتِ الثيابِ ، وإخراجِ الحيَّةِ مِنَ البيتِ ، وليسَ مِنْ شرطِ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢١) ، وقد رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٣٨٨٤) ، والطبراني في « الأوسط » (١٥٨٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٤٠١) .

(٢) رواه أبو داوود (٣٨٥٥) ، والترمذي (٢٠٣٨)، والطبراني في « الكبير » (٢٤/ ٢٥٤) .

(٣) رواه الترمذي (٢٠٦٥) ، وابن ماجه (٣٤٣٧) .

(٤) رواه الترمذي (٢٠٥٢) ، وابن ماجه (٣٤٧٩) .

(٥) رواه الترمذي (٢٠٥١) ولم يذكر التبيُّغ ، وابن ماجه (٣٤٨٦) ، والتبيُّغ : هيجان الدم حتىٰ تظهر حمرته في البدن .

التوكلِ تركُ ذلكَ ، بلْ هوَ كصبِّ الماءِ على النارِ لإطفائها ودفعِ ضررِها عندَ وقوعِها في البيتِ ، وليسَ مِنَ التوكلِ الخروجُ عنْ سنةِ الوكيلِ أصلاً .

وفي خبرٍ مقطوعٍ : « مَنِ احتجمَ يومَ الثلاثاءِ لسبعَ عشرةَ منَ الشهرِ . . كانَ لهُ دواءً مِنْ داءِ سنةٍ »(١) .

* * *

وأمَّا أمرُهُ . . فقدْ أمرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غيرَ واحدٍ مِنَ الصحابةِ بالتداوي والحميةِ(٢) ، وقطعَ لسعدِ بنِ معاذٍ عرقاً ؛ أيْ : فصدَهُ(٣) ، وكوىٰ سعدَ بنَ زرارةَ(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ وكانَ رَمِدَ العينِ : « لا تأكلْ مِنْ هٰذا ـ يعني : الرطبَ ـ وكُلْ مِنْ هٰذا ؛ فإنَّهُ أوفقُ لكَ » ؛ يعني : سلقاً قدْ طُبخَ بدقيقِ شعيرٍ(٥) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لصهيبٍ وقدْ رآهُ يأكلُ التمرَ وهوَ وجعُ العينِ :

---

(١) رواه ابن حبان في « المجروحين » (١/ ٣٨٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/ ٢٠٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٣٤٠) .

(٢) تقدم قريباً قوله صلى الله عليه وسلم : « تداووا » ، وسيأتي في قصة علي وصهيب رضي الله عنهما في الحمية .

(٣) كما هو عند مسلم (٢٢٠٨) .

(٤) كما هو عند ابن ماجه (٣٤٩٢) ، ثم مات رضي الله عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ميتة سوء لليهود ، يقولون : أفلا دفع عن صاحبه ، وما أملك له ولا لنفسي شيئاً » .

(٥) رواه أبو داوود (٣٨٥٦) ، والترمذي (٢٠٣٧) ، وابن ماجه (٣٤٤٢) .

« تأكلُ تمراً وأنتَ رَمِدٌ ؟! » فقالَ : إنِّي آكلُ مِنَ الجانبِ الآخرِ ، فتبسَّمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

* * *

وأمَّا فعلُهُ . . فقدْ رُوِيَ في حديثٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يكتحلُ كلَّ ليلةٍ ، ويحتجمُ كلَّ شهرٍ ، ويشربُ الدواءَ كلَّ سنةٍ[2] .

وتداوىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غيرَ مرَّةٍ مِنَ العقربِ وغيرِها[3] .

ورُوِيَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كانَ إذا نزلَ عليهِ الوحيُ . . صُدِعَ رأسُهُ ، فكانَ يغلفُهُ بالحناءِ[4] .

وفي خبرٍ : أنَّهُ كانَ إذا خرجَتْ بهِ قرحةٌ . . جعلَ عليها حناءً[5] ،

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٤٤٣) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢١) ، وقد رواه من غير طريقهم ابن عدي في « الكامل » (٣/ ٤٣٣) .

(٣) روى الطبراني في « الكبير » (٢/ ٢٨٧) عن جبلة بن الأزرق رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلىٰ إلىٰ جنب جدار كثير الأحجرة صلىٰ ظهراً وعصراً ، فلما جلس في الركعتين . . خرجت عقرب فلدغته ، فغشي عليه ، فرقاه الناس ، فلما أفاق . . قال : « شفاني الله وليس برقيتكم » .
وروىٰ في « الأوسط » (١٠٩) عن أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكىٰ . . تقمح كفاً من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلاً .

(٤) رواه البزار في « مسنده » (٧٨٥٢) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٦٢٥) .

(٥) رواه الترمذي (٢٠٥٤) ، وابن ماجه (٣٥٠٢) .

وقدْ جعلَ علىٰ قرحةٍ خرجَتْ بهِ تراباً[١] .

وما رُوِيَ في تداويهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وأمرِهِ بذلكَ خارجٌ عنِ الحصرِ ، وقدْ صُنِّفَ في ذلكَ كتابٌ وسُمِّيَ طبَّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٢] .

وذكرَ بعضُ العلماءِ في الإسرائيلياتِ : أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ اعتلَّ بعلَّةٍ ، فدخلَ عليهِ بنو إسرائيلَ ، فعرفوا علَّتَهُ ، فقالوا لهُ : لوْ تداويتَ بكذا.. لبرئتَ ، فقالَ : لا أتداوىٰ حتَّىٰ يعافيَني هوَ مِنْ غيرِ دواءٍ ، فطالَتْ علَّتُهُ ، فقالوا لهُ : إنَّ دواءَ هـٰذهِ العلَّةِ معروفٌ مجرَّبٌ ، وإنَّا نتداوىٰ بهِ فنبرأُ ، فقالَ : لا أتداوىٰ ، فدامَتْ علَّتُهُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : وعزَّتِي ؛ لا أبرئُكَ حتَّىٰ تتداوىٰ بما ذكروهُ لكَ ، فقالَ لهُمْ : داووني بما ذكرتُمْ ، فداوَوهُ ، فبرأَ ، فأوجسَ في نفسهِ مِنْ ذلكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ ، أردتَ أنْ تبطلَ حكمتي بتوكُّلِكَ عليَّ ؟! مَنْ أودعَ العقاقيرَ منافعَ الأشياءِ غيري ؟![٣] .

---

(١) فعند البخاري (٥٧٤٥) ، ومسلم (٢١٩٤) واللفظ له ، عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت به قرحة أو جرح.. قال النبي صلى الله عليه وسلم بإصبعه هـٰكذا ـ ووضع سفيان سبابته بالأرض ثم رفعها ـ : « باسم الله ، تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ؛ ليشفىٰ به سقيمنا بإذن ربنا » .

(٢) وهما كتابان مشهوران بهـٰذا الاسم ، أحدهما للحافظ أبي بكر بن السني ، والثاني للحافظ أبي نعيم الأصبهاني . « إتحاف » (٩/ ٥١٩) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢١) .

ورُوِيَ في خبرٍ آخرَ : أنَّ نبيّاً مِنَ الأنبياءِ شكا علَّةً يجدُها ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : كُلِ البيضَ[1] ، وشكا نبيٌّ آخرُ الضعفَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : كُلِ اللحمَ باللبنِ ؛ فإنَّ فيهِما القوَّةَ . قيلَ : هوَ الضعفُ عنِ الجماعِ[2] .

وقدْ رُوِيَ أنَّ قوماً شكَوا إلىٰ نبيِّهِمْ قبحَ أولادِهِمْ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : مُرْهُمْ أنْ يطعموا نساءَهُمْ الحبالى السفرجلَ ؛ فإنَّهُ يحسنُ الولدُ ، ويُفعلُ ذلكَ في الشهرِ الثالثِ والرابعِ ، إذْ فيهِ يُصوِّرُ اللهُ تعالى الولدَ ، وقدْ كانوا يطعمونَ الحبلى السفرجلَ ، والنفساءَ الرطبَ[2] .

فبهٰذا تبيَّنَ أنَّ مسبِّبَ الأسبابِ أجرىٰ سنَّتَهُ بربطِ المسبَّباتِ بالأسبابِ إظهاراً للحكمةِ ، والأدويةُ أسبابٌ مسخَّرةٌ بحكمِ اللهِ تعالىٰ كسائرِ الأسبابِ ، فكما أنَّ الخبزَ دواءُ الجوعِ ، والماءَ دواءُ العطشِ . . فالسكنجبينُ دواءُ الصفراءِ ، والسقمونيا دواءُ الإسهالِ ، لا يفارقُهُ إلا في أحدِ أمرينِ :

أحدُهُما : أنَّ معالجةَ الجوعِ والعطشِ بالماءِ والخبزِ جليٌّ واضحٌ يدركُهُ كافةُ الناسِ ، ومعالجةُ الصفراءِ بالسكنجبينِ يدركُهُ بعضُ الخواصِّ ، فمَنْ أدركَ ذلكَ بالتجربةِ . . التحقَ في حقِّه بالأوَّلِ .

والثاني : أنَّ الدواءَ يسهلُ ، والسكنجبينُ يسكِّنُ الصفراءَ بشروطٍ أخرَ في الباطنِ ، وأسبابٍ في المزاجِ ، ربَّما يتعذَّرُ الوقوفُ علىٰ جميعِ شروطِها ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢١) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٢) .

وربَّما يفوتُ بعضُ الشروطِ ، فيتقاعدُ الدواءُ عنِ الإسهالِ ، وأمَّا زوالُ العطشِ . . فلا يستدعي ـ سوى الماء ـ شروطاً كثيرةً ، وقدْ يتفقُ مِنَ العوارضِ ما يُوجبُ دوامَ العطشِ معَ كثرةِ شربِ الماءِ ، ولكنَّهُ نادرٌ .

واختلافُ الأسبابِ أبداً ينحصرُ في هٰذينِ الفنَّينِ ، وإلا . . فالمسبَّبُ يتلو السببَ ـ لا محالةَ ـ مهما تمَّتْ شروطُ السببِ ، وكلُّ ذلكَ بتدبيرِ مسبِّبِ الأسبابِ وتسخيرِهِ وترتيبِهِ بحكمِ حكمتِهِ وكمالِ قدرتِهِ ، فلا يضرُّ المتوكلَ استعمالُهُ مَعَ النظرِ إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ دونَ الطبيبِ والدواءِ ، فقدْ رُوِيَ عنْ موسىٰ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ : يا ربِّ ؛ ممَّنِ الدواءُ والشفاءُ ؟ فقالَ تعالىٰ : منِّي ، قالَ : فما يصنعُ الأطباءُ ؟ قالَ : يأكلونَ أرزاقَهُمْ ، ويطيِّبونَ نفوسَ عبادي حتَّىٰ يأتيَ شفائِي أوْ قبضي[1] .

فإذاً ؛ معنى التوكلِ معَ التداوي التوكلُ بالعلمِ والحالِ كما سبقَ في فنونِ الأعمالِ الدافعةِ للضررِ الجالبةِ للنفعِ ، وأمَّا تركُ التداوي رأساً . . فليسَ شرطاً فيهِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فالكيُّ أيضاً مِنَ الأسبابِ الظاهرةِ النفعِ .

فأقولُ : ليسَ كذلكَ ؛ إذِ الأسبابُ الظاهرةُ مثلُ الفصدِ والحجامةِ وشربِ المسهلِ وسقيِ المبرداتِ للمحرورِ ، وأمَّا الكيُّ ؛ فلوْ كانَ مثلَها في

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٢) .

الظهورِ.. لما خلتِ البلادُ الكثيرةُ عنهُ، وقلَّما يُعتادُ الكيُّ في أكثرِ البلادِ، وإنَّما ذلكَ عادةُ بعضِ الأتراكِ والأعرابِ، فهوَ مِنَ الأسبابِ الموهومةِ كالرَّقْيِ[1]، إلا أنَّهُ يتميَّزُ عنهُ بأمرٍ، وهوَ أنَّهُ إحراقٌ بالنارِ في الحالِ معَ الاستغناءِ عنهُ، فإنَّهُ ما مِنْ وجعٍ يُعالجُ بالكيِّ إلا ولهُ دواءٌ يغني عنهُ ليسَ فيهِ إحراقٌ، فالإحراقُ بالنارِ جرحٌ مخرِّبٌ للبنيةِ، محذورُ السرايةِ، معَ الاستغناءِ عنهُ، بخلافِ الفصدِ والحجامةِ، فإنَّ سرايتَهُما بعيدةٌ، ولا يسدُّ مسدَّهُما غيرُهما.

ولذلكَ نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الكيِّ دونَ الرَّقْيِ، وكلُّ واحدٍ منهُما بعيدٌ عنِ التوكلِ[2].

ورُوِيَ أنَّ عمرانَ بنَ الحصينِ اعتلَّ، فأشاروا عليهِ بالكيِّ، فامتنعَ، فلمْ يزالوا بهِ، وعزمَ عليهِ الأميرُ حتَّى اكتوىٰ، فكانَ يقولُ: (كنتُ أرىٰ نوراً وأسمعُ صوتاً، وتسلِّمُ عليَّ الملائكةُ، فلما اكتويتُ.. انقطعَ ذلكَ عنِّي)[3]، وكانَ يقولُ: (اكتوينا كيَّاتٍ، فواللهِ؛ ما أفلحنَ ولا أنجحنَ)[4]،

---

(١) مصدر، يقال: رقاه رَقْياً ورُقِياً، وعند الحافظ الزبيدي في «إتحافه» (٩/ ٥٢٠) جعله جمع رقية، فهو الرُّقىٰ.

(٢) رواه البخاري (٥٦٨٠) ولفظه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنهىٰ أمتي عن الكي».

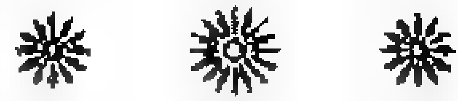
(٣) كذا في «القوت» (٢/ ٢٢)، والسياق عنده، ورواه بنحوه أحمد في «المسند» (٤/ ٤٢٧).

(٤) رواه أبو داوود (٣٨٦٥).

ثمَّ تابَ مِنْ ذلكَ وأنابَ إلى اللهِ تعالىٰ ، فردَّ اللهُ تعالىٰ عليهِ ما كانَ يجدُ مِنْ أمرِ الملائكةِ .

وقالَ لمطرفِ بنِ عبدِ اللهِ : (ألمْ ترَ إلى الكرامةِ التي كانَ أكرمَني اللهُ بها ، قدْ ردَّها عليَّ) ، بعدَ أنْ كانَ أخبرَهُ بفقدِها[1] .

فإذاً ؛ الكيُّ وما يجري مجراهُ هوَ الذي لا يليقُ بالمتوكلِ ؛ لأنَّهُ يحتاجُ في استنباطِهِ إلىٰ تدبيرٍ ، ثمَّ هوَ موهومٌ ، فيدلُّ ذلكَ علىٰ شدَّةِ ملاحظةِ الأسبابِ وعلى التعمُّقِ فيها ، واللهُ أعلمُ .



(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٢) .

بيان أن ترك التداوي قد يحمد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل، وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلمْ : أنَّ الذينَ تداوَوا مِنَ السلفِ لا ينحصرونَ ، ولكنْ قدْ تركَ التداويَ أيضاً جماعةٌ مِنَ الأكابرِ ، فربَّما يُظنُّ أنَّ ذلكَ نقصانٌ ؛ لأنَّهُ لوْ كانَ كمالاً . . لتركَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ لا يكونُ حالُ غيرِهِ في التوكلِ أكملَ مِنْ حالِهِ .

وقدْ رُوِيَ عنْ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قيلَ لهُ في مرضِهِ : لوْ دعونا لكَ طبيباً ؟ فقالَ : الطبيبُ قدْ نظرَ إليَّ وقالَ : إنِّي فعَّالٌ لما أريدُ[1] .

وقيلَ لأبي الدرداءِ في مرضِهِ : ما تشتكي ؟ قالَ : ذنوبي ، قيلَ : فما تشتهي ؟ قالَ : مغفرةَ ربِّي ، قالوا : ألا ندعو لكَ طبيباً ؟ قالَ : الطبيبُ أمرضَني[2] .

وقيلَ لأبي ذرٍّ وقدْ رمدَتْ عيناهُ : لوْ داويتَهُما ، قالَ : إنِّي عنهُما مشغولٌ ، فقيلَ : لوْ سألتَ اللهَ تعالىٰ أنْ يعافيَكَ ، فقالَ : أسألُهُ فيما هوَ أهمُّ عليَّ منهُما[3] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٤) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢١٨) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٣) .

وكانَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ أصابَهُ فالجٌ ، فقيلَ لهُ : لوْ تداويتَ ، فقالَ : قدْ هممتُ ثمَّ ذكرتُ عاداً وثمودَ وأصحابَ الرسِّ وقروناً بينَ ذلكَ كثيراً ، وكانَ فيهِمُ الأطباءُ ، فهلكَ المداوَىٰ والمداوِي ، ولمْ تغنِ الرُّقَىٰ شيئاً(١) .

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ يقولُ : (أحبُّ لمَنِ اعتقدَ التوكلَ وسلكَ هٰذا الطريقَ تركَ التداوي مِنْ شربِ الدواءِ وغيرِهِ)(٢) ، وكانَ بهِ عللٌ ، فلا يخبرُ المتطبِّبَ بها أيضاً إذا سألَهُ(٣) .

وقيلَ لسهلٍ : متىٰ يصحُّ للعبدِ التوكلُ ؟ قالَ : إذا دخلَ عليهِ الضرُّ في جسمِهِ والنقصُ في مالِهِ . فلمْ يلتفتْ إليهِ شغلاً بحالِهِ ، وينظرُ إلىٰ قيامِ اللهِ تعالىٰ عليهِ(٤) .

فإذاً ؛ منهُمْ مَنْ تركَ التداويَ وراءَهُ ، ومنهُمْ مَنْ كرهَهُ ، ولا يتضحُ وجهُ الجمعِ بينَ فعلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأفعالِهِمْ إلا بحصرِ الصوارفِ عنِ التداوي ، فنقولُ : إنَّ لتركِ التداوي أسباباً :

السببُ الأوَّلُ : أنْ يكونَ المريضُ مِنَ المكاشَفينَ ، وقدْ كُوشفَ بأنَّهُ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٠٧) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٢) .

(٣) كذا في « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٥٢٢) ، والمتطبب : متعاطي علم الطب وقد لا يعرفه معرفة جيدة .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٣) .

انتهىٰ أجلُهُ ، وأنَّ الدواءَ لا ينفعُهُ ، ويكونُ ذلكَ معلوماً عندَهُ تارةً برؤيا صادقةٍ ، وتارةً بحدسٍ وظنٍّ ، وتارةً بكشفٍ محقَّقٍ ، ويشبهُ أنْ يكونَ تركُ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ التداويَ مِنْ هـٰذا السببِ ؛ فإنَّهُ كانَ مِنَ المكاشَفينَ ، فإنَّهُ قالَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها في أمرِ الميراثِ : (إنَّما هُنَّ أختاكِ) ، وما كانَ لها إلا أختٌ واحدة ، ولكنْ كانَتِ امرأتُهُ حاملاً ، فولدَتْ أنثىٰ[1] ، فعُلِمَ أنَّهُ كانَ قدْ كُوشفَ بأنَّها حاملٌ بأنثىٰ ، فلا يبعدُ أنْ يكونَ قدْ كُوشفَ أيضاً بانتهاءِ أجلِهِ ، وإلا . . فلا يُظنُّ بهِ إنكارُ التداوي وقدْ شاهدَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تداوىٰ وأمرَ بهِ .

* * *

السببُ الثاني : أنْ يكونَ المريضُ مشغولاً بحالِهِ وبخوفِ عاقبتِهِ واطلاعِ اللهِ تعالىٰ عليهِ ، فينسيهِ ذلكَ ألمَ المرضِ ، فلا يتفرَّغُ قلبُهُ للتداوي ؛ شغلاً بحالِهِ ، وعليهِ يدلُّ كلامُ أبي ذرٍّ إذْ قالَ : (إنِّي عنهُما مشغولٌ) ، وكلامُ أبي الدرداءِ إذْ قالَ : (إنَّما أشتكي ذنوبي) ، فكانَ تألُّمُ قلبِهِ خوفاً مِنْ ذنوبِهِ أكثرَ مِنْ تألُّمِ بدنِهِ بالمرضِ ، ويكونُ هـٰذا كالمصابِ بموتِ عزيزٍ مِنْ أعزَّتِهِ ، أوْ كالخائفِ الذي يُحملُ إلىٰ ملكٍ مِنَ الملوكِ ليُقتلَ ، إذا قيلَ لهُ : ألا تأكلُ وأنتَ جائعٌ ؟ فيقولُ : أنا مشغولٌ عنْ ألمِ الجوعِ ، فلا يكونُ ذلكَ إنكاراً لكونِ الخبزِ نافعاً مِنَ الجوعِ ، ولا طعناً فيمَنْ أكلَ .

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٧٥٢) .

ويقربُ مِنْ هـٰذا اشتغالُ سهلٍ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قيلَ لهُ : ما القوتُ ؟ فقالَ : هوَ الحيُّ القيُّومُ ، فقيلَ : إنَّما سألناكَ عنِ القوامِ ، فقالَ : القوامُ هوَ العلمُ ، قيلَ : سألناكَ عنِ الغذاءِ ، قالَ : الغذاءُ هوَ الذكرُ ، قيلَ : سألناكَ عنْ طعمةِ الجسدِ ، قالَ : ما لكَ وللجسدِ ؟! دعْ مَنْ تولاهُ أوَّلاً يتولاهُ آخراً ، إذا دخلَ عليهِ علةٌ . . فردَّهُ إلىٰ صانعِهِ ، أما رأيتَ الصنعةَ إذا عابَتْ . . ردُّوها إلىٰ صانعِها حتَّىٰ يصلحَها ؟[1] .

＊ ＊ ＊

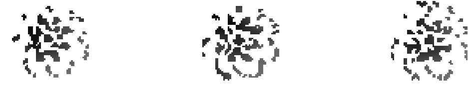
السببُ الثالث : أنْ تكونَ العلَّةُ مزمنةً والدواءُ الذي يُؤمرُ بهِ بالإضافةِ إلىٰ علَّتِهِ موهومُ النفعِ ، جارٍ مجرى الكيِّ والرقيةِ ، فيتركُهُ المتوكلُ ، وإليهِ يشيرُ قولُ الربيعِ بنِ خُثيمٍ إذْ قالَ : (ذكرتُ عاداً وثمودَ وفيهِمُ الأطباءُ ، فهلكَ المداوَىٰ والمداوِي) أيْ : إنَّ الدواءَ غيرُ موثوقٍ بهِ ، وهـٰذا قد يكونُ كذلكَ في نفسِهِ ، وقدْ يكونُ عندَ المريضِ كذلكَ لقلَّةِ ممارستِهِ للطبِّ ، وقلَّةِ تجربتِهِ لهُ ، فلا يغلبُ علىٰ ظنِّهِ كونُهُ نافعاً ، ولا شكَّ في أنَّ الطبيبَ المجرِّبَ أشدُّ اعتقاداً في الأدويةِ مِنْ غيرِهِ ، فتكونُ الثقةُ والظنُّ بحسبِ الاعتقادِ ، والاعتقادُ بحسَبِ التجربةِ .

وأكثرُ مَنْ تركَ التداويَ مِنَ العبَّادِ والزهَّادِ هـٰذا مستندُهُمْ ؛ لأنَّهُ يبقى الدواءُ عندَهُ شيئاً موهوماً لا أصلَ لهُ ، وذلكَ صحيحٌ في بعضِ الأدويةِ عندَ

---

(١) قوت القلوب (٢/١٩) .

مَنْ عرفَ صناعةَ الطبِّ ، غيرُ صحيحٍ في البعضِ ، ولكنْ غيرُ الطبيبِ قدْ ينظرُ إلى الكلِّ نظراً واحداً ، فيرى التداويَ تعمُّقاً في الأسبابِ كالكيِّ والرُّقْيِ ، فيتركُهُ توكلاً .



السببُ الرابعُ : أنْ يقصدَ العبدُ بتركِ التداوي استبقاءَ المرضِ ؛ لينالَ ثوابَ المرضِ بحسنِ الصبرِ علىٰ بلاءِ اللهِ تعالىٰ ، أوْ ليجرِّبَ نفسَهُ في القدرةِ على الصبرِ ، فقدْ وردَ في ثوابِ المرضِ ما يكثرُ ذكرُهُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نحنُ معاشرَ الأنبياءِ أشدُّ الناسِ بلاءً ، ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ ، يُبتلى العبدُ علىٰ قدْرِ إيمانِهِ ، فإنْ كانَ صلبَ الإيمانِ . . شُدِّدَ عليهِ البلاءُ ، وإنْ كانَ في إيمانِهِ ضعفٌ . . خُفِّفَ عنهُ البلاءُ »(١) .

وفي الخبرِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يجرِّبُ عبدَهُ بالبلاءِ كما يجرِّبُ أحدُكُمْ ذهبَهُ بالنارِ ، فمنهُمْ مَنْ يخرجُ كالذهبِ الإبريزِ ، ومنهُمْ دونَ ذلكَ ، ومنهُمْ مَنْ يخرجُ أسودَ محترقاً »(٢) .

وفي حديثٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ إذا أحبَّ عبداً . .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤) ، ورواه بنحوه الترمذي (٢٣٩٨) ، وابن ماجه (٤٠٢٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٢٧) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ١٦٦) .

ابتلاهُ ، فإنْ صبرَ . . اجتباهُ ، فإنْ رضيَ . . اصطفاهُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تحبونَ أنْ تكونوا كالحمرِ الصيَّالةِ لا تمرضونَ ولا تسقمونَ ؟! »[2] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (تجدُ المؤمنَ أصحَّ شيءٍ قلباً وأمرضَهُ جسماً ، وتجدُ المنافقَ أصحَّ شيءٍ جسماً وأمرضَهُ قلباً)[3] .

فلمَّا عظُمَ الثناءُ على المرضِ والبلاءِ . . أحبَّ قومٌ المرضَ واغتنموهُ ؛ لينالوا ثوابَ الصبرِ عليهِ ، فكانَ فيهِمْ مَنْ لهُ علَّةٌ يخفيها ولا يذكرُها للطبيبِ ، ويقاسي العلَّةَ ، ويرضىٰ بحكمِ اللهِ تعالىٰ ، ويعلمُ أنَّ الحقَّ أغلبُ علىٰ قلبهِ مِنْ أنْ يشغلَهُ المرضُ عنهُ ، وإنَّما يمنعُ المرضُ جوارحَهُ ، وعلموا أنَّ صلاتَهُمْ قعوداً مثلاً معَ الصبرِ علىٰ قضاءِ اللهِ تعالىٰ أفضلُ مِنَ الصلاةِ قياماً معَ العافيةِ والصحةِ ، ففي الخبرِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ لملائكتِهِ : اكتبوا لعبدي صالحَ ما كانَ يعملُ ؛ فإنَّهُ في وثاقي ، إنْ أطلقتُهُ . . أبدلتُهُ لحماً خيراً

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥) ، وبنحوه رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٢٥٤) ، وبلفظه ذكره صاحب « الفردوس » (٩٧١) من حديث علي رضي الله عنه .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤) ، ورواه الروياني في « مسنده » (١٥٤٤) ، وبنحوه البيهقي في « الشعب » (٩٣٩٣) ، وقال : (وسألت عنه ـ الحمر الصيالة ـ بعض أهل الأدب ، فزعم أنه أراد حمر الوحش التي تصول ، وهو أصح الحيوانات جسماً ، وأقيمت الياء مقام الواو) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٩٠٤) .

مِنْ لحمِهِ ، ودماً خيراً مِنْ دمِهِ ، وإنْ توفيتُهُ . . توفيتُهُ إلىٰ رحمتي »[١] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ الأعمالِ ما أُكرهَتْ عليهِ النفوسُ »[٢] ، فقيلَ : معناهُ : ما دخلَ عليها مِنَ الأمراضِ والمصائبِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

وكانَ سهلٌ يقولُ : (تركُ التداوي وإنْ ضعفَ عنِ الطاعاتِ وقصرَ عنِ الفرائضِ أفضلُ مِنَ التداوي لأجلِ الطاعاتِ)[٣] .

وكانَتْ بهِ علَّةٌ عظيمةٌ ، فلمْ يكنْ يتداوىٰ منها ، وكانَ يداوي الناسَ منها ، وكانَ إذا رأى العبدَ يصلِّي مِنْ قعودٍ ولا يستطيعُ أعمالَ البرِّ مِنَ الأمراضِ ، فيتداوىٰ للقيامِ في الصلاةِ والنهوضِ إلى الطاعةِ . . يعجبُ مِنْ ذلكَ ويقولُ : (صلاتُهُ مِنْ قعودٍ مع الرضا بحالِهِ أفضلُ مِنَ التداوي للقوَّةِ والصلاةِ قائماً)[٣] .

وسُئِلَ عنْ شربِ الدواءِ ، فقالَ : (كلُّ مَنْ دخلَ في شيءٍ مِنَ الدواءِ فإنَّما هوَ سعةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ لأهلِ الضعفِ ، ومَنْ لمْ يدخلْ في شيءٍ منهُ . . فهوَ أفضلُ ؛ لأنَّهُ إنْ أخذَ شيئاً مِنَ الدواءِ ولوْ كانَ هوَ الماءَ الباردَ . . يُسألُ عنهُ

---

(١) قوت القلوب (٢/٢٥) ، وبنحوه رواه أحمد في « المسند » (٢/١٥٩) ، وابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٧٦) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١١٣) ، وابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (١٤٨) من قول عمر بن عبد العزيز .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٣) .

لِمَ أخذتَ ؟ ومَنْ لمْ يأخذْ . . فلا سؤالَ عليهِ)(١) .

وكان مذهبُهُ ومذهبُ البصريينَ تضعيفَ النفسِ بالجوعِ وكسرِ الشهواتِ ؛ لعلمِهِمْ بأنَّ ذرَّةً مِنْ أعمالِ القلوبِ مثلَ الصبرِ والرضا والتوكلِ أفضلُ مِنْ أمثالِ الجبالِ مِنْ أعمالِ الجوارحِ(١) ، والمرضُ لا يمنعُ مِنْ أعمالِ القلوبِ إلا إذا كانَ ألمُهُ غالباً مدهشاً .

وقالَ سهلٌ رحمهُ اللهُ : (عللُ الأجسامِ رحمةٌ ، وعللُ القلوبِ عقوبةٌ)(١) .



السببُ الخامسُ : أنْ يكونَ العبدُ قدْ سبقَ لهُ ذنوبٌ وهوَ خائفٌ منها ، عاجزٌ عنْ تكفيرِها ، فيرى المرضَ إذا طالَ تكفيراً ، فيتركُ التداويَ خوفاً مِنْ أنْ يسرعَ زوالُ المرضِ ؛ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تزالُ الحمَّىٰ والمليلةُ بالعبدِ حتَّىٰ يمشيَ على الأرضِ كالبردةِ ما عليهِ ذنبٌ ولا خطيئةٌ »(٢) .

وفي الخبرِ : « حمَّىٰ يومٍ كفارةُ سنةٍ »(٣) ، فقيلَ : لأنَّها تهدُّ قوَّةَ سنةٍ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٣) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤) ، ورواه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٩٤٣٣) ولفظه : « إن الحمىٰ والمليلة لا يزالان بالمؤمن وإن ذنبه مثل أحد ، فما يدعانه وعليه من ذنبه مثقال حبة من خردل » ، وعند الترمذي (٢٠٨٦) : « إنما مثل المريض إذا برأ وصحَّ كالبردة تقع من السماء في صفائها ولونها » ، **والمليلة** : حرارة يجدها المرء ، وهي حمَّىٰ في العظام .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤) ، ورواه تمام في « فوائده » (٤٧٩) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٦٢) .

وقيلَ : للإنسانِ ثلاثُ مئةٍ وستونَ مفصلاً ، فتدخلُ الحمَّىٰ في جميعِها ، ويجدُ مِنْ كلِّ واحدٍ ألماً ، فيكونُ كلُّ ألمٍ كفارةَ يومٍ (١) .

ولمَّا ذكرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كفارةَ الذنوبِ بالحمَّىٰ . . سألَ زيدُ بنُ ثابتٍ ربَّهُ عزَّ وجلَّ ألا يزالَ محموماً ، فلمْ تكنِ الحمَّىٰ تفارقُهُ حتَّىٰ ماتَ رضيَ اللهُ عنهُ (٢) .

وسألَ ذلكَ طائفةٌ مِنَ الأنصارِ ، فكانَتِ الحمَّىٰ لا تزايلُهُمْ (٣) .

ولمَّا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أذهبَ اللهُ كريمتيهِ . . لمْ يرضَ لهُ ثواباً دونَ الجنةِ » . . قالَ : فلقدْ كانَ مِنَ الأنصارِ مَنْ يتمنَّى العمىٰ (٤) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا يكونُ عالماً مَنْ لمْ يفرحْ بدخولِ المصائبِ والأمراضِ علىٰ جسدهِ ومالِهِ لما يرجو في ذلكَ مِنْ كفارةِ خطاياهُ) (٥) .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ نظرَ إلىٰ عبدٍ عظيمِ البلاءِ ، فقالَ :

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤) .
(٣) منهم أبي بن كعب رضي الله عنه ، فقد روى البيهقي في « الشعب » (٩٤٩٧) عنه قال : (اللهم ؛ إني أسألك ألا تزال الحمىٰ مضارعة لجسد أبي بن كعب حتىٰ يلقاك ، لا تمنعه من صلاة ولا صيام ولا حج ولا عمرة ولا جهاد في سبيلك) ، فارتكبته الحمىٰ مكانه ، فلم تفارقه حتىٰ مات ، وكان في ذلك يشهد الصلاة ويصوم ويحج ويعتمر ويغزو .
(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤) ، والحديث رواه الترمذي (٢٤٠١) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ٢٤) .

يا ربِّ ؛ ارحمْهُ ، فقالَ تعالىٰ : كيفَ أرحمُهُ ممَّا بهِ أرحمُهُ ؛ أي : بهِ أكفِّرُ ذنوبَهُ ، وأزيدُ في درجاتِهِ[1] .

* * *

السببُ السادسُ : أنْ يستشعرَ العبدُ مِنْ نفسِهِ مباديَ البطرِ والطغيانِ بطولِ مدَّةِ الصحةِ ، فيتركَ التداويَ خوفاً مِنْ أنْ يعاجلَهُ زوالُ المرضِ فتعاودَهُ الغفلةُ والبطرُ والطغيانُ ، أوْ طولُ الأملِ والتسويفُ في تداركِ الفائتِ وتأخيرِ الخيراتِ ؛ فإنَّ الصحةَ عبارةٌ عنْ قوَّةِ الصفاتِ ، وبها ينبعثُ الهوىٰ وتتحرَّكُ الشهواتُ ، وتدعو إلى المعاصي ، وأقلُّها أنْ تدعوَ إلى التنعُّمِ في المباحاتِ ، وهوَ تضييعٌ للأوقاتِ ، وإهمالٌ للربحِ العظيمِ في مخالفةِ النفسِ وملازمةِ الطاعاتِ .

وإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . لمْ يخلِهِ عنِ التنبيهِ بالأمراضِ والمصائبِ ، ولذلكَ قيلَ : (لا يخلو المؤمنُ مِنْ علَّةٍ أوْ قلَّةٍ أوْ ذِلَّةٍ)[2] .

وقدْ رُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : (الفقرُ سجني ، والمرضُ قيدي ، أحبسُ بهِ مَنْ أحبُّ مِنْ خلقي)[2] .

فإذا كانَ في المرضِ حبسٌ عنِ الطغيانِ وركوبِ المعاصي . . فأيُّ خيرٍ

---

(1) قوت القلوب (٢/ ٢٤) ، وقال الله تعالىٰ في تصديق ذلك : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ، فأخبر أن ترك الرحمة لهم من الأمراض لطفاً بهم ورحمة بالمنة لهم . « إتحاف » (٩/ ٥٢٧) .

(2) قوت القلوب (٢/ ٢٤) .

يزيدُ عليهِ ؟! ولِمَ ينبغي أنْ يشتغلَ بعلاجِهِ مَنْ يخافُ ذلكَ علىٰ نفسِهِ ؟! فالعافيةُ في تركِ المعاصي ؛ فقدْ قالَ بعضُ العارفينَ لإنسانٍ : كيفَ كنتَ بعدي ؟ قالَ : في عافيةٍ ، قالَ : إنْ كنتَ لمْ تعصِ اللهَ . . فأنتَ في عافيةٍ ، وإنْ كنتَ قدْ عصيتَهُ . . فأيُّ داءٍ أدوأُ مِنَ المعصيةِ ؟! ما عُوفيَ مَنْ عصى الله[1] .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ لمَّا رأىٰ زينةَ النَّبَطِ بالعراقِ في يوم عيدِهِمْ : ما هٰذا الذي أظهروهُ ؟ قالوا : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ هٰذا يومُ عيدٍ لهُمْ ، فقالَ : كلُّ يومٍ لا نعصي اللهَ تعالىٰ فيهِ فهوَ لنا عيدٌ[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، قيلَ : العوافي ، وقالَ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ ، وكذلكَ إذا استغنىٰ بالعافيةِ .

وقالَ بعضُهُمْ : إنَّما قالَ فرعونُ : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ لطولِ العافيةِ ؛ لأنَّهُ لبثَ أربعَ مئةِ سنةٍ لمْ يُصدَّعْ لهُ رأسٌ ، ولمْ يُحمَّ لهُ جسمٌ ، ولمْ يضربْ عليهِ عرقٌ ؛ فادَّعى الربوبيةَ لعنَهُ اللهُ ، ولوْ أخذَتْهُ الشقيقةُ كلَّ يومٍ . . لشغلَتْهُ عنِ الفضولِ فضلاً عنْ دعوى الربوبيةِ[1] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثروا مِنْ ذكرِ هاذمِ اللذاتِ »[2] ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤) .
(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٧) ، والنسائي (٤/ ٤) ، وابن ماجه (٤٢٥٨) .

وقيلَ : (الحمَّىٰ رائدُ الموتِ)[1] ، فهيَ تذكرةٌ بهِ ، ودافعةٌ للتسويفِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ، قيلَ : يفتنونَ بأمراضٍ يُختبرونَ بها[2] .

ويُقالُ : إنَّ العبدَ إذا مرضَ مرضتينِ ثمَّ لمْ يتبْ . . قالَ لهُ ملكُ الموتِ : يا غافلُ ؛ جاءَكَ منِّي رسولٌ بعدَ رسولٍ فلمْ تُجبْ[3] ؟!

وقدْ كانَ السلفُ لذلكَ يستوحشونَ إذا خرجَ عامٌ لم يُصابوا فيهِ بنقصٍ في نفسٍ أوْ مالٍ[4] .

وقالوا : لا يخلو المؤمنُ في كلِّ أربعينَ يوماً أنْ يُروَّعَ روعةً ، أوْ يُصابَ ببليَّةٍ ، حتَّىٰ رُوِيَ أنَّ عمارَ بنَ ياسرٍ تزوَّجَ امرأةً ، فلمْ تكنْ تمرضُ ، فطلَّقَها[5] ، وأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عُرِضَتْ عليهِ امرأةٌ ، فذُكِرَ مِنْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٧٤) عن سعيد بن جبير ، ومرسلاً عن الحسن (٧٣) ، وفي (ج ، د ، ن ، ع) : (بريد) بدل (رائد) ، وهي كذلك في « القوت » (٢/٢٦) ، ورواها كذلك أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٢٩) عن أبي حفص النيسابوري .

(٢) قوت القلوب (٢/٢٦) .

(٣) قوت القلوب (٢/٢٦) ، والمعنىٰ : فلم تُجبْ إلا أن آتيك بنفسي أضربك ضربة أقطع منك الوتين . « إتحاف » (٩/٥٢٩) .

(٤) قوت القلوب (٢/٢٦) .

(٥) قوت القلوب (٢/٢٦) .

وصفِها حتَّىٰ همَّ أنْ يتزوجَها ، فقيلَ : وإنَّها ما مرضَتْ قطُّ ، فقالَ : « لا حاجةَ لي فيها »[1] .

وذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأمراضَ والأوجاعَ ؛ كالصداعِ وغيرِهِ ، فقالَ رجلٌ : وما الصداعُ ؟ ما أعرفُهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إليكَ عنِّي ، مَنْ أرادَ أنْ ينظرَ إلىٰ رجلٍ مِنْ أهلِ النارِ.. فلينظرْ إلىٰ هـٰذا »[2] ، وهـٰذا لأنَّهُ وردَ في الخبرِ : أنَّ الحمَّىٰ حظُّ كلِّ مؤمنٍ مِنَ النارِ[3] .

وفي حديثِ أنسٍ وعائشةَ رضيَ اللهُ عنهُما : قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ يكونُ معَ الشهداءِ يومَ القيامةِ غيرُهُمْ ؟ فقالَ : « نعمْ ، مَنْ ذكرَ الموتَ في كلِّ يومٍ عشرينَ مرَّةً » ، وفي لفظٍ آخرَ : « الذي يذكرُ ذنوبَهُ فتحزنُهُ »[4] ،

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ١٥٥) .

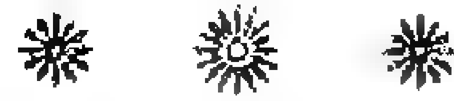
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٦) ، وقد رواه أبو داوود (٣٠٨٩) ، إذ قال الرجل : وما الأسقام ؟ والله ما مرضت قط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قُمْ عنا ، فلست منا » .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١٥٧) ، وعند الترمذي (٢٠٨٨) ، وابن ماجه (٣٤٧٠) أنه صلى الله عليه وسلم قال للذي وعك : « أبشر ، فإن الله يقول : هي ناري أسلطها علىٰ عبدي المؤمن في الدنيا ؛ لتكون حظه من النار في الآخرة » .

(٤) كذا بروايته في « القوت » (٢/ ٢٦) ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٧٦٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها ، ولفظه أنها قالت : يا رسول الله ؛ ليس الشهيد إلا من قتل في سبيل الله ؟ فقال : « يا عائشة ؛ إن شهداء أمتي إذاً لقليل ، من قال في يوم =

ولا شكَّ في أنَّ ذكرَ الموتِ على المريضِ أغلبُ .

فلمَّا أنْ كثرَتْ فوائدُ المرضِ.. رأىٰ جماعةٌ تركَ الحيلةِ في زوالِها ؛ إذْ رأَوا لأنفسِهِمْ مزيداً فيها ، لا مِنْ حيثُ رأَوا التداويَ نقصاناً ، وكيفَ يكونُ نقصاناً وقدْ فعلَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟!



= خمسة وعشرين مرة : اللهم ؛ بارك في الموت وفيما بعد الموت ، ثم مات علىٰ فراشه.. أعطاه الله أجر شهيد » .

بيان الرد على من قال : إن ترك التداوي أفضل بكل حال

فلوْ قالَ قائلٌ : إنَّما فعلَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليسُنَّ لغيرِهِ ، وإلا . . فهوَ حالُ الضعفاءُ ، ودرجةُ الأقوياءِ تُوجبُ التوكلَ بتركِ الدواءِ .

فيُقالُ لهُ : فينبغي أنْ يكونَ مِنْ شرطِ التوكلِ تركُ الحجامةِ والفصدِ عندَ تبيُّغِ الدمِ ، فإنْ قيلَ : إنَّ ذلكَ أيضاً شرطٌ . . فليكنْ مِنْ شرطِهِ أنْ تلدغَهُ العقربُ أوِ الحيةُ فلا ينحِّيَها عنْ نفسِهِ ؛ إذِ الدمُ يلدغُ الباطنَ ، والعقربُ تلدغُ الظاهرَ ، فأيُّ فرقٍ بينَهُما ؟

فإنْ قالَ : وذلكَ أيضاً شرطُ التوكلِ .

فيُقالُ : ينبغي ألا يزيلَ لدغَ العطشِ بالماءِ ولدغَ الجوعِ بالخبزِ ولدغَ البردِ بالجبَّةِ ، وهـٰذا لا قائلَ بهِ ، ولا فرقَ بينَ هـٰذهِ الدرجاتِ ؛ فإنَّ جميعَ ذلكَ أسبابٌ رتَّبَها مسبِّبُ الأسبابِ سبحانَهُ وتعالىٰ وأجرىٰ بها سنَّتَهُ .

ويدلُّ علىٰ أنَّ ذلكَ ليسَ مِنْ شرطِ التوكلِ ما رُويَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ وعنِ الصحابةِ في قصَّةِ الطاعونِ ، فإنَّهُمْ لمَّا قصدوا الشامَ وانتهَوا إلى الجابيةِ[1] . . بلغَهُمُ الخبرُ أنَّ بهِ موتاً ذريعاً ووباءً عظيماً ، فافترقَ الناسُ فرقتينِ ، فقالَ بعضُهُمْ : لا ندخلُ على الوباءِ فنلقيَ بأيدينا إلى التهلكةِ ، وقالَتْ طائفةٌ أخرىٰ : بلْ ندخلُ ونتوكلُ ، ولا نهربُ مِنْ قدرِ اللهِ تعالىٰ ،

---

(١) موضع من أعمال دمشق ، يقع في شمال حوران .

ولا نفرُّ مِنَ الموتِ فنكونَ كمَنْ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ ، فرجعوا إلىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ فسألوهُ عنْ رأيِهِ ، فقالَ : نرجعُ ولا ندخلُ على الوباءِ ، فقالَ لهُ المخالفونَ في رأيِهِ : أنفرُّ مِنْ قدرِ اللهِ تعالى ؟! فقالَ عمرُ : نعمْ ، نفرُّ مِنْ قدرِ اللهِ إلىٰ قدرِ اللهِ ، ثمَّ ضربَ لهُمْ مثلاً وقالَ : أرأيتُمْ لوْ كانَ لأحدِكُمْ غنمٌ ، فنزلَ بها وادياً لهُ شعبتانِ ؛ إحداهُما مخصبةٌ ، والأخرىٰ مجدبةٌ ، أليسَ إنْ رعى المخصبةَ . . رعاها بقدرِ اللهِ تعالىٰ وإنْ رعى المجدبةَ . . رعاها بقدرِ اللهِ تعالى ؟ فقالوا : نعمْ ، ثمَّ طلبَ عبدَ الرحمـٰنِ بنَ عوفٍ ليسألَهُ عنْ رأيِهِ وكانَ غائباً ، فلمَّا أصبحوا . . جاءَ عبدُ الرحمـٰنِ ، فسألَهُ عمرُ عنْ ذلكَ ، فقالَ : عندي فيهِ يا أميرَ المؤمنينَ شيءٌ سمعتُهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ عمرُ : اللهُ أكبرُ ! فقالَ عبدُ الرحمـٰنِ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إذا سمعتُمْ بالوباءِ بأرضٍ . . فلا تقدموا عليهِ ، وإذا وقعَ بأرضٍ وأنتُمْ بها . . فلا تخرجوا فراراً منهُ » ، ففرحَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بذلكَ وحمدَ اللهَ تعالىٰ إذْ وافقَ رأيَهُ ، ورجعَ بالناسِ مِنَ الجابيةِ[١] .

فإذاً ؛ كيفَ اتفقَ الصحابةُ كلُّهُمْ علىٰ تركِ التوكلِ وهوَ مِنْ أعلى المقاماتِ إنْ كانَ أمثالُ هـٰذا مِنْ شروطِ التوكلِ ؟

❊ ❊ ❊

(١) رواه بمرفوعه البخاري (٥٧٢٩) ، ومختصراً مسلم (٢٢١٩) .

فإنْ قلتَ : فلِمَ نهىٰ عنِ الخروجِ مِنَ البلدِ الذي فيهِ الوباءُ وسببُ الوباءِ في الطبِّ الهواءُ ، وأظهرُ طرقِ التداوي الفرارُ مِنَ المضرِّ ، والهواءُ هوَ المضرُّ ، فلِمَ لمْ يرخصْ فيهِ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ لا خلافَ في أنَّ الفرارَ عنِ المضرِّ غيرُ منهيٍّ عنهُ ؛ إذِ الحجامةُ والفصدُ فرارٌ مِنَ المضرِّ وتركُ التوكلِ في أمثالِ هـٰذا مباحٌ ، وهـٰذا لا يدلُّ على المقصودِ ، ولكنَّ الذي ينقدحُ فيهِ ـ والعلمُ عندَ اللهِ تعالىٰ ـ أنَّ الهواءَ لا يضرُّ مِنْ حيثُ يلاقي ظاهرَ البدنِ ، بلْ مِنْ حيثُ دوامُ الاستنشاقِ لهُ ، فإنَّهُ إذا كانَ فيهِ عفونةٌ ، ووصلَ إلى الرئةِ والقلبِ وباطنِ الأحشاءِ . . أثَّرَ فيها بطولِ الاستنشاقِ ، فلا يظهرُ الوباءُ على الظاهرِ إلا بعدَ طولِ التأثيرِ في الباطنِ ، فالخروجُ مِنَ البلدِ لا يخلصُ غالباً مِنَ الأثرِ الذي استحكمَ مِنْ قبلُ ، ولكنَّهُ يتوهَّمُ الخلاصَ ، فيصيرُ هـٰذا مِنْ جنسِ الموهوماتِ ، كالرُّقْي والطيرةِ وغيرِهما ، ولوْ تجرَّدَ هـٰذا المعنىٰ . . لكانَ مناقضاً للتوكلِ ولمْ يكنْ منهيّاً عنهُ ، ولكنْ صارَ منهياً عنهُ ؛ لأنَّهُ انضافَ إليهِ أمرٌ آخرُ ، وهوَ أنَّهُ لوْ رخَّصَ للأصحاءِ في الخروجِ . . لما بقيَ في البلدِ إلا المرضى الذين أقعدَهُمُ الطاعونُ وانكسرَتْ قلوبُهُمْ وفقدوا المتعهِّدينَ ، ولمْ يبقَ في البلدِ مَنْ يسقيهِمُ الماءَ ويطعمُهُمُ الطعامَ ، وهمْ يعجزونَ عنْ مباشرتِهما بأنفسِهِمْ ، فيكونُ ذلكَ سعياً في إهلاكِهِمْ تحقيقاً ، وخلاصُهُمْ منتظرٌ ، كما أنَّ خلاصَ الأصحَّاءِ منتظرٌ ، فلوْ أقاموا . . لمْ تكنِ الإقامةُ قاطعةً بالموتِ ، ولوْ خرجوا . . لمْ يكنِ الخروجُ قاطعاً بالخلاصِ ، وهوَ قاطعٌ في إهلاكِ الباقينَ ،

والمسلمونَ كالبنيانِ يشدُّ بعضُهُ بعضاً ، والمؤمنونَ كالجسدِ الواحدِ ؛ إذا اشتكىٰ منهُ عضوٌ . . تداعىٰ إليهِ سائرُ أعضائِهِ .

فهٰذا هوَ الذي ينقدحُ عندَنا في تعليلِ النهيِ ، وينعكسُ هٰذا فيمَنْ لمْ يقدمْ بعدُ على البلدِ ؛ فإنَّهُ لمْ يؤثِّرِ الهواءُ في باطنِهِمْ ، ولا بأهلِ البلدِ حاجةٌ إليهِمْ .

نعمْ ، لوْ لمْ يبقَ في البلدِ إلا مطعونونَ ، وافتقروا إلى المتعهدينَ ، وقدمَ عليهِمْ قومٌ . . فربَّما كانَ ينقدحُ استحبابُ الدخولِ هٰهنا لأجلِ الإعانةِ ، ولا يُنهىٰ عنِ الدخولِ ؛ لأنَّهُ تعرُّضٌ لضررٍ موهومٍ علىٰ رجاءِ دفعِ ضررٍ عنْ بقيَّةِ المسلمينَ ، ولهٰذا شُبِّهَ الفرارُ مِنَ الطاعونِ في بعضِ الأخبارِ بالفرارِ مِنَ الزحفِ[1] ؛ لأنَّ فيهِ كسراً لقلوبِ بقيَّةِ المسلمينَ ، وسعياً في إهلاكِهِمْ .

فهٰذهِ أمورٌ دقيقةٌ ، فمَنْ لا يلاحظُها ، وينظرُ إلىٰ ظواهرِ الأخبارِ والآثارِ . . يتناقضُ عندَهُ أكثرُ ما يسمعُهُ ، وغلطُ العبَّادِ والزهَّادِ في مثلِ هٰذا يكثرُ ، وإنَّما شرفُ العلمِ وفضيلتُهُ لأجلِ ذلكَ .

---

(١) فقد روىٰ أحمد في « المسند » (٦/ ٨٢) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « الفار من الطاعون كالفار من الزحف » .

فإنْ قلتَ : ففي تركِ التداوي فضلٌ كما ذكرتَ ، فلِمَ لمْ يتركْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ التداويَ لينالَ الفضْلَ ؟

فنقولُ : فيهِ فضْلٌ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ كثرَتْ ذنوبُهُ ليكفِّرَها ، أوْ خافَ علىٰ نفسِهِ طغيانَ العافيةِ وغلبةَ الشهواتِ ، أوِ احتاجَ إلىٰ ما يذكِّرُهُ الموتَ لغلبةِ الغفلةِ ، أوِ احتاجَ إلىٰ نيلِ ثوابِ الصابرينَ لقصورِهِ عنْ مقاماتِ الراضينَ والمتوكلينَ ، أوْ قصرَتْ بصيرتُهُ عنِ الاطلاعِ علىٰ ما أودعَ اللهُ تعالى في الأدويةِ منْ لطائفِ المنافعِ حتَّىٰ صارَ في حقِّهِ موهوماً كالرَّقْيِ ، أوْ كانَ شغلُهُ بحالِهِ يمنعُهُ عنِ التداوي ، وكانَ التداوي يشغلُهُ عنْ حالِهِ لضعفِهِ عنِ الجمعِ ، فإلىٰ هـٰذهِ المعاني رجعَتِ الصوارفُ في تركِ التداوي ، وكلُّ ذلكَ كمالاتٌ بالإضافةِ إلىٰ بعضِ الخلقِ ، ونقصانٌ بالإضافةِ إلىٰ درجةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، بلْ كانَ مقامُهُ أعلىٰ مِنْ هـٰذهِ المقاماتِ كلِّها ؛ إذْ كانَ حالُهُ يقتضي أنْ تكونَ مشاهدتُهُ علىٰ وتيرةٍ واحدةٍ عندَ وجودِ الأسبابِ وفقدِها ، فإنَّهُ لمْ يكنْ لهُ نظرٌ في الأحوالِ إلا إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ ، ومَنْ كانَ هـٰذا مقامَهُ . . لمْ تضرَّهُ الأسبابُ ، كما ذكرنا أنَّ الرغبةَ في المالِ نقصٌ ، والرغبةَ عنِ المالِ كراهةً لهُ وإنْ كانتْ كمالاً فهوَ أيضاً نقصٌ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ يستوي عندَهُ وجودُ المالِ وعدمُهُ ، فاستواءُ الحجرِ والذهبِ أكملُ مِنَ الهربِ مِنَ الذهبِ دونَ الحجرِ ، وكانَ حالُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ استواءَ المدرِ والذهبِ عندَهُ ، وكانَ لا يمسكُهُ لتعليمِ الخلقِ مقامَ الزهدِ ، فإنَّهُ منتهىٰ قوَّتِهِمْ ، لا لخوفِهِ علىٰ نفسِهِ مِنْ إمساكِهِ ، فإنَّهُ كانَ أعلىٰ رتبةً مِنْ أنْ تغرَّهُ

الدنيا ، وقدْ عُرِضَتْ عليهِ خزائنُ الأرضِ فأبىٰ أنْ يقبلَها[1] ، فكذلكَ يستوي عندَهُ مباشرةُ الأسبابِ وتركُها لمثلِ هـٰذهِ المشاهدةِ .

وإنَّما لمْ يتركِ استعمالَ الدواءِ جرياً علىٰ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ ، وترخيصاً لأمَّتِهِ فيما تمسُّ إليهِ حاجتُهُمْ ، معَ أنَّهُ لا ضررَ فيهِ ، بخلافِ ادخارِ الأموالِ ، فإنَّ ذلكَ يعظمُ ضررُهُ .

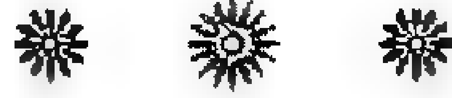
نعمْ ، التداوي لا يضرُّ إلا مِنْ حيثُ رؤيةُ الدواءِ نافعاً دونَ خالقِ الدواءِ ، وهـٰذا قدْ نُهِيَ عنهُ ، ومِنْ حيثُ إنَّهُ قدْ يُقصدُ بهِ الصحةُ ليُستعانَ بها على المعاصي ، وذلكَ منهيٌّ عنهُ ، والمؤمنُ في غالبِ الأمرِ لا يقصدُ ذلكَ ، وأحدٌ مِنَ المؤمنينَ لا يرى الدواءَ نافعاً بنفسِهِ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ جعلَهُ اللهُ تعالىٰ سبباً للنفعِ ، كما لا يرى الماءَ مروياً ولا الخبزَ مشبعاً ، فحكمُ التداوي في مقصودِهِ كحكمِ الكسبِ ؛ فإنَّهُ إنِ اكتسبَ للاستعانةِ على الطاعةِ أوْ على المعصيةِ . . كانَ لهُ حكمُها ، وإنِ اكتسبَ للتنعُّمِ بالمباحِ . . فلهُ حكمُهُ .

فقدْ ظهرَ بالمعاني التي أوردناها أنَّ تركَ التداوي قدْ يكونُ أفضلَ في بعضِ الأحوالِ ، وأنَّ التداويَ قدْ يكونُ أفضلَ في بعضٍ ، وأنَّ ذلكَ يختلفُ

---

(١) فقد روى الترمذي (٢٣٤٧) عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً : « عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا ربّ ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً . . . » .

باختلافِ الأحوالِ والأشخاصِ والنيّاتِ ، وأنَّ واحداً مِنَ الفعلِ والتركِ ليسَ شرطاً في التوكلِ ، إلا تركَ الموهوماتِ ؛ كالكيِّ والرَّقْيِ ، فإنَّ ذلكَ تعمُّقٌ في التدبيراتِ لا يليقُ بالمتوكلينَ .



بيان أحوال المتوكل في إظهار المرض وكتمانه

اعلمْ : أنَّ كتمانَ المرضِ وإخفاءَ الفقرِ وأنواعِ البلاءِ مِنْ كنوزِ البرِّ ، وهوَ مِنْ أعلى المقاماتِ ؛ لأنَّ الرضا بحكمِ اللهِ تعالىٰ والصبرَ علىٰ بلائِهِ معاملةٌ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، فكتمانُهُ أسلمُ عنِ الآفاتِ ، ومعَ هٰذا فالإظهارُ لا بأسَ بهِ إذا صحَّتْ فيهِ النيَّةُ والقصدُ ، ومقاصدُ الإظهارِ ثلاثةٌ :

الأوَّلُ : أنْ يكونَ غرضُهُ التداويَ ، فيحتاجُ إلىٰ ذكرِهِ للطبيبِ ، فيذكرُهُ لا في معرضِ الشكايةِ ، بلْ في معرضِ الحكايةِ لما ظهرَ عليهِ مِنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ ، فقدْ كانَ بشرٌ يصفُ لعبدِ الرحمٰنِ المتطبِّبِ أوجاعَهُ[1] ، وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ يخبرُ بأمراضٍ يجدُها ويقولُ : (إنَّما أصفُ قدرةَ اللهِ تعالىٰ فيَّ)[1] .

* * *

الثاني : أنْ يصفَ لغيرِ الطبيبِ وكانَ ممَّنْ يُقتدىٰ بهِ ، وكانَ مكيناً في المعرفةِ ، فأرادَ مِنْ ذِكْرِهِ أنْ يُتعلَّمَ منهُ حسنُ الصبرِ في المرضِ ، بلْ حسنُ الشكرِ بأنْ يظهرَ أنَّهُ يرى المرضَ نعمةً فيُشكرُ عليها ، فيتحدَّثُ بهِ كما يتحدَّثُ بالنعمِ ، وقالَ الحسنُ البصريُّ : (إذا حمدَ المريضُ اللهَ تعالىٰ وشكرَهُ ، ثمَّ ذكرَ أوجاعَهُ . . لمْ يكنْ ذلكَ شكوىٰ)[1] .

* * *

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٨) .

الثالثُ : أنْ يظهرَ بذلكَ عجزَهُ وافتقارَهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، وذلكَ يحسنُ ممَّنْ تليقُ بهِ القوَّةُ والشجاعةُ ويُستبعدُ منهُ العجزُ ، كما رُوِيَ أنَّهُ قيلَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ في مرضِهِ : كيفَ أنتَ ؟ قالَ : بشرٍّ ، فنظرَ بعضُهُمْ إلىٰ بعضٍ كأنَّهُمْ كرهوا ذلكَ ، وظنُّوا أنَّهُ شكايةٌ ، فقالَ : أتجلَّدُ على اللهِ ؟!(١) فأحبَّ أنْ يظهرَ عجزَهُ وافتقارَهُ معَ ما عُلِمَ بهِ مِنَ القوَّةِ والصرامةِ ، وتأدَّبَ فيهِ بتأديبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إيَّاهُ ؛ حيثُ مرضَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ فسمعَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يقولُ : اللهُمَّ ؛ صبِّرْني على البلاءِ ، فقالَ لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ سألتَ اللهَ تعالى البلاءَ ، فسلِ اللهَ العافيةَ »(٢) .

* * *

فبهٰذهِ النيَّاتِ يُرخَّصُ في ذكرِ المرضِ ، وإنَّما يُشترطُ ذلكَ ؛ لأنَّ ذكرَهُ شكايةٌ ، والشكوىٰ مِنَ اللهِ تعالىٰ حرامٌ ؛ كما ذكرناهُ في تحريمِ السؤالِ على الفقراءِ إلا بضرورةٍ .

ويصيرُ الإظهارُ شكايةً بقرينةِ السخطِ وإظهارِ الكراهةِ لفعلِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ خلا عنْ قرينةِ التسخُّطِ وعنِ النيَّاتِ التي ذكرناها.. فلا يُوصفُ بالتحريمِ ، ولكنْ يُحكمُ فيهِ بأنَّ الأولىٰ تركُهُ ؛ لأنَّهُ ربَّما يوهمُ الشكايةَ ، ولأنَّهُ ربَّما يكونُ فيهِ تصنُّعٌ ومزيدٌ في الوصفِ على الموجودِ مِنَ العلَّةِ ، ومَنْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٨) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٩) ، ورواه الترمذي (٣٥٢٧) ولم يذكر أن القائل هو علي رضي الله عنه ، وعنه (٣٥٦٤) .

تركَ التداويَ توكلاً . . فلا وجهَ في حقِّهِ للإظهارِ ؛ لأنَّ الاستراحةَ إلى الدواءِ أحسنُ مِنَ الاستراحةِ إلى الإفشاءِ .

وقدْ قالَ بعضُهُمْ : (مَنْ بثَّ . . لمْ يصبرْ)(١) .

وقيلَ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ : لا شكوىٰ فيهِ(٢) .

وقيلَ ليعقوبَ عليهِ السلامُ : ما الذي أذهبَ بصرَكَ ؟ قالَ : مُرُّ الزمانِ وطولُ الأحزانِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : تفرَّغتَ لشكوايَ إلىٰ عبادي ؟! فقالَ : يا ربِّ ؛ أتوبُ إليكَ(٣) .

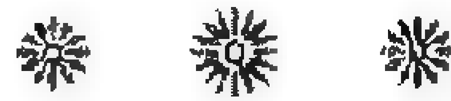
ورُوِيَ عنْ طاووسٍ ومجاهدٍ أنَّهُما قالا : يُكتبُ على المريضِ أنينُهُ في مرضِهِ ، وكانوا يكرهونَ أنينَ المريضِ ؛ لأنَّهُ إظهارُ معنىً يقتضي الشكوىٰ ، حتَّىٰ قيلَ : ما أصابَ إبليسُ لعنَهُ اللهُ مِنَ أيوبَ عليهِ السلامُ إلا أنينَهُ في مرضِهِ ، فجُعِلَ الأنينُ حظَّهُ منهُ(٤) .

وفي الخبرِ : « إذا مرضَ العبدُ . . أوحى اللهُ تعالىٰ إلى الملكينِ : انظرا ما يقولُ لعوَّادِهِ ؛ فإنْ حمدَ اللهَ وأثنىٰ بخيرٍ . . دعوا لهُ ، وإنْ شكا وذكرَ شرّاً . . قالا : كذلكَ تكونُ »(٥) .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٣/ ٦٢) عن مسلم بن يسار مرفوعاً .
(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٢/ ٢٠٦) عن حبان بن أبي جبلة مرفوعاً مع الخبر السابق.
(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٨) ، ورواه هناد في « الزهد » (٧٨٣) .
(٤) كذا في «القوت» (٢/ ٢٨)، وعن مجاهد رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٠٩٣٥).
(٥) قوت القلوب (٢/ ٢٨) ، ورواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٤٠) عن عطاء بن يسار =

وإنَّما كرهَ بعضُ العبَّادِ العيادةَ خشيةَ الشكايةِ وخوفَ الزيادةِ في الكلامِ ، فكانَ بعضُهُمْ إذا مرضَ . . أغلقَ بابَهُ ، فلمْ يدخلْ عليهِ أحدٌ حتَّىٰ يبرأَ فيخرجَ إليهِمْ ، منهُمْ فضيلٌ ووهيبٌ وبشرٌ ، وكانَ فضيلٌ يقولُ : (أشتهي أنْ أمرضَ بلا عوَّادٍ)[1] ، وقالَ : (لا أكرهُ العلَّةَ إلا لأجلِ العوَّادِ)[2] .



تمّ كتاب التّوحيد والتّوكّل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدّين

وصلّى الله على خيرته من خلقه محمّد النّبيّ وآله الطّاهرين وسلّم تسليماً

يتلوه كتاب المحبّة والشّوق والأنس والرّضا

= مرسلاً ، وأسنده موصولاً ابن عبد البر في « التمهيد » (٥/ ٤٧) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، كلهم رواه بنحوه .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٩٦) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٨) بتمام السياق .

كتاب
المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب المحبّة والشّوق والأنس والرّضا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي نزَّهَ قلوبَ أوليائِهِ عنِ الالتفاتِ إلىٰ متاعِ الدنيا وخضرتِهِ ، وصفَّىٰ أسرارَهُمْ عنْ ملاحظةِ غيرِ حضرتِهِ ، ثمَّ استخلصَها للعكوفِ علىٰ بساطِ عزَّتِهِ ، ثمَّ تجلَّىٰ لها بأسمائِهِ وصفاتِهِ حتَّىٰ أشرقَتْ بأنوارِ معرفتِهِ ، ثمَّ كشفَ لها عنْ سُبُحاتِ وجهِهِ حتَّى احترقَتْ بنارِ محبَّتِهِ ، ثمَّ احتجبَ عنها بكنهِ جلالِهِ حتَّىٰ تاهَتْ في بيداءِ كبريائِهِ وعظمتِهِ ، فكلَّما اهتزَّتْ لملاحظةِ كنهِ الجلالِ . . غشيَها مِنَ الدَّهَشِ ما غبَّرَ في وجهِ العقلِ وبصيرتِهِ ، وكلَّما همَّتْ بالانصرافِ آيسةً . . نُوديَتْ مِنْ سُرادقاتِ الجمالِ : صبراً أيُّها الآيسُ عنْ نيلِ الحقِّ بجهلِهِ وعجلتِهِ ، فبقيَتْ بينَ الردِّ والقبولِ والصدِّ والوصولِ غرقَىٰ في بحرِ معرفتِهِ ، ومحترقةً بنارِ محبَّتِهِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ خاتمِ الأنبياءِ بكمالِ نبوَّتِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ سادةِ الخلقِ وأئمَّتِهِ ، وقادةِ الحقِّ وأزمَّتِهِ ، وسلَّمَ كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ المحبَّةَ للهِ تعالىٰ هيَ الغايةُ القصوىٰ مِنَ المقاماتِ ، والذروةُ العليا مِنَ الدرجاتِ ، فما بعدَ إدراكِ المحبَّةِ مقامٌ إلا وهوَ ثمرةٌ مِنْ ثمارِها ، وتابعٌ مِنْ توابعِها ؛ كالشوقِ ، والأنسِ ، والرضا ، وأخواتِها ، ولا قبلَ المحبَّةِ

مقامٌ إلا وهوَ مقدِّمةٌ مِنْ مقدماتِها ؛ كالتوبةِ ، والصبرِ ، والزهدِ ، وغيرِها .

وسائرُ المقاماتِ إنْ عزَّ وجودُها.. فلمْ تخلُ القلوبُ عنِ الإيمانِ بإمكانِها ، وأمَّا محبةُ اللهِ تعالىٰ.. فقدْ عزَّ الإيمانُ بها ، حتَّىٰ أنكرَ بعضُ العلماءِ إمكانَها ، وقالَ : (لا معنىٰ لها إلا المواظبةُ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا حقيقةُ المحبَّةِ.. فمحالٌ إلا معَ الجنسِ والمثالِ) ، ولمَّا أنكروا المحبةَ.. أنكروا الأُنسَ ، والشوقَ ، ولذَّةَ المناجاةِ ، وسائرَ لوازمِ الحبِّ وتوابعِهِ ، فلا بدَّ مِنْ كشفِ الغطاءِ عنْ هـٰذا الأمرِ .

ونحنُ نذكرُ في هـٰذا الكتابِ بيانَ شواهدِ الشرعِ في المحبَّةِ ، ثمَّ بيانَ حقيقتِها وأسبابِها ، ثمَّ بيانَ أنْ لا مستحقَّ للمحبَّةِ إلا اللهُ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ أنَّ أعظمَ اللذاتِ لذةُ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ سببِ زيادةِ لذَّةِ النظرِ في الآخرةِ على المعرفةِ في الدنيا ، ثمَّ بيانَ الأسبابِ المقوِّيةِ لحبِّ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ السببِ في تفاوتِ الناسِ في الحبِّ ، ثمَّ بيانَ السببِ في قصورِ الأفهامِ عنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ معنى الشوقِ ، ثمَّ بيانَ محبَّةِ اللهِ تعالىٰ للعبدِ ، ثمَّ القولَ في علاماتِ محبَّةِ العبدِ للهِ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ معنى الأنسِ باللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ معنى الانبساطِ في الأنسِ ، ثمَّ القولَ في معنى الرضا وبيانَ فضيلتِهِ ، ثمَّ بيانَ حقيقتِهِ ، ثمَّ بيانَ أنَّ الدعاءَ وكراهةَ المعاصي لاتناقضُهُ ، وكذا الفرارُ مِنَ المعاصي ، ثمَّ بيانَ حكاياتٍ وكلماتٍ للمحبِّينَ متفرقةٍ .

فهـٰذهِ جميعُ بياناتِ هـٰذا الكتابِ .



بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى

اعلمْ : أنَّ الأمَّةَ مجمعةٌ علىٰ أنَّ الحبَّ للهِ تعالىٰ ولرسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فرضٌ ، وكيفَ يُفرضُ ما لا وجودَ لهُ ؟![1] ، وكيفَ يُفسَّرُ الحبُّ بالطاعةِ والطاعةُ تبعُ الحبِّ وثمرتُهُ ؟! فلا بدَّ وأنْ يتقدَّمَ الحبُّ ، ثمَّ بعدَ ذلكَ يطيعُ مَنْ أحبَّ .

ويدلُّ علىٰ إثباتِ الحبِّ للهِ تعالىٰ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ، وهوَ دليلٌ علىٰ إثباتِ الحبِّ ، وإثباتِ التفاوتِ فيهِ .

وقدْ جعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الحبَّ للهِ مِنْ شرطِ الإيمانِ في أخبارٍ كثيرةٍ ؛ إذْ قالَ أبو رزينٍ العُقيليُّ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الإيمانُ ؟ قالَ : « أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليكَ ممَّا سواهما »[2] .

وفي حديثٍ آخرَ : « لا يؤمنُ أحدُكُمْ حتَّىٰ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ ممَّا سواهُما »[3] .

---

(١) هٰذا إنكار علىٰ من أنكر المحبة أصلاً . « إتحاف » (٩/٥٤٦) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/١١) ، وأبو رزين هو لقيط بن عامر رضي الله عنه ، وسياق المصنف هنا عند صاحب « القوت » (٢/٥٠) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/٥٠) ، وبلفظه رواه أحمد في « المسند » (٣/٢٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه ، وعند البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) من حديثه أيضاً : =

وفي حديثٍ آخرَ : « لا يؤمنُ العبدُ حتَّىٰ أكونَ أحبَّ إليهِ مِنْ أهلِهِ ومالِهِ والناسِ أجمعينَ » ، وفي روايةٍ : « ومِنْ نفسِهِ »[1] .

كيفَ وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . . ﴾ الآيةَ ، وإنَّما أجرىٰ ذلكَ في معرضِ التهديدِ والإنكارِ ؟!

وقدْ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالمحبَّةِ فقالَ : « أحبُّوا اللهَ لما يغذوكُمْ بهِ مِنْ نعمِهِ ، وأحبُّوني لحبِّ اللهِ »[2] .

ويُروىٰ أنَّ رجلاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي أحبُّكَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « استعدَّ للفقرِ » ، فقالَ : إنِّي أحبُّ اللهَ تعالىٰ ، فقالَ : « استعدَّ للبلاءِ »[3] .

= « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . . . » الحديث .

(1) رواه البخاري (١٥) ، ومسلم (٤٤) واللفظ له ، والرواية الثانية أوردها صاحب « القوت » (٢/ ٥٠) بلفظ : « ومن نفسك » ، وهي عند البخاري (٦٦٣٢) ، وسيأتي الخبر تاماً .

(2) كذا في « القوت » (٢/ ٥٠) ، وقد رواه الترمذي (٣٧٨٩) وتمامه : « . . . وأحبوني بحب الله ، وأحبوا أهل بيتي بحبّي » .

(3) كذا في « القوت » (٢/ ٥٠) وقال : (والفرق بينهما أن البلاء من أخلاق المبلي وهو الله تعالى المبتلي ، فلما ذكر محبته . . أخبره بالبلاء ليصبر علىٰ أخلاقه ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ ، فدل علىٰ أحكامه وبلائه ، والفقر من أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ذكر محبته . . دلَّه على اتباع أوصافه ؛ ليقتفي آثاره) ، وقد =

وعنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : نظرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ مصعبِ بنِ عميرٍ مقبلاً وعليهِ إهابُ كبشٍ قدْ تنطقَ بهِ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « انظروا إلىٰ هـٰذا الرجلِ الذي قدْ نوَّرَ اللهُ قلبَهُ ، لقدْ رأيتُهُ بينَ أبوينِ يغذوانِهِ بأطيبِ الطعامِ والشرابِ ، فدعاهُ حبُّ اللهِ ورسولِهِ إلىٰ ما ترونَ »[1] .

وفي الخبرِ المشهورِ : أنَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ قالَ لملكِ الموتِ إذْ جاءَهُ لقبضِ روحِهِ : هلْ رأيتَ خليلاً يميتُ خليلَهُ ؟! فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : هلْ رأيتَ محبّاً يكرهُ لقاءَ حبيبِهِ ؟! فقالَ : يا ملكَ الموتِ الآنَ فاقبضْ[2] .

وهـٰذا لا يجدُهُ إلا عبدٌ يحبُّ اللهَ بكلِّ قلبِهِ ، فإذا علمَ أنَّ الموتَ سببُ اللقاءِ . . انزعجَ قلبُهُ إليهِ ، ولمْ يكنْ لهُ محبوبٌ غيرَهُ حتَّىٰ يلتفتَ إليهِ .

وقدْ قالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في دعائِهِ : « اللهمَّ ؛ ارزقْني حبَّكَ

= روى الترمذي (٢٣٥٠) أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إني لأحبك (ثلاث مرات) ، فقال : « إن كنت تحبني . . فأعدَّ للفقر تجفافاً ؛ فإن الفقر أسرع إلىٰ من يحبني من السيل إلىٰ منتهاه » ، وروى البيهقي في « الشعب » (١٣٩٧) أن رجلاً قال له صلى الله عليه وسلم : إني أحبك ، قال : « فاستعد للفاقة » .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/١٠٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٧٧٩) .

(٢) رواه الخلدي في « فوائده » (ص٣٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤٤٨) عن محمد بن المنكدر ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/١٠) عن دكين الفزاري .

وحبَّ مَنْ أحبَّكَ وحبَّ ما يقرِّبُني إلىٰ حبِّكَ ، واجعلْ حبَّكَ إليَّ مِنَ الماءِ البارِدِ »(١) .

وجاءَ أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ متى الساعةُ ؟ فقالَ : « ما أعددتَ لها ؟ » فقالَ : ما أعددتُ لها كثيرَ صلاةٍ ولا صيامٍ ، إلا أنِّي أحبُّ اللهَ ورسولَهُ ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المرءُ معَ مَنْ أحبَّ » ، قالَ أنسٌ : فما رأيتُ المسلمينَ فرحوا بشيءٍ بعدَ الإسلامِ فرحَهُمْ بذلكَ(٢) .

وقالَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ ذاقَ مِنْ خالصِ محبَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . شغلَهُ ذلكَ عنْ طلبِ الدنيا ، وأوحشَهُ عنْ جميعِ البشرِ)(٣) .

وقالَ الحسنُ : (مَنْ عرفَ ربَّهُ . . أحبَّهُ ، ومَنْ عرفَ الدنيا . . زهدَ فيها ، والمؤمنُ لا يلهو حتَّىٰ يغفُلَ ، فإذا تفكَّرَ . . حزنَ)(٤) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (إنَّ مِنْ خلقِ اللهِ خلقاً ما يشغلُهُمُ الجنانُ وما فيها مِنَ النعيمِ عنهُ ، فكيفَ يشتغلونَ عنهُ بالدنيا ؟!)(٥) .

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٩٠) .
(٢) رواه البخاري (٣٦٨٨) ، ومسلم (٢٦٣٩) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الهم والحزن » (٩٣) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٠٩) عن بديل بن ميسرة .
(٥) رواه عبد الجبار الخولاني في « تاريخ داريا » (ص١١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٨) .

ويُروىٰ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ مرَّ بثلاثةِ نفرٍ قدْ نَحَلَتْ أبدانُهُمْ ، وتغيَّرَتْ ألوانُهُمْ ، فقالَ لهُمْ : ما الذي بلغَ بكُمْ ما أرى ؟ فقالوا : الخوفُ مِنَ النارِ ، فقالَ : حقٌّ على اللهِ أنْ يؤمِّنَ الخائفَ ، ثمَّ جاوزَهُمْ إلىٰ ثلاثةٍ آخرينَ ، فإذا هُمْ أشدُّ نُحولاً وتغيُّراً ، فقالَ : ما الذي بلغَ بكُمْ ما أرى ؟ قالوا : الشوقُ إلى الجنةِ ، فقالَ : حقٌّ على اللهِ أنْ يعطيَكُمْ ما ترجونَ ، ثمَّ جاوزَهُمْ إلىٰ ثلاثةٍ آخرينَ ، فإذا هُمْ أشدُّ نحولاً وتغيُّراً ، كأنَّ علىٰ وجوهِهِمُ المرائيَ مِنَ النورِ ، فقالَ : ما الذي بلغَ بكُمْ ما أرى ؟ قالوا : نحبُّ اللهَ عزَّ وجلَّ ، فقالَ : أنتُمُ المقرَّبونَ ، أنتُمُ المقرَّبونَ[1] .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : مررتُ برجلٍ نائمٍ في الثلجِ ، فقلتُ : أما تجدُ البردَ ؟ فقالَ : مَنْ شغلَهُ حبُّ اللهِ . . لمْ يجدِ البردَ[2] .

وعنْ سريٍّ السقطيِّ قالَ : تُدعى الأممُ يومَ القيامةِ بأنبيائِها عليهِمُ السلامُ ، فيُقالُ : يا أمَّةَ موسىٰ ، ويا أمَّةَ عيسىٰ ، ويا أمَّةَ محمدٍ ، غيرَ المحبينَ للهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُمْ يُنادونَ : يا أولياءَ اللهِ ؛ هلمُّوا إلى اللهِ سبحانَهُ ، فتكادُ قلوبُهُمْ تنخلعُ فرحاً[3] .

وقالَ هرمُ بنُ حيانَ : (المؤمنُ إذا عرفَ ربَّهُ عزَّ وجلَّ . . أحبَّهُ ، وإذا

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٨) .
(٢) وفي (أ) وحدها : (قائم) بدل (نائم) ، وقريب من هـٰذا الخبر ما رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص١٩٦) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٩) .

أحبَّهُ . . أقبلَ إليهِ ، وإذا وجدَ حلاوةَ الإقبالِ إليهِ . . لمْ ينظرْ إلى الدنيا بعينِ الشهوةِ ، ولمْ ينظرْ إلى الآخرةِ بعينِ الفترةِ ، وهي تحسرُهُ في الدنيا ، وتَرَوُّحُهُ في الآخرةِ)(١) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (عفوُهُ يستغرقُ الذنوبَ فكيفَ رضوانُهُ ؟! ورضوانُهُ يستغرقُ الآمالَ ، فكيفَ حبُّهُ ؟! وحبُّهُ يدهشُ العقولَ ، فكيفَ وُدُّهُ ؟! وودُّهُ ينسي ما دونَهُ ، فكيفَ لطفُهُ ؟!)(٢) .

وفي بعضِ الكتبِ : (عبدي ؛ أنا ـ وحقِّكَ ـ لكَ محبٌّ ، فبحقِّي عليك كُنْ لي محبّاً)(٣) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (مثقالُ خردلةٍ مِنَ الحبِّ أحبُّ إليَّ مِنْ عبادةِ سبعينَ سنةً بلا حبٍّ)(٤) .

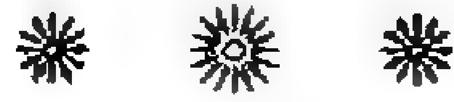
وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (إلـٰهي ؛ إنِّي مقيمٌ بفِنائِكَ ، مشغولٌ بثنائِكَ ، صغيراً أخذتَني إليكَ ، وسربلتَني بمعرفتِكَ ، وأمكنتَني مِنْ لطفِكَ ، ونقلتَني في الأحوالِ ، وقلبتَني في الأعمالِ ، ستراً وتوبةً ، وزهداً وشوقاً ، ورضاً وحبّاً ، تسقيني مِنْ حياضِكَ ، وتهملُني في رياضِكَ ، ملازماً لأمرِكَ ،

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠٢) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠٢) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٩) ، والقشيري في « الرسالة القشيرية » (ص٥٢٦) .
(٤) الرسالة القشيرية (ص٥٢٧) .

ومشغوفاً بقولِكَ ، ولما طرَّ شاربي ، ولاحَ طائلي[1] . . فكيفَ أنصرفُ اليومَ عنكَ كبيراً ، وقدْ اعتدتُ هـٰذا منكَ صغيراً ؟! فلي ما بقيتُ حولكَ دندنةٌ ، وبالضراعةِ إليكَ همهمةٌ ؛ لأنِّي محبٌّ ، وكلُّ محبٍّ بحبيبِهِ مشغوفٌ ، وعنْ غيرِ حبيبِهِ مصروفٌ) .

وقدْ وردَ في حبِّ اللهِ تعالىٰ مِنَ الأخبارِ والآثارِ ما لا يدخلُ في حصرِ حاصرٍ ، وذلكَ أمرٌ ظاهرٌ ، وإنَّما الغموضُ في تحقيقِ معناهُ ، فلنشتغلْ بهِ .



(١) في (ق) : (ولاح طائري) بدل (ولاح طائلي) .

بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلمْ : أنَّ المطلبَ مِنْ هـٰذا الفصلِ لا ينكشفُ إلا بمعرفةِ حقيقةِ المحبَّةِ في نفسِها ، ثمَّ معرفةِ شروطِها وأسبابِها ، ثمَّ النظرِ بعدَ ذلكَ في تحقيقِ معناها في حقِّ اللهِ تعالىٰ .

فأوَّلُ ما ينبغي أنْ يُتحقَّقَ : أنَّهُ لا تُتصوَّرُ محبةٌ إلا بعدَ معرفةٍ وإدراكٍ ؛ إذْ لا يحبُّ الإنسانُ ما لا يعرفُهُ ، ولذلكَ لمْ يُتصوَّرْ أنْ يتصفَ بالحبِّ جمادٌ ، بلْ هوَ مِنْ خاصيَّةِ الحيِّ المدرِكِ .

ثمَّ المدركاتُ في أنفسِها تنقسمُ إلىٰ ما يوافقُ طبعَ المدرِكِ ويلائمُهُ ويلذُّهُ ، وإلىٰ ما ينافيهِ وينافرُهُ ويؤلمُهُ ، وإلىٰ ما لا يؤثِّرُ فيهِ بإيلامٍ وإلذاذٍ ، فكلُّ ما في إدراكِهِ لذةٌ وراحةٌ . . فهوَ محبوبٌ عندَ المدرِكِ ، وما في إدراكِهِ ألمٌ . . فهوَ مبغوضٌ عندَ المدرِكِ ، وما يخلو عنِ استعقابِ ألمٍ ولذَّةٍ فلا يوصفُ بكونِهِ محبوباً ولا مكروهاً .

فإذاً ؛ كلُّ لذيذٍ محبوبٌ عندَ الملتذِّ بهِ ، ومعنىٰ كونِهِ محبوباً : أنَّ في الطبعِ ميلاً إليهِ ، ومعنىٰ كونِهِ مبغوضاً : أنَّ في الطبعِ نفرةً عنهُ ، فالحبُّ : عبارةٌ عنْ ميلِ الطبعِ إلى الشيءِ المُلذِّ ، فإنْ تأكَّدَ ذلكَ الميلُ وقويَ سُمِّيَ عشقاً ، والبغضُ : عبارةٌ عنْ نفرةِ الطبعِ عنِ المؤلمِ المتعبِ ، فإذا قويَ . . سُمِّيَ مقتاً ، فهـٰذا أصلٌ في حقيقةِ معنى الحبِّ لا بدَّ مِنْ معرفتِهِ .

* * *

الأصلُ الثاني : أنَّ الحبَّ لمَّا كانَ تابعاً للإدراكِ والمعرفةِ . . انقسمَ ـ لا محالةَ ـ بحسبِ انقسامِ المدركاتِ والحواسِّ ، فلكلِّ حاسَّةٍ إدراكٌ لنوعٍ مِنَ المدركاتِ ، ولكلٍّ واحدٍ منها لذةٌ في بعضِ المدركاتِ ، وللطبعِ بسببِ تلكَ اللذةِ ميلٌ إليها ، فكانَتْ محبوباتٍ عندَ الطبعِ السليمِ ، فلذةُ **العينِ** في الإبصارِ ، وإدراكِ المبصراتِ الجميلةِ ، والصورِ المليحةِ الحسنةِ المستلذَّةِ . ولذةُ **الأذنِ** في النغماتِ الطيبةِ الموزونةِ ، ولذةُ **الشمِّ** في الروائحِ الطيبةِ ، ولذةُ **الذوقِ** في الطعومِ ، ولذةُ **اللمسِ** في اللينِ والنعومةِ .

ولمَّا كانَتْ هـٰذهِ المدركاتُ بالحواسِّ ملذَّةً . . كانَتْ محبوبةً ؛ أيْ : كانَ للطبعِ السليمِ ميلٌ إليها ، حتَّىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حُبِّبَ إليَّ مِنْ دنياكمْ ثلاثٌ : الطيبُ والنساءُ ، وجُعلَ قرةُ عيني في الصلاةِ »[1] ، فسمَّى الطيبَ محبوباً ، ومعلومٌ أنَّهُ لا حظَّ للعينِ والسمعِ فيهِ ، بلْ للشمِّ فقطْ ، وسمَّى النساءَ محبوباتٍ ، ولا حظَّ فيهنَّ إلا للبصرِ واللمسِ دونَ الشمِّ والذوقِ والسمعِ ، وسمَّى الصلاةَ قرَّةَ عينٍ ، وجعلَها أبلغَ المحبوباتِ ، ومعلومٌ أنَّهُ ليسَ تحظىٰ بها الحواسُّ الخمسُ ، بلْ حسٌّ سادسٌ مَظِنَّتُهُ

---

(١) رواه النسائي (٧/ ٦١) ، وأحمد في « المسند » (٣/ ١٢٨) دون زيادة كلمة (ثلاث) ، والمصنف تبع في ذكرها صاحب « القوت » (٢/ ٢٤٩) ، وقد نقل الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/ ٣١١) نقولاً عن الحفاظ تفيد خطأ زيادتها رواية ومعنىً ؛ إذ الصلاة ليست من الدنيا إلا علىٰ تأول شديد ، وإنما جاء الحديث بلفظ : « حُبِّبَ » مبنياً للمجهول دلالة علىٰ أن ذلك لم يكن من جبلته وطبعه صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان مجبوراً علىٰ ذلك الحب رحمةً للعباد ورفقاً بهم ، كما أفاده الشارح نقلاً عن الطيبي .

القلبُ ، لا يدركُهُ إلا مَنْ كانَ لهُ قلبٌ .

ولذاتُ الحواسِّ الخمسِ تشاركُ فيها البهائمُ الإنسانَ ، فإنْ كانَ الحبُّ مقصوراً علىٰ مدركاتِ الحواسِّ الخمسِ ، حتَّىٰ يُقالَ : إنَّ اللهَ تعالىٰ لا يُدركُ بالحواسِّ ، ولا يُتمثَّلُ في الخيالِ ؛ فلا يُحبُّ . . فإذاً قد بطلَتْ خاصيَّةُ الإنسانِ ، وما تميَّزَ بهِ مِنَ الحسِّ السادسِ الذي يُعبَّرُ عنهُ إمَّا بالعقلِ أوْ بالنورِ أوْ بالقلبِ أوْ بما شئتَ مِنَ العباراتِ . . فلا مشاحَّةَ فيها .

وهيهاتَ ! فالبصيرةُ الباطنةُ أقوىٰ مِنَ البصرِ الظاهرِ ، والقلبُ أشدُّ إدراكاً مِنَ العينِ ، وجمالُ المعاني المدركةِ بالعقلِ أعظمُ مِنْ جمالِ الصورِ الظاهرةِ للأبصارِ ، فتكونُ ـ لا محالةَ ـ لذةُ القلبِ بما يدركُهُ مِنَ الأمورِ الشريفةِ الإلـٰهيةِ التي تجلُّ عنْ أنْ تدركَها الحواسُّ . . أتمَّ وأبلغَ ، فيكونُ ميلُ الطبعِ السليمِ والعقلِ الصحيحِ إليهِ أقوىٰ ، ولا معنىً للحبِّ إلا الميلُ إلىٰ ما في إدراكِهِ لذةٌ كما سيأتي تفصيلُهُ ، فلا ينكِرُ إذاً حبَّ اللهِ تعالىٰ إلا مَنْ قعدَ بهِ القصورُ في درجةِ البهائمِ ، فلمْ يجاوزْ إدراكَ الحواسِّ أصلاً .



الأصلُ الثالثُ : أنَّ الإنسانَ لا يخفىٰ أنَّهُ يحبُّ نفسَهُ ، ولا يخفىٰ أنَّهُ قدْ يحبُّ غيرَهُ لأجلِ نفسِهِ ، وهلْ يُتصوَّرُ أنْ يحبَّ غيرَهُ لذاتِهِ لا لأجلِ نفسِهِ ؟ هـٰذا ممَّا قدْ يشكلُ على الضعفاءِ ، حتَّىٰ يظنونَ أنَّهُ لا يُتصوَّرُ أنْ يحبَّ الإنسانُ غيرَهُ لذاتِهِ ما لمْ يرجعْ منهُ حظٌّ إلى المحبِّ سوىٰ إدراكِ ذاتِهِ .

والحقُّ أنَّ ذلكَ متصوَّرٌ وموجودٌ ، فلنبينْ أقسامَ المحبةِ وأسبابَها .

وبيانُهُ : أنَّ المحبوبَ الأوَّلَ عندَ كلِّ حيٍّ نفسُهُ وذاتُهُ ، ومعنىٰ حبِّهِ لنفسِهِ : أنَّ في طبعِهِ ميلاً إلىٰ دوامِ وجودِهِ ، ونفرةً عنْ عدمِهِ وهلاكِهِ ؛ لأنَّ المحبوبَ بالطبعِ هوَ الملائمُ للمحبِّ ، وأيُّ شيءٍ أتمُّ ملاءمةً لهُ مِنْ نفسِهِ ودوامِ وجودِهِ ؟ وأيُّ شيءٍ أعظمُ مضادَّةً ومنافرةً لهُ مِنْ عدمِهِ وهلاكِهِ ؟ فلذلكَ يحبُّ الإنسانُ دوامَ الوجودِ ، ويكرهُ الموتَ والقتلَ ، لا لمجرَّدِ ما يخافُهُ بعدَ الموتِ ، ولا لمجرَّدِ الحذرِ مِنْ سكراتِ الموتِ ، بلْ لوِ اختُطفَ مِنْ غيرِ ألمٍ ، وأُميتَ مِنْ غيرِ ثوابٍ ولا عقابٍ . . لمْ يرضَ بهِ ، وكانَ كارهاً لذلكَ ، ولا يحبُّ الموتَ والعدمَ المحضَ إلا لمقاساةِ ألمٍ في الحياةِ ، ومهما كانَ مبتلىً ببلاءٍ . . فمحبوبُهُ زوالُ البلاءِ ، فإنْ أحبَّ العدمَ . . لمْ يحبُّهُ لأنَّهُ عدمٌ ، بلْ لأنَّ فيهِ زوالَ البلاءِ ، فالهلاكُ والعدمُ ممقوتٌ ، ودوامُ الوجودِ محبوبٌ .

وكما أنَّ دوامَ الوجودِ محبوبٌ . . فكمالُ الوجودِ أيضاً محبوبٌ ؛ لأنَّ الناقصَ فاقدٌ للكمالِ ، والنقصُ عدمٌ بالإضافةِ إلى القدْرِ المفقودِ ، وهوَ هلاكٌ بالنسبةِ إليهِ ، والهلاكُ والعدمُ ممقوتٌ في الصفاتِ وكمالِ الوجودِ ؛ كما أنَّهُ ممقوتٌ في أصلِ الذاتِ ، ووجودُ صفاتِ الكمالِ محبوبٌ ؛ كما أنَّ دوامَ أصلِ الوجودِ محبوبٌ ، وهٰذهِ غريزةٌ في الطباعِ بحكمِ سنةِ اللهِ تعالىٰ ، ولنْ تجدَ لسنةِ اللهِ تبديلاً .

فإذاً ؛ المحبوبُ الأوَّلُ للإنسانِ ذاتُهُ ، ثمَّ سلامةُ أعضائِهِ ، ثمَّ مالُهُ ،

وولدُهُ ، وعشيرتُهُ ، وأصدقاؤُهُ ، فالأعضاءُ محبوبةٌ وسلامتُها مطلوبةٌ ؛ لأنَّ كمالَ الوجودِ ودوامَ الوجودِ موقوفٌ عليها ، والمالُ محبوبٌ لأنَّهُ أيضاً آلةٌ في دوامِ الوجودِ وكمالِهِ ، وكذا سائرُ الأسبابِ ، فالإنسانُ يحبُّ هـٰذهِ الأشياءَ لا لأعيانِها ، بلْ لارتباطِ حظِّهِ في دوامِ الوجودِ وكمالِهِ بها ، حتَّىٰ إنَّهُ ليحبُّ ولدَهُ ـ وإنْ كانَ لا ينالُهُ منهُ حظٌّ ، بلْ يتحمَّلُ المشاقَّ لأجلِهِ ـ لأنَّهُ يخلفُهُ في الوجودِ بعدَ عدمِهِ ، فيكونُ في بقاءِ نسلِهِ نوعُ بقاءٍ لهُ ، فلفرطِ حبِّهِ لبقاءِ نفسِهِ يحبُّ بقاءَ مَنْ هوَ قائمٌ مقامَهُ وكأنَّهُ جزءٌ منهُ ؛ لمَّا عجزَ عنِ الطمعِ في بقاءِ نفسِهِ أبداً .

نعمْ ، لوْ خُيِّرَ بينَ قتلِهِ وقتلِ ولدِهِ ، وكانَ طبعُهُ باقياً على اعتدالِهِ . . آثرَ بقاءَ نفسِهِ علىٰ بقاءِ ولدِهِ ؛ لأنَّ بقاءَ ولدِهِ يشبهُ بقاءَهُ مِنْ وجهٍ ، وليسَ هوَ بقاءَهُ المحقَّقَ .

وكذلكَ حبُّهُ لأقاربِهِ وعشيرتِهِ يرجعُ إلىٰ حبِّهِ لكمالِ نفسِهِ ، فإنَّهُ يرىٰ نفسَهُ كثيراً بهِمْ ، قويّاً بسببِهِمْ ، متجمِّلاً بمكانِهِمْ ؛ فإنَّ العشيرةَ والمالَ والأسبابَ الخارجةَ كالجناحِ المكمِّلِ للإنسانِ ، وكمالُ الوجودِ ودوامُهُ محبوبٌ بالطبعِ لا محالةَ .

فإذاً ؛ المحبوبُ الأوَّلُ عندَ كلِّ حيٍّ ذاتُهُ ، وكمالُ ذاتِهِ ، ودوامُ ذلكَ كلِّهِ ، والمكروهُ عندَهُ ضدُّ ذلكَ ، **فهـٰذا هوَ أوَّلُ الأسبابِ** .

السببُ الثاني : الإحسانُ ، فإنَّ الإنسانَ عبدُ الإحسانِ ، وقدْ جُبلَتِ

القلوبُ علىٰ حبِّ مَنْ أحسنَ إليها ، وبغضِ مَنْ أساءَ إليها .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهُمَّ ، لا تجعلْ لفاجرٍ عندي يداً فيحبَّهُ قلبي »(١) ، أشارَ إلىٰ أنَّ حبَّ القلبِ للمحسنِ اضطرارٌ لا يُستطاعُ دفعُهُ ، وهوَ جبلَّةٌ وفطرةٌ لا سبيلَ إلىٰ تغييرِها ، وبهـٰذا السببِ قدْ يحبُّ الإنسانُ الأجنبيَّ الذي لا قرابةَ بينَهُ وبينَهُ ولا علاقةَ .

وهـٰذا إذا حُقِّقَ . . رجعَ إلى السببِ الأوَّلِ ، فإنَّ المحسنَ مَنْ أمدَّ بالمالِ والمعونةِ ، وسائرِ الأسبابِ الموصلةِ إلىٰ دوامِ الوجودِ وكمالِ الوجودِ ، وحصولِ الحظوظِ التي بها يتهيَّأُ الوجودُ ، إلا أنَّ الفرقَ بينَهُما أنَّ أعضاءَ الإنسانِ محبوبةٌ لأنَّ بها كمالَ وجودِهِ ، وهيَ عينُ الكمالِ المطلوبِ ، فأمَّا المحسنُ . . فليسَ هوَ عينَ الكمالِ المطلوبِ ، ولكنْ قدْ يكونُ سبباً لهُ ؛ كالطبيبِ الذي يكونُ سبباً في دوامِ صحَّةِ الأعضاءِ ، ففرقٌ بينَ حبِّ الصحةِ وبينَ حبِّ الطبيبِ الذي هوَ سببُ الصحَّةِ ؛ إذِ الصحةُ مطلوبةٌ لذاتِها ، والطبيبُ محبوبٌ لا لذاتِهِ ، بلْ لأنَّهُ سببٌ للصحةِ ، وكذلكَ العلمُ محبوبٌ ، والأستاذُ محبوبٌ ، ولكنِ العلمُ محبوبٌ لذاتِهِ ، والأستاذُ محبوبٌ لكونِهِ سببَ العلمِ المحبوبِ ، وكذلكَ الطعامُ والشرابُ محبوبٌ ،

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٤٨) ، قال الحافظ العراقي : (رواه ابن مردويه في « التفسير » من رواية كثير بن عطية عن رجل لم يسمَّ ، ورواه الديلمي في « مسند الفردوس » [٢٠١١] من حديث معاذ ، وأبو موسى المديني في كتاب « تضييع العمر والأيام » من طريق أهل البيت مرسلاً ، وأسانيده ضعيفة) . « إتحاف » (٦/ ١٤٨) .

والدنانيرُ محبوبةٌ ، لكنِ الطعامُ محبوبٌ لذاتِهِ ، والدنانيرُ محبوبةٌ لأنَّها وسيلةٌ إلى الطعامِ .

فإذاً ؛ يرجعُ الفرقُ إلىٰ تفاوتِ الرتبةِ ، وإلا . . فكلٌّ واحدٍ يرجعُ إلىٰ محبَّةِ الإنسانِ نفسَهُ .

فكأنَّ مَنْ أحبَّ المحسنَ لإحسانِهِ فما أحبَّ ذاتَهُ تحقيقاً ، بلْ أحبَّ إحسانَهُ ، وهوَ فعلٌ مِنْ أفعالِهِ ، لوْ زالَ . . زالَ الحبُّ معَ بقاءِ ذاتِهِ تحقيقاً ، ولوْ نقصَ . . نقصَ الحبُّ ، ولوْ زادَ . . زادَ ، ويتطرَّقُ إليهِ الزيادةُ والنقصانُ بحسَبِ زيادةِ الإحسانِ ونقصانِهِ .

السببُ الثالثُ : أنْ يحبَّ الشيءَ لذاتِهِ ، لا لحظٍّ يُنالُ منهُ وراءَ ذاتِهِ ، بلْ تكونُ ذاتُهُ عينَ حظِّهِ ، وهٰذا هوَ الحبُّ الحقيقيُّ البالغُ الذي يُوثقُ بدوامِهِ ، وذلكَ كحبِّ الجمالِ والحسنِ ، فإنَّ كلَّ جمالٍ فهوَ محبوبٌ عندَ مدركِ الجمالِ ، وذلكَ لعينِ الجمالِ ؛ لأنَّ إدراكَ الجمالِ فيهِ عينُ اللذَّةِ ، واللذَّةُ محبوبةٌ لذاتِها لا لغيرِها .

ولا تظنَّنَّ أنَّ حبَّ الصورِ الجميلةِ لا يُتصوَّرُ إلا لأجلِ قضاءِ الشهوةِ ؛ فإنَّ قضاءَ الشهوةِ لذَّةٌ أخرىٰ قدْ تُحبُّ الصورُ الجميلةُ لأجلِها ، وإدراكُ نفسِ الجمالِ أيضاً لذيذٌ ، فيجوزُ أنْ يكونَ محبوباً لذاتِهِ .

وكيفَ يُنكرُ ذلكَ والخضرةُ والماءُ الجاري محبوبانِ لا ليُشربَ الماءُ ولا لتُؤكلَ الخضرةُ أوْ يُنالَ منها حظٌّ سوىٰ نفسِ الرؤيةِ ؟!

وقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعجبُهُ الخضرةُ والماءُ الجاري[١] ، والطباعُ السليمةُ قاضيةٌ باستلذاذِ النظرِ إلى الأنوارِ ، والأزهارِ ، والأطيارِ المليحةِ الألوانِ الحسنةِ النقشِ ، المتناسبةِ الشكلِ ، حتَّىٰ إنَّ الإنسانَ لتنفرجُ عنهُ الغمومُ والهمومُ بالنظرِ إليها ، لا لطلبِ حظٍّ وراءَ النظرِ .

فهٰذهِ الأسبابُ ملذَّةٌ ، وكلُّ لذيذٍ محبوبٌ ، وكلُّ حسْنٍ وجمالٍ فلا يخلو إدراكُهُ عنْ لذَّةٍ ، ولا أحدَ ينكرُ كونَ الجمالِ محبوباً بالطبعِ ، فإنْ ثبتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ جميلٌ . . كانَ ـ لا محالةَ ـ محبوباً عندَ مَنِ انكشفَ لهُ جمالُهُ وجلالُهُ ، كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ »[٢] .



الأصلُ الرابعُ : في بيانِ معنى الحسنِ والجمالِ .

اعلمْ : أنَّ المحبوسَ في مضيقِ الخيالاتِ والمحسوساتِ ربَّما يظنُّ أنَّهُ لا معنىٰ للحسنِ والجمالِ إلا تناسبُ الخلقةِ والشكلِ ، وحسنُ اللونِ وكونُ البياضِ مشرباً بالحمرةِ ، وامتدادُ القامةِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا يُوصفُ مِنْ جمالِ شخصِ الإنسانِ ، فإنَّ الحسنَ الأغلبَ على الخلقِ حسنُ الإبصارِ ،

(١) إذ روى ابن عدي في « الكامل » (٢/٣٢٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري .

(٢) رواه مسلم (٩١) .

وأكثرُ التفاتِهِمْ إلىٰ صورِ الأشخاصِ ، فيظنُّ أنَّ ما ليسَ مبصَراً ، ولا متخيَّلاً متشكِّلاً ، ولا متلوِّناً متقدِّراً . . فلا يُتصوَّرُ حسنُهُ ، وإذا لمْ يُتصوَّرْ حسنُهُ . . لمْ يكنْ في إدراكِهِ لذةٌ ، فلمْ يكنْ محبوباً ، وهـٰذا خطأٌ ظاهرٌ ؛ فإنَّ الحسْنَ ليسَ مقصوراً علىٰ مدركاتِ البصرِ ، ولا علىٰ تناسبِ الخلقةِ وامتزاجِ البياضِ بالحمرةِ ، فإنَّا نقولُ : هـٰذا خطٌّ حسنٌ ، وهـٰذا صوتٌ حسنٌ ، وهـٰذا فرسٌ حسنٌ ، بلْ نقولُ : هـٰذا ثوبٌ حسنٌ ، وهـٰذا إناءٌ حسنٌ ، فأيُّ معنىً لحسنِ الصوتِ والخطِّ وسائرِ الأشياءِ إنْ لمْ يكنِ الحسنُ إلا في الصورِ ؟!

ومعلومٌ أنَّ العينَ تستلذُّ النظرَ إلى الخطِّ الحسنِ ، والأذنُ تستلذُّ استماعَ النغماتِ الحسنةِ الطيِّبةِ ، وما مِنْ شيءٍ مِنَ المدركاتِ إلا وهوَ منقسمٌ إلىٰ حسنٍ وقبيحٍ ، فما معنى الحسنِ الذي تشتركُ فيهِ هـٰذهِ الأشياءُ ؟ فلا بدَّ مِنَ البحثِ عنهُ ، وهـٰذا بحثٌ يطولُ ، ولا يليقُ بعلمِ المعاملةِ الإطنابُ فيهِ ، فنصرِّحُ بالحقِّ ونقولُ : كلُّ شيءٍ فجمالُهُ وحسنُهُ في أنْ يحضرَ كمالُهُ اللائقُ بهِ الممكنُ لهُ ، فإذا كانَ جميعُ كمالاتِهِ الممكنةِ حاضرةً . . فهوَ في غايةِ الجمالِ ، وإنْ كانَ الحاضرُ بعضَها . . فلهُ مِنَ الحسنِ والجمالِ بقدْرِ ما حضرَ ، فالفرسُ الحسنُ هوَ الذي جمعَ كلَّ ما يليقُ بالفرسِ ؛ مِنْ هيئةٍ ، وشكلٍ ، ولونٍ ، وحسْنِ عدوٍ ، وتيسُّرِ كرٍّ وفرٍّ عليهِ ، والخطُّ الحسنُ كلُّ ما جمعَ ما يليقُ بالخطِّ ؛ مِنْ تناسبِ الحروفِ ، وتوازيها ، واستقامةِ ترتيبِها ، وحسنِ انتظامِها ، ولكلِّ شيءٍ كمالٌ يليقُ بهِ ، وقدْ يليقُ بغيرِهِ ضدُّهُ ، فحسنُ كلِّ شيءٍ في كمالِهِ الذي يليقُ بهِ ، فلا يحسنُ الإنسانُ بما

يحسنُ بهِ الفرسُ ، ولا يحسنُ الخطُّ بما يحسنُ بهِ الصوتُ ، ولا تحسنُ الأواني بما تحسنُ بهِ الثيابُ ، وكذلكَ سائرُ الأشياءِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فهٰذهِ الأشياءُ وإنْ لمْ تُدركْ جميعُها بحسنِ البصرِ ؛ مثلُ الأصواتِ والطعومِ والأرائحِ .. فإنَّها لا تنفكُّ عنْ إدراكِ الحواسِّ لها ، فهيَ محسوساتٌ ، وليسَ يُنكرُ الحسنُ والجمالُ للمحسوساتِ ، ولا يُنكرُ حصولُ اللذةِ بإدراكِ حسنِها ، وإنَّما يُنكرُ ذلكَ في غيرِ المدرَكِ بالحواسِّ .

فاعلمْ : أنَّ الحسنَ والجمالَ موجودٌ في غيرِ المحسوساتِ ؛ إذْ يُقالُ : هٰذا خلقٌ حسنٌ ، وهٰذا علمٌ حسنٌ ، وهٰذهِ سيرةٌ حسنةٌ ، وهٰذهِ أخلاقٌ جميلةٌ ، وإنَّما الأخلاقُ الجميلةُ يُرادُ بها العلمُ والعقلُ والعفةُ والشجاعةُ والتقوىٰ والكرمُ والمروءةُ وسائرُ خلالِ الخيرِ ، وشيءٌ مِنْ هٰذهِ الصفاتِ لا يُدركُ بالحواسِّ الخمسِ ، بلْ يُدركُ بنورِ البصيرةِ الباطنةِ ، وكلُّ هٰذهِ الخصالِ الجميلةِ محبوبةٌ ، والموصوفُ بها محبوبٌ بالطبعِ عندَ مَنْ عرفَ صفاتِهِ .

وآيةُ ذلكَ وأنَّ الأمرَ كذلكَ : أنَّ الطباعَ مجبولةٌ علىٰ حبِّ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ، وعلىٰ حبِّ الصحابةِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ ، معَ أنَّهُمْ لمْ يُشاهدوا ، بلْ علىٰ حبِّ أربابِ المذاهبِ ؛ مثلِ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ ومالكٍ

وغيرِهِمْ ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ قدْ يجاوزُ بهِ حبُّهُ لصاحبِ مذهبِهِ حدَّ العشقِ ، فيحملُهُ ذلكَ علىٰ أنْ ينفقَ جميعَ أموالِهِ في نصرةِ مذهبِهِ والذبِّ عنهُ ، ويخاطرَ بروحِهِ في قتالِ مَنْ يطعنُ في إمامِهِ ومتبوعِهِ ، فكمْ مِنْ دمٍ أُريقَ في نصرةِ أربابِ المذاهبِ ، وليتَ شعري مَنْ يحبُّ الشافعيَّ مثلاً فلِمَ يحبُّهُ ولمْ يشاهدْ قطُّ صورتَهُ ؟! ولوْ شاهدَهُ ربَّما لمْ يستحسنْ صورتَهُ ، فاستحسانُهُ الذي حملَهُ علىٰ إفراطِ الحبِّ هوَ لصورتِهِ الباطنةِ ، لا لصورتِهِ الظاهرةِ ؛ فإنَّ صورتَهُ الظاهرةَ قدِ انقلبَتْ تراباً معَ الترابِ ، وإنَّما يحبُّهُ لصفاتِهِ الباطنةِ ؛ مِنَ الدينِ ، والتقوىٰ ، وغزارةِ العلمِ ، والإحاطةِ بمداركِ الدينِ ، وانتهاضِهِ لإفاضةِ علمِ الشرعِ ، ونشرِهِ هٰذهِ الخيراتِ في العالمِ ، وهٰذهِ أمورٌ جميلةٌ لا يُدركُ جمالُها إلا بنورِ البصيرةِ ، فأمَّا الحواسُّ . . فقاصرةٌ عنها .

وكذلكَ مَنْ يحبُّ أبا بكرٍ الصديقَ رضيَ اللهُ عنهُ ويفضِّلُهُ علىٰ غيرِهِ ، أوْ يحبُّ عليّاً رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ ويفضلُهُ ويتعصَّبُ لهُ ، فلا يحبُّهُمْ إلا لاستحسانِ صورِهِمُ الباطنةِ ؛ مِنَ العلمِ ، والدينِ ، والتقوىٰ ، والشجاعةِ ، والكرمِ وغيرِهِ ، فمعلومٌ أنَّ مَنْ يحبُّ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ مثلاً ليسَ يحبُّ لحمَهُ وعظمَهُ وجلدَهُ وأطرافَهُ وشكلَهُ ؛ إذْ كلُّ ذلكَ قدْ زالَ وتبدَّلَ وانعدمَ ، ولكنْ بقيَ ما كانَ الصدِّيقُ بهِ صدِّيقاً ، وهيَ الصفاتُ المحمودةُ التي هيَ مصادرُ السيرِ الجميلةِ ، فكانَ الحبُّ باقياً ببقاءِ تلكَ الصفاتِ معَ زوالِ جميعِ الصورِ .

وتلكَ الصفاتُ ترجعُ جملتُها إلى العلمِ والقدرةِ ؛ إذْ علمَ حقائقَ الأمورِ ، وقدرَ علىٰ حملِ نفسِهِ عليها ؛ بقهرِ شهواتِهِ ، فجميعُ خلالِ الخيرِ تَتشعَّبُ عنْ هٰذينِ الوصفينِ ، وهما غيرُ مدركينِ بالحسِّ ، ومحلُّهُما مِنْ جملةِ البدنِ جزءٌ لا يتجزَّأُ ، فهوَ المحبوبُ بالحقيقةِ ، وليسَ للجزءِ الذي لا يتجزَّأُ صورةٌ وشكلٌ ولونٌ يظهرُ للبصرِ حتَّىٰ يكونَ محبوباً لأجلِهِ .

فإذاً ؛ الجمالُ موجودٌ في السيَرِ ، ولوْ صدرَتِ السيرةُ الجميلةُ مِنْ غيرِ علمٍ وبصيرةٍ . . لمْ يُوجبْ ذلكَ حبّاً ، فالمحبوبُ مصدرُ السيرةِ الجميلةِ ، وهيَ الأخلاقُ الحميدةُ ، والفضائلُ الشريفةُ ، وترجعُ جملتُها إلىٰ كمالِ العلمِ والقدرةِ ، وهوَ محبوبٌ بالطبعِ ، وغيرُ مدركٍ بالحواسِّ ، حتَّىٰ إنَّ الصبيَّ المخلَّىٰ وطبعَهُ إذا أردنا أنْ نحبِّبَ إليهِ غائباً أوْ حاضراً حيّاً أوْ ميتاً . . لمْ يكنْ لنا سبيلٌ إلا بالإطنابِ في وصفِهِ بالشجاعةِ والكرمِ والعلمِ وسائرِ الخصالِ الحميدةِ ، فمهما اعتقدَ ذلكَ . . لمْ يتمالكْ في نفسِهِ ولمْ يقدرْ ألا يحبَّهُ ، فهلْ غلبَ حبُّ الصحابةِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ وبغضُ أبي جهلٍ وبغضُ إبليسَ لعنَهُ اللهُ إلا بالإطنابِ في وصفِ المحاسنِ والمقابحِ التي لا تُدركُ بالحواسِّ ؟

بلْ لمَّا وصفَ الناسُ حاتِماً بالسخاءِ ، ووصفوا خالداً بالشجاعةِ . . أحبَّتْهُمُ القلوبُ حبّاً ضرورياً ، وليسَ ذلكَ عنْ نظرٍ إلىٰ صورةٍ محسوسةٍ ،

ولا عنْ حظٍّ ينالُهُ المحبُّ منهُمْ ، بلْ إذا حُكِيَ مِنْ سيرةِ بعضِ الملوكِ في بعضِ أقطارِ الأرضِ العدلُ والإحسانُ وإفاضةُ الخيرِ . . غلبَ حبُّهُ على القلوبِ معَ اليأسِ مِنِ انتشارِ إحسانِهِ إلى المحبِّينَ ؛ لبعدِ المزارِ وتنائي الديارِ .

فإذاً ؛ ليسَ حبُّ الإنسانِ مقصوراً علىٰ مَنْ أحسنَ إليهِ ، بلِ المحسنُ في نفسِهِ محبوبٌ وإنْ كانَ لا ينتهي قطُّ إحسانُهُ إلى المحبِّ ؛ لأنَّ كلَّ جمالٍ وحسنٍ فهوَ محبوبٌ ، والصورُ ظاهرةٌ وباطنةٌ ، والحسنُ والجمالُ يشملُهُما ، وتُدركُ الصورُ الظاهرةُ بالبصرِ الظاهرِ ، والصورُ الباطنةُ بالبصيرةِ الباطنةِ ، فمَنْ حُرِمَ البصيرةَ الباطنةَ . . لا يدركُها ، ولا يلتذُّ بها ، ولا يحبُّها ولا يميلُ إليها ، ومَنْ كانَتِ البصيرةُ الباطنةُ أغلبَ عليهِ مِنَ الحواسِّ الظاهرةِ . . كانَ حبُّهُ للمعاني الباطنةِ أكثرَ مِنْ حبِّهِ للمعاني الظاهرةِ ، فشتَّانَ بينَ مَنْ يحبُّ نقشاً مصوَّراً على الحائطِ لجمالِ صورتِهِ الظاهرةِ ، وبينَ مَنْ يحبُّ نبيّاً مِنَ الأنبياءِ لجمالِ صورتِهِ الباطنةِ .

السببُ الرابعُ[١] : المناسبةُ الخفيَّةُ بينَ المحبِّ والمحبوبِ ؛ إذْ ربَّ شخصينِ تتأكَّدُ المحبَّةُ بينَهُما لا بسببِ جمالٍ أوْ حظٍّ ، ولكنْ بمجرَّدِ تناسبِ

---

(١) من أسباب المحبة ، وكذا وقع العدُّ في (أ) : (الرابع) ، وفي باقي النسخ (الخامس) ، وهو مشكل ، وقول المصنف الآتي : إنها خمسة . . علىٰ تفريع السبب الثالث إلىٰ : حب الإحسان مجرداً ، وحب الجمال مجرداً . وكلاهما مجموعان في قوله في السبب الثالث : (حب الشيء لذاته ، لا لحظ يُنال منه وراء ذاته) .

الأرواحِ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأرواحُ جنودٌ مجندةٌ ، فما تعارفَ منها . . ائتلفَ ، وما تناكرَ منها . . اختلفَ »[١] ، وقدْ حققنا ذلكَ في كتابِ آدابِ الصحبةِ ، عندَ ذكرِ الحبِّ في اللهِ ، فليُطلبْ منهُ ؛ لأنَّهُ أيضاً مِنْ عجائبِ أسبابِ الحبِّ .

فإذاً ؛ ترجعُ أقسامُ الحبِّ إلىٰ خمسةِ أسبابٍ :

وهوَ حبُّ الإنسانِ وجودَ نفسِهِ وكمالِهِ وبقائِهِ .

وحبُّهُ مَنْ أحسنَ إليهِ فيما يرجعُ إلىٰ دوامِ وجودِهِ ويعينُ علىٰ بقائِهِ ودفعِ المهلكاتِ عنهُ .

وحبُّهُ مَنْ كانَ محسناً في نفسِهِ إلى الناسِ وإنْ لمْ يكنْ محسناً إليهِ .

وحبُّهُ لكلِّ ما هوَ جميلٌ في ذاتِهِ ، سواءٌ كانَ مِنَ الصورِ الظاهرةِ أوِ الباطنةِ .

وحبُّهُ لمَنْ بينَهُ وبينَهُ مناسبةٌ خفيَّةٌ في الباطنِ .

فلوِ اجتمعَتْ هـٰذهِ الأسبابُ في شخصٍ واحدٍ . . تضاعفَ الحبُّ لا محالةَ ؛ كما لوْ كانَ للإنسانِ ولدٌ جميلُ الصورةِ ، حسنُ الخلقِ ، كاملُ العلمِ ، حسنُ التدبيرِ ، محسنٌ إلى الخلقِ ومحسنٌ إلى الوالدِ . . كانَ محبوباً ـ لا محالةَ ـ غايةَ الحبِّ .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٨) .

وتكونُ قوَّةُ الحبِّ بعدَ اجتماعِ هـٰذهِ الخصالِ بحسَبِ قوَّةِ هـٰذهِ الخلالِ في نفسِها ؛ فإنْ كانَتْ هـٰذهِ الصفاتُ في أقصىٰ درجاتِ الكمالِ . . كانَ الحبُّ ـ لا محالةَ ـ في أعلى الدرجاتِ .

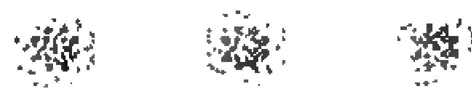
فلنبيِّنِ الآنَ أنَّ هـٰذهِ الأسبابَ كلَّها لا يُتصوَّرُ كمالُها واجتماعُها إلا في حقِّ اللهِ تعالىٰ ، فلا يستحقُّ المحبَّةَ بالحقيقةِ إلا اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ .



بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وأنَّ مَنْ أحبَّ غيرَ اللهِ لا مِنْ حيثُ نسبتُهُ إلى اللهِ تعالىٰ . . فذلكَ لجهلِهِ وقصورِهِ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّ حبَّ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ محمودٌ ؛ لأنَّهُ عينُ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، وكذا حبُّ العلماءِ والأتقياءِ ؛ لأنَّ محبوبَ المحبوبِ محبوبٌ، ورسولَ المحبوبِ محبوبٌ ، ومحبَّ المحبوبِ محبوبٌ ، وكلُّ ذلكَ يرجعُ إلىٰ حبِّ الأصلِ ، فلا يجاوزُهُ إلىٰ غيرِهِ ، فلا محبوبَ بالحقيقةِ عندَ ذوي البصائرِ إلا اللهُ تعالىٰ ، ولا مستحقَّ للمحبةِ سواهُ .

وإيضاحُهُ : بأنْ نرجعَ إلى الأسبابِ الخمسةِ التي ذكرناها ، ونبيِّنَ أنَّها مجتمعةٌ في حقِّ اللهِ تعالىٰ بجملتِها ، ولا يُوجدُ في غيرِهِ إلا آحادُها ، وأنَّها حقيقةٌ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ، ووجودُها في حقِّ غيرِهِ وهمٌ وتخيُّلٌ ، وهوَ مجازٌ محضٌ ، لا حقيقةَ لهُ ، ومهما ثبتَ ذلكَ . . انكشفَ لكلِّ ذي بصيرةٍ ضدُّ ما تخيَّلَهُ ضعفاءُ العقولِ والقلوبِ ؛ مِنِ استحالةِ حبِّ اللهِ تعالىٰ تحقيقاً ، وبانَ أنَّ التحقيقَ يقتضي ألا يُحبَّ أحدٌ غيرُ اللهِ تعالىٰ .



فأمَّا السببُ الأوَّلُ : **وهوَ حبُّ الإنسانِ نفسَهُ وبقاءَهُ وكمالَهُ ودوامَ وجودِهِ ، وبغضُهُ لهلاكِهِ وعدمِهِ ونقصانِهِ وقواطعِ كمالِهِ** :

فهٰذهِ جبلَّةُ كلِّ حيٍّ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ عنها ، وهٰذا يقتضي غايةَ

المحبَّةَ للهِ تعالىٰ ، فإنَّ مَنْ عرفَ نفسَهُ ، وعرفَ ربَّهُ . . عرفَ قطعاً أنَّهُ لا وجودَ لهُ مِنْ ذاتِهِ ، وإنَّما وجودُ ذاتِهِ ودوامُ وجودِهِ وكمالُ وجودِهِ مِنَ اللهِ وباللهِ وإلى اللهِ ، فهوَ المخترِعُ الموجدُ لهُ ، وهوَ المبقي لهُ ، وهوَ المكمِّلُ لوجودِهِ ؛ بخلقِ صفاتِ الكمالِ ، وخلقِ الأسبابِ الموصلةِ إليهِ ، وخلقِ الهدايةِ إلى استعمالِ الأسبابِ ، وإلا . . فالعبدُ مِنْ حيثُ ذاتُهُ لا وجودَ لهُ مِنْ ذاتِهِ ، بلْ هوَ محوٌ محضٌ وعدمٌ صرفٌ لولا فضْلُ اللهِ تعالىٰ عليهِ بالإيجادِ ، وهوَ هالكٌ عقيبَ وجودِهِ لولا فضْلُ اللهِ عليهِ بالإبقاءِ ، وهوَ ناقصٌ بعدَ الوجودِ لولا فضْلُ اللهِ عليهِ بالتكميلِ لخلقتِهِ .

وبالجملةِ : فليسَ في الوجودِ شيءٌ لهُ بنفسِهِ قوامٌ إلا القيُّومُ الحيُّ الذي هوَ قائمٌ بذاتِهِ ، وكلُّ ما سواهُ قائمٌ بهِ ، فإنْ أحبَّ العارفُ ذاتَهُ ووجودُ ذاتِهِ مستفادٌ مِنْ غيرِهِ . . فبالضرورةِ يحبُّ المفيدَ لوجودِهِ والمديمَ لهُ إنْ عرفَهُ خالقاً موجداً ، ومخترعاً مبقياً ، وقيُّوماً بنفسِهِ ، ومقوِّماً لغيرِهِ ، فإنْ كانَ لا يحبُّهُ . . فهوَ لجهلِهِ بنفسِهِ وبربِّهِ ، والمحبَّةُ ثمرةُ المعرفةِ ، تنعدمُ بانعدامِها ، وتضعفُ بضعفِها ، وتقوىٰ بقوَّتِها .

ولذلكَ قالَ الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (مَنْ عرفَ ربَّهُ . . أحبَّهُ ، ومَنْ عرفَ الدنيا . . زهدَ فيها)[1] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الهم والحزن » (٩٣) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٠٩) عن بديل بن ميسرة .

وكيفَ يُتصوَّرُ أنْ يحبَّ الإنسانُ نفسَهُ ولا يحبَّ ربَّهُ الذي بهِ قوامُ نفسِهِ ؟!

ومعلومٌ أنَّ المبتلىٰ بحرِّ الشمسِ لمَّا كانَ يحبُّ الظلَّ . . فيحبُّ بالضرورةِ الأشجارَ التي بها قوامُ الظلِّ ، وكلُّ ما في الوجودِ بالإضافةِ إلىٰ قدرةِ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ كالظلِّ بالإضافةِ إلى الشجرِ ، والنورِ بالإضافةِ إلى الشمسِ ؛ فإنَّ الكلَّ مِنْ آثارِ قدرتِهِ ، ووجودُ الكلِّ تابعٌ لوجودِهِ ، كما أنَّ وجودَ النورِ تابعٌ للشمسِ ، ووجودَ الظلِّ تابعٌ للشخصِ .

بلْ هٰذا المثالُ صحيحٌ بالإضافةِ إلىٰ أوهامِ العوامِّ ؛ إذْ تخيَّلوا أنَّ النورَ أثرُ الشمسِ ، وفائضٌ منها ، وموجودٌ بها ، وهوَ خطأٌ محضٌ ؛ إذِ انكشفَ لأربابِ القلوبِ انكشافاً أظهرَ مِنْ مشاهدةِ الأبصارِ أنَّ النورَ حاصلٌ مِنْ قدرةِ اللهِ تعالى اختراعاً عندَ وقوعِ المقابلةِ بينَ الشمسِ وبينَ الأجسامِ الكثيفةِ ؛ كما أنَّ نورَ الشمسِ وعينَها وشكلَها وصورتَها أيضاً حاصلٌ مِنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنَّ الغرضَ مِنَ الأمثلةِ التفهيمُ ، فلا يُطلبُ فيها الحقائقُ .

فإذاً ؛ إنْ كانَ حبُّ الإنسانِ نفسَهُ ضرورياً . . فحبُّهُ لمَنْ بهِ قوامُهُ أوّلاً ودوامُهُ ثانياً ؛ في أصلِهِ وصفاتِهِ ، وظاهرِهِ وباطنِهِ وجواهرِهِ وأعراضِهِ . . أيضاً ضروريٌّ إنْ عرفَ ذلكَ كذلكَ ، ومَنْ خلا عنْ هٰذا الحبِّ . . فلأنَّهُ اشتغلَ بنفسِهِ وشهواتِهِ ، وذهلَ عنْ ربِّهِ وخالقِهِ ، فلمْ يعرفْهُ حقَّ معرفتِهِ ، وقَصَرَ نظرَهُ علىٰ شهواتِهِ ومحسوساتِهِ ، وهوَ عالمُ الشهادةِ الذي يشاركُهُ

البهائمُ في التنعُّمِ بهِ ، والاتساعُ فيهِ دونَ عالمِ الملكوتِ الذي لا يطأُ أرضَهُ إلا مَنْ يقربُ إلىٰ شبهٍ مِنَ الملائكةِ ، فينظرُ فيهِ بقدْرِ قربِهِ في الصفاتِ مِنَ الملائكةِ ، ويقصرُ عنهُ بقدْرِ انحطاطِهِ إلىٰ حضيضِ عالمِ البهائمِ .



وأمَّا السببُ الثاني : وهوَ حبُّهُ مَنْ أحسنَ إليهِ :

فواساهُ بمالِهِ ، ولاطفَهُ بكلامِهِ ، وأمدَّهُ بمعونتِهِ ، وانتدبَ لنصرتِهِ ، وقمعَ أعداءَهُ ، وقامَ بدفعِ شرِّ الأشرارِ عنهُ ، وانتهضَ وسيلةً إلىٰ جميعِ حظوظِهِ وأغراضِهِ في نفسِهِ وأولادِهِ وأقاربِهِ ؛ فإنَّهُ محبوبٌ ـ لا محالةَ ـ عندَهُ ، وهـٰذا بعينِهِ يقتضي ألا يحبَّ إلا اللهَ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ لوْ عرفَ حقَّ المعرفةِ . . لعلمَ أنَّ المحسنَ إليهِ هوَ اللهُ تعالىٰ فقطْ .

فأمَّا أنواعُ إحسانِهِ إلىٰ كلِّ عبيدِهِ . . فلستُ أعدُّها ؛ إذْ ليسَ يحيطُ بها حصرُ حاصرٍ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ، وقدْ أشرنا إلىٰ طرفٍ منهُ في كتابِ الشكرِ ، ولكنَّا نقتصرُ الآنَ علىٰ بيانِ أنَّ الإحسانَ مِنَ الناسِ غيرُ متصوَّرٍ إلا بالمجازِ ، وإنَّما المحسنُ هوَ اللهُ تعالىٰ .

ولنفرضْ ذلكَ فيمَنْ أنعمَ عليكَ بجميعِ خزائنِهِ ومكَّنَكَ منها لتتصرَّفَ فيها كيفَ تشاءُ ، فإنَّكَ تظنُّ أنَّ هـٰذا الإحسانَ منهُ ، وهوَ غلطٌ ؛ فإنَّهُ إنَّما تمَّ إحسانُهُ بهِ وبمالِهِ وبقدرتِهِ على المالِ وبداعيتِهِ الباعثةِ لهُ علىٰ صرفِ المالِ إليكَ ، فمَنِ الذي أنعمَ بخلقِهِ ، وخلقِ مالِهِ ، وخلقِ قدرتِهِ ، وخلقِ إرادتِهِ

وداعيتِهِ ؟ ومَنِ الذي حبَّبَكَ إليهِ ، وصرفَ وجهَهُ إليكَ ، وألقىٰ في نفسِهِ أنَّ صلاحَ دينِهِ أوْ دنياهُ في الإحسانِ إليكَ ، ولولا كلُّ ذلكَ . . لما أعطاكَ حبَّةً مِنْ مالِهِ ؟

ومهما سلَّطَ اللهُ عليهِ الدواعيَ ، وقرَّرَ في نفسِهِ أنَّ صلاحَ دينِهِ أو دنياهُ في أنْ يسلِّمَ إليكَ مالَهُ . . كانَ مقهوراً مضطراً في التسليمِ ، لا يستطيعُ مخالفتَهُ ، فالمحسنُ هوَ الذي اضطرَّهُ وسخَّرَهُ لكَ ، وسلَّطَ عليهِ الدواعيَ الباعثةَ المرهقةَ إلى الفعلِ ، وأمَّا يدُهُ . . فواسطةٌ يصلُ بها إحسانُ اللهِ تعالىٰ إليكَ ، وصاحبُ اليدِ مضطرٌّ في ذلكَ اضطرارَ مجرى الماءِ في جريانِ الماءِ فيهِ ، فإنِ اعتقدتَهُ محسناً أوْ شكرتَهُ مِنْ حيثُ هوَ بنفسِهِ محسنٌ ، لا مِنْ حيثُ هوَ واسطةٌ . . كنتَ جاهلاً بحقيقةِ الأمرِ ، فإنَّهُ لا يُتصوَّرُ الإحسانُ مِنَ الإنسانِ إلا إلىٰ نفسِهِ ، أمَّا الإحسانُ إلىٰ غيرِهِ . . فمحالٌ مِنَ المخلوقينَ ؛ لأنَّهُ لا يبذُلُ مالَهُ إلا لغرضٍ لهُ في البذلِ ؛ إمَّا آجلٍ وهوَ الثوابُ ، وإمَّا عاجلٍ وهوَ المنَّةُ والاستسخارُ ، أوِ الثناءُ والصيتُ ، والاشتهارُ بالسخاءِ والكرمِ ، أوْ جذبِ قلوبِ الخلقِ إلى الطاعةِ والمحبةِ .

وكما أنَّ الإنسانَ لا يلقي مالَهُ في البحرِ ؛ إذْ لا غرضَ لهُ فيهِ . . فلا يلقيهِ في يدِ إنسانٍ إلا لغرضٍ لهُ فيهِ ، وذلكَ الغرضُ هوَ مطلوبُهُ ومقصدُهُ ، وأمَّا أنتَ . . فلستَ مقصوداً ، بلْ يدُكَ آلةٌ لهُ في القبضِ حتَّىٰ يحصلَ غرضُهُ مِنَ الذكرِ والثناءِ أوِ الشكرِ أوِ الثوابِ ؛ بسببِ قبضِكَ المالَ ، فقدِ استسخرَكَ في القبضِ للتوصُّلِ إلىٰ غرضِ نفسِهِ ، فهوَ إذاً محسنٌ إلىٰ نفسِهِ ، ومعتاضٌ عمَّا

بذلَهُ مِنْ مالِهِ عوضاً هوَ أرجحَ عندَهُ مِنْ مالِهِ ، ولولا رجحانُ ذلكَ الحظِّ عندَهُ. . لما نزلَ عنْ مالِهِ لأجلِكَ أصلاً ألبتةَ ، فإذاً ؛ هوَ غيرُ مستحقٍّ للشكرِ والحبِّ مِنْ وجهينِ :

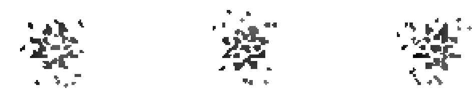
أحدُهُما : أنَّهُ مضطرٌّ بتسليطِ اللهِ الدواعيَ عليهِ ، فلا قدرةَ لهُ على المخالفةِ ، فهوَ جارٍ مجرىٰ خازنِ الأميرِ ، فإنَّهُ لا يُرىٰ محسناً بتسليمِ خلعةِ الأميرِ إلىٰ مَنْ خلعَ عليهِ ؛ لأنَّهُ مِنْ جهةِ الأميرِ مضطرٌّ إلى الطاعةِ والامتثالِ لما يرسمُهُ ، ولا يقدرُ علىٰ مخالفتِهِ ، ولوْ خلاهُ الأميرُ ونفسَهُ. . لما سلَّمَ ذلكَ ؛ فكذلكَ كلُّ محسنٍ لوْ خلاهُ اللهُ ونفسَهُ. . لمْ يبذُلْ حبَّةً مِنْ مالِهِ ؛ حتَّىٰ سلَّطَ اللهُ الدواعيَ عليهِ ، وألقىٰ في نفسِهِ أنَّ حظَّهُ ديناً ودنيا في بذلِهِ ، فبذلَهُ لذلكَ .

والثاني : أنَّهُ معتاضٌ عمَّا بذلَهُ حظاً هوَ أوفىٰ عندَهُ وأحبُّ ممَّا بذلَهُ ، فكما لا يعدُّ البائعُ محسناً لأنَّهُ بذلَ بعوضٍ هوَ أحبُّ عندَهُ ممَّا بذلَهُ. . فكذلكَ الواهبُ اعتاضَ الثوابَ أوِ الحمدَ والثناءَ أوْ عوضاً آخرَ ، وليسَ مِنْ شرطِ العوضِ أنْ يكونَ عيناً متموَّلاً ، بلِ الحظوظُ كلُّها أعواضٌ تُستحقرُ الأموالُ والأعيانُ بالإضافةِ إليها ، فالإحسانُ في الجودِ ، والجودُ هوَ بذلُ المالِ مِنْ غيرِ عوضٍ وحظٍّ يرجعُ إلى الباذلِ ، وذلكَ محالٌ مِنْ غيرِ اللهِ تعالىٰ ، فهوَ الذي أنعمَ على العالمينَ إحساناً إليهِمْ ، ولأجلِهِمْ ، لا لحظٍّ وغرضٍ يرجعُ إليهِ ؛ فإنَّهُ يتعالىٰ عنِ الأغراضِ .

فلفظُ الجودِ والإحسانِ في حقِّ غيرِهِ كذبٌ أوْ مجازٌ ، ومعناهُ في حقِّ

غيرِهِ محالٌ وممتنعٌ امتناعَ الجمعِ بينَ السوادِ والبياضِ ، فهوَ المنفردُ بالجودِ والإحسانِ ، والطَّوْلِ والامتنانِ .

فإنْ كانَ في الطبعِ حبُّ المحسنِ .. فينبغي ألا يحبَّ العارفُ إلا اللهَ تعالىٰ ؛ إذِ الإحسانُ مِنْ غيرِهِ محالٌ ، فهوَ المستحقُّ لهـٰذهِ المحبةِ وحدَهُ ، وأمَّا غيرُهُ .. فيستحقُّ المحبةَ على الإحسانِ بشرطِ الجهلِ بمعنى الإحسانِ وحقيقتِهِ .



وأمَّا السببُ الثالثُ : وهوَ حبُّكَ للمحسنِ في نفسِهِ وإنْ لمْ يصلْ إليكَ إحسانُهُ :

وهـٰذا أيضاً موجودٌ في الطباعِ ؛ فإنَّهُ إذا بلغَكَ خبرُ ملكٍ عالمٍ عابدٍ عادلٍ ، رفيقٍ بالناسِ ، متلطِّفٍ بهِمْ ، متواضعٍ لهُمْ ، وهوَ في قطرٍ مِنْ أقطارِ الأرضِ بعيدٌ عنكَ ، وبلغَكَ خبرُ ملكٍ آخرَ ظالمٍ متكبِّرٍ ، فاسقٍ متهتِّكٍ شريرٍ ، وهوَ أيضاً بعيدٌ عنكَ .. فإنَّكَ تجدُ في قلبِكَ تفرقةً بينَهُما ؛ إذْ تجدُ في القلبِ ميلاً إلى الأوَّلِ ، وهوَ الحبُّ ، ونفرةً عنِ الثاني ، وهوَ البغضُ ، معَ أنَّكَ آيسٌ مِنْ خيرِ الأوَّلِ وآمنٌ مِنْ شرِّ الثاني ؛ لانقطاعِ طمعِكَ عنِ التوغُّلِ إلىٰ بلادِهِما ، فهـٰذا حبُّ المحسنِ مِنْ حيثُ إنَّهُ محسنٌ فقطْ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ محسنٌ إليكَ ، وهـٰذا أيضاً يقتضي حبَّ اللهِ تعالىٰ ، بلْ يقتضي ألا يحبَّ غيرَهُ أصلاً إلا مِنْ حيثُ إنَّهُ يتعلَّقُ منهُ بسببٍ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ هوَ المحسنُ إلى الكافةِ والمتفضِّلُ علىٰ جميعِ أصنافِ الخلائقِ ؛ **أوَّلاً** : بإيجادِهِمْ ، **وثانياً** :

بتكميلِهِمْ بالأعضاءِ والأسبابِ التي هيَ مِنْ ضروراتِهِمْ ، **وثالثاً** : بترفيهِهِمْ وتنعيمِهِمْ بخلقِ الأسبابِ التي هيَ في مظانِّ حاجاتِهِمْ ، وإنْ لمْ تكنْ في مظانِّ الضرورةِ ، **ورابعاً** : بتجميلِهِمْ بالمزايا والزوائدِ التي هيَ في مَظِنَّةِ زينتِهِمْ ، وهيَ خارجةٌ عنْ ضروراتِهِمْ وحاجاتِهِمْ .

ومثالُ الضروريِّ مِنَ الأعضاءِ : الرأسُ ، والقلبُ ، والكبدُ ، **ومثالُ المحتاجِ إليهِ** : العينُ ، واليدُ ، والرجْلُ ، **ومثالُ الزينةِ** : استقواسُ الحاجبينِ ، وحمرةُ الشفتينِ ، وتلوُّنُ العينينِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا لوْ فاتَ . . لمْ تنخرمْ بهِ حاجةٌ ولا ضرورةٌ .

ومثالُ الضروريِّ مِنَ النعمِ الخارجةِ عنْ بدنِ الإنسانِ : الماءُ والغذاءُ ، **ومثالُ الحاجةِ** : الدواءُ ، واللحمُ ، والفواكهُ ، **ومثالُ المزايا والزوائدِ** : خضرةُ الأشجارِ ، وحسنُ أشكالِ الأنوارِ والأزهارِ ، ولذائذُ الفواكهِ والأطعمةِ التي لا تنخرمُ بعدمِها حاجةٌ ولا ضرورةٌ .

وهٰذهِ الأقسامُ الثلاثةُ موجودةٌ لكلِّ حيوانٍ ، بلْ لكلِّ نباتٍ ، بلْ لكلِّ صنفٍ مِنْ أصنافِ الخلقِ مِنْ ذروةِ العرشِ إلىٰ منتهى الثرىٰ[1] .

فإذاً ؛ هوَ المحسنُ ، وكيفَ يكونُ غيرُهُ محسناً وذلكَ المحسنُ حسنةٌ مِنْ حسناتِ قدرتِهِ ؟! فإنَّهُ خالقُ الحسنِ ، وخالقُ المحسنِ ، وخالقُ الإحسانِ ،

---

(١) وفي نسخة الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٥٦٣) : (الفرش) بدل (الثرىٰ) .

وخالقُ أسبابِ الإحسانِ ، فالحبُّ بهٰذهِ العلَّةِ لغيرِهِ أيضاً جهلٌ محضٌ ، ومَنْ عرفَ ذلكَ . . لمْ يحبَّ بهٰذهِ العلةِ إلا اللهَ تعالىٰ .



وأمَّا السببُ الرابعُ : وهوَ حبُّ كلِّ جميلٍ لذاتِ الجمالِ ، لا لحظٍّ يُنالُ منهُ وراءَ إدراكِ الجمالِ :

فقدْ بيَّنا أنَّ ذلكَ مجبولٌ في الطباعِ ، وأنَّ الجمالَ ينقسمُ إلىٰ جمالِ الصورةِ الظاهرةِ المدركةِ بعينِ الرأسِ ، وإلىٰ جمالِ الصورةِ الباطنةِ المدركةِ بعينِ القلبِ ونورِ البصيرةِ ، والأوَّلُ يدركُهُ الصبيانُ والبهائمُ ، والثاني يختصُّ بدركِهِ أربابُ القلوبِ ، ولا يشاركُهُمْ فيهِ مَنْ لا يعلمُ إلا ظاهراً مِنَ الحياةِ الدنيا .

وكلُّ جمالٍ فهوَ محبوبٌ عندَ مدركِ الجمالِ ، فإنْ كانَ مدركاً بالقلبِ . . فهوَ محبوبٌ بالقلبِ ، ومثالُ هٰذا في المشاهدةِ : حبُّ الأنبياءِ والعلماءِ وذوي المكارمِ السنيَّةِ والأخلاقِ المرضيَّةِ ؛ فإنَّ ذلكَ متصوَّرٌ معَ تشوُّشِ صورةِ الوجهِ وسائرِ الأعضاءِ ، وهوَ المرادُ بحسنِ الصورةِ الباطنةِ ، والحسُّ لا يدركُهُ .

نعمْ ، يدركُ الحسُّ آثارَهُ الصادرةَ منهُ الدالَّةَ عليهِ ، حتَّىٰ إذا دلَّ القلبَ عليهِ . . مالَ القلبُ إليهِ فأحبَّهُ ، فمَنْ يحبُّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أوِ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ ، أوِ الشافعيَّ رحمةُ اللهِ تعالىٰ عليهِ . . فلا

يحبُّهُمْ إلا لحسنِ ما ظهرَ لهُ منهُمْ ، وليسَ ذلكَ لحسنِ صورِهِمْ ، ولا لحسنِ أفعالِهِمْ ، بلْ دلَّ حسنُ أفعالِهِمْ علىٰ حسنِ الصفاتِ التي هيَ مصدرُ الأفعالِ ، إذِ الأفعالُ آثارٌ صادرةٌ عنها ، ودالَّةٌ عليها .

فمَنْ رأىٰ حسنَ تصنيفِ المصنِّفِ ، وحسنَ شعرِ الشاعرِ ، بلْ حسنَ نقشِ النَّقاشِ وبناءِ البنَّاءِ . . انكشفَ لهُ مِنْ هـٰذهِ الأفعالِ صفاتُهُمُ الجميلةُ الباطنةُ التي يرجعُ حاصلُها عندَ البحثِ إلى العلمِ والقدرةِ ، وكلَّما كانَ المعلومُ أشرفَ وأتمَّ جمالاً وعظمةً . . كانَ العلمُ أشرفَ وأجملَ ، وكذا المقدورُ كلَّما كانَ أعظمَ رتبةً وأجلَّ منزلةً . . كانَتِ القدرةُ عليهِ أجلَّ رتبةً وأشرفَ قدْراً .

وأجلُّ المعلوماتِ هوَ اللهُ تعالىٰ ، فلا جرمَ أحسنُ العلومِ وأشرفُها معرفةُ اللهِ تعالىٰ ، وكذلكَ ما يقاربُهُ ويختصُّ بهِ فشرفُهُ علىٰ قدْرِ تعلُّقِهِ بهِ[1] .

فإذاً ؛ جمالُ صفاتِ الصدِّيقينَ الذينَ تحبُّهُمُ القلوبُ طبعاً ترجعُ إلىٰ ثلاثةِ أمورٍ :

أحدُها : علمُهُمْ باللهِ تعالىٰ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ وشرائعِ أنبيائِهِ .

---

(١) وإنما شرفه لأنه معرفة لأفعال الله تعالىٰ ، ومعرفة للطريق الذي يقرِّب العبد من الله تعالىٰ ، والأمر الذي يسهل به الوصول إلىٰ معرفة الله والقرب منه ، وكل معرفة خارجة عن ذلك . . فليس فيها كبير شرف . « إتحاف » (٩/٥٦٣) .

والثاني : قدرتُهُمْ علىٰ إصلاحِ أنفسِهِمْ وإصلاحِ عبادِ اللهِ تعالىٰ بالإرشادِ والسياسةِ .

والثالثُ : تنزُّهُهُمْ عنِ الرذائلِ والخبائثِ والشهواتِ الغالبةِ الصارفةِ عنْ سننِ الخيرِ ، الجاذبةِ إلىٰ طريقِ الشرِّ .

وبمثلِ هـٰذا يُحبُّ الأنبياءُ والعلماءُ والخلفاءُ والملوكُ الذينَ هُمْ أهلُ العدلِ والكرمِ ، فانسبْ هـٰذهِ الصفاتِ إلىٰ صفاتِ اللهِ تعالىٰ .

أمَّا العلمُ : فأينَ علمُ الأوَّلينَ والآخرينَ مِنْ علمِ اللهِ تعالىٰ الذي يحيطُ بالكلِّ إحاطةً خارجةً عنِ النهايةِ ؛ حتَّىٰ لا يعزبُ عنهُ مثقالُ ذرَّةٍ في السماواتِ ولا في الأرضِ ؟

وقدْ خاطبَ الخلقَ كلَّهُمْ فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ، بلْ لوِ اجتمعَ أهلُ الأرضِ والسماءِ علىٰ أنْ يحيطوا بعلمِهِ وحكمتِهِ في تفصيلِ خلقِ نملةٍ أوْ بعوضةٍ . . لمْ يطلعوا علىٰ عُشْرِ عَشيرِ ذلكَ ! ولا يحيطونَ بشيءٍ مِنْ علمِهِ إلا بما شاءَ ، والقدْرُ اليسيرُ الذي علمَهُ الخلائقُ كلُّهُمْ فبتعليمِهِ علموهُ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ .

فإنْ كانَ جمالُ العلمِ وشرفُهُ أمراً محبوباً ، وكانَ هوَ في نفسِهِ زينةً وكمالاً للموصوفِ بهِ . . فلا ينبغي أنْ يُحبَّ بهـٰذا السببِ إلا اللهُ تعالىٰ ، فعلومُ العلماءِ جهلٌ بالإضافةِ إلىٰ علمِهِ ، بلْ مَنْ عرفَ أعلمَ أهلِ زمانِهِ وأجهلَ أهلِ زمانِهِ . . استحالَ أنْ يحبَّ بسببِ العلمِ الأجهلَ ويتركَ الأعلمَ ، وإنْ كانَ

الأجهلُ لا يخلو عنْ علمٍ ما بتفاصيلِ معيشتِهِ ، والتفاوتُ بينَ علمِ اللهِ وبينَ علمِ الخلائقِ أكثرُ مِنَ التفاوتِ بينَ علمِ أعلمِ الخلائقِ وأجهلِهِمْ ؛ لأنَّ الأعلمَ لا يفضلُ الأجهلَ إلا بعلومٍ معدودةٍ متناهيةٍ يُتصوَّرُ في الإمكانِ أنْ ينالَها الأجهلُ بالكسبِ والاجتهادِ ، وفضْلُ علمِ اللهِ سبحانَهُ علىٰ علومِ الخلائقِ كلِّهِمْ خارجٌ عنِ النهايةِ ؛ إذْ معلوماتُهُ لا نهايةَ لها ، ومعلوماتُ الخلقِ متناهيةٌ .

وأمَّا صفةُ القدرةِ : فهيَ أيضاً كمالٌ ، والعجزُ نقصٌ ، وكلُّ كمالٍ وبهاءٍ وعظمةٍ ومجدٍ واستيلاءٍ فإنَّهُ محبوبٌ ، وإدراكُهُ لذيذٌ ، حتَّىٰ إنَّ الإنسانَ ليسمعُ في الحكايةِ شجاعةَ عليٍّ وخالدٍ ـ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما ـ وغيرِهِما مِنَ الشجعانِ ، وقدرتَهُما واستيلاءَهُما على الأقرانِ ، فيصادفُ في قلبِهِ اهتزازاً وفرحاً وارتياحاً ضرورياً بمجرَّدِ لذَّةِ السماعِ فضْلاً عنِ المشاهدةِ ، ويورثُ ذلكَ حبّاً في القلبِ ضرورياً للمتصفِ بهِ ، فإنَّهُ نوعُ كمالٍ .

فانسبِ الآنَ قدرةَ الخلقِ كلِّهِمْ إلىٰ قدرةِ اللهِ تعالىٰ ، فأعظمُ الأشخاصِ قوَّةً ، وأوسعُهُمْ ملكاً ، وأقواهُمْ بطشاً ، وأقهرُهُمْ للشهواتِ ، وأقمعُهُمْ لخبائثِ النفسِ ، وأجمعُهُمْ للقدرةِ علىٰ سياسةِ نفسِهِ وسياسةِ غيرِهِ . . ما منتهىٰ قدرتِهِ ؟ وإنَّما غايتُهُ أنْ يقدرَ علىٰ بعضِ صفاتِ نفسِهِ ، وعلىٰ بعضِ أشخاصِ الإنسِ في بعضِ الأمورِ ، وهوَ معَ ذلكَ لا يملكُ لنفسِهِ موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، ولا نفعاً ولا ضرّاً ، بلْ لا يقدرُ علىٰ حفظِ عينِهِ مِنَ العمىٰ ، ولسانِهِ مِنَ الخرسِ ، وأذنِهِ مِنَ الصممِ ، وبدنِهِ مِنَ المرضِ ،

ولا يُحتاجُ إلىٰ عدٍّ ما يعجزُ عنهُ في نفسِهِ وغيرِهِ ممَّا هوَ على الجملةِ متعلَّقُ قدرتِهِ ، فضلاً عمَّا لا تتعلَّقُ بهِ قدرتُهُ مِنْ ملكوتِ السماواتِ وأفلاكِها وكواكبِها ، والأرضِ وجبالِها وبحارِها ورياحِها وصواعقِها ومعادنِها ونباتِها وحيواناتِها وجميعِ أجزائِها ، فلا قدرةَ لهُ علىٰ ذرَّةٍ منها .

وما هوَ قادرٌ عليهِ مِنْ نفسِهِ وغيرِهِ فليسَتْ قدرتُهُ مِنْ نفسِهِ وبنفسِهِ ، بلِ اللهُ خالقُهُ وخالقُ قدرتِهِ ، وخالقُ أسبابِهِ ، والممكِّنُ لهُ مِنْ ذلكَ ، ولوْ سلَّطَ بعوضاً علىٰ أعظمِ ملكٍ وأقوىٰ شخصٍ مِنَ الحيواناتِ . . لأهلكَهُ ، فليسَ للعبدِ قدرةٌ إلا بتمكينِ مولاهُ ، كما قالَ في أعظمِ ملوكِ الأرضِ ذي القرنينِ : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، فلمْ يكنْ جميعُ ملكِهِ وسلطنتِهِ إلا بتمكينِ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ في جزءٍ مِنَ الأرضِ ، والأرضُ كلُّها مدرةٌ بالإضافةِ إلىٰ أجسامِ العالمِ ، وجميعُ الولاياتِ التي يحظىٰ بها الناسُ مِنَ الأرضِ غبرةٌ مِنْ تلكَ المدرةِ ، ثمَّ تلكَ الغبرةُ أيضاً مِنْ فضْلِ اللهِ تعالىٰ وتمكينِهِ ، فيستحيلُ أنْ يحبَّ عبداً مِنْ عبادِ اللهِ تعالىٰ لقدرتِهِ وسياستِهِ ، وتمكُّنِهِ واستيلائِهِ وكمالِ قوَّتِهِ . . ولا يحبَّ اللهَ تعالىٰ لذلكَ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، فهوَ الجبَّارُ القاهرُ ، والعليمُ القادرُ ، السماواتُ مطوياتٌ بيمينِهِ ، والأرضُ وما عليها في قبضتِهِ ، وناصيةُ جميعِ المخلوقاتِ في قبضةِ قدرتِهِ ، إنْ أهلكَهُمْ مِنْ عندِ آخرِهِمْ . . لمْ ينقصْ مِنْ سلطانِهِ وملكِهِ ذرَّةٌ ، وإنْ خلقَ أمثالَهُمْ ألفَ مرَّةٍ . . لمْ يعْيَ بخلقِهِ ، ولا يمسُّهُ لغوبٌ ولا فتورٌ في اختراعِهِ ، فلا قدرةَ ولا قادرَ إلا وهوَ أثرٌ مِنْ آثارِ قدرتِهِ ، فلهُ الجمالُ والبهاءُ ، والعظمةُ

والكبرياءُ ، والقهرُ والاستيلاءُ ، فإنْ كانَ يُتصوَّرُ أنْ يُحبَّ قادرٌ لكمالِ قدرتِهِ.. فلا يستحقُّ الحبَّ بكمالِ القدرةِ سواهُ أصلاً .

وأمَّا صفةُ التنزُّهِ عنِ العيوبِ والنقائصِ ، والتقدُّسِ عنِ الرذائلِ والخبائثِ : فهوَ أحدُ موجباتِ الحبِّ ، ومقتضياتِ الحسنِ والجمالِ في الصورةِ الباطنةِ ، والأنبياءُ والصدِّيقونَ وإنْ كانوا منزَّهينَ عنِ العيوبِ والخبائثِ . . فلا يُتصوَّرُ كمالُ التقديسِ والتنزيهِ إلا للواحدِ الحقِّ ، الملكِ القدوسِ ، ذي الجلالِ والإكرامِ .

وأمَّا كلُّ مخلوقٍ . . فلا يخلو عنْ نقصٍ وعنْ نقائصَ ، بلْ كونُهُ عاجزاً مخلوقاً مسخَّراً مضطراً هوَ عينُ العيبِ والنقصِ ، فالكمالُ للهِ وحدَهُ ، وليسَ لغيرِهِ كمالٌ إلا بقدْرِ ما أعطاهُ اللهُ ، وليسَ في المقدورِ أنْ ينعمَ بمنتهى الكمالِ علىٰ غيرِهِ ، فإنَّ منتهى الكمالِ أقلُّ درجاتِهِ ألا يكونَ عبداً مسخَّراً لغيرِهِ وقائماً بغيرِهِ ، وذلكَ محالٌ في حقِّ غيرِهِ ، فهوَ المنفردُ بالكمالِ ، المنزَّهُ عنِ النقصِ ، المقدَّسُ عنِ العيوبِ ، وشرحُ وجوهِ التقديسِ والتنزيهِ في حقِّهِ عنِ النقائصِ يطولُ ، وهوَ مِنْ أسرارِ علومِ المكاشفاتِ ، فلا نطوِّلُ بذكرِهِ .

فهٰذا الوصفُ أيضاً إنْ كانَ كمالاً وجمالاً محبوباً . . فلا تتمُّ حقيقتُهُ إلا لهُ ، وكمالُ غيرِهِ وتنزُّهُهُ لا يكونُ مطلقاً ، بلْ بالإضافةِ إلىٰ ما هوَ أشدُّ منهُ نقصاناً ، كما أنَّ للفرسِ كمالاً بالإضافةِ إلى الحمارِ ، وللإنسانِ كمالاً بالإضافةِ إلى الفرسِ ، وأصلُ النقصِ شاملٌ للكلِّ ، وإنَّما يتفاوتونَ في درجاتِ النقصانِ .

فإذاً ؛ الجميلُ محبوبٌ ، والجميلُ المطلقُ هوَ الواحدُ الذي لا ندَّ لهُ ، الفردُ الذي لا ضدَّ لهُ ، الصمدُ الذي لا منازعَ لهُ ، الغنيُّ الذي لا حاجةَ لهُ ، القادرُ الذي يفعلُ ما يشاءُ ويحكمُ ما يريدُ ، لا رادَّ لحكمِهِ ، ولا معقِّبَ لقضائِهِ ، العالمُ الذي لا يعزبُ عنْ علمِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في السماواتِ والأرضِ ، القاهرُ الذي لا يخرجُ عنْ قبضةِ قدرتِهِ أعناقُ الجبابرةِ ، ولا ينفلتُ مِنْ سطوتِهِ وبطشِهِ رقابُ القياصرةِ ، الأزليُّ الذي لا أوّلَ لوجودِهِ ، الأبديُّ الذي لا آخرَ لبقائِهِ ، الضروريُّ الوجودِ الذي لا يحومُ إمكانُ العدمِ حولَ حضرتِهِ ، القيُّومُ الذي يقومُ بنفسِهِ ويقومُ كلُّ موجودٍ بهِ ، جبَّارُ الأرضِ والسماواتِ ، خالقُ الجمادِ والحيوانِ والنباتِ ، المنفردُ بالعزَّةِ والجبروتِ ، المتوحِّدُ بالملكِ والملكوتِ ، ذو الفضْلِ والجلالِ ، والبهاءِ والجمالِ ، والقدرةِ والكمالِ ، الذي تتحيَّرُ في معرفةِ جلالِهِ العقولُ ، وتخرسُ في وصفِهِ الألسنةُ ، الذي كمالُ معرفةِ العارفينَ الاعترافُ بالعجزِ عنْ معرفتِهِ ، ومنتهىٰ نبوَّةِ الأنبياءِ الإقرارُ بالقصورِ عنْ وصفِهِ ، كما قالَ سيِّدُ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِ وعليهِمْ أجمعينَ : « لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ »[1] ، وقالَ سيِّدُ الصدِّيقينَ رضيَ اللهُ عنهُ : (سبحانَ مَنْ لمْ يجعلْ للخلقِ طريقاً إلىٰ معرفتِهِ إلا بالعجزِ عنْ معرفتِهِ)[2] ، فالعجزُ عنْ دركِ الإدراكِ إدراكٌ .

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦) .
(٢) الرسالة القشيرية (ص٤٩٥) .

فليتَ شعري مَنْ ينكرُ إمكانَ حبِّ اللهِ تعالىٰ تحقيقاً ويجعلُهُ مجازاً . . أينكرُ أنَّ هـٰذهِ الأوصافَ هيَ مِنْ أوصافِ الجمالِ والمحامدِ ، ونعوتِ الكمالِ والمحاسنِ ، أوْ ينكرُ كونَ اللهِ تعالىٰ موصوفاً بها ، أوْ ينكرُ كونَ الكمالِ والجمالِ والبهاءِ والعظمةِ محبوباً بالطبعِ عندَ مَنْ أدركَهُ ؟!

فسبحانَ مَنِ احتجبَ عنْ بصائرِ العميانِ غيرةً علىٰ جمالِهِ وجلالِهِ أنْ يطلعَ عليهِ إلا مَنْ سبقَتْ لهُ منهُ الحسنى ! الذينَ هُمْ عنْ نارِ الحجابِ مبعدونَ ، وتركَ الخاسرينَ في ظلماتِ العمىٰ يتيهونَ ، وفي مسارحِ المحسوساتِ وشهواتِ البهائمِ يتردَّدونَ ، يعلمونَ ظاهراً مِنَ الحياةِ الدنيا ، وهُمْ عنِ الآخرةِ هُمْ غافلونَ ، الحمدُ للهِ ، بلْ أكثرُهُمْ لا يعلمونَ .

والحبُّ بهـٰذا السببِ[1] أقوىٰ مِنَ الحبِّ بالإحسانِ ؛ لأنَّ الإحسانَ يزيدُ وينقصُ ، ولذلكَ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (إنَّ أودَّ الأوِدَّاءِ إليَّ مَنْ عبدَني بغيرِ نوالٍ ، لكنْ ليُعطيَ الربوبيَّةَ حقَّها)[2] .

وفي الزبورِ : (مَنْ أظلمُ ممَّنْ عبدَني لجنَّةٍ أوْ نارٍ ، لوْ لمْ أخلقْ جنَّةً ولا ناراً . . ألمْ أكنْ أهلاً أنْ أُطاعَ ؟!)[3] .

ومرَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ علىٰ طائفةٍ مِنَ العبَّادِ قدْ نحلوا ، فقالوا : نخافُ

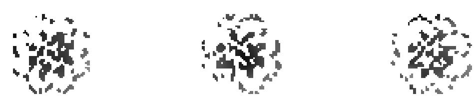
---

(١) التعرف علىٰ صفات الكمال المطلق للذات الأحدية ، مع الإقرار بالعجز المطلق عن دركها .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٥٦) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٥٦) .

النارَ ونرجو الجنَّةَ ، فقالَ لهُمْ : مخلوقاً خفتُمْ ومخلوقاً رجوتُمْ ، ومرَّ بقومٍ آخرينَ كذلكَ ، فقالوا : نعبدُهُ حبّاً لهُ وتعظيماً لجلالِهِ ، فقالَ : أنتُمْ أولياءُ اللهِ حقّاً ، معَكُمْ أُمرتُ أنْ أقيمَ[١] .

وقالَ أبو حازمٍ : (إنِّي لأستحيي أنْ أعبدَهُ للثوابِ والعقابِ ، فأكونَ كالعبدِ السوءِ ؛ إنْ لمْ يخفْ . . لمْ يعملْ ، وكالأجيرِ السوءِ ؛ إنْ لمْ يُعطَ . . لمْ يعملْ)[٢] .

وفي الخبرِ : « لا يكونَنَّ أحدُكُمْ كالأجيرِ السوءِ ؛ إنْ لمْ يُعطَ أجراً . . لمْ يعملْ ، ولا كالعبدِ السوءِ ؛ إنْ لمْ يخفْ . . لمْ يعملْ »[٣] .



وأمَّا السببُ الخامسُ للحبِّ : فهوَ المناسبةُ والمشاكلةُ :

لأنَّ شبهَ الشيءِ منجذبٌ إليهِ ، والشكلُ إلى الشكلِ أميلُ ، ولذلكَ ترى الصبيَّ يألفُ الصبيَّ ، والكبيرَ يألفُ الكبيرَ ، ويألفُ الطيرُ نوعَهُ ، وينفرُ مِنْ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٥٦) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٨) نحوه .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٥٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٤٢) بنحوه ، وقد رواه عن حكيم من الحكماء ابنُ المبارك في « الزهد » (٢١٩) وفيه زيادة : (ولكن يستخرج مني حب ربي عز وجل ما لم يستخرج مني غيره) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٥٦) ، حيث قال بعد إيراده لكلام أبي حازم المدني : (وقد روينا معنىٰ هـٰذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يكون أحدكم كالعبد السوء ؛ إن خاف . . عمل ، ولا كالأجير السوء ؛ إن لم يعط أجراً . . لم يعمل ») ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/ ٥٦٧) .

غيرِ نوعِهِ ، وأنسُ العالمِ بالعالمِ أكثرُ منهُ بالمحترفِ ، وأنسُ النجَّارِ بالنجارِ أكثرُ مِنْ أنسِهِ بالفلاحِ ، وهـٰذا أمرٌ تشهدُ بهِ التجربةُ ، وتشهدُ لهُ الأخبارُ والآثارُ كما استقصيناهُ في بابِ الأخوَّةِ في اللهِ مِنْ كتابِ آدابِ الصحبةِ ، فليطلبْ منهُ .

وإذا كانَتِ المناسبةُ سببَ التحابِّ . . فالمناسبةُ قدْ تكونُ في معنىً ظاهرٍ ؛ كمناسبةِ الصبيِّ الصبيَّ في معنى الصبا ، وقدْ يكونُ خفيّاً حتَّىٰ لا يُطلعُ عليهِ ؛ كما ترىٰ مِنَ الاتحادِ الذي يتفقُ بينَ شخصينِ مِنْ غيرِ ملاحظةِ جمالٍ ، أوْ طمعٍ في مالٍ أوْ غيرِهِ ، كما أشارَ إليهِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « الأرواحُ جنودٌ مجندةٌ ، فما تعارفَ منها . . ائتلفَ ، وما تناكرَ منها . . اختلفَ »(1) ، والتعارفُ هوَ التناسبُ ، والتناكرُ هوَ التباينُ(2) .

وهـٰذا السببُ أيضاً يقتضي حبَّ اللهِ تعالىٰ لمناسبةٍ باطنةٍ لا ترجعُ إلى المشابهةِ في الصورِ والأشكالِ ، بلْ إلىٰ معانٍ باطنةٍ يجوزُ أنْ يُذكرَ بعضُها في الكتبِ ، وبعضُها لا يجوزُ أنْ يُسطرَ ، بلْ يُتركُ تحتَ غطاءِ الغيرةِ حتَّىٰ يعثرَ عليهِ السالكونَ للطريقِ إذا استكملوا شرطَ السلوكِ .

فالذي يُذكرُ هوَ قربُ العبدِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ في الصفاتِ التي أُمرَ فيها

---

(1) رواه مسلم (٢٦٣٨) .
(2) أي : ما تناسب منها في عالم الأزل . . حصل بينهما الائتلاف في عالم الشهادة ، وما تباين هناك . . أوجب حصول الاختلاف ههنا . « إتحاف » (٩/ ٥٦٨) .

بالاقتداءِ والتخلُّقِ بأخلاقِ الربوبيّةِ ، حتّىٰ قيلَ : (تخلَّقوا بأخلاقِ اللهِ)[1] ، وذلكَ في اكتسابِ محامدِ الصفاتِ التي هيَ مِنْ صفاتِ الإلـٰهيةِ ؛ مِنَ العلمِ ، والبرِّ ، والإحسانِ ، واللطفِ ، وإفاضةِ الخيرِ والرحمةِ على الخلقِ ، والنصيحةِ لهُمْ ، وإرشادِهِمْ إلى الحقِّ ، ومنعِهِمْ مِنَ الباطلِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ مكارمِ الشريعةِ ، فكلُّ ذلكَ يقرِّبُ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، لا بمعنىٰ طلبِ القربِ بالمكانِ ، بلْ بالصفاتِ .

وأمَّا ما لا يجوزُ أنْ يُسطرَ في الكتبِ مِنَ المناسبةِ الخاصَّةِ التي اختُصَّ بها الآدميُّ . . فهيَ التي يومىءُ إليها قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ، إذْ بيَّنَ أنَّهُ أمرٌ ربَّانيٌّ خارجٌ عنْ حدِّ عقولِ الخلقِ .

وأوضحُ مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ ، ولذلكَ أسجدَ لهُ ملائكتَهُ .

ويشيرُ إليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إذْ لمْ يستحقَّ آدمُ خلافةَ اللهِ تعالىٰ إلا بتلكَ المناسبةِ[2] .

وإليـهِ يـرمـزُ قـولُـهُ صلَّـى اللهُ عليـهِ وسلَّـمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ

---

(١) إذ روى ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٧) من حديث عثمان رضي الله عنه مرفوعاً : « لله مئة وسبعة عشر خلقاً ، من جاء بخلق منها . . أدخله الله الجنة » ، وقد قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾ .

(٢) لأنه أنموذج من نور الله تعالىٰ ، ولا يخلو الأنموذج عن محاكاة ، وإن كان لا يرقىٰ إلىٰ ذروة المساواة ، وهـٰذا ربما هزَّك للتفطن لسرِّ الآية . « إتحاف » (٩/ ٥٦٨) .

صورتِهِ »[١] ، حتَّىٰ ظنَّ القاصرونَ أنْ لا صورةَ إلا الصورةُ الظاهرةُ المدركةُ بالحواسِّ ، فشبَّهوا وجسَّموا وصوَّروا ، تعالى اللهُ ربُّ العالمينَ عمَّا يقولُ الجاهلونَ علوّاً كبيراً .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ لموسىٰ عليهِ السلامُ : مرضتُ فلمْ تعدْني ، فقالَ : يا ربِّ ؛ وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : مرضَ عبدي فلانٌ فلمْ تعدْهُ ، ولوْ عدتَهُ . . لوجدتَني عندَهُ[٢] .

وهـٰذهِ المناسبةُ لا تظهرُ إلا بالمواظبةِ على النوافلِ بعدَ إحكامِ الفرائضِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : « ولا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ . . كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ ، وبصرَهُ الذي يبصرُ بهِ ، ولسانَهُ الذي ينطقُ بهِ » .

وهـٰذا موضعٌ يجبُ قبضُ عنانِ القلمِ فيهِ ، فقدْ تحزَّبَ الناسُ فيهِ : إلىٰ قاصرينَ مالوا إلى التشبيهِ الظاهرِ ، وإلىٰ غالينَ مسرفينَ جاوزوا حدَّ المناسبةِ إلى الاتحادِ وقالوا بالحلولِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهُمْ : (أنا الحقُّ) ، وضلَّ النصارىٰ في عيسىٰ عليهِ السلامُ فقالوا : (هوَ الإلـٰهُ) ، وقالَ آخرونَ منهُمْ :

---

(١) رواه مسلم (٢٦١٢/١١٥) .

(٢) روىٰ مسلم (٢٥٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدم ؛ مرضت فلم تعدني ، قال : يا رب ؛ كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته . . لوجدتني عنده ؟ . . . » الحديث .

(تدرَّعَ الناسوتُ باللاهوتِ) ، وقالَ آخرونَ : (اتحدَ بهِ)[1] .

وأمَّا الذينَ انكشفَ لهمُ استحالةُ التشبيهِ والتمثيلِ ، واستحالةُ الاتحادِ والحلولِ ، واتضحَ لهُمْ معَ ذلكَ حقيقةُ السرِّ . . فهُمُ الأقلُّونَ ، ولعلَّ أبا الحسينِ النوريَّ عنْ هـٰذا المقامِ كانَ ينظرُ ؛ إذْ غلبَهُ الوجدُ في قولِ القائلِ : [من الكامل]

لا زِلْتُ أَنْزِلُ مِنْ وِدادِكَ مَنْزِلاً		تَتَحَيَّـرُ ٱلْأَلْبـابُ عِنْـدَ نُـزُولِـهِ

فلمْ يزلْ يعدو في وجدِهِ علىٰ أجمةِ قصبٍ قدْ قُطعَتْ وبقيَتْ أصولُها ، حتَّىٰ تشقَّقَتْ قدماهُ وتورَّمتا ، وماتَ مِنْ ذلكَ[2] .

وهـٰذا هوَ أعظمُ أسبابِ الحبِّ وأقواها ، وهوَ أعزُّها وأبعدُها وأقلُّها وجوداً .

فهـٰذهِ هيَ المعلومةُ مِنْ أسبابِ الحبِّ ، وجملةُ ذلكَ متظاهرةٌ في حقِّ اللهِ تعالىٰ تحقيقاً لا مجازاً ، وفي أعلى الدرجاتِ لا في أدناها ، فكانَ المعقولُ المقبولُ عندَ ذوي البصائرِ حبَّ اللهِ تعالىٰ فقطْ ، كما أنَّ المعقولَ الممكنَ عندَ العميانِ حبُّ غيرِ اللهِ تعالىٰ فقطْ .

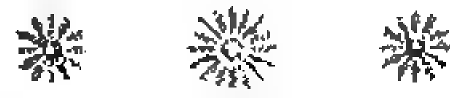
ثمَّ كلُّ مَنْ يحبُّ واحداً مِنَ الخلقِ بسببٍ مِنْ هـٰذهِ الأسبابِ يُتصوَّرُ أنْ

---

(١) تقدم هـٰذا السياق للمصنف ، وقد ألح المصنف في معالجة هـٰذه الأغلوطة في عدد من مؤلفاته ؛ كـ « المنقذ من الضلال » (ص٧٠) ، و« المقصد الأسنىٰ » (ص١٠٦) ، و« ميزان العمل » (ص٢٠٧) ، و« مشكاة الأنوار » (ص٤٢) .

(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٥/٣٤٢) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٠٤) ، وأورده الطوسي في « اللمع » (ص٣٦٣) .

يحبَّ غيرَهُ لمشاركتِهِ إيَّاهُ في السببِ ، والشركةُ نقصانٌ في الحبِّ ، وغضٌّ مِنْ كمالِهِ ، ولا ينفردُ أحدٌ بوصفٍ محبوبٍ إلا وقدْ يُوجدُ لهُ شريكٌ فيهِ ، فإنْ لمْ يُوجدْ . . فيمكنُ أنْ يُوجدَ ، إلا اللهَ تعالىٰ ، فإنَّهُ موصوفٌ بهـٰذهِ الأوصافِ التي هيَ نهايةُ الجلالِ والكمالِ ، ولا شريكَ لهُ في ذلكَ وجوداً ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ ذلكَ إمكاناً ، فلا جرمَ لا يكونُ في حبِّهِ شركةٌ ، فلا يتطرَّقُ النقصانُ إلىٰ حبِّهِ ؛ كما لا تتطرَّقُ الشركةُ إلىٰ صفاتِهِ ، فهوَ المستحقُّ إذاً لأصلِ المحبةِ ولكمالِ المحبةِ استحقاقاً لا يُساهَمُ فيهِ أصلاً .



بيان أن أجلّ اللذات وأعلاها معرفة الله تعالىٰ والنظر إلىٰ وجهه الكريم وأنه لا يُتصوّر أن يُؤْثِر عليها لذةً أخرىٰ إلا من حُرِم هـٰذه اللذة

اعلمْ : أنَّ اللذاتِ تابعةٌ للإدراكاتِ ، والإنسانُ جامعٌ لجملةٍ مِنَ القوىٰ والغرائزِ ، ولكلِّ قوةٍ وغريزةٍ لذةٌ ، ولذتُها في نيلِها لمقتضىٰ طبعِها الذي خُلقَتْ لهُ ، فإنَّ هـٰذهِ الغرائزَ ما رُكِّبَتْ في الإنسانِ عبثاً ولا هزلاً ، بلْ خُلقتْ كلُّ قوَّةٍ وغريزةٍ لأمرٍ مِنَ الأمورِ هوَ مقتضاها بالطبعِ ، فغريزةُ الغضبِ خُلقَتْ للتشفِّي والانتقامِ ، فلا جرمَ لذَّتُها في الغلبةِ والانتقامِ الذي هوَ مقتضىٰ طبعِها ، وغريزةُ شهوةِ الطعامِ مثلاً خُلقَتْ لتحصيلِ الغذاءِ الذي بهِ القوامُ ، فلا جرمَ لذَّتُها في نيلِ الغذاءِ الذي هوَ مقتضىٰ طبعِها ، وكذلكَ لذَّةُ السمعِ والبصرِ والشمِّ في الإبصارِ والاستماعِ والاشتمامِ ، فلا تخلو غريزةٌ مِنْ هـٰذهِ الغرائزِ عنْ ألمٍ ولذةٍ بالإضافةِ إلىٰ مدركاتِها ؛ **فكذلكَ في القلبِ غريزةٌ تُسمَّى النورَ الإلـٰهيَّ** ؛ لقولهِ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ ، وقدْ تُسمَّى العقلَ ، وقدْ تُسمَّى البصيرةَ الباطنةَ ، وقدْ تُسمَّىٰ نورَ الإيمانِ واليقينِ(١) ، ولا معنىٰ للاشتغالِ بالأسامي ؛ فإنَّ الاصطلاحاتِ مختلفةٌ ، والضعيفُ يظنُّ أنَّ الاختلافَ واقعٌ في المعاني ؛ لأنَّ الضعيفَ

---

(١) وكل ذلك تعبيرات عن عين في القلب منزهة عن نقائص العين الظاهرة . « إتحاف » (٩/ ٥٧١) .

يطلبُ المعانيَ مِنَ الألفاظِ ، وهوَ عكسُ الواجبِ[1] .

فالقلبُ مفارقٌ لسائرِ أجزاءِ البدنِ بصفةٍ بها يدركُ المعانيَ التي ليسَتْ متخيَّلةً ولا محسوسةً ؛ كإدراكِهِ خلْقَ العالمِ ، وافتقارَهُ إلىٰ خالقٍ قديرٍ مدبِّرٍ حكيمٍ ، موصوفٍ بصفاتٍ إلـٰهيةٍ ، ولنسمِّ تلكَ الغريزةَ عقلاً ؛ بشرطِ ألا يُفهمَ مِنْ لفظِ العقلِ ما يُدركُ بهِ طرقُ المجادلةِ والمناظرةِ ، فقدِ اشتَهرَ اسمُ العَقلِ بهـٰذا ، ولهـٰذا ذمَّهُ بعضُ الصوفيةِ ، وإلا . . فالصفةُ التي فارقَ الإنسانُ بها البهائمَ ، وبها يدركُ معرفةَ اللهِ تعالىٰ أعزُّ الصفاتِ ؛ فلا ينبغي أنْ تُذمَّ ، وهـٰذهِ الغريزةُ خُلقَتْ ليعلمَ بها حقائقَ الأمورِ كلِّها ، فمقتضىٰ طبعِها المعرفةُ والعلمُ ، وهيَ لذَّتُها ، كما أنَّ مقتضىٰ طبعِ سائرِ الغرائزِ هوَ لذَّتُها .

وليسَ يخفىٰ أنَّ في العلمِ والمعرفةِ لذةً ، حتَّىٰ إنَّ الذي يُنسبُ إلى العلمِ والمعرفةِ ولوْ في شيءٍ خسيسٍ يفرحُ بهِ ، والذي يُنسبُ إلى الجهلِ ولوْ في شيءٍ حقيرٍ يغتمُّ بهِ ، وحتَّىٰ إنَّ الإنسانَ لا يكادُ يصبرُ عنِ التحدِّي بالعلمِ والتمدُّحِ بهِ في الأشياءِ الحقيرةِ ، فالعالمُ باللعبِ بالشطرنجِ علىٰ خسَّتِهِ لا يطيقُ السكوتَ فيهِ عنِ التعليمِ ، وينطلقُ لسانُهُ بذكرِ ما يعلمُهُ ، وكلُّ ذلكَ لفرْطِ لذَّةِ العلمِ ، وما يستشعرُهُ مِنْ كمالِ ذاتِهِ بهِ ، فإنَّ العلمَ مِنْ أخصِّ صفاتِ الربوبيَّةِ ، وهي منتهى الكمالِ .

ولذلكَ يرتاحُ الطبعُ إذا أُثنيَ عليهِ بالذكاءِ وغزارةِ العلمِ ؛ لأنَّهُ يستشعرُ

---

(١) فإن دائرة المعاني أوسع من دائرة الألفاظ ، فلا تكاد الألفاظ تحيط بها كما ينبغي . « إتحاف » (٩/ ٥٧١) .

عندَ سماعِ الثناءِ كمالَ ذاتِهِ وكمالَ علمِهِ ، فيعجبُ بنفسِهِ ويلتذُّ بهِ .

ثمَّ ليسَ لذةُ العلمِ بالحراثةِ والخياطةِ كلذَّةِ العلمِ بسياسةِ الملكِ وتدبيرِ أمرِ الخلقِ ، ولا لذَّةُ العلمِ بالنحوِ والشعرِ كلذَّةِ العلمِ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وملائكتِهِ وملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، بلْ لذَّةُ العلمِ بقدْرِ شرفِ العلمِ ، وشرفُ العلمِ بقدْرِ شرفِ المعلومِ ، حتَّىٰ إنَّ الذي يعرفُ بواطنَ أحوالِ الناسِ ويخبُرُها . . يجدُ لهُ لذَّةً ، وإنْ جهلَهُ . . يتقاضاهُ طبعُهُ أنْ يفحصَ عنهُ .

فإنْ علمَ بواطنَ أحوالِ رئيسِ البلدِ وأسرارَ تدبيرِهِ في رئاستِهِ . . كانَ ذلكَ ألذَّ عندَهُ وأطيبَ مِنْ علمِهِ بباطنِ حالِ فلاحٍ أوْ حائكٍ ، فإنِ اطلعَ علىٰ أسرارِ الوزيرِ وتدبيرِهِ وما هوَ عازمٌ عليهِ في أمورِ الوزارةِ . . فهوَ أشهىٰ عندَهُ وألذُّ مِنْ علمِهِ بأسرارِ الرئيسِ ، فإنْ كانَ خبيراً بباطنِ أحوالِ الملكِ والسلطانِ الذي هوَ المستولي على الوزيرِ . . كانَ ذلكَ أطيبَ عندَهُ وألذَّ مِنْ علمِهِ بباطنِ أسرارِ الوزيرِ ، وكانَ تمدُّحُهُ بذلكَ وحرصُهُ عليهِ وعلى البحثِ عنهُ أشدَّ ، وحبُّهُ لهُ أكثرَ ؛ لأنَّ لذَّتَهُ فيهِ أعظمُ .

فبهـٰذا استبانَ أنَّ ألذَّ المعارفِ أشرفُها ، وشرفُها بحسَبِ شرفِ المعلومِ ، فإنْ كانَ في المعلوماتِ ما هوَ الأجلُّ والأكملُ والأشرفُ والأعظمُ . . فالعلمُ بهِ ألذُّ العلومِ ـ لا محالةَ ـ وأشرفُها وأطيبُها .

وليتَ شعري هلْ في الوجودِ شيءٌ أجلُّ وأعلىٰ وأشرفُ وأكملُ وأعظمُ مِنْ خالقِ الأشياءِ كلِّها ، ومكمِّلِها ومرتِّبِها ، ومُبدئِها ومُعيدِها ، ومدبِّرِها

ومزيّنها ؟ وهلْ يُتصوَّرُ أنْ تكونَ حضرةٌ في الملكِ والكمالِ والجمالِ والبهاءِ والجلالِ أعظمَ مِنَ الحضرةِ الربَّانيَّةِ التي لا يحيطُ بمبادي جلالِها وعجائبِ أحوالِها وصفُ الواصفينَ ؟!

فإنْ كنتَ لا تشكُّ في ذلكَ . . فلا ينبغي أنْ تشكَّ في أنَّ الاطلاعَ علىٰ أسرارِ الربوبيَّةِ والعلمَ بترتُّبِ الأمورِ الإلـٰهيَّةِ المحيطةِ بكلِّ الموجوداتِ . . هوَ أعلىٰ أنواعِ المعارفِ والاطلاعاتِ وألذُّها وأطيبُها وأشهاها ، وأحرىٰ ما تستشعرُ بهِ النفوسُ عندَ الاتصافِ بهِ كمالَها وجمالَها ، وأجدرُ ما يعظمُ بهِ الفرحُ والارتياحُ والاستبشارُ .

وبهـٰذا تبيَّنَ أنَّ العلمَ لذيذٌ ، وأنَّ ألذَّ العلومِ العلمُ باللهِ تعالىٰ وبصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وتدبيرِهِ في مملكتِهِ مِنْ منتهىٰ عرشِهِ إلىٰ تخومِ الأرضينَ ، فينبغي أنْ يعلمَ أنَّ لذَّةَ المعرفةِ أقوىٰ مِنْ سائرِ اللذاتِ ؛ أعني : لذَّةَ الشهوةِ والغضبِ ولذَّةَ سائرِ الحواسِّ الخمسِ ، فإنَّ اللذاتِ **مختلفةٌ بالنوعِ** أولاً ؛ كمخالفةِ لذَّةِ الوقاعِ للذةِ السماعِ ، ولذةِ المعرفةِ للذةِ الرئاسةِ ، وهيَ **مختلفةٌ بالضعفِ والقوَّةِ** ؛ كمخالفةِ لذَّةِ الشَّبقِ المغتلمِ مِنَ الجماعِ للذَّةِ الفاترِ الشهوةِ ، وكمخالفةِ لذَّةِ النظرِ إلى الوجهِ الجميلِ الفائقِ الجمالِ للذةِ النظرِ إلىٰ ما دونَهُ في الجمالِ ، وإنَّما تُعرفُ أقوى اللذاتِ بأنْ تكونَ مُؤْثَرَةً علىٰ غيرِها ، فإنَّ المخيَّرَ بينَ النظرِ إلىٰ صورةٍ جميلةٍ والتمتعِ بمشاهدتِها وبينَ استنشاقِ روائحَ طيبةٍ إذا اختارَ النظرَ إلى الصورةِ الجميلةِ . . علِمَ أنَّها ألذُّ عندَهُ مِنَ الروائحِ الطيبةِ ، وكذلكَ إذا حضرَ الطعامُ وقتَ الأكلِ واستمرَّ

اللاعبُ بالشطرنجِ على اللعبِ وتركَ الأكلَ . . فيعلمُ بهِ أنَّ لذةَ الغلبةِ في الشطرنجِ أقوىٰ عندَهُ مِنْ لذةِ الأكلِ .

فهٰذا معيارٌ صادقٌ في الكشفِ عنْ ترجيحِ اللذاتِ ، فنعودُ ونقولُ :

اللذاتُ تنقسمُ إلىٰ **ظاهرةٍ** ؛ كلذَّاتِ الحواسِّ الخمسِ ، وإلىٰ **باطنةٍ** ؛ كلذَّةِ الرئاسةِ والغلبةِ والكرامةِ والعلمِ وغيرِها ؛ إذْ ليسَتْ هٰذهِ اللذَّةُ للعينِ ، ولا للأنفِ ، ولا للأذنِ ، ولا للمسِ ، ولا للذوقِ ، والمعاني الباطنةُ أغلبُ علىٰ ذوي الكمالِ مِنَ اللذاتِ الظاهرةِ فلوْ خُيِّرَ الرجلُ بينَ لذَّةِ الهريسةِ والدجاجِ المسمَّنِ واللوزينجِ وبينَ لذَّةِ الرئاسةِ وقهرِ الأعداءِ ونيلِ درجةِ الاستيلاءِ ؛ فإنْ كانَ المخيَّرُ خسيسَ الهمَّةِ ، ميِّتَ القلبِ ، شديدَ النهمةِ[1] . . اختارَ الهريسةَ والحلاوةَ ، وإنْ كانَ عاليَ الهمَّةِ ، كاملَ العقلِ . . اختارَ الرئاسةَ ، وهانَ عليهِ الجوعُ والصبرُ عنْ ضرورةِ القوتِ أياماً كثيرةً ، فاختيارُهُ للرئاسةِ يدلُّ علىٰ أنَّها ألذُّ عندَهُ مِنَ المطعوماتِ الطيِّبةِ .

نعم ، الناقصُ الذي لمْ تكملْ معانيهِ الباطنةُ بعدُ ؛ كالصبيِّ ، أوِ الذي ماتَتْ قواهُ الباطنةُ كالمعتوهِ . . لا يبعدُ أنْ يؤثرَ لذَّةَ المطعوماتِ علىٰ لذَّةِ الرئاسةِ ، وكما أنَّ لذَّةَ الرئاسةِ والكرامةِ أغلبُ اللذاتِ علىٰ مَنْ جاوزَ نقصانَ الصبا والعتهِ . . فلذةُ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ومطالعةِ جمالِ حضرةِ الربوبيَّةِ ، والنظرِ إلىٰ أسرارِ الأمورِ الإلٰهيةِ ألذُّ مِنَ الرئاسةِ التي هيَ أعلى اللذاتِ الغالبةِ على الخلقِ .

---

(١) في (أ) : (شديد النهم) ، وفي غير (ص) : (شديد البهيمية) .

وغايةُ العبارةِ عنهُ أنْ يُقالَ : فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفيَ لهُمْ مِنْ قرَّةِ أعينٍ ، وإنَّهُ أعدَّ لهُمْ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ .

وهٰذا الآنَ لا يعرفُهُ إلا مَنْ ذاقَ اللذتينِ جميعاً ، فإنَّهُ ـ لا محالةَ ـ يؤثرُ التبتُّلَ والتفرُّدَ والفكرَ والذكرَ ، وينغمسُ في بحارِ المعرفةِ ، ويتركُ الرئاسةَ ، ويستحقرُ الخلقَ الذينَ يرأسُهُمْ ؛ لعلمِهِ بفناءِ رئاستِهِ وفناءِ مَنْ عليهِ رئاستُهُ ، وكونِهِ مشوباً بالكدوراتِ التي لا يُتصوَّرُ الخلوُّ عنها ، وكونِهِ مقطوعاً بالموتِ الذي لا بدَّ مِنْ إتيانِهِ مهما أخذَتِ الأرضُ زخرفَها وازَّيَّنَتْ وظنَّ أهلُها أنَّهُمْ قادرونَ عليها ، فيستعظمُ بالإضافةِ إليها لذَّةَ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ومطالعةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ونظامِ مملكتِهِ مِنْ أعلىٰ عليينَ إلىٰ أسفلِ السافلينَ ؛ فإنَّها خاليةٌ عنِ المزاحماتِ والمكدِّراتِ ، متسعةٌ للمتواردينَ عليها ، لا تضيقُ عنهُمْ بكبرِها ، وإنَّما عرضُها مِنْ حيثُ التقديرُ السماواتُ والأرضُ ، وإذا خرجَ النظرُ عنِ المقدراتِ . . فلا نهايةَ لعرضِها ، فلا يزالُ العارفُ بمطالعتِها في جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ ، يرتعُ في رياضِها ، ويقطفُ مِنْ ثمارِها ، ويكرعُ في حياضِها ، وهوَ آمنٌ مِنِ انقطاعِها ؛ إذْ ثمارُ هٰذهِ الجنَّةِ غيرُ مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ .

ثمَّ هيَ أبديَّةٌ سرمديَّةٌ ، لا يقطعُها الموتُ ؛ إذِ الموتُ لا يهدمُ محلَّ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ومحلُّها الروحُ الذي هوَ أمرٌ ربَّانيٌّ سماويٌّ ، وإنَّما الموتُ يغيِّرُ أحوالَها ، ويقطعُ شواغلَها وعوائقَها ، ويخلِّيها مِنْ حبسِها ،

فأمَّا أنْ يعدمَها . . فلا ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ . . . ﴾ الآيةَ ، ولا تظنَّنَّ أنَّ هـٰذا مخصوصٌ بالمقتولِ في المعركةِ ، فإنَّ للعارفِ بكلِّ نَفَسٍ درجةَ ألفِ شهيدٍ ، وفي الخبرِ : أنَّ الشهيدَ يتمنَّىٰ في الآخرةِ أنْ يُردَّ إلى الدنيا ليقتلَ مرَّةً أخرىٰ ؛ لعظمِ ما يراهُ مِنْ ثوابِ الشهادةِ[1] ، وأنَّ الشهداءَ يتمنونَ لوْ كانوا علماءَ[2] ؛ لما يرونَهُ مِنْ علوِّ درجةِ العلماءِ .

فإذاً ؛ جميعُ أقطارِ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ميدانُ العارفِ ، يتبوَّأُ منهُ حيثُ يشاءُ ، مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ أنْ يتحرَّكَ إليها بجسمِهِ وشخصِهِ ، فهوَ مِنْ مطالعةِ جمالِ الملكوتِ في جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ ، وكلُّ عارفٍ فلهُ مثلُها مِنْ غيرِ أنْ يضيقَ بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ أصلاً ، إلا أنَّهُمْ يتفاوتونَ في سعةِ متنزَّهاتِهِمْ بقدْرِ تفاوتِهِمْ في اتساعِ نظرِهِمْ وسعةِ معارفِهِمْ ، وهمْ درجاتٌ عندَ اللهِ ، ولا يدخلُ في الحصرِ تفاوتُ درجاتِهِمْ .

فقدْ ظهرَ أنَّ لذَّةَ الرئاسةِ ـ وهيَ باطنةٌ ـ أقوىٰ في ذوي الكمالِ مِنْ لذَّاتِ الحواسِّ كلِّها ، وأنَّ هـٰذهِ اللذَّةَ لا تكونُ لبهيمةٍ ولا لصبيٍّ ولا لمعتوهٍ ، وأنَّ

---

(١) رواه البخاري (٢٧٩٥) ، ومسلم (١٨٧٧) .
(٢) عقد الإمام ابن عبد البر فصلاً في « جامع بيان العلم وفضله » (١/١٤٩) أورد فيه الأخبار في تفضيل العلماء على الشهداء .

لذَّةَ المحسوساتِ والشهواتِ تكونُ لذوي الكمالِ معَ لذَّةِ الرئاسةِ ، ولكنْ يؤثرونَ الرئاسةَ .

فأمَّا معنىٰ كونِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وملكوتِ سماواتِهِ وأسرارِ ملكِهِ أعظمَ لذَّةً مِنَ الرئاسةِ . . فهـٰذا يختصُّ بمعرفتِهِ مَنْ نالَ رتبةَ المعرفةِ وذاقَها ، ولا يمكنُ إثباتُ ذلكَ عندَ مَنْ لا قلبَ لهُ ؛ لأنَّ القلبَ معدنُ هـٰذهِ القوَّةِ ، كما أنَّهُ لا يمكنُ إثباتُ رجحانِ لذَّةِ الوقاعِ علىٰ لذَّةِ اللعبِ بالصولجانِ عندَ الصبيانِ ، ولا رجحانِهِ علىٰ لذةِ شمِّ البنفسجِ عندَ العنينِ ؛ لأنَّهُ فقدَ الصفةَ التي بها تُدركُ هـٰذهِ اللذةُ ، ولكنْ مَنْ سلمَ مِنْ آفةِ العنَّةِ وسلمَتْ حاسَّةُ شمِّهِ . . أدركَ التفاوتَ بينَ اللذتينِ ، وعندَ هـٰذا لا يبقىٰ إلا أنْ يُقالَ : (مَنْ ذاقَ . . عرفَ) .

ولعمري ؛ طلابُ العلومِ وإنْ لمْ يشتغلوا بطلبِ معرفةِ الأمورِ الإلـٰهيةِ فقدِ استنشقوا رائحةَ هـٰذهِ اللذةِ عندَ انكشافِ المشكلاتِ وانحلالِ الشبهاتِ التي قويَ حرصُهُمْ علىٰ طلبِها ؛ فإنَّها أيضاً معارفُ وعلومٌ ، وإنْ كانَتْ معلوماتُها غيرَ شريفةٍ شرفَ المعلوماتِ الإلـٰهيةِ .

فأمَّا مَنْ طالَ فكرُهُ في معرفةِ اللهِ سبحانَهُ ، وقدِ انكشفَ لهُ مِنْ أسرارِ ملكِ اللهِ تعالىٰ ولوِ الشيءَ اليسيرَ . . فإنَّهُ يصادفُ في قلبِهِ عندَ حصولِ الكشفِ مِنَ الفرحِ ما يكادُ يطيرُ بهِ ، ويتعجَّبُ مِنْ نفسِهِ في ثباتِهِ واحتمالِهِ لقوَّةِ فرحِهِ وسرورِهِ ، وهـٰذا ممَّا لا يُدركُ إلا بالذوقِ ، والحكايةُ فيهِ قليلةُ الجدوىٰ .

فهٰذا القدْرُ ينبِّهُكَ علىٰ أنَّ معرفةَ اللهِ سبحانَهُ ألذُّ الأشياءِ ، وأنَّهُ لا لذَّةَ فوقَها ، ولهٰذا قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (إنَّ للهِ تعالىٰ عباداً ليسَ يشغلُهُمْ عنِ اللهِ خوفُ النارِ ولا رجاءُ الجنَّةِ ، فكيفَ تشغلُهُمُ الدنيا عنِ اللهِ ؟!)(١) .

ولذلكَ قالَ بعضُ إخوانِ معروفٍ الكرخيِّ لهُ : أخبرْني يا أبا محفوظٍ ؛ أيُّ شيءٍ أهاجَكَ إلى العبادةِ والانقطاعِ عنِ الخلقِ ؟ فسكتَ ، فقالَ : ذكرُ الموتِ ، فقالَ : وأيُّ شيءٍ الموتُ ؟ فقالَ : ذكرُ القبرِ والبرزخِ ، فقالَ : وأيُّ شيءٍ القبرُ ؟ فقالَ : خوفُ النارِ ورجاءُ الجنةِ ؟ فقالَ : وأيُّ شيءٍ هٰذا ؟ إنَّ ملكاً هٰذا كلُّهُ بيدِهِ إنْ أحببتَهُ . . أنساكَ جميعَ ذلكَ ، وإنْ كانَتْ بينَكَ وبينَهُ معرفةٌ . . كفاكَ جميعَ هٰذا(٢) .

وفي أخبارِ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إذا رأيتَ التقيَّ مشغوفاً في طلبِ الربِّ تعالىٰ . . فقدْ ألهاهُ ذلكَ عمَّا سواهُ)(٢) .

ورأىٰ بعضُ الشيوخِ بشرَ بنَ الحارثِ في النومِ فقالَ : ما فعلَ أبو نصرٍ التمَّارُ وعبدُ الوهَّابِ الورَّاقُ ؟ فقالَ : تركتُهُما الساعةَ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ يأكلانِ ويشربانِ ، قلتُ : فأنتَ ؟ قالَ : علمَ اللهُ قلَّةَ رغبتي في الأكلِ والشربِ فأعطاني النظرَ إليهِ(٣) .

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٥٧٥) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٥٦) .
(٣) نسبه الحافظ الزبيدي لصاحب « القوت » في « إتحافه » (٩/ ٥٧٥) وقال : (وحدثني بعض الأشياخ عن منصور الحربي وغيره أنه رأىٰ بشر بن الحارث في النوم . . .) .

وعنْ عليٍّ بنِ الموفقِ قالَ : رأيتُ في النومِ كأنِّي أُدخلتُ الجنةَ ، فرأيتُ رجلاً قاعداً علىٰ مائدةٍ وملكانِ عنْ يمينِهِ وشمالِهِ يلقمانِهِ مِنْ جميعِ الطيباتِ وهوَ يأكلُ ، ورأيتُ رجلاً قائماً علىٰ بابِ الجنةِ يتصفَّحُ وجوهَ الناسِ ، فيدخلُ بعضاً ويردُّ بعضاً ، قالَ : ثمَّ جاوزتهُما إلىٰ حظيرةِ القدسِ ، فرأيتُ في سرادقِ العرشِ رجلاً قدْ شخصَ ببصرِهِ ينظرُ إلى اللهِ تعالىٰ لا يطرفُ ، فقلتُ لرضوانَ : مَنْ هـٰذا ؟ فقالَ : معروفٌ الكرخيُّ ، عبدَ اللهَ لا خوفاً مِنْ نارِهِ ولا شوقاً إلىٰ جنَّتِهِ ، بلْ حبّاً لهُ ، فأباحَهُ النظرَ إليهِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، وذكرَ أنَّ الآخرينِ بشرُ بنُ الحارثِ وأحمدُ ابنُ حنبلٍ[1] .

ولذلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (مَنْ كانَ اليومَ مشغولاً بنفسِهِ . . فهوَ غداً مشغولٌ بنفسِهِ ، ومَنْ كانَ اليومَ مشغولاً بربِّهِ . . فهوَ غداً مشغولٌ بربِّه)[2] .

وقالَ الثوريُّ لرابعةَ : ما حقيقةُ إيمانِكِ ؟ قالَتْ : ما عبدتهُ خوفاً مِنْ نارِهِ ولا حبّاً لجنَّتِهِ فأكونَ كالأجيرِ السوءِ ، بلْ عبدتهُ حبّاً لهُ وشوقاً إليهِ .

وقالَتْ في معنى المحبةِ نظماً[3] : [من المتقارب]

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ ٱلْهَوَىٰ ... وَحُبّاً لأَنَّكَ أَهْلٌ لِذاكا

(١) قوت القلوب (٢/ ٥٦) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٥٧) .
(٣) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٠/ ١٥٦) .

فَأَمَّا ٱلَّذِي هُوَ حُبُّ ٱلْهَوَىٰ فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِواكا
وَأَمَّا ٱلَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشْفُكَ لِيْ ٱلْحُجْبَ حَتَّىٰ أَراكا
فَلا ٱلْحَمْدُ فِي ذا وَلا ذاكَ لِي وَلَكِنْ لَكَ ٱلْحَمْدُ فِي ذا وَذاكا

ولعلَّها أرادَتْ بحبِّ الهوىٰ حبَّ اللهِ لإحسانِهِ إليها وإنعامِهِ عليها بحظوظِ العاجلةِ ، وبحبِّهِ لما هوَ أهلٌ لهُ الحبَّ لجمالِهِ وجلالِهِ الذي انكشفَ لها ، وهوَ أعلى الحبَّينِ وأقواهُما .

ولذَّةُ مطالعةِ جمالِ الربوبيَّةِ هيَ التي عبَّر عنها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ حاكياً عنْ ربِّهِ تعالىٰ : « أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ »[1] .

وقدْ يُتعجَّلُ بعضُ هٰذهِ اللذاتِ في الدنيا لمَنِ انتهىٰ صفاءُ قلبِهِ إلى الغايةِ ، ولذلكَ قال بعضُهُمْ : إنِّي أقولُ : (يا ربِّ ، يا أللهُ . فأجدُ ذلكَ أثقلَ علىٰ قلبي مِنَ الجبالِ ؛ لأنَّ النداءَ يكونُ مِنْ وراءِ حجابٍ ، وهلْ رأيتَ جليساً ينادي جليسَهُ) ، وقالَ : (إذا بلغَ الرجلُ في هٰذا العلمِ الغايةَ . . رماهُ الخلقُ بالحجارةِ) أيْ : يخرجُ كلامُهُ عنْ حدِّ عقولِهِمْ ، فيرونَ ما يقولُهُ جنوناً أوْ كفراً[2] .

فمقصدُ العارفينَ كلِّهِمْ وصلُهُ ولقاؤُهُ فقطْ ، فهيَ قرَّةُ العينِ التي لا تعلمُ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) .
(٢) عزاهما الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٥٧٨) لصاحب « القوت » .

نفسٌ ما أُخفي لها منها ، وإذا حصلَتْ . . انمحقَتِ الهمومُ والشهواتُ كلُّها ، وصارَ القلبُ مستغرقاً بنعيمِها ، فلوْ أُلقيَ في النارِ . . لمْ يحسَّ بها لاستغراقِهِ ، ولوْ عُرِضَ عليهِ نعيمُ الجنَّةِ . . لمْ يلتفتْ إليهِ لكمالِ نعيمِهِ ، وبلوغِهِ الغايةَ التي ليسَ فوقَها غايةٌ .

وليتَ شعري مَنْ لا يفهمُ إلا حبَّ المحسوساتِ . . كيفَ يؤمنُ بلذَّةِ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ وما لهُ صورةٌ ولا شكلٌ ؟! وأيُّ معنىً لوعدِ اللهِ تعالىٰ بهِ عبادَهُ وذكرِهِ أنَّهُ أعظمُ النعمِ ؟

بلْ مَنْ عرفَ اللهَ . . عرفَ أنَّ اللذاتِ المفرَّقةَ بالشهواتِ المختلفةِ كلَّها تنطوي تحتَ هـٰذهِ اللذَّةِ ، كما قالَ بعضُهُمْ[1] : [من البسيط]

كـانَـتْ لِقَلْبِـيَ أَهْـواءٌ مُفَـرَّقَـةٌ ... فَٱسْتَجْمَعَتْ مُذْ رَأَتْكَ ٱلْعَيْنُ أَهْوائِي
فَصارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ ... وَصِرْتُ مَوْلَى ٱلْوَرَىٰ مُذْ صِرْتَ مَوْلائِي
تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْياهُمْ وَدِينَهُمُ ... شُغْلاً بِذِكْرِكَ يا دِينِي وَدُنْيائِي

ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ[2] : [من السريع]

وَهَجْـرُهُ أَعْظَـمُ مِـنْ نـارِهِ ... وَوَصْلُـهُ أَطْيَـبُ مِـنْ جَنَّتِـهْ

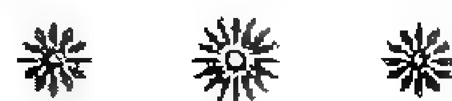
وما أرادوا بهـٰذا إلا إيثارَ لذَّةِ القلبِ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ لذةِ الأكلِ

---

(١) الأبيات لمحمد بن داوود الأصفهاني في « ديوانه » (ص٣٢) ، وهي مما نسب إلى الحلاج في « ديوانه » (٨٣) .
(٢) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٠/١٥٧) .

والشربِ والنكاحِ ، فإنَّ الجنَّةَ معدنُ تمتُّعِ الحواسِّ ، فأمَّا القلبُ . . فلذَّتُهُ في لقاءِ اللهِ تعالىٰ فقطْ .

ومثالُ أطوارِ الخلقِ في لذَّاتِهِمْ ما نذكرُهُ : وهوَ أنَّ الصبيَّ في أوَّلِ حركتِهِ وتمييزِهِ يظهرُ فيهِ غريزةٌ بها يستلذُّ اللعبَ واللهوَ ، حتَّىٰ يكونَ ذلكَ عندَهُ ألذَّ مِنْ سائرِ الأشياءِ ، ثمَّ يظهرُ بعدَهُ لذَّةُ الزينةِ ولبسِ الثيابِ وركوبِ الدوابِّ ، فيستحقرُ معها لذةَ اللعبِ ، ثمَّ يظهرُ بعدَهُ لذَّةُ الوقاعِ وشهوةُ النساءِ ، فيتركُ بها جميعَ ما قبلَها في الوصولِ إليها ، ثمَّ تظهرُ لذَّةُ الرئاسةِ والعلوِّ والتكاثرِ ، وهيَ آخرُ لذَّاتِ الدنيا وأغلبُها وأقواها ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ . . . ﴾ الآيةَ ، ثمَّ بعدَ هٰذا تظهرُ غريزةٌ أخرىٰ يدركُ بها لذَّةَ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ومعرفةِ أفعالِهِ ، فيستحقرُ معها جميعَ ما قبلَها ، فكلُّ متأخِّرٍ فهوَ أقوىٰ ، وهٰذا هوَ الأخيرُ ، إذْ يظهرُ حبُّ اللعبِ في سنِّ التمييزِ ، وحبُّ النساءِ والزينةِ في سنِّ البلوغِ ، وحبُّ الرئاسةِ بعدَ العشرينَ ، وحبُّ العلومِ بقربِ الأربعينَ ، وهيَ الغايةُ العليا ، وكما أنَّ الصبيَّ يضحكُ علىٰ مَنْ يتركُ اللعبَ ويشتغلُ بملاعبةِ النساءِ وطلبِ الرئاسةِ . . فكذلكَ الرؤساءُ يضحكونَ علىٰ مَنْ يتركُ الرئاسةَ ويشتغلُ بمعرفةِ اللهِ تعالىٰ ، والعارفونَ يقولونَ : ﴿ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ۝ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ .



بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا

اعلمْ : أنَّ المدركاتِ تنقسمُ :

إلىٰ ما يدخلُ في الخيالِ ؛ كالصورِ المتخيلةِ ، والأجسامِ المتلونةِ المتشكلةِ مِنْ أشخاصِ الحيوانِ والنباتِ .

وإلىٰ ما لا يدخلُ في الخيالِ ؛ كذاتِ اللهِ تعالىٰ ، وكلِّ ما ليسَ بجسمٍ ؛ كالعلمِ ، والقدرةِ ، والإرادة ، وغيرِها .

ومَنْ رأىٰ إنساناً ثمَّ غضَّ بصرَهُ . . وجدَ صورتَهُ حاضرةً في خيالِهِ كأنَّهُ ينظرُ إليها ، ولكنْ إذا فتحَ العينَ وأبصرَ . . أدركَ تفرقةً بينَهُما ، ولا ترجعُ التفرقةُ إلى اختلافٍ بينَ الصورتينِ ؛ لأنَّ الصورةَ المرئيةَ تكونُ موافقةً للمتخيَّلةِ ، وإنَّما الافتراقُ بمزيدِ الوضوحِ والكشفِ ، فإنَّ صورةَ المرئيِّ صارَتْ بالرؤيةِ أتمَّ انكشافاً ووضوحاً ، وهوَ كشخصٍ يُرىٰ في وقتِ الإسفارِ قبلَ انتشارِ ضوءِ النهارِ ، ثمَّ رُئِيَ عندَ تمامِ الضوءِ ، فإنَّهُ لا تفارقُ إحدى الحالتينِ الأخرىٰ إلا في مزيدِ الانكشافِ .

فإذاً ؛ الخيالُ أوَّلُ الإدراكِ ، والرؤيةُ هيَ استكمالٌ لإدراكِ الخيالِ ، وهوَ غايةُ الكشفِ ، وسُمِّيَ ذلكَ رؤيةً لأنَّهُ غايةُ الكشفِ ، لا لأنَّهُ في العينِ ، بلْ لوْ خلقَ اللهُ هـٰذا الإدراكَ الكاملَ المكشوفَ في الجبهةِ أوِ الصدرِ مثلاً . . استحقَّ أنْ يُسمَّىٰ رؤيةً .

وإذا فهمتَ هـٰذا في المتخيَّلاتِ . . فاعلمْ أنَّ المعلوماتِ التي لا تتشكَّلُ في الخيالِ أيضاً لمعرفتِها وإدراكِها درجتانِ : إحداهُما أولىٰ ، والثانيةُ استكمالٌ لها ، وبينَ الثانيةِ والأولىٰ مِنَ التفاوتِ في مزيدِ الكشفِ والإيضاحِ ما بينَ المتخيَّلِ والمرئيِّ ، فيُسمَّى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأوَّلِ مشاهدةً ولقاءً ورؤيةً ، وهـٰذهِ التسميةُ حقٌّ ؛ لأنَّ الرؤيةَ سُمِّيَتْ رؤيةً لأنَّها غايةُ الكشفِ ، وكما أنَّ سنَّةَ اللهِ تعالىٰ جاريةٌ بأنَّ تطبيقَ الأجفانِ يمنعُ مِنْ تمامِ الكشفِ بالرؤيةِ ، ويكونُ حجاباً بينَ البصرِ والمرئيِّ ، ولا بدَّ مِن ارتفاعِ الحجابِ لحصولِ الرؤيةِ ، وما لمْ ترتفعْ كانَ الإدراكُ الحاصلُ مجرَّدَ التخيُّلِ . . فكذلكَ مقتضىٰ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ أنَّ النفسَ ما دامَتْ محجوبةً بعوارضِ البدنِ ومقتضى الشهواتِ ، وما غلبَ عليها مِنَ الصفاتِ البشريةِ . . فإنَّها لا تنتهي إلى المشاهدةِ واللقاءِ في المعلوماتِ الخارجة عنِ الخيالِ .

بلْ هـٰذهِ الحياةُ حجابٌ عنها بالضرورةِ ؛ كحجابِ الأجفانِ عنْ رؤيةِ الأبصارِ ، والقولُ في سببِ كونِهِ حجاباً يطولُ[١] ، ولا يليقُ بهـٰذا العلمِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ لموسىٰ عليهِ السلامُ : ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ . وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أيْ : في الدنيا ، **والصحيحُ** : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما رأى اللهَ تعالىٰ ليلةَ المعراجِ[٢] .

---

(١) **المراد** : كون الوجود في الحياة الدنيا حجاباً .

(٢) **والمراد من التصحيح هنا** : تأكيد قضية امتناع تمام المشاهدة في الحياة الدنيا ، بل لا بد من تجاوز قنطرتها ، وهـٰذا ما اختارته الصديقة عائشة رضي الله عنها كما هو عند =

فإذا ارتفعَ الحجابُ بالموتِ . . بقيَتِ النفسُ ملوثةً بكدوراتِ الدنيا ، غيرَ منفكةٍ عنها بالكليّةِ ، وإنْ كانَتْ متفاوتةً ؛ فمنها ما تراكمَ عليهِ الخبثُ والصدأُ ، فصارَ كالمرآةِ التي فسدَ بطولِ تراكمِ الخبثِ جوهرُها ، فلا تقبلُ الإصلاحَ والتصقيلَ ، وهؤلاءِ هُمُ المحجوبونَ عنْ ربِّهِمْ أبدَ الآبادِ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ ، ومنها ما لمْ ينتهِ إلىٰ حدِّ الرينِ والطبعِ ، ولمْ يخرجْ عنْ قبولِ التزكيةِ والتصقيلِ ، فيُعرضُ على النارِ عرضاً يقمعُ منهُ الخبثَ الذي هوَ متدنِّسٌ بهِ ، ويكونُ العرضُ على النارِ بقدْرِ الحاجةِ إلى التزكيةِ ، وأقلُّها لحظةٌ خفيفةٌ ، وأقصاها في حقِّ المؤمنينَ كما وردَتْ بهِ الأخبارُ سبعةُ آلافِ سنةٍ .

ولنْ ترتحلَ نفسٌ عنْ هٰذا العالمِ إلا ويصحبُها غَبَرةٌ وكدورةٌ ما وإنْ قلَّتْ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ ، فكلُّ نفسٍ مستيقنةٌ للورودِ على النارِ وغيرُ مستيقنةٍ للصدورِ عنها ، فإذا أكملَ اللهُ تطهيرَها وتزكيتَها ، وبلغَ الكتابُ أجلَهُ ، ووقعَ الفراغُ عنْ جملةِ ما وعدَ بهِ الشرعُ مِنَ العرضِ والحسابِ وغيرِهِ ، ووافى استحقاقُ الجنَّةِ ، وذلكَ وقتٌ مبهمٌ لمْ يطلعِ اللهُ

= البخاري (٣٢٣٤) ، ومسلم (١٧٧) إذ قالت : (من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأىٰ ربه . . فقد أعظم الفرية) ، ولمسلم (١٧٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنَّىٰ أراه » .

عليهِ أحداً مِنْ خلقِهِ ؛ فإنَّهُ واقعٌ بعدَ القيامةِ ، ووقتُ القيامةِ مجهولٌ . . فعندَ ذلكَ يستعدُّ بصفائِهِ ونقائِهِ عنِ الكدوراتِ ـ حيثُ لا يرهقُ وجهَهُ غَبَرةٌ ولا قترةٌ ـ لأنْ يتجلَّىٰ فيهِ الحقُّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، فيتجلَّىٰ لهُ تجلِّياً يكونُ انكشافُ تجلِّيهِ بالإضافةِ إلىٰ ما علمَهُ كانكشافِ تجلِّي المرئياتِ بالإضافةِ إلىٰ ما تخيَّلَهُ ، وهـٰذهِ المشاهدةُ والتجلِّي هيَ التي تُسمَّىٰ رؤيةً .

فإذاً ؛ الرؤيةُ حقٌّ بشرطِ ألا يفهمَ مِنَ الرؤيةِ استكمالَ الخيالِ في متخيَّلٍ متصوَّرٍ مخصوصٍ بجهةٍ ومكانٍ ؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا يتعالىٰ عنهُ ربُّ الأربابِ علواً كبيراً ، بلْ كما عرفتَهُ في الدنيا معرفةً حقيقيةً تامَّةً مِنْ غيرِ تخيُّلٍ وتصوُّرٍ وتقديرِ شكلٍ وصورةٍ ، فتراهُ في الآخرةِ كذلكَ .

بلْ أقولُ : المعرفةُ الحاصلةُ في الدنيا بعينِها هيَ التي تُستكملُ ، فتبلغُ كمالَ الكشفِ والوضوحِ وتنقلبُ مشاهدةً ، ولا يكونُ بينَ المشاهدةِ في الآخرةِ والمعلومِ في الدنيا اختلافٌ إلا مِنْ حيثُ زيادةُ الكشفِ والوضوحِ ، كما ضربنا منَ المثالِ في استكمالِ الخيالِ بالرؤيةِ ، فإذا لمْ يكنْ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ إثباتُ صورةٍ وجهةٍ . . فلا يكونُ في استكمالِ تلكَ المعرفةِ بعينِها وترقِّيها في الوضوحِ إلىٰ غايةِ الكشفِ أيضاً جهةٌ وصورةٌ ؛ لأنَّها هيَ بعينِها لا تفترقُ منها إلا في زيادةِ الكشفِ ، كما أنَّ الصورةَ المرئيَّةَ هيَ المتخيَّلةُ بعينِها إلا في زيادةِ الكشفِ(١) .

---

(١) هـٰذه القطعة النفيسة في تحقيق معنى الرؤية لمن ليس كمثله شيء سبحانه لا تنبو قيد خاطر عما حققه المتكلمون من أهل السنة والجماعة ، غير أنها بلغة غير معهودة =

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ ، إذْ تمامُ النورِ لا يؤثِّرُ إلا في زيادةِ الكشفِ ، ولهـٰذا لا يفوزُ بدرجةِ النظرِ والرؤيةِ إلا العارفونَ في الدنيا ؛ لأنَّ المعرفةَ هيَ البذرُ الذي ينقلبُ في الآخرةِ مشاهدةً كما تنقلبُ النواةُ شجرةً ، والحبُّ زرعاً ، ومَنْ لا نواةَ في أرضِهِ . . فكيفَ يحصلُ لهُ نخلٌ وشجرٌ ؟ ومَنْ لمْ يزرعِ الحَبَّ . . فكيفَ يحصدُ الزرعَ ؟ فكذلكَ مَنْ لمْ يعرفِ اللهَ تعالىٰ في الدنيا . . فكيفَ يراهُ في الآخرةِ ؟!

ولمَّا كانَتِ المعرفةُ علىٰ درجاتٍ متفاوتةٍ . . كانَ التجلِّي أيضاً علىٰ درجاتٍ متفاوتةٍ ، فاختلافُ التجلِّي بالإضافةِ إلى اختلافِ المعارفِ كاختلافِ النباتِ بالإضافةِ إلى اختلافِ البذورِ ، إذْ تختلفُ ـ لا محالةَ ـ بكثرتِها وقلَّتِها وحسنِها وقوَّتِها وضعفِها .

ولذلكَ قالَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ اللهَ يتجلَّىٰ للناسِ عامَّةً ، ولأبي بكرٍ خاصَّةً »(١) ، فلا ينبغي أنْ يُظَنَّ أنَّ غيرَ أبي بكرٍ ممَّنْ هوَ دونَهُ يجدُ مِنْ لذَّةِ النظرِ والمشاهدةِ ما يجدُهُ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، بلْ لا يجدُ إلا عُشرَ عَشيرِهِ إنْ كانَتْ معرفتُهُ في الدنيا عُشْرَ عَشيرِ معرفةِ أبي بكرٍ ، ولمَّا فضلَ

= عندهم ، وبزيادة استبصار لا تدانيه تحقيقاتهم وكلماتهم ، بل هي وراء أسوار علم الكلام وإن تطابقا انتهاءً .

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٥/٢١٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/٧٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/١٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/١٥٩) .

الناسَ بسرٍّ وقرَ في صدرِهِ . . فُضِّلَ ـ لا محالةَ ـ بتجلٍّ انفردَ بهِ ، وكما أنَّكَ ترىٰ في الدنيا مَنْ يؤثِرُ لذَّةَ الرئاسةِ على المنكوحِ والمطعومِ ، وترىٰ مَنْ يؤثِرُ لذَّةَ العلمِ وانكشافَ مشكلاتِ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ وسائرَ الأمورِ الإلـٰهيةِ على الرئاسةِ وعلى المنكوحِ والمطعومِ والمشروبِ جميعاً . . فكذلكَ يكونُ في الآخرةِ قومٌ يؤثرونَ لذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ علىٰ نعيمِ الجنَّةِ ؛ إذْ يرجعُ نعيمُها إلى المطعومِ والمنكوحِ ، وهؤلاءِ بعينِهِمْ هُمُ الذينَ حالُهُمْ في الدنيا ما وصفنا مِنْ إيثارِ لذَّةِ العلمِ والمعرفةِ والاطلاعِ علىٰ أسرارِ الربوبيَّةِ علىٰ لذَّةِ المنكوحِ والمطعومِ والمشروبِ وسائرِ ما الخلقُ مشغولونَ بهِ .

ولذلكَ لمَّا قيلَ لرابعةَ : ما تقولينَ في الجنَّةِ ؟ فقالَتِ : الجارُ ثمَّ الدارُ . فبيَّنَتْ أنَّهُ ليسَ في قلبِها التفاتٌ إلى الجنةِ ، بل إلىٰ ربِّ الجنَّةِ .

وكلُّ مَنْ لمْ يعرفِ اللهَ في الدنيا . . فلا يراهُ في الآخرةِ ، وكلُّ مَنْ لمْ يجدْ لذَّةَ المعرفةِ في الدنيا . . فلا يجدُ لذَّةَ النظرِ في الآخرةِ ؛ إذْ ليسَ يستأنفُ لأحدٍ في الآخرةِ ما لمْ يصحبْهُ في الدنيا ، فلا يحصدُ أحدٌ إلا ما زرعَ ، ولا يُحشرُ المرءُ إلا علىٰ ما ماتَ عليهِ ، ولا يموتُ إلا علىٰ ما عاشَ عليهِ ، فما صحبَهُ مِنَ المعرفةِ هوَ الذي يتنعَّمُ بهِ بعينِهِ فقطْ ، إلا أنَّهُ ينقلبُ مشاهدةً بكشفِ الغطاءِ ، فتتضاعفُ اللذَّةُ بهِ كما تتضاعفُ لذَّةُ العاشقِ إذا استبدلَ بخيالِ صورةِ المعشوقِ رؤيةَ صورتِهِ ، فإنَّ ذلكَ هوَ منتهىٰ لذَّتِهِ ، وإنَّما طيبةُ الجنَّةِ أنَّ لكلِّ أحدٍ فيها ما يشتهي ، فمَنْ لا يشتهي إلا لقاءَ اللهِ تعالىٰ . . فلا لذَّةَ لهُ في غيرِهِ ، بلْ ربَّما يتأذّىٰ بهِ .

فإذاً ؛ نعيمُ الجنَّةِ بقدْرِ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، وحبُّ اللهِ تعالىٰ بقدْرِ معرفتِهِ ، فأصلُ السعاداتِ هيَ المعرفةُ التي عبَّرَ الشرعُ عنها بالإيمانِ .



فإنْ قلتَ : فلذَّةُ الرؤيةِ إنْ كانَتْ لها نسبةٌ إلىٰ لذَّةِ المعرفةِ . . فهيَ قليلةٌ وإنْ كانَتْ أضعافَها ؛ لأنَّ لذَّةَ المعرفةِ في الدنيا ضعيفةٌ ، فتضاعفُها إلىٰ حدٍّ قريبٍ لا ينتهي في القوَّةِ إلىٰ أنْ يُستحقرَ سائرُ لذاتِ الجنةِ فيها .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا الاستحقارَ للذَّةِ المعرفةِ مصدرُهُ الخلوُّ عنِ المعرفةِ ، فمَنْ خلا عنِ المعرفةِ كيفَ يدركُ لذَّتَها ؟ وإنِ انطوىٰ علىٰ معرفةٍ ضعيفةٍ وقلبُهُ مشحونٌ بعلائقِ الدنيا . . فكيفَ يُدركُ لذَّتَها ؟

فللعارفينَ في معرفتِهِمْ وفكرتِهِمْ ومناجاتِهِمْ للهِ تعالىٰ لذَّاتٌ لوْ عُرِضَتْ عليهِمُ الجنَّةُ في الدنيا بدلاً عنها . . لمْ يستبدلوا بها لذَّةَ الجنَّةِ ، ثمَّ هـٰذهِ اللذَّةُ معَ كمالِها لا نسبةَ لها أصلاً إلىٰ لذَّةِ اللقاءِ والمشاهدةِ ؛ كما لا نسبةَ للذَّةِ خيالِ المعشوقِ إلىٰ رؤيتِهِ ، ولا للذَّةِ استنشاقِ روائحِ الأطعمةِ الشهيَّةِ إلىٰ ذوقِها ، ولا للذَّةِ اللمسِ باليدِ إلىٰ لذَّةِ الوقاعِ ، وإظهارُ عظمِ التفاوتِ بينَهُما لا يمكنُ إلا بضربِ مثالٍ فنقولُ :

لذَّةُ النظرِ إلىٰ وجهِ المعشوقِ في الدنيا تتفاوتُ بأسبابٍ :

أحدُها : **كمالُ جمالِ المعشوقِ ونقصانُهُ** : فإنَّ اللذَّةَ في النظرِ إلى الأجملِ أكملُ لا محالةَ .

والثاني : **كمالُ قوّةِ الحبِّ والشهوةِ والعشقِ** : فليسَ التذاذُ مَنِ اشتدَّ عشقُهُ كالتذاذِ مَنْ ضعفَتْ شهوتُهُ وحبُّهُ .

والثالثُ : **كمالُ الإدراكِ** : فليسَ التذاذُهُ برؤيةِ المعشوقِ في ظلمةٍ ، أوْ مِنْ وراءِ سترٍ رقيقٍ أوْ مِنْ بعدٍ . . كالتذاذِهِ بإدراكِهِ علىٰ قربٍ مِنْ غيرِ سترٍ ، وعندَ كمالِ الضوءِ ، ولا إدراكُ لذَّةِ المضاجعةِ معَ ثوبٍ حائلٍ كإدراكِها معَ التجرُّدِ .

والرابعُ : **اندفاعُ العوائقِ المشوشةِ والآلامِ الشاغلةِ للقلبِ** : فليسَ التذاذُ الصحيحِ الفارغِ المتجرِّدِ للنظرِ إلى المعشوقِ . . كالتذاذِ الخائفِ المذعورِ ، أوِ المريضِ المتألِّمِ ، أوِ المشغولِ قلبُهُ بمهمٍّ مِنَ المهمَّاتِ .

فقدِّرْ عاشقاً ضعيفَ العشقِ ، ينظرُ إلىٰ وجهِ معشوقِهِ مِنْ وراءِ سترٍ رقيقٍ علىٰ بعدٍ ، بحيثُ يمنعُ انكشافَ كنْهِ صورتِهِ ، في حالةٍ اجتمعَ عليهِ عقاربُ وزنابيرُ تؤذيهِ وتلدغُهُ وتشغلُ قلبَهُ ، فهوَ في هٰذهِ الحالةِ لا يخلو عنْ لذَّةٍ ما مِنْ مشاهدةِ معشوقِهِ ، فلوْ طرأَتْ على الفجأةِ حالةٌ انهتكَ بها السترُ ، وأشرقَ بها الضوءُ ، واندفعَ عنهُ المؤذياتُ ، وبقيَ سليماً فارغاً ، وهجمَتْ عليهِ الشهوةُ القويَّةُ والعشقُ المفرطُ حتَّىٰ بلغَ أقصى الغاياتِ . . فانظرْ كيفَ تتضاعفُ اللذَّةُ حتَّىٰ لا يبقىٰ للأولىٰ إليها نسبةٌ يُعتدُّ بها .

فكذلكَ فافهَمْ نسبةَ لذَّةِ النظرِ إلىٰ لذَّةِ المعرفةِ ، فالسترُ الرقيقُ مثالٌ للبدنِ والاشتغالِ بهِ ، والعقاربُ والزنابيرُ مثالٌ للشهواتِ المتسلِّطةِ على الإنسانِ ؛

مِنَ الجوعِ والعطشِ والغضبِ والغمِّ والحزنِ ، وضعفُ الشهوةِ والحبِّ مثالٌ لقصورِ النفسِ في الدنيا ونقصانِها عنِ الشوقِ إلى الملأِ الأعلىٰ والتفاتِها إلىٰ أسفلِ السافلينَ ، وهوَ مثلُ قصورِ الصبيِّ عنْ ملاحظةِ لذَّةِ الرئاسةِ والتفاتِهِ إلى اللعبِ بالعصفورِ .

والعارفُ وإنْ قويَتْ في الدنيا معرفتُهُ فلا يخلو عنْ هـٰذهِ المشوِّشاتِ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يخلوَ عنها ألبتةَ .

نعمْ ، قدْ تضعفُ هـٰذهِ العوائقُ في بعضِ الأحوالِ ولا تدومُ ، فلا جرمَ يلوحُ مِنْ جمالِ المعرفةِ ما يبهتُ العقلَ ، وتعظمُ لذَّتُهُ بحيثُ يكادُ القلبُ يتفطَّرُ لعظمتِهِ ، ولكنْ يكونُ ذلكَ كالبرقِ الخاطفِ ، وقلَّما يدومُ ، بلْ يعرضُ مِنَ الشواغلِ والأفكارِ والخواطرِ ما يشوِّشُهُ وينغِّصُهُ ، وهـٰذهِ ضرورةٌ دائمةٌ في هـٰذهِ الحياةِ الفانيةِ ، فلا تزالُ هـٰذهِ اللذَّةُ منغَّصَةً إلى الموتِ ، وإنَّما الحياةُ الطيِّبةُ بعدَ الموتِ ، وإنَّما العيشُ عيشُ الآخرةِ ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وكلُّ مَنِ انتهىٰ إلىٰ هـٰذهِ الرتبةِ . . فإنَّهُ يحبُّ لقاءَ اللهِ تعالىٰ ، فيحبُّ الموتَ ولا يكرهُهُ إلا مِنْ حيثُ ينتظرُ زيادةَ استكمالٍ في المعرفةِ ، فإنَّ المعرفةَ كالبذرِ ، وبحرُ المعرفةِ لا ساحلَ لهُ ، والإحاطةُ بكنهِ جلالِ اللهِ محالٌ ، فكلَّما كثرَتِ المعرفةُ باللهِ وبصفاتِهِ وأفعالِهِ وبأسرارِ مملكتِهِ وقويَتْ . . كثُرَ النعيمُ في الآخرةِ وعظُمَ ؛ كما أنَّهُ كلَّما كثُرَ البذرُ وحسُنَ . .

كثُرَ الزرعُ وحسُنَ ، ولا يمكنُ تحصيلُ هـٰذا البذرِ إلا في الدنيا ، ولا يُزرعُ إلا في صعيدِ القلبِ ، ولا حصادَ إلا في الآخرةِ .

ولهـٰذا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ السعاداتِ طولُ العمرِ في طاعةِ اللهِ »(١) ، لأنَّ المعرفةَ إنَّما تكملُ وتكثرُ وتتسعُ في العمرِ الطويلِ بمداومةِ الفكرِ ، والمواظبةِ على المجاهدةِ ، والانقطاعِ عنْ علائقِ الدنيا ، والتجرُّدِ للطلبِ ، ويستدعي ذلكَ زماناً لا محالةَ .

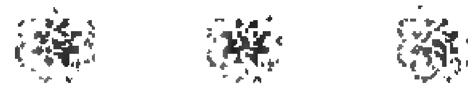
فمَنْ أحبَّ الموتَ . . أحبَّهُ لأنَّهُ رأىٰ نفسَهُ واقفاً في المعرفةِ ، بالغاً إلىٰ منتهىٰ ما يُسِّرَ لهُ ، ومَنْ كرهَ الموتَ . . كرهَهُ لأنَّهُ كانَ يؤمِّلُ مزيدَ معرفةٍ تحصلُ لهُ بطولِ العمرِ ، ورأىٰ نفسَهُ مقصِّراً عمَّا تحتملُهُ قوَّتُهُ لوْ عُمِّرَ ، فهـٰذا سببُ كراهةِ الموتِ وحبِّهِ عندَ أهلِ المعرفةِ .

وأمَّا سائرُ الخلقِ . . فنظرُهُمْ مقصورٌ علىٰ شهواتِ الدنيا إنِ اتسعَتْ . . أحبُّوا البقاءَ ، وإنْ ضاقَتْ . . تمنَّوا الموتَ ، وكلُّ ذلكَ حرمانٌ وخسرانٌ مصدرُهُ الجهلُ والغفلةُ ، فالجهلُ والغفلةُ مغرسُ كلِّ شقاوةٍ ، والعلمُ والمعرفةُ أساسُ كلِّ سعادةٍ .

---

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣١٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٥٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، ولفظه : « السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله عز وجل » ، وعند الترمذي (٢٣٢٩) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه : أن أعرابياً قال : يا رسول الله ؛ من خير الناس ؟ قال : « من طال عمره ، وحسن عمله » .

فقدْ عرفتَ بما ذكرناهُ معنى المحبَّةِ ومعنى العشقِ ؛ فإنَّهُ المحبةُ المفرطةُ القويَّةُ ، ومعنىٰ لذَّةِ المعرفةِ ، ومعنى الرؤيةِ ومعنىٰ لذَّةِ الرؤيةِ ومعنىٰ كونها ألذَّ مِنْ سائرِ اللذاتِ عندَ ذوي الكمالِ ، وإنْ لمْ تكنْ كذلكَ عندَ ذوي النقصانِ ، كما لمْ تكنِ الرئاسةُ ألذَّ مِنَ المطعوماتِ عندَ الصبيانِ .



فإنْ قلتَ : فهـٰذهِ الرؤيةُ محلُّها القلبُ أوِ العينُ في الآخرةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ الناسَ قدِ اختلفوا في ذلكَ ، وأربابُ البصائرِ لا يلتفتونَ إلىٰ هـٰذا الخلافِ ولا ينظرونَ فيهِ ، بلِ العاقلُ يأكلُ البقلَ ولا يسألُ عنِ المبقلةِ ، ومَنْ يشتهي رؤيةَ معشوقهِ يشغلُهُ عشقُهُ عنْ أنْ يلتفتَ إلىٰ أنَّ رؤيتَه هلْ تُخلقُ في عينهِ أوْ في جبهتهِ ؟ بلْ يقصدُ الرؤيةَ ولذَّتَها سواءٌ كانَ ذلكَ بالعينِ أوْ غيرِها ؛ فإنَّ العينَ محلٌّ وظرفٌ لا نظرَ إليهِ ولا حكمَ لهُ .

والحقُّ فيهِ : أنَّ القدرةَ الأزليَّةَ واسعةٌ ، فلا يجوزُ أنْ نحكمَ عليها بالقصورِ عنْ أحدِ الأمرينِ ، هـٰذا في حكمِ الجوازِ ، فأمَّا الواقعُ في الآخرةِ مِنَ الجائزينِ . . فلا يُدركُ إلا بالسمعِ ، والحقُّ ما ظهرَ لأهلِ السنَّةِ والجماعةِ مِنْ شواهدِ الشرعِ أنَّ ذلكَ يُخلقُ في العينِ ؛ ليكونَ لفظُ الرؤيةِ والنظرِ وسائرِ الألفاظِ الواردةِ في الشرعِ يجري علىٰ ظاهرِهِ ؛ إذْ لا يجوزُ إزالةُ الظواهرِ إلا لضرورةٍ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .



بيان الأسباب المقوّية لحبّ الله تعالىٰ

اعلمْ : أنَّ أسعدَ الخلقِ حالاً في الآخرةِ أقواهُمْ حبّاً للهِ تعالىٰ ، فإنَّ الآخرةَ معناها القدومُ على اللهِ تعالىٰ ودرْكُ سعادةِ لقائِهِ ، وما أعظمَ نعيمَ المحبِّ إذا قدمَ علىٰ محبوبِهِ بعدَ طولِ شوقِهِ ، وتمكَّنَ مِنْ دوامِ مشاهدتِهِ أبدَ الآبادِ مِنْ غيرِ منغِّصٍ ومكدِّرٍ ، ومِنْ غيرِ رقيبٍ ومزاحمٍ ، ومِنْ غيرِ خوفِ انقطاعٍ ، إلا أنَّ هـٰذا النعيمَ علىٰ قدْرِ قوّةِ الحبِّ ، فكلَّما ازدادَ الحبُّ . . ازدادَتِ اللذَّةُ ، وإنَّما يكتسبُ العبدُ حبَّ اللهِ تعالىٰ في الدنيا .

وأصلُ الحبِّ لا ينفكُّ عنهُ مؤمنٌ ؛ لأنَّهُ لا ينفكُّ عنْ أصلِ المعرفةِ ، وأمَّا قوَّةُ الحبِّ واستيلاؤُهُ حتَّىٰ ينتهيَ إلى الاستهتارِ الذي يُسمَّىٰ عشقاً . . فذلكَ ينفكُّ عنهُ الأكثرونَ ، وإنَّما يحصلُ ذلكَ بسببينِ :

أحدُهُما : قطعُ علائقِ الدنيا وإخراجُ حبِّ غيرِ اللهِ مِنَ القلبِ :

فإنَّ القلبَ مثلُ الإناءِ الذي لا يتسعُ للخلِّ مثلاً ما لمْ يخرجْ منهُ الماءُ ، وما جعلَ اللهُ لرجلٍ مِنْ قلبينِ في جوفِهِ ، وكمالُ الحبِّ في أنْ يحبَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بكلِّ قلبِهِ ، وما دامَ يلتفتُ إلىٰ غيرِهِ . . فزاويةٌ مِنْ قلبِهِ مشغولةٌ بغيرِهِ ، فبقدْرِ ما يشتغلُ بغيرِ اللهِ ينقصُ منهُ حبُّ اللهِ ، وبقدْرِ ما يبقىٰ مِنَ الماءِ في الإناءِ ينقصُ مِنَ الخلِّ المصبوبِ فيهِ .

وإلىٰ هـٰذا التفريدِ والتجريدِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ ﴾ ، وبقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ ، بلْ هوَ معنىٰ قولِكَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ؛ أيْ : لا معبودَ ولا محبوبَ سواهُ ، وكلُّ محبوبٍ فإنَّهُ معبودٌ ، فإنَّ العبدَ هوَ المقيَّدُ ، والمعبودُ هوَ المقيَّدُ بهِ ، وكلُّ محبٍّ فهوَ مقيَّدٌ بما يحبُّهُ .

ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أبغضُ إلـٰهٍ عُبدَ في الأرضِ الهوىٰ »[1] .

ولذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ مخلصاً . . دخلَ الجنةَ »[2] ، ومعنى الإخلاصِ : أنْ يخلصَ قلبَهُ للهِ ، فلا يبقىٰ فيهِ شركةٌ لغيرِ اللهِ ، فيكونُ اللهُ محبوبَ قلبِهِ ، ومعبودَ قلبِهِ ، ومقصودَ قلبِهِ فقطْ .

ومَنْ هـٰذا حالُهُ . . فالدنيا سجنُهُ ؛ لأنَّها مانعةٌ لهُ عنْ مشاهدةِ محبوبِهِ ، وموتُهُ خلاصٌ مِنَ السجنِ ، وقدومٌ على المحبوبِ ، فما حالُ مَنْ ليسَ لهُ إلا محبوبٌ واحدٌ ، وقدْ طالَ إليهِ شوقُهُ ، وتمادىٰ عنهُ حبسُهُ ، فخُلِّيَ مِنَ السجنِ ، ومُكِّنَ مِنَ المحبوبِ ، ورُوِّحَ بالأمنِ أبدَ الآبادِ ؟!

---

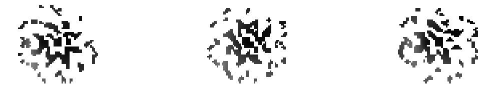
(١) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٣) ، والطبراني في « الكبير » (٨/١٠٣) بنحوه .
(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٢٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٥٤) ، وتمامه عند الطبراني : قيل : وما إخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عن محارم الله عز وجل » .

فأحدُ أسبابِ ضعفِ حبِّ اللهِ في القلوبِ قوَّةُ حبِّ الدنيا ، ومنهُ حبُّ الأهلِ ، والمالِ ، والولدِ ، والأقاربِ ، والعقارِ ، والدوابِّ ، والبساتينِ ، والمنتزهاتِ ، حتَّىٰ إنَّ المتفرِّجَ بطيبِ أصواتِ الطيورِ ورَوْحِ نسيمِ الأسحارِ . . ملتفتٌ إلىٰ نعيمِ الدنيا ، ومتعرِّضٌ لنقصانِ حبِّ الله تعالىٰ بسببهِ فبقدْرِ ما أنسَ بالدنيا . . فينقصُ أنسُهُ باللهِ ولا يُؤتىٰ أحدٌ مِنَ الدنيا شيئاً إلا وينقصُ بقدْرِهِ مِنَ الآخرةِ بالضرورةِ ، كما أنَّهُ لا يقربُ الإنسانُ مِنَ المشرقِ إلا ويبعدُ بالضرورةِ مِنَ المغربِ بقدْرِهِ ، ولا يطيِّبُ قلبَ امرأتِهِ إلا ويضيِّقُ بهِ قلبَ ضرَّتِها ، فالدنيا والآخرةُ ضرَّتانِ ، وهما كالمشرقِ والمغربِ ، وقدِ انكشفَ ذلكَ لذوي القلوبِ انكشافاً أوضحَ مِنَ الإبصارِ بالعينِ .

وسبيلُ قلعِ حبِّ الدنيا مِنَ القلبِ سلوكُ طريقِ الزهدِ ، وملازمةُ الصبرِ ، والانقيادُ إليهما بزمامِ الخوفِ والرجاءِ ، فما ذكرناهُ مِنَ المقاماتِ ؛ كالتوبةِ ، والصبرِ ، والزهدِ ، والخوفِ ، والرجاءِ . . هيَ مقدماتٌ ليكتسبَ بها أحدَ ركنيِ المحبَّةِ ، وهوَ تخليةُ القلبِ عنْ غيرِ اللهِ ، وأوَّلُهُ الإيمانُ باللهِ ، واليومِ الآخرِ ، والجنةِ ، والنارِ ، ثمَّ يتشعَّبُ منهُ الخوفُ والرجاءُ ، ويتشعَّبُ منهما التوبةُ والصبرُ عليهما ، ثمَّ ينجرُّ ذلكَ إلى الزهدِ في الدنيا ، وفي المالِ والجاهِ ، وكلِّ حظوظِ الدنيا ، حتَّىٰ يحصلَ مِنْ جميعِهِ طهارةُ القلبِ عنْ غيرِ اللهِ فقطْ ، حتَّىٰ يتسعَ بعدَهُ لنزولِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ وحبِّهِ فيهِ .

فكلُّ ذلكَ مقدماتُ تطهيرِ القلبِ ، وهوَ أحدُ ركنيِ المحبَّةِ وإليهِ الإشارةُ

بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الطهورُ شطرُ الإيمانِ »[1] ، كما ذكرناهُ في أوَّلِ كتابِ الطهارةِ .



السببُ الثاني لقوَّةِ المحبَّةِ : قوَّةُ معرفةِ اللهِ تعالىٰ واتساعُها ، واستيلاؤُها على القلبِ :

وذلكَ بعدَ تطهيرِ القلبِ مِنْ جميعِ شواغلِ الدنيا وعلائقِها يجري مَجرىٰ وضعِ البذرِ في الأرضِ بعدَ تنقيتِها مِنَ الحشيشِ ، وهوَ الشطرُ الثاني ، ثمَّ يتولَّدُ مِنْ هٰذا البذرِ شجرةُ المحبَّةِ والمعرفةِ ، وهيَ الكلمةُ الطيِّبةُ التي ضربَ اللهُ لها مثلاً حيثُ قالَ : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[2] ، وإليها الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ، فهيَ المعرفةُ ، ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ، فالعملُ الصالحُ كالحمَّالِ لهٰذهِ المعرفةِ وكالخادمِ ، وإنَّما العملُ الصالحُ كلُّهُ في تطهيرِ القلبِ أوَّلاً مِنَ الدنيا ، ثمَّ في إدامةِ طهارتِهِ ، فلا يُرادُ العملُ إلا لهٰذهِ المعرفةِ .

وأمَّا العلمُ بكيفيةِ العملِ . . فيُرادُ للعملِ ، فالعلمُ هوَ الأوَّلُ وهوَ الآخرُ ،

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣) .

(٢) فعرفنا أن لها أصلاً ثابتاً في القلوب بما أمدها به من النظر والاعتبار ، وعرفنا أن لها فروعاً تنشأ منها هي مواجيد القلوب وأحوال لها بسبب ما جبلها عليه من محبة سعادتها وكمالها . « إتحاف » (٩/ ٥٨٧) .

وإنَّما الأوَّلُ علمُ المعاملةِ ، وغرضُهُ العملُ ، وغرضُ المعاملةِ صفاءُ القلبِ وطهارتُهُ ؛ ليتضحَ فيهِ جليَّةُ الحقِّ ، ويتزيَّنَ بعلمِ المعرفةِ ، وهوَ علمُ المكاشفةِ .

ومهما حصلَتْ هٰذهِ المعرفةُ . . تبعَتْها المحبَّةُ بالضرورةِ ، كما أنَّ مَنْ كانَ معتدلَ المزاجِ إذا أبصرَ الجميلَ وأدركَهُ بالعينِ الظاهرةِ . . أحبَّهُ ومالَ إليهِ ، ومهما أحبَّهُ . . حصلَتِ اللذَّةُ ، فاللذَّةُ تتبعُ المحبةَ بالضرورةِ والمحبَّةُ تتبعُ المعرفةَ بالضرورةِ ، ولا يُوصلُ إلىٰ هٰذهِ المعرفةِ بعدَ انقطاعِ شواغلِ الدنيا مِنَ القلبِ إلا بالفكرِ الصافي ، والذكرِ الدائمِ ، والجدِّ البالغِ في الطلبِ ، والنظرِ المستمرِّ في اللهِ وفي صفاتِهِ ، وملكوتِ سماواتِهِ وسائرِ مخلوقاتِهِ .

والواصلونَ إلىٰ هٰذهِ الرتبةِ ينقسمونَ :

إلى الأقوياءِ ، ويكونُ أوَّلُ معرفتِهِمْ باللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بهِ يعرفونَ غيرَهُ .

وإلى الضعفاءِ ، ويكونُ أوَّلُ معرفتِهِمْ بالأفعالِ ، ثمَّ يترقونَ منها إلى الفاعلِ .

وإلى الأوَّلِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

ومنْه نظرَ بعضُهُمْ حيثُ قيلَ لهُ : بمَ عرفتَ ربَّكَ ؟ فقالَ : عرفتُ ربِّي بربِّي ، ولولا ربِّي . . لما عرفتُ ربِّي (١) .

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٥١٤) .

وإلى الثاني الإشارةُ بقولِه تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ . . . ﴾ الآيَةَ ، وبقولِه عزَّ وجلَّ : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وبقولِه تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وبقولِه تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ .

وهٰذا الطريقُ هوَ الأسهلُ على الأكثرينَ ، وهوَ الأوسعُ على السالكينَ ، وإليهِ أكثرُ دعوةِ القرآنِ ؛ عندَ الأمرِ بالتدبُّرِ ، والتفكُّرِ ، والاعتبارِ ، والنظرِ ؛ في آياتٍ خارجةٍ عنِ الحصرِ .



فإنْ قلتَ : كلا الطريقينِ مشكلٌ ، فأوضحْ لنا منهُما ما يُستعانُ بهِ علىٰ تحصيلِ المعرفةِ والتوصُّلِ بهِ إلى المحبةِ .

فاعلمْ : أنَّ الطريقَ الأعلىٰ وهوَ الاستشهادُ بالحقِّ سبحانَهُ علىٰ سائرِ الخلقِ . . فهوَ غامضٌ ، والكلامُ فيهِ خارجٌ عنْ حدِّ فهمِ أكثرِ الخلقِ ، فلا فائدةَ في إيرادِهِ في الكتبِ .

وأمَّا الطريقُ الأسهلُ الأدنىٰ . . فأكثرُهُ غيرُ خارجٍ عنْ حدِّ الأفهامِ ، وإنَّما قصرَتِ الأفهامُ عنهُ لإعراضِها عنِ التدبُّرِ ، واشتغالِها بشهواتِ الدنيا وحظوظِ النفسِ ، والمانعُ مِنْ ذكرِ هٰذا اتساعُهُ وكثرتُهُ ، وانشعابُ أبوابِهِ الخارجةِ عنِ الحصرِ والنهايةِ ؛ إذْ ما مِنْ ذرَّةٍ مِنْ أعلى السماواتِ إلىٰ تخومِ الأرضينَ إلا

وفيها عجائبُ وآياتٌ تدلُّ علىٰ كمالِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ وكمالِ حكمتِه ، ومنتهىٰ جلالِه وعظمتِه ، وذلكَ ممَّا لا يتناهىٰ ، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾ ، فالخوضُ فيهِ انغماسٌ في بحارِ علومِ المكاشفةِ ، فلا يمكنُ أنْ يُتطفَّلَ بهِ علىٰ علومِ المعاملةِ ، ولكنْ يمكنُ الرمزُ إلىٰ مثالٍ واحدٍ على الإيجازِ ؛ ليقعَ التنبيهُ لجنسِهِ ، فنقولُ :

أسهلُ الطريقينِ النظرُ إلى الأفعالِ ، فلنتكلَّمْ فيها ، ولنتركِ الأعلىٰ ، ثمَّ الأفعالُ الإلـٰهيةُ كثيرةٌ ، فلنطلبْ أقلَّها وأحقرَها وأصغرَها ، ولننظرْ في عجائبِها .

فأقلُّ المخلوقاتِ هيَ الأرضُ وما عليها ؛ أعني : بالإضافةِ إلى الملائكةِ وملكوتِ السماواتِ ، فإنَّكَ إنْ نظرتَ فيها مِنْ حيثُ الجسمُ والعظمُ في الشخصِ . . فالشمسُ علىٰ ما ترىٰ مِنْ صغرِ حجمِها هيَ مثلُ الأرضِ مئةً ونيفاً وستينَ مرةً ، فانظرْ إلىٰ صغرِ الأرضِ بالإضافةِ إليها ، ثمَّ انظرْ إلىٰ صغرِ الشمسِ بالإضافةِ إلىٰ فلكِها الذي هيَ مركوزةٌ فيهِ ؛ فإنَّهُ لا نسبةَ لها إليهِ ، وهيَ في السماءِ الرابعةِ ، وهيَ صغيرةٌ بالإضافةِ إلىٰ ما فوقَها مِنَ السماواتِ ، ثمَّ السماواتُ السبعُ في الكرسيِّ كحلقةٍ في فلاةٍ ، والكرسيُّ في العرشِ كذلكَ !

فهـٰذا نظرٌ إلىٰ ظاهرِ الأشخاصِ مِنْ حيثُ المقاديرُ ، وما أحقرَ الأرضَ كلَّها بالإضافةِ إليها ، بلْ ما أصغرَ الأرضَ بالإضافةِ إلى البحارِ ، فقدْ قالَ

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأرضُ في البحرِ كالإصطبلِ في الأرضِ »(١) ، ومصداقُ هٰذا عُرِفَ بالمشاهدةِ والتجربةِ ، وعُلِمَ أنَّ المكشوفَ مِنَ الأرضِ عنِ الماءِ كجزيرةٍ صغيرةٍ بالإضافةِ إلىٰ كلِّ الأرضِ .

ثمَّ انظرْ إلى الآدميِّ المخلوقِ مِنَ الترابِ الذي هوَ جزءٌ مِنَ الأرضِ ، وإلىٰ سائرِ الحيواناتِ ، وإلىٰ صغرِهِ بالإضافةِ إلى الأرضِ ، ودعْ عنكَ جميعَ ذلكَ ، فأصغرُ ما نعرفُهُ مِنَ الحيواناتِ البعوضُ والنحلُ وما يجري مجراهُ ، فانظرْ إلى البعوضِ علىٰ صغرِ قدرِهِ ، وتأمَّلْهُ بعقلٍ حاضرٍ وفكرٍ صافٍ ، فانظرْ كيفَ خلقَهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ شكلِ الفيلِ الذي هوَ أعظمُ الحيواناتِ ؛ إذْ خلقَ لهُ خرطوماً مثلَ خرطومِهِ ، وخلقَ لهُ علىٰ شكلِهِ الصغيرِ سائرَ الأعضاءِ كما خلقَهُ للفيلِ بزيادةِ جناحينِ ، وانظرْ كيفَ قسمَ أعضاءَهُ الظاهرةَ ، فأنبتَ جناحَهُ ، وأخرجَ يدَهُ ورجلَهُ ، وشقَّ سمعَهُ وبصرَهُ ، ودبَّرَ في باطنِهِ مِنْ أعضاءِ الغذاءِ وآلاتِهِ ما دبَّرَهُ في سائرِ الحيواناتِ ، وركَّبَ فيها مِنَ القوى الغاذيةِ والجاذبةِ والدافعةِ والماسكةِ والهاضمةِ ما ركَّبَ في سائرِ الحيواناتِ ، هٰذا في شكلِهِ وصفاتِهِ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ هدايتِهِ كيفَ هداهُ اللهُ تعالىٰ إلىٰ غذائِهِ ، وعرَّفَهُ أنَّ غذاءَهُ دمُ الإنسانِ ، ثمَّ انظرْ كيفَ أنبتَ لهُ آلةَ الطيرانِ إلى الإنسانِ ، وكيفَ خلقَ لهُ الخرطومَ الطويلَ وهوَ محدَّدُ الرأسِ ، وكيفَ هداهُ إلىٰ مسامِّ بشرةِ الإنسانِ

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/٥٨٩) .

حتَّىٰ يضعَ خرطومَهُ في واحدٍ منها ، ثمَّ كيفَ قوّاهُ حتَّىٰ يغرزَ فيهِ الخرطومَ ، وكيفَ علَّمَهُ المصَّ والتجرُّعَ للدمِ ، وكيفَ خلقَ الخرطومَ معَ دقَّتِهِ مجوَّفاً حتَّىٰ يجريَ فيهِ الدمُ الرقيقُ ، وينتهيَ إلىٰ باطنِهِ ، وينتشرَ في سائرِ أجزائِهِ ويغذيَهُ ، ثمَّ كيفَ عرَّفَهُ أنَّ الإنسانَ يقصدُهُ بيدِهِ ، فعلَّمَهُ حيلةَ الهربِ واستعدادَ آلتِهِ ، وخلقَ لهُ السمعَ الذي يسمعُ بهِ حفيفَ حركةِ اليدِ وهيَ بعدُ بعيدةٌ منهُ ، فيتركُ المصَّ ويهربُ ، ثمَّ إذا سكنَتِ اليدُ يعودُ .

ثمَّ انظرْ كيفَ خلقَ لهُ حدقتينِ حتَّىٰ يبصرَ مواضعَ غذائِهِ ، فيقصدَهُ معَ صغرِ حجمِ وجهِهِ ، وانظرْ إلىٰ أنَّ حدقةَ كلِّ حيوانٍ صغيرٍ لمَّا لمْ تحتملْ حدقتُهُ الأجفانَ لصغرِهِ ، وكانَتِ الأجفانُ مصقلةً لمرآةِ الحدقةِ عنِ القذىٰ والغبارِ . . خلقَ للبعوضِ والذبابِ يدينِ ، فتنظرُ إلى الذبابِ فتراهُ على الدوامِ يمسحُ حدقتيهِ بيديهِ ، وأمَّا الإنسانُ والحيوانُ الكبيرُ . . فخلقَ لحدقتيهِ الأجفانَ حتَّىٰ ينطبقَ أحدُهُما على الآخرِ ، وأطرافُهُما حادةٌ ، فيجمعُ الغبارَ الذي يلحقُ الحدقةَ ويرميهِ إلىٰ أطرافِ الأهدابِ ، وخلقَ الأهدابَ السودَ لتجمعَ ضوءَ العينِ ، وتعينَ على الإبصارِ ، وتحسِّنَ صورةَ العينِ ، وتشبكَها عندَ هيجانِ الغبارِ ، فينظرَ مِنْ وراءِ شبَّاكِ الأهدابِ ، واشتباكُها يمنعُ دخولَ الغبارِ ولا يمنعُ الإبصارَ .

وأمَّا البعوضُ فخلقَ لها حدقتينِ مصقلتينِ مِنْ غيرِ أجفانٍ ، وعلَّمَها كيفيةَ التصقيلِ باليدينِ .

والفراشُ لأجلِ ضعفِ إبصارِها.. تراها تتهافتُ على السراجِ ؛ لأنَّ بصرَها ضعيفٌ ، فهيَ تطلبُ ضوءَ النهارِ ، فإذا رأى ضوءَ المسكينُ السراجِ بالليلِ.. ظنَّ أنَّهُ في بيتٍ مظلمٍ وأنَّ السراجَ كوَّةٌ مِنَ البيتِ المظلمِ إلى الموضعِ المضيءِ ، فلا يزالُ يطلبُ الضوءَ ويرمي بنفسِهِ إليهِ ، فإذا جاوزَهُ ورأى الظلامَ.. ظنَّ أنَّهُ لمْ يصبِ الكوَّةَ ولمْ يقصدْها على السدادِ ، فيعودُ إليهِ مرَّةً أخرىٰ إلىٰ أنْ يحترقَ .

ولعلَّكَ تظنُّ أنَّ هـٰذا لنقصانِها وجهلِها ، فاعلمْ أنَّ جهلَ الإنسانِ أعظمُ مِنْ جهلِها ، بلْ صورةُ الآدميِّ في الإكبابِ علىٰ شهواتِ الدنيا صورةُ الفراشِ في التهافتِ على النارِ ؛ إذْ تلوحُ للآدميِّ أنوارُ الشهواتِ مِنْ حيثُ ظاهرُ صورتِها ، ولا يدري أنَّ تحتَها السمَّ الناقعَ القاتلَ ، فلا يزالُ يرمي نفسَهُ عليها إلىٰ أنْ ينغمسَ فيها ، ويتقيَّدَ بها ، ويهلكَ هلاكاً مؤبداً ، فليتَ كانَ جهلُ الآدميِّ كجهلِ الفراشِ ؛ فإنَّها باغترارِها بظاهرِ الضوءِ إنِ احترقَتْ.. تخلَّصَتْ في الحالِ ، والآدميُّ يبقىٰ في النارِ أبدَ الآبادِ أوْ مدَّةً مديدةً ، ولذلكَ كانَ ينادي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ويقولُ : « إنِّي ممسِكٌ بحُجَزِكُمْ عنِ النارِ ، وأنتُمْ تتهافتونَ فيها تهافتَ الفراشِ »[1] .

فهـٰذه لمعةٌ مِنْ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ في أصغرِ الحيواناتِ ، وفيها مِنَ العجائبِ ما لوِ اجتمعَ الأوَّلونَ والآخرونَ على الإحاطةِ بكنهِها.. عجزوا عنْ

(١) رواه البخاري (٦٤٨٣) ، ومسلم (٢٢٨٤) .

حقيقتِها ، ولمْ يطلعوا علىٰ أمورٍ جليَّةٍ مِنْ ظاهرِ صورتِها ، فأمَّا خفايا معانيها . . فلا يطلعُ عليها إلا اللهُ تعالىٰ .

ثمَّ في كلِّ حيوانٍ ونباتٍ أعجوبةٌ وأعاجيبُ تخصُّهُ لا يشاركُهُ فيها غيرُهُ ، فانظرْ إلى النحلِ وعجائبِها ، وكيفَ أوحى اللهُ تعالىٰ إليها حتَّى اتخذَتْ مِنَ الجبالِ بيوتاً ومِنَ الشجرِ وممَّا يعرشونَ ، وكيفَ استخرجَ مِنْ لعابِها الشمعَ والعسلَ ، وجعلَ أحدَهُما ضياءً والآخرَ شفاءً ، ثمَّ لوْ تأمَّلتَ عجائبَ أمرِها في تناولِها الأزهارَ والأنوارَ ، واحترازِها عنِ النجاساتِ والأقذارِ ، وطاعتِها لواحدٍ مِنْ جملتِها هوَ أكبرُها شخصاً ، وهوَ أميرُها ، ثمَّ ما سخَّرَ اللهُ لهُ أميرَها مِنَ العدلِ والإنصافِ بينَها ، حتَّىٰ إنَّهُ ليقتلُ علىٰ بابِ المنفذِ كلَّ ما وقعَ منها علىٰ نجاسةٍ . . لقضيتَ منها عجباً آخرَ العجبِ إنْ كنتَ بصيراً في نفسِكَ ، وفارغاً مِنْ همِّ بطنِكَ وفرجِكَ وشهواتِ نفسِكَ في معاداةِ أقرانِكَ وموالاةِ إخوانِكَ .

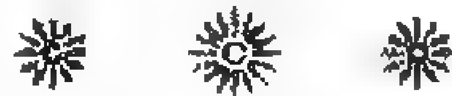
ثمَّ دعْ عنكَ جميعَ ذلكَ ، وانظرْ إلىٰ بنائِها بيوتَها مِنَ الشمعِ ، واختيارِها مِنْ جملةِ الأشكالِ الشكلَ المسدَّسَ ، فلا تبني بيتاً مستديراً ، ولا مربعاً ، ولا مخمّساً ، بلْ مسدَّساً ؛ لخاصيَّةٍ في شكلِ المسدَّسِ يقصرُ فهمُ المهندسينَ عنْ دركِها ، وهوَ أنَّ أوسعَ الأشكالِ وأحواها المستديرةُ وما يقربُ منها ، فإنَّ المربَّعَ يخرجُ منهُ زوايا ضائعةٌ ، وشكلُ النحلِ مستديرٌ مستطيلٌ ، فتركَ المربَّعَ حتَّىٰ لا تضيعَ الزوايا فتبقىٰ فارغةً ، ثمَّ لوْ بناها مستديرةً . . لبقيتْ خارجَ البيوتِ فرجٌ ضائعةٌ ، فإنَّ الأشكالَ المستديرةَ إذا

اجتمعَتْ . . لمْ تجتمعْ متراصَّةً ، ولا شكلَ في الأشكالِ ذواتِ الزوايا يقربُ في الاحتواءِ مِنَ المستديرِ ثمَّ تتراصُّ الجملةُ منهُ بحيثُ لا يبقىٰ بعدَ اجتماعِها فرجةٌ . . إلا المسدَّسُ ، وهـٰذهِ خاصيَّةُ هـٰذا الشكلِ ، فانظرْ كيفَ ألهمَ اللهُ تعالى النحلَ علىٰ صغرِ جرمِهِ ولطافةِ قدِّهِ لطفاً بهِ وعنايةً بوجودِهِ وما هوَ محتاجٌ إليهِ ، ليتهنأَ بعيشِهِ .

فسبحانَهُ ما أعظمَ شانَهُ ، وأوسعَ لطفَهُ وامتنانَهُ .

فاعتبرْ بهـٰذهِ اللمعةِ اليسيرةِ مِنْ محقَّراتِ الحيواناتِ ، ودعْ عنكَ عجائبَ ملكوتِ الأرضِ والسماواتِ ؛ فإنَّ القدرَ الذي بلغَهُ فهمُنا القاصرُ منهُ تنقضي الأعمارُ دونَ إيضاحِهِ ، ولا نسبةَ لما أحاطَ بهِ علمنا إلىٰ ما أحاطَ بهِ العلماءُ والأنبياءُ ، ولا نسبةَ لما أحاطَ بهِ علمُ الخلائقِ كلِّهِمْ إلىٰ ما استأثرَ اللهُ تعالىٰ بعلمِهِ ، بلْ كلُّ ما عرفَهُ الخلقُ لا يستحقُّ أنْ يُسمَّىٰ علماً في جنبِ علمِ اللهِ تعالىٰ .

فبالنظرِ في هـٰذا وأمثالِهِ تزدادُ المعرفةُ الحاصلةُ بأسهلِ الطريقينِ ، وبزيادةِ المعرفةِ تزدادُ المحبَّةُ ، فإنْ كنتَ طالباً سعادةَ لقاءِ اللهِ تعالىٰ . . فانبذِ الدنيا وراءَ ظهرِكَ ، واستغرقِ العمرَ في الذكرِ الدائمِ والفكرِ اللازمِ ، فعساكَ تحظىٰ منها بقدْرٍ يسيرٍ ، ولكنْ تنالُ بذلكَ اليسيرِ ملكاً عظيماً لا آخرَ لهُ .



بيان السبب في تفاوت الناس في الحب

اعلمْ : أنَّ المؤمنينَ مشتركونَ في أصلِ الحبِّ لاشتراكِهِمْ في أصلِ المحبَّةِ ، ولكنَّهُمْ متفاوتونَ لتفاوتِهِمْ في المعرفةِ وفي حبِّ الدنيا ؛ إذِ الأشياءُ إنَّما تتفاوتُ بتفاوتِ أسبابِها ، وأكثرُ الناسِ ليسَ لهُمْ مِنَ اللهِ تعالىٰ إلا الصفاتُ والأسماءُ التي قرعَتْ سمعَهُمْ ، فتلقَّنوها وحفظوها ، وربَّما تخيَّلوا لها معانيَ يتعالىٰ عنها ربُّ الأربابِ ، وربَّما لمْ يطلعوا علىٰ حقيقتِها ولا تخيَّلوا لها معنىً فاسداً ، بلْ آمنوا بها إيمانَ تسليمٍ وتصديقٍ ، واشتغلوا بالعملِ وتركوا البحثَ ، وهؤلاءِ همْ أهلُ السلامةِ مِنْ أصحابِ اليمينِ والمتخيِّلونَ هُمُ الضالونَ ، والعارفونَ بالحقائقِ هُمُ المقرَّبونَ .

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالىٰ حالَ الأصنافِ الثلاثةِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ . . . ﴾ الآيةَ .

وإنْ كنتَ لا تفهمُ الأمورَ إلا بالأمثلةِ . . فلنضربْ لتفاوتِ الحبِّ مثالاً ، فنقولُ :

أصحابُ الشافعيِّ مثلاً يشتركونَ في حبِّ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ ، الفقهاءُ منهُمْ والعوامُّ ؛ لأنَّهُمْ يشتركونَ في معرفةِ فضلِهِ ودينِهِ وحسنِ سيرتِهِ ومحامدِ خصالِهِ ، ولكنَّ العاميَّ يعرفُ علمَهُ مجملاً ، والفقيهُ يعرفُهُ مفصّلاً ، فتكونُ معرفةُ الفقيهِ بهِ أتمَّ ، وإعجابُهُ بهِ وحبُّهُ لهُ أشدَّ ، فمَنْ رأىٰ تصنيفَ مصنفٍ

فاستحسنَهُ وعرفَ بهِ فضلَهُ . . أحبَّهُ لا محالةَ ، ومالَ إليهِ قلبُهُ ، فإن رأىٰ تصنيفاً آخرَ أحسنَ منهُ وأعجبَ . . تضاعفَ ـ لا محالةَ ـ حبُّهُ ؛ لأنَّهُ تضاعفَتْ معرفتُهُ بعلمِهِ ، وكذلكَ يعتقدُ الرجلُ في الشاعرِ أنَّهُ حسنُ الشعرِ فيحبُّهُ ، فإذا سمعَ مِنْ غرائبِ شعرِهِ ما عظُمَ فيهِ حذقُهُ وصنعتُهُ . . ازدادَ بهِ معرفةً ، وازدادَ لهُ حباً ، وكذا سائرُ الصناعاتِ والفضائلِ .

فالعاميُّ قدْ يسمعُ أنَّ فلاناً مصنِّفٌ ، وأنَّهُ حسنُ التصنيفِ ، ولكنْ لا يدري ما في التصنيفِ ، فيكونُ لهُ معرفةٌ مجملةٌ ، ويكونُ لهُ بحسَبِهِ ميلٌ مجملٌ ، والبصيرُ إذا فتَّشَ عنِ التصانيفِ ، واطلعَ علىٰ ما فيها مِنَ العجائبِ . . تضاعفَ حبُّهُ لا محالةَ ؛ لأنَّ عجائبَ الصنعةِ والشعرِ والتصنيفِ تدلُّ علىٰ كمالِ صفاتِ الفاعلِ والمصنفِ .

والعالَمُ بجملتِهِ صنعُ اللهِ تعالىٰ وتصنيفُهُ ، والعاميُّ يعلمُ ذلكَ ويعتقدُهُ ، وأمَّا البصيرُ . . فإنَّهُ يطالعُ تفصيلَ صنعِ اللهِ تعالىٰ فيهِ ، حتَّىٰ يرىٰ في البعوضِ مثلاً مِنْ عجائبِ صنعِهِ ما ينبهرُ بهِ عقلُهُ ، ويتحيَّرُ فيهِ لبُّهُ ، ويزدادُ بسببِهِ ـ لا محالةَ ـ عظمةُ اللهِ وجلالُهُ وكمالُ صفاتِهِ في قلبِهِ ، فيزدادُ لهُ حبّاً ، وكلما ازدادَ علىٰ أعاجيبِ صنعِ اللهِ اطلاعاً . . استدلَّ بذلكَ علىٰ عظمةِ اللهِ الصانعِ وجلالِهِ وازدادَ بهِ معرفةً ولهُ حبّاً .

وبحرُ هٰذهِ المعرفةِ ـ أعني : معرفةَ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ـ بحرٌ لا ساحلَ لهُ ، فلا جرمَ تفاوتُ أهلِ المعرفةِ في الحبِّ لا حصرَ لهُ .

وممَّا يتفاوتُ بسببِهِ الحبُّ اختلافُ الأسبابِ الخمسةِ التي ذكرناها للحبِّ ، فإنَّ مَنْ يحبُّ اللهَ تعالىٰ مثلاً لكونِهِ محسناً إليهِ ، منعماً عليهِ ، ولمْ يحبُّهُ لذاتِهِ .. ضعفَتْ محبَّتُهُ ؛ إذْ تتغيَّرُ بتغيُّرِ الإحسانِ ، فلا يكونُ حبُّهُ في حالةِ البلاءِ كحبِّهِ في حالةِ الرضا والنعماءِ . وأمَّا مَنْ يحبُّهُ لذاتِهِ ، ولأنَّهُ مستحقٌّ للحبِّ بسببِ كمالِهِ وجمالِهِ ومجدِهِ وعظمتِهِ .. فإنَّهُ لا يتفاوتُ حبُّهُ بتفاوتِ الإحسانِ إليهِ .

فهٰذا وأمثالُهُ هوَ سببُ تفاوتِ الناسِ في المحبَّةِ ، والتفاوتُ في المحبَّةِ هوَ سببُ التفاوتِ في سعادةِ الآخرةِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .



بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى

اعلمْ : أنَّ أظهرَ الموجوداتِ وأجلاها هوَ اللهُ تعالىٰ ، وكانَ هٰذا يقتضي أنْ تكونَ معرفتُهُ أوّلَ المعارفِ ، وأسبقَها إلى الأفهامِ ، وأسهلَها على العقولِ ، وترى الأمرَ بالضدِّ مِنْ ذلكَ فلا بدَّ مِنْ بيانِ السببِ فيهِ .

وإنَّما قلنا : إنَّهُ أظهرُ الموجوداتِ وأجلاها . . لمعنىً لا تفهمُهُ إلا بمثالٍ ، وهوَ أنّا إذا رأينا إنساناً يكتبُ أوْ يخيطُ مثلاً . . كانَ كونُهُ حيّاً عندَنا مِنْ أظهرِ الموجوداتِ ، فحياتُهُ وعلمُهُ وقدرتُهُ وإرادتُهُ للخياطةِ أجلىٰ عندَنا مِنْ سائرِ صفاتِهِ الظاهرةِ والباطنةِ ؛ إذْ صفاتُهُ الباطنةُ كشهوتِهِ وغضبِهِ وخلقِهِ وصحتِهِ ومرضِهِ وكلِّ ذلكَ . . لا نعرفُهُ ، وصفاتُهُ الظاهرةُ لا نعرفُ بعضَها ، وبعضُها نشكُّ فيهِ ؛ كمقدارِ طولِهِ واختلافِ لونِ بشرتِهِ وغيرِ ذلكَ مِنْ صفاتِهِ ، أمّا حياتُهُ وقدرتُهُ وإرادتُهُ وعلمُهُ وكونُهُ حيواناً . . فإنَّهُ جليٌّ عندَنا مِنْ غيرِ أنْ يتعلّقَ حسُّ البصرِ بحياتِهِ وقدرتِهِ وإرادتِهِ ، فإنَّ هٰذهِ الصفاتِ لا تُحسُّ بشيءٍ مِنَ الحواسِّ الخمسِ ، ثمَّ لا يمكنُ أنْ نعرفَ حياتَهُ وقدرتَهُ وإرادتَهُ إلا بخياطتِهِ وحركتِهِ ، فلو نظرنا إلىٰ كلِّ ما في العالمِ سواهُ . . لمْ نعرفْ بهِ صفتَهُ ، فما عليهِ إلا دليلٌ واحدٌ ، وهوَ معَ ذلكَ جليٌّ واضحٌ .

ووجودُ اللهِ تعالىٰ وقدرتُهُ وعلمُهُ وسائرُ صفاتِهِ يشهدُ لهُ بالضرورةِ كلُّ ما نشاهدُهُ وندركُهُ بالحواسِّ الظاهرةِ والباطنةِ ؛ مِنْ حجرٍ ومدرٍ ، ونباتٍ

وشجرٍ ، وحيوانٍ وسماءٍ ، وأرضٍ وكوكبٍ ، وبرٍّ وبحرٍ ، ونارٍ وهواءٍ ، وجوهرٍ وعرضٍ ، بلْ أوَّلُ شاهدٍ عليهِ أنفسُنا ، وأجسامُنا ، وأوصافُنا ، وتقلُّبُ أحوالِنا ، وتغيُّرُ قلوبِنا ، وجميعُ أطوارِنا في حركاتِنا وسكناتِنا .

وأظهرُ الأشياءِ في علمِنا أنفسُنا ، ثمَّ محسوساتُنا بالحواسِّ الخمسِ ، ثمَّ مدركاتُنا بالعقلِ والبصيرةِ ، وكلُّ واحدٍ مِنْ هـٰذهِ المدركاتِ له مُدركٌ واحدٌ ، وشاهدٌ واحدٌ ، ودليلٌ واحدٌ ، وجميعُ ما في العالمِ شواهدُ ناطقةٌ وأدلةٌ شاهدةٌ بوجودِ خالقِها ومدبِّرِها ، ومصرِّفِها ومحرِّكِها ، ودالَّةٌ علىٰ علمِهِ وقدرتِهِ ، ولطفِهِ وحكمتِهِ ، والموجوداتُ المدركةُ لا حصرَ لها .

فإنْ كانَتْ حياةُ الكاتبِ ظاهرةً عندَنا ، وليسَ يشهدُ لها إلا شاهدٌ واحدٌ ، وهوَ ما أحسسنا بهِ مِنْ حركةِ يدِهِ . . فكيفَ لا يظهرُ عندَنا ما لا يُتصوَّرُ في الوجودِ شيءٌ داخلَ نفوسِنا وخارجَها إلا وهوَ شاهدٌ عليهِ ، وعلىٰ عظمتِهِ وجلالِهِ ، إذْ كلُّ ذرَّةٍ فإنَّها تنادي بلسانِ حالِها أنَّهُ ليسَ وجودُها بنفسِها ، ولا حركتُها بذاتِها ، وأنَّها تحتاجُ إلىٰ موجدٍ ومحرِّكٍ لها ، يشهدُ بذلكَ أوَّلاً تركيبُ أعضائِنا ، وائتلافُ عظامِنا ولحومِنا وأعصابِنا ، ومنابتُ شعورِنا ، وتشكُّلُ أطرافِنا ، وسائرُ أجزائِنا الظاهرةِ والباطنةِ ، فإنَّا نعلمُ أنَّها لمْ تأتلفْ بأنفسِها ؛ كما نعلمُ أنَّ يدَ الكاتبِ لمْ تتحرَّكْ بنفسِها ، ولكنْ لمَّا لمْ يبقَ في الوجودِ شيءٌ مدرَكٌ ومحسوسٌ ومعقولٌ وحاضرٌ وغائبٌ إلا وهوَ شاهدٌ ومعرِّفٌ . . عظُمَ ظهورُهُ ، فانبهرَتِ العقولُ ودهشَتْ عنْ إدراكِهِ ، فإنَّ ما تقصرُ عنْ فهمِهِ عقولُنا فلهُ سببانِ :

أحدُهُما : خفاؤُهُ في نفسِهِ وغموضُهُ ، وذلكَ لا يخفىٰ مثالُهُ .

والآخرُ : ما يتناهىٰ وضوحُهُ ، وهـٰذا كما أنَّ الخفَّاشَ يبصرُ بالليلِ ولا يبصرُ بالنهارِ ؛ لا لخفاءِ النهارِ واستتارِهِ ، لكنْ لشدَّةِ ظهورِهِ ؛ فإنَّ بصرَ الخفَّاشِ ضعيفٌ يبهرُهُ نورُ الشمسِ إذا أشرقَتْ ، فتكونُ قوَّةُ ظهورِهِ معَ ضعفِ بصرِهِ سبباً لامتناعِ إبصارِهِ ، فلا يرىٰ شيئاً إلا إذا امتزجَ الضوءُ بالظلامِ وضعفَ ظهورُهُ .

فكذلكَ عقولُنا ضعيفةٌ ، وجمالُ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ في نهايةِ الإشراقِ والاستنارةِ ، وفي غايةِ الاستغراقِ والشمولِ ، حتَّىٰ لمْ يشذَّ عنْ ظهورِهِ ذرَّةٌ مِنْ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، فصارَ ظهورُهُ سببَ خفائِهِ .

فسبحانَ مَنِ احتجبَ بإشراقِ نورِهِ ، واختفىٰ عنِ البصائرِ والأبصارِ بظهورِهِ !

ولا يُتعجَّبُ مِنِ اختفاءِ ذلكَ بسببِ الظهورِ ؛ فإنَّ الأشياءَ تُستبانُ بأضدادِها ، وما عمَّ وجودُهُ حتَّىٰ إنَّهُ لا ضدَّ لهُ . . عسُرَ إدراكُهُ ، فلوِ اختلفَتِ الأشياءُ فدلَّ بعضُها دونَ بعضٍ . . أُدركتِ التفرقةُ علىٰ قربٍ ، ولما اشتركَتْ في الدلالةِ علىٰ نسقٍ واحدٍ . . أشكلَ الأمرُ .

ومثالُهُ : نورُ الشمسِ المشرقِ على الأرضِ ، فإنَّا نعلمُ أنَّهُ عرضٌ مِنَ الأعراضِ يحدثُ في الأرضِ ، ويزولُ عندَ غيبةِ الشمسِ ، فلوْ كانَتِ الشمسُ دائمةَ الإشراقِ لا غروبَ لها . . لكنَّا نظنُّ أنْ لا هيئةَ في الأجسامِ إلا ألوانُها ،

وهيَ السوادُ والبياضُ وغيرُهما ، فإنَّا لا نشاهدُ في الأسودِ إلا السوادَ ، وفي الأبيضِ إلا البياضَ ، فأمَّا الضوءُ.. فلا ندركُهُ وحدَهُ ، ولكنْ لمَّا غابَتِ الشمسُ ، وأظلمَتِ المواضعُ.. أدركنا تفرقةً بينَ الحالينِ ، فعلمنا أنَّ الأجسامَ كانَتْ قدِ استضاءَتْ بضوءٍ ، واتصفَتْ بصفةٍ فارقَتْها عندَ الغروبِ ، فعرفنا وجودَ النورِ بعدمِهِ ، وما كنَّا نطلعُ عليهِ لولا عدمُهُ إلا بعسرٍ شديدٍ ، وذلكَ لمشاهدتِنا الأجسامَ متشابهةً غيرَ مختلفةٍ في الظلامِ والنورِ ، هـٰذا معَ أنَّ النورَ أظهرُ المحسوساتِ ؛ إذْ بهِ تُدركُ سائرُ المحسوساتِ .

فما هوَ ظاهرٌ في نفسِهِ وهوَ مظهرٌ لغيرِهِ.. انظرْ كيفَ تُصوِّرَ استبهامُ أمرِهِ بسببِ ظهورِهِ لولا طريانُ ضدِّهِ ، فاللهُ تعالىٰ هوَ أظهرُ الأمورِ ، وبهِ ظهرَتِ الأشياءُ كلُّها ، ولوْ كانَ لهُ عدمٌ أوْ غيبةٌ أوْ تغيُّرٌ.. لانهدَّتِ السماواتُ والأرضُ ، وبطلَ الملكُ والملكوتُ ، ولأُدركَتْ بذلكَ التفرقةُ بينَ الحالينِ ، ولوْ كانَ بعضُ الأشياءِ موجوداً بهِ وبعضُها موجوداً بغيرِهِ.. لأُدركَتِ التفرقةُ بينَ الشيئينِ في الدلالةِ ، ولكنْ دلالتُهُ عامةٌ في الأشياءِ علىٰ نسقٍ واحدٍ ، ووجودُهُ دائمٌ في الأحوالِ يستحيلُ خلافُهُ ، فلا جرمَ أورثَتْ شدَّةُ الظهورِ خفاءً .

فهـٰذا هوَ السببُ في قصورِ الأفهامِ .

وأمَّا مَنْ قويَتْ بصيرتُهُ ، ولمْ تضعفْ مُنَّتُهُ.. فإنَّهُ في حالِ اعتدالِ أمرِهِ لا يرىٰ إلا اللهَ تعالىٰ ، ولا يعرفُ غيرَهُ ، ويعلمُ أنَّهُ ليسَ في الوجودِ إلا اللهُ

تعالىٰ ، وأفعالُهُ أثرٌ مِنْ آثارِ قدرتِهِ ، فهيَ تابعةٌ لهُ ، فلا وجودَ لها بالحقيقةِ دونَهُ ، وإنَّما الوجودُ للواحدِ الحقِّ الذي بهِ وجودُ الأفعالِ كلِّها ، ومَنْ هـٰذهِ حالُهُ فلا ينظرُ في شيءٍ مِنَ الأفعالِ إلا ويرىٰ فيهِ الفاعلَ ، ويذهلُ عنِ الفعلِ مِنْ حيثُ إنَّهُ سماءٌ وأرضٌ وحيوانٌ وشجرٌ ، بلْ ينظرُ فيهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ صنعُ الواحدِ الحقِّ ، فلا يكونُ نظرُهُ مجاوزاً لهُ إلىٰ غيرِهِ ، كمَنْ نظرَ في شعرِ إنسانٍ أوْ خطِّهِ أوْ تصنيفِهِ ورأىٰ فيهِ الشاعرَ والمصنِّفَ ، ورأىٰ آثارَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ أثرُهُ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ حبرٌ وعفْصٌ وزاجٌ مرقومٌ علىٰ بياضٍ ، فلا يكونُ قدْ نظرَ إلىٰ غيرِ المصنفِ .

وكلُّ العالمِ تصنيفُ اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ نظرَ إليهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُ اللهِ ، وعرفَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُ اللهِ ، وأحبَّهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُ اللهِ . لمْ يكنْ ناظراً إلا في اللهِ ، ولا عارفاً إلا باللهِ ، ولا محبّاً إلا للهِ وكانَ هوَ الموحِّدَ الحقَّ الذي لا يرىٰ إلا اللهَ ، بلْ لا ينظرُ إلىٰ نفسهِ مِنْ حيثُ نفسُهُ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ عبدُ اللهِ ، فهـٰذا هوَ الذي يُقالُ فيهِ : إنَّهُ فنيَ في التوحيدِ ، وإنَّهُ فنيَ عنْ نفسِهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِ مَنْ قالَ : (كنَّا بنا ، ففنينا عنَّا[1] ، فبقينا بلا نحنُ) .

فهـٰذه أمورٌ معلومةٌ عندَ ذوي البصائرِ ، أشكلَتْ لضعفِ الأفهامِ عنْ دركِها ، وقصورِ قدرةِ العلماءِ بها عنْ إيضاحِها وبيانِها بعبارةٍ مفهمةٍ موصلةٍ

(١) في (أ) : (فغبنا) بدل (ففنينا) .

للغرضِ إلى الأفهامِ ، أوْ باشتغالِهِمْ بأنفسِهِمْ ، واعتقادِهِمْ أنَّ بيانَ ذلكَ لغيرِهِمْ ممَّا لا يعنيهِمْ .

فهٰذا هوَ السببُ في قصورِ الأفهامِ عنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، وانضمَّ إليهِ أنَّ المدركاتِ كلَّها التي هيَ شاهدةٌ على اللهِ إنَّما يدركُها الإنسانُ في الصبا عندَ فقدِ العقلِ ، ثمَّ تبدو فيهِ غريزةُ العقلِ قليلاً قليلاً ، وهوَ مستغرقُ الهمِّ بشهواتِهِ ، وقدْ أنِسَ بمدركاتِه ومحسوساتِهِ وألفَها[1] ، فسقطَ وقعُها عنْ قلبِهِ بطولِ الأنسِ ، ولذلكَ إذا رأىٰ علىٰ سبيلِ الفجأةِ حيواناً غريباً أوْ نباتاً غريباً أوْ فعلاً مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ خارقاً للعادةِ عجيباً . . انطلقَ لسانُهُ بالمعرفةِ طبعاً ، فقالَ : سبحانَ اللهِ ! وهوَ يرىٰ طولَ النهارِ نفسَهُ وأعضاءَهُ وسائرَ الحيواناتِ المألوفةِ وكلُّها شواهدُ قاطعةٌ ولا يحسُّ بشهادتِها ؛ لطولِ الأنسِ بها .

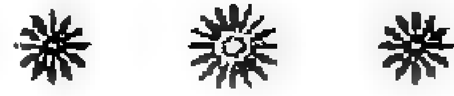
ولوْ فُرِضَ أكمهُ بلغَ عاقلاً ، ثمَّ انقشعَتْ غشاوةُ عينِهِ ، فامتدَّ بصرُهُ إلى السماءِ والأرضِ والأشجارِ والنباتِ والحيوانِ دفعةً واحدةً علىٰ سبيلِ الفجأةِ . . لخيفَ علىٰ عقلِهِ أنْ ينبهرَ ؛ لعظمِ تعجُّبِهِ مِنْ شهادةِ هٰذهِ العجائبِ لخالقِها .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنَ الأسبابِ معَ الانهماكِ في الشهواتِ هوَ الذي سدَّ على الخلقِ سبيلَ الاستضاءةِ بأنوارِ المعرفةِ ، والسباحةِ في بحارِها الواسعةِ ،

(١) ولهٰذا قال المصنف كما سيأتي في (بيان محبة الله للعبد ومعناها) : (الخلْقُ أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق) ، وسبب هٰذا السبق هو الضعف وطول الإلف .

فالناسُ في طلبِهِمْ معرفةَ اللهِ كالمدهوشِ الذي يُضربُ بهِ المثلُ إذا كانَ راكباً لحمارِهِ وهوَ يطلبُ حمارَهُ ، والجلياتُ إذا صارَتْ مطلوبةً . . صارَتْ معتاصةً ، فهاذا سرُّ هاذا الأمرِ ، فليُحقَّقْ ، ولذلكَ قيلَ[1] : [من البسيط]

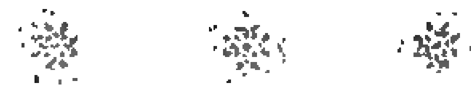
لَقَدْ ظَهَرْتَ فَما تَخْفَىٰ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلاَّ عَلَىٰ أَكْمَهٍ لا يَعْرِفُ ٱلْقَمَرا
لَكِنْ بَطَنْتَ بِما أَظْهَرْتَ مُحْتَجِباً فَكَيْفَ يُعْرَفُ مَنْ بِٱلْعُرْفِ قدْ سُتِرا



(١) البيتان لذي الرمة في « ديوانه » (٢/١١٦٣) ، وانظر « طبقات الأولياء » (ص٥١٨) .

بيان معنى الشّوق إلى الله تعالى

اعلمْ : أنَّ مَنْ أنكرَ حقيقةَ المحبةِ للهِ تعالىٰ . . فلا بدَّ وأنْ ينكرَ حقيقةَ الشوقِ ، إذْ لا يُتصوَّرُ الشوقُ إلا إلىٰ محبوبٍ ونحنُ نثبتُ وجودَ الشوقِ إلى اللهِ تعالىٰ وكونَ العارفِ مضطراً إليهِ بطريقِ الاعتبارِ والنظرِ بأنوارِ البصائرِ ، وبطريقِ الأخبار والآثارِ .



أمَّا الاعتبارُ :

فيكفي في إثباتِهِ ما سبقَ في إثباتِ الحبِّ ، فكلُّ محبوبٍ يُشتاقُ إليهِ في غيبتِهِ لا محالةَ ، فأمَّا الحاصلُ الحاضرُ فلا يُشتاقُ إليهِ ؛ فإن الشوقَ طلبٌ وتشوُّفٌ إلىٰ نيلِ أمرٍ ، والموجودُ لا يُطلبُ .

ولكنْ بيانُهُ : أنَّ الشوقَ لا يُتصوَّرُ إلا إلىٰ شيءٍ أُدركَ مِنْ وجهٍ ولمْ يُدركْ مِنْ وجهٍ ، فأمَّا ما لا يُدركُ أصلاً . . فلا يُشتاقُ إليهِ ، فإنَّ مَنْ لمْ يرَ شخصاً ولمْ يسمعْ وصفَهُ . . لا يُتصوَّرُ أنْ يشتاقَ إليهِ ، وما أُدركَ بكمالِهِ لا يُشتاقُ إليهِ ، وكمالُ الإدراكِ بالرؤيةِ ، فمَنْ كانَ في مشاهدةِ محبوبِهِ مداوماً للنظرِ إليهِ . . لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ لهُ شوقٌ ، ولكنَّ الشوقَ إنَّما يتعلَّقُ بما أُدركَ مِنْ وجهٍ ولمْ يُدركْ مِنْ وجهٍ ، وهوَ مِنْ وجهينِ :

الأوَّلُ : هوَ أنْ يتضحَ الشيءُ اتضاحاً ما ، ولكنَّهُ محتاجٌ إلى استكمالٍ ،

ولا ينكشفُ إلا بمثالٍ مِنَ المشاهداتِ ، فنقولُ مثلاً : مَنْ غابَ عنهُ معشوقُهُ وبقيَ في قلبهِ خيالُهُ . . فيشتاقُ إلى استكمالِ خيالهِ بالرؤيةِ ، فلوِ انمحىٰ عنْ قلبهِ ذكرُهُ وخيالُهُ ومعرفتُهُ حتَّىٰ نسيَهُ . . لمْ يُتصوَّرْ أنْ يشتاقَ إليهِ ، ولوْ رآهُ . . لمْ يُتصوَّرْ أنْ يشتاقَ في وقتِ الرؤيةِ ، فمعنىٰ شوقِهِ : تشوُّقُ نفسِهِ إلى استكمالِ خيالِهِ ، وكذلكَ قدْ يراهُ في ظلمةٍ بحيثُ لا تنكشفُ لهُ حقيقةُ صورتِهِ ، فيشتاقُ إلى استكمالِ رؤيتِهِ ، وتمامُ الانكشافِ في صورتِهِ بإشراقِ الضوءِ عليهِ .

والثاني : أنْ يرىٰ وجهَ محبوبِهِ ولا يرىٰ شعرَهُ مثلاً ولا سائرَ محاسنِهِ ؛ فيشتاقُ لرؤيتِهِ وإنْ لمْ يرَها قطُّ ، ولمْ يثبتْ في نفسِهِ خيالٌ صادرٌ عنِ الرؤيةِ ، ولكنَّهُ يعلمُ أنَّ لهُ عضواً وأعضاءً جميلةً ، ولمْ يدركْ تفصيلَ جمالِها بالرؤيةِ ، فيشتاقُ إلىٰ أنْ ينكشفَ لهُ ما لمْ يرَهُ قطُّ .

والوجهانِ جميعاً متصوَّرانِ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ، بلْ هما لازمانِ بالضرورةِ لكلِّ العارفينَ ، فإنَّ ما اتضحَ للعارفينَ مِنَ الأمورِ الإلـٰهيةِ وإنْ كانَ في غايةِ الوضوحِ فكأنَّهُ مِنْ وراءِ سترٍ رقيقٍ ، فلا يكونُ متضحاً غايةَ الاتضاحِ ، بلْ يكونُ مشوباً بشوائبِ التخيُّلاتِ ، فإنَّ الخيالَ لا يفترُ في هـٰذا العالَمِ عنِ التمثيلِ والمحاكاةِ لجميعِ المعلوماتِ ، وهيَ مكدراتٌ للمعارفِ ومنغصاتٌ ، وكذلكَ ينضافُ إليها شواغلُ الدنيا ، فإنَّما كمالُ الوضوحِ بالمشاهدةِ وتمامِ إشراقِ التجلِّي ولا يكونُ ذلكَ إلا في الآخرةِ ، وذلكَ بالضرورةِ يوجبُ الشوقَ ؛ فإنَّهُ منتهىٰ محبوبِ العارفينَ ، **فهـٰذا هوَ أحدُ**

نوعيِ الشوقِ ، وهوَ استكمالُ الوضوحِ فيما اتضحَ اتضاحاً ما .

الثاني : أنَّ الأمورَ الإلـٰهيَّةَ لا نهايةَ لها ، وإنَّما ينكشفُ لكلِّ عبدٍ مِنَ العبادِ بعضُها ، وتبقىٰ أمورٌ لا نهايةَ لها غامضةٌ ، والعارفُ يعلمُ وجودَها ، وكونَها معلومةً للهِ تعالىٰ ، ويعلمُ أنَّ ما غابَ عنْ علمِهِ مِنَ المعلوماتِ أكثرُ ممَّا حضرَ ، فلا يزالُ متشوِّقاً إلىٰ أنْ يحصلَ لهُ أصلُ المعرفةِ فيما لمْ يحصلْ ممَّا بقيَ مِنَ المعلوماتِ التي لمْ يعرفْها أصلاً ، لا معرفةً واضحةً ، ولا معرفةً غامضةً .

والشوقُ الأوَّلُ ينتهي في الدارِ الآخرةِ بالمعنى الذي يُسمَّىٰ رؤيةً ولقاءً ومشاهدةً ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يسكنَ في الدنيا .

وقدْ كانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ مِنَ المشتاقينَ ، فقالَ : قلتُ ذاتَ يومٍ : يا ربِّ ؛ إنْ أعطيتَ أحداً مِنَ المحبِّينَ لكَ ما يسكنُ بهِ قلبُهُ قبلَ لقائِكَ.. فأعطني ذلكَ ، فقدْ أضرَّ بي القلقُ ، قالَ : فرأيتُ في النومِ أنَّهُ أوقفني بينَ يديهِ وقالَ : يا إبراهيمُ ؛ أما استحييتَ منِّي أنْ تسألَني أنْ أعطيَكَ ما يسكنُ بهِ قلبُكَ قبلَ لقائي ؟! وهلْ يسكنُ المشتاقُ قبلَ لقاءِ حبيبِهِ ؟! فقلتُ : يا ربِّ ؛ تهتُ في حبِّكَ ، فلمْ أدرِ ما أقولُ ، فاغفرْ لي ، وعلِّمْني ما أقولُ ، فقالَ : قُلِ : اللهُمَّ ؛ رضِّني بقضائِكَ ، وصبِّرْني علىٰ بلائِكَ ، وأوزِعْني شكرَ نعمائِكَ ![1] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٦١) ، ورواه عنه بغير الدعاء السراج القاري في « مصارع العشاق » (١/ ٢٧٨) .

فإذاً ؛ هـٰذا الشوقُ يسكنُ في الآخرةِ ، وأمَّا الشوقُ الثاني . . فيشبهُ ألا يكونَ لهُ نهايةٌ لا في الدنيا ولا في الآخرةِ ؛ إذْ نهايتُهُ أنْ ينكشفَ للعبدِ في الآخرةِ مِنْ جلالِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وحكمتِهِ وأفعالِهِ ما هوَ معلومٌ للهِ تعالىٰ ، وهوَ محالٌ ؛ لأنَّ ذلكَ لا نهايةَ لهُ ، ولا يزالُ العبدُ عالماً بأنَّهُ بقيَ مِنَ الجمالِ والجلالِ ما لمْ يتضحْ لهُ ، فلا يسكنُ قطُّ شوقُهُ ، لا سيما مَنْ يرىٰ فوقَ درجتِهِ درجاتٍ كثيرةً ، إلا أنَّهُ تشوَّقَ إلى استكمالِ الوصالِ معَ حصولِ أصلِ الوصالِ ، فهوَ يجدُ لذلكَ شوقاً لذيذاً لا يظهرُ فيهِ ألمٌ ، ولا يبعدُ أنْ تكونَ ألطافُ الكشفِ والنظرِ متواليةً إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، فلا يزالُ النعيمُ واللذَّةُ متزايداً أبدَ الآبادِ ، وتكونُ لذَّةُ ما يتجدَّدُ مِنْ لطائفِ النعيمِ شاغلاً عنِ الإحساسِ بالشوقِ إلىٰ ما لمْ يحصلْ ، وهـٰذا بشرطِ أنْ يمكنَ حصولُ الكشفِ فيما لمْ يحصلْ فيهِ كشفٌ في الدنيا أصلاً ، فإنْ كانَ ذلكَ غيرَ مبذولٍ . . فيكونُ النعيمُ واقفاً علىٰ حدٍّ لا يتضاعفُ ، ولكنْ يكونُ مستمرّاً على الدوامِ .

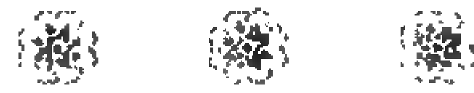
وقولُهُ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ محتملٌ لهـٰذا المعنىٰ ، وهوَ أنْ ينعمَ عليهِ بإتمامِ النورِ مهما تزوَّدَ مِنَ الدنيا أصلَ النورِ ، ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بهِ إتمامَ النورِ في غيرِ ما استنارَ في الدنيا استنارةً محتاجةً إلىٰ مزيدِ الاستكمالِ والإشراقِ ، فيكونَ هوَ المرادَ بتمامِهِ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ يدلُّ علىٰ

أنَّ الأنوارَ لا بدَّ وأنْ يُتزوَّدَ أصلُها في الدنيا ، ثمَّ يزدادَ في الآخرةِ إشراقاً ، فأمَّا أنْ يتجدَّدَ نورٌ . . فلا .

والحكمُ في هـٰذا برجمِ الظنونِ مخطرٌ ، ولمْ ينكشفْ لنا بعدُ فيهِ ما يُوثقُ بهِ ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يزيدَنا علماً ورشداً ، ويريَنا الحقَّ حقّاً .

فهـٰذا القدْرُ مِنْ أنوارِ البصائرِ كاشفٌ لحقائقِ الشوقِ ومعانيهِ .



وأمَّا شواهدُ الأخبارِ والآثارِ . . فأكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ :

فمما اشتهرَ مِنْ دعاءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ كانَ يقولُ : « اللهُمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الرضا بعدَ القضاءِ ، وبردَ العيشِ بعدَ الموتِ ، ولذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِكَ الكريمِ ، وشوقاً إلىٰ لقائِكَ »[1] .

وقالَ أبو الدرداءِ لكعبٍ : أخبرْني عنْ أخصِّ آيةٍ ؛ يعني : في التوراةِ ، فقالَ : يقولُ اللهُ تعالىٰ : طالَ شوقُ الأبرارِ إلىٰ لقائي ، وإنِّي إلىٰ لقائِهِمْ لأشدُّ شوقاً ، قالَ : ومكتوبٌ إلىٰ جانبِها : مَنْ طلبَني . . وجدَني ، ومَنْ طلبَ غيري . . لمْ يجدْني ، فقالَ أبو الدرداءِ : أشهدُ إنِّي لسمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ هـٰذا[2] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ١٩١) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥١٦) ، وقد رواه أيضا الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٧) .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٦٠٤) : (نقله صاحب « القوت » ، وأغفله العراقي ، والذي رواه أبو الدرداء مرفوعاً هو قوله : يقول الله تعالىٰ : من طلبني . . =

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : (يا داوودُ ؛ أبلغْ أهلَ أرضي أنِّي حبيبٌ لمَنْ أحبَّني ، وجليسٌ لمَنْ جالسَني ، ومؤنسٌ لمَنْ أنسَ بذكري ، وصاحبٌ لمَنْ صاحبَني ، ومختارٌ لمَنِ اختارَني ، ومطيعٌ لمَنْ أطاعَني ، ما أحبَّني عبدٌ أعلمُ ذلكَ يقيناً مِنْ قلبِهِ إلا قبلتُهُ لنفسي ، وأحببتُهُ حبّاً لا يتقدَّمُ عليهِ أحدٌ مِنْ خلقي ، مَنْ طلبَني بالحقِّ . . وجدَني ، ومَنْ طلبَ غيري . . لمْ يجدْني ، فارفضوا يا أهلَ الأرضِ ما أنتُمْ عليهِ مِنْ غرورِها ، وهلمُّوا إلىٰ كرامتي ومصاحبتي ومجالستي ، وأْنسوا بي . . أؤانسْكُمْ وأسارعْ إلىٰ محبَّتِكُمْ ، فإنِّي خلقتُ طينةَ أحبائي مِنْ طينةِ إبراهيمَ خليلي وموسىٰ نجيِّي ، ومحمدٍ صفيِّي ، وخلقتُ قلوبَ المشتاقينَ مِنْ نوري ، ونعَّمتُها بجلالي)[1] .

ورُوِيَ عنْ بعضِ السلفِ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعضِ الصدِّيقينَ : إنَّ لي عباداً مِنْ عبادي يحبُّوني وأحبُّهُمْ ، ويشتاقونَ إليَّ وأشتاقُ إليهِمْ ، ويذكروني وأذكرُهُمْ ، وينظرونَ إليَّ وأنظرُ إليهِمْ ، فإنْ حذوتَ طريقَهُمْ . . أحببتُكَ ، وإنْ عدلتَ عنهُمْ . . مقتُّكَ ، قالَ : يا ربِّ ؛ وما علامتُهُمْ ؟

= وجدني ، ومن طلب غيري . . لم يجدني) ، وحديث : « طال شوق الأبرار . . . » أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٠٦٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، وقد روى المقدسي في « الترغيب في الدعاء » (١٩) عن أحمد بن مخلد الخراساني القولين مع زيادة دون رفع أو وقف .

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٠٥) .

قالَ : يراعونَ الظلالَ بالنهارِ كما يراعي الراعي الشفيقُ غنمَهُ ، ويحنُّونَ إلىٰ غروبِ الشمسِ كما تحنُّ الطيرُ إلىٰ أوكارِها عندَ الغروبِ ، فإذا جَنَّهُمُ الليلُ ، واختلطَ الظلامُ ، وفُرِشَتِ الفرشُ ، ونُصبتِ الأسرَّةُ ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبِهِ . . نصبوا لي أقدامَهُمْ ، وافترشوا لي وجوهَهُمْ وناجَوني بكلامي ، وتملَّقوا لي بإنعامي ، فبينَ صارخٍ وباكٍ ، وبينَ متأوِّهٍ وشاكٍ ، وبينَ قائمٍ وقاعدٍ ، وبينَ راكعٍ وساجدٍ ، بعيني ما يتحمَّلونَ مِنْ أجلي ، وبسمعي ما يشتكونَ مِنْ حبِّي ، أوَّلُ ما أعطيهِمْ ثلاثاً : أقذفُ مِنْ نوري في قلوبِهِمْ فيخبرونَ عنِّي كما أخبرُ عنهُمْ ، والثانيةُ : لوْ كانَتِ السماواتُ والأرضُ وما فيهِما في موازينِهِمْ لاستقللتُها لهُمْ ، والثالثةُ : أقبلُ بوجهِي عليهِمْ ، فترىٰ مَنْ أقبلتُ بوجهي عليهِ يعلمُ أحدٌ ما أريدُ أنْ أعطيَهُ ؟!(١) .

وفي أخبار داوودَ عليهِ السلامُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إليهِ : يا داوودُ ؛ إلىٰ كمْ تذكرُ الجنَّةَ ولا تسألُني الشوقَ إليَّ ؟! قالَ : يا ربِّ ؛ مَنِ المشتاقونَ إليكَ ؟ قالَ : إنَّ المشتاقينَ إليَّ الذينَ صفَّيتُهُمْ مِنْ كلِّ كدرٍ ، وأنبهتُهُمْ بالحذرِ ، وخرقتُ مِنْ قلوبِهِمْ إليَّ خرقاً ينظرونَ إليَّ ، وإنِّي لأحملُ قلوبَهُمْ بيدي فأضعُها علىٰ سمائي ، ثمَّ أدعو نجباءَ ملائكتي ، فإذا اجتمعوا . . سجدوا لي ، فأقولُ : إنِّي لمْ أدعُكُمْ لتسجدوا لي ، ولكنِّي دعوتُكُمْ لأعرضَ عليكُمْ قلوبَ المشتاقينَ إليَّ ، وأباهي بكُمْ أهلَ الشوقِ إليَّ ، وإنَّ قلوبَهُمْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٦٠) .

لتضيءُ في سمائي لملائكتي كما تضيءُ الشمسُ لأهلِ الأرضِ .

يا داوودُ ؛ إنِّي خلقتُ قلوبَ المشتاقينَ مِنْ رضواني ، ونعَّمتُها بنورِ وجهي ، واتخذتُهُمْ لنفسي محدثينَ ، وجعلتُ أبدانَهُمْ موضعَ نظري إلى الأرضِ ، وقطعتُ مِنْ قلوبِهِمْ طريقاً ينظرونَ بهِ إليَّ يزدادونَ في كلِّ يومٍ شوقاً .

قالَ داوودُ : يا ربِّ ؛ أرني أهلَ محبَّتِكَ ، فقالَ : يا داوودُ ؛ ائتِ جبلَ لبنانَ ، فإنَّ فيهِ أربعةَ عشرَ نفساً ، فيهِمْ شبابٌ ، وفيهِمْ كهولٌ ، وفيهِمْ مشايخُ ، فإذا أتيتَهُمْ . . فأقرئْهُمْ منِّي السلامَ ، وقلْ لهُمْ : إنَّ ربَّكُمْ يقرئُكُمُ السلامَ ويقولُ لكُمْ : ألا تسألونَ حاجةً ؟ فإنَّكُمْ أحبَّائي وأصفيائي وأوليائي ، أفرحُ لفرحِكُمْ ، وأسارعُ إلىٰ محبَّتِكُمْ .

فأتاهم داوودُ عليهِ السلامُ ، فوجدَهُمْ عندَ عينٍ مِنَ العيونِ يتفكَّرونَ في عظمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلما نظروا إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ . . نهضوا ليتفرَّقوا عنهُ ، فقالَ داوودُ : إنِّي رسولُ اللهِ إليكُمْ ، جئتُكُمْ لأبلِّغَكُمْ رسالةَ ربِّكُمْ ، فأقبلوا نحوَهُ وألقَوا أسماعَهُمْ نحوَ قولِهِ ، وألقَوا أبصارَهُمْ إلى الأرضِ ، فقالَ داوودُ : إنِّي رسولُ اللهِ إليكُمْ ، وهوَ يقرئُكُمُ السلامَ ، ويقولُ لكُمْ : ألا تسألونَ حاجةً ؟ ألا تنادوني أسمعْ صوتَكُمْ وكلامَكُمْ ؟ فإنَّكُمْ أحبائي وأصفيائي وأوليائي ، أفرحُ لفرحِكُمْ ، وأسارعُ إلىٰ محبَّتِكُمْ ، وأنظرُ إليكُمْ في كلِّ ساعةٍ نظرَ الوالدةِ الشفيقةِ الرفيقةِ .

قالَ : فجرتِ الدموعُ علىٰ خدودِهِمْ .

فقالَ شيخُهُمْ : سبحانَكَ سبحانَكَ ، نحنُ عبيدُكَ وبنو عبيدِكَ ، فاغفرْ لنا ما قطعَ قلوبَنا عنْ ذكرِكَ فيما مضىٰ مِنْ أعمارِنا .

وقالَ الآخرُ : سبحانَكَ سبحانَكَ ، نحنُ عبيدُكَ وبنو عبيدِكَ ، فامنُنْ علينا بحسنِ النظرِ فيما بينَنا وبينَكَ .

وقالَ الآخرُ : سبحانَكَ سبحانَكَ ، نحنُ عبيدُكَ وبنو عبيدِكَ ، أفنجترىءُ على الدعاءِ وقدْ علمتَ أنَّهُ لا حاجةَ لنا في شيءٍ مِنْ أمورِنا ؟! فأدمْ لنا لزومَ الطريقِ إليكَ ، وأتممْ بذلكَ المنَّةَ علينا .

وقالَ الآخرُ : نحنُ مقصرونَ في طلبِ رضاكَ ، فأعنَّا عليهِ بجودِكَ .

وقالَ الآخرُ : مِنْ نطفةٍ خلقتَنا ، ومننتَ علينا بالتفكُّرِ في عظمتِكَ ، أفيجترىءُ على الكلامِ مَنْ هوَ مشتغلٌ بعظمتِكَ متفكِّرٌ في جلالِكَ ، وطلبتُنا الدنوُّ مِنْ نورِكَ .

وقالَ الآخرُ : كلَّتْ ألسنتُنا عنْ دعائِكَ لعظيمِ شأنِكَ ، وقربِكَ مِنْ أوليائِكَ ، وكثرةِ منَّتِكَ علىٰ أهلِ محبَّتِكَ .

وقالَ الآخرُ : أنتَ هديتَ قلوبَنا لذكرِكَ ، وفرَّغتَنا للاشتغالِ بكَ ، فاغفرْ لنا تقصيرَنا في شكرِكَ .

وقالَ الآخرُ : قدْ عرفتَ حاجتَنا ، إنَّما هيَ النظرُ إلىٰ وجهِكَ .

وقالَ الآخرُ : كيفَ يجترىءُ العبدُ علىٰ سيِّدِهِ ، إذْ أمرتَنا بالدعاءِ بجودِكَ . . فهبْ لنا نوراً نهتدي بهِ في الظلماتِ مِنْ أطباقِ السماواتِ .

وقالَ الآخرُ : ندعوكَ أنْ تقبلَ علينا وتديمَهُ عندَنا[1] .

وقالَ الآخرُ : نسألُكَ تمامَ نعمتِكَ فيما وهبتَ لنا ، وتفضَّلتَ بهِ علينا .

وقالَ الآخرُ : لا حاجةَ لنا في شيءٍ مِنْ خلقِكَ ، فامنُنْ علينا بالنظرِ إلىٰ جمالِ وجهِكَ .

وقالَ الآخرُ : أسألُكَ مِنْ بينِهِمْ أنْ تعميَ عيني عنِ النظرِ إلى الدنيا وأهلِها ، وقلبي عنِ الاشتغالِ بالآخرةِ .

وقالَ الآخرُ : قدْ عرفتُ تباركتَ وتعاليتَ أنَّكَ تحبُّ أولياءَكَ ، فامننْ علينا باشتغالِ القلبِ بكَ عنْ كلِّ شيءٍ دونَكَ .

فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : قلْ لهُمْ : قدْ سمعتُ كلامَكُمْ ، وأجبْتُكمْ إلىٰ ما أحببتُمْ ، فليفارقْ كلُّ واحدٍ منكُمْ صاحبَهُ ، وليتخذْ لنفسِهِ سرباً ، فإنِّي كاشفٌ الحجابَ فيما بيني وبينَكُمْ حتَّىٰ تنظروا إلىٰ نوري وجلالي .

فقالَ داوودُ : يا ربِّ ؛ بمَ نالوا هـٰذا منكَ ؟ قالَ : بحسنِ الظنِّ ، والكفِّ عنِ الدنيا وأهلِها ، والخلواتِ بي ، ومناجاتِهِمْ لي ، وإنَّ هـٰذا منزلٌ لا ينالُهُ إلا مَنْ رفضَ الدنيا وأهلَها ، ولمْ يشتغلْ بشيءٍ مِنْ ذكرِها ، وفرَّغَ قلبَهُ لي ، واختارَني علىٰ جميعِ خلقي ، فعندَ ذلكَ أعطفُ عليهِ ، وأفرغُ نفسَهُ ، وأكشفُ الحجابَ فيما بيني وبينَهُ ، حتَّىٰ ينظرَ إليَّ نظرَ الناظرِ بعينِهِ إلى

---

(١) في (ب) : (أن تقبل علينا بوجهك) ، وكذا في (ع) بزيادة : (وتديم رغبتنا) .

الشيءِ ، وأريهُ كرامتي في كلِّ ساعةٍ ، وأقربهُ مِنْ نورِ وجهي ، إنْ مرضَ . . مرَّضتهُ كما تمرِّضُ الوالدةُ الشفيقةُ ولدَها ، وإنْ عطشَ . . أرويتُهُ ، وأذيقهُ طعمَ ذكري ، فإذا فعلتُ ذلكَ بهِ يا داوودُ . . عميتُ نفسَهُ عنِ الدنيا وأهلِها ، ولمْ أحبِّبْها إليهِ ، لا يفترُ عنِ الاشتغالِ بي يستعجلُني القدومَ ، وأنا أكرهُ أنْ أميتَهُ ؛ لأنَّهُ موضعُ نظري مِنْ بينِ خلقي ، لا يرىٰ غيري ولا أرىٰ غيرَهُ ، فلوْ رأيتَهُ يا داوودُ وقد ذابَتْ نفسُهُ ، ونحلَ جسمُهُ ، وتهشَّمَتْ أعضاؤُهُ ، وانخلعَ قلبُهُ ، إذا سمعَ بذكري أباهي بهِ ملائكتي وأهلَ سماواتي . . يزدادُ خوفاً وعبادةً ، وعزَّتي وجلالي يا داوودُ ؛ لأقعدنَّهُ في الفردوسِ ، ولأشفينَّ صدرَهُ مِنَ النظرِ إليَّ حتَّىٰ يرضىٰ وفوقَ الرضا (١) .

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ أيضاً : (قلْ لعبادي المتوجهينَ إلىٰ محبَّتي : ما ضرَّكُمْ إذا احتجبتُ عنْ خلقي ، ورفعتُ الحجابَ فيما بيني وبينَكُمْ حتَّىٰ تنظروا إليَّ بعيونِ قلوبِكُمْ ؟ وما ضرَّكُمْ ما زويتُ عنكُمْ مِنَ الدنيا إذا بسطتُ ديني لكُمْ ؟ وما ضرَّكُمْ مسخطةُ الخلقِ إذا التمستُمْ رضائي ؟) (٢) .

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ أيضاً : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إليهِ : (تزعمُ أنَّكَ تحبُّني ؟ فإنْ كنتَ تحبُّني . . فأخرجْ حبَّ الدنيا مِنْ قلبِكَ ، فإنَّ حبِّي وحبَّها لا يجتمعانِ في قلبٍ ، يا داوودُ ؛ خالصْ حبيبي مخالصةً ، وخالطْ أهلَ الدنيا مخالطةً ، ودينَكَ فقلدْنيهِ ، ولا تقلِّدْ دينَكَ الرجالَ ، أمَّا ما استبانَ

---

(١) نقله صاحب « القوت » بطوله . « إتحاف » (٩/٦٠٧) .
(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/٦٠٧) .

لكَ ممَّا وافقَ محبَّتي . . فتمسَّكْ بهِ ، وأمَّا ما أشكلَ عليكَ . . فقلدْنيهِ ، حقّاً عليَّ أنِّي أسارعُ إلىٰ سياستِكَ وتقويمِكَ ، وأكونُ قائدَكَ ودليلَكَ أعطيكَ مِنْ غيرِ أنْ تسألَني ، وأعينُكَ على الشدائدِ ، فإنِّي قدْ حلفتُ علىٰ نفسي أنِّي لا أثيبُ عبداً إلا عبداً قدْ عرفتُ مِنْ طَلِبَتِهِ وإرادتِهِ إلقاءَ كنفِهِ بينَ يديَّ ، وأنَّه لا غنىٰ بهِ عنِّي ، فإذا كنتَ كذلكَ . . نزعتُ الذلَّةَ والوحشةَ عنكَ ، وأسكنتُ الغنىٰ قلبَكَ ، فإنِّي قدْ حلفتُ علىٰ نفسي أنَّهُ لا يطمئنُّ عبدٌ لي إلىٰ نفسِهِ ينظرُ إلىٰ فعالِها . . إلا وكلتُهُ إليها ، أضفِ الأشياءَ إليَّ ، لا تضادَّ عملَكَ فتكونَ متعنِّياً ، ولا ينتفعَ بكَ مَنْ يصحبُكَ ، ولا تحدَّ لمعرفتي حدّاً ، فليسَ لها غايةٌ ، ومتىٰ طلبتَ منِّي الزيادةَ . . أعطِكَ ، ولا تحدَّ للزيادةِ منِّي حدّاً ، ثمَّ أعلمْ بني إسرائيلَ أنَّهُ ليسَ بيني وبينَ أحدٍ مِنْ خلقي نسبٌ ، فلتعظمْ رغبتُهُمْ وإرادتُهُمْ عندي . . أبحْ لهُمْ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ ، ضعْني بينَ عينيكَ ، وانظرْ إليَّ ببصرِ قلبِكَ ، ولا تنظرْ بعينيكَ التي في رأسِكَ إلى الذينَ حجبتُ عقولَهُمْ عنِّي فأمرجوها وسختْ بانقطاعِ ثوابي عنها(١) ؛ فإنِّي حلفتُ بعزَّتي وجلالي لا أفتحُ ثوابي لعبدٍ دخلَ في طاعتي للتجربةِ والتسويفِ ، تواضعْ لِمَنْ تعلِّمُهُ ، ولا تطاولْ على المريدينَ ، فلوْ علمَ أهلُ محبَّتي منزلةَ المريدينَ عندي . . لكانوا لهُمْ أرضاً يمشونَ عليها .

---

(١) أمرجوها : أفسدوها . وفي (أ) : (فأسرجوها وسمحت) ، ومعناه ظاهر ، وفي (د) : (فأمرجوها وسخطت) .

يا داوودُ ؛ لأنْ تخرِجَ مريداً مِنْ سكرةٍ هوَ فيها ، تستنقذُهُ ، فأكتبَكَ عندي جهبذاً ، ومَنْ كتبتُهُ عندي جهبذاً . . لا تكونُ عليهِ وحشةٌ ولا فاقةٌ إلى المخلوقينَ .

يا داوودُ ؛ تمسَّكْ بكلامي ، وخذْ مِنْ نفسِكَ لنفسِكَ ، لا تؤتينْ منها فأحجبَ عنكَ محبَّتي ، لا تؤيسْ عبادي مِنْ رحمتي . . أقطعْ شهوتَكَ لي ، فإنَّما أبحتُ الشهواتِ لضَعَفَةِ خلقي ، ما بالُ الأقوياءِ أنْ ينالوا الشهواتِ فإنَّها تنقصُ حلاوةَ مناجاتي ، وإنَّما عقوبةُ الأقوياءِ عندي في موضعِ التناولِ ، أدنىٰ ما يصلُ إليهِمْ أنْ أحجبَ عقولَهُمْ عنِّي ، فإنِّي لمْ أرضَ الدنيا لحبيبي ونزهتُهُ عنها .

يا داوودُ ؛ لا تجعلْ بيني وبينَكَ عالماً يحجبُكَ بسكرِهِ عنْ محبَّتي ، أولئكَ قطَّاعُ الطريقِ علىٰ عبادي المريدينَ ، استعنْ علىٰ تركِ الشهواتِ بإدمانِ الصومِ ، وإيَّاكَ والتجربةَ في الإفطارِ ، فإنَّ محبَّتي للصومِ إدمانُهُ[(١)] .

يا داوودُ ؛ تحبَّبْ إليَّ بمعاداةِ نفسِكَ ، امنعْها الشهواتِ أنظرْ إليكَ ، وترى الحجبَ بيني وبينَكَ مرفوعةً ، إنَّما أداريكَ مداراةً لتقوىٰ علىٰ ثوابي إذا مننتُ بهِ عليكَ ، وإنِّي أحبسُهُ عنكَ وأنتَ متمسِّكٌ بطاعتي)[(٢)] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ لوْ يعلمُ

---

(١) وفي (أ) : (يعجبني من الصوم إدمانُهُ) .
(٢) ساقه صاحب « القوت » بطوله . « إتحاف » (٩/٦٠٨) .

المدبرونَ عنِّي كيفَ انتظاري لهُمْ ، ورفقي بهِمْ ، وشوقي إلىٰ تركِ معاصيهِمْ . . لماتوا شوقاً إليَّ ، وتقطَّعَتْ أوصالُهُمْ مِنْ محبَّتي .

يا داوودُ ؛ هٰذهِ إرادتي في المدبرينَ عنِّي ، فكيفَ إرادتي في المقبلينَ عليَّ ؟

يا داوودُ ؛ أحوجُ ما يكونُ العبدُ إليَّ إذا استغنىٰ عنِّي ، وأرحمُ ما أكونُ بعبدي إذا أدبرَ عنِّي ، وأجلُّ ما يكونُ عندي إذا رجعَ إليَّ)[1] .

فهٰذهِ الأخبارُ ونظائرُها ممَّا لا يُحصىٰ تدلُّ علىٰ إثباتِ المحبَّةِ والشوقِ والأنسِ ، وأمَّا تحقيقُ معناها . . فينكشفُ بما سبقَ .



(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٨) .

بيان محبة الله للعبد ومعناها

اعلمْ : أنَّ شواهدَ القرآنِ متظاهرةٌ علىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ عبدَهُ ، فلا بدَّ مِنْ معرفةِ معنىٰ ذلكَ ، ولنقدِّمِ الشواهدَ علىٰ محبَّتِهِ .

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

ولذلكَ ردَّ سبحانَهُ علىٰ مَنِ ادعىٰ أنَّهُ حبيبُ اللهِ فقالَ : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ .

وقدْ روىٰ أنسٌ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا أحبَّ اللهُ تعالىٰ عبداً . . لمْ يضرَّهُ ذنبٌ ، والتائبُ مِنَ الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ ـ ثمَّ تلا ـ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ »[1] ، ومعناهُ : أنَّهُ إذا أحبَّهُ . . تابَ عليهِ قبلَ الموتِ ، فلمْ تضرَّهُ الذنوبُ الماضيةُ وإنْ كثرَتْ كما لا يضرُّ الكفرُ الماضي بعدَ الإسلامِ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٥٠) ، حيث قال قبله : (وروينا عن إسماعيل بن أبان ، عن أنس . . .) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ١٧٨) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٤٣٢) ، ورواه ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (١٨/ ٥٥) من طريق القشيري ، وأما لفظ : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » مفرداً . . فقد رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) .

وقدِ اشترطَ اللهُ تعالىٰ للمحبَّةِ غفرانَ الذنبِ فقالَ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يعطي الدنيا مَنْ يحبُّ ومَنْ لا يحبُّ ، ولا يعطي الإيمانَ إلا مَنْ يحبُّ »[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تواضعَ للهِ . . رفعَهُ اللهُ ، ومَنْ تكبَّرَ . . وضعَهُ اللهُ ، ومَنْ أكثرَ ذكرَ اللهِ . . أحبَّهُ اللهُ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : لا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ . . كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ وبصرَهُ الذي يبصرُ بهِ . . . » الحديثَ[3] .

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ ليحبُّ العبدَ حتَّىٰ يبلغَ مِنْ حبِّهِ لهُ أنْ يقولَ : اعملْ ما شئتَ ؛ فقدْ غفرتُ لكَ)[4] .

وما وردَ مِنْ ألفاظِ المحبَّةِ خارجٌ عنِ الحصرِ ، وقدْ ذكرنا أنَّ محبَّةَ العبدِ للهِ تعالىٰ حقيقةٌ وليسَتْ بمجازٍ ، إذِ المحبَّةُ في وضعِ اللسانِ عبارةٌ عنْ ميلِ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١/٣٨٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١/٣٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/١٦٥) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٧٦) بنحوه ، ودون زيادة : « ومن أكثر ذكر الله . . . » وهي عند ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٧) .

(٣) رواه البخاري (٦٥٠٢) .

(٤) كذا في « القوت » (٢/٥٠) ، وأصله عند البخاري (٧٥٠٧) ، ومسلم (٢٧٥٨) واللفظ له .

النفسِ إلى الشيءِ الموافقِ ، والعشقُ عبارةٌ عنِ الميلِ الغالبِ المفرطِ ، وقدْ بيَّنَّا أنَّ الإحسانَ موافقٌ للنفسِ ، والجمالَ موافقٌ أيضاً ، وأنَّ الجمالَ والإحسانَ تارةً يُدركُ بالبصرِ ، وتارةً يُدركُ بالبصيرةِ ، والحبُّ يتبعُ كلَّ واحدٍ منهُما ، فلا يختصُّ بالبصرِ .

فأمَّا حبُّ اللهِ تعالىٰ للعبدِ . . فلا يمكنُ أنْ يكونَ بهٰذا المعنىٰ أصلاً ، بلِ الأسامي كلُّها إذا أُطلقَتْ على اللهِ تعالىٰ وعلىٰ غيرِ اللهِ . . لمْ تنطلقْ عليهِما بمعنىً واحدٍ أصلاً ، حتَّىٰ إنَّ اسمَ الوجودِ الذي هوَ أعمُّ الأسماءِ اشتراكاً لا يشملُ الخالقَ والخلقَ علىٰ وجهٍ واحدٍ ، بلْ كلُّ ما سوى اللهِ تعالىٰ وجودُهُ مستفادٌ مِنْ وجودِ اللهِ تعالىٰ ، فالوجودُ التابعُ لا يكونُ مساوياً للوجودِ المتبوعِ ، وإنَّما الاستواءُ في إطلاقِ الاسمِ .

نظيرُهُ : اشتراكُ الفرسِ والشجرِ في اسمِ الجسمِ ؛ إذْ معنى الجسميَّةِ وحقيقتُها متشابهٌ فيهِما مِنْ غيرِ استحقاقِ أحدِهِما لأنْ يكونَ فيهِ أصلاً ، فليسَتِ الجسميَّةُ لأحدِهِما مستفادةً مِنَ الآخرِ ، وليسَ كذلكَ اسمُ الوجودِ للهِ تعالىٰ ولا لخلقِهِ .

وهٰذا التباعدُ في سائرِ الأسامي أظهرُ ؛ كالعلمِ ، والإرادةِ ، والقدرةِ ، وغيرِها ، فكلُّ ذلكَ لا يشبهُ فيهِ الخالقُ الخلقَ ، وواضعُ اللغةِ إنَّما وضعَ هٰذهِ الأساميَ أوَّلاً للخلقِ ، فإنَّ الخلقَ أسبقُ إلى العقولِ والأفهامِ مِنَ الخالقِ ، فكانَ استعمالُها في حقِّ الخالقِ بطريقِ الاستعارةِ والتجوُّزِ والنقلِ .

والمحبَّةُ في وضعِ اللسانِ عبارةٌ عنْ ميلِ النفسِ إلىٰ موافقٍ ملائمٍ ، وهٰذا

إنَّما يُتصوَّرُ في نفسٍ ناقصةٍ فاتَها ما يوافقُها ، فتستفيدُ بنيلِه كمالاً ، فتلتذُّ بنيلِهِ ، وهـٰذا محالٌ على اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ كلَّ كمالٍ وجمالٍ وبهاءٍ وجلالٍ ممكنٌ في حقِّ الإلـٰهيَّةِ فهوَ حاضرٌ وحاصلٌ وواجبُ الحصولِ أبداً وأزلاً ، ولا يُتصوَّرُ تجدُّدُهُ ولا زوالُهُ ، فلا يكونُ لهُ إلىٰ غيرِهِ نظرٌ مِنْ حيثُ إنَّه غيرُهُ ، بلْ نظرُهُ إلىٰ ذاتِهِ وإلىٰ أفعالِهِ فقطْ ، وليسَ في الوجودِ إلا ذاتُهُ وأفعالُهُ .

ولذلكَ قالَ الشيخُ أبو سعيدٍ المِيْهنيُّ رحمَهُ اللهُ لمَّا قُرِىءَ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ، فقالَ : (بحقٍّ يحبُّهُمْ ، فإنَّهُ ليسَ يحبُّ إلا نفسَهُ) ، علىٰ معنىٰ أنَّهُ الكلُّ ، وأنْ ليسَ في الوجودِ غيرُهُ ، فمَنْ لا يحبُّ إلا نفسَهُ وأفعالَ نفسِهِ وتصانيفَ نفسِهِ . . فلا يجاوزُ حبُّهُ ذاتَهُ وتوابعَ ذاتِهِ مِنْ حيثُ هيَ متعلِّقةٌ بذاتِهِ ، فهوَ إذاً لا يحبُّ إلا نفسَهُ .

وما وردَ مِنَ الألفاظِ في حبِّهِ لعبادِهِ . . فهوَ مؤوَّلٌ ، ويرجعُ معناهُ إلىٰ كشفِ الحجابِ عنْ قلبِهِ حتَّىٰ يراهُ بقلبِهِ ، وإلىٰ تمكينِهِ إيَّاهُ مِنَ القربِ منهُ ، وإلىٰ إرادتِهِ ذلكَ بهِ في الأزلِ ، فحبُّهُ لمَنْ أحبَّهُ أزليٌّ مهما أُضيفَ إلى الإرادةِ الأزليَّةِ التي اقتضتْ تمكينَ هـٰذا العبدِ مِنْ سلوكِ طرقِ القربِ ، وإذا أُضيفَ إلىٰ فعلِهِ الذي يكشفُ الحجابَ عنْ قلبِ عبدِهِ . . فهوَ حادثٌ يحدثُ بحدوثِ السببِ المقتضي لهُ ، كما قالَ اللهُ تعالىٰ : « ولا يزالُ يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّىٰ أحبَّهُ »(١) ، فيكونُ تقرُّبُهُ بالنوافلِ سبباً لصفاءِ باطنِهِ ، وارتفاعِ الحجابِ

---

(١) كذا في جميع النسخ : (ولا يزال يتقرب . . .) .

عنْ قلبِهِ ، وحصولِهِ في درجةِ القربِ مِنْ ربِّهِ ، وكلُّ ذلكَ فعلُ اللهِ تعالىٰ ولطفُهُ بهِ ، فهوَ معنىٰ حبِّهِ .

ولا يُفهمُ هـٰذا إلا بمثالٍ : وهو أنَّ الملكَ قَدْ يقرِّبُ عبدَهُ مِنْ نفسِهِ ، ويأذنُ لهُ في كلِّ وقتٍ في حضورِ بساطِهِ ؛ لميلِ الملكِ إليهِ ؛ إمَّا لينصرَهُ بقوَّتِهِ ، أوْ ليستريحَ بمشاهدتِهِ ، أوْ ليستشيرَهُ في رأيِهِ ، أوْ ليهيِّئَ أسبابَ طعامِهِ وشرابِهِ ، فيُقالُ : إنَّ الملكَ يحبُّهُ ، ويكونُ معناهُ : ميلَهُ إليهِ لما فيهِ مِنَ المعنى الموافقِ الملائمِ لهُ .

وقدْ يقرِّبُ عبداً ولا يمنعُهُ مِنَ الدخولِ عليهِ ، لا للانتفاعِ بهِ والاستنجادِ ، ولكنْ لكونِ العبدِ في نفسِهِ موصوفاً مِنَ الأخلاقِ الرضيَّةِ والخصالِ الحميدةِ بما يليقُ بهِ أنْ يكونَ قريباً مِنْ حضرةِ الملكِ ، وافرَ الحظِّ مِنْ قربِهِ ، معَ أنَّ الملكَ لا غرضَ لهُ فيهِ أصلاً ، فإذا رفعَ الملكُ الحجابَ بينَهُ وبينَهُ . . يُقالُ : قدْ أحبَّهُ ، وإذا اكتسبَ مِنَ الخصالِ الحميدةِ ما اقتضىٰ رفعَ الحجابِ . . يُقالُ : قدْ توصَّلَ وحبَّبَ نفسَهُ إلى الملكِ .

فحبُّ اللهِ للعبدِ إنَّما يكونُ بالمعنى الثاني ، لا بالمعنى الأوَّلِ ، وإنَّما يصحُّ تمثيلُهُ بالمعنى الثاني بشرطِ ألا يسبقَ إلىٰ فهمِكَ دخولُ تغيُّرٍ عليهِ عندَ تجدُّدِ القربِ ، فإنَّ الحبيبَ هوَ القريبُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، والقربُ مِنَ اللهِ تعالىٰ في البعدِ مِنْ صفاتِ البهائمِ والسباعِ والشياطينِ ، والتخلُّقِ بمكارمِ الأخلاقِ التي هيَ الأخلاقُ الإلـٰهيَّةُ ، فهوَ قربٌ بالصفةِ لا بالمكانِ ، ومَنْ لمْ يكنْ قريباً . . فصارَ قريباً ، فقدْ تغيَّرَ ، فربَّما يظنُّ بهـٰذا أنَّ القربَ لما تجدَّدَ ، فقدْ

تغيَّرَ وصفُ العبدِ والربِّ جميعاً ، إذْ صارَ قريباً بعدَ أنْ لمْ يكنْ ، وهوَ محالٌ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ؛ إذِ التغيُّرُ عليهِ محالٌ ، بلْ لا يزالُ في نعوتِ الكمالِ والجلالِ علىٰ ما كانَ عليهِ في أزلِ الآزالِ .

ولا ينكشفُ هٰذا إلا بمثالِ القربِ بينَ الأشخاصِ : فإنَّ الشخصينِ قدْ يتقاربانِ بتحرُّكِهما جميعاً ، وقدْ يكونُ أحدُهُما ثابتاً ، فيتحرَّكُ الآخرُ ، فيحصلُ القربُ بتغيُّرٍ في أحدِهِما مِنْ غيرِ تغيُّرٍ في الآخرِ ، بلِ القربُ في الصفاتِ أيضاً كذلكَ ، فإنَّ التلميذَ يطلبُ القربَ مِنْ درجةِ أستاذِهِ في كمالِ العلمِ وجمالِهِ ، والأستاذُ واقفٌ في كمالِ علمِهِ غيرُ متحرِّكٍ بالنزولِ إلىٰ درجةِ تلميذِهِ ، والتلميذُ متحرِّكٌ مترقٍّ مِنْ حضيضِ الجهلِ إلىٰ يفاعِ العلمِ ، فلا يزالُ دائباً في التغيُّرِ ، والترقِّي إلىٰ أنْ يقربَ مِنْ أستاذِهِ ، والأستاذُ ثابتٌ غيرُ متغيِّرٍ ؛ فكذلكَ ينبغي أنْ يُفهمَ ترقِّي العبدِ في درجاتِ القربِ ، فكلَّما صارَ أكملَ صفةً ، وأتمَّ علماً وإحاطةً بحقائقِ الأمورِ ، وأثبتَ قوَّةً في قهرِ الشيطانِ وقمعِ الشهواتِ ، وأظهرَ نزاهةً عنِ الرذائلِ . . صارَ أقربَ مِنْ درجةِ الكمالِ ، ومنتهى الكمالِ للهِ تعالىٰ ، وقربُ كلِّ واحدٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ بقدْرِ كمالِهِ .

نعمْ ، قدْ يقدرُ التلميذُ على القربِ مِنَ الأستاذِ وعلىٰ مساواتِهِ وعلىٰ مجاوزتِهِ ، وذلكَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ محالٌ ، فإنَّهُ لا نهايةَ لكمالِهِ ، وسلوكُ العبدِ في درجاتِ الكمالِ متناهٍ ، ولا ينتهي إلا إلىٰ حدٍّ محدودٍ ، فلا مطمعَ لهُ في المساواةِ .

ثمَّ درجاتُ القربِ تتفاوتُ تفاوتاً لا نهايةَ لهُ أيضاً ؛ لأجلِ انتفاءِ النهايةِ عنْ ذلكَ الكمالِ .

فإذاً ؛ محبَّةُ اللهِ للعبدِ تقريبُهُ مِنْ نفسِهِ بدفعِ الشواغلِ والمعاصي عنهُ ، وتطهيرُ باطنِهِ عنْ كدوراتِ الدنيا ، ورفعُ الحجابِ عنْ قلبِهِ حتَّىٰ يشاهدَهُ كأنَّهُ يراهُ بقلبِهِ ، وأمَّا محبةُ العبدِ للهِ . . فهوَ ميلُهُ إلىٰ دركِ هـٰذا الكمالِ الذي هوَ مفلسٌ عنهُ فاقدٌ لهُ ، فلا جرمَ يشتاقُ إلىٰ ما فاتَهُ ، وإذا أدركَ منهُ شيئاً . . يلتذُّ بهِ ، والشوقُ والمحبَّةُ بهـٰذا المعنىٰ محالٌ على اللهِ تعالىٰ .



فإنْ قلتَ : محبَّةُ اللهِ تعالىٰ للعبدِ أمرٌ ملتبسٌ ، فبمَ يعرفُ العبدُ أنَّهُ حبيبُ اللهِ ؟

فأقولُ : يُستدلُّ عليهِ بعلاماتِهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . ابتلاهُ ، فإذا أحبَّهُ الحبَّ البالغَ . . اقتناهُ » ، قيلَ : وما اقتناهُ ؟ قالَ : « لمْ يتركْ لهُ أهلاً ولا مالاً »(١) .

فعلامةُ محبةِ اللهِ للعبدِ أنْ يوحشَهُ مِنْ غيرِهِ ، ويحولَ بينَهُ وبينَ غيرِهِ ، قيلَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : لِمَ لا تشتري حماراً فتركبَهُ ؟ فقالَ : أنا أعزُّ

---

(١) قوت القلوب (١/٢٤٣) ، ورواه ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢٤٩٩) ، والدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (١/٤٦) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٩٦٨) كلهم من حديث أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه مرفوعاً .

على اللهِ تعالىٰ مِنْ أنْ يشغلَني عنْ نفسِهِ بحمارٍ[١] .

وفي الخبرِ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . ابتلاهُ ، فإنْ صبرَ . . اجتباهُ ، فإنْ رضيَ . . اصطفاهُ »[٢] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إذا رأيتَكَ تحبُّهُ ، ورأيتَهُ يبتليكَ . . فاعلمْ أنَّهُ يريدُ أنْ يصافيَكَ)[٣] .

وقالَ بعضُ المريدينَ لأستاذِهِ : قدْ طُولعتُ بشيءٍ مِنَ المحبَّةِ ، فقالَ : يا بنيَّ ؛ هلِ ابتلاكَ بمحبوبٍ سواهُ فآثرتَ عليهِ إيَّاهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فلا تطمعْ في المحبَّةِ ؛ فإنَّهُ لا يعطيها عبداً حتَّىٰ يبلوَهُ[٤] .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . جعلَ لهُ واعظاً مِنْ نفسِهِ ، وزاجراً مِنْ قلبِهِ يأمرُهُ وينهاهُ »[٥] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٦) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٢٨٥) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٥٣) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٩٧١) من حديث علي كرم الله وجهه .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٥٣) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٥٣) .

(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ : « إذا أراد الله بعبد خيراً . . . ») . « إتحاف » (٩/ ٦١٤) ، ورواه معلقاً أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٩٩) عن الحارث المحاسبي ، و(٢/ ٢٦٤) من كلام ابن سيرين .

وقدْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . بصَّرَهُ بعيوبِ نفسِهِ »[1] .

فأخصُّ علاماتِهِ حبُّهُ للهِ ؛ فإنَّ ذلكَ يدلُّ علىٰ حبِّ اللهِ .

وأمَّا الفعلُ الدالُّ علىٰ كونِهِ محبوباً . . فهوَ أنْ يتولَّى اللهُ تعالىٰ أمرَهُ ؛ ظاهرَهُ وباطنَهُ ، سرَّهُ وجهرَهُ ، فيكونَ هوَ المشيرَ عليهِ ، والمدبِّرَ لأمرِهِ ، والمزيِّنَ لأخلاقِهِ ، والمستعملَ لجوارحِهِ ، والمسدِّدَ لظاهرِهِ وباطنِهِ ، والجاعلَ همومَهُ همّاً واحداً ، والمبغضَ للدنيا في قلبِهِ ، والموحشَ لهُ مِنْ غيرِهِ ، والمؤنسَ لهُ بلذَّةِ المناجاةِ في خلواتِهِ ، والكاشفَ لهُ عنْ الحجبِ بينَهُ وبينَ معرفتِهِ ، فهٰذا وأمثالُهُ هوَ علامةُ حبِّ اللهِ تعالىٰ للعبدِ .

فلنذكرِ الآنَ علاماتِ محبَّةِ العبدِ للهِ تعالىٰ ؛ فإنَّها أيضاً علاماتُ حبِّ اللهِ للعبدِ .



(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٣) عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٩٣٥) من حديث أنس رضي الله عنه .

القول في علامات محبة العبد لله تعالى

اعلمْ : أنَّ المحبَّةَ قدْ يدَّعيها كلُّ أحدٍ ، وما أسهلَ الدعوىٰ وما أعزَّ المعنىٰ ، فلا ينبغي أنْ يغترَّ الإنسانُ بتلبيسِ الشيطانِ وخداعِ النفسِ مهما ادَّعتْ محبَّةَ اللهِ تعالىٰ ما لمْ يمتحنْها بالعلاماتِ ، ولمْ يطالبْها بالبراهينِ والأدلَّةِ .

والمحبَّةُ شجرةٌ طيِّبةٌ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ ، وثمارُها تظهرُ على القلبِ واللسانِ والجوارحِ ، وتدلُّ تلكَ الآثارُ الفائضةُ منها على القلبِ والجوارحِ على المحبَّةِ دلالةَ الدخانِ على النارِ ، ودلالةَ الثمارِ على الأشجارِ ، وهيَ كثيرةٌ .



فمنها : حبُّ لقاءِ الحبيبِ بطريقِ الكشفِ والمشاهدةِ في دارِ السلامِ :

فلا يُتصوَّرُ أنْ يحبَّ القلبُ محبوباً إلا ويحبُّ مشاهدتَهُ ولقاءَهُ ، وإذا علمَ أنَّهُ لا وصولَ إلا بالارتحالِ مِنَ الدنيا ومفارقتِها بالموتِ . . فينبغي أنْ يكونَ محبّاً للموتِ غيرَ فارٍّ منهُ ، فإنَّ المحبَّ لا يثقلُ عليهِ السفرُ عنْ وطنِهِ إلىٰ مستقرِّ محبوبِهِ ليتنعَّمَ بمشاهدتِهِ ، والموتُ مفتاحُ اللقاءِ وبابُ الدخولِ إلى المشاهدةِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ . . أحبَّ اللهُ لقاءَهُ »[1] .

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) .

وقالَ حذيفةُ عندَ الموتِ : (حبيبٌ جاءَ على فاقةٍ ، لا أفلحَ مَنْ ندمَ)(١) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ما مِنْ خصلةٍ أحبُّ إلى اللهِ أنْ تكونَ في العبدِ بعدَ حبِّ لقائهِ مِنْ كثرةِ السجودِ)(٢) ، فقدَّمَ حبَّ لقاءِ اللهِ على السجودِ .

وقدْ شرطَ اللهُ سبحانَهُ لحقيقةِ الصدقِ في الحبِّ القتلَ في سبيلِ اللهِ حيثُ قالوا : إنَّا نحبُّ اللهَ ، فجعلَ القتلَ في سبيلِ اللهِ وطلبَ الشهادةِ علامتَهُ فقالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ ﴾ .

وفي وصيَّةِ أبي بكرٍ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (الحقُّ ثقيلٌ ، وهوَ معَ ثقلِهِ مريءٌ ، والباطلُ خفيفٌ ، وهوَ معَ خفَّتِهِ وبيءٌ ، فإنْ حفظتَ وصيَّتي .. لمْ يكنْ غائبٌ أحبَّ إليكَ مِنَ الموتِ وهوَ مدركُكَ ، وإنْ ضيَّعتَ وصيَّتي .. لمْ يكنْ غائبٌ أبغضَ إليكَ مِنَ الموتِ ولنْ تعجزَهُ)(٣) .

ويُروىٰ عنْ إسحاقَ بنِ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ قالَ : حدَّثني أبي أنَّ عبدَ اللهِ بنَ جحشٍ قالَ لهُ يومَ أحدٍ : ألا ندعو اللهَ تعالىٰ ، فخلَوا في ناحيةٍ ، فدعا عبدُ اللهِ بنُ جحشٍ فقالَ : يا ربِّ ؛ إنِّي أقسمتُ عليكَ إذا لقيتُ العدوَّ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٣٥٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٠٢).
(٢) قوت القلوب (٢/ ٥١) .
(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٥١) ، ورواها بنحوها ابن المبارك في « الزهد » (٩١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٧) .

غداً . . فلقِّني رجلاً شديداً بأسُهُ ، شديداً حردُهُ ، أقاتلُهُ فيكَ ويقاتلُني ثمَّ يأخذُني فيجدعُ أنفي وأذني ، ويبقرُ بطني ، فإذا لقيتُكَ غداً . . قلتَ : يا عبدَ اللهِ ؛ مَنْ جدعَ أنفَكَ وأذنَكَ ؟ فأقولُ : فيكَ وفي رسولِكَ ، فتقولُ : صدقتَ . قالَ سعدٌ : (فلقدْ رأيتُهُ آخرَ النهارِ وإنَّ أنفَهُ وأذنَهُ لمعلقتانِ في خيطٍ) ، قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (أرجو أنْ يبرَّ اللهُ آخرَ قسمِهِ كما أبرَّ أوَّلَهُ)[1] .

وقدْ كانَ الثوريُّ وبشرٌ الحافي يقولانَ : (لا يكرهُ الموتَ إلا مريبٌ)[2] ؛ لأنَّ الحبيبَ علىٰ كلِّ حالٍ لا يكرهُ لقاءَ حبيبِهِ .

وقالَ البُوَيْطيُّ لبعضِ الزهَّادِ : أتحبُّ الموتَ ؟ فكأنَّهُ توقَّفَ ، فقالَ : لوْ كنتَ صادقاً . . لأحببتَهُ ، وتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، فقالَ الرجلُ : فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يتمنينَّ أحدُكُم الموتَ »[3] ، فقالَ : إنَّما قالَهُ لضرٍّ نزلَ بهِ ؛ لأنَّ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ أفضلُ مِنْ طلبِ الفرارِ منهُ[4] .

* * *

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٠٨) مع قول ابن المسيب بعده .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٥١) .

(٣) رواه البخاري (٥٦٧١) ، ومسلم (٢٦٨٠) .

(٤) نقله صاحب « القوت » . (« إتحاف » (٩/ ٦١٧) ، ونقل قوله بعده : (لأن التائب إذا صدقت توبته . . طلب الموت خشية الحول عن حاله ، فإذا كان كذلك . . كان هو حال التائب الذي هو حبيب الله) .

فإنْ قلتَ : فمَنْ لا يحبُّ الموتَ فهلْ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ محبّاً للهِ ؟

فأقولُ : كراهةُ الموتِ قدْ تكونُ لحبِّ الدنيا ، والتأسُّفِ علىٰ فراقِ الأهلِ والمالِ والولدِ ، وهـٰذا ينافي كمالَ حبِّ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ الحبَّ الكاملَ هوَ الذي يستغرقُ كلَّ القلبِ ، ولكنْ لا يبعدُ أنْ يكونَ لهُ معَ حبِّ الأهلِ والولدِ شائبةٌ مِنْ حبِّ اللهِ تعالىٰ ضعيفةٌ ، فإنَّ الناسَ متفاوتونَ في الحبِّ .

ويدلُّ على التفاوتِ ما رُوِيَ أنَّ أبا حذيفةَ بنَ عتبةَ بنِ ربيعةَ بنِ عبدِ شمسٍ لمَّا زوَّجَ أختَهُ فاطمةَ مِنْ سالمٍ مولاهُ . . عاتبَتْهُ قريشٌ في ذلكَ وقالوا : أنكحتَ عقيلةً مِنْ عقائلِ قريشٍ لمولىً ؟! فقالَ : واللهِ ؛ لقدْ أنكحتُهُ إيَّاها وإنِّي لأعلمُ أنَّهُ خيرٌ منها ، فكانَ قولُهُ ذلكَ أشدَّ عليهِمْ مِنْ فعلِهِ ، فقالوا : وكيفَ وهيَ أختُكَ وهوَ مولاكَ ؟ فقالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَنْ أرادَ أنْ ينظرَ إلىٰ رجلٍ يحبُّ اللهَ بكلِّ قلبِهِ . . فلينظرْ إلىٰ سالمٍ »(1) .

فهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ لا يحبُّ اللهَ بكلِّ قلبِهِ ، فيحبُّهُ ويحبُّ أيضاً غيرَهُ ، فلا جرمَ يكونُ نعيمُهُ بلقاءِ اللهِ عندَ القدومِ عليهِ علىٰ قدْرِ حبِّهِ ، وعذابُهُ بفراقِ الدنيا عندَ الموتِ علىٰ قدْرِ حبِّهِ لها .

وأمَّا السببُ الثاني للكراهةِ . . فهوَ أنْ يكونَ العبدُ في ابتداءِ مقامِ المحبَّةِ

---

(1) كذا في « القوت » (٢/٥١) ، وروى المرفوع منه أحمد في « فضائل الصحابة » (١٢٨٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٧٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولفظه : « إنه يحب الله تعالىٰ حقاً من قلبه » .

وليسَ يكرهُ الموتَ ، وإنَّما يكرهُ عجلتَهُ قبلَ أنْ يستعدَّ للقاءِ اللهِ ، فذلكَ لا يدلُّ علىٰ ضعفِ الحبِّ ، وهوَ كالمحبِّ الذي وصلَهُ الخبرُ بقدومِ حبيبِهِ عليهِ ، فأحبَّ أنْ يتأخَّرَ قدومُهُ ساعةً ليهيِّءَ لهُ دارَهُ ويعدَّ لهُ أسبابَهُ ، فيلقاهُ كما يهواهُ فارغَ القلبِ عنِ الشواغلِ ، خفيفَ الظهرِ عنِ العوائقِ ، فالكراهةُ بهـٰذا السببِ لا تنافي كمالَ الحبِّ أصلاً ، **وعلامتُهُ** : الدُّؤوبُ في العملِ ، واستغراقُ الهمِّ في الاستعدادِ .

* * *

ومنها : أنْ يكونَ مؤثراً ما أحبَّهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ ما يحبُّهُ في ظاهرِهِ وباطنِهِ :

فيلزمُ مشاقَّ العملِ ، ويجتنبُ اتباعَ الهوىٰ ، ويعرضُ عنْ دعةِ الكسلِ ، ولا يزالُ مواظباً علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، ومتقرِّباً إليهِ بالنوافلِ ، وطالباً عندَهُ مزايا الدرجاتِ كما يطلبُ المحبُّ مزيدَ القربِ في قلبِ محبوبِهِ .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالى المحبِّينَ بالإيثارِ فقالَ : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ، ومَنْ بقيَ مستمرّاً علىٰ متابعةِ الهوىٰ . . فمحبوبُهُ ما يهواهُ ، بلْ يتركُ المحبُّ هوىٰ نفسِهِ لهوىٰ محبوبِهِ ، كما قيلَ[1] : [من الوافر]

أُرِيدُ وِصَالَهُ وَيُرِيدُ هَجْرِي ... فَأَتْرُكُ مَا أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ

---

(١) البيت لابن المنجم الواعظ . انظر « فوات الوفيات » (٢/٣٠١) ، و« الوافي بالوفيات » (١٨/٢٦٨) .

بلِ الحبُّ إذا غلبَ . . قمعَ الهوىٰ ، فلمْ يبقَ لهُ تنعُّمٌ بغيرِ المحبوبِ ، كما رُوِيَ أنَّ زَلِيخا لمَّا آمنَتْ وتزوَّجَ بها يوسفُ عليهِ السلامُ . . انفردَتْ عنهُ ، وتخلَّتْ للعبادةِ ، وانقطعَتْ إلى اللهِ تعالىٰ ، فكانَ يدعوها إلىٰ فراشِهِ نهاراً فتدافعُهُ إلى الليلِ ، فإذا دعاها ليلاً سوَّفَتْهُ إلى النهارِ وقالَتْ : يا يوسفُ ؛ إنَّما كنتُ أحبُّكَ قبلَ أنْ أعرفَهُ ، فأمَّا إذْ عرفتُهُ . . فما أبقتْ محبَّتُهُ محبَّةً لسواهُ ، وما أريدُ بهِ بدلاً ، حتَّىٰ قالَ لها : إنَّ اللهَ جلَّ ذكرُهُ أمرَني بذلكَ ، وأخبرَني أنَّهُ مخرجٌ منكِ ولدينِ ، وجاعلُهُما نبيَّينِ ، فقالَتْ : أما إذا كانَ اللهُ تعالىٰ أمرَكَ بذلكَ ، وجعلَني طريقاً إليهِ . . فطاعةً لأمرِ اللهِ تعالىٰ ، فعندَها سكنَتْ إليهِ[1] .

فإذاً ؛ مَنْ أحبَّ اللهَ لا يعصيهِ ، ولذلكَ قالَ ابنُ المباركِ فيهِ[2] : [من الكامل]

تَعْصِي ٱلإِلَـٰهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَـٰذَا لَعَمْرِي فِي ٱلْفِعالِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صادِقاً لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ ٱلْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وفي هـٰذا المعنىٰ قيلَ أيضاً[3] : [من الطويل]

وَأَتْرُكُ ما أَهْوَىٰ لِمَا قَدْ هَوِيتَهُ ... وَأَرْضَىٰ بِما تَرْضَىٰ وَإِنْ سَخِطَتْ نَفْسِي

وقالَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ : (علامةُ الحبِّ إيثارُهُ علىٰ نفسِكَ) ، و(ليسَ كلُّ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٥٢) .
(٢) ديوانه (ص ٨٣) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٥٤) .

مَنْ عملَ بطاعةِ اللهِ صارَ حبيباً ، وإنَّما الحبيبُ مَنِ اجتنبَ المناهيَ)[١] .

وهوَ كما قالَ ؛ لأنَّ محبَّةَ للهِ تعالىٰ سببُ محبَّةِ اللهِ لهُ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ، وإذا أحبَّهُ اللهُ . . تولاهُ ونصرَهُ علىٰ أعدائِهِ ، وإنَّما عدوُّهُ نفسُهُ وشهواتُهُ ، فلا يخذلُهُ اللهُ ولا يكلُهُ إلىٰ هواهُ وشهواتِهِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ .

فإنْ قلتَ : فالعصيانُ هلْ يضادُّ أصلَ المحبَّةِ ؟

فأقولُ : إنَّهُ يضادُّ كمالَها ولا يضادُّ أصلَها ، فكمْ مِنْ إنسانٍ يحبُّ نفسَهُ وهوَ مريضٌ ويحبُّ الصحَّةَ ويأكلُ ما يضرُّهُ ، معَ العلمِ بأنَّهُ يضرُّهُ ، وذلكَ لا يدلُّ علىٰ عدمِ حبِّهِ لنفسِهِ ، ولكنَّ المعرفةَ قدْ تضعفُ ، والشهوةَ قدْ تغلبُ ، فيعجزُ عنِ القيامِ بحقِّ المحبةِ .

ويدلُّ عليهِ ما رُوِيَ أنَّ نعيمانَ كانَ يُؤتىٰ بهِ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في كلِّ قليلٍ فيحدُّهُ في معصيةٍ يرتكبُها ، إلىٰ أنْ أُتِيَ بهِ يوماً فحدَّهُ ، فلعنَهُ رجلٌ وقالَ : ما أكثرَ ما يُؤتىٰ بهِ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تلعنْهُ ؛ فإنَّهُ يحبُّ اللهَ ورسولَهُ »[٢] ، فلمْ يخرجْهُ بالمعصيةِ عنِ المحبَّةِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٥٤) ، وهما قولان .

(٢) رواه البخاري (٦٧٨٠) .

نعمْ ، تخرجُهُ المعصيةُ عنْ كمالِ الحبِّ ، وقدْ قالَ بعضُ العارفينَ : (إذا كانَ الإيمانُ في ظاهرِ القلبِ . . أحبَّ اللهَ تعالىٰ حبّاً متوسطاً ، فإذا دخلَ سويداءَ القلبِ . . أحبَّهُ الحبَّ البالغَ وتركَ المعاصيَ)[1] .

وعلى الجملةِ : في دعوى المحبةِ خطرٌ ، ولذلكَ قالَ الفضيلُ : (إذا قيلَ لكَ : أتحبُّ اللهَ تعالىٰ . . فاسكتْ ؛ فإنَّكَ إنْ قلتَ : لا . . كفرتَ ، وإنْ قلتَ : نعمْ . . فليسَ وصفُكَ وصفَ المحبِّينَ ، فاحذرِ المقتَ)[2] .

ولقدْ قالَ بعضُ العلماءِ : (ليسَ في الجنَّةِ نعيمٌ أعلىٰ مِنْ نعيمِ أهلِ المعرفةِ والمحبَّةِ ، ولا في جهنَّمَ عذابٌ أشدَّ مِنْ عذابِ مَنِ ادعى المعرفةَ والمحبَّةَ ولمْ يتحقَّقْ بشيءٍ مِنْ ذلكَ)[3] .

❊ ❊ ❊

ومنها : أنْ يكونَ مستهتراً بذكرِ اللهِ تعالىٰ :

لا يفترُ عنهُ لسانُهُ ، ولا يخلو عنهُ قلبُهُ ، فمَنْ أحبَّ شيئاً . . أكثرَ بالضرورةِ ذكرَهُ ، وذكرَ ما يتعلَّقُ بهِ ، فعلامةُ حبِّ اللهِ تعالىٰ حبُّ ذكرِهِ ، وحبُّ القرآنِ الذي هوَ كلامُهُ ، وحبُّ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وحبُّ كلِّ ما يُنسبُ إليهِ ، فإنَّ مَنْ يحبُّ إنساناً يحبُّ كلبَ محلَّتِهِ ، فالمحبَّةُ إذا

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٥١) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٥٢) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٥٢) .

قويَتْ . . تعدَّتْ مِنَ المحبوبِ إلىٰ كلِّ ما يكتنفُ بالمحبوبِ ويحيطُ بهِ ويتعلَّقُ بأسبابِهِ .

وذلكَ ليسَ شِرْكةً في الحبِّ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ رسولَ المحبوبِ لأنَّهُ رسولُهُ ، وكلامَهُ لأنَّهُ كلامُهُ . . فلمْ يجاوزْ حبُّهُ إلىٰ غيرِهِ ، بلْ هوَ دليلُ كمالِ حبِّهِ ، ومَنْ غلبَ حبُّ اللهِ علىٰ قلبِهِ . . أحبَّ جميعَ خلقِ اللهِ ؛ لأنَّهُمْ خلقُهُ ، فكيفَ لا يحبُّ القرآنَ والرسولَ وعبادَ اللهِ الصالحينَ ؟!

وقدْ ذكرنا تحقيقَ هـٰذا في كتابِ آدابِ الصحبةِ .

ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبُّوا اللهَ لما يغذوكُمْ بهِ مِنْ نعمِهِ ، وأحبُّوني لحبِّ اللهِ . . . »[1] .

وقالَ سفيانُ : (مَنْ أحبَّ مَنْ يحبُّ اللهَ تعالىٰ . . فإنَّما أحبَّ اللهَ ، ومَنْ أكرمَ مَنْ يكرمُ اللهَ تعالىٰ . . فإنَّما يكرمُ اللهَ تعالىٰ)[2] .

وحُكِيَ عنْ بعضِ المريدينَ قالَ : كنتُ قدْ وجدتُ حلاوةَ المناجاةِ في شِرَّةِ الإرادةِ[3] ، فأدمنتُ قراءةَ القرآنِ ليلاً ونهاراً ، ثمَّ لحقَتْني فترةٌ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٥٠) ، ورواه الترمذي (٣٧٨٩) وتمامه : « . . . وأحبوني بحب الله ، وأحبوا أهل بيتي بحبّي » .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٢٢) .

(٣) الشِّرَّة : النشاط والحرص ، يقال : شرَّة الشباب ؛ أي : حرصه ونشاطه ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ـ وهو يناسب السياق ـ : « إن لهـٰذا القرآن شرَّة ، ثم إن للناس عنه فترة . . . » الحديث .

فانقطعتُ عنِ التلاوةِ ، قالَ : فسمعتُ قائلاً يقولُ في المنامِ : إنْ كنتَ تزعمُ أنَّكَ تحبُّني . . فلِمَ جفوتَ كتابي ؟!

أما ترىٰ ما فيهِ مِنْ لطيفِ عتابي ؟ قالَ : فانتبهتُ وقدْ أُشرِبَ في قلبي محبَّةُ القرآنِ ، فعاودتُ إلىٰ حالي[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (لا ينبغي أنْ يسألَ أحدُكُمْ عنْ نفسِهِ إلا القرآنَ ، فإنْ كانَ يحبُّ القرآنَ . . فهوَ يحبُّ اللهَ عزَّ وجلَّ ، وإنْ لمْ يكنْ يحبُّ القرآنَ . . فليسَ يحبُّ اللهَ)[2] .

وقالَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ : (علامةُ حبِّ اللهِ تعالىٰ حبُّ القرآنِ ، وعلامةُ حبِّ اللهِ وحبِّ القرآنِ حبُّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وعلامةُ حبِّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حبُّ السنَّةِ ، وعلامةُ حبِّ السنَّةِ حبُّ الآخرةِ ، وعلامةُ حبِّ الآخرةِ بغضُ الدنيا ، وعلامةُ بغضِ الدنيا ألا يأخذَ منها إلا زاداً وبلغةً إلى الآخرةِ)[3] .

* * *

ومنها : أنْ يكونَ أنسُهُ بالخلوةِ ومناجاةِ اللهِ تعالىٰ وتلاوةِ كتابِهِ :

فيواظبُ على التهجُّدِ ، ويغتنمُ هدوءَ الليلِ ، وصفاءَ الوقتِ بانقطاعِ العوائقِ ، فأقلُّ درجاتِ الحبِّ التلذُّذُ بالخلوةِ بالحبيبِ ، والتنعُّمُ بمناجاتِهِ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٥٣) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٥٣) ، وقد رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٩٧) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٥٣) .

فمَنْ كانَ النومُ والاشتغالُ بالحديثِ ألذَّ عندَهُ وأطيبَ مِنْ مناجاةِ اللهِ تعالىٰ . . كيفَ تصحُّ محبَّتُهُ ؟!

قيلَ لإبراهيمَ بنِ أدهَمَ وقدْ نزلَ مِنَ الجبلِ : مِنْ أينَ أقبلتَ ؟ فقالَ : مِنَ الأنسِ باللهِ[١] .

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ : (لا تستأنسْ إلىٰ أحدٍ مِنْ خلقي ، فإنِّي إنَّما أقطعُ عنِّي رجلينِ : رجلاً استبطأَ ثوابي فانقطعَ ، ورجلاً نسِيَني فرضيَ بحالِهِ ، وعلامةُ ذلكَ أنْ أكلَهُ إلىٰ نفسِهِ ، وأنْ أدعَهُ في الدنيا حيرانَ)[٢] .

ومهما أنسَ بغيرِ اللهِ . . كانَ بقدْرِ أنسِهِ بغيرِ اللهِ مستوحشاً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ساقطاً عنْ درجةِ محبَّتِهِ ، وفي قصَّةِ بُرْخٍ ـ وهوَ العبدُ الأسودُ الذي استسقىٰ بهِ موسىٰ عليهِ السلامُ ـ : أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ لموسىٰ عليهِ السلامُ : إنَّ بُرْخاً نعمَ العبدُ هوَ لي ، إلا أنَّ فيهِ عيباً ، قالَ : يا ربِّ ؛ وما عيبُهُ ؟ قالَ : يعجبُهُ نسيمُ الأسحارِ فيسكنُ إليهِ ، ومَنْ أحبَّني لمْ يسكنْ إلىٰ شيءٍ[٣] .

ورُوِيَ أنَّ عابداً عبدَ اللهَ تعالىٰ في غيضةٍ دهراً طويلاً ، فنظرَ إلىٰ طائرٍ قدْ عشَّشَ في شجرةٍ يأوي إليها ويصفِرُ عندَها ، فقالَ : لوْ حوَّلتُ مسجدي إلىٰ تلكَ الشجرةِ ، فكنتُ آنسُ بصوتِ هـٰذا الطائرِ ، قالَ : ففعلَ ، فأوحى اللهُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٠) .
(٢) نقله صاحب « القوت » (٩/ ٦٢٣) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٥٤) .

تعالىٰ إلىٰ نبيِّ ذلكَ الزمانِ : قلْ لفلانٍ العابدِ : استأنستَ بمخلوقٍ ؟! لأحطَّنَّكَ درجةً لا تنالُها بشيءٍ مِنْ عملِكَ أبداً[1] .

فإذاً ؛ علامةُ المحبَّةِ كمالُ الأنسِ بمناجاةِ المحبوبِ ، وكمالُ التنعُّمِ بالخلوةِ بهِ ، وكمالُ الاستيحاشِ مِنْ كلِّ ما ينغِّصُ عليهِ الخلوةَ ويعوِّقُ عنْ لذَّةِ المناجاةِ ، وعلامةُ الأنسِ مصيرُ العقلِ والفهمِ كلِّهِ مستغرقاً بلذَّةِ المناجاةِ ؛ كالذي يخاطبُ معشوقَهُ ويناجيهِ .

وقدِ انتهتْ هـٰذهِ اللذَّةُ ببعضِهِمْ حتَّىٰ إنَّهُ كانَ في صلاتِهِ ووقعَ الحريقُ في دارِهِ فلمْ يشعرْ بهِ ، وقُطعَتْ رجْلُ بعضِهِمْ بسببِ علَّةٍ أصابَتْهُ وهوَ في الصلاةِ فلمْ يشعرْ بهِ[2] .

ومهما غلبَ عليهِ الحبُّ والأنسُ . . صارَتِ الخلوةُ والمناجاةُ قرَّةَ عينٍ تدفعُ جميعَ الهمومِ ، بلْ يستغرقُ الأنسُ والحبُّ قلبَهُ حتَّىٰ لا يفهمَ أمورَ الدنيا ما لمْ تُكرَّرْ علىٰ سمعِهِ مراراً ؛ مثلَ العاشقِ الولهانِ ، فإنَّهُ يكلِّمُ الناسَ بلسانِهِ وأنسُهُ في الباطنِ بذكرِ حبيبِهِ ، فالمحبُّ مَنْ لا يطمئنُّ إلا بمحبوبِهِ .

وقالَ قتادةُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٥٤) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٩) بنحوه .

(٢) هو عروة بن الزبير ، وقد روىٰ خبره ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١٤١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠/ ٢٦١) دون تصريح أن القطع كان في الصلاة .

بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ قالَ : (هشَّتْ إليهِ ، واستأنسَتْ بهِ)[1] .

وقالَ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ ذاقَ مِنْ خالصِ محبَّةِ اللهِ . . شغلَهُ ذلكَ عنْ طلبِ الدنيا ، وأوحشَهُ عنْ جميعِ البشرِ)[2] .

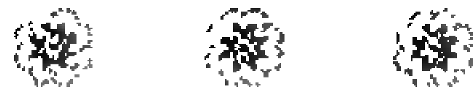
وقالَ مطرِّفٌ : (المحبُّ لا يسأمُ مِنْ حديثِ حبيبِهِ)[3] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (قدْ كذبَ مَنِ ادَّعىٰ محبَّتي إذا جنَّهُ الليلُ . . نامَ عنِّي ، أليسَ كلُّ محبٍّ يحبُّ لقاءَ حبيبِهِ ؟ فهـٰأنا ذا موجودٌ لمَنْ طلبَني)[4] .

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ، أينَ أنتَ فأقصدَكَ ؟ فقالَ : إذا قصدتَ . . فقدْ وصلتَ[5] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (مَنْ أحبَّ اللهَ . . أبغضَ نفسَهُ) .

وقالَ أيضاً : (مَنْ لمْ تكنْ فيهِ ثلاثُ خصالٍ . . فليسَ بمحبٍّ ؛ يؤثرُ كلامَ اللهِ تعالىٰ علىٰ كلامِ الخلقِ ، ولقاءَ اللهِ تعالىٰ علىٰ لقاءِ الخلقِ ، والعبادةَ علىٰ خدمةِ الخلقِ) .



---

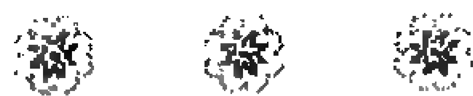
(١) كذا في « القوت » (٢/ ٦٤) ، ورواه الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٣/ ١٨٣) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٥) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٦) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٦٠) بنحوه .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣١١) بلفظ : (. . . إذا انقطعت . . فقد وصلت) .

ومنها : ألا يتأسَّفَ علىٰ ما يفوتُهُ ممَّا سوى اللهِ عزَّ وجلَّ ويعظمَ تأسُّفُهُ علىٰ فوتِ كلِّ ساعةٍ خلتْ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وطاعتِهِ :

فيكثرَ رجوعُهُ عندَ الغفلاتِ بالاستعطافِ والاستعتابِ ، والتوبةِ ، قالَ بعضُ العارفينَ : (إنَّ للهِ عباداً أحبُّوهُ واطمأنُّوا إليهِ ، فذهبَ عنهُمُ التأسُّفُ على الفائتِ ، فلمْ يتشاغلوا بحظِّ أنفسِهِمْ إذْ كانَ ملْكُ مليكِهِمْ تامّاً ، وما شاءَ كانَ ، فما كانَ لهُمْ فهوَ واصلٌ إليهِمْ ، وما فاتَهُمْ فبحسنِ تدبيرِهِ لهُمْ)[1] .

وحقُّ المحبِّ إذا رجعَ مِنْ غفلتِهِ في لحظتِهِ أنْ يقبلَ علىٰ محبوبِهِ ، ويشتغلَ بالعتابِ ، ويسألَهُ ويقولَ : (ربِّ ؛ بأيِّ ذنبٍ قطعتَ برَّكَ عنِّي ، وأبعدتَني عنْ حضرتِكَ ، وشغلتَني بنفسي وبمتابعةِ الشيطانِ) ، فيستخرجُ ذلكَ منهُ صفاءَ ذكرٍ ورقَّةَ قلبٍ يكفِّرُ عنهُ ما سبقَ مِنَ الغفلةِ ، وتكونُ هفوتُهُ سبباً لتجدُّدِ ذكرِهِ وصفاءِ قلبِهِ .

ومهما لمْ يرَ المحبُّ إلا المحبوبَ ، ولمْ يرَ شيئاً إلا منهُ . . لمْ يتأسَّفْ ولمْ يشكَّ ، واستقبلَ الكلَّ بالرضا ، وعلمَ أنَّ المحبوبَ لمْ يقدرْ لهُ إلا ما فيهِ خيرتُهُ ، ويذكرُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .



(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٢٤) .

ومنها : أنْ يتنعَّمَ بالطاعةِ ولا يستثقلَها ، ويسقطَ عنهُ تعبُها :

كما قالَ بعضُهُمْ : (كابدتُ الليلَ عشرينَ سنةً ، ثمَّ تنعَّمتُ بهِ عشرينَ سنةً)[1] .

وقالَ الجنيدُ : (علامةُ المحبَّةِ دوامُ النشاطِ ، والدؤوبُ بشهوةٍ تفترُ بدنَهُ ولا تفترُ قلبَهُ)[2] .

وقالَ بعضُهُمُ : (العملُ على المحبَّةِ لا يدخلُهُ الفتورُ)[2] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (واللهِ ، ما اشتفىٰ محبٌّ للهِ مِنْ طاعتِهِ ولوْ حلَّ بعظيمِ الوسائلِ)[2] .

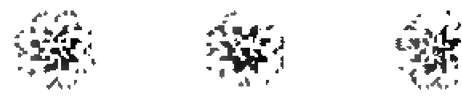
فكلُّ هـٰذا مثالُهُ موجودٌ في المشاهداتِ[3] ؛ فإنَّ العاشقَ لا يستثقلُ السعيَ في هوىٰ معشوقِهِ ، ويستلذُّ خدمتَهُ بقلبِهِ وإنْ كانَ شاقّاً علىٰ بدنِهِ ، ومهما عجزَ بدنُهُ . . كانَ أحبُّ الأشياءِ إليهِ أنْ تعاودَهُ القدرةُ ، وأنْ يفارقَهُ العجزُ حتَّىٰ يشتغلَ بهِ .

فهكذا يكونُ حبُّ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ كلَّ حبٍّ صارَ غالباً . . قهرَ ـ لا محالةَ ـ ما هوَ دونَهُ ، فمَنْ كانَ محبوبُهُ أحبَّ إليهِ مِنَ الكسلِ . . تركَ الكسلَ في خدمتِهِ ، وإنْ كانَ أحبَّ إليهِ مِنَ المالِ . . تركَ المالَ في حبِّهِ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٦) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٥٥) .
(٣) في (ف) وحدها : (فكل هـٰذا وأمثاله موجود . . .) .

وقيلَ لبعضِ المحبِّينَ وقدْ كانَ بذلَ مالَهُ ونفسَهُ حتَّىٰ لمْ يبقَ لهُ شيءٌ : ما كانَ سببُ حالِكَ هٰذهِ في المحبَّةِ ؟ فقالَ : سمعتُ يوماً محبّاً وقدْ خلا بمحبوبِهِ وهوَ يقولُ : أنا ـ واللهِ ـ أحبُّكَ بقلبي كلِّهِ وأنتَ معرضٌ عنِّي بوجهِكَ كلِّهِ ، فقالَ لهُ المحبوبُ : إنْ كنتَ تحبُّني .. فأيشٍ تنفقُ عليَّ ؟ فقالَ : يا سيدي ؛ أملِّكُكَ ما أملكُ ، ثمَّ أنفقُ عليكَ روحي حتَّىٰ تهلكَ ، فقلتُ : هٰذا خلقٌ لخلقٍ ، وعبدٌ لعبدٍ ، فكيفَ بعبدٍ لمعبودٍ ؟! فكانَ هٰذا سببَهُ[1] .



ومنها : أنْ يكونَ مشفقاً علىٰ جميعِ عبادِ اللهِ ، رحيماً بهِمْ ، شديداً علىٰ جميعِ أعداءِ اللهِ وعلىٰ كلِّ مَنْ يقارفُ شيئاً ممَّا يكرهُهُ :

كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، ولا تأخذُهُ لومةُ لائمٍ ، ولا يصرفُهُ عنِ الغضبِ للهِ صارفٌ ، وبهِ وصفَ اللهُ تعالىٰ أولياءَهُ إذْ قالَ : (الذينَ يكْلَفونَ بحبِّي كما يكْلَفُ الصبيُّ بالشيءِ ، ويأوونَ إلىٰ ذكري كما يأوي النسرُ إلىٰ وكرِهِ ، ويغضبونَ لمحارمي كما يغضبُ النمرُ إذا حرِدَ ؛ فإنَّهُ لا يبالي قلَّ الناسُ أوْ كثروا)[2] .

فانظرْ إلىٰ هٰذا المثالِ ؛ فإنَّ الصبيَّ إذا كلفَ بالشيءِ .. لمْ يفارقْهُ أصلاً ، وإنْ أُخذَ منهُ .. لمْ يكنْ لهُ شغلٌ إلا البكاءَ والصياحَ حتَّىٰ يُردَّ إليهِ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٥٥) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٢١) .

فإنْ نامَ . . أخذَهُ معَهُ في ثيابِهِ ، فإذا انتبهَ . . عادَ وتمسَّكَ بهِ ، ومهما فارقَهُ . . بكىٰ ، ومهما وجدَهُ . . ضحكَ ، ومَنْ نازعَهُ فيهِ . . أبغضَهُ ، ومَنْ أعطاهُ إيّاهُ . . أحبَّهُ ، وأمّا النمرُ . . فإنَّهُ لا يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ ، حتّىٰ يبلغَ مِنْ شدَّةِ غضبِهِ أنْ يهلكَ نفسَهُ .

فهٰذهِ علاماتُ المحبَّةِ ، فمَنْ تمَّتْ فيه هٰذهِ العلاماتُ . . فقدْ تمَّتْ محبَّتُهُ وخلصَ حبُّهُ ، فصفا في الآخرةِ شرابُهُ وعذُبَ مشربُهُ ، ومَنِ امتزجَ بحبِّهِ حبُّ غيرِ اللهِ . . تنعَّمَ في الآخرةِ بقدْرِ حبِّهِ ؛ إذْ يمزجُ شرابَهُ بقدْرٍ مِنْ شرابِ المقرَّبينَ ؛ كما قالَ تعالىٰ في الأبرارِ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ ، ثمَّ قالَ : ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، فإنَّما طابَ شرابُ الأبرارِ لشوبِ الشرابِ الصرفِ الذي هوَ للمقرَّبينَ ، والشرابُ عبارةٌ عنْ جملةِ نعيمِ الجنانِ ، كما أنَّ الكتابَ عبَّرَ بهِ عنْ جميعِ الأعمالِ فقالَ : ﴿ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ ، ثمَّ قالَ : ﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، فكانَ أمارةَ علوِّ كتابِهِمْ أنَّهُ ارتفعَ إلىٰ حيثُ يشهدُهُ المقرَّبونَ .

وكما أنَّ الأبرارَ يجدونَ المزيدَ في حالِهِمْ ومعرفتِهِمْ بقربِهِمْ مِنَ المقرَّبينَ ومشاهدتِهِمْ لهُمْ . . فكذلكَ يكونُ حالُهُمْ في الآخرةِ ، ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ ، ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ ، وكما قالَ تعالىٰ : ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ أيْ : وافقَ الجزاءُ أعمالَهُمْ ، فقُوبلَ الخالصُ بالصرفِ مِنَ الشرابِ ، وقُوبلَ المشوبُ بالمشوبِ ، وشوبُ كلِّ شرابٍ علىٰ قدْرِ ما سبقَ

مِنَ الشوبِ في حبِّهِ وأعمالِهِ ، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ ، ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ .

فمَنْ كانَ حبُّهُ في الدنيا رجاءَهُ لنعيمِ الجنَّةِ وللحورِ العينِ والقصورِ . . مُكِّنَ مِنَ الجنَّةِ ليتبوَّأَ منها حيثُ يشاءُ ، فيلعبُ معَ الولدانِ ، ويتمتَّعُ بالنسوانِ ، فهناكَ تنتهي لذَّتُهُ في الآخرةِ ؛ لأنَّهُ إنَّما يُعطىٰ كلُّ إنسانٍ في المحبةِ ما تشتهيهِ نفسُهُ وتلذُّ عينُهُ .

ومَنْ كانَ مقصدُهُ ربَّ الدارِ ومالكَ الملكِ ، ولمْ يغلبْ عليهِ إلا حبُّهُ بالإخلاصِ والصدقِ . . أُنزلَ في مقعدِ صدْقٍ عندَ مليكٍ مقتدرٍ .

فالأبرارُ يرتعونَ في البساتينِ ، ويتنعَّمونَ في الجنانِ معَ الحورِ العينِ والولدانِ ، والمقرَّبونَ ملازمونَ للحضرةِ ، عاكفونَ بطرفِهِمْ عليها ، يستحقرونَ نعيمَ الجنانِ بالإضافةِ إلىٰ ذرَّةٍ منها ، فقومٌ بقضاءِ شهوةِ البطنِ والفرجِ مشغولونَ ، وللمجالسةِ أقوامٌ آخرونَ .

ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ أهلِ الجنَّةِ البلْهُ ، وعلِّيونَ لذوي الألبابِ »(١) .

---

(١) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٧/٤٣١) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/٣١٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » =

ولمَّا قصرَتِ الأفهامُ عنْ دركِ معنىٰ علِّيينَ . . عظَّمَ أمرَهُ ، فقالَ : ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ .

* * *

ومنها : أنْ يكونَ في حبِّهِ خائفاً متضائلاً تحتَ الهيبةِ والتعظيمِ :

وقدْ يُظنُّ أنَّ الخوفَ يضادُّ الحبَّ ، وليسَ كذلكَ ، بلْ إدراكُ العظمةِ يوجبُ الهيبةَ ؛ كما أنَّ إدراكَ الجمالِ يوجبُ الحبَّ ، ولخصوصِ المحبِّينَ مخاوفُ في مقامِ المحبَّةِ ليسَتْ لغيرِهِمْ ، وبعضُ مخاوفِهِمْ أشدُّ مِنْ بعضٍ .

فأوَّلُها خوفُ الإعراضِ ، وأشدُّ منهُ خوفُ الحجابِ ، وأشدُّ منهُ خوفُ الإبعادِ ، وهاذا المعنىٰ مِنْ (سورةِ هودٍ) هوَ الذي شيَّبَ سيِّدَ المحبِّينَ(١) ؛ إذْ سمعَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴾ ، ﴿ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴾ .

وإنَّما تعظمُ هيبةُ البعدِ وخوفُهُ في قلبِ مَنْ ألفَ القربَ وذاقَهُ وتنعَّمَ بهِ ، فحديثُ البعدِ في حقِّ المبعدينَ يشيِّبُ سماعُهُ أهلَ القربِ في القربِ ،

= (١٣٠٤) دون زيادة : (وعليون لذوي الألباب) ، وهي عند صاحب « القوت » (١١٧/١) ، وقد روىٰ نحو هاذه الزيادة الحافظ المزي في « تهذيب الكمال » (١١٧/٢٦ـ١١٨) عن أحمد بن أبي الحواري رحمه الله تعالىٰ .

(١) رواه الترمذي (٣٢٩٧) .

ولا يحنُّ إلى القربِ مَنْ ألفَ البعدَ ، ولا يبكي لخوفِ البعدِ مَنْ لمْ يُمكَّنْ مِنْ بساطِ القربِ .

ثمَّ خوفُ الوقوفِ وسلبُ المزيدِ : فإنَّا قدَّمنا أنَّ درجاتِ القربِ لا نهايةَ لها ، وحقُّ العبدِ أنْ يجتهدَ في كلِّ نفسٍ حتَّىٰ يزدادَ فيهِ قرباً ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استوىٰ يوماهُ . . فهوَ مغبونٌ ، ومَنْ كانَ يومُهُ شرّاً مِنْ أمسِهِ . . فهوَ ملعونٌ »[1] .

وكذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّهُ ليغانُ علىٰ قلبي في اليومِ والليلةِ حتَّىٰ أستغفرُ اللهَ سبعينَ مرَّةً »[2] ، وإنَّما كانَ استغفارُهُ مِنَ القدمِ الأوَّلِ ، فإنَّهُ كانَ بعداً بالإضافةِ إلى القدمِ الثاني[3] ، ويكونُ ذلكَ عقوبةً لهُمْ على الفتورِ في الطريقِ ، والالتفاتِ إلىٰ غيرِ المحبوبِ ، كما رُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : (إنَّ أدنىٰ ما أصنعُ بالعالمِ إذا آثرَ شهواتِ الدنيا علىٰ طاعتي أنْ أسلبَهُ لذيذَ

---

(١) هو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٩١٠) من حديث علي رضي الله عنه ، وانظر « الإتحاف » (٩/ ٦٢٨) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٥) عن رؤيا رآها الحسن البصري وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم الموعظة فلقنه إياها ، وهو عند البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٨٧) رؤيا رآها عبد العزيز بن أبي رواد للنبي صلى الله عليه وسلم يوصيه به .

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، وأبو داوود (١٥١٥) بلفظ : « مئة مرة » بدل « سبعين مرة » ، وعند البخاري (٦٣٠٧) : « والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

(٣) في (ب) : (المقام) بدل (القدم) في الموضعين .

مناجاتي)[1] ، فسلبُ المزيدِ بسببِ الشهواتِ عقوبةُ العمومِ ، فأمَّا الخصوصُ . . فيحجبُهُمْ عنِ المزيدِ مجرَّدُ الدعوىٰ والعجبِ والركونِ إلىٰ ما ظهرَ مِنْ مبادي اللطفِ ، وذلكَ هوَ المكرُ الخفيُّ الذي لا يقدرُ على الاحترازِ منهُ إلا ذوو الأقدامِ الراسخةِ .

ثمَّ خوفُ فوتِ ما لا يُدركُ بعدَ فوتِهِ : سمعَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ قائلاً يقولُ وهوَ في سياحتِهِ وكانَ علىٰ جبلٍ[2] : [من مجزوء الرمل]

كُلُّ شَيْءٍ لَكَ مَغْفُو رٌ سِوَى ٱلإِعْرَاضِ عَنِّي
قَدْ وَهَبْنَا لَكَ مَا فَا تَ بَقِي مَا فَاتَ مِنِّي

فاضطربَ وغُشيَ عليهِ ، فلمْ يفقْ يوماً وليلةً ، وطرأَتْ عليهِ أحوالٌ ، ثمَّ قالَ : سمعتُ النداءَ مِنَ الجبلِ : يا إبراهيمُ ؛ كنْ عبداً ، فكنتُ عبداً واسترحتُ[3] .

ثمَّ خوفُ السلوِّ عنهُ : فإنَّ المحبَّ يلازمُهُ الشوقُ والطلبُ الحثيثُ ، فلا يفترُ عنْ طلبِ المزيدِ ، ولا يتسلَّىٰ إلا بلطفٍ جديدٍ ، فإن تسلَّىٰ عنْ ذلكَ . . كانَ ذلكَ سببَ وقوفِهِ أوْ سببَ رجعتِهِ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٠) .
(٢) انظر « الكشكول » (١/ ١٥٤) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٥٨) ، وفيه : (وهبنا منك) بدل (وهبنا لك) ، وشرح لقول إبراهيم رحمه الله تعالىٰ : (كن عبداً) فقال : (لا يملكك إلا واحد تكون عبداً له حراً مما سواه ، ولا تملك شيئاً ، فإن الأشياء في خزانة مليكها) .

والسلوُّ يدخلُ عليهِ مِنْ حيثُ لا يشعرُ ؛ كما قدْ يدخلُ عليهِ الحبُّ مِنْ حيثُ لا يشعرُ ، فإنَّ هٰذهِ التقلباتِ في القلبِ لها أسبابٌ خفيَّةٌ سماويَّةٌ ليسَ في قوَّةِ البشرِ الاطلاعُ عليها ، فإذا أرادَ اللهُ تعالى المكرَ بهِ واستدراجَهُ . . أخفىٰ عنهُ ما وردَ عليهِ مِنَ السلوِّ ، فيقفُ معَ الرجاءِ ، ويغترُّ بحسنِ الظنِّ أوْ بغلبةِ الغفلةِ والهوىٰ والنسيانِ ، وكلُّ ذلكَ مِنْ جنودِ الشيطانِ التي تغلبُ جنودَ الملائكةِ ؛ مِنَ العلمِ والعقلِ والذكرِ والبيانِ ، وكما أنَّ مِنْ أوصافِ اللهِ تعالىٰ ما يظهرُ فيقتضي هيجانَ الحبِّ وهي أوصافُ اللطفِ والرحمةِ والحكمةِ . . فمِنْ أوصافِهِ ما يلوحُ فيورثُ السلوَّ ؛ كأوصافِ الجبريَّةِ والعزَّةِ والاستغناءِ ، وذلكَ مِنْ مقدماتِ المكرِ والشقاءِ والحرمانِ .

ثمَّ خوفُ الاستبدالِ بهِ بانتقالِ القلبِ مِنْ حبِّهِ إلىٰ حبِّ غيرِه : وذلكَ هوَ المقتُ والسلوُّ عنهُ مقدمةُ هٰذا المقامِ ، والإعراضُ والحجابُ مقدمةُ السلوِّ ، وضيقُ الصدرِ بالبرِّ وانقباضُهُ عنْ دوامِ الذكرِ وملالُهُ لوظائفِ الأورادِ أسبابُ هٰذهِ المعاني ومقدماتُها ، فظهورُ هٰذهِ الأسبابِ دليلٌ على النقلِ مِنْ مقامِ الحبِّ إلىٰ مقامِ المقتِ نعوذُ باللهِ منهُ ، وملازمةُ الخوفِ لهٰذهِ الأمورِ وشدَّةُ الحذرِ منها بصفاءِ المراقبةِ دليلُ صدقِ الحبِّ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً . . خافَ ـ لا محالةَ ـ فقدَهُ ، فلا يخلو المحبُّ عنْ خوفٍ إذا كانَ المحبوبُ ممَّا يمكنُ فواتُهُ .

وقدْ قالَ بعضُ العارفينَ : (مَنْ عبدَ اللهَ تعالىٰ بمحضِ المحبَّةِ مِنْ غيرِ

خوفٍ.. هلكَ بالبسطِ والإدلالِ ، ومَنْ عبدَهُ مِنْ طريقِ الخوفِ مِنْ غيرِ محبَّةٍ.. انقطعَ عنهُ بالبعدِ والاستيحاشِ ، ومَنْ عبدَهُ مِنْ طريقِ المحبَّةِ والخوفِ.. أحبَّهُ اللهُ تعالىٰ ، فقرَّبَهُ ومكَّنَهُ وعلَّمَهُ)(١) .

فالمحبُّ لا يخلو عنْ خوفٍ ، والخائفُ لا يخلو عنْ محبَّةٍ ، ولكنِ الذي غلبَتْ عليهِ المحبَّةُ حتَّى اتسعَ فيها ، ولمْ يكنْ لهُ مِنَ الخوفِ إلا يسيرٌ.. يُقالُ : هوَ في مقامِ المحبَّةِ ، ويُعدُّ مِنَ المحبِّينَ ، وكانَ شوبُ الخوفِ يسكنُ قليلاً مِنْ سكرِ الحبِّ ، فلوْ غلبَ الحبُّ واستولَتِ المعرفةُ.. لمْ تثبتْ لذلكَ طاقةُ البشرِ ، فإنَّما الخوفُ يعدلُهُ ويخفِّفُ وقعَهُ على القلبِ .

فقد رُويَ في بعضِ الأخبارِ : أنَّ بعضَ الصديقينَ سألَهُ بعضُ الأبدالِ أنْ يسألَ اللهَ تعالىٰ أنْ يرزقَهُ ذرَّةً مِنْ معرفتِهِ ، ففعلَ ذلكَ ، فهامَ في الجبالِ ، وحارَ عقلُهُ ، ووله قلبُهُ ، وبقيَ شاخصاً سبعةَ أيامٍ لا ينتفعُ بشيءٍ ، ولا ينتفعُ بهِ شيءٌ ، فسألَ لهُ الصدِّيقُ ربَّهُ تعالىٰ فقالَ : يا ربِّ أنقصْهُ مِنَ الذرَّةِ بعضَها ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إنَّما أعطيناهُ جزءاً مِنْ مئةِ ألفِ جزءٍ مِنْ ذرَّةٍ منَ المعرفةِ ، وذلكَ أنَّ مئةَ ألفِ عبدٍ سألوني شيئاً مِنَ المحبَّةِ في الوقتِ الذي سألَني هـٰذا ، فأخَّرتُ إجابتَهُمْ إلىٰ أنْ شفعتَ أنتَ لهـٰذا ، فلما أجبتُكَ فيما سألتَ : أعطيتُهُمْ كما أعطيتُهُ ، فقسمتُ ذرَّةً مِنَ المعرفةِ بينَ مئةِ ألفِ عبدٍ ، فهـٰذا ما أصابَهُ مِنْ ذلكَ ، فقالَ : سبحانَكَ يا أحكمَ الحاكمينَ ! أنقصْهُ ممَّا

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٥٩) ، وفيه (عرف) بدل (عبد) في المواضع الثلاثة .

أعطيتَهُ ، فأذهبَ اللهُ عنهُ جملةَ الجزءِ ، وبقيَ معَهُ عشْرُ معشارِهِ ، وهوَ جزءٌ مِنْ عشرةِ آلافِ ألفِ جزءٍ مِنْ ذرةٍ[1] ، فاعتدلَ خوفُهُ وحبُّهُ ورجاؤُهُ ، وسكنَ وصارَ كسائرِ العارفينَ[2] .

وقدْ قيلَ في وصفِ حالِ العارفِ[3] : [من الوافر]

قَرِيبُ ٱلْوَجْدِ ذُو مَرْمىً بَعِيدِ ... عَـنِ ٱلأَحْـرارِ مِنْهُـمْ وَٱلْعَبِيـدِ
غَرِيبُ ٱلْوَصْفِ ذُو عِلْمٍ غَرِيبٍ ... كَـأَنَّ فُـؤادَهُ زُبَـرُ ٱلْحَـدِيـدِ
لَقَـدْ عَـزَّتْ مَعـانِيـهِ فَغـابَـتْ ... عَـنِ ٱلأَبْصـارِ إِلا لِلشَّهِيـدِ
يَرَى ٱلأَعْيادَ فِي ٱلأَوْقاتِ تَجْرِي ... لَـهُ فِـي كُـلِّ يَـوْمٍ أَلْـفُ عِيدِ
وَلِـلأَحْبـابِ أَفْـراحٌ بِعِيـدٍ ... وَلا يَجِـدُ ٱلسُّـرُورَ لَـهُ بِعِيـدِ

وقدْ كانَ الجنيدُ رحمَهُ اللهُ ينشدُ أبياتاً يشيرُ بها إلىٰ أسرارِ أحوالِ العارفينَ وأنَّ ذلكَ لا يجوزُ إظهارُهُ ، وهيَ هٰذهِ الأبياتُ[4] : [من الطويل]

سَرتْ بِأُناسٍ فِي ٱلْغُيُوبِ قُلُوبُهُمْ ... فَحَلُّوا بِقُرْبِ ٱلْمَاجِدِ ٱلْمُتَفَضِّلُ
عِراصاً بِقُرْبِ ٱللهِ فِي ظِلِّ قُدْسِهِ ... تَجُـولُ بِهـا أَرْواحُهُـمْ وَتَنَقَّـلُ
مَوارِدُهُمْ فِيها عَلَى ٱلْعِزِّ وَٱلنُّهَى ... وَمَصْدَرُهُمْ عَنْها لِمَا هُوَ أَكْمَلُ

---

(١) في (ب ، د ، ع ، ف) : (وهو جزء من ألف ألف جزء) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٦٠) .
(٣) هٰكذا أنشد هٰذه الأبيات صاحب « القوت » ، إلا أنه بتقديم البيت الأخير على الذي قبله . « إتحاف » (٩/ ٦٣١) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٥٩) ، الإتحاف (٩/ ٦٣٢) .

تَـرُوحُ بِعِـزٍّ مُفْـرَدٍ مِـنْ صِفـاتِـهِ وَفِي حُلَلِ ٱلتَّوْحِيدِ تَمْشِي وَتَرْفُلُ
وَمِنْ بَعْدِ هَـٰذا مَا تَدِقُّ صِفاتُهُ وَمَـا كَتْمُـهُ أَوْلَـىٰ لَـدَيـهِ وَأَعْـدَلُ
سَأَكْتُمُ مِنْ عِلْمِي بِهِ ما يَصُونُهُ وَأَبْذُلُ مِنْهُ مَا أَرَى ٱلْحَقَّ يَبْذُلُ
وَأُعْطِي عِبادَ ٱللهِ مِنْهُ حُقُوقَهُمْ وَأَمْنَعُ مِنْهُ ما أَرَى ٱلْمَنْعَ يفْضُلُ
عَلَىٰ أَنَّ لِلرَّحْمَـٰنِ سِرّاً يَصُونُهُ إِلَىٰ أَهْلِهِ فِي ٱلسِّرِّ وَٱلصَّوْنُ أَجْمَلُ

وأمثالُ هـٰذهِ المعارفِ التي إليها الإشارةُ لا يجوزُ أنْ يشتركَ الناسُ فيها ، ولا يجوزُ أنْ يظهرَها مَنِ انكشفَ لهُ شيءٌ منها لِمَنْ لمْ ينكشفْ لهُ ، بلْ لوِ اشتركَ الناسُ فيها . . لخربَتِ الدنيا ، فالحكمةُ تقتضي شمولَ الغفلةِ لعمارةِ الدنيا .

بلْ لوْ أكلَ الناسُ كلُّهُمُ الحلالَ أربعينَ يوماً . . لخربَتِ الدنيا ؛ لزهدِهِمْ فيها ، وبطلَتِ الأسواقُ والمعايشُ .

بلْ لوْ أكلَ العلماءُ الحلالَ . . لاشتغلوا بأنفسِهِمْ ، ولوقفَتِ الألسنةُ والأقدامُ عنْ كثيرٍ ممَّا انتشرَ مِنَ العلومِ ، ولكنْ للهِ تعالىٰ فيما هوَ شرٌّ في الظاهرِ أسرارٌ وحكمٌ ، كما أنَّ لهُ في الخيرِ أسراراً وحكماً ، ولا منتهىٰ لحكمتِهِ ، كما لا غايةَ لقدرتِهِ .



ومنها : كتمانُ الحبِّ ، واجتنابُ الدعوىٰ ، والتوقِّي مِنْ إظهارِ الوجدِ والمحبَّةِ :

تعظيماً للمحبوبِ ، وإجلالاً لهُ ، وهيبةً منهُ ، وغيرةً علىٰ سرِّهِ ؛ فإنَّ الحبَّ سرٌّ مِنْ أسرارِ الحبيبِ ، ولأنَّهُ قدْ يدخلُ في الدعوىٰ ما يتجاوزُ حدَّ المعنىٰ ويزيدُ عليهِ ، فيكونُ ذلكَ مِنَ الافتراءِ ، وتعظمُ العقوبةُ عليهِ في العقبىٰ ، وتتعجَّلُ عليهِ البلوىٰ في الدنيا .

نعمْ ، قدْ يكونُ للمحبِّ سكرةٌ في حبِّهِ حتَّىٰ يدهشَ فيهِ ، وتضطربَ أحوالُهُ ، فيظهرَ عليهِ حبُّهُ ، فإنْ وقعَ ذلكَ عنْ غيرِ تمحُّلٍ أوِ اكتسابٍ . . فهوَ معذورٌ ؛ لأنَّهُ مقهورٌ .

وربَّما تشتعلُ مِنَ الحبِّ نيرانُهُ ، فلا يُطاقُ سلطانُهُ ، وقدْ يفيضُ القلبُ بهِ فلا يندفعُ فيضانُهُ فالقادرُ على الكتمانِ يقولُ : [من الطويل]

وَقَالُوا: قَرِيبٌ، قلتُ: ما أَنا صانِعٌ ... بِقُرْبِ شُعاعِ ٱلشَّمْسِ لَوْ كَانَ فِي حِجْرِي
فَمَا لِيَ مِنْهُ غَيْرُ ذِكْرٍ بخاطِرٍ ... يُهَيِّجُ نارَ ٱلْحُبِّ وَٱلشَّوْقِ فِي صَدْرِي

والعاجزُ عنهُ يقولُ : [من السريع]

يُخْفِي فَيُبْدِي ٱلدَّمْعُ أَسْرارَهُ ... وَيُظْهِرُ ٱلْوَجْدَ عَلَيْهِ ٱلنَّفَسْ

ويقولُ أيضاً[1] : [من الطويل]

وَمَنْ قَلْبُهُ مَعْ غَيْرِهِ كَيْفَ حالُهُ ... وَمَنْ سِرُّهُ فِي جَفْنِهِ كَيْفَ يَكْتُمُ

وقدْ قالَ بعضُ العارفينَ : (أكثرُ الناسِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ بعداً أكثرُهُمْ

---

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٤/ ٨١) .

إشارةً بهِ)[1] ، كأنَّهُ أرادَ مَنْ يكثرُ التعريضَ بهِ في كلِّ شيءٍ ، ويظهرُ التصنُّعَ بذكرِهِ عندَ كلِّ أحدٍ ، فهوَ ممقوتٌ عندَ المحبِّينَ والعلماءِ باللهِ عزَّ وجلَّ .

ودخلَ ذو النونِ المصريُّ علىٰ بعضِ إخوانِهِ ممَّنْ كانَ يذكرُ المحبَّةَ ، فرآهُ مبتلىً ببلاءٍ ، فقالَ : لا يحبُّهُ مَنْ وجدَ ألمَ ضربِهِ ، فقالَ الرجلُ : لكنِّي أقولُ : لا يحبُّهُ مَنْ لمْ يتنعَّمْ بضربِهِ ، فقالَ ذو النونِ : ولكنِّي أقولُ : لا يحبُّهُ مَنْ شهرَ نفسَهُ بحبِّهِ ، فقالَ الرجلُ : أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ[2] .

* * *

فإنْ قلتَ : المحبَّةُ منتهى المقاماتِ ، وإظهارُها إظهارٌ للخيرِ ، فلماذا يُستنكرُ ؟

فاعلمْ : أنَّ المحبَّةَ محمودةٌ ، وظهورُها محمودٌ أيضاً ، وإنَّما المذمومُ التظاهرُ بها ؛ لما يدخلُ فيهِ مِنَ الدعوىٰ والاستكبارِ ، وحقُّ المحبِّ أنْ ينمَّ علىٰ حبِّهِ الخفيِّ أفعالُهُ وأحوالُهُ دونَ أقوالِهِ ، بلْ ينبغي أنْ يظهرَ حبُّهُ مِنْ غيرِ قصدٍ منهُ إلىٰ إظهارِ الحبِّ ، ولا إلىٰ إظهارِ الفعلِ الدالِّ على الحبِّ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ قصدُ المحبِّ اطلاعَ الحبيبِ فقطْ ، فأمَّا إرادتُهُ اطلاعَ غيرِهِ . . فشركٌ في الحبِّ ، وقادحٌ فيهِ ؛ كما وردَ في الإنجيلِ : (إذا تصدقتَ . . فتصدَّقْ بحيثُ لا تعلمُ شمالُكَ ما صنعَتْ يمينُكَ ، فالذي يرى الخفيَّاتِ

---

(١) طبقات الصوفية (ص٧٣) ، قوت القلوب (٢/ ٦٧) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٦٧) .

يجزيكَ بهِ علانيةً ، وإذا صمتَ . . فاغسلْ وجهَكَ وادهنْ رأسَكَ ؛ لئلا يعلمَ بذلكَ غيرُ ربِّكَ)(١) .

فإظهارُ القولِ والفعلِ كلُّهُ مذمومٌ ، إلا إذا غلبَ سكرُ الحبِّ فانطلقَ اللسانُ واضطربَتِ الأعضاءُ . . فلا يلامُ فيهِ صاحبُهُ .

حُكِيَ أنَّ رجلاً رأىٰ مِنْ بعضِ المجانينِ ما استجهلَهُ فيهِ(٢) ، فأخبرَ بذلكَ معروفاً الكرخيَّ رحمهُ اللهُ ، فتبسَّمَ ثمَّ قالَ : يا أخي ؛ لهُ محبُّونَ صغارٌ وكبارٌ ، وعقلاءُ ومجانينُ ، فهٰذا الذي رأيتَهُ مِنْ مجانينِهِمْ(٣) .

وممَّا يكرهُ التظاهرُ بالحبِّ بسببِهِ : أنَّ المحبَّ إنْ كان عارفاً ، وعرفَ أحوالَ الملائكةِ في حبِّهِمُ الدائمِ وشوقِهِمُ اللازمِ ، الذي بهِ يسبِّحونَ الليلَ والنهارَ لا يفترونَ ، ولا يعصونَ اللهَ ما أمرَهُمْ ويفعلونَ ما يُؤمرونَ . . لاستنكفَ مِنْ نفسِهِ ومِنْ إظهارِ حبِّهِ ، وعلمَ قطعاً أنَّهُ أخسُّ المحبينَ في مملكتِهِ ، وأنَّ حبَّهُ أنقصُ مِنْ حبِّ كلِّ محبٍّ للهِ تعالىٰ .

قالَ بعضُ المكاشفينَ مِنَ المحبِّينَ : عبدتُ اللهَ تعالىٰ ثلاثينَ سنةً بأعمالِ القلوبِ والجوارحِ علىٰ بذلِ المجهودِ واستفراغِ الطاقةِ ، حتَّىٰ ظننتُ أنَّ لي

---

(١) وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٣٦/١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (إذا أصبح أحدكم صائماً . . فليترجَّل ، وإذا تصدق بصدقة بيمينه . . فليخفها عن شماله ، وإذا صلىٰ صلاة أو صلىٰ تطوعاً . . فليصلها في داخله) .

(٢) كذا في النسخ : (استجهله فيه) ، وفي (ق) : (استجلَّهُ فيه) .

(٣) قوت القلوب (٦٧/٢) .

عندَ اللهِ شأناً ، فذكرَ أشياءَ مِنْ مكاشفاتِ آياتِ السماواتِ في قصَّةٍ طويلةٍ قالَ في آخرِها : فبلغتُ صفاً مِنَ الملائكةِ بعددِ جميعِ ما خلقَ اللهُ مِنْ شيءٍ ، فقلتُ : مَنْ أنتمْ ؟ فقالوا : نحنُ المحبُّونَ للهِ عزَّ وجلَّ ، نعبدُهُ هاهنا منذُ ثلاثِ مئةِ ألفِ سنةٍ ، ما خطرَ علىٰ قلوبِنا قطُّ سواهُ ، ولا ذكرنا غيرَهُ ، قالَ : فاستحييتُ مِنْ أعمالي ، فوهبتُها لِمَنْ حقَّ عليهِ الوعيدُ تخفيفاً عنهُمْ في جهنَّمَ[1] .

فإذاً ؛ مَنْ عرفَ نفسَهُ ، وعرفَ ربَّهُ ، واستحيا منهُ حقَّ الحياءِ . . خرِسَ لسانُهُ عنِ التظاهرِ بالدعوىٰ .

نعمْ ، يشهدُ علىٰ حبِّهِ حركاتُهُ وسكناتُهُ وإقدامُهُ وإحجامُهُ وتردداتُهُ ؛ كما حُكِيَ عنِ الجنيدِ أنَّهُ قالَ : مرضَ أستاذُنا السريُّ رحمهُ اللهُ ، فلمْ نعرفْ لعلَّتِهِ دواءً ، ولا عرفنا لها سبباً ، فوُصفَ لنا طبيبٌ حاذقٌ ، فأخذنا قارورةَ مائِهِ ، فنظرَ إليهِ الطبيبُ وجعلَ ينظرُ ملياً ، ثمَّ قالَ لي : أراهُ بولَ عاشقٍ ، قالَ الجنيدُ : فصعقتُ وغُشيَ عليَّ ، ووقعتِ القارورةُ مِنْ يدي ، ثمَّ رجعتُ إلى السريِّ فأخبرتُهُ ، فتبسَّمَ ثمَّ قالَ : قاتلَهُ اللهُ ما أبصرَهُ ! قلتُ : يا أستاذُ ؛ وتبينُ المحبةُ في البولِ ؟ قالَ : نعمْ .

وقدْ قالَ السريُّ مرَّةً : (لوْ شئتُ أقولُ : ما أيبسَ جلدي علىٰ عظمي ، ولا سلَّ جسمي إلا حبُّهُ) ، ثمَّ غُشِيَ عليهِ[2] .

---

(١) قوت القلوب (٢/٦٨) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٤٨٧) بنحوه .

وتدلُّ الغشيةُ علىٰ أنَّهُ أفصحَ في غلبةِ الوجدِ ومقدماتِ الغشيةِ

فهٰذهِ مجامعُ علاماتِ الحبِّ وثمراتِهِ .



ومنها : **الأنسُ والرضا** : كما سيأتي .

وبالجملةِ : جميعُ محاسنِ الدينِ ومكارمِ الأخلاقِ ثمرةُ الحبِّ ، وما لا يثمرُهُ الحبُّ فهوَ اتِّباعُ الهوىٰ ، وهوَ مِنْ رذائلِ الأخلاقِ .

نعمْ ، قدْ يحبُّ اللهَ لإحسانِهِ إليهِ ، وقدْ يحبُّهُ لجلالِهِ وجمالِهِ وإنْ لمْ يحسنْ إليهِ ، والمحبُّونَ لا يخرجونَ عنْ هٰذينِ القسمينِ .

ولذلكَ قالَ الجنيدُ : (الناسُ في محبةِ اللهِ تعالىٰ عامٌّ وخاصٌّ ، فالعوامُّ نالوا ذلكَ بمعرفتِهِمْ في دوامِ إحسانِهِ وكثرةِ نعمِهِ ، فلمْ يتمالكوا أنْ أرضَوهُ ، إلا أنَّهُمْ تقلُّ محبتُهُمْ وتكثرُ علىٰ قدْرِ النعمِ والإحسانِ ، فأمَّا الخاصَّةُ . . فنالوا المحبَّةَ بعظمِ القدرِ والقدرةِ والعلمِ والحكمةِ والتفرُّدِ بالملكِ ، ولمَّا عرفوا صفاتِهِ الكاملةَ وأسماءَهُ الحسنىٰ . . لمْ يمتنعوا أنْ أحبُّوهُ ؛ إذِ استحقَّ عندَهُمُ المحبَّةَ بذلكَ لأنَّهُ أهلٌ لها ولوْ أزالَ عنهُمْ جميعَ النعمِ .

نعمْ ، مِنَ الناسِ مَنْ يحبُّ هواهُ وعدوَّ اللهِ إبليسَ ، وهوَ معَ ذلكَ يلبِّسُ علىٰ نفسِهِ بحكمِ الغرورِ والجهلِ ، فيظنُّ أنَّهُ محبٌّ للهِ عزَّ وجلَّ)[1] ، وهو الذي فُقِدَتْ فيهِ هٰذهِ العلاماتُ ، أوْ يلبِّسُ بها نفاقاً ورياءً وسمعةً وغرضُهُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٨٢) .

عاجلُ حظِّ الدنيا ، وهوَ يظهرُ مِنْ نفسِهِ خلافَ ذلكَ ؛ كعلماءِ السوءِ وقرَّاءِ السوءِ ، أولئكَ بغضاءُ اللهِ في أرضِهِ .

وكانَ سهلٌ إذا تكلَّمَ معَ إنسانٍ . . قالَ : يا دُوْستُ[1] ـ أيْ : يا حبيبُ ـ فقيلَ لهُ : قدْ لا يكونُ حبيباً ، فكيفَ تقولُ هـٰذا ؟! فقالَ في أذنِ القائلِ سرّاً : لا يخلو إمَّا أنَّ يكونَ مؤمناً أوْ منافقاً ، فإنْ كانَ مؤمناً . . فهوَ حبيبُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وإنْ كانَ منافقاً . . فهوُ حبيبُ إبليسَ[2] .

وقدْ قالَ أبو ترابٍ النخشبيُّ في علاماتِ المحبَّةِ أبياتاً ، وهيَ[3] : [من الكامل]

لا تُخْدَعَنَّ فَلِلْمُحِبِّ دَلائِلُ ... وَلَدَيهِ مِنْ تُحَفِ ٱلْحَبِيبِ وَسائِلُ
مِنْها تَنَعُّمُهُ بِمُرِّ بَلائِهِ ... وَسُرُورُهُ فِي كُلِّ ما هُوَ فاعِلُ
فَٱلْمَنْعُ مِنْهُ عَطِيَّةٌ مَقْبُولَةٌ ... وَٱلْفَقْرُ إِكْرامٌ وَبِرٌّ عاجِلُ
وَمِنَ ٱلدَّلائِلِ أَنْ يُرَىٰ مِنْ عَزْمِهِ ... طوعَ ٱلْحَبِيبِ وَإِنْ أَلَحَّ ٱلْعاذِلُ
وَمِنَ ٱلدَّلائِلِ أَنْ يُرَىٰ مُتَبَسِّماً ... وَٱلْقَلْبُ فِيهِ مِنَ ٱلْحَبِيبِ بَلابِلُ
وَمِنَ ٱلدَّلائِلِ أَنْ يُرَىٰ مُتَفَهِّماً ... لِكَلامِ مَنْ يَحْظَىٰ لَدَيهِ ٱلسَّائِلُ
وَمِنَ ٱلدَّلائِلِ أَنْ يُرَىٰ مُتَقَشِّفاً ... مُتَحَفِّظاً مِنَ كُلِّ مَا هُوَ قَائِلُ

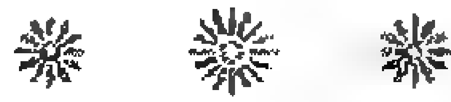
وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ[3] : [من الكامل]

وَمِنَ ٱلدَّلائِلِ أَنْ تَراهُ مُشَمِّراً ... فِي خِرْقَتَيْنِ عَلَىٰ شُطوطِ ٱلسَّاحِلِ

---

(١) لفظة فارسية .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٨٢) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٦٣) .

وَمِـنَ ٱلـدَّلائِـلِ حُـزْنُـهُ وَنَحِيبُـهُ ... جَوْفَ ٱلظَّلامِ فَما لَهُ مِنْ عاذِلِ
وَمِنَ ٱلدَّلائِلِ أَنْ تَراهُ مُسافِراً ... نَحْوَ ٱلْجِهَادِ وَكلِّ فِعْلٍ فَاضِلِ
وَمِنَ ٱلدَّلائِلِ زُهْدُهُ فِيما يَرَى ... مِـنْ دارِ ذُلٍّ وَٱلنَّعِيـمِ ٱلـزَّائِـلِ
وَمِـنَ ٱلـدَّلائِـلِ أَنْ تَـراهُ بـاكِيـاً ... أَنْ قَـدْ رَآهُ عَلَـىٰ قَبِيـحِ فعـائِـلِ[1]
وَمِـنَ ٱلـدَّلائِـلِ أَنْ تَـراهُ مُسَلِّمـاً ... كُلَّ ٱلأُمُورِ إِلَى ٱلْمَلِيكِ ٱلْعادِلِ
وَمِـنَ ٱلـدَّلائِـلِ أَنْ تَـراهُ راضِيـاً ... بِمَلِيكِـهِ فِـي كُـلِّ حُكْـمٍ نـازِلِ
وَمِنَ ٱلدَّلائِلِ ضِحْكُهُ بَيْنَ ٱلْوَرَى ... وَٱلْقَلْبُ مَحْزُونٌ كَقَلْبِ ٱلثاكِلِ



(١) في غير (ع) : (فاعل) بدل (فعائل) ، وفي (ب) : (باطل) .

بيان معنى الأنس بالله تعالى

قدْ ذكرنا أنَّ الأنسَ والخوفَ والشوقَ مِنْ آثارِ المحبَّةِ ، إلا أنَّ هـٰذهِ آثارٌ مختلفةٌ ، تختلفُ على المحبِّ بحسَبِ نظرِهِ ، ومايغلبُ عليهِ في وقتِهِ ، فإذا غلبَ عليهِ التطلُّعُ مِنْ وراءِ حجبِ الغيبِ إلىٰ منتهى الجمالِ ، واستشعرَ قصورَهُ عنِ الاطلاعِ علىٰ كنْهِ الجلالِ . . انبعثَ القلبُ إلى الطلبِ ، وانزعجَ لهُ ، وهاجَ إليهِ ، وتُسمَّىٰ هـٰذهِ الحالةُ في الانزعاجِ **شوقاً** ، وهوَ بالإضافةِ إلىٰ أمرٍ غائبٍ .

وإذا غلبَ عليهِ الفرحُ بالقربِ ، ومشاهدةُ الحضورِ بما هوَ حاصلٌ مِنَ الكشفِ ، وكانَ نظرُهُ مقصوراً علىٰ مطالعةِ الجمالِ الحاضرِ المكشوفِ ، غيرَ ملتفتٍ إلىٰ ما لم يدركْهُ بعدُ . . استبشرَ القلبُ بما يلاحظُهُ ، فيُسمَّى استبشارُهُ **أُنساً** .

وإنْ كانَ نظرُهُ إلىٰ صفاتِ العزِّ ، والاستغناءِ وعدمِ المبالاةِ ، وخطرِ إمكانِ الزوالِ والبعدِ . . تألَّمَ القلبُ بهـٰذا الاستشعارِ ، فيُسمَّىٰ تألُّمُهُ **خوفاً** .

وهـٰذهِ الأحوالُ تابعةٌ لهـٰذهِ الملاحظاتِ ، والملاحظاتُ تابعةٌ لأسبابٍ تقتضيها لا يمكنُ حصرُها ، **فالأنسُ** : معناهُ استبشارُ القلبِ وفرحُهُ بمطالعةِ الجمالِ ، حتَّىٰ إنَّهُ إذا غلبَ ، وتجرَّدَ عنْ ملاحظةِ ما غابَ عنهُ ، وما يتطرَّقُ إليهِ مِنْ خطرِ الزوالِ . . عظمَ نعيمُهُ ولذَّتُهُ .

ومِنْ هنا نظرَ بعضُهُمْ حيثُ قيلَ لهُ : أنتَ مشتاقٌ ؟ فقالَ : لا ، إنَّما

الشوقُ إلىٰ غائبٍ ، فإذا كانَ الغائبُ حاضراً . . فإلىٰ مَنْ يُشتاقُ ؟ ![1] .

وهٰذا كلامُ مستغرقٍ بالفرحِ بما نالَهُ ، غيرِ ملتفتٍ إلىٰ ما بقيَ في الإمكانِ مِنْ مزايا الألطافِ .

ومَنْ غلبَ عليهِ حالُ الأنسِ . . لمْ تكنْ شهوتُهُ إلا في الانفرادِ والخلوةِ ، كما حُكِيَ أنَّ إبراهيمَ بنَ أدهمَ نزلَ مِنَ الجبلِ ، فقيلَ لهُ : مِنْ أينَ أقبلتَ ؟ فقالَ : مِنَ الأنسِ باللهِ[2] .

وذلكَ لأنَّ الأنسَ باللهِ يلازمُهُ التوحُّش مِنْ غيرِ اللهِ ، بلْ كلُّ ما يعوِّقُ عنِ الخلوةِ فيكونُ مِنْ أثقلِ الأشياءِ على القلبِ ، كما رُويَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ لمَّا كلَّمَهُ ربُّهُ . . مكثَ دهراً لا يسمعُ كلامَ أحدٍ مِنَ الناسِ إلا أخذَهُ الغشيانُ[3] ؛ لأنَّ الحبَّ يُوجبُ عذوبةَ كلامِ المحبوبِ وعذوبةَ ذكرِهِ ، فيخرجُ مِنَ القلبِ عذوبةَ ما سواهُ .

ولذلكَ قالَ بعضُ الحكماءِ في دعائِهِ : (يا مَنْ آنسَني بذكرِهِ ، وأوحشَني مِنْ خلقِهِ)[4] .

وقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لداوودَ عليهِ السلامُ : كُنْ لي مشتاقاً ، وبي مستأنساً ، ومِنْ سوايَ مستوحشاً)[5] .

---

(1) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١٠) .
(2) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٠) .
(3) في (ع ، ص) : (أخذه الغثيان) بدل (أخذه الغشيان) .
(4) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٠٧) .
(5) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٠٧) .

وقيلَ لرابعةَ : بِمَ نلتِ هـٰذهِ المنزلةَ ؟ قالَتْ : بتركي ما لا يعنيني ، وأُنسي بمَنْ لمْ يزلْ(١) .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : مررتُ براهبٍ فقلتُ لهُ : يا راهبُ ؛ لقدْ أعجبَتْكَ الوحدةُ ؟ فقالَ : يا هـٰذا ، لوْ ذقتَ حلاوةَ الوحدةِ . . لاستوحشتَ إليها مِنْ نفسِكَ ، الوحدةُ رأسُ العبادةِ ، قلتُ : يا راهبُ ؛ ما أقلُّ ما تجدُ في الوحدةِ ؟ قالَ : الراحةُ مِنْ مداراةِ الناسِ ، والسلامةُ مِنْ شرِّهِمْ ، قلتُ : يا راهبُ ؛ متَىٰ يذوقُ العبدُ حلاوةَ الأنسِ باللهِ تعالى ؟ قالَ : إذا صفا الوُدُّ ، وخلصَتِ المعاملةُ ، قلتُ : ومتىٰ يصفُو الودُّ ؟ قالَ : إذا اجتمعَ الهمُّ فصارَ همّاً واحداً في الطاعةِ(٢) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : عجباً للخلائقِ كيفَ أرادوا بكَ بدلاً ! عجباً للقلوبِ كيفَ استأنسَتْ بسواكَ عنكَ !

* * *

فإنْ قلتَ : فما علامةُ الأنسِ ؟

فاعلمْ : أنَّ علامتَهُ الخاصَّةَ ضيقُ الصدرِ مِنْ معاشرةِ الخلقِ ، والتبرُّمُ بِهِمْ ، واستهتارُهُ بعذوبةِ الذكرِ ، فإنْ خالطَ . . فهوَ كمنفردٍ في جماعةٍ ، ومجتمعٍ في خلوةٍ ، وغريبٍ في حضرٍ ، وحاضرٍ في سفرٍ ، وشاهدٍ في

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٠٧) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٠٧) .

غيبةٍ ، وغائبٍ في حضورٍ ، مخالطٌ بالبدنِ منفردٌ بالقلبِ ، مستغرقٌ بعذوبةِ الذكرِ ، كما قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ في وصفِهِمْ : (هُمْ قومٌ هجمَ بِهِمُ العلمُ علىٰ حقيقةِ الأمرِ ، فباشروا روحَ اليقينِ ، واستلانوا ما استوعرَ المترفونَ ، وأنسوا بما استوحشَ منهُ الجاهلونَ ، صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلقةٌ بالمحلِّ الأعلىٰ ، أولئكَ خلفاءُ اللهِ في أرضِهِ ، والدعاةُ إلىٰ دينِهِ)[1] .

فهٰذا معنى الأنسِ باللهِ ، وهٰذهِ علامتُهُ ، وهٰذهِ شواهدُهُ .

وقدْ ذهبَ بعضُ المتكلِّمينَ إلىٰ إنكارِ الأنسِ والشوقِ والحبِّ ؛ لظنِّهِ أنَّ ذلكَ يدلُّ على التشبيهِ ، وجهلِهِ بأنَّ جمالَ المدركاتِ بالبصائرِ أكملُ مِنْ جمالِ المبصراتِ ، ولذَّةَ معرفتِها أغلبُ علىٰ ذوي القلوبِ ، ومنهُمْ أحمدُ بنُ غالبٍ ، ويُعرفُ بغلامِ الخليلِ ، أنكرَ على الجنيدِ وعلىٰ أبي الحسينِ النوريِّ والجماعةِ حديثَ الحبِّ والشوقِ والعشقِ[2] ، حتَّىٰ أنكرَ بعضُهُمْ مقامَ الرضا وقالَ : ليسَ إلا الصبرَ ، فأمَّا الرضا.. فغيرُ متصوَّرٍ ، وهٰذا كلُّهُ كلامُ ناقصٍ قاصرٍ ، لَمْ يطلعْ مِنْ مقاماتِ الدينِ إلا على القشورِ ، فظنَّ أنَّهُ لا وجودَ إلا للقشرِ ، فإنَّ المحسوساتِ وكلَّ ما يدخلُ في الخيالِ في طريقِ الدينِ قشرٌ مجرَّدٌ ، ووراءَهُ اللبُّ المطلوبُ ، فمَنْ لمْ يصلْ مِنَ الجوزِ إلا إلىٰ قشرِهِ.. يظنُّ أنَّ الجوزَ خشبٌ كلُّهُ ، ويستحيلُ عندَهُ خروجُ

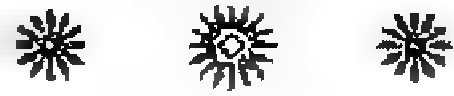
---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣١١) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٦٤) ، وفتنته تعرف بمحنة الصوفية ، حتىٰ رُفع أمرهم إلى القتل ، وتقدم تعليقاً ذكر قصتهم . وانظر « الحلية » (١٠/ ٢٥٠) .

الدهنِ منهُ لا محالةَ ، وهو معذورٌ ، ولكنَّ عذرَهُ غيرُ مقبولٍ ، وقدْ قيلَ[1] : [من البسيط]

الأُنْسُ بِٱللهِ لا يَحْوِيهِ بَطَّالُ وَلَيْسَ يُدْرِكُهُ بِٱلْحَوْلِ مُحْتَالُ
وَٱلآنِسُونَ رِجَالٌ كُلُّهُمْ نُجُبٌ وَكُلُّهُمْ صَفْوَةٌ للهِ عُمَّالُ



(١) قوت القلوب (٢/ ٦٤) عن بعض العارفين .

بيان معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس

اعلمْ : أنَّ الأنسَ إذا دامَ وغلبَ واستحكمَ ، ولمْ يشوشْهُ قلقُ الشوقِ ، ولمْ ينغصْهُ خوفُ التغيُّرِ والحجابِ . . فإنَّهُ يثمرُ نوعاً مِنَ الانبساطِ في الأقوالِ والأفعالِ والمناجاةِ معَ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ يكونُ منكرَ الصورةِ لما فيهِ مِنَ الجراءةِ وقلَّةِ الهيبةِ ، ولكنَّهُ محتملٌ ممَّنْ أُقيمَ في مقامِ الأنسِ ، ومَنْ لمْ يقمْ في ذلكَ المقامِ ، ويتشبَّهْ بهِمْ في الفعلِ والكلامِ . . هلكَ بهِ وأشرفَ على الكفرِ .

ومثالُهُ : مناجاةُ بُرْخٍ الأسودِ الذي أمرَ اللهُ تعالىٰ كليمَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ أن يسألَهُ ليستسقيَ لبني إسرائيلَ بعدَ أنْ قحطوا سبعَ سنينَ ، وخرجَ موسىٰ عليهِ السلامُ يستسقي لهُمْ في سبعينَ ألفاً ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : كيفَ أستجيبُ لهُمْ وقدْ أظلمَتْ عليهِمْ ذنوبُهُمْ ، سرائرُهُمْ خبيثةٌ ، يدعونَني علىٰ غيرِ يقينٍ ، ويأمنونَ مكري ، ارجع إلىٰ عبدٍ مِنْ عبادي يُقالُ لهُ : بُرْخٌ ، فقلْ لهُ يخرجُ حتَّىٰ أستجيبَ لهُ ، فسألَ عنهُ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فلمْ يُعرفْ ، فبينا موسىٰ ذاتَ يومٍ يمشي في طريقٍ إذا بعبدٍ أسودَ قدِ استقبلَهُ بينَ عينيهِ ترابٌ مِنْ أثرِ السجودِ ، في شملةٍ قدْ عقدَها علىٰ عنقِهِ ، فعرفَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ بنورِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فسلَّمَ عليه وقالَ لهُ : ما اسمُكَ ؟ فقالَ : اسمي بُرْخٌ ، قالَ : فأنتَ طَلِبَتُنا منذُ حينٍ ، اخرجْ فاستسقِ لنا ، فخرجَ ، فقالَ في كلامِهِ : ما هـٰذا مِنْ فعالِكَ ! ولا هـٰذا مِنْ حلمِكَ ! وما الذي بدا لكَ ؟!

أنقصَتْ عليك عيونُكَ ؟! [١] أمْ عاندَتِ الرياحُ عنْ طاعتِكَ ؟! أمْ نفدَ ما عندَك ؟! أمِ اشتدَّ غضبُكَ على المذنبينَ ؟! ألستَ كنتَ غفّاراً ؟! قبلَ خلقِ الخطّائينَ خلقتَ الرحمةَ ، وأمرتَ بالعطفِ ، أمْ ترينا أنَّكَ ممتنعٌ ؟! أمْ تخشى الفوتَ فتعجلَ بالعقوبةِ ؟! قالَ : فما برحَ حتَّى اخضلَّتْ بنو إسرائيلَ بالقطرِ ، وأنبتَ اللهُ تعالى العشبَ في نصفِ يومٍ حتَّىٰ بلغَ الرُّكَبَ ، قالَ : فرجعَ بُرْخٌ ، فاستقبلَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ فقالَ : كيفَ رأيتَ حينَ خاصمتُ ربِّي كيفَ أنصفَني ، فهمَّ بهِ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إنَّ بُرْخاً يضحكُني كلَّ يومٍ ثلاثَ مرَّاتٍ [٢] .

وعنِ الحسنِ قالَ : احترقَتْ أخصاصٌ بالبصرةِ ، فبقيَ في وسطِها خصٌّ لمْ يحترقْ ، وأبو موسىٰ يومئذٍ أميرُ البصرةِ ، فأُخبرَ بذلكَ ، فبعثَ إلىٰ صاحبِ الخُصِّ ، قالَ : فأُتيَ بشيخٍ ، فقالَ : يا شيخُ ؛ ما بالُ خُصِّكَ لمْ يحترقْ ؟ قالَ : إنِّي أقسمتُ علىٰ ربِّي عزَّ وجلَّ ألا يحرقَهُ ، فقالَ أبو موسىٰ رضيَ اللهُ عنهُ : إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يكونُ في أمَّتي قومٌ شعثةٌ رؤوسُهُمْ دنسةٌ ثيابُهُمْ لوْ أقسموا على اللهِ . . لأبرَّهُمْ » [٣] .

---

(١) في (ب) : (أنقضت عليك عهودك) ، وفي « القوت » (٢/ ٦٥) : (غيوثك) وهي كذلك في (ف) .

(٢) يشير إلىٰ أنه من ضنائن أوليائه . « إتحاف » (٩/ ٦٤١) ، والخبر عند صاحب « القوت » (٢/ ٦٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الأولياء » (٤٢)، والمرفوع من حديثه عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٥٧٨)، ولفظ المصنف عند الخركوشي في «تهذيب الأسرار» (ص٥٩٢).

قالَ : ووقعَ حريقٌ بالبصرةِ ، فجاءَ أبو عبيدةَ الخوَّاصُ فجعلَ يتخطَّى النارَ ، فقالَ لهُ أميرُ البصرةِ : انظرْ ، لا تحترقْ بالنارِ ، فقالَ : إنِّي أقسمتُ على ربِّي عزَّ وجلَّ ألا يحرقَني بالنارِ ، قالَ : فاعزمْ عليها أنْ تطفأَ ، قالَ : فعزمَ عليها ، فطفئَتْ[1] .

وكانَ أبو حفصٍ يمشي ذاتَ يومٍ ، فاستقبلَهُ رستاقيٌّ مدهوشٌ ، فقالَ لهُ أبو حفصٍ : ما أصابَكَ ؟ فقالَ : ضلَّ حماري ولا أملكُ غيرَهُ ، قالَ : فوقفَ أبو حفصٍ وقالَ : وعزَّتِكَ لا أخطو خطوةً ما لمْ تردَّ عليهِ حمارَهُ ، قالَ : فظهرَ الحمارُ في الوقتِ ، ومرَّ أبو حفصٍ رحمَهُ اللهُ[2] .

فهٰذا وأمثالُهُ يجري لذوي الأنسِ وليسَ لغيرِهِمْ أن يتشبَّهَ بهِمْ .

قالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ : (أهلُ الأنسِ يقولونَ في كلامِهِمْ ومناجاتِهِمْ في خلواتِهِمْ أشياءَ هيَ كفرٌ عندَ العامَّةِ) ، وقال مرَّةً : (لو سمعَها العمومُ . . لكفَّروهُمْ) ، وهمْ يجدونَ المزيدَ في أحوالِهِمْ بذلكَ ، وذلكَ محتمَلٌ منهُمْ ويليقُ بهِمْ ، وإليهِ أشارَ القائلُ : [من البسيط]

قَـوْمٌ تَخـالُجُهُـمْ زَهْـوٌ بِسَيِّدِهِـمْ ... وَٱلْعَبْدُ يَزْهُو عَلَىٰ مِقْدارِ مَوْلاهُ

تـاهُـوا بِـرُؤْيَتِـهِ عَمَّـا سِـواهُ لَـهُ ... يا حُسْنَ رُؤْيَتِهِمْ في عزٍّ ما تاهُوا

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٥٩٢) .

(٢) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٥٩٣) .

ولا تستبعدَنْ رضاهُ عنِ العبدِ بما يغضبُ بهِ علىٰ غيرِهِ مهما اختلفَ مقامُهُما ، ففي القرآنِ تنبيهاتٌ علىٰ هٰذهِ المعاني لوْ فطنتَ وفهمتَ ، فجميعُ قصصِ القرآنِ تنبيهاتٌ لأولي البصائرِ والأبصارِ ؛ حتَّىٰ ينظروا إليها بعينِ الاعتبارِ ، وإنَّما هيَ عندَ ذوي الاغترارِ مِنَ الأسمارِ .

فأوَّلُ القصصِ قصَّةُ آدمَ عليهِ السلامُ وإبليسَ ، أما تراهُما كيفَ اشتركا في اسمِ المعصيةِ والمخالفةِ ، ثُمَّ تباينا في الاجتباءِ والعصمةِ ؛ أما إبليسُ . . فأبلسَ منْ رحمةِ اللهِ[1] ، وقيلَ : إنَّهُ مِنَ المبعدينَ . وأمَّا آدمُ عليهِ السلامُ . . فقيلَ فيهِ : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ .

وقد عاتبَ اللهُ تعالىٰ نبيَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الإعراضِ عنْ عبدٍ والإقبالِ علىٰ عبدٍ وهما في العبوديَّةِ سيَّانِ ، ولكنْ في الحالِ مختلفانِ ، فقالَ : ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ ، وقالَ في الآخرِ : ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ .

وكذلكَ أمرَهُ بالقعودِ معَ طائفةٍ فقالَ : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ، وأمرَهُ بالإعراضِ عنْ غيرِهِمْ فقال : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ حتى قالَ : ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ

---

(١) أبلس هنا : يئس .

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ ﴾ .

فكذا الانبساطُ والإدلالُ يُحتملُ مِنْ بعضِ العبادِ دونَ بعضٍ .

فمِنِ انبساطِ الأنسِ قولُ موسىٰ عليهِ السلامُ : ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُ ﴾ ، وقولُهُ في التعلُّلِ والاعتذارِ لمَّا قيلَ لهُ : اذهبْ إلىٰ فرعونَ ، فقالَ : ﴿ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٌ ﴾ وقولُهُ : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ ، وقولُهُ : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴾ ، وهٰذا مِنْ غيرِ موسىٰ عليهِ السلامُ مِنْ سوءِ الأدبِ ؛ لأنَّ الذي أُقيمَ مقامَ الأنسِ يُلاطفُ ويُحتملُ .

ولمْ يُحتملْ ليونسَ عليهِ السلامُ ما دونَ هٰذا لما أُقيمَ مقامَ القبضِ والهيبةِ ، فعُوقبَ بالسجنِ في بطنِ الحوتِ في ظلماتٍ ثلاثٍ ، ونُوديَ عليهِ إلىٰ يومِ الحشرِ : ﴿ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٌ ﴾ ، قالَ الحسنُ : (العراءُ : هوَ القيامةُ)[1] ، ونُهيَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أن يقتديَ بهِ وقيلَ لهُ : ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٌ ﴾ .

وهٰذهِ الاختلافاتُ بعضُها لاختلافِ الأحوالِ والمقاماتِ ، وبعضُها لما

(١) ولفظ « القوت » (٢/ ٦٤) ـ والسياق له ـ : (وقيل : عراء القيامة) .

سبقَ في الأزلِ مِنَ التفاضلِ والتفاوتِ في القسمةِ بينَ العبادِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ، وقالَ : ﴿ مِنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ﴾ ، فكانَ عيسىٰ عليهِ السلامُ مِنَ المفضَّلينَ ، ولإدلالِهِ سلَّمَ علىٰ نفسِهِ فقالَ : ﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ ، وهـٰذا انبساطٌ منهُ لما شاهدَ مِنَ اللطفِ في مقامِ الأنسِ ، وأمَّا يحيىٰ بنُ زكريا عليهما السلامُ . فإنَّهُ أُقيمَ مقامَ الهيبةِ والحياءِ ، فلمْ ينطقْ حتَّىٰ أثنىٰ عليهِ خالقُهُ فقالَ : ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ ﴾ .

وانظرْ كيفَ احتملَ لإخوةِ يوسفَ عليهِ السلامُ ما فعلوهُ بيوسفَ ، وقدْ قالَ بعضُ العلماءِ : (قدْ عددتُ مِنْ أوَّلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ إلىٰ رأسِ العشرينَ مِنْ إخبارِهِ تعالىٰ عنْ زهدِهِمْ فيهِ نيفاً وأربعينَ خطيئةً ، بعضُها أكبرُ مِنْ بعضٍ ، وقدْ يجتمعُ في الكلمةِ الواحدةِ الثلاثُ والأربعُ ، فغفرَ لهُمْ وعفا عنهُمْ ، ولمْ يحتملْ لعزيرٍ مسألةً واحدةً سألَ عنها في القدرِ ، حتَّىٰ قيلَ : مُحيَ مِنْ ديوانِ النبوَّةِ)[1] .

وكذلكَ كانَ بلعمُ بن باعوراءَ مِنْ أكابرِ العلماءِ ، فأكلَ الدنيا بالدينِ ،

---

(١) سؤال عزير رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٥٠) عن أبي عمران الجوني عن نوف قال : قال عزير فيما يناجي ربه عز وجل : تخلق خلقاً ؛ فتضل وتهدي من تشاء ، قال : فقيل : يا عزير ؛ أعرض عن هـٰذا ، لتعرضن عن هـٰذا أو لأمحونك من النبوة ، لا أسأل عما أفعل وهم يسألون .

فلمْ يُحتملْ لهُ ذلكَ وكانَ آصفُ مِنَ المسرفينَ ، وكانَتْ معصيتُهُ في الجوارحِ ، فعفا عنهُ ، فقدْ رُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ سليمانَ عليهِ السلامُ : يا رأسَ العابدينَ ، ويا بنَ محجةِ الزاهدينَ ؛ إلىٰ كمْ يعصيني ابنُ خالتِكَ آصفُ وأنا أحلمُ عليهِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ ، فوعزتي وجلالي ؛ لئنْ أخذَتْهُ عطفةٌ مِنْ عطفاتي عليه . . لأتركَنَّهُ مُثلةً لمَنْ معَهُ ، ونكالاً لمَنْ بعدَهُ ، فلمَّا دخلَ آصفُ علىٰ سليمانَ عليهِ السلامُ . . أخبرَهُ بما أوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ ، فخرجَ حتَّىٰ علا كثيباً مِنْ رملٍ ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ ويديهِ نحوَ السماءِ وقالَ : إلـٰهي وسيِّدي ؛ أنتَ أنتَ ، وأنا أنا ، فكيفَ أتوبُ إنْ لم تتبْ عليَّ ، وكيفَ أستعصمُ إنْ لمْ تعصمْني ، لأعودَنْ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : صدقتَ يا آصفُ ، أنتَ أنتَ ، وأنا أنا ، أستقبلُ التوبةَ إليَّ ، فقدْ تبتُ عليكَ ، وأنَا التَّوابُ الرحيمُ وهـٰذا كلامُ مدلٍّ بهِ عليهِ ، وهاربٍ منهُ إليهِ ، وناظرٍ بهِ إليهِ(١) .

وفي الخبرِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ عبدٍ تداركَهُ بعدَ أنْ كان أشفىٰ على الهَلَكَةِ : كمْ مِنْ ذنبٍ واجهتَني بهِ غفرتُهُ لكَ قدْ أهلكتُ في دونهِ أمَّةً مِنَ الأممِ ؟!(٢) .

فهـٰذهِ سنَّةُ اللهِ تعالىٰ في عبادِهِ بالتفضيلِ ، والتقديمِ والتأخيرِ علىٰ

(١) قوت القلوب (٢/ ٦٥) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٦٦) .

ما سبقَتْ بهِ مشيئتُهُ الأزليَّةُ ، وهـٰذهِ القصصُ وردَتْ في القرآنِ لتعرفَ بها سنَّةَ اللهِ في عبادِهِ الذينَ خلوا مِنْ قبلُ ، فما في القرآنِ شيءٌ إلا وهوَ هدىً ونورٌ ، وتعرُّفٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ إلىٰ خلقِهِ ، فتارةً يتعرَّفُ إليهِمْ بالتقديسِ فيقولُ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ وتارةً يتعرَّفُ إليهِمْ بصفاتِ جلالِهِ فيقولُ : ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ ، وتارةً يتعرَّفُ إليهِمْ بأفعالِهِ المخوِّفةِ والمرجوَّةِ ، فيتلو عليهِمْ سنَّتَهُ في أنبيائِهِ وفي أعدائِهِ فيقولُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ .

ولا يعدو القرآنُ هـٰذهِ الأقسامَ الثلاثةَ ؛ وهيَ الإرشادُ إلىٰ معرفةِ ذاتِ اللهِ تعالىٰ وتقديسِهِ ، أوْ معرفةِ صفاتِهِ وأسمائِهِ ، أوْ معرفةِ أفعالِهِ وسنَّتِهِ معَ عبادِهِ[1] .

ولمَّا اشتملَتْ سورةُ الإخلاصِ علىٰ أحدِ هـٰذهِ الأقسامِ الثلاثةِ ؛ وهوَ التقديسُ . . وازنَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بثلثِ القرآنِ فقالَ : « مَنْ قرأَ سورةَ الإخلاصِ . . فقدْ قرأَ ثلثَ القرآنِ »[2] ؛ لأنَّ منتهى التقديسِ في أنْ

(١) ولذلك انقسم التوحيد إلىٰ ثلاثة أقسام : توحيد الذات ، وتوحيد الصفات ، وتوحيد الأفعال . « إتحاف » (٩/٦٤٥) .

(٢) رواه الترمذي (٢٨٩٦) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، وهو عن غيره عند البخاري (٥٠١٤) ، ومسلم (٨١١) بنحوه .

يكونَ واحداً في ثلاثةِ أمورٍ : لا يكونُ حاصلاً منهُ مَنْ هوَ نظيرُهُ[1] وشبهُهُ ؛ ودلَّ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ ، ولا يكونُ هوَ حاصلاً ممَّنْ هوَ نظيرُهُ وشبهُهُ ؛ ودلَّ عليهِ قولُهُ : ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ، ولا يكونُ في درجتِهِ وإنْ لمْ يكنْ أصلاً لَهُ ولا فرعاً مَنْ هوَ مثلُهُ[2] ؛ ودلَّ عليهِ قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ، ويجمعُ جميعَ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، وجملتُهُ تفصيلُ قولِكَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ .

فهـٰذهِ أسرارُ القرآنِ ، ولا تتناهىٰ أمثالُ هـٰذهِ الأسرارِ في القرآنِ ، ولا رطبَ ولا يابسَ إلا في كتابٍ مبينٍ .

ولذلكَ قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ثوِّروا القرآنَ والتمسوا غرائبَهُ ، ففيهِ علمُ الأوَّلينَ والآخرينَ)[3] ، وهوَ كما قالَ ، ولا يعرفُهُ إلا مَنْ طالَ في آحادِ كلماتِهِ فكرُهُ ، وصفا لها فهمُهُ ، حتَّىٰ تشهدَ لهُ كلُّ كلمةٍ منهُ بأنَّهُ كلامُ جبَّارٍ قاهرٍ ، مليكٍ مقتدرٍ ، وأنَّهُ خارجٌ عنْ حدِّ استطاعةِ البشرِ .

وأكثرُ أسرارِ القرآنِ معبَّأةٌ في طيِّ القصصِ والأخبارِ ، فكنْ حريصاً على

---

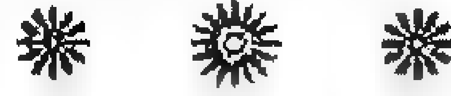
(١) في غير (ب ، ص) : (نوعه) بدل (نظيره) .

(٢) والعبارة في (أ) : (ولا يكون له شبيه ونظير) أي : بعد نفي الأصل والفرع .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٣٥) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٩٤) ولفظه : (من أراد العلم . . فليثور القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين) ، وقوله : (والتمسوا غرائبه) جاءت في المرفوع من حديث أبي هريرة رضي الله عنه كما رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٣٩) .

استنباطِها ؛ لينكشفَ لكَ فيها مِنَ العجائبِ ما تستحقرُ معَها العلومَ المزخرفةَ الخارجةَ عنها .

فهٰذا ما أردنا ذكرَهُ مِنْ معنى الأنسِ والانبساطِ الذي هوَ ثمرتُهُ ، وبيانِ تفاوتِ عبادِ اللهِ فيهِ ، واللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أعلمُ .



القول في معنى الرّضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته

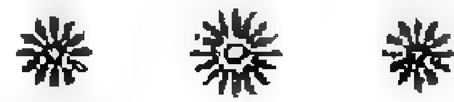
اعلمْ : أنَّ الرضا ثمرةٌ مِنْ ثمارِ المحبّةِ ، وهوَ مِنْ أعلىٰ مقامات المقرَّبينَ ، وحقيقتُهُ غامضةٌ على الأكثرينَ ، وما يدخلُ عليهِ مِنَ التشابهِ والإيهامِ غيرُ منكشفٍ إلا لمَنْ علَّمَهُ اللهُ تعالى التأويلَ ، وفهَّمَهُ وفقَّهَهُ في الدينِ .

فقدْ أنكرَ منكرونَ تصوُّرَ الرضا بما يخالفُ الهوىٰ ، ثمَّ قالوا : إنْ أمكنَ الرضا بكلِّ شيءٍ لأنَّهُ فعلُ اللهِ . . فينبغي أن يرضىٰ بالكفرِ والمعاصي .

وانخدعَ بذلكَ قومٌ ، فرأَوُا الرضا بالفجورِ والفسقِ ، وتركِ الاعتراضِ والإنكارِ ؛ مِنْ بابِ التسليمِ لقضاءِ اللهِ تعالىٰ .

ولوِ انكشفَتْ هـٰذهِ الأسرارُ لمَنِ اقتصرَ علىٰ سماعِ ظواهرِ الشرعِ . . لما دعا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ عباسٍ حيثُ قالَ : « اللهمَّ ؛ فقهْهُ في الدينِ ، وعلِّمْهُ التأويلَ »[1] .

فلنبدأْ ببيانِ فضيلةِ الرضا ، ثمَّ بحكاياتِ أحوالِ الراضينَ ، ثم بذكر حقيقةِ الرضا وكيفيةِ تصوُّرِهِ فيما يخالفُ الهوىٰ ، ثمَّ نذكرُ ما يُظنُّ أنَّهُ مِنْ تمامِ الرضا وليسَ منهُ ؛ كتركِ الدعاءِ والسكوتِ على المعاصي .



(١) رواه البخاري (١٤٣) دون قوله : « وعلمه التأويل » ، وبتمامه عند أحمد في « المسند » (١/٢٦٦) .

بيان فضيلة الرضا

أمّا الآياتُ :

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ ، ومنتهى الإحسانِ رضا اللهِ عنْ عبدِهِ ، وهوَ ثوابُ رضا العبدِ عَنِ اللهِ تعالىٰ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، فقدْ رفعَ اللهُ الرضا فوقَ جناتِ عدنٍ ؛ كما رفعَ ذكرَهُ فوقَ الصلاةِ حيثُ قالَ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، فكما أنَّ مشاهدةَ المذكورِ في الصلاةِ أكبرُ مِنَ الصلاةِ . . فرضوانُ ربِّ الجنةِ أعلىٰ مِنَ الجنةِ ، بلْ هوَ غاية مطالبِ سكّانِ الجنانِ ، وفي الحديثِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يتجلّىٰ للمؤمنينَ ، فيقولُ : سلوني ، فيقولونَ : رضاكَ »[1] ، فسؤالُهُمُ الرضا بعدَ النظرِ نهايةُ التفضيلِ .

وأمّا رضا العبدِ . . فسنذكرُ حقيقتَهُ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٩١) ، والطبراني في « الأوسط » (٢١٠٥) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ضمن خبر طويل ، وعند أبي يعلىٰ في « مسنده » (٤٢٢٨) من حديثه أيضاً وفيه : « ثم يقول : ماذا تريدون ؟ فيقولون : ربنا ؛ رضوانك » .

وأمَّا رضوانُ اللهِ تعالىٰ عنِ العبدِ . . فهوَ بمعنىً آخرَ يقربُ ممَّا ذكرناهُ في حبِّ اللهِ للعبدِ ، ولا يجوزُ أنْ يُكشفَ عنْ حقيقتِهِ ، إذْ تقصرُ أفهامُ الخلقِ عنْ دركِهِ ، ومَنْ يقوىٰ عليهِ . . فيستقلُّ بإدراكِهِ مِنْ نفسِهِ .

وعلى الجملةِ : فلا رتبةَ فوقَ النظرِ إليهِ ، فإنَّما سألوا الرضا لأنَّهُ سببُ دوامِ النظرِ ، فكأنَّهُمْ رأَوا غايةَ الغاياتِ وأقصى الأمانيِّ لمَّا ظفروا بنعيمِ النظرِ ، فلمَّا أُمروا بالسؤالِ . . لم يسألوا إلا دوامَهُ ، وعلموا أنَّ الرضا هوَ سببُ دوامِ رفعِ الحجابِ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ ، قالَ بعضُ المفسرينَ فيهِ : يأتي أهلَ الجنَّةِ في وقتِ المزيدِ ثلاثُ تحفٍ مِنْ عند ربِّ العالمينَ ؛ إحداها : هديَّةٌ مِنْ عندِ اللهِ تعالىٰ ليسَ عندَهُمْ في الجنانِ مثلُها ، فذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، والثانيةُ : السلامُ عليهِمْ مِنْ ربِّهِمْ ، فيزيدُ ذلكَ على الهديةِ فضلاً ، وهوَ قولُهُ تعالىٰ ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ ، والثالثةُ : يقولُ اللهُ تعالىٰ : إنِّي عنكُمْ راضٍ ، فيكونُ ذلكَ أفضلَ مِنَ الهديةِ والتسليمِ ، فذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أيْ : مِنَ النعيمِ الذي هُمْ فيهِ[1] ، فهٰذا فضلُ رضا اللهِ تعالىٰ ، وهوَ ثمرةُ رضا العبدِ .

***

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٣٩) .

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سأَلَ طائفةً مِنْ أصحابِهِ : « ما أنتُمْ ؟ » ، فقالوا : مؤمنونَ ، فقالَ : « ما علامةُ إيمانِكُمْ ؟ » فقالوا : نصبرُ على البلاءِ ، ونشكرُ عندَ الرخاءِ ، ونرضىٰ بمواقعِ القضاءِ ، فقالَ : « مؤمنونَ وربِّ الكعبةِ »(١) .

وفي خبرٍ آخرَ أنَّهُ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « حكماءُ علماءُ ، كادوا مِنْ فقهِهِمْ أنْ يكونوا أنبياءَ »(٢) .

وفي الخبرِ : « طوبىٰ لمَنْ هُدِيَ إلى الإسلامِ ، وكانَ رزقُهُ كفافاً ، ورضيَ بهِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ رضيَ مِنَ اللهِ تعالىٰ بالقليلِ مِنَ الرزقِ . . رضيَ اللهُ تعالىٰ منهُ بالقليلِ مِنَ العملِ »(٤) .

وقالَ أيضاً عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . ابتلاهُ ،

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٤٢٣) بنحوه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٧٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١/٤٠٠) .

(٣) رواه مسلم (١٠٥٤) ، والترمذي (٢٣٤٨) ، وفيهما : (وقنع به) بدل (ورضي به) ، وانظر « قوت القلوب » (٢/٣٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الفرج بعد الشدة » (١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٥٣١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٧/١٢٨) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

فإنْ صبرَ. . اجتباهُ ، فإنْ رضيَ. . اصطفاهُ »[1] .

وقالَ أيضاً عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ. . أنبتَ اللهُ تعالىٰ لطائفةٍ مِنْ أمَّتي أجنحةً ، فيطيرونَ مِنْ قبورِهِمْ إلى الجنانِ ، يسرحونَ فيها ويتنعَّمونَ كيف شاؤوا ، فتقولُ لهُمُ الملائكةُ : هلْ رأيتُمُ الحسابَ ؟ فيقولونَ : ما رأينا حساباً ، فيقولونَ : هلْ جُزتُمُ الصراطَ ؟ فيقولونَ : ما رأينا صراطاً ، فيقولونَ لهُمْ : هل رأيتُمْ جهنَّمَ ؟ فيقولونَ : ما رأينا شيئاً ، فتقولُ الملائكةُ : مِنْ أمَّةِ مَنْ أنتُمْ ؟ فيقولونَ : مِنْ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيقولونَ : ناشدناكُمُ اللهَ ؛ حدِّثونا ما كانَتْ أعمالُكُمْ في الدنيا ؟ فيقولونَ : خصلتانِ كانتا فينا ، فبلَّغَنا اللهُ هـٰذهِ المنزلةَ بفضلِ رحمتِهِ ، فيقولونَ : وما هما ؟ فيقولونَ : كنَّا إذا خلونا. . نستحي أن نعصيَهُ ، ونرضىٰ باليسيرِ ممَّا قسمَ لنا ، فتقولُ الملائكةُ : يحقُّ لكُمْ هـٰذا »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا معشرَ الفقراءِ ؛ أعطوا اللهَ تعالى الرضا

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٥٣) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٩٧١) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٣٩) ، حيث قال : (وقد روينا حديثاً حسناً ، كالمسند عن حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن أنس بن مالك) وذكره ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن حبان في « الضعفاء » ، وأبو عبد الرحمـٰن السلمي من حديث أنس مع اختلاف ، وفيه حميد بن علي القيسي ، ساقط هالك ، والحديث منكر مخالف للقرآن والأحاديث الصحيحة في الورود وغيره) . « إتحاف » (٩/ ٦٥٠) .

مِنْ قلوبِكُمْ . . تظفروا بثوابِ فقرِكُمْ ، وإلا . . فلا »[1] .

وفي أخبارِ موسىٰ عليهِ السلامُ : أنَّ بني إسرائيلَ قالوا لهُ : سَلْ لنا ربَّكَ أمراً إذا نحنُ فعلناهُ . . يرضىٰ بهِ عنَّا ، فقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : إلـٰهي ؛ قدْ سمعتَ ما قالوا ، فقالَ : يا موسىٰ ؛ قلْ لهُمْ يرضونَ عنِّي حتَّىٰ أرضىٰ عنهُمْ[2] .

ويشهدُ لهـٰذا ما رُوِيَ عن نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ أحبَّ أنْ يعلمَ ما لهُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ . . فلينظرْ ما للهِ عزَّ وجلَّ عندَهُ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ ينزِلُ العبدَ منهُ حيثُ أنزلَهُ العبدُ مِنْ نفسِهِ »[3] .

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ : (ما لأوليائِي والهمَّ بالدنيا ؟! إنَّ الهمَّ يذهبُ حلاوةَ مناجاتي مِنْ قلوبِهِمْ ، يا داوودُ ؛ إنَّ محبَّتي مِنْ أوليائي أنْ يكونوا روحانيينَ لا يغتمُّونَ)[4] .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ قالَ : يا ربِّ ؛ دلَّني علىٰ أمرٍ فيهِ رضاكَ حتَّىٰ أعملَهُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إنَّ رضايَ في كرهِكَ ، وأنتَ لا تصبرُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٤) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢١٦) ، وحكىٰ سنده الحافظ ابن حجر في « زهر الفردوس » (٤/ ٢٨١) ، وانظر « الإتحاف » (٩/ ٢٨٣ ، ٦٥٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٣٩) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٥٢٢) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٩٤) .

(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٤٠) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٧٩) .

علىٰ ما تكرهُ ، قالَ : يا ربِّ ؛ دلَّني عليهِ ، قالَ : فإنَّ رضايَ في رضاكَ بقضائي .

وفي مناجاةِ موسىٰ عليهِ السلامُ : أيْ ربِّ ؛ أيُّ خلقِكَ أحبُّ إليكَ ؟ قالَ : مَنْ إذا أخذتُ منهُ المحبوبَ . . سالمَني ، قالَ : فأيُّ خلقِكَ أنتَ عليهِ ساخطٌ ؟ قالَ : مَنْ يستخيرُني في الأمرِ ، فإذا قضيتُ لهُ . . سخطَ قضائي(١) .

وقدْ رُوِيَ ما هوَ أشدُّ مِنْ ذلكَ ، وهوَ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : (أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا ، مَنْ لمْ يصبرْ علىٰ بلائي ، ولمْ يشكرْ نعمائي ، ولمْ يرضَ بقضائي . . فليتخذْ ربّاً سوايَ)(٢) .

ومثلُهُ في الشدَّةِ قولُهُ تعالىٰ فيما أخبرَ عنهُ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : قدرتُ المقاديرَ ودبرتُ التدبيرَ ، وأحكمتُ الصنعَ ، فمَنْ رضيَ . . فلهُ الرضا منِّي حتَّىٰ يلقاني ، ومَنْ سخطَ . . فلهُ السخطُ منِّي حتَّىٰ يلقاني »(٣) .

وفي الخبرِ المشهورِ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : خلقتُ الخيرَ والشرَّ ، فطوبىٰ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤١) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٤١) ، وقد روي مرفوعاً كما هو عند الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٣٢٠) ، وأبو نعيم في « معجم الصحابة » (٦/ ٣٠٤٧) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٤١) ، وروى الترمذي (٢٣٩٦) ، وابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً . . ابتلاهم ؛ فمن رضي . . فله الرضا ، ومن سخط . . فله السخط » .

لمَنْ خلقتُهُ للخيرِ وأجريتُ الخيرَ علىٰ يديهِ ، وويلٌ لمَنْ خلقتُهُ للشرِّ وأجريتُ الشرَّ علىٰ يديهِ ، وويلٌ ثمَّ ويلٌ لمَنْ قالَ : لِمَ ؟ وكيفَ ؟ »[1] .

وفي الأخبارِ السالفةِ : أنَّ نبيّاً مِنَ الأنبياءِ شكا إلى اللهِ تعالى الجوعَ والفقرَ والقملَ عشرَ سنينَ ، فما أُجيبَ إلىٰ ما أرادَ ، ثمَّ أوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : كمْ تشكو ؟! هٰكذا كانَ بدؤُكَ عندي في أمِّ الكتابِ قبلَ أن أخلقَ السماواتِ والأرضَ ، وهٰكذا سبقَ لكَ منِّي ، وهٰكذا قضيتُ عليكَ قبلَ أنْ أخلقَ الدنيا ، أفتريدُ أنْ أعيدَ خلقَ الدنيا مِنْ أجلِكَ ؟! أمْ تريدُ أنْ أبدلَ ما قدَّرتُهُ عليكَ فيكونَ ما تحبُّ فوقَ ما أحبُّ ، ويكونَ ما تريدُ فوقَ ما أريدُ ؟! وعزَّتي وجلالي ؛ لئنْ تلجلجَ[2] هٰذا في صدرِكَ مرَّةً أخرىٰ . . لأمحونَّكَ مِنْ ديوانِ النبوَّةِ[3] .

ورُوِيَ أنَّ آدمَ عليهِ السلامُ كانَ بعضُ أولادِهِ الصغارِ يصعدونَ علىٰ بدنِهِ وينزلونَ ، يجعلُ أحدُهُمْ رجلَهُ علىٰ أضلاعِهِ كهيئةِ الدرجِ ، فيصعدُ إلىٰ رأسِهِ ، ثمَّ ينزلُ علىٰ أضلاعِهِ كذلكَ ، وهوَ مطرقٌ إلى الأرضِ لا ينطقُ ولا يرفعُ رأسَهُ ، فقالَ لهُ بعضُ ولدِهِ : يا أبتِ ؛ أما ترىٰ ما يصنعُ هٰذا

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٤١) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن شاهين في « شرح السنة » من حديث أبي أمامة بسند ضعيف » ، وقد رواه دون الجملة الأخيرة منه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

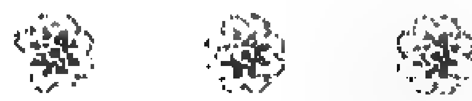
(٢) في (أ) : (اختلج) بدل (تلجلج) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٤١) .

بكَ ؟! لونهيتهُ عنْ هٰذا ، فقالَ : يا بنيَّ ؛ إنِّي رأيتُ ما لم ترَوا ، وعلمتُ ما لمْ تعلموا ، إنِّي تحرَّكتُ حركةً واحدةً فأُهبطتُ مِنْ دارِ الكرامةِ إلىٰ دارِ الهوانِ ، ومِنْ دارِ النعيمِ إلىٰ دارِ الشقاءِ ، فأخافُ أن أتحرَّكَ حركةً أخرىٰ فيصيبَني ما لا أعلمُ)[1] .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (خدمتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عشرَ سنينَ ، فما قالَ لي لشيءٍ فعلتُهُ : لِمَ فعلتَهُ ، ولا لشيءٍ لمْ أفعلْهُ : ألا فعلتَهُ ، ولا قالَ في شيءٍ كانَ : ليتَهُ لمْ يكنْ ، ولا في شيءٍ لمْ يكنْ : ليتَهُ كانَ ، وكانَ إذا خاصمَني مخاصمٌ مِنْ أهلِهِ يقولُ : « دعوهُ ، لوْ قُضِيَ شيءٌ . . لكانَ)[2] .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ تريدُ وأريدُ ، وإنَّما يكونُ ما أريدُ ؛ فإنْ سلَّمتَ لما أريدُ . . كفيتُكَ ما تريدُ ، وإنْ لمْ تسلِّمْ لما أريدُ . . أتعبتُكَ فيما تريدُ ، ثمَّ لا يكونُ إلا ما أريدُ)[3] .



وأمّا الآثارُ :

فقدْ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (أوَّلُ مَنْ يُدعىٰ إلى الجنةِ يومَ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤١) .

(٢) رواه البخاري (٦٠٣٨) ، ومسلم (٢٣٠٩) إلىٰ قوله : (ألا فعلته) ، ورواه بتمامه أحمد في « المسند » (٣/ ٢٣١) .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٥٣) .

القيامةِ الذينَ يحمدونَ اللهَ تعالىٰ علىٰ كلِّ حالٍ)[١] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (ما بقيَ لي سرورٌ إلا في مواقعِ القدرِ)[٢] .

وقيلَ لهُ : ما تشتهي ؟ فقالَ : ما يقضي اللهُ تعالىٰ .

وقالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : (مَنْ لمْ يرضَ بالقضاءِ . . فليسَ لحمقِهِ دواءٌ)[٣] .

وقالَ الفضيلُ : (إنْ لمْ تصلحْ علىٰ تقديرِ اللهِ . . لمْ تصلحْ علىٰ تقديرِ نفسِكَ) .

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روادٍ : (ليسَ الشأنُ في أكلِ خبزِ الشعيرِ والخلِّ ، ولا في لبسِ الصوفِ والشعرِ ، ولكنَّ الشأنَ في الرضا عن اللهِ عزَّ وجلَّ)[٤] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ : (لأنْ ألحسَ جمرةً أحرقَتْ ما أحرقَتْ ، وأبقتْ ما أبقتْ . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أقولَ لشيءٍ كانَ : ليتَهُ لمْ يكنْ ، أوْ لشيءٍ لمْ يكنْ : ليتَهُ كانَ)[٥] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٦٩) من حديثه رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٤٠) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٠٩) عن الحسن البصري .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٣/ ١٣٦) ضمن خبر له .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٢) من زيادات نعيم بن حماد .

ونظرَ رجلٌ إلىٰ قرحةٍ في رجْلِ محمدِ بن واسعٍ فقالَ : إنّي لأرحمُكَ مِنْ هـٰذهِ القرحةِ ، فقالَ : إنّي لأشكرُها منذُ خرجَتْ إذْ لمْ تخرجْ في عيني ![1] .

ورُويَ في الإسرائيلياتِ أنَّ عابداً عبدَ اللهَ تعالىٰ دهراً طويلاً ، فرأىٰ في المنامِ : فلانةُ الراعيةُ رفيقتُكَ في الجنةِ ، فسألَ عنها إلىٰ أنْ وجدَها ، فاستضافَها ثلاثاً لينظرَ إلىٰ عملِها ، فكانَ يبيتُ قائماً وتبيتُ نائمةً ، ويظلُّ صائماً وتظلُّ مفطرةً ، فقالَ : أما لكِ عملٌ غيرَ ما رأيتُ ؟ فقالَتْ : ما هوَ ـ واللهِ ـ إلا ما رأيتَ ، لا أعرفُ غيرَهُ ، فلمْ يزلْ يقولُ : تذكَّري حتَّىٰ قالَتْ : خُصيلةٌ واحدةٌ هيَ فيَّ ؛ إنْ كنتُ في شدَّةٍ . . لمْ أتمنَّ أنْ أكونَ في رخاءٍ ، وإنْ كنتُ في مرضٍ . . لمْ أتمنَّ أنْ أكونَ في صحَّةٍ ، وإنْ كنتُ في الشمسِ . . لمْ أتمنَّ أنْ أكونَ في الظلِّ ، فوضعَ العابدُ يدَهُ علىٰ رأسِهِ وقالَ : أهـٰذهِ خُصيلةٌ ؟! هـٰذهِ ـ واللهِ ـ خصلةٌ عظيمةٌ يعجزُ عنها العبَّادُ[2] .

وعنْ بعضِ السلفِ : (أنَّ اللهَ تعالىٰ إذا قضىٰ في السماءِ قضاءً أحبَّ مِنْ أهلِ الأرضِ أنْ يرضَوا بقضائِهِ)[3] .

وقالَ أبو الدرداءِ : (ذروةُ الإيمانِ الصبرُ للحكمِ ، والرضا بالقدرِ)[4] .

---

(١) رواه أبونعيم في « الحلية » (٢/ ٣٥٢) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٣٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٩٣) .

(٣) كذا في « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٥٤) ، وفي « القوت » (٢/ ٣٩) : (وقد روينا عن ابن مسعود : من رضي بما ينزل من السماء إلى الأرض . . غفر له) .

(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٣٩) ، ورواه مع زيادة ابنُ المبارك في « الزهد » (١٢٣) من زيادات نعيم بن حماد .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما أبالي على أيِّ حالٍ أصبحتُ وأمسيتُ مِنْ شدَّةٍ أوْ رخاءٍ)[1] .

وقالَ الثوريُّ يوماً عندَ رابعةَ : اللهمَّ ؛ ارضَ عنَّا ، فقالتْ : أما تستحي مِنَ اللهِ أنْ تسألَهُ الرضا وأنتَ عنهُ غيرُ راضٍ ؟! فقالَ : أستغفرُ اللهَ ، فقالَ جعفرُ بنُ سليمانَ الضبعيُّ : فمتىٰ يكونُ العبدُ راضياً عنِ اللهِ تعالى ؟ قالتْ : إذا كانَ سرورُهُ بالمصيبةِ مثلَ سرورِهِ بالنعمةِ[2] .

وكانَ الفضيلُ يقولُ : (إذا استوىٰ عندَهُ المنعُ والعطاءُ . . فقدْ رضيَ عنِ اللهِ تعالىٰ)[3] .

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواري : قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مِنْ كرمِهِ قدْ رضيَ مِنْ عبيدِهِ بما رضيَ العبيدُ مِنْ مواليهِمْ ، قلتُ : وكيفَ ذاكَ ؟ قالَ : أليسَ مرادُ العبدِ مِنَ الخلقِ أنْ يرضىٰ عنهُ مولاهُ ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : فإنَّ محبةَ اللهِ مِنْ عبيدِهِ أنْ يرضَوا عنهُ[4] .

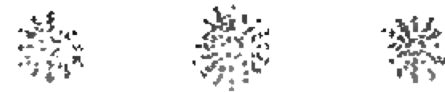
وقالَ سهلٌ : (حظُّ العبيدِ مِنَ اليقينِ علىٰ قدْرِ حظِّهِمْ مِنَ الرضا ،

---

(١) الرعاية (ص ٢٦١) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٣٠٤) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٤٠) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٤٠) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٤٠) .

وحظُّهُمْ مِنَ الرضا علىٰ قدْرِ عيشِهِمْ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ)[1] .

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بحكمِهِ وجلالِهِ جعلَ الرَّوْحَ والفرحَ في الرضا واليقينِ ، وجعلَ الغمَّ والحزنَ في الشكِّ والسخطِ »[2] .



---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤١) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٢١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١١٦) بنحوه ، ولفظ المصنف في « القوت » (٢/ ٤١) .

بيان حقيقة الرّضا وتصوّره فيما يخالف الهوىٰ

اعلمْ : أنَّ مَنْ قالَ : (ليسَ فيما يخالفُ الهوىٰ وأنواعَ البلاءِ إلا الصبرُ ، فأمَّا الرضا . . فلا يُتصوَّرُ) . . فإنَّما أُتِيَ مِنْ ناحيةِ إنكارِ المحبَّةِ ، فأمَّا إذا ثبتَ تصوُّرُ الحبِّ للهِ تعالىٰ ، واستغراقِ الهمِّ بهِ . . فلا يخفىٰ أنَّ الحبَّ يُورثُ الرضا بأفعالِ الحبيبِ ، ويكونُ ذلكَ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنْ يبطلَ الإحساسُ بالألمِ ، حتَّىٰ يجري عليهِ المؤلمُ ولا يحسُّ ، وتصيبُهُ جراحةٌ ولا يدركُ ألمَها ، ومثالُهُ : الرجلُ المحاربُ ؛ فإنَّهُ في حالِ غضبِهِ أوْ حالِ خوفِهِ قدْ تصيبُهُ جراحةٌ وهوَ لا يحسُّ بها ، حتَّىٰ إذا رأى الدمَ . . استدلَّ بهِ على الجراحةِ ، بلِ الذي يغدو في شغلٍ قريبٍ قدْ تصيبُهُ شوكةٌ في قدمِهِ ولا يحسُّ بألمِ ذلكَ ؛ لشغلِ قلبِهِ ، بلِ الذي يُحجَمُ أوْ يُحلقُ رأسُهُ بحديدةٍ كالَّةٍ يتألَّمُ بها ؛ فإنْ كانَ مشغولَ القلبِ بمهمٍّ مِنْ مهمَّاتِهِ . . فرغَ المزيِّنُ والحجَّامُ وهوَ لا يشعرُ بهِ ، وكلُّ ذلكَ لأنَّ القلبَ إذا صارَ مستغرقاً بأمرٍ مِنَ الأمورِ مستوفىً بهِ . . لمْ يدركْ ما عداهُ ، فكذلكَ العاشقُ المستغرقُ الهمِّ بمشاهدةِ معشوقِهِ أوْ بحبِّهِ قدْ يصيبُهُ ما كانَ يتألَّمُ بهِ أوْ يغتمُّ لهُ لولا عشقُهُ ، ثمَّ لا يدركُ غمَّهُ وألمَهُ لفرطِ استيلاءِ الحبِّ علىٰ قلبِهِ ، هٰذا إذا أصابَهُ مِنْ غيرِ حبيبِهِ ، فكيفَ إذا أصابَهُ مِنْ حبيبِهِ ؟!

وشغلُ القلبِ بالحبِّ والعشقِ مِنْ أعظمِ الشواغلِ ، وإذا تُصوِّرَ هٰذا في

ألمٍ يسيرٍ بسببِ حبٍّ خفيفٍ . . تُصوِّرَ في الألمِ العظيمِ بالحبِّ العظيمِ ؛ فإنَّ الحبَّ أيضاً يُتصوَّرُ تضاعفُهُ في القوَّةِ كما يُتصوَّرُ تضاعفُ الألمِ ، وكما يقوىٰ حبُّ الصورِ الجميلةِ المدركةِ بحاسَّةِ البصرِ . . فكذا يقوىٰ حبُّ الصورِ الجميلةِ الباطنةِ المدركةِ بنورِ البصيرةِ وجمالُ الحضرةِ الربوبيَّةِ وجلالُها لا يُقاسُ بهِ جمالٌ ولا جلالٌ ، فمَنْ ينكشفُ لهُ شيءٌ منهُ . . فقدْ يبهرُهُ بحيثُ يدهشُ ويُغشىٰ عليهِ ، فلا يحسُّ بما يجري عليهِ ، فقدْ رُوِيَ أنَّ امرأةَ فتحٍ الموصليِّ عثرَتْ فانقطعَ ظفرُها ، فضحكَتْ ، فقيلَ لها : أما تجدينَ الوجعَ ؟ فقالَتْ : إنَّ لذَّةَ ثوابِهِ أزالَتْ عنْ قلبي مرارةَ وجعِهِ[1] .

وكانَ سَهلٌ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ به عِلَّةٌ يعالجُ غيرَهُ منها ولا يعالجُ نفسَهُ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ : فقالَ : يا دُوْستُ ؛ ضربُ الحبيبِ لا يوجعُ[2] .

وأمَّا الوجهُ الثاني : فهوَ أنْ يحسَّ بهِ ، ويدركَ ألمَهُ ، ولكنْ يكونُ راضياً بهِ ، بلْ راغباً فيهِ ، مريداً لهُ : أعني : بعقلِهِ ، وإنْ كانَ كارهاً لهُ بطبعِهِ ، كالذي يلتمسُ مِنَ الفصَّادِ الفصدَ والحجامةَ ؛ فإنَّهُ يدركُ ألمَ ذلكَ ، إلا أنَّهُ راضٍ بهِ وراغبٌ فيهِ ، ومتقلِّدٌ مِنَ الفصَّادِ منَّةً بفعلِهِ .

فهـٰذا حالُ الراضي بما يجري عليهِ مِنَ الألمِ ، وكذلكَ كلُّ مَنْ يسافرُ في طلبِ الربحِ يدركُ مشقَّةَ السفرِ ، ولكنْ حبُّهُ لثمرةِ سفرِهِ طيَّبَ عندَهُ مشقَّةَ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥١٩) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٦٧) ، ودوست : حبيب ، لفظة فارسية تقدم استخدامها .

السفرِ ، وجعلَهُ راضياً بها ، ومهما أصابَهُ بليَّةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ وكانَ لهُ يقينٌ بأنَّ ثوابَهُ الذي ادُّخرَ لهُ فوقَ ما فاتَهُ . . رضيَ بهِ ، ورغبَ فيهِ وأحبَّهُ ، وشكرَ اللهَ تعالىٰ عليهِ ، هـٰذا إنْ كانَ يلاحظُ الثوابَ والإحسانَ الذي يجازىٰ بهِ عليهِ .

ويجوزُ أنْ يغلبَ الحبُّ بحيثُ يكونُ حظُّ المحبِّ في مرادِ حبيبهِ ورضاهُ ، لا لمعنىً آخرَ وراءَهُ ، فيكونُ مرادُ حبيبهِ ورضاهُ محبوباً عندَهُ ومطلوباً ، وكلُّ ذلكَ موجودٌ في المشاهداتِ في حبِّ الخلقِ ، وقدْ تواصفَها المتواصفونَ في نظمِهِمْ ونثرِهِمْ ، ولا معنىٰ لهُ إلا ملاحظةُ جمالِ الصورةِ الظاهرةِ بالبصرِ .

فإنْ نظرَ إلى الجمالِ . . فما هوَ إلا جلدٌ علىٰ لحمٍ ودمٍ ، مشحونٌ بالأقذارِ والأخباثِ ، بدايتُهُ مِنْ نطفةٍ مذرةٍ ، ونهايتُهُ جيفةٌ قذرةٌ ، وهوَ فيما بينَ ذلكَ يحملُ العذرةَ .

وإنْ نظرَ إلى المدركِ للجمالِ . . فهيَ العينُ الخسيسةُ التي تغلطُ فيما ترىٰ كثيراً ، فترى الصغيرَ كبيراً ، والكبيرَ صغيراً ، والبعيدَ قريباً ، والقبيحَ جميلاً .

فإذا تُصوِّرَ استيلاءُ هـٰذا الحبِّ . . فمِنْ أينَ يستحيلُ ذلكَ في حبِّ الجمالِ الأزليِّ الأبديِّ ، الذي لا منتهىٰ لكمالِهِ المدرَكِ بعينِ البصيرةِ التي لا يعتريها الغلطُ ولا يدورُ بها الموتُ ، بلْ تبقىٰ بعدَ الموتِ حيَّةً عندَ اللهِ ، فرحةً برزقِ اللهِ تعالىٰ ، مستفيدةً بالموتِ مزيدَ تنبُّهٍ واستكشافٍ ؟!

فهـٰذا أمرٌ واضحٌ مِنْ حيثُ النظرُ بعينِ الاعتبارِ ، ويشهدُ لذلكَ الوجودُ وحكاياتُ أحوالِ المحبِّينَ وأقوالِهِمْ .

فقدْ قالَ شقيقٌ البلخيُّ : (مَنْ يرىٰ ثوابَ الشدَّةِ . . لا يشتهي المخرجَ منها) .

وقالَ الجنيدُ : سألتُ سريّاً السقطيَّ : هلْ يجدُ المحبُّ ألمَ البلاءِ ؟ قالَ : لا ، قلتُ : وإنْ ضُربَ بالسيفِ ، قالَ : نعمْ ، وإنْ ضُربَ بالسيفِ سبعينَ ضربةً ، ضربةً علىٰ ضربةٍ .

وقالَ بعضُهُمْ : (أحببتُ كلَّ شيءٍ بحبِّهِ ، حتَّىٰ لوْ أحبَّ النارَ . . أحببتُ دخولَ النارِ) .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : مررتُ برجلٍ وقدْ ضُرِبَ ألفَ سوطٍ في شرقيَّةِ بغدادَ ولمْ يتكلَّمْ ، ثمَّ حُمِلَ إلى الحبسِ ، فتبعتُهُ ، فقلتُ لهُ : لِمَ ضُربتَ ؟ فقالَ : لأنِّي عاشقٌ ، فقلتُ لهُ : ولِمَ سكتَّ ؟ قالَ : لأنَّ معشوقي كانَ بحذائي ينظرُ إليَّ ، فقلتُ : فلو نظرتَ إلى المعشوقِ الأكبرِ ! قالَ : فزعقَ زعقةً خرَّ ميّتاً .

وقالَ يحيى بن معاذٍ الرازيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إذا نظرَ أهلُ الجنَّةِ إلى اللهِ تعالىٰ . . ذهبَتْ عيونُهُمْ في قلوبِهِمْ مِنْ لذَّةِ النظرِ إلى اللهِ تعالىٰ ثمانَ مئةِ سنةٍ لا ترجعُ إليهِمْ ، فما ظنُّكَ بقلوبٍ وقعَتْ بينَ جمالِهِ وجلالِهِ ، إذا لاحظَتْ جلالَهُ . . هابَتْ ، وإذا لاحظَتْ جمالَهُ . . تاهَتْ) .

وقالَ بشرٌ : قصدتُ عبَّادانَ في بدايتي ؛ فإذا أنا برجلٍ أعمىٰ ،

مجذومٍ ، مجنونٍ قدْ صُرِعَ ، والنملُ يأكلُ لحمَهُ ، فرفعتُ رأسَهُ فوضعتُهُ في حجري وأنا أردِّدُ الكلامَ ، فلمَّا أفاقَ . . قالَ : مَنْ هٰذا الفضوليُّ الذي يدخلُ بيني وبينَ ربِّي ؟! لوْ قطَّعَني إرْباً إرْباً . . ما ازددتُ لهُ إلا حبّاً ، قالَ بشرٌ : فما رأيتُ بعدَ ذلكَ نعمةً بينَ عبدٍ وبينَ ربِّهِ فأنكرتُها(١) .

وقالَ أبو عمرٍو محمدُ بنُ الأشعثِ : (إنَّ أهلَ مصرَ مكثوا أربعةَ أشهرٍ لمْ يكنْ لهُمْ غذاءٌ إلا النظرَ إلىٰ وجهِ يوسفَ الصدِّيقِ عليهِ السلامُ ، كانوا إذا جاعوا . . نظروا إلىٰ وجهِهِ ، فشغلَهُمْ جمالُهُ عنِ الإحساسِ بألمِ الجوعِ) ، بلْ في القرآنِ ما هوَ أبلغُ مِنْ ذلكَ ، وهوَ قطعُ النسوةِ أيديَهُنَّ لاستهتارِهِنَّ بملاحظةِ جمالِهِ ، حتَّىٰ ما أحسسنَ بذلكَ .

وقالَ سعيدُ بنُ أحمدَ : رأيتُ بالبصرةِ في خانِ عطاءِ بنِ مسلمٍ شابّاً وفي يدِهِ مديةٌ وهوَ ينادي بأعلىٰ صوتِهِ والناسُ حولَهُ وهوَ يقولُ(٢) : [من الكامل]

يَوْمُ ٱلْفِراقِ مِنَ القِيامَةِ أَطْوَلُ ... وَٱلْمَوْتُ مِنْ أَلَمِ ٱلتَّفَرُّقِ أَجْمَلُ
قالُوا ٱلرَّحِيلُ فَقُلْتُ لَسْتُ بِراحِلٍ ... لَٰكِنَّ مُهْجَتِيَ ٱلَّتِي تَتَرَحَّلُ

ثمَّ بقرَ بالمديةِ بطنَهُ وخرَّ ميتاً ، فسألتُ عنهُ وعنْ أمرِهِ ، فقيلَ لي : إنَّهُ كانَ يهوىٰ فتىً لبعضِ الملوكِ حُجِبَ عنهُ يوماً واحداً(٣) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٣) .
(٢) انظر « تزيين الأسواق » (ص ١٣٨) .
(٣) أورده بلاغاً ابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (١١٢٥) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٦٥٨) : (رواه أبو محمد السراج في « مصارع العشاق ») .

ويُروىٰ أنَّ يونسَ عليهِ السلامُ قالَ لجبريلَ : دلَّني علىٰ أعبدِ أهلِ الأرضِ ، فدلَّهُ علىٰ رجلٍ قدْ قطعَ الجذامُ يديهِ ورجليهِ وذهبَ ببصرِهِ ، فسمعَهُ وهوَ يقولُ : إلـٰهي ؛ متعتَني بهِما ما شئتَ أنتَ ، وسلبتَني ما شئتَ أنتَ ، وأبقيتَ لي فيكَ الأملَ ، يا برُّ يا وصولُ[1] .

ويُروىٰ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما أنَّهُ اشتكىٰ لهُ ابنٌ ، فاشتدَّ وجدُهُ عليهِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُ القومِ : لقدْ خشينا علىٰ هـٰذا الشيخِ إنْ حدثَ بهـٰذا الغلامِ حدثٌ ، فماتَ الغلامُ ، فخرجَ ابنُ عمرَ في جنازتِهِ وما رجلٌ أبدىٰ سروراً منهُ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ ابنُ عمرَ : إنَّما كانَ حزني رحمةً لهُ ، فلمَّا وقعَ أمرُ اللهِ . . رضينا بهِ[2] .

وقالَ مسروقٌ : كانَ رجلٌ بالباديةِ لهُ كلبٌ وحمارٌ وديكٌ ، فالديكُ يوقظُهُمْ للصلاةِ ، والحمارُ ينقلونَ عليهِ الماءَ ويحملُ لهُمْ خباءَهُمْ ، والكلبُ يحرسُهُمْ ، قالَ : فجاءَ الثعلبُ فأخذَ الديكَ ، فحزنوا لهُ ، وكانَ الرجلُ صالحاً ، فقالَ : عسىٰ أن يكونَ خيراً ، ثمَّ جاءَ ذئبٌ فخرقَ بطنَ الحمارِ فقتلَهُ ، فحزنوا عليهِ ، فقالَ الرجلُ : عسىٰ أن يكونَ خيراً ، ثمَّ أُصيبَ الكلبُ بعدَ ذلكَ ، فقالَ : عسىٰ أن يكونَ خيراً ، ثمَّ أصبحوا ذاتَ يومٍ ، فنظروا فإذا قدْ سُبِيَ مَنْ حولَهُمْ وبقوا هُمْ ، قالَ : وإنَّما أُخذوا أولئكَ لما كانَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٢٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٩٨) .

عندَهُمْ مِنْ أصواتِ الكلابِ والحميرِ والديكةِ ، وكانَتِ الخيرةُ لهؤلاءِ في هلاكِ هـٰذهِ الحيواناتِ كما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ[1] .

فمَنْ عرفَ خفيَّ لطفِ اللهِ تعالىٰ . . رضيَ بفعلِهِ علىٰ كلِّ حالٍ .

ويُروىٰ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ مرَّ برجلٍ أعمىٰ أبرصَ مقعدٍ ، مضروبِ الجنبينِ بفالجٍ ، وقدْ تناثرَ لحمُهُ مِنَ الجذامِ ، وهوَ يقولُ : الحمدُ للهِ الذي عافاني ممَّا ابتلىٰ بهِ كثيراً مِنْ خلقِهِ ، فقالَ لهُ عيسىٰ : يا هـٰذا ؛ أيُّ شيءٍ مِنَ البلاءِ أراهُ مصروفاً عنكَ ؟ فقالَ : يا روحَ اللهِ ؛ أنا خيرٌ ممَّنْ لمْ يجعلِ اللهُ في قلبِهِ ما جعلَ في قلبي مِنْ معرفتِهِ ، فقالَ لهُ : صدقتَ ، هاتِ يدكَ ، فناولَهُ يدَهُ ، فإذا هوَ أحسنُ الناسِ وجهاً ، وأفضلُهُمْ هيئةً ، وقدْ أذهبَ اللهُ عنهُ ما كانَ بهِ ، فصحبَ عيسىٰ عليهِ السلامُ وتعبَّدَ معَهُ .

وقطعَ عروةُ بنُ الزبيرِ رجْلَهُ مِنْ ركبتِهِ مِنْ أكلةٍ خرجَتْ بها ، ثمَّ قالَ : الحمدُ للهِ الذي أخذَ منّي واحدةً ، وايمُكَ ؛ لئنْ كنتَ أخذتَ . . لقدْ أبقيتَ ، ولئنْ كنتَ ابتليتَ . . لقدْ عافيتَ ، ثمَّ لمْ يدعْ وردَهُ تلكَ الليلةَ[2] .

وكانَ ابنُ مسعودٍ يقولُ : (الفقرُ والغنىٰ مطيتانِ ، ما أبالي أيَّتَهُما ركبتُ ، إنْ كانَ الفقرُ . . فإنَّ فيهِ الصبرَ ، وإنْ كانَ الغنىٰ . . فإنَّ فيهِ البذلَ)[3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٢٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٣٨، ١٣٩)، وقوله : (وايمك) قسمٌ .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٤٠) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (قدْ نلتُ مِنْ كلِّ مقامٍ حالاً إلا الرضا ، فما لي منهُ إلا مشامُّ الريحِ ، وعلىٰ ذلكَ لوْ أدخلَ الخلائقَ كلَّهُمُ الجنةَ ، وأدخلَني النارَ . . كنتُ بذلكَ راضياً)[1] .

وقيلَ لعارفٍ آخرَ : هلْ نلتَ غايةَ الرضا عنهُ ؟ فقالَ : أمَّا الغايةُ . . فلا ، ولكنْ مقامٌ مِنَ الرضا قدْ نلتُهُ ، لوْ جعلَني جسراً علىٰ جهنَّمَ يعبرُ الخلائقُ عليَّ إلى الجنَّةِ ، ثمَّ ملأَ بي جهنَّمَ تحلَّةً لقسمِهِ وبدلاً مِنْ خليقتِهِ . . لأحببتُ ذلكَ مِنْ حكمِهِ ، ورضيتُ بهِ مِنْ قسمِهِ[2] .

وهـٰذا كلامُ مَنْ علمَ أنَّ الحبَّ قدِ استغرقَ همَّهُ حتَّىٰ منعَهُ الإحساسَ بألمِ النارِ ، وإنْ بقيَ إحساسٌ فيغمرُهُ ما يحصلُ مِنْ لذَّتِهِ في استشعارِهِ حصولَ رضا محبوبِهِ بإلقائِهِ إيَّاهُ في النارِ ، واستيلاءُ هـٰذهِ الحالةِ غيرُ محالٍ في نفسِهِ وإنْ كانَ بعيداً مِنْ أحوالِنا الضعيفةِ ، ولكنْ لا ينبغي أن يستنكرَ الضعيفُ المحرومُ أحوالَ الأقوياءِ ويظنَّ أنَّ ما هوَ عاجزٌ عنهُ يعجزُ عنهُ الأولياءُ .

وقالَ الروذباريُّ : قلتُ لأبي عبدِ اللهِ بنِ الجلاءِ الدمشقيِّ : قولُ فلانٍ : (وددتُ أنَّ جسدي قُرِضَ بالمقاريضِ وأنَّ هـٰذا الخلقَ أطاعوهُ) ما معناهُ ؟ فقالَ : يا هـٰذا ، إنْ كانَ هـٰذا من طريقِ الإشفاقِ والنصحِ للخلقِ . .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٢) عن بعض العارفين ، والمشهور عن أبي يزيد رضي الله عنه أنه قال مثل هـٰذا في التوكل .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٤٢) .

فأعرفُ ، وإنْ كانَ مِنْ طريقِ التعظيمِ والإجلالِ . . فلا أعرفُ ، قالَ : ثمَّ غُشِيَ عليهِ[1] .

وقدْ كانَ عمرانُ بنُ الحصينِ قدِ استسقىٰ بطنُهُ ، فبقي ملقىً علىٰ ظهرِهِ ثلاثينَ سنةً لا يقومُ ولا يقعدُ ، قدْ نُقِبَ لهُ في سريرٍ مِنْ جريدٍ كانَ عليهِ موضعٌ لقضاءِ حاجتِهِ ، فدخلَ عليهِ مطرِّفٌ وأخوهُ العلاءُ[2] ، فجعلَ يبكي لما يرىٰ مِنْ حالِهِ ، فقالَ : لِمَ تبكي ؟ قالَ : لأنِّي أراكَ علىٰ هـٰذهِ الحالةِ العظيمةِ ، قالَ : لا تبكِ ؛ فإنَّ أحبَّهُ إلى اللهِ تعالىٰ أحبُّهُ إليَّ ، ثمَّ قالَ : أحدِّثُكَ شيئاً لعلَّ اللهَ أنْ ينفعَكَ بهِ واكتمْ عليَّ حتَّىٰ أموتَ ، إنَّ الملائكةَ تزورُني فآنسُ بها ، وتسلِّمُ عليَّ فأسمعُ تسليمَها[3] .

فأعلمَ بذلكَ أنَّ هـٰذا البلاءَ ليسَ بعقوبةٍ ؛ إذْ هوَ سببُ هـٰذه النعمةِ الجسيمةِ ، فمَنْ يشاهدُ هـٰذا في بلائهِ كيفَ لا يكونُ راضياً بهِ ؟!

قالَ : ودخلنا علىٰ سويدِ بنِ مثعبةَ نعودُهُ ، فرأينا ثوباً ملقىً ، فما ظنَنَّا

---

(1) قوت القلوب (٢/ ٤٢) ، والقول المذكور لزهير بن نعيم البابي ، رواه له الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٨٠) ، والضمير في (أطاعوه) عائد لله سبحانه وتعالىٰ ، فهو بقوله هـٰذا يتفدّىٰ .

(2) عند الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٦٦٠) : (وفي « القوت » : « أو أخوه أبو العلاء » ، والصواب أبو العلاء ، وهو يزيد بن عبد الله الشخير العامري البصري) ، وفي مطبوعة « القوت » : (أو أخوه العلاء) ، واتفقت النسخ على المثبت .

(3) قوت القلوب (٢/ ٤٣) ، ومختصراً رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٤٢٨) ، والتفسير الآتي عنده .

أنَّ تحتهُ شيئاً حتَّىٰ كُشِفَ ، فقالَتْ لهُ امرأتُهُ : أهلي فداؤُكَ ، ما نطعمُكَ ؟ ما نسقيكَ ؟ فقالَ : طالَتِ الضجعةُ ، ودبرَتِ الحراقيفُ ، وأصبحتُ نضواً لا أطعمُ طعاماً ولا أسيغُ شراباً منذُ كذا ـ فذكرَ أياماً ـ وما يسرُّني أنِّي نقصتُ مِنْ هٰذا قلامةَ ظفرٍ (١) .

ولمَّا قدمَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ إلىٰ مكةَ وكانَ قدْ كُفَّ بصرُهُ . . جاءَهُ الناسُ يُهرعونَ إليهِ ، كلُّ واحدٍ يسألُهُ أنْ يدعوَ لهُ ، فيدعو لهٰذا ولهٰذا ، وكانَ مجابَ الدعوةِ ، قالَ عبدُ اللهِ بنُ السائبِ : فأتيتُهُ وأنا غلامٌ ، فتعرَّفتُ إليهِ فعرفَني وقالَ : أنتَ قارىءُ أهلِ مكةَ ؟ قلتُ : نعمْ ، فذكرَ قصَّةً قالَ في آخرِها : فقلتُ لهُ : يا عمِّ ؛ أنتَ تدعو للناسِ ، فلوْ دعوتَ لنفسِكَ فردَّ اللهُ عليكَ بصرَكَ ، فتبسَّمَ وقالَ : يا بنيَّ ؛ قضاءُ اللهِ سبحانَهُ عندي أحسنُ مِنْ بصري (٢) .

وضاعَ لبعضِ الصوفيَّةِ ولدٌ صغيرٌ ثلاثةَ أيامٍ لمْ يُعرفْ لهُ خبرٌ ، فقيلَ لهُ : لوْ سألتَ اللهَ تعالىٰ أنْ يردَّهُ عليكَ ، فقالَ : اعتراضي عليهِ فيما قضىٰ أشدُّ عليَّ مِنْ ذهابِ ولدي (٣) .

وعنْ بعضِ العبَّادِ أنَّهُ قالَ : إني أذنبتُ ذنباً عظيماً ، فأنا أبكي عليهِ منذُ

---

(١) كذا في « القوت » (٤٣/٢) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٦٣) ، **والحراقيف** : جمع حَرْقَفَة ، رأس الوَرِك .

(٢) قوت القلوب (٤٣/٢) .

(٣) قوت القلوب (٤٣/٢) .

ستينَ سنةً ، وكانَ قدِ اجتهدَ في العبادةِ لأجلِ التوبةِ مِنْ ذلكَ الذنبِ ، فقيلَ لهُ : وما هوَ ؟ قالَ : قلتُ مرَّةً لشيءٍ كانَ : ليتَهُ لمْ يكنْ(١) .

وقالَ بعضُ السلفِ : لوْ قُرِضَ جسمي بالمقاريضِ . . لكانَ أحبَّ إليَّ مِنْ أنْ أقولَ لشيءٍ قضاهُ اللهُ سبحانَهُ : ليتَهُ لمْ يقضِهِ(٢) .

وقيلَ لعبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ : هـٰهنا رجلٌ قدْ تعبَّدَ خمسينَ سنةً ، فقصدَهُ ، فقالَ لهُ : يا حبيبي ؛ أخبرْني عنكَ : هلْ قنعتَ بهِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فهلْ أنستَ بهِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فهلْ رضيتَ عنهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فإنَّما مزيدُكَ منهُ الصومُ والصلاةُ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : لولا أنِّي أستحيي منكَ . . لأخبرتُكَ بأنَّ معاملتَكَ خمسينَ سنةً مدخولةٌ(٢) .

ومعناهُ : أنَّكَ لمْ يُفتحْ لكَ بابُ القلبِ فترقىٰ إلىٰ درجاتِ القربِ بأعمالِ القلبِ ، وإنَّما أنتَ تُعدُّ في طبقةِ أصحابِ اليمينِ ؛ لأنَّ مزيدَكَ منهُ في أعمالِ الجوارحِ التي هيَ مزيدُ أهلِ العمومِ .

ودخلَ جماعةٌ مِنَ الناسِ على الشبليِّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ في مارستانٍ قدْ حُبسَ فيهِ وقدْ جمعَ بينَ يديهِ حجارةً ، فقالَ : مَنْ أنتمْ ؟ فقالوا : محبُّوكَ ، فأقبلَ عليهِم يرميهِمْ بالحجارةِ ، فتهاربوا ، فقالَ : ما بالُكُمُ ادعيتُمْ محبَّتي ؟ إنْ صدقتُمْ . . فاصبروا علىٰ بلائي(٣) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٣) ، وفيه (ثلاثين) بدل (ستين) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٤٣) .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص٥٢٥) .

وللشبليِّ رحمَهُ اللهُ(١) : [من البسيط]

إنَّ ٱلْمَحَبَّةَ لِلرَّحْمـٰنِ أَسْكَرَنِي وَهَلْ رَأَيْتَ مُحِبّاً غَيْرَ سَكْرانِ

وقالَ بعضُ عبَّادِ أهلِ الشامِ : (كلُّكُمْ يلقى اللهَ عزَّ وجلَّ مصدِّقاً ولعلَّهُ قدْ كذبَهُ ، وذلكَ أنَّ أحدَكُمْ لوْ كانَ لهُ إصبعٌ مِنْ ذهبٍ ظلَّ يشيرُ بها ، ولوْ كانَ بها شللٌ ظلَّ يواريها)(٢) ؛ يعني بذلكَ : أنَّ الذهبَ مذمومٌ عندَ اللهِ والناسُ يتفاخرونَ بهِ ، والبلاءُ زينةُ أهلِ الآخرةِ وهمْ يستنكفونَ منهُ .

وقيلَ : إنَّهُ وقعَ الحريقُ في السوقِ ، فقيلَ للسريِّ : احترقَ السوقُ وما احترقَ دكانُكَ ، فقالَ : الحمدُ للهِ ، ثمَّ قالَ : كيفَ قلتُ ؟! الحمدُ للهِ على سلامتي دونَ المسلمينَ !! فتابَ مِنَ التجارةِ ، وتركَ الحانوتَ بقيَّةَ عمرِهِ ؛ توبةً واستغفاراً مِنْ قولِهِ : الحمدُ للهِ(٣) .

فإذا تأمَّلتَ هـٰذهِ الحكاياتِ . . عرفتَ قطعاً أنَّ الرضا بما يخالفُ الهوىٰ ليسَ مستحيلاً ، بلْ هوَ مقامٌ عظيمٌ مِنْ مقاماتِ أهلِ الدينِ ، ومهما كانَ ذلكَ ممكناً في حبِّ الخلقِ وحظوظِهِمْ . . كانَ ممكناً في حبِّ الخالقِ تعالىٰ وحظوظِ الآخرةِ قطعاً ، **وإمكانُهُ مِنْ وجهينِ** :

أحدُهُما : الرضا بالألمِ لما يُتوقَّعُ مِنَ الثوابِ الموجودِ ؛ كالرضا

---

(١) ديوانه (ص ١٢٩) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٤٤) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٤٦) ، وقال : (وبلغني عنه أنه كان يقول : قلت كلمة فأنا أستغفر الله منها ثلاثين سنة ؛ يعني قوله : الحمد لله) .

بالفصدِ ، والحجامةِ ، وشرب الدواءِ انتظاراً للشفاءِ .

والثاني : الرضا بهِ لا لحظٍّ وراءَهُ ، بلْ لكونهِ مرادَ المحبوبِ ورضاً لهُ ، فقدْ يغلبُ الحبُّ بحيثُ ينغمرُ مرادُ المحبِّ في مرادِ المحبوبِ ، فيكونُ ألذُّ الأشياءِ عندَهُ سرورَ قلبِ محبوبِهِ ورضاهُ ونفوذَ إرادتِهِ ، ولوْ في هلاكِ روحِهِ ؛ كما قيلَ[1] : [من البسيط]

.... فَما لِجُرْحٍ إذا أَرْضاكُمُ أَلَمُ

وهٰذا ممكنٌ معَ الإحساسِ بالألمِ .

وقدْ يستولي الحبُّ بحيثُ يدهشُ عنْ إدراكِ الألمِ ، فالقياسُ والتجربةُ والمشاهدةُ دالَّةٌ علىٰ وجودِهِ ، فلا ينبغي أنْ ينكرَهُ مَنْ فقدَهُ مِنْ نفسِهِ ، لأنَّهُ إنَّما فقدَهُ لفقدِ سببِهِ ، وهوَ فرطُ حبِّهِ ، ومَنْ لمْ يذقْ طعمَ الحبِّ . لم يعرفْ عجائبَهُ ، فللمحبِّينَ عجائبُ أعظمُ ممَّا وصفناهُ .

وقدْ رُوِيَ عنْ عمرِو بنِ الحارثِ الرافقي[2] قالَ : كنتُ في مجلسٍ بالرقَّةِ عندَ صديقٍ لي ،وكانَ معنا فتىً يتعشَّقُ جاريةً مغنِّيةً ، وكانَتْ معنا في المجلسِ ، فضربَتْ بالقضيبِ وغنَّتْ : [من مجزوء المتقارب]

عَلامَةُ ذُلِّ ٱلْهَوَىٰ عَلَى ٱلعاشِقِينَ ٱلْبُكا

---

(١) عجز بيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٣٧٠) ، وتمامه :

إن كان سركمُ ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكمُ ألم

(٢) منسوب إلى الرافقة ، مدينة جانب الرقة ، بناها المنصور وأتمها المهدي . « إتحاف » (٩/ ٦٦٢) .

وَلا سِيَّمــــا عــــاشِــــقٍ إِذا لَــــمْ يَجِــــدْ مُشْتَكَــــىٰ

فقالَ لها الفتىٰ : أحسنتِ واللهِ يا سيِّدتي ، أفتأذنينَ لي أن أموتَ ؟ فقالَتْ : مُتْ راشداً ، قالَ : فوضعَ رأسَهُ على الوسادةِ ، وأطبقَ فمَهُ ، وغمَّضَ عينيهِ ، فحرَّكناهُ فإذا هوَ ميتٌ[1] .

وقالَ الجنيدُ : رأيتُ رجلاً متعلِّقاً بكُمِّ صبيٍّ وهوَ يتضرَّعُ إليهِ ويظهرُ لهُ المحبَّةَ ، فالتفتَ إليهِ الصبيُّ وقالَ لهُ : إلىٰ متىٰ ذا النفاقُ الذي تظهرُ لي ؟ فقالَ : قدْ علمَ اللهُ أنِّي صادقٌ فيما أوردُهُ ، حتَّىٰ لوْ قلتَ لي : مُتْ . . لمتُّ ، فقالَ : إنْ كنتَ صادقاً . . فمُتْ : قالَ : فتنحَّى الرجلُ وغمَّضَ عينيهِ ، فوُجِدَ ميتاً[2] .

وقالَ سمنونٌ المحبُّ : كانَ في جيرانِنا رجلٌ ولهُ جاريةٌ يحبُّها غايةَ الحبِّ ، فاعتلَّتِ الجاريةُ ، فجلسَ الرجلُ ليصلحَ لها حَيْساً ، فبينا هوَ يحرِّكُ القدْرَ إذْ قالتِ الجاريةُ : آهِ ، قالَ : فدهشَ الرجلُ ، وسقطتِ الملعقةُ مِنْ يدهِ ، وجعلَ يحركُ ما في القدْرِ بيدِهِ حتَّىٰ تساقطَتْ أصابعُهُ ، فقالَتِ الجاريةُ : ما هٰذا ؟! قالَ الرجلُ : هٰذا موضعُ قولِكِ : آهِ[3] .

---

(١) رواه ابن الوشاء في « الموشىٰ » (ص٧٨) ضمن خبر عجيب ، فيه أنه مات مع الفتى القينةُ وابنة شيخ ، دفنوا بموضع واحد .

(٢) رواه السلمي في « المقدمة في التصوف » (ص٢٧) .

(٣) كذا عند السلمي في « المقدمة في التصوف » (ص ٢٤) ، ورواه ابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (٩٠٢) .

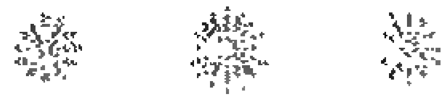
وحُكِيَ عنْ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ البغداديِّ قالَ : رأيتُ بالبصرةِ شابّاً على سطحٍ مرتفعٍ وقدْ أشرفَ على الناسِ وهوَ يقولُ : [من السريع]

مَنْ ماتَ عِشْقاً فَلْيَمُتْ هَكَذا ... لاَ خَيْرَ فِي عِشْقٍ بِلا مَوْتِ

ثمَّ رمىٰ بنفسِهِ إلى الأرضِ ، فحملوهُ ميتاً[1] .

فهٰذا وأمثالُهُ قدْ يصدقُ بهِ في حبِّ المخلوقِ ، والتصديقُ بهِ في حبِّ الخالقِ أولىٰ ؛ لأنَّ البصيرةَ الباطنةَ أصدقُ مِنَ البصرِ الظاهرِ ، وجمالَ الحضرةِ الربانيَّةِ أوفىٰ مِنْ كلِّ جمالٍ ، بلْ كلُّ جمالٍ في العالمِ فهوَ حسنةٌ مِنْ حسناتِ ذلكَ الجمالِ .

نعم ، الذي فقدَ البصرَ ينكرُ جمالَ الصورِ ، والذي فقدَ السمعَ ينكرُ لذَّةَ الألحانِ والنغماتِ الموزونةِ ؛ فالذي فقدَ القلبَ لا بدَّ وأنْ ينكرَ أيضاً هٰذهِ اللَّذاتِ التي لا مَظِنَّةَ لها سوى القلبِ .



(١) كذا عند السلمي في « المقدمة في التصوف » (ص ٢٥) ، ومختصراً عند القشيري في « الرسالة » (ص٥٢٧) .

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا، ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا

وكذلكَ كراهةُ المعاصي ، ومقتُ أهلِها ، ومقتُ أسبابِها ، والسعيُ في إزالتِها بالأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ لا يناقضُهُ أيضاً ، وقدْ غلطَ في ذلكَ بعضُ البطَّالينَ المغترِّينَ ، وزعموا أنَّ المعاصيَ والفجورَ والكفرَ مِنْ قضاءِ اللهِ تعالىٰ وقدرِهِ، فيجبُ الرضا بهِ، وهٰذا جهلٌ بالتأويلِ ، وغفلةٌ عنْ أسرارِ الشرعِ .

فأمَّا الدعاءُ :

فقدْ تُعبِّدنا بهِ ، وكثرةُ دعواتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وسائرِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ علىٰ ما نقلناهُ في كتابِ الدعواتِ . . تدلُّ عليهِ ، ولقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أعلى المقاماتِ مِنَ الرضا ، وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ علىٰ بعضِ عبادِهِ بقولِهِ : ﴿ يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ .

وأمَّا إنكارُ المعاصي وكراهتُها وعدمُ الرضا بها :

فقدْ تعبَّدَ اللهُ تعالىٰ بهِ عبادَهُ ، وذمَّهُمْ على الرضا بهِ فقالَ : ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وفي الخبرِ المشهورِ : « مَنْ شهدَ منكراً فرضيَ بهِ . . فكأنَّهُ قدْ فعلَهُ »[1] .

---

(١) رواه بنحوه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٧٨٥) ولفظه : « من شهد أمراً فكرهه . . كان كمن غاب عنه ، ومن غاب عن أمر فرضي به . . كان كمن شهده » .

وفي الحديثِ : « الدالُّ على الشرِّ .. كفاعلِهِ »(١) .

وعنِ ابن مسعودٍ : (إنَّ العبدَ ليغيبُ عنِ المنكرِ ويكونُ عليهِ مثلُ وزرِ صاحبِهِ ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : يبلغُهُ فيرضىٰ بهِ)(٢) .

وفي الخبرِ : « لوْ أنَّ عبداً قُتِلَ بالمشرقِ ورضيَ بقتلِهِ آخرُ بالمغربِ .. كانَ شريكاً في قتلِهِ »(٣) .

وقدْ أمرَ اللهُ تعالىٰ بالحسدِ والمنافسةِ في الخيراتِ وتوقِّي الشرورِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا حسدَ إلا في اثنتينِ : رجلٌ آتاهُ اللهُ حكمةً فهوَ يبثُّها في الناسِ ويعلِّمُها ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فسلَّطَهُ علىٰ هلكتِهِ في الحقِّ » ، وفي لفظٍ آخرَ : «ورجلٌ آتاهُ اللهُ القرآنَ فهوَ يقومُ بهِ آناءَ الليلِ والنهارِ ، فيقولُ الرجلُ : لوْ آتاني اللهُ مثلَ ما آتىٰ هـٰذا .. لفعلتُ مثلَ ما يفعلُ »(٤) .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/٤٦) ، ورواه أبو بكر الإسماعيلي في « معجم الشيوخ » (١١٨) من حديث أنس رضي الله عنه ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٣١٢١) من حديث عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما .

(٢) قوت القلوب (٢/٤٦) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/٤٦) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً بهـٰذا اللفظ ، ولابن عدي ـ في « الكامل » [٧/ ٢٣٠] ـ من حديث أبي هريرة : « من حضر معصية فكرهها .. فكأنما غاب عنها ، ومن غاب عنها وأحبها .. فكأنما حضرها » ، وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف) . « إتحاف » (٩/ ٦٦٤) .

(٤) كذا في « القوت » (٢/٤٩) بروايته ، وروى الحديث الأول منهما البخاري (٧٣) ، =

وأمّا بغضُ الكفّارِ والفجّارِ والإنكارُ عليهِمْ ومقتُهُمْ :

فما وردَ فيهِ مِنْ شواهدِ القرآنِ والأخبارِ لا يُحصىٰ ؛ مثلَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا ﴾ .

وفي الخبرِ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ أخذَ الميثاقَ علىٰ كلِّ مؤمنٍ أنْ يبغضَ كلَّ منافقٍ ، وعلىٰ كلِّ منافقٍ أنْ يبغضَ كلَّ مؤمنٍ)[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « المرءُ معَ مَنْ أحبَّ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ أحبَّ قوماً ووالاهُمْ . . حُشِرَ معَهُمْ يومَ القيامةِ »[3] .

= ومسلم (٨١٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وروى الثاني منهما البخاري (٧٢٣٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

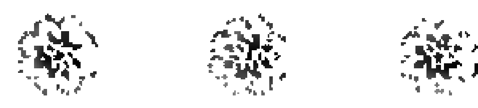
(١) كذا في « القوت » (٤٧/٢) حيث قال : (وروينا في خبر) ولم يذكر رفعه ، والمعنىٰ في الآيات قبله ، ومما ورد في هـٰذا المعنىٰ ما رواه مسلم (٧٨) عن علي رضي الله عنه قال : (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ؛ إنه لعهد النبي الأمي صلى الله عليه وسلم إليَّ ألا يحبّني إلا مؤمن ، ولا يبغضني إلا منافق) .

(٢) رواه البخاري (٦١٦٩) ، ومسلم (٢٦٤١) .

(٣) كذا في « القوت » (٤٧/٢) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (١٩/٣) من حديث أبي قرصافة رضي الله عنه ، وابن عدي في « الكامل » (٣٠٣/١) من حديث جابر رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوثقُ عرى الإيمانِ الحبُّ في اللهِ والبغضُ في اللهِ »[1] .

وشواهدُ هـٰذا قدْ ذكرناها في بيانِ الحبِّ والبغضِ في اللهِ تعالىٰ مِنْ كتابِ آدابِ الصحبةِ ، وفي كتابِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، فلا نعيدُهُ .



فإنْ قلتَ : فقدْ وردَتِ الآياتُ والأخبارُ بالرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ كانَتِ المعاصي بغيرِ قضاءِ اللهِ تعالىٰ .. فهوَ محالٌ ، وهوَ قادحٌ في التوحيدِ ، وإنْ كانَتْ بقضاءِ اللهِ تعالىٰ .. فكراهتُها ومقتُها كراهةٌ لقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، فكيفَ السبيلُ إلى الجمعِ وهوَ متناقضٌ علىٰ هـٰذا الوجهِ ؟ وكيفَ يمكنُ الجمعُ بينَ الرضا والكراهةِ في شيءٍ واحدٍ ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا ممَّا يلتبسُ على الضعفاءِ القاصرينَ عنِ الوقوفِ علىٰ أسرارِ العلومِ ، وقدِ التبسَ علىٰ قومٍ حتَّىٰ رأَوُا السكوتَ عنِ المنكراتِ مقاماً مِنْ مقاماتِ الرضا ، وسمَّوهُ حسْنَ خلقٍ ، وهوَ جهلٌ محضٌ ، بلْ نقولُ : الرضا والكراهةُ يتضادانِ إذا تواردا علىٰ شيءٍ واحدٍ مِنْ جهةٍ واحدةٍ علىٰ وجهٍ واحدٍ ، فليسَ مِنَ التضادِّ في شيءٍ واحدٍ أنْ يُكرهَ مِنْ وجهٍ ويُرضىٰ بهِ مِنْ وجهٍ ؛ إذْ قدْ يموتُ عدوُّكَ الذي هوَ أيضاً عدوٌّ بعضِ أعدائِكَ وساعٍ في

---

(١) رواه الطيالسي في « مسنده » (٧٤٧) ، وأحمد في « مسنده » (٤/٢٨٦) .

إهلاكِهِ ، فتكرهُ موتَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ ماتَ عدوُّ عدوِّكَ ، وترضاهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ ماتَ عدوُّكَ ، **وكذلكَ المعصيةُ لها وجهانِ** :

وجهٌ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُهُ واختيارُهُ وإرادتُهُ ، فيرضىٰ بهِ مِنْ هـٰذا الوجهِ ؛ تسليماً للمُلْكِ إلىٰ مالكِ المُلْكِ ، ورضاً بما يفعلُهُ فيهِ .

ووجهٌ إلى العبدِ مِنْ حيثُ إنَّهُ كسبُهُ ووصفُهُ وعلامةُ كونِهِ ممقوتاً عندَ اللهِ تعالىٰ وبغيضاً عندَهُ ، حيثُ سلَّطَ عليهِ أسبابَ البعدِ والمقتِ ، فهوَ مِنْ هـٰذا الوجهِ منكرٌ ومذمومٌ .

ولا ينكشفُ هـٰذا لكَ إلا بمثالٍ :

فلنفرضْ محبوباً مِنَ الخلقِ قالَ بينَ يدي محبِّيهِ : إنِّي أريدُ أنْ أميزَ بينَ مَنْ يحبُّني ويبغضُني ، وأنصبَ فيهِ معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً ، وهوَ أنِّي أقصدُ إلىٰ فلانٍ فأوذيهِ وأضربُهُ ضرباً يضطرُّهُ ذلكَ إلى الشتمِ لي ، حتَّىٰ إذا شتمَني . . أبغضتُهُ واتخذتُهُ عدوّاً لي ، فكلُّ مَنْ أحبَّهُ أعلمُ أيضاً أنَّهُ عدوِّي ، وكلُّ مَنْ أبغضَهُ أعلمُ أنَّهُ صديقي ومحبِّي .

ثمَّ فعلَ ذلكَ ، وحصلَ مرادُهُ مِنَ الشتمِ الذي هوَ سببُ البغضِ ، وحصلَ البغضُ الذي هوَ سببُ العداوةِ ، فحقٌّ علىٰ كلِّ مَنْ هوَ صادقٌ في محبَّتِهِ وعالمٌ بشروطِ المحبَّةِ أنْ يقولَ :

أما تدبيرُكَ في إيذاءِ هـٰذا الشخصِ وضربِهِ وإبعادِهِ وتعريضُكَ إيَّاهُ للبغضِ والعداوةِ . . فأنا محبٌّ لهُ وراضٍ بهِ ، فإنَّهُ رأيُكَ وتدبيرُكَ ، وفعلُكَ

وإرادتُكَ ، وأمَّا شتمُهُ إيَّاكَ . . فإنَّهُ عدوانٌ مِنْ جهتِهِ ؛ إذْ كانَ حقُّهُ أنْ يصبرَ ولا يشتمَ ، ولكنَّهُ كانَ مرادَكَ منهُ ، فإنَّكَ قصدتَ بضربِهِ استنطاقَهُ بالشتمِ الموجبِ للمقتِ ، فهوَ مِنْ حيثُ إنَّهُ حصلَ علىٰ وَفْقِ مرادِكَ وتدبيرِكَ الذي دبَّرتَهُ . . فأنا راضٍ بهِ ، ولوْ لمْ يحصلْ . . لكانَ ذلكَ نقصاناً في تدبيرِكَ ، وتعويقاً في مرادِكَ ، وأنا كارهٌ لفواتِ مرادِكَ ، ولكنَّهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ وصفٌ لهٰذا الشخصِ ، وكسبٌ لهُ ، وعدوانٌ وتهجُّمٌ منهُ عليكَ علىٰ خلافِ ما يقتضيهِ جمالُكَ ، إذْ كانَ ذلكَ يقتضي أنْ يحتملَ منكَ الضربَ ولا يقابلَ بالشتمِ . . فأنا كارهٌ لهُ مِنْ حيثُ نسبتُهُ إليهِ ، ومِنْ حيثُ هوَ وصفٌ لهُ ، لا مِنْ حيثُ هوَ مرادُكَ ومقتضىٰ تدبيرِكَ .

وأمَّا بغضُكَ لهُ بسببِ شتمِكَ . . فأنا راضٍ بهِ ، ومحبٌّ لهُ ؛ لأنَّهُ مرادُكَ ، وأنا علىٰ موافقتِكَ أيضاً مبغضٌ لهُ ؛ لأنَّ شرطَ المحبِّ أنْ يكونَ حبيبُ المحبوبِ حبيباً ، وعدوُّهُ عدوّاً .

وأمَّا بغضُهُ لكَ . . فإنِّي أرضاهُ مِنْ حيثُ إنَّكَ أردتَ أنْ يبغضَكَ ، إذْ أبعدتَهُ عنْ نفسِكَ ، وسلَّطتَ عليهِ دواعيَ البغضِ ، ولكني أبغضُهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ وصفُ ذلكَ المبغضِ وكسبُهُ وفعلُهُ ، وأمقتُهُ لذلكَ ، فهوَ ممقوتٌ عندي لمقتِهِ إيَّاكَ ، وبغضُهُ ومقتُهُ لكَ أيضاً مكروهٌ عندي مِنْ حيثُ إنَّهُ وصفُهُ ، وكلُّ ذلكَ مِنْ حيثُ إنَّهُ مرادُكَ . . فهوَ مرضيٌّ .

وإنَّما التناقضُ أنْ يقولَ : هوَ مِنْ حيثُ إنَّهُ مرادُكَ مرضيٌّ ، ومِنْ حيثُ إنَّهُ

مرادُكَ مكروهٌ ، فأمَّا إذا كانَ مكروهاً لا مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُهُ ومرادُهُ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ وصفُ غيرِهِ وكسبُهُ . . فهـٰذا لا تناقضَ فيهِ ، ويشهدُ لذلكَ كلُّ ما يُكرهُ مِنْ وجهٍ ويُرضىٰ بهِ مِنْ وجهٍ ، ونظائرُ ذلكَ لا تُحصىٰ .

فإذاً ؛ تسليطُ اللهِ دواعيَ الشهوةِ والمعصيةِ عليهِ حتَّىٰ يجرَّهُ ذلكَ إلىٰ حبِّ المعصيةِ ، ويجرَّهُ الحبُّ إلىٰ فعلِ المعصيةِ . . يضاهي ضربَ المحبوبِ للشخصِ الذي ضربناهُ مثلاً ليجرَّهُ الضربُ إلى الغضبِ ، والغضبُ إلى الشتمِ ، ومقتُ اللهِ تعالىٰ لمَنْ عصاهُ ـ وإنْ كانَتْ معصيتُهُ بتدبيرِهِ ـ يشبهُ بغضَ المشتومِ لمَنْ شتمَهُ وإنْ كانَ شتمُهُ إنَّما يحصلُ بتدبيرِهِ واختيارِهِ لأسبابِهِ .

وفعلُ اللهِ تعالىٰ ذلكَ بكلِّ عبدٍ مِنْ عبيدِهِ ـ أعني : تسليطَ دواعي المعصيةِ عليهِ ـ يدلُّ علىٰ أنَّهُ سبقَتْ مشيئتُهُ بإبعادِهِ ومقتِهِ ، فواجبٌ علىٰ كلِّ عبدٍ محبٍّ للهِ أنْ يبغضَ مَنْ أبغضَهُ اللهُ ، ويمقتَ مَنْ مقتَهُ اللهُ ، ويعاديَ مَنْ أبعدَهُ اللهُ عنْ حضرتِهِ ، وإنِ اضطرَّهُ بقهرِهِ وقدرتِهِ إلىٰ معاداتِهِ ومخالفتِهِ ؛ فإنَّهُ بعيدٌ مطرودٌ ملعونٌ عنِ الحضرةِ ، وإنْ كانَ بعيداً بإبعادِهِ قهراً ، ومطروداً بطردِهِ اضطراراً .

والمبعدُ عنْ درجاتِ القربِ ينبغي أنْ يكونَ مقيتاً بغيضاً إلىٰ جميعِ المحبِّينَ ؛ موافقةً للمحبوبِ بإظهارِ الغضبِ علىٰ مَنْ أظهرَ المحبوبُ الغضبَ عليهِ بإبعادِهِ .

وبهٰذا يتقرَّرُ جميعُ ما وردَتْ بهِ الأخبارُ مِنَ البغضِ في اللهِ ، والحبِّ في اللهِ ، والتشديدِ على الكفَّارِ ، والتغليظِ عليهِمْ ، والمبالغةِ في مقتِهِمْ ، مع الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ إنَّهُ قضاءُ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وهٰذا كلُّهُ يُستمدُّ مِنْ سرِّ القدرِ الذي لا رخصةَ في إفشائِهِ ، وهوَ أنَّ الشرَّ والخيرَ كلاهما داخلانِ في المشيئةِ والإرادةِ ، ولكنَّ الشرَّ مرادٌ مكروهٌ ، والخيرَ مرادٌ مرضيٌّ بهِ ، فمَنْ قالَ : ليسَ الشرُّ مِنَ اللهِ . . فهوَ جاهلٌ ، وكذا مَنْ قالَ : إنَّهُما جميعاً منهُ مِنْ غيرِ افتراقٍ في الرضا والكراهةِ . . فهوَ أيضاً مقصِّرٌ ، وكشفُ الغطاءِ عنهُ غيرُ مأذونٍ فيهِ ، فالأولى السكوتُ والتأدُّبُ بأدبِ الشرعِ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القدرُ سرُّ اللهِ ، فلا تفشوهُ »[1] ، وذلكَ يتعلَّقُ بعلمِ المكاشفةِ ، وغرضُنا الآنَ بيانُ الإمكانِ فيما تُعبِّدَ بهِ الخلقُ مِنَ الجمعِ بينَ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ومقتِ المعاصي معَ أنَّها مِنْ قضاءِ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ ظهرَ الغرضُ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ كشفِ السرِّ فيهِ .

وبهٰذا يُعرفُ أيضاً أنَّ الدعاءَ بالمغفرةِ ، والعصمةِ مِنَ المعاصي ، وسائرِ الأسبابِ المعينةِ على الدينِ . . غيرُ مناقضٍ للرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ اللهَ تعبَّدَ العبادَ بالدعاءِ ليستخرجَ الدعاءُ منهُمْ صفاءَ الذكرِ وخشوعَ القلبِ ورقَّةَ

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٧/ ١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٨٢) .

التضرُّعِ ، ويكونَ ذلكَ جلاءً للقلبِ ومفتاحاً للكشفِ ، وسبباً لتواترِ مزايا اللطفِ ؛ كما أنَّ حملَ الكوزِ وشربَ الماءِ ليسَ مناقضاً للرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ في العطشِ ، وشربُ الماءِ طلبٌ لإزالةِ العطشِ ومباشرةُ سببٍ رتَّبَهُ مسبِّبُ الأسبابِ ؛ فكذلكَ الدعاءُ سببٌ رتَّبَهُ اللهُ تعالىٰ وأمرَ بهِ ، وقدْ ذكرنا أنَّ التمسُّكَ بالأسبابِ جرياً علىٰ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ لا يناقضُ التوكُّلَ ، واستقصيناهُ في كتابِ التوكلِ ، فهوَ أيضاً لا يناقضُ الرضا ؛ لأنَّ الرضا مقامٌ يلاصقُ التوكُّلَ ويتصلُ بهِ .

نعمْ ، إظهارُ البلاءِ في معرضِ الشكوىٰ ، وإنكارُهُ بالقلبِ على اللهِ تعالىٰ . . مناقضٌ للرضا ، وإظهارُ البلاءِ علىٰ سبيلِ الشكرِ والكشفِ عنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ . . لا يناقضُ وقدْ قالَ بعضُ السلفِ : مِنْ حسنِ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ألا يقولَ : هـٰذا يومٌ حارٌّ[1] ؛ أيْ : في معرضِ الشكايةِ ، وذلكَ في الصيفِ ، فأمَّا في الشتاءِ . . فهوَ شكرٌ .

والشكوىٰ تناقضُ الرضا بكلِّ حالٍ ، وذمُّ الأطعمةِ وعيبُها يناقضُ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ مذمَّةَ الصنعةِ مذمَّةٌ للصانعِ ، والكلُّ مِنْ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، وقولُ القائلِ : الفقرُ بلاءٌ ومحنةٌ ، والعيالُ همٌّ وتعبٌ ، والاحترافُ كدٌّ ومشقَّةٌ . . كلُّ ذلكَ قادحٌ في الرضا ، بلْ ينبغي أنْ يسلِّمَ التدبيرَ لمدبِّرِهِ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٠) .

والمملكةَ لمالكِها ، ويقولَ ما قالَهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا أبالي أصبحتُ غنيّاً أوْ فقيراً ، فإنِّي لا أدري أيُّهُما خيرٌ لي)[1] .



(١) الرعاية (ص ٢٦١) ، وهو في « القوت » (٢/ ٤٠) .

بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظانّ المعاصي ومذمّتها لا يقدح في الرّضا

اعلمْ : أنَّ الضعيفَ قدْ يظنُّ أنَّ نهيَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الخروجِ مِنْ بلدٍ ظهرَ بهِ الطاعونُ[1] يدلُّ على النهيِ عنِ الخروجِ مِنْ بلدٍ ظهرَتْ فيهِ المعاصي ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهُما فرارٌ مِنْ قضاءِ اللهِ تعالىٰ ، وذلكَ محالٌ ، بلِ العلَّةُ في النهيِ عنْ مفارقةِ البلدِ بعدَ ظهورِ الطاعونِ أنَّهُ لوْ فُتِحَ هٰذا البابُ . . لارتحلَ عنهُ الأصحَّاءُ وبقيَ فيهِ المطعونونَ مهملينَ ، لا متعهِّدَ لهُمْ ، فيهلكونَ هزالاً وضرّاً ، ولذلكَ شبَّهَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ الأخبارِ بالفرارِ مِنَ الزحفِ[2] ، ولوْ كانَ ذلكَ للفرارِ مِنَ القضاءِ . . لما أذنَ لمَنْ قاربَ البلدةَ في الانصرافِ ، وقدْ ذكرنا حكْمَ ذلكَ في كتابِ التوكلِ .

وإذا عُرِفَ المعنىٰ . . ظهرَ أنَّ الفرارَ مِنَ البلادِ التي هيَ مظانُّ المعاصي ليسَ فراراً مِنَ القضاءِ ، بلْ مِنَ القضاءِ الفرارُ ممَّا لا بدَّ مِنَ الفرارِ منهُ ، وكذلكَ مذمَّةُ المواضعِ التي تدعو إلى المعاصي ، والأسبابِ التي تدعو إليها ؛ لأجلِ التنفيرِ عنِ المعصيةِ . . ليسَ مذموماً ، فما زالَ السلفُ الصالحُ يعتادونَ ذلكَ ، حتَّى اتفقَ جماعةٌ علىٰ ذمِّ بغدادَ ، وإظهارِهِمْ ذلكَ ، وطلبِ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٣) ، ومسلم (٢٢١٨) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ١٤٥) .

الفرارِ منها ، فقالَ ابنُ المباركِ : قدْ طفتُ الشرقَ والغربَ فما رأيتُ بلداً شرّاً مِنْ بغدادَ ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : هوَ بلدٌ تُزدرىٰ فيهِ نعمةُ اللهِ ، وتُستصغرُ فيهِ معصيةُ اللهِ[1] .

ولمَّا قدمَ خراسانَ . . قيلَ لهُ : كيفَ رأيتَ بغدادَ ؟ فقالَ : ما رأيتُ بها إلا شرطياً غضبانَ ، أوْ تاجراً لهفانَ ، أوْ قارئاً حيرانَ[1] .

ولا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ ذلكَ مِنَ الغيبةِ ؛ لأنَّهُ لمْ يتعرَّضْ لشخصٍ بعينِهِ حتَّىٰ يستضرَّ ذلكَ الشخصُ بهِ ، وإنَّما قصدَ بذلكَ تحذيرَ الناسِ .

وكانَ يخرجُ إلىٰ مكَّةَ وكانَ مقامُهُ ببغدادَ ريثَ استعدادِ القافلةِ ستةَ عشرَ يوماً ، فكانَ يتصدَّقُ بستةَ عشرَ ديناراً ؛ لكلِّ يومٍ دينارٌ كفارةً لمقامِهِ[1] .

وقدْ ذمَّ العراقَ جماعةٌ ؛ كعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، وكعبِ الأحبارِ ، وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما لمولىً لهُ : أينَ تسكنُ ؟ فقالَ : العراقَ ، فقالَ : فما تصنعُ بهِ ؟! بلغَني أنَّهُ ما مِنْ أحدٍ يسكنُ العراقَ إلا قيَّضَ اللهُ لهُ قريناً مِنَ البلاءِ ![1] .

وذكرَ كعبُ الأحبارِ يوماً العراقَ فقالَ : فيهِ تسعةُ أعشارِ الشرِّ ، وفيهِ الداءُ العضالُ ، وقدْ قيلَ : قُسِّمَ الخيرُ عشرةَ أجزاءٍ ، فتسعةُ أعشارِهِ بالشامِ ، وعشرُهُ بالعراقِ ، وقُسِّمَ الشرُّ عشرةَ أجزاءٍ على العكسِ مِنْ ذلكَ[2] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٩) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٤٩) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١/ ١٥٩) بنحوه .

وقالَ بعضُ أصحابِ الحديثِ : كنَّا يوماً عندَ الفضيلِ بنِ عياضٍ ، فجاءَهُ صوفيٌّ متدرِّعٌ بعباءةٍ فأجلسَهُ إلىٰ جانبِهِ ، وأقبلَ عليهِ ، ثمَّ قالَ : أينَ تسكنُ ؟ فقالَ : بغدادَ ، فأعرضَ عنهُ وقالَ : يأتينا أحدُهُمْ في زيِّ الرهبانِ ، فإذا سألناهُ أينَ تسكنُ . . قالَ : في عشِّ الظلمةِ ![1] .

وكانَ بشرُ بنُ الحارثِ يقولُ : (مثالُ المتعبِّدِ ببغدادَ مثالُ المتعبِّدِ في الحشِّ) .

وكانَ يقولُ : (لا تقتدوا بي في المقامِ بها ، مَنْ أرادَ أنْ يخرجَ . . فليخرجْ)[2] .

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ يقولُ : لولا تعلُّقُ هؤلاءِ الصبيانِ بنا . . كانَ الخروجُ مِنْ هـٰذا البلدِ آثرَ في نفسي ، قيلَ : وأينَ تختارُ السكنى ؟ قالَ : بالثغورِ[3] .

وقالَ بعضُهُمْ وقدْ سُئِلَ عنْ أهلِ بغدادَ : (زاهدُهُمْ زاهدٌ ، وشريرُهُمْ شريرٌ) .

فهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ مَنْ بُلِيَ ببلدةٍ تكثرُ فيها المعاصي ، ويقلُّ فيها الخيرُ . . فلا عذرَ لهُ في المقامِ بها ، بلْ ينبغي أنْ يهاجرَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ .

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٧١) .
(٢) نقلهما صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٧١) .
(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٧١) .

وقالَ بعضُ أصحابِ الحديثِ : كنَّا يوماً عندَ الفضيلِ بنِ عياضٍ ، فجاءَهُ صوفيٌّ متدرِّعٌ بعباءةٍ فأجلسَهُ إلىٰ جانبِهِ ، وأقبلَ عليهِ ، ثمَّ قالَ : أينَ تسكنُ ؟ فقالَ : بغدادَ ، فأعرضَ عنهُ وقالَ : يأتينا أحدُهُمْ في زيِّ الرهبانِ ، فإذا سألناهُ أينَ تسكنُ . . قالَ : في عشِّ الظلمةِ ![1] .

وكانَ بشرُ بنُ الحارثِ يقولُ : (مثالُ المتعبِّدِ ببغدادَ مثالُ المتعبِّدِ في الحشِّ) .

وكانَ يقولُ : (لا تقتدوا بي في المقامِ بها ، مَنْ أرادَ أنْ يخرجَ . . فليخرجْ)[2] .

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ يقولُ : لولا تعلُّقُ هؤلاءِ الصبيانِ بنا . . كانَ الخروجُ مِنْ هـٰذا البلدِ آثرَ في نفسي ، قيلَ : وأينَ تختارُ السكنى ؟ قالَ : بالثغورِ[3] .

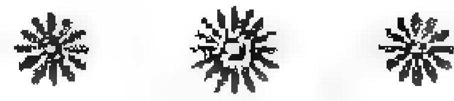
وقالَ بعضُهُمْ وقدْ سُئِلَ عنْ أهلِ بغدادَ : (زاهدُهُمْ زاهدٌ ، وشريرُهُمْ شريرٌ) .

فهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ مَنْ بُلِيَ ببلدةٍ تكثرُ فيها المعاصي ، ويقلُّ فيها الخيرُ . . فلا عذرَ لهُ في المقامِ بها ، بلْ ينبغي أنْ يهاجرَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ .

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٧١) .
(٢) نقلهما صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٧١) .
(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٧١) .

لا أكرهُ طولَ البقاءِ ، فقالَ سفيانُ : لِمَ ؟ قالَ : لعلي أصادفُ يوماً أتوبُ فيهِ وأعملُ صالحاً ، فقيلَ لوهيبٍ : أيشٍ تقولُ أنتَ ؟ فقالَ : أنا لا أختارُ شيئاً ، أحبُّ ذلكَ إليَّ أحبُّهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، فقبَّلَهُ الثوريُّ بينَ عينيهِ وقالَ : روحانيَّةٌ وربِّ الكعبةِ(١) .



(١) قوت القلوب (٢/ ٤٤) .

بيان جملةٍ من حكايات المحبّين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيلَ لبعضِ العارفينَ : إنَّكَ محبٌّ ، فقالَ : لستُ محبّاً ، إنَّما أنا محبوبٌ ، والمحبُّ متعوبٌ[1] .

وقيلَ لهُ أيضاً : الناسُ يقولونَ : إنَّكَ واحدٌ مِنَ السبعةِ ، فقالَ : أنا كلُّ السبعةِ[2] .

وكانَ يقولُ : إذا رأيتُمُوني.. فقدْ رأيتُمْ أربعينَ بدلاً ، قيلَ : وكيفَ أنتَ شخصٌ واحدٌ ؟ قالَ : لأنِّي رأيتُ أربعينَ بدلاً ، وأخذتُ مِنْ كلِّ بدلٍ خلقاً مِنْ أخلاقِهِ[1] .

وقيلَ لهُ : بلغَنا أنَّكَ ترى الخضرَ عليهِ السلامُ ، فتبسَّمَ وقالَ : ليسَ العجبُ ممَّنْ يرى الخضرَ ، ولكنِ العجبُ ممَّنْ يريدُ الخضرُ أنْ يراهُ فيحتجبُ نهُ[1] .

ويحكىٰ عنِ الخضرِ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ : (ما حدثتُ نفسي يوماً قطُّ أنَّهُ لمْ يبقَ وليٌّ للهِ تعالىٰ إلا عرفتُهُ إلا ورأيتُ في ذلكَ اليومِ وليّاً لمْ أعرفْهُ) .

وقيلَ لأبي يزيدَ البسطاميِّ مرَّةً : حدِّثْنا عنْ مشاهدتِكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فصاحَ ثمَّ قالَ :

---

(1) قوت القلوب (٢/ ٦٩) .

(2) قوت القلوب (٢/ ٦٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٧) .

ويلَكُمْ ! لا يصلحُ لكُمْ أنْ تعلموا ذلكَ .

قيلَ : فحدثْنا بأشدِّ مجاهدتِكَ لنفسِكَ في اللهِ تعالىٰ .

فقالَ : وهٰذا أيضاً لا يجوزُ أنْ أطلعَكُمْ عليهِ .

قيلَ : فحدثْنا عنْ رياضةِ نفسِكَ في بدايتِكَ .

فقالَ : نعمْ ، دعوتُ نفسي إلى اللهِ عزَّ وجلَّ فجمحَتْ عليَّ ، فعزمتُ عليها ألا أشربَ الماءَ سنةً ، ولا أذوقَ النومَ سنةً ، فوفَّتْ لي بذلكَ[1] .

وحُكِيَ عنْ يحيىٰ بنِ معاذٍ أنَّهُ رأىٰ أبا يزيدَ في بعضِ مشاهداتِهِ مِنْ بعدِ صلاةِ العشاءِ إلىٰ طلوعِ الفجرِ مستوفزاً علىٰ صدورِ قدميهِ ، رافعاً أخمصَهُما معَ عقبيهِ عنِ الأرضِ ، ضارباً بذقنِهِ علىٰ صدرِهِ ، شاخصاً بعينيهِ لا يطرفُ ، قالَ : ثمَّ سجدَ عندَ السحرِ فأطالَ ، ثمَّ قعدَ فقالَ :

اللهمَّ ؛ إنَّ قوماً طلبوكَ فأعطيتَهُمُ المشيَ على الماءِ ، والمشيَ في الهواءِ ، فرضوا بذلكَ ، وإنِّي أعوذُ بكَ مِنْ ذلكَ .

وإنَّ قوماً طلبوكَ فأعطيتَهُمْ طيَّ الأرضِ ، فرضوا بذلكَ ، وإنِّي أعوذُ بكَ مِنْ ذلكَ .

وإنَّ قوماً طلبوكَ فأعطيتَهُمْ كنوزَ الأرضِ ، فرضوا بذلكَ ، وإنِّي أعوذُ بكَ مِنْ ذلكَ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٠) .

قالَ : حتَّىٰ عدَّ نيِّفاً وعشرينَ مقاماً مِنْ كراماتِ الأولياءِ ، ثمَّ التفتَ فرآني ، فقالَ :

يحيىٰ ! فقلتُ : نعمْ يا سيِّدي ، فقالَ : مُذْ متىٰ أنتَ هـٰهنا ؟ قلتُ : منذُ حينٍ ، فسكتَ .

فقلتُ : يا سيِّدي ؛ حدِّثْني بشيءٍ ، فقالَ :

أحدِّثُكَ بما يصلحُ لكَ ، أدخلَني في الفلكِ الأسفلِ ، فدوَّرَني في الملكوتِ السفليِّ ، وأراني الأرضينَ وما تحتَها إلى الثرىٰ ، ثمَّ أدخلَني في الفلكِ العلويِّ ، فطوَّفَ بي في السماواتِ ، وأراني ما فيها مِنَ الجنانِ إلى العرشِ ، ثمَّ أوقفَني بينَ يديهِ ، فقالَ :

سلْني أيَّ شيءٍ رأيتَ حتَّىٰ أهبَهُ لكَ ، فقلتُ : يا سيِّدي ؛ ما رأيتُ شيئاً استحسنتُهُ فأسألَكَ إيَّاهُ ، فقالَ :

أنتَ عبدي حقّاً ، تعبدُني لأجلي صدقاً ، لأفعلَنَّ بكَ ولأفعلَنَّ ، فذكرَ أشياءَ .

قال يحيىٰ : فهالَني ذلكَ وامتلأتُ بهِ ، وعجبتُ منهُ ، فقلتُ : يا سيِّدي ؛ لِمَ لا سألتَهُ المعرفةَ بهِ وقدْ قالَ لكَ ملكُ الملوكِ : سلْني ما شئتَ ؟

قالَ : فصاحَ بي صيحةً وقالَ : اسكتْ ويلَكَ ، غرتُ عليهِ منِّي ، حتَّىٰ لا أحبُّ أنْ يعرفَهُ سواهُ[1] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٠) .

وحُكِيَ أنَّ أبا ترابٍ النخشبيَّ كانَ معجباً ببعضِ المريدينَ ، فكانَ يدنيهِ ، ويقومُ بمصالحِهِ ، والمريدُ مشغولٌ بعبادتِهِ ومواجيدِهِ ، فقالَ لهُ أبو ترابٍ يوماً : لوْ رأيتَ أبا يزيدَ ، فقالَ المريدُ : إنِّي عنهُ مشغولٌ .

فلمَّا أكثرَ عليهِ أبو ترابٍ مِنْ قولِهِ : لوْ رأيتَ أبا يزيدَ . . هاجَ وجْدُ المريدِ فقالَ : ويحَكَ ! ما أصنعُ بأبي يزيدَ ؟ قدْ رأيتُ اللهَ تعالىٰ فأغناني عنْ أبي يزيدَ .

قالَ أبو ترابٍ : فهاجَ طبعي ، ولمْ أملكْ نفسي ، فقلتُ : ويلَكَ ! تغترُّ باللهِ عزَّ وجلَّ ؟! لوْ رأيتَ أبا يزيدَ مرَّةً واحدةً . . كانَ أنفعَ لكَ مِنْ أنْ ترى اللهَ سبعينَ مرَّةً ، قالَ : فبهتَ الفتىٰ مِنْ قولِهِ وأنكرَهُ ، فقالَ : وكيفَ ذلكَ ؟

قالَ لهُ : ويلَكَ ! إنَّما ترى اللهَ تعالىٰ عندَكَ ، فيظهرُ لكَ علىٰ مقدارِكَ ، وترىٰ أبا يزيدَ عندَ اللهِ قدْ ظهرَ لهُ علىٰ مقدارِهِ ، فعرفَ ما قلتُ ، فقالَ : احملْني إليهِ ، فذكرَ قصةً قالَ في آخرِها :

فوقفنا علىٰ تلٍّ ننتظرُهُ ليخرجَ إلينا مِنَ الغيضةِ ، وكانَ يأوي إلىٰ غيضةٍ فيها سباعٌ ، قالَ : فمرَّ بنا وقدْ قلبَ فروةً علىٰ ظهرِهِ ، فقلتُ للفتىٰ : هٰذا أبو يزيدَ فانظرْ إليهِ ، فنظرَ إليهِ الفتىٰ فصعقَ ، فحركناهُ فإذا هوَ ميتٌ ، فتعاونا علىٰ دفنِهِ ، فقلتُ لأبي يزيدَ :

يا سيِّدي نظرُهُ إليكَ قتلَهُ ؟ قالَ : لا ، ولكنْ كانَ صاحبُكَ صادقاً ، وأُسكنَ في قلبِهِ سرٌّ لمْ ينكشفْ لهُ بوصفِهِ ، فلمَّا رآنا . . انكشفَ لهُ سرُّ

قلبِهِ ، فضاقَ عنْ حملِهِ ؛ لأنَّهُ في مقامِ الضعفاءِ المريدينَ ، فقتلَهُ ذلكَ[1] .

ولمَّا دخلَ الزنجُ البصرةَ ، فقتلوا الأنفسَ ، ونهبوا الأموالَ . . اجتمعَ إلىٰ سهلٍ إخوانُهُ ، فقالوا : لوْ سألتَ اللهَ تعالىٰ دفعَهُمْ ، فسكتَ ثمَّ قالَ : إنَّ للهِ عباداً في هـٰذهِ البلدةِ لوْ دعوا على الظالمينَ . . لمْ يصبحْ علىٰ وجهِ الأرضِ ظالمٌ إلا ماتَ في ليلةٍ واحدةٍ ، ولكنْ لا يفعلونَ ، قيلَ : لِمَ ؟ قالَ : لأنَّهُمْ لا يحبُّونَ ما لا يحبُّ ، ثمَّ ذكرَ مِنْ إجابةِ اللهِ تعالىٰ أشياءَ لا يُستطاعُ ذكرُها ، حتَّىٰ قالَ : ولوْ سألوهُ ألا يقيمَ الساعةَ . . لمْ يقمْها[2] .

وهـٰذهِ أمورٌ ممكنةٌ في أنفسِها ، فمَنْ لمْ يحظَ بشيءٍ منها . . فلا ينبغي أنْ يخلوَ عنِ التصديقِ والإيمانِ بإمكانِها ، فإنَّ القدرةَ واسعةٌ ، والفضلَ عظيمٌ[3] ، وعجائبَ الملكِ والملكوتِ كثيرةٌ ، ومقدوراتِ اللهِ تعالىٰ لا نهايةَ لها ، وفضلَهُ علىٰ عبادِهِ الذينَ اصطفىٰ لا غايةَ لهُ .

ولذلكَ كانَ أبو يزيدَ يقولُ : (إنْ أعطاكَ مناجاةَ موسىٰ ، وروحانيَّةَ عيسىٰ ، وخُلَّةَ إبراهيمَ عليهِمُ السلامُ . . فاطلبْ ما وراءَ ذلكَ ، فإنَّ عندَهُ فوقَ ذلكَ أضعافاً مضاعفةً ، فإنْ سكنتَ إلىٰ ذلكَ . . حجبَكَ بهِ ، وهـٰذا بلاءُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٠) ، وقد ينكشف للمريد في صحبة العارفين والنظر إلىٰ وجوههم في لحظة واحدة ما لا ينكشف له بالاجتهاد في مدة متطاولة . « إتحاف » (٩/ ٦٧٤) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٧١) .

(٣) في (أ) : (عميم) بدل (عظيم) .

مثلِهِمْ ، ومَنْ هوَ في مثلِ حالِهِمْ ؛ لأنَّهُمُ الأمثلُ فالأمثلُ)[1] .

وقدْ قالَ بعضُ العارفينَ :

كُوشفتُ بأربعينَ حوراءَ ، رأيتُهُنَّ يتساعينَ في الهواءِ ، عليهِنَّ ثيابٌ مِنْ ذهبٍ وفضةٍ وجوهرٍ يتخشخشُ ويتثنَّىٰ معَهُنَّ ، فنظرتُ إليهِنَّ نظرةً ، فعُوقبتُ أربعينَ يوماً .

ثمَّ كُوشفتُ بعدَ ذلكَ بثمانينَ حوراءَ فوقَهُنَّ في الحسنِ والجمالِ ، وقيلَ لي : انظرْ إليهِنَّ ، قالَ : فسجدتُ وغمضتُ عيني في سجودي لئلا أنظرَ إليهِنَّ ، وقلتُ :

أعوذُ بكَ ممَّا سواكَ ، لا حاجةَ لي بهـٰذا ، فلمْ أزلْ أتضرَّعُ حتَّىٰ صرفَهُنَّ اللهُ عنِّي[1] .

فأمثالُ هـٰذهِ المكاشفاتِ لا ينبغي أنْ ينكرَها المؤمنُ لإفلاسِهِ عنْ مثلِها ، فلوْ لمْ يؤمنْ كلُّ واحدٍ إلا بما يشاهدُهُ مِنْ نفسِهِ المظلمةِ وقلبِهِ القاسي . . لضاقَ مجالُ الإيمانِ عليهِ .

بلْ هـٰذهِ أحوالٌ تظهرُ بعدَ مجاوزةِ عقباتٍ ونيلِ مقاماتٍ كثيرةٍ ، أدناها الإخلاصُ وإخراجُ حظوظِ النفسِ وملاحظةِ الخلقِ عنْ جميعِ الأعمالِ ظاهراً وباطناً ، ثمَّ مكاتمةُ ذلكَ عنِ الخلقِ بسترِ الحالِ حتَّىٰ يبقىٰ متحصناً بحصنِ الخمولِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٢) .

فهٰذهِ أوائلُ سلوكِهِمْ ، وأقلُّ مقاماتِهِمْ ، وهيَ أعزُّ موجودٍ في الأتقياءِ مِنَ الناسِ .

وبعدَ تصفيةِ القلبِ عنْ كدورةِ الالتفاتِ إلى الخلقِ يفيضُ عليهِ نورُ اليقينِ ، وينكشفُ لهُ مبادي الحقِّ ، وإنكارُ ذلكَ دونَ التجربةِ وسلوكِ الطريقِ يجري مَجرىٰ إنكارِ مَنْ أنكرَ إمكانَ انكشافِ الصورةِ في الحديدةِ إذا شُكِّلَتْ ونُقِّيَتْ ، وصُقِلَتْ وصُوِّرَتْ بصورةِ المرآةِ .

فنظرَ المنكرُ إلىٰ ما في يدِهِ مِنْ زُبْرةِ حديدٍ مظلمٍ قدِ استولىٰ عليهِ الصدأُ والخبثُ ، وهوَ لا يحكي صورةً مِنَ الصورِ . فأنكرَ إمكانَ انكشافِ المرئيِّ فيها عندَ ظهورِ جوهرِها ، وإنكارُ ذلكَ غايةُ الجهلِ والضلالِ .

فهٰذا حكمُ كلِّ مَنْ أنكرَ كراماتِ الأولياءِ ، إذْ لا مستندَ لهُ إلا قصورُهُ عنْ ذلكَ وقصورُ مَنْ رآهُ ، وبئسَ المستندُ ذلكَ في إنكارِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ .

بلْ إنَّما يَشَمُّ روائحَ المكاشفةِ مَنْ سلكَ شيئاً ولوْ مِنْ مبادي الطريقِ ؛ كما قيلَ لبشرٍ : بأيِّ شيءٍ بلغتَ هٰذهِ المنزلةَ ؟ فقالَ : كنتُ أكاتمُ اللهَ تعالىٰ حالي .

معناهُ : أسألُهُ أنْ يكتمَ عليَّ ويُخفيَ أمري[1] .

ورُوِيَ أنَّهُ رأى الخضرَ عليهِ السلامُ ، فقالَ لهُ : ادعُ اللهَ تعالىٰ لي ، فقالَ : يسَّرَ اللهُ عليكَ طاعتَهُ ، قلتُ : زدْني ، فقالَ : وسترَها عليكَ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٣) .

فقيلَ : معناهُ سترَها عنِ الخلقِ ، وقيلَ : معناهُ : سترَها عنكَ حتَّىٰ لا تلتفتَ أنتَ إليها(١) .

وعنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ :

أقلقَني الشوقُ إلى الخضرِ عليهِ السلامُ ، فسألتُ اللهَ تعالىٰ مرَّةً أنْ يريَني إيَّاهُ ليعلِّمَني شيئاً كانَ أهمَّ الأشياءِ عليَّ ، قالَ : فرأيتُهُ ، فما غلبَ عليَّ همِّي ولا همَّتي إلا أنْ قلتُ لهُ :

يا أبا العباسِ ؛ علِّمْني شيئاً إذا قلتُهُ حُجبتُ عن قلوبِ الخليقةِ ، فلمْ يكنْ لي فيها قدْرٌ ، ولمْ يعرفْني أحدٌ بصلاحٍ ولا ديانةٍ ، فقالَ : قلِ :

اللهمَّ ؛ أسبلْ عليَّ كثيفَ سترِكَ ، وحُطَّ عليَّ سرادقاتِ حجُبِكَ ، واجعلْني في مكنونِ غيبِكَ ، واحجبْني عنْ قلوبِ خلقِكَ(٢) .

قالَ : ثمَّ غابَ فلمْ أرهُ ، ولمْ أشتقْ إليهِ بعدَ ذلكَ ، فما زلتُ أقولُ هٰذهِ الكلماتِ في كلِّ يومٍ .

فحكىٰ أنَّهُ صارَ بحيثُ كانَ يُستذلُّ ويُمتهنُ ، حتَّىٰ كانَ أهلُ الذمَّةِ يسخرونَ بهِ ، ويستسخرونهُ في الطرقِ يحملُ الأشياءَ لهُمْ ، لسقوطِهِ عندَهُمْ ، وكانَ الصبيانُ يُولعونَ بهِ ، فكانَتْ راحتُهُ ووجودُ قلبِهِ واستقامةُ حالِهِ في ذلِّهِ وخمولِهِ(٣) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٣) ، وأوردها كذلك القشيري في « رسالته » (ص٥٩٨) .
(٢) في غير (ع ، ف) : (واحجبني في قلوب خلقك) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٧٣) .

فهكذا حالُ أولياءِ اللهِ تعالىٰ ، ففي أمثالِ هؤلاءِ ينبغي أنْ يُطلبوا ، والمغرورونَ إنَّما يطلبونَهُمْ تحتَ المرقَّعاتِ والطيالسةِ ، وفي المشهورينَ بينَ الخلقِ بالعلمِ والورعِ والرئاسةِ ، وغيرةُ اللهِ تعالىٰ علىٰ أوليائِهِ تأبىٰ إلا إخفاءَهُمْ ، كما قالَ تعالىٰ : (أوليائي تحتَ قبابي ، لا يعرفُهُمْ غيري) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرينِ لا يُؤبَهُ لهُ ، لوْ أقسمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ »[1] .

وبالجملةِ : فأبعدُ القلوبِ عنْ مشامِّ هٰذهِ المعاني القلوبُ المتكبِّرةُ ، المعجبةُ بأنفسِها ، المستبشرةُ بعملِها وعلمِها .

وأقربُ القلوبِ إليها القلوبُ المنكسرةُ ، المستشعرةُ ذلَّ نفسِها استشعاراً إذا أُذلَّ واهتُضمَ . . لمْ يحسَّ بالذلِّ ؛ كما لا يحسُّ العبدُ بالذلِّ مهما ترفَّعَ عليهِ مولاهُ .

فإذا لمْ يحسَّ بالذلِّ ، ولمْ يشعرْ أيضاً بعدمِ التفاتِهِ إلى الذلِّ ، بلْ كانَ عندَ نفسِهِ أخسَّ منزلةً مِنْ أنْ يرىٰ جميعَ أنواعِ الذلِّ ذُلاً في حقِّهِ ، بلْ يرىٰ نفسَهُ دونَ ذلكَ ، حتَّىٰ صارَ التواضعُ بالطبعِ صفةَ ذاتِهِ . . فمثلُ هٰذا القلبِ يُرجىٰ لهُ أنْ يستنشقَ مباديَ هٰذهِ الروائحِ .

فإنْ فقدنا مثلَ هٰذا القلبِ ، وحُرمنا مثلَ هٰذا الروحِ . . فلا ينبغي أنْ

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٥٤) ، وأصله عند مسلم (٢٦٢٢) .

يُطرحَ الإيمانُ بإمكانِ ذلكَ لأهلِهِ ، فمَنْ لا يقدرُ أنْ يكونَ مِنْ أولياءِ اللهِ . . فليكنْ محبّاً لأولياءِ اللهِ ، مؤمناً بهِمْ ، فعسىٰ أنْ يُحشرَ معَ مَنْ أحبَّ .

ويشهدُ لهٰذا ما رُويَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ قالَ لبني إسرائيلَ : أينَ ينبتُ الزرعُ ؟ قالوا : في الترابِ ، فقالَ : بحقٍّ أقولُ لكُمْ : لا تنبتُ الحكمةُ إلا في قلبٍ مثلِ الترابِ(١) .

ولقدِ انتهى المريدونَ لولايةِ اللهِ تعالىٰ في طلبِ شروطِها بإذلالِ النفسِ إلىٰ منتهى الضعةِ والخسَّةِ .

حتَّىٰ رُوِيَ أنَّ ابنَ الكَرَنْبِيِّ وهوَ أستاذُ الجنيدِ دعاهُ رجلٌ ثلاثَ مرَّاتٍ إلىٰ طعامِهِ ، ثمَّ كانَ يردُّهُ ، ثمَّ يستدعيهِ ، فيرجعُ إليهِ بعدَ ذلكَ ، حتَّىٰ أدخلَهُ في المرَّةِ الرابعةِ ، فسألَهُ عنْ ذلكَ ، فقالَ :

قدْ رُضْتُ نفسي على الذلِّ عشرينَ سنةً ، حتَّىٰ صارَتْ بمنزلةِ الكلبِ ، يُطردُ فينطردُ ، ثمَّ يُدعىٰ فيُرمىٰ لهُ عظمٌ فيعودُ ، ولوْ رددتَني خمسينَ مرَّةً ثمَّ دعوتَني بعدَ ذلكَ . . لأجبتُ(٢) .

وعنهُ أيضاً أنَّهُ قالَ :

نزلتُ في محلَّةٍ ، فعُرفتُ فيها بالصلاحِ ، فتشتَّتَ قلبي ، فدخلتُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٤) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٧٤) ، وبنحوه أورد القشيري في « رسالته » (ص٤١٤) عن أبي عثمان الحيري .

الحمَّامَ ، وعيَّنتُ علىٰ ثيابٍ فاخرةٍ فسرقتُها ولبستُها ، ثمَّ لبستُ مرقَّعتي فوقَها وخرجتُ ، وجعلتُ أمشي قليلاً قليلاً ، فلحقوني فنزعوا مرقَّعتي ، وأخذوا الثيابَ ، وصفعوني وأوجعوني ضرباً ، فصرتُ بعدَ ذلكَ أُعرفُ بلصِّ الحمامِ ، فسكنَتْ نفسي[1] .

فهكذا كانوا يروضونَ أنفسَهُمْ حتَّىٰ يخلِّصَهُمُ اللهُ مِنَ النظرِ إلى الخلقِ ، ثمَّ مِنَ النظرِ إلى النفسِ ، فإنَّ الملتفتَ إلىٰ نفسِهِ محجوبٌ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وشغلُهُ بنفسِهِ حجابٌ لهُ، فليسَ بينَ القلبِ وبينَ اللهِ حجابٌ ببعْدٍ وتخلُّلِ حائلٍ، وإنَّما بعْدُ القلوبِ شغلُها بغيرِهِ أوْ بنفسِها، وأعظمُ الحجبِ شغلُ النفسِ.

ولذلكَ حُكِيَ أنَّ شاهداً عظيمَ القدْرِ مِنْ أعيانِ أهلِ بِسطامَ كانَ لا يفارقُ مجلسَ أبي يزيدَ ، فقالَ لهُ يوماً : يا أبا يزيدَ ؛ أنا منذُ ثلاثينَ سنةً أصومُ الدهرَ لا أفطرُ ، وأقومُ الليلَ لا أنامُ ، ولا أجدُ في قلبي مِنْ هٰذا العلمِ الذي تذكرُ شيئاً ، وأنا أصدِّقُ بهِ وأحبُّهُ ، فقالَ أبو يزيدَ :

ولوْ صمتَ ثلاثَ مئةِ سنةٍ ، وقمتَ ليلَها.. ما وجدتَ مِنْ هٰذا ذرَّةً ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ :

لأنَّكَ محجوبٌ بنفسِكَ ، قالَ : فلهٰذا دواءٌ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : قُلْ لي حتَّىٰ أعملَهُ ، قالَ : لا تقبلُهُ ، قالَ : فاذكرْهُ لي حتَّىٰ أعملَهُ ، قالَ :

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٧٤) .

اذهبِ الساعةَ إلى المزيِّنِ فاحلقْ رأسَكَ ولحيتَكَ ، وانزعْ هـٰذا اللباسَ واتَّزِرْ بعباءةٍ ، وعلِّقْ في عنقِكَ مخلاةً مملوءةً جوزاً ، واجمعِ الصبيانَ حولَكَ وقُلْ :

كلُّ مَنْ صفعَني صفعةً . . أعطيتُهُ جوزةً ، وادخلِ السوقَ ، وطُفِ الأسواقَ كلَّها عندَ الشهودِ وعندَ مَنْ يعرفُكَ وأنتَ علىٰ ذلكَ ، فقالَ الرجلُ :

سبحانَ اللهِ ! تقولُ لي مثلَ هـٰذا ؟! فقالَ أبو يزيدَ : قولُكَ : سبحانَ اللهِ شركٌ ، قالَ : وكيفَ ؟ قالَ : لأنَّكَ عظَّمتَ نفسَكَ فسبَّحتَها ، وما سبَّحتَ ربَّكَ ، فقالَ : هـٰذا لا أفعلُهُ ، ولكنْ دُلَّني علىٰ غيرِهِ ، فقالَ : ابتدِئْ بهـٰذا قبلَ كلِّ شيءٍ ، فقالَ : لا أطيقُهُ ، فقالَ : قدْ قلتُ لكَ : إنَّكَ لا تقبلُ[1] .

فهـٰذا الذي ذكرَهُ أبو يزيدَ هوَ دواءُ مَنِ اعتلَّ بنظرِهِ إلىٰ نفسِهِ ومرضَ بنظرِ الناسِ إليهِ ، ولا ينجي مِنْ هـٰذا المرضِ دواءٌ سوىٰ هـٰذا وأمثالِهِ .

فمَنْ لا يطيقُ الدواءَ . . فلا ينبغي أنْ ينكرَ إمكانَ الشفاءِ في حقِّ مَنْ داوىٰ نفسَهُ بعدَ المرضِ ، أوْ لمْ يمرضْ بمثلِ هـٰذا المرضِ أصلاً .

فأقلُّ درجاتِ الصحَّةِ الإيمانُ بإمكانِها ، فويلٌ لمَنْ حُرِمَ هـٰذا القدْرَ القليلَ أيضاً .

وهـٰذهِ أمورٌ جليَّةٌ في الشرعِ واضحةٌ ، وهيَ معَ ذلكَ مستبعدةٌ عندَ مَنْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٤) .

يعدُّ نفسَهُ مِنْ علماءِ الشرعِ ، فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يستكملُ العبدُ الإيمانَ حتَّىٰ تكونَ قلَّةُ الشيءِ أحبَّ إليهِ مِنْ كثرتِهِ ، وحتَّىٰ يكونَ ألا يُعرفَ أحبَّ إليهِ مِنْ أنْ يُعرفَ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ . . استكملَ إيمانَهُ : لا يخافُ في اللهِ لومةَ لائمٍ ، ولا يرائي بشيءٍ مِنْ عملِهِ ، وإذا عُرِضَ عليهِ أمرانِ ؛ أحدُهُما للدنيا ، والآخرُ للآخرةِ . . آثرَ أمرَ الآخرةِ علىٰ أمرِ الدنيا »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يكملُ إيمانُ العبدِ حتَّىٰ يكونَ فيهِ ثلاثُ خصالٍ : مَنْ إذا غضبَ . . لمْ يخرجْهُ غضبُهُ عَنْ حقٍّ ، وإذا رضيَ . . لمْ يدخلْهُ رضاهُ في باطلٍ ، وإذا قدرَ . . لمْ يتناولْ ما ليسَ لهُ »(٣) .

وفي حديثٍ آخرَ :

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٧٥) ، حيث قال : (وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف كمال الإيمان ثلاثة أحاديث من أصول هـٰذه الأحوال ، وأساس هـٰذه الأفعال . . .) فذكرها ، وانظر « الإتحاف » (٩/ ٣٣٢) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٧٥) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٤٥٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٧٥) ، وبنحوه رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ٦١) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ١٦٨) من حديث أنس رضي الله عنه .

ثلاثٌ مَنْ أُوتيَهُنَّ . . فقدْ أُوتيَ مثلَ ما أُوتيَ آلُ داوودَ : العدلُ في الرضا والغضبِ ، والقصدُ في الغنىٰ والفقرِ ، وخشيةُ اللهِ في السرِّ والعلانيةِ »[1] .

فهٰذهِ شروطٌ ذكرَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأولي الإيمانِ ، فالعجبُ ممَّنْ يدَّعي علمَ الدينِ ولا يصادفُ في نفسهِ ذرَّةً مِنْ هٰذهِ الشروطِ ، ثمَّ يكونُ نصيبُهُ مِنْ علمِهِ وعقلِهِ أنْ يجحدَ ما لا يكونُ إلا بعدَ مجاوزةِ مقاماتٍ عظيمةٍ عليّةٍ وراءَ الإيمانِ .

وفي الأخبارِ :

أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعضِ أنبيائِهِ[2] : (إنَّما أتخذُ لخُلَّتي مَنْ لا يفترُ عنْ ذكري ، ولا يكونُ لهُ همٌّ غيري ، ولا يؤثرُ عليَّ شيئاً مِنْ خلقي ، وإنْ حُرِقَ بالنارِ . . لمْ يجدْ لحرْقِ النارِ وجعاً ، وإنْ قُطِّعَ بالمناشيرِ . . لمْ يجدْ لمسِّ الحديدِ ألماً)[3] .

فمَنْ لمْ يبلغْ إلىٰ أنْ يغلبَهُ الحبُّ إلىٰ هٰذا الحدِّ . . فمِنْ أينَ يعرفُ ما وراءَ الحبِّ مِنَ الكراماتِ والمكاشفاتِ ، وكلُّ ذلكَ وراءَ الحبِّ ، والحبُّ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٧٥) ، وهو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص١٣٠) ، وبنحوه رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٥٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) في (ع) : (أوليائه) بدل (أنبيائه) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٧٧) ، وقد قال : (وقد كان الحسن رحمه الله تعالىٰ يروي في الخلة أخباراً ، منها . . .) فذكره .

وراءَ كمالِ الإيمانِ ، ومقاماتُ الإيمانِ وتفاوتُهُ في الزيادةِ والنقصانِ لا حصرَ لهُ ؟!

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أعطاكَ مثلَ إيمانِ كلِّ مَنْ آمنَ بي مِنْ أمَّتي ، وأعطاني مثلَ إيمانِ كلِّ مَنْ آمنَ بهِ مِنْ ولدِ آدمَ »[1] .

وفي حديثٍ آخرَ :

« إنَّ للهِ تعالىٰ ثلاثَ مئةِ خُلُقٍ ، مَنْ لقيَهُ بخلقٍ منها معَ التوحيدِ .. دخلَ الجنَّةَ » .

فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ فيَّ خلقٌ منها ؟ فقالَ : « كلُّها فيكَ يا أبا بكرٍ ؛ وأحبُّها إلى اللهِ تعالى السخاءُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رأيتُ ميزاناً دُلِّيَ مِنَ السماءِ ، فوُضعتُ في كفَّةٍ ، ووُضعَتْ أمَّتي في كفَّةٍ ، فرجحتُ بهم ، ووُضعَ أبو بكرٍ في كفَّةٍ وجيءَ بأمَّتي فوُضعَتْ في كفَّةٍ ، فرجحَ بهِمْ »[3] .

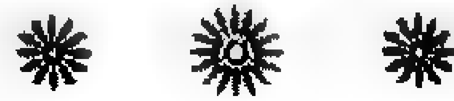
---

(١) كذا في « القوت » (٧٨/٢) ، وقد رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢٧٠) من حديث علي رضي الله عنه بنحوه .

(٢) كذا في « القوت » (٧٨/٢) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٠٤/٣٠) ، وجمع نحو هـٰذه الأخبار الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦٧٩/٩) .

(٣) كذا في « القوت » (٧٨/٢) ، ورواه أحمد في « المسند » (٢٥٩/٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

ومعَ هـٰذا كلِّهِ فقدْ كانَ استغراقُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ باللهِ تعالىٰ بحيثُ لمْ يتسعْ قلبُهُ للخُلَّةِ معَ غيرِهِ ، فقالَ : « لوْ كنتُ متخذاً مِنَ الناسِ خليلاً . . لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً ، ولكنْ صاحبُكُمْ خليلُ اللهِ تعالىٰ »[1] ؛ يعني : نفسَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .



(١) رواه البخاري (٤٦٦) ، ومسلم (٢٣٨٢ ، ٢٣٨٣) .

خاتمة الكتاب
بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها

قالَ سفيانُ : (المحبّةُ اتباعُ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[1] .

وقالَ غيرُهُ : (دوامُ الذكرِ)[2] .

وقالَ غيرُهُ : (إيثارُ المحبوبِ)[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : (كراهيةُ البقاءِ في الدنيا)[3] .

وهٰذا كلُّهُ إشارةٌ إلىٰ ثمراتِ المحبّةِ ، فأما نفسُ المحبّةِ .. فلمْ يتعرّضوا لها .

وقالَ بعضُهُمْ : (المحبّةُ معنىً مِنَ المحبوبِ قاهرٌ للقلوبِ ، تعجزُ القلوبُ عنْ إدراكِهِ ، وتمتنعُ الألسنُ عنْ عبارتِهِ)[2] .

وقالَ الجنيدُ : (حرّمَ اللهُ تعالى المحبّةَ علىٰ صاحبِ العلاقةِ)[4] .

وقالَ : (كلُّ محبّةٍ تكونُ بعوضٍ ، فإذا زالَ العوضُ .. زالَتِ المحبّةُ)[5] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٠) ، وسفيان هو ابن عيينة ، وسياق المصنف الآتي عنده .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٩) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٠) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٠) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٧٤) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٠) .

وقالَ ذو النونِ : (قلْ لمَنْ أظهرَ حبَّ اللهِ : احذرْ أنْ تذلَّ لغيرِ اللهِ)[1] .

وقيلَ للشبليِّ رحمهُ اللهُ : صفْ لنا العارفَ والمحبَّ ، فقالَ : العارفُ إنْ تكلَّمَ . . هلكَ ، والمحبُّ إنْ سكتَ . . هلكَ[2] .

وقالَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ[3] : [من مخلع البسيط]

يَا أَيُّهَا ٱلسَّيِّدُ ٱلْكَرِيمُ   حُبُّكَ بَيْنَ ٱلْحَشَا مُقِيمُ
يَا رَافِعَ ٱلنَّوْمِ عَنْ جُفُونِي   أَنْتَ بِمَا مَرَّ بِي عَلِيمُ

ولغيرِهِ[4] : [من الوافر]

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ ذَكَرْتُ رَبِّي   وَهَلْ أَنْسَىٰ فَأَذْكُرَ مَا نَسِيتُ
أَمُوتُ إِذَا ذَكَرْتُكَ ثُمَّ أَحْيَا   وَلَوْلَا حُسْنُ ظَنِّي مَا حَيِيتُ
فَأَحْيَا بِٱلْمُنَىٰ وَأَمُوتُ شَوْقاً   فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتُ
شَرِبْتُ ٱلْحُبَّ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ   فَمَا نَفِدَ ٱلشَّرَابُ وَمَا رَوِيتُ
فَلَيْتَ خَيَالَهُ نَصْبٌ لِعَيْنِي   فَإِنْ أَقْصَرْتُ فِي نَظَرِي عَمِيتُ

وقالَتْ رابعةُ العدويَّةُ يوماً : مَنْ يدلُّنا علىٰ حبيبنا ؟ فقالَتْ خادمةٌ لها :

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٧٣) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩١) .
(٣) ديوانه (ص ١٢٢) .
(٤) انظر « شرح نهج البلاغة » (١١/ ٧٩ـ ٢٣٥) .

حبيبُنا معَنا ، ولكنَّ الدنيا قطعَتْنا عنهُ[1] .

وقالَ ابنُ الجلاءِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ : إنِّي إذا اطلعتُ علىٰ سرِّ عبدٍ ، فلمْ أجدْ فيهِ حبَّ الدنيا والآخرةِ . . ملأتُهُ مِنْ حُبِّي ، وتوليتُهُ بحفظي)[1] .

وقيلَ : تكلَّمَ سمنونٌ يوماً في المحبَّةِ ، فإذا بطائرٍ نزلَ بينَ يديهِ ، فلمْ يزلْ ينقرُ بمنقارِهِ الأرضَ حتَّىٰ سالَ منهُ الدمُ فماتَ[2] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : (إلـٰهي ؛ إنَّكَ تعلمُ أنَّ الجنَّةَ لا تزنُ عندي جناحَ بعوضةٍ في جنبِ ما أكرمتَني مِنْ محبَّتِكَ ، وآنستَني بذكرِكَ ، وفرَّغتَني للتفكُّرِ في عظمتِكَ)[3] .

وقالَ السريُّ رحمهُ اللهُ : (مَنْ أحبَّ اللهَ . . عاشَ ، ومَنْ مالَ إلى الدنيا . . طاشَ ، والأحمقُ يغدو ويروحُ في لاشَ ، والعاقلُ عَنْ عيوبِهِ فتّاشٌ)[4] .

---

(١) أوردها الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٣) .

(٢) أوردها الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٣) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص٥٢٥) .

(٣) أوردها الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٤) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٥) .

(٤) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٦) ، ورواه ابن الطيوري في « الطيوريات » (١٠٣١) ، ولاش : لا شيء ، وجاءت هـٰكذا مراعاة للسجعة ، وهي لا تأتي كذلك إلا في الازدواج ونحوه ، وتقرأ الجمل مسكنة الآخر .

وقيلَ لرابعةَ : كيفَ حبُّكِ للرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟ فقالَتْ : واللهِ ؛ إنِّي لأحبُّهُ حباً شديداً ، ولكنْ حبُّ الخالقِ شغلَني عنْ حبِّ المخلوقينَ[1] .

وسُئِلَ عيسىٰ عليهِ السلامُ عنْ أفضلِ الأعمالِ ، فقالَ : الرضا عنِ اللهِ تعالىٰ والحبُّ لهُ[2] .

وقالَ أبو يزيدَ : (المحبُّ لا يحبُّ الدنيا ولا الآخرةَ ، إنَّما يحبُّ مِنْ مولاهُ مولاهُ)[3] .

وقالَ الشبليُّ : (الحبُّ دهشٌ في لذَّةٍ ، وحيرةٌ في تعظيمٍ)[3] .

وقيلَ : (المحبَّةُ أنْ تمحوَ أثرَكَ عنكَ حتَّىٰ لا يبقىٰ فيكَ شيءٌ راجعٌ منكَ إليكَ)[4] .

وقيلَ : (المحبَّةُ قربُ القلبِ مِنَ المحبوبِ بالاستبشارِ والفرحِ)[4] .

وقالَ الخوَّاصُ : (المحبَّةُ محوُ الإراداتِ ، واحتراقُ جميعِ الصفاتِ والحاجاتِ)[5] .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٦) ، ورواه الأزدي في « طبقات الصوفية » (ص٣٨٨) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٦) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٩) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠٠) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠١) .

وسُئِلَ سهلٌ عنِ المحبَّةِ فقالَ : (عطفُ اللهِ تعالىٰ بقلبِ عبدِهِ لمشاهدتِهِ بعدَ الفهمِ للمرادِ منه)[1] .

وقيلَ : (معاملةُ المحبِّ علىٰ أربعِ منازلَ : على المحبةِ ، والهيبةِ ، والحياءِ ، والتعظيمِ ، وأفضلُها التعظيمُ والمحبةُ ؛ لأنَّ هاتينِ المنزلتينِ يبقيانِ في الجنةِ معَ أهلِ الجنةِ ويُرفعُ عنهُمْ غيرُهُما)[1] .

وقالَ هَرِمُ بنُ حيَّانَ : (المؤمنُ إذا عرفَ ربَّهُ عزَّ وجلَّ . . أحبَّهُ ، وإذا أحبَّهُ . . أقبلَ عليهِ ، وإذا وجدَ حلاوةَ الإقبالِ عليهِ . . لمْ ينظرْ إلى الدنيا بعينِ الشهوةِ ، ولمْ ينظرْ إلى الآخرةِ بعينِ الفترةِ ، وهيَ تحسرُهُ في الدنيا ، وتروِّحُهُ في الآخرةِ)[2] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ : سمعتُ امرأةً مِنَ المتعبداتِ تقولُ وهيَ باكيةٌ ، والدموعُ علىٰ خدِّها جاريةٌ : واللهِ ؛ لقدْ سئمتُ مِنَ الحياةِ ، حتَّىٰ لوْ وجدتُ الموتَ يُباعُ . . لاشتريتُهُ شوقاً إلى اللهِ تعالىٰ وحباً للقائِهِ ، قالَ : فقلتُ لها : فعلىٰ ثقةٍ أنتِ مِنْ عملِكِ ، قالَتْ : لا ، ولكنْ لحبِّي إيَّاهُ وحسْنِ ظنِّي بهِ أفتراهُ يعذِّبُني وأنا أحبُّهُ ؟![3] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (لوْ يعلمُ المدبرونَ عنِّي كيفَ انتظاري لهُمْ ، ورفقي بهِمْ ، وشوقي إلىٰ تركِ معاصيهِمْ . . لماتوا شوقاً

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠١) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠٢) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠٨) .

إليَّ ، وتقطَّعَتْ أوصالُهُمْ مِنْ محبَّتي ، يا داوودُ ؛ هـٰذهِ إرادتي في المدبرينَ عنِّي ، فكيفَ إرادتي في المقبلينَ عليَّ ؟! يا داوودُ ؛ أحوجُ ما يكونُ العبدُ إليَّ إذا استغنىٰ عنِّي ، وأرحمُ ما أكونُ بعبدي إذا أدبرَ عنِّي ، وأجلُّ ما يكونُ عندي إذا رجعَ إليَّ)(١) .

وقالَ أبو خالدٍ الصفَّارُ : (لقيَ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ عابداً ، فقالَ لهُ : إنَّكُمْ معاشرَ العبَّادِ تعملونَ علىٰ أمرٍ لسنا معاشرَ الأنبياءِ نعملُ عليهِ ، أنتمُ تعملونَ على الخوفِ والرجاءِ ، ونحنُ نعملُ على المحبَّةِ والشوقِ)(٢) .

وقالَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ : (أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : يا داوودُ ؛ ذكري للذاكرينَ ، وجنَّتي للمطيعينَ ، وزيارتي للمشتاقينَ ، وأنا خاصَّةً للمحبِّين)(٢) .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ آدمَ عليهِ السلامُ : (يا آدمُ ؛ مَنْ أحبَّ حبيباً . . صدَّقَ قولَهُ ، ومَنْ أنسَ بحبيبِهِ . . رضيَ فعلَهُ ، ومَنِ اشتاقَ إليهِ . . جدَّ في مسيرِهِ)(٣) .

وكانَ الخوَّاصُ رحمهُ اللهُ يضربُ علىٰ صدرِهِ ويقولُ : (واشوقاهُ لمَنْ يراني ولا أراهُ)(٤) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠٨) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠٩) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١٠) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١٠) .

وقالَ الجنيدُ : بكىٰ يونسُ عليهِ السلامُ حتَّىٰ عميَ ، وقامَ حتَّى انحنىٰ ، وصلَّىٰ حتىٰ أُقعدَ ، وقالَ : وعزَّتِكَ وجلالِكَ ؛ لوْ كانَ بيني وبينَكَ بحرٌ مِنْ نارٍ . . لخضتُهُ إليكَ شوقاً منِّي إليكَ(١) .

وعنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ قالَ : سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ سنَّتِهِ فقالَ : « المعرفةُ رأسُ مالي ، والعقلُ أصلُ ديني ، والحبُّ أساسي ، والشوقُ مركبي ، وذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ أنيسي ، والثقةُ كنزي ، والحزنُ رفيقي ، والعلمُ سلاحي ، والصبرُ ردائي ، والرضا غنيمتي ، والعجزُ فخري ، والزهدُ حرفتي ، واليقينُ قوتي ، والصدقُ شفيعي ، والطاعةُ حسبي ، والجهادُ خلقي ، وقرَّةُ عيني في الصلاةِ »(٢) .

وقالَ ذو النونِ : (سبحانَ مَنْ جعلَ الأرواحَ جنوداً مجندةً ، فأرواحُ العارفينَ جلاليَّةٌ قدسيَّةٌ ، فلذلكَ اشتاقوا إلى اللهِ تعالىٰ ، وأرواحُ المؤمنينَ روحانيَّةٌ ، فلذلكَ حنُّوا إلى الجنَّةِ ، وأرواحُ الغافلينَ هوائيَّةٌ ، فلذلكَ مالوا إلى الدنيا)(٣) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١١) .

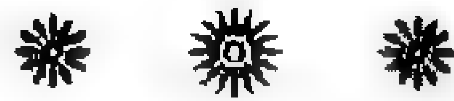
(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١٢) ، وكذا أورده القاضي عياض في « الشفا » (ص١٩١) ، وقال الحافظ العراقي : (ولم أجد له إسناداً) . « إتحاف » (٩/ ٦٨٤) ، وزاد : (وسئل عنه الحافظ ابن حجر في « فتاويه » فقال : لا أصل له) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١٢) .

وقالَ بعضُ المشايخِ : رأيتُ في جبلِ لكامِ رجلاً أسمرَ اللونِ ، ضعيفَ البدنِ ، وهوَ يقفزُ مِنْ حجرٍ إلىٰ حجرٍ وهوَ يقولُ : الشوقُ والهوىٰ صيَّراني كما ترىٰ(١) .

ويُقالُ : الشوقُ نارُ اللهِ تعالىٰ ، أشعلَها في قلوبِ أوليائِهِ ، حتَّىٰ يحرق بها ما في قلوبِهِمْ مِنَ الخواطرِ والإراداتِ ، والعوارضِ والحاجاتِ(٢) .

فهـٰذا القدْرُ كافٍ في شرحِ المحبَّةِ والأنسِ والشوقِ والرضا ، فلنقتصرْ عليهِ ، واللهُ الموفِّقُ للصوابِ .



تمَّ كتابُ المحبَّة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله أولاً وآخراً ، والصلاة على رسوله وآله ظاهراً وباطناً

يتلوه كتاب النيّة والإخلاص والصدق

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١٢) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١٣) .

مُحتوى الكتاب
رُبعُ المُنجيات/ القِسمُ الثّاني